

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة حسية بن بوعلی الشلف
كلية: العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم : التاريخ



أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه

الشعبة: التاريخ

التخصص : تاريخ حديث ومعاصر

العنوان

الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي
خلال القرنين 18 و 19م

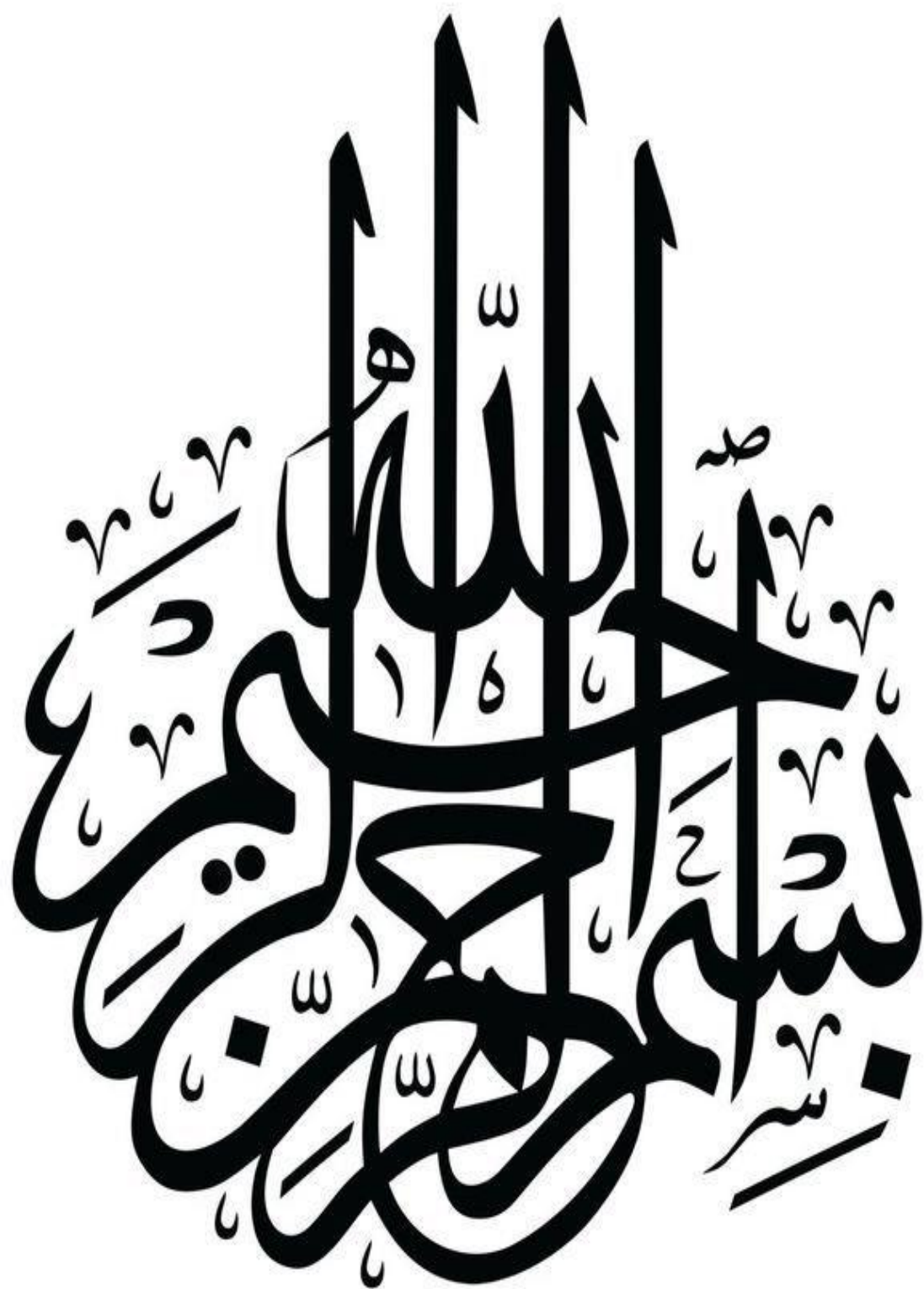
تحت إشراف
أ.د خالدي بلعربي

من إعداد
جيلالي زورقي وردة

المناقشة بتاريخ 12 / 06 / 2025 من طرف اللجنة المكونة من:

رئيسا	أ.د شبوب محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة الشلف
مشرفا ومقررا	أ.د خالدي بلعربي	استاذ التعليم العالي	جامعة الشلف
ممتحنا	د. مخلوفي جمال	استاذ محاضر أ	جامعة الشلف
ممتحنا	أ.د فارس العيد	استاذ التعليم العالي	جامعة الشلف
ممتحنا	أ.د ودان بوغفالة	استاذ التعليم العالي	جامعة تيارت
ممتحنا	أ.د تونزة محفوظ	استاذ التعليم العالي	جامعة خميس مليانة

الموسم الجامعي : 2024-2025





كلمة شكر

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .
لا يفوتني في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل، و الاعتراف
الصادق لأستاذي الفاضل المشرف الأستاذ الدكتور " **خالدي بلعربي** "، لما قدمه
لي من تشجيع و توجيه و نصح طوال
مدة إشرافه، أشكره على صبره و سعة صدره لأنه تحمل
استفساراتي و أسئلتني، أشكره على ما قدمه لي من توجيهات و ملاحظات سديدة
خلال العمل في هذا البحث، فجزاه الله خير الجزاء.



الإهداء

أهدي هذا العمل إلى من أحمل اسمه بكل فخر، إلى من حصد الأشواق

عن دربي ليمهد لي طريق العلم

"أبي الغالي"

كما أهدي هذا العمل إلى اليد الخفية والقلب الحنون وصاحبة الدعاء الصادق

"أمي الغالية"

وإلى إخوتي الصغار محمد وبصيرة وآية

قائمة المختصرات

R .A	: Revue Africaine
	: The Journal of North African Studie
	: The Journal of British studies
	Prague Journal Of English Studies
	P.J.E. :
S.T.W	: Studies in Travel Writing
T	: Tome
Trad	: Traduit
المرجع ق	the work cited
Ibedem	: نفس المرجع و نفس الصفحة in the same page
	نفس المرجع و لكن الصفحة مغايرة The same source but differente the page
P	: Page

ترجمة	:	تر
مراجعة	:	مر
الطبعة	:	ط
الجزء	:	ج
تحقيق	:	تح
تقديم و تعليق	:	تق و تع

المقدمة

مقدمة :

عرفت العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولات مهمة، حيث ساهمت التطورات السياسية والاقتصادية للمنطقة في شد انتباه الإنجليز إلى هذه البقعة الاستراتيجية من العالم. ونتيجة لذلك، شهدت تلك الفترة تدفقاً كبيراً للكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي، والتي تنوعت بين تقارير رسمية من قِبل موظفين حكوميين، ورحلات مكتوبة من قِبل مستكشفين ومسافرين، وروايات أدبية كتبها الأسرى.

وتكتسي تلك الكتابات أهمية خاصة نظراً لمختلف المواضيع التي تطرقت إليها، وقد تأثرت بعوامل متعددة لعل أبرزها السياسات الاستعمارية، والمصالح التجارية، فضلاً عن الاهتمامات العلمية والثقافية لمؤلفيها. ويتطلب فهم هذه النصوص تحليلاً نقدياً دقيقاً يأخذ في الاعتبار السياق التاريخي والتحيزات المحتملة، مما يتيح تكوين رؤية أكثر شمولية ودقة عن المجتمعات المغاربية في تلك الحقبة التاريخية.

لقد تميزت تلك الكتابات بتنوع أساليبها التي تراوحت بين الغرائبي والخيالي من جهة، والسرد والوصفي من جهة أخرى، مع حضور لافت لعناصر الدقة والواقعية التي غالباً ما تداخلت مع نبرات السخرية والمقارنة.

شكلت تلك النصوص، بتنوعها وتناقضاتها، جزءاً لا يتجزأ من المشروع الاستعماري المعرفي الأوسع، حيث تداخلت فيها عناصر الفضول العلمي مع الدوافع السياسية والاقتصادية. ويمكن تتبع هذا التداخل من خلال تحليل الطريقة التي وظف بها الكتاب الإنجليز الأساليب المختلفة في نصوصهم، من الوصف الدقيق للجغرافيا والعادات الاجتماعية، إلى السرد الخيالي الذي يستجيب لتطلعات القارئ الأوروبي وتصوراته المسبقة عن "الشرق الغامض".

أدى هذا التنوع في الأساليب إلى خلق صورة مركبة ومتناقضة في كثير من الأحيان عن المجتمعات المغاربية، تتأرجح بين الإعجاب والنفور، بين محاولة الفهم الموضوعي والإسقاط الذاتي للتصورات الإنجليزية.

أهمية الموضوع :

تكتسي دراسة الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أهمية بالغة تتجلى في ثلاثة جوانب رئيسية هي المنهجية والعلمية والتقنية. فمن الناحية المنهجية، تكمن أهمية هذه الدراسة في الكشف عن رؤية "الآخر" للمجتمع المغربي من خلال

الكتابات الإنجليزية، إذ يتطلب البحث التاريخي الرصين دراسة وجهات نظر جميع أطراف الحدث التاريخي وعدم الاكتفاء بالمصادر المحلية فقط. وتُشكل هذه المقاربة المزدوجة التي تجمع بين المصادر المحلية والإنجليزية ضرورة منهجية تفتقر إليها "المدرسة التاريخية المغربية" في كثير من الأحيان.

أما الأهمية العلمية، فتتجلى في كون هذه الكتابات تمثل مصدراً معرفياً مهماً لفهم التحولات الفكرية والمعرفية التي شهدتها إنجلترا في تلك الفترة التي عرفت باسم عصر التنوير **Age of Enlightenment**. فقد تزامنت هذه الكتابات مع ظهور المنهج العلمي الحديث في الدراسات الإنسانية، والذي اتسم بالملاحظة المنظمة والتوثيق الدقيق والتحليل المنهجي. كما تعكس هذه الكتابات تطور العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية في أوروبا، وظهور مناهج جديدة في دراسة المجتمعات والثقافات. وتكتسب هذه الكتابات أهمية خاصة لكونها تمثل مرحلة انتقالية في تطور المعرفة الغربية عن العالم الإسلامي، حيث انتقلت من النظرة الأسطورية والخيالية إلى محاولة الفهم العلمي المنظم، رغم ما شاب ذلك من تحيزات استعمارية.

وعلى الصعيد التقني، تبرز أهمية هذه الكتابات في كشف النقاب عن الحقائق التاريخية التي سجلتها في وصفها وتحليلها للمجتمع المغربي، وإمالة اللثام عن المضامين الحقيقية لهذه الكتابات وما تخفيه بين طياتها من أبعاد استعمارية.

دواعي اختيار الموضوع:

تتعدد دواعي اختيار هذا الموضوع وتتشابه في تعددها مع طبيعة الحدث التاريخي نفسه، فكما أن الحدث التاريخي لا يرجع في الأساس إلى سبب واحد فقط، بل إلى تراكمات عدة أسباب وظروف معينة، فإن اختيارنا لهذا الموضوع يعود كذلك إلى تراكمات وظروف متعددة.

تعود بداية الاهتمام بموضوع هذه الأطروحة إلى مرحلة الماجستير، حيث قمت بإنجاز مذكرة بعنوان "الواقع السياسي والعسكري للجزائر خلال فترة الدايات علي ضوء الكتابات الأجنبية". وفي تلك الفترة، لاحظت وجود عدد كبير من الكتابات الإنجليزية التي لم تحظَ بالدراسة الكافية، في حين اتجه معظم الباحثين نحو المصادر الفرنسية. من هنا تبلور موضوع أطروحتنا: "الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر". كان الأمر في البداية مجرد فكرة تطورت مع الوقت، وبفضل التشجيع المتواصل من الأستاذ المشرف، لتصبح مشروعاً متكاملًا، خاصة أن مشروع الدكتوراه الذي نجحت فيه كان يتناول المجتمع المغربي خلال العصر الحديث والمعاصر.

وقد ترافق ذلك مع مجموعة من الأسباب والعوامل الأخرى، نوجزها فيما يلي:

- تطورت ميولي الشخصية، كباحثة نحو هذا الموضوع، إذ بدأت كهواية للقراءة، ثم تحولت إلى موضوع بحث أكاديمي يركز على الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي.
- اهتمامي العميق بهذا النوع من الدراسات التاريخية، ورغبتني في الاطلاع على إسهامات المؤرخين الإنجليز.
- الرغبة في المساهمة في إثراء هذا المجال البحثي، نظراً لقلة الدراسات التاريخية التي تناولت هذه المواضيع اعتماداً على المصادر الإنجليزية.
- السعي للتحقق من مصداقية كتابات الرحالة والأسرى والقناصل الإنجليز عن المجتمع المغربي، ومقارنتها مع المصادر الأجنبية الأخرى والمصادر المحلية.
- الرغبة في إبراز دور المؤرخين الإنجليز في جمع المادة التاريخية العلمية المتعلقة بالمجتمع المغربي.
- توفر مصادر جديدة تتناول المجتمع المغربي لم تتم دراستها من قبل.
- التشجيع المستمر من الأستاذ المشرف على تناول هذا الموضوع، والذي شكل حافزاً قوياً، خاصة مع وضع الخطة التي أصبحت فهرساً للأطروحة.

الإشكالية :

ننوه ونوضح أن عملنا هذا لا يدرس أحداثاً تاريخية بحتة، بل نتعامل مع كتابات تاريخية تناولت أحداثاً تاريخية. وعليه، فإن دراستنا ستتميز "بالوصفية" أولاً، فنحن نصف كيف تناولت المصادر الإنجليزية تلك الأحداث التاريخية، ولا نتناول كيفية حدوثها. فالمبتغى إذن يتجاوز الحدث التاريخي كواقعة، ويذهب إلى تحليل الكيفية التي تناولت بها المصادر الإنجليزية ذلك الحدث التاريخي. ومن أجل ذلك، ستسعفنا الإشكالية التي تكون وفق الصيغة التالية:

ما مدى تجاوز الكتاب الإنجليز للصورة النمطية في كتاباتهم عن المجتمعات المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟

لا شك أن الخوض في إشكالية بهذا الحجم وبهذه الميزة التقنية يلزمنا "باستعراض الأحداث التاريخية" كما أوردتها المصادر الإنجليزية، ثم نعكف على تقديم دراسة تحليلية تقنية لتلك الدراسات. ومن أجل ذلك سنفكك تلك الإشكالية كما يلي:

- كيف كانت العلاقات البريطانية مع الدول المغربية؟

- ما لتركيبية الثقافية للكتاب الانجليزي ؟
- ما مدى موضوعية هذه الكتابات وحدود مصداقيتها؟
- ما الآليات التي اعتمدها الخطاب الاستشراقي الإنجليزي في إنتاج المعرفة حول المجتمع المغربي؟
- ما الأبعاد الإبستمولوجية والأيدولوجية التي شكلت المعرفة الإنجليزية عن المجتمع المغربي؟
- كيف أثرت العوامل السياسية والثقافية والاجتماعية في تشكيل هذه الصورة وتطورها؟
- ما الأهمية التاريخية للكتابات المصدرية الإنجليزية؟
- ما دور الكتابات الإنجليزية في التوظيف السياسي والعسكري في دعم الحركة الاستعمارية؟

المنهج المتبع :

ونحن على أبواب التخرج في مرحلة الدكتوراه في تخصص تاريخ المجتمع المغربي، نرى أنه من الضروري تقديم دراسة وفق المناهج التي تدريبنا عليها خلال مسيرتنا العلمية. ولا شك أن المنهج التاريخي يأتي في مقدمة هذه المناهج، إذ يمثل الالتزام به معياراً ومؤشراً حقيقياً للحكم على الطالب وتقييمه.

في هذه الأطروحة التي تتناول موضوعاً تاريخياً مهماً، نلتزم التزاماً كلياً بالمنهج التاريخي، ونسعى من خلاله إلى ضبط التسلسل التاريخي للأحداث التي ندرسها. وقد حرصنا حرصاً شديداً على الالتزام بعناصر هذا المنهج حتى يخرج عملنا في صورة علمية متناسقة. أما في الفصل الرابع الذي يحمل طابعاً تقنياً، فقد اعتمدنا على التحليل والتفسير والمقارنة.

وحتى لا يظن القارئ أننا لم نلتزم بالمنهج والتسلسل التاريخي في عرض الأحداث، نوضح أن تقسيم الخطة التي اعتمدناها كان موضوعياً وليس زمنياً. ولذا، لا بد من الإشارة إلى أن التحقيق الزمني للدراسة قد خضع لمعايير منهجية صارمة، تراعي التحولات التاريخية الكبرى في المنطقة المغربية:

- بالنسبة للجزائر: توقفت الدراسة عند عام 1830م، وهو العام الذي شهد بداية الاحتلال الفرنسي، باعتباره نقطة تحول جذرية في تاريخ البلاد وانتقالها من العصر الحديث إلى المرحلة الاستعمارية.
- أما في حالة تونس والمغرب الأقصى وطرابلس الغرب: فقد امتدت الدراسة إلى ما بعد 1830م، نظراً لاستمرار حكمهم المحلي واستقلالهم النسبي حتى فترات لاحقة :

- تونس: خضعت للحماية الفرنسية عام 1881م
- المغرب الأقصى: فُرضت عليها الحماية عام 1912م
- طرابلس: لم تُحتل إلا في عام 1911م من قبل إيطاليا

وقد مكّنتنا هذه المقاربة التحقيقية المرنة من تتبع تطور المجتمع المغربي في كل قُطر وفقاً لظروفه التاريخية الخاصة، مع الحفاظ على الدقة المنهجية في تحديد نهاية العصر الحديث لكل منطقة.

خطة البحث :

ساهمت عدة عناصر ومؤشرات في ضبط الموضوع وتقسيمه، حيث كانت الخطة التي اعتمدناها نتيجة حتمية لعاملين أساسيين: الأول طبيعة العنوان، والثاني المادة العلمية التي حصلنا عليها. وقد جاءت دراستنا وفق الخطة المعروضة أمامكم كفهرس، وسنقوم في الشرح التالي بعرض الخطة وتوضيح أسباب اعتماد العناوين الواردة في الفصول.

تشكل الإطار العام للخطة من مقدمة وأربعة فصول، حيث احتوى كل فصل على ثلاثة إلى ستة مباحث حسب متطلباته، وتضمن كل مبحث مطالب متفاوتة العدد حسب عنوانه، ثم خُتم البحث بخاتمة وملاحق.

وفيما يخص الفصل الأول، فقد اعتمدنا إطاراً معرفياً هدفنا من خلاله إلى تهيئة القارئ للفترة التاريخية المدروسة، مع وضعه في السياق التاريخي العام للعلاقات البريطانية مع الدول المغربية. وقد تناول هذا الفصل العلاقات البريطانية-المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مستعرضاً الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع التطرق إلى تأثير الشخصية الإنجليزية على السياسة البريطانية تجاه المنطقة المغربية.

أما الفصل الثاني، فقد خُصص لدراسة طبيعة الكتابات الإنجليزية التي تميزت بتنوعها وثراء محتواها، إذ شملت التقارير الدبلوماسية، ومذكرات الأسرى، وكتابات الرحالة، والتقارير التجارية. وتكمن أهمية هذه المصادر في كونها تقدم رؤية خارجية للمجتمع، حيث إن مؤلفيها لا ينتمون إلى النسيج الإثني والأيدولوجي والثقافي للمنطقة، مما يمنح دراساتهم بُعداً تحليلياً مختلفاً.

وفي الفصل الثالث، تناولنا واقع المجتمع المغربي من خلال الكتابات الإنجليزية، حيث درسنا الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكيفية تصوير هذه الكتابات لذلك الواقع.

أما الفصل الرابع والأخير، حيث خُصص للدراسة النقدية والتحليلية للكتابات الإنجليزية. وقد تناولنا فيه أساليب الكتابة لدى المؤلفين الإنجليز التي تنوعت بين الأسلوب الغرائبي والساحر والمقارن والخيالي والسردي والوصفي، مع دراسة مصادر هذه الكتابات ودوافعها وأهميتها كمصادر في التأريخ للمجتمع المغربي، ودورها في التوظيف السياسي والعسكري للحركة الاستعمارية.

وأخيراً، اختتم البحث بخاتمة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات والنتائج التي توصلنا إليها في كل مرحلة، وأرقت بمجموعة من الملاحق المهمة، وذلك لسد الثغرات والنقائص من جهة، ولتدعيم أطروحتنا وأفكارنا من جهة أخرى.

البibliوغرافيا :

كانت نقطة بداية بحثنا من خلال بعض الدراسات السابقة. وبالرغم من قلتها، إلا أننا عثرنا على بعض الدراسات التي شكلت منطلقاً للبحث وساعدتنا في تتبع مراحلها من القراءة الأولية إلى الضبط النهائي للخطّة والبحث في جميع مراحلها. ومن خلال قراءتنا وتمحيصنا، تكونت لدينا نظرة معرفية ومنهجية شاملة عن دراستنا، كما بصّرتنا بالصعوبات التي واجهت الباحثين السابقين، مما مكننا من محاولة تفاديها والتغلب عليها.

ومن بين هذه الدراسات، نذكر دراسة رونالد لوبيل **Ronald Lebel** بعنوان :

"Le Maroc chez les auteurs anglais du XVIe au XIXe Siècle"

التي نوقشت في جامعة السوربون Sorbonne سنة 1926م، ونُشرت في صورة كتاب سنة 1939م. وقد اعتمدنا في دراستنا على نسخة الكتاب. تركّزت هذه الدراسة بشكل مفصل على الكتابات الإنجليزية حول المغرب من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، واستقينا منها المعلومات المتعلقة بالرحالة والأسرى والقناصل الذين قدموا إلى المغرب، وأساليب الكتابة لدى الإنجليز.

علاوة على ذلك، اعتمدنا على أطروحة دكتوراه للباحثة سارة الغدري Sara El Ghadri بعنوان :

"British Diplomatic Engagement with North Africa: Consular Activity in Tripoli 1795-1832"

درست فيها الباحثة العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وطرابلس الغرب، واستفدنا منها في دراسة العلاقات بين البلدين ودور القناصل في جمع المعلومات الاستخباراتية وطريقة توظيفها.

أما عن البيبليوغرافيا المصدرية التي استعنا بها في دراسة الموضوع، فقد اعتمدنا على كتب الرحالة والقناصل والأسرى.

ومن أبرز هذه المصادر كتاب الرحالة الإنجليزي توماس شو Thomas Shaw ، الذي قام برحلة استكشافية شاملة في البلاد المغاربية امتدت لاثنتي عشرة سنة (1732-1720م). وقد وثق مشاهداته وملاحظاته في كتابه الشهير

"Travels or Observation Relation to Several Parts of Barbary and Levant"

الذي يعد من أهم المصادر التاريخية التي تناولت المنطقة المغاربية في القرن الثامن عشر الميلادي.

تميز شو بمنهجية العلمية الدقيقة في التوثيق والوصف، حيث جمع بين دراسة الجغرافيا القديمة والملاحظة المباشرة للواقع، معتمداً على خلفيته العلمية المتنوعة في مجالات الآثار والتاريخ الطبيعي وعلم النبات. وقد أفدنا هذا المصدر في التعرف على واقع المجتمع المغاربي، خاصة وأن مؤلفه استفاد من إقامته الطويلة كقسيس للقنصلية البريطانية في الجزائر. ورغم القيمة العلمية الكبيرة لكتابه، إلا أنها لم تخل من التحيزات الثقافية والدينية التي طبعت نظره للمجتمع المغاربي، مما استدعى تعاملنا مع محتواها بنظرة نقدية متوازنة.

ومن المصادر المهمة الأخرى التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، كتابات وليام لومبرير William Lempiere، وهو طبيب عسكري إنجليزي، زار المغرب سنة 1789 وقد وثق مشاهداته في كتابه الشهير:

"A Tour From Gibraltar to Tangier, Salle, Mogador, Santa Cruz"

وقد اعتمدنا على النسخة المترجمة إلى الفرنسية سنة 1801 بعنوان :

"Voyage dans l'empire du Maroc et le Royaume de Fez fait pendant les années 1790 et 1791"

يمتاز كتاب لومبريير بوصفه للحياة داخل قصر السلطان وقدم لنا نظرة عن جوانب متنوعة من الحياة المغربية، وقد استفدنا من هذا المصدر في وصف الحياة الاجتماعية في المغرب. ورغم ذلك، لم يخل كتاب لومبريير من التحيز والنظرة الاستعمارية الأوروبية. فرغم قيمة معلوماته التاريخية، إلا أن وصفه للمجتمعات المحلية وعاداتها غالباً ما جاء متأثراً بخلفيته الثقافية الغربية وأحكامه المسبقة، مما يستدعي التعامل مع شهادته بحذر منهجي وقراءة نقدية متأنية.

كما اعتمدنا في دراستنا على توماس ماكجيل **Thomas MacGill**، التاجر البريطاني الذي زار تونس سنة 1806م، وخلال إقامته في تونس شرع في جمع المعلومات عنها وسجل انطباعاته ومشاهداته في كتابه المعنون ب:

"An Account of Tunis of its Government, Manners, Customs and Antiquities, especially Productions, Manufactures and Commerce"

حيث عرّف بالبلاد التونسية وبأهميتها التجارية كما اهتم بسياسة حمودة باشا، وقد اعتمدنا على هذا المصدر في فهم سياسة بريطانيا تجاه الدول المغاربية والعلاقات التجارية بين بريطانيا وتونس وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية. إلا أن رؤيته تظل محكومة بخلفيته كتاجر بريطاني يسعى لخدمة مصالح بلاده في صراعها مع فرنسا. ويتجلى هذا التحيز في تصريحه الصريح في مقدمة الكتاب عن رغبته في وضع معرفته في خدمة بريطانيا لمواجهة ما أسماه "طاغية فرنسا". وبالتالي، فإن تحليلاته للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تونس تتأثر بهذا المنظور الاستعماري، مما يستدعي التعامل مع محتوى الكتاب بحذر وقراءته في سياقه التاريخي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هدفه الأساسي كان استكشاف فرص تعزيز النفوذ التجاري البريطاني في المنطقة. ومع ذلك، تبقى قيمة الكتاب في كونه يوثق مرحلة مهمة من تاريخ العلاقات البريطانية-التونسية ويقدم معلومات قيمة عن مختلف جوانب الحياة في تونس آنذاك، وإن كانت منقولة عبر عدسة استعمارية.

اعتمدنا أيضاً على إليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton**، ابنة القنصل الإنجليزي هنري ستانفورد بلانكي **Henry Stanfyord Blankey** الذي شغل منصب القنصل العام

البريطاني بالجزائر من 1806-1812. وفي سن السادسة، رافقت إليزابيث والديها إلى الجزائر حيث ألقت كتابًا مدعمًا بذكرياتها ومذكرات أمها والمعنون ب:

"Six Years Residence in Algiers"

يتضمن هذا المصدر شهادات وحقائق وكذلك مواقف صادقة في كثير من الأحيان. وبفضل مكانة والدها ومعرفة، تطرقت إلى نقاط القوة والضعف في الجزائر. خدمنا هذا الكتاب كثيرًا في فهم علاقة السلطة بالمجتمع، وتمكنا من التطرق إلى مواضيع داخل المجتمع لم يتمكن أي رحالة من الذكور من التطرق إليها. غير أنه يحمل في طياته آراء ومواقف عدائية تجاه الجزائر. ومن اللافت للنظر استخدام الكاتبة لمصطلحات عكست النظرة الاستعمارية السائدة في العصر الفيكتوري، مثل "بربري" و"عبد" و"كافر" و"طاغية".

اعتمدنا أيضًا على كتاب إيميلي كين **Emily Keene** المعنون بـ **"My Life Story"** وهي امرأة إنجليزية تزوجت من رجل صوفي مغربي يُدعى شريف وزان. يعتبر كتاب إيميلي كين مصدرًا قيمًا لفهم المجتمع المغربي في ذلك الوقت، وذلك من وجهة نظرها باعتبارها زوجة إحدى الشخصيات البارزة في المغرب. لذلك يمكن اعتبار كتابها من أفضل المصادر الإنجليزية التي وصلتنا حول المجتمع المغربي. إذ لم تكن إيميلي مجرد زائرة أو باحثة عن التفاصيل عن هذا البلد، بل دخلت في صميم المجتمع المغربي بصفتها زوجة لإحدى الشخصيات البارزة في تلك الفترة. بذلك اقتربت من العديد من الشخصيات الدبلوماسية والمخرنية، واكتشفت عالم النساء المغربيات وتبنت زيهن.

استفدنا أيضًا من أعمال الرحالة جيمس ريتشاردسون **James Richardson** التي تمثلت في كتابين مهمين حول طرابلس والمغرب. أولهما

"Travels in The Great Desert of Sahara in The Years of 1845-1846"

الذي يتكون من جزأين يتناول فيهما رحلته إلى طرابلس، وثانيهما

"Travels in Morocco"

الذي نشرته زوجته بعد وفاته ويتناول رحلته إلى المغرب.

رغم القيمة العلمية والتوثيقية لهذين المصدرين، إلا أن التحليل النقدي لكتابات ريتشاردسون يكشف عن تناقضات عميقة في خطابه الاستعماري، حيث يتأرجح بين ادعاء تبني مبدأ المساواة الإنسانية من جهة، وتصوير المجتمعات المغاربية كمجتمعات متخلفة تحتاج إلى "إنقاذ" من جهة أخرى، مما يستدعي التعامل مع محتواها بحذر وموضوعية.

اعتمدت الدراسة كذلك على مذكرات ماريا مارتين **Maria Martin**، الأسيرة البريطانية في الجزائر، والتي حملت عنوان :

"Six Years Captivity in Algiers"

وقد أفادتنا في دراستنا باستقاء بعض الشهادات عن الحياة اليومية من داخل المجتمع، حيث مكنت معاشتهم القسرية من فهم عميق للعادات والتقاليد.

كما استندت الدراسة إلى مذكرات الأسير توماس بيلو **Thomas pellow** في المغرب الموسومة ب:

"The History of the Long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in South Barbary".

تكمن أهمية هذا المصدر في أن مؤلفه قضى ثلاثاً وعشرين سنة أسيراً في المغرب، وتقلد مناصب قربته من السلطة المركزية، مما أتاح له الاطلاع على جوانب متعددة من الحياة المغربية، فقدم معلومات قيمة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

على الرغم من أهمية هذين المصدرين، إلا أن كتابات ماريا مارتين وتوماس بيلو، شأنها شأن معظم كتابات الأسرى الأوروبيين، اتسمت بنظرة متحيزة ومشاعر عدائية تجاه المجتمعات الإسلامية التي أسروا فيها. يمكن تفسير هذا التحيز في ضوء الظروف التاريخية التي عاشوها، حيث حرص الأسرى العائدون إلى أوطانهم على تقديم أنفسهم للجمهور الأوروبي المسيحي كأبطال صمدوا أمام محاولات إجبارهم على اعتناق الإسلام، وحافظوا على عقيدتهم المسيحية رغم المحن التي تعرضوا لها. وهذا ما يجعل التعامل مع هذه المذكرات الاسرى يتطلب حذراً منهجياً وقراءة نقدية متأنية.

واستفادت الدراسة أيضاً من كتاب المؤرخ البريطاني بلايفير **Playfair** المعنون ب :

"The Scourge of Christendom: Annals of British Relations with Algiers Prior to French Conquest".

وتبرز قيمة هذا المصدر في اعتماده على الوثائق الأرشيفية البريطانية في دراسة العلاقات بين البلدين.

كما اعتمدت الدراسة على أعمال المؤرخ نبيل مطر، وخاصة كتابه "الأتراك والمغاربة والإنجليز في عصر الاكتشاف"

"Turks, Moors & Englishmen in the Age of Discovery"

ودراسته المنشورة في مجلة **Journal of British Studies** بعنوان:

"Islam in Britain 1689-1750".

كما شكل كتاب "عيون إمبريالية **Imperial Eyes**" للمؤرخة ماري لويز برات **Mary louise Pratt** مرجعاً أساسياً في دراستنا، حيث قدم لنا منهجية تحليلية متميزة في فهم الأساليب الكتابية التي اعتمدها الرحالة الإنجليز في تدوين مشاهداتهم. وقد ساعدتنا هذه الدراسة في تحديد وتحليل مختلف الأنماط الخطابية التي وظفها هؤلاء الرحالة. وقد مكنا هذا المرجع من فهم أعمق للخلفيات الثقافية والفكرية التي أثرت في تشكيل الرؤية الإنجليزية للمجتمعات المغاربية خلال الفترة المدروسة، مما ساهم في تطوير قراءة نقدية متوازنة لهذه المصادر التاريخية.

الصعوبات البحثية:

واجهت الدراسة عدداً من التحديات، أبرزها:

1. العائق اللغوي، إذ اعتمدت الأطروحة بشكل رئيس على المصادر الإنجليزية. حاولنا تجاوز هذه العقبة من خلال تحسين مهارتنا اللغوية تدريجياً خلال فترة البحث.
2. شكلت المصادر التاريخية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحدياً خاصاً بسبب طبيعة لغتها الإنجليزية القديمة، التي تميزت بأسلوب معقد ومصطلحات مختلفة عن اللغة المعاصرة. تطلب هذا جهداً مضاعفاً لفهم النصوص وتحليل محتواها، خاصة مع خصوصية المصطلحات المستخدمة في تلك الفترة التاريخية.

3. صعوبة الوصول إلى الوثائق الأرشيفية المحفوظة في دار المحفوظات البريطانية، شكلت تحدياً إضافياً، رغم المحاولات المتكررة للتواصل لم تثمر الجهود عن نتائج ملموسة.

وختاماً، نأمل أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في إثراء المعرفة التاريخية حول المجتمع المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأن تشكل إضافة علمية في هذا المجال.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18 و 19 م

أولا : علاقات بريطانيا مع الجزائر العثمانية

ثانيا : علاقات بريطانيا مع تونس العثمانية

ثالثا : علاقات بريطانيا مع طرابلس العثمانية

رابعا : علاقات بريطانيا مع المغرب

خامسا : العلاقات الثقافية والاجتماعية بين بريطانيا والدول المغربية: مظاهرها وتأثيراتها المتبادلة

سادسا : تقييم الشخصية الإنجليزية وانعكاساتها على السياسة البريطانية في الدول المغربية

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18 و 19م :

قبل التطرق إلى العلاقات البريطانية مع الدول المغربية، لا بد من استعراض الأسس التي بُنيت عليها العلاقات المغربية-الأوروبية بصفة عامة، والبريطانية بصفة خاصة. تأسست هذه العلاقات على أساس القوة، وتحديدًا القوة البحرية لدول المغربية (الجزائر، المغرب، تونس وطرابلس الغرب). ساهمت أساطيل الدول المغربية في حماية مدنها من الحملات الأوروبية، كما مكنتها قوة مدفعيتها وتحصيناتها من الصمود أمام التهديدات الأجنبية في العصر الحديث. نتيجة لذلك، تجنب الأوروبيون مخاطبة الساسة المغربية باستخدام القوة، واتبعوا بدلاً من ذلك نهج الدبلوماسية¹. وبسبب عزز الدول الأوروبية عن تطوير سياسة عمل جماعي فعالة ضد الدول المغربية، كانت الضريبة المدفوعة سياسة فردية تعتمد عليها القوى الأوروبية في حماية تجارتها². وفي هذا السياق، يأتي تقييم القنصل الفرنسي سيزار فيليب فالير³ Cesaire

¹ عبد الهادي رجائي سالمي، العلاقات الجزائرية الاسكندنافي في الفترة العثمانية 1729-1792، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله، 2014-2015، ص 26.

² وليم سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر، تق و تع عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص 176.

³ سيزار فيليب فالير : هو دبلوماسي فرنسي شغل عدة مناصب قنصلية هامة في حوض البحر المتوسط خلال أواخر القرن الثامن عشر. بدأ مساره الدبلوماسي في الجزائر كنائب للقنصل الفرنسي في 28 جانفي 1779م، حيث قدم خلال هذه الفترة مذكرة مفصلة عن الجزائر للماركيز دوكاستري، أمين الدولة للبحرية. وفي 2 سبتمبر 1781م، انتقل إلى طرابلس الغرب ليشغل منصباً في القنصلية الفرنسية، حيث بقي حتى عام 1789م، وخلال هذه الفترة أعد مذكرة حول طرابلس قدمها لوزير البحرية، كما قام بترجمة نص عربي يتعلق بتاريخ الإيالة. وفي مسار تطوره المهني، تولى منصب قنصل في كانديا (مدينة يونانية) لفترة قصيرة امتدت من أفريل إلى أوت 1790، قبل أن يتم تعيينه قنصلاً عاماً في الجزائر في 11 سبتمبر 1790، حيث باشر مهامه في 15 جانفي من نفس العام. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

Phillippe Valliere يؤكد أن الحفاظ على السلام مع الدول المغاربية كان يتطلب " توضيحات خفيفة " مقارنة بالعواقب الوخيمة للحرب، التي كانت تشمل عرقلة النشاط التجاري وخسائر اقتصادية فادحة¹.

تشكلت العلاقات بين بريطانيا والدول المغاربية في إطار التنافس الأوروبي على مناطق النفوذ في حوض البحر الأبيض المتوسط. أدركت بريطانيا الأهمية الإستراتيجية للمنطقة المغاربية، خاصة مع سيطرتها على مضيق جبل طارق، الذي يُعد المدخل الرئيسي للبحر المتوسط ونقطة تحكم استراتيجية في حركة التجارة البحرية، مما جعلها تتبنى سياسة متوازنة في علاقاتها مع دول المنطقة. تميزت المعاهدات البريطانية مع الدول المغاربية بكونها أكثر إنصافاً مقارنة بمعاهدات القوى الأوروبية الأخرى، وعمل القناصل البريطانيون بجد للحفاظ على علاقات إيجابية رغم الاضطرابات السياسية².

في المقابل، سعت فرنسا للحصول على موطئ قدم في المنطقة، مما أدى إلى تنافس محموم بين القوتين. استفادت الدول المغاربية من هذا التنافس الفرنسي-البريطاني في تعزيز مكانتها وتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية. ومع بداية القرن التاسع عشر، شهدت المنطقة تحولاً في

وردة جيلالي زورقي، بلعربي خالدي، " جوانب من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر في كتابات القناصل الفرنسيين خلال القرن 18م " لوجي دي تاسي وسيزار فيليب فاليار " نموذجاً " ، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 7، العدد 1، جامعة مسيلة، 2023، ص 367.

¹ Cesaire Phillippe Vallière, L'Algerie en 1781, Mémoire du Consul C.Ph.Vallière, public par Lucien Chaillou, Valbertrand, L'éditeur-Villa, « Beau Site », Toulon, 1974, p 45.

² Ibid, p 49.

موازين القوى لصالح فرنسا، حيث ساهمت انتصارات آل بوروبون في تقليص النفوذ البريطاني في البحر المتوسط¹.

في هذا الفصل، سنقدم تحليلاً شاملاً للعلاقات البريطانية-المغربية، مستكشفين أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتأثيرها المتبادل على المجتمعين الإنجليزي والمغربي.

أولاً : علاقات بريطانيا مع الجزائر العثمانية

1 -العلاقات السياسية :

في سياق استعراض العلاقات البريطانية مع دول المغربية، من الضروري أولاً تسليط الضوء على العلاقات البريطانية العثمانية التي مهدت الطريق لنفوذ بريطانيا في المنطقة. فقد منحت الدولة العثمانية لبريطانيا امتيازات في أراضٍ كانت تحت سيطرتها، بما في ذلك الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

في هذا الإطار، يروي فاينز موريسون² Fynes Moryson قصة مثيرة للاهتمام عن السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1595). فعندما ألقى السلطان نظرة على خريطة العالم، استوقفه موقع إنجلترا الصغير. نظر إليها بدهشة واستغراب، متسائلاً بصوت مسموع: "كيف لا يقوم

¹ Cesaire Phillippe Vallière, op.cit, p 47.

² موريسون، فاينز (1566-1630): رحالة إنجليزي بارز، وُلد عام 1566م في لينكولنشاير. تلقى تعليمه في مدرسة بيتزهاوس بجامعة كامبريدج، حيث التحق بها في 18 مايو 1580م. حصل على درجة البكالوريوس ثم الماجستير في الآداب عام 1587م، وبالرغم من تميزه في دراسته، إلا أن شغفه المبكر بالسفر واستكشاف البلدان الأجنبية دفعه للحصول على ترخيص للسفر عام 1589م. زار خلال رحلاته القدس وطرابلس وحلب وأنطاكية والقسطنطينية. للاستزادة أنظر إلى :

ملك إسبانيا بحفر هذه الجزيرة الصغيرة وإلقائها في البحر نظراً لضآلة حجمها؟¹ لكن ما لبث أن تحول استغراب السلطان إلى إعجاب عميق. فقد أدرك أن هذه الجزيرة الصغيرة، رغم حجمها المتواضع، استطاعت أن تحقق نفوذاً عالمياً وإنجازات عظيمة تحت حكم ملكتها¹.

إن الرواية المذكورة تكشف عن تطور ملحوظ في العلاقات الأنجلو-عثمانية، حيث تحول الانطباع الأولي للدولة العثمانية عن إنجلترا من دولة صغيرة لا تستحق الاهتمام إلى إدراك عميق لقوتها ونفوذها الدولي. ومع ذلك، كان العامل التجاري هو المحرك الرئيسي وراء سعي الإنجليز لإقامة علاقات مع العثمانيين. في هذا السياق، نجد أن إنجلترا وفرنسا وهولندا لم تواجه صعوبات مع بحارة الدول المغربية طالما كانت هذه الأخيرة في حالة عداء مع إسبانيا. لكن عندما أبرمت هذه الدول الثلاث معاهدات سلام مع العدو الإسباني، تغيرت نظرة البحارة شمال الأفريقيين إليهم، فلم يعودوا حلفاء. وهكذا، سرعان ما بدأوا في الاستيلاء على السفن التجارية التابعة لحلفائهم السابقين واسترقاق طواقمها².

تجسد هذا التطور في العلاقات الأنجلو-عثمانية رسمياً في الرسالة التاريخية التي أرسلها السلطان مراد الثالث إلى الملكة إليزابيث الأولى Elizabeth I بتاريخ 20 مارس 1579م. تضمنت هذه الرسالة منح الإنجليز امتيازات غير مسبقة في أراضي الدولة العثمانية، حيث صرح السلطان: "بلادنا كانت دائماً مفتوحة لكل من أعدائنا وحلفائنا؛ لكن وبعدها أعلمنا بأن سيادتكم ترغب في بناء علاقات وطيدة معنا، فإن بلادنا ستبقى دائماً مفتوحة لمواطنيكم".

¹ Christine Woodhead, England, the Ottomans and the Barbary Coast in the Late Sixteenth Century, State Papers Online, 1509-1714, Cengage Learning, Reading, 2009, p 01.

² جون وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830، تر وتعد أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر، 2009، ص243.

وعد السلطان بضمان أمان السفن التجارية الإنجليزية في المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية، ومنح التجار البريطانيين حرية الحركة والتجارة، مماثلة لتلك الممنوحة لحلفاء الدولة العثمانية الآخرين. هذه الخطوة مثلت بداية عهد جديد من التعاون التجاري والدبلوماسي بين القوتين¹.

أسفرت المراسلات الدبلوماسية بين السلطان العثماني مراد الثالث والملكة الإنجليزية إليزابيث الأولى Elizabeth I عن نتائج ملموسة وهامة في ماي 1580م. تمثلت أولى ثمار هذا التواصل في منح التجار الإنجليز امتيازًا استثنائيًا، إذ حصلوا على جوازات سفر خاصة تضمن لهم المرور الآمن في شبكة الموانئ العثمانية الممتدة عبر الشرق الأوسط والدول المغربية. هذا الامتياز فتح آفاقًا جديدة للتجارة البريطانية، موسعًا نطاق نشاطها في مناطق كانت سابقًا تعتبر صعبة المنال أو مخوفة بالمخاطر.

وتعززت هذه المكاسب الدبلوماسية والتجارية بخطوة إستراتيجية أخرى في سبتمبر 1581م، حيث تم تأسيس "شركة تركيا" Levant Company أو ما عُرف أيضًا باسم "شركة المشرق"².

¹ بلقاسم قرياش، العلاقات الجزائرية الإنجليزية الأولى من منظور إنجليزي 1550-1620، ضمن بحوث ودراسات تاريخية، أعمال مهداة للأستاذ لعميد عبد العزيز، إعداد و تنسيق: قاصري محمد السعيد، ط1، مطبعة ناصري (المسيلة)، الجزائر، 2017، ص533.

² شركة تركية أو المشرق Levant Company: في عام 1581م، منحت الملكة إليزابيث الأولى امتيازاً لشركة تجارية إنجليزية عُرفت باسم "شركة المشرق". و استمرت هذه الشركة المساهمة في التجارة واحتكار التجارة بين إنجلترا ومنطقة شرق البحر المتوسط لما يقرب من قرنين ونصف حتى تم حلها عام 1825م. كانت شركة المشرق أولى الشركات التجارية الكبرى التي تأسست في عصر التوسع الأوروبي، مثل شركة فرجينيا والشركة الشرقية الهندية. بلغت شركة المشرق ذروتها في القرن السابع عشر، عندما كان القماش الصوفي الإنجليزي سلعة مرغوبة في الإمبراطورية العثمانية، وكان وكلاء الشركة يشترون الحرير الخام الذي كان يُحضر بالقوافل إلى حلب أو أزمير، إضافة إلى سلع محلية أخرى مثل الفواكه المجففة والخيوط القطنية

لم تكن هذه الشركة مجرد كيان تجاري عادي، بل تم منحها صلاحيات واسعة، من أهمها مسؤولية تعيين القناصل الإنجليز في المدن والموانئ العثمانية¹.

في المراحل الأولى من العلاقات الأنجلو-جزائرية، كان التمثيل القنصلي الإنجليز في الجزائر يتسم بطابع تجاري بحت. فالقناصل الأوائل كانوا يُعيّنون من قبل الشركات التجارية دون تدخل مباشر من الحكومة الإنجليزية. وفي هذا السياق، تم تعيين جون تيبتون **John Tipton** عام 1580م كقنصل من قبل شركة المشرق، مما يعكس الدور المحوري للمصالح التجارية في تشكيل هذه العلاقات المبكرة.

غير أن هذه العلاقات لم تكن خالية من التوترات. ففي خطاب مؤرخ في 5 نوفمبر 1582م، راسل تيبتون السفير الإنجليزي وليام هاربون **William Harebone**، طالباً منه التدخل لدى حاكم الجزائر. كان هدف تيبتون هو ضمان احترام جوازات السفر الممنوحة من السلطان العثماني للتجار الإنجليز، وإصدار أوامر بعدم التعرض للسفن الإنجليزية في البحر.

والسجاد ومواد الصباغة . ولكن في القرن الثامن عشر تراجعت أرباح الشركة، وكانت في انخفاض حاد في صادرات الحرير الخام من تلك البلاد في وقت كان فيه القماش الصوفي الإنجليزي، السلعة الرئيسية في تجارة الشركة، يفقد شعبيته بين المستهلكين الأتراك. فقد قدم التجار الفرنسيون قماشاً صوفياً أخف ويناسب مناخ الشرق الأوسط أكثر وملوناً أكثر إشراقاً . بالإضافة إلى ذلك، انتقلت المصالح التجارية البريطانية إلى الهند، وهي منطقة تجاوزت الإمبراطورية العثمانية لتصبح الشريك التجاري الأجنبي الرائد لبريطانيا في بداية القرن الثامن عشر. خلال الحروب النابليونية (1798-1815)، بدأت بريطانيا بإرسال دبلوماسيين محترفين إلى الإمبراطورية العثمانية، وانتهت بذلك تمثيل شركة المشرق لمصالح بريطانيا. أنظر إلى:

Gabor Agoston and Bruce Masters, Encyclopedia of The Ottoman Empire, Printed in the United States of America, 2009, p 333.

¹ Christine Woodhead, op.cit, p 01.

لكن رد فعل باشا الجزائر كان مخيباً للآمال الإنجليزية. فقد رفض الباشا بشكل قاطع إصدار أي أوامر لحماية السفن الإنجليزية أو منحها تصاريح مرور. بل على العكس، أعرب عن أمله في الاستيلاء على بعض هذه السفن خلال العام المقبل¹.

وللرد على الباشا، أرسل السفير الانجليزي السيد إدوارد بارتن **Edward Barton** برفقة مترجم تركي، يحمل ثلاث وصايا باللغة التركية ونسخة باللغة الانجليزية، حتى لا تتعرض السفن الانجليزية لمضايقات من قبل السفن الجزائرية وتونسية والطرابلسية، بشرط إظهار السفن الانجليزية جواز سفرها².

في عام 1583م، منح حسان آغا، نائب مملكة الجزائر، امتيازاً تجارياً مهماً للإنجليز. أصدر جواز سفر للتاجر توماس سينغلتون **Thomas Singleton** وطاقمه، يسمح لهم بالإبحار بحرية في البحر المتوسط. تضمن هذا الجواز أمراً صريحاً للبحارة الجزائريين وقادة المشرق بعدم التعرض لهذا التاجر في مياه جنوه، فرنسا، نابولي، جزر البليار وسردينيا. وُقّع هذا الجواز في قصر الداوي بتاريخ 23 جوان 1583م .

عقب هذا التطور الدبلوماسي، عيّنت إنجلترا تيبتون كأول قنصل لها في الجزائر وتونس وطرابلس. كان تيبتون قد شغل سابقاً منصب سفير شركة الشرق الأوسط في إسطنبول. لكن تعيينه الجديد جاء بأمر ملكي، مما أضفى طابعاً رسمياً على منصبه، على عكس وضعه السابق في إسطنبول³.

¹ Playfair Lambert, The Scourge of Christendom, Annales of British Relations With Algiers Prior to French Conquest, Smith Elder And Co, London, 1884, p 26.

² Ibid, p 27.

³ بلقاسم قرياش، المراجع السابق، ص 535.

بعد رحيل الملكة إليزابيث، أعلن خليفتها جيمس الأول James I انتهاء حقبة الصراع مع إسبانيا. هذا التحول في السياسة البريطانية سرعان ما انعكس على العلاقات مع الجزائر، مُحدثاً تغييرات ملموسة في طبيعة العلاقات بين البلدين.

رغم هذا التحول، استمرت الموانئ الجزائرية في الترحيب بالقراصنة الإنجليز. هؤلاء القراصنة اضطلعوا دوراً مهماً في نقل المعرفة البحرية، حيث قاموا بتعليم الرياس المسلمين فنون بناء وقيادة السفن الطويلة. هذه السفن، المصممة للإبحار باستخدام الرياح، كانت قادرة على اجتياز المحيط الأطلسي، مما أضاف بُعداً جديداً لقدرات الأسطول الجزائري.

لكن هذا الوضع الجديد لم يخلُ من التحديات بالنسبة للتجار الإنجليز. فقد تراجع مستوى أمانهم أثناء الإبحار في البحر الأبيض المتوسط، خاصة في رحلاتهم التجارية نحو المشرق. هذا التدهور في الأمن البحري وضع السفير الإنجليزي في إسطنبول في موقف صعب. فقد وجد نفسه عاجزاً عن ممارسة ضغط فعال على السلطات العثمانية لوقف عمليات النهب غير الشرعية التي تتعرض لها السفن الإنجليزية من قبل رياس البحر في الدول المغاربية¹.

مع بداية القرن السابع عشر، شهدت العلاقات بين الجزائر وإنجلترا فترة من التوتر الملحوظ. هذا التوتر تجلّى في سلسلة من الهجمات البحرية الإنجليزية على الجزائر، والتي بدأت في عام 1620م.

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 242.

رغم تكرار هذه الهجمات وشدتها، إلا أنها لم تحقق نتائج ملموسة أو مكاسب إستراتيجية كبيرة للإنجليز. هذا الفشل في تحقيق أهداف عسكرية واضحة دفع الطرفين إلى إعادة النظر في استراتيجياتهم وعلاقاتهم المتبادلة.

نتيجة لذلك، وبعد عقود من المواجهات، توصل الطرفان أخيراً إلى حل دبلوماسي. ففي 10 أبريل 1682م، تم التوقيع على أول معاهدة سلام وتجارة بين الجزائر وإنجلترا. هذه المعاهدة مثلت نقطة تحول مهمة في العلاقات بين البلدين، حيث وضعت أسساً جديدة للتعاون والتبادل التجاري.

يجدر الذكر أن الفضل الأكبر في إنجاح هذه المعاهدة يعود إلى الجهود الدبلوماسية الحثيثة التي بذلها القنصل الإنجليزي صمويل مارتن Samuel Martin¹.

هذا التحول الدبلوماسي لم يكن معزولاً عن السياق الإقليمي الأوسع. فقد شهدت أواخر القرن السابع عشر تطوراً مهماً في العلاقات الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مما أدى إلى تغيير إضافي في موقف إنجلترا تجاه الجزائر. هذا التحول كان نتيجة مباشرة لتدهور العلاقات بين الجزائر وفرنسا، مما خلق فرصة دبلوماسية جديدة استغلتها إنجلترا بذكاء لتعزيز موقفها في المنطقة وتوطيد علاقاتها مع الجزائر.

النقطة المحورية في هذا التحول حدثت في أكتوبر 1681م، عندما أعلن بابا حسن، حاكم الجزائر آنذاك، نهاية فترة السلام مع فرنسا. في لقاء مع القنصل الفرنسي جان لو فاشيه Jean

¹ وليم سينسر، المرجع السابق، ص 180.

Le Vacher، صرح بابا حسن بشكل قاطع أن جميع السفن المبحرة في البحر المتوسط ستصبح هدفاً مشروعاً للبحارة الجزائريين، وأن ممتلكاتها ستعرض للمصادرة¹.

في خضم هذه التطورات، شهدت العلاقات بين إنجلترا والجزائر تناقضات ملحوظة. فبالرغم من التوجه العام نحو توقيع معاهدة سلام وتجارة، إلا أن الفترة السابقة لهذا الاتفاق شهدت عمليات استيلاء إنجليزية على سفن جزائرية. من أبرز هذه العمليات ما قام به الأدميرال هيربرت **Admiral Herbert** في 27 أوت 1681م، حيث استولى على السفينة " الحصان الذهبي" المزودة بـ 38 مدفعاً وطاقم قوامه 460 رجلاً، بينهم 70 مسيحياً. كما نفذ الكابتن كلاودسلي شوفيل **Captain Cloudesley Shovell** عملية مماثلة، مستولياً على سفينة "الوردة" ذات الـ 22 مدفعاً وطاقمها المكون من 100 رجل، منهم 30 مسيحياً².

في خضم التوتر المتصاعد بين الجزائر وفرنسا، سعت إنجلترا لاستغلال الوضع لصالحها عبر التقرب من الجزائر. قدم الأدميرال هاربيرت **Admiral Herbert** اقتراحاً مثيراً للجدل للملك الإنجليزي، يقضي بالتخلي عن ملاحقة الجزائريين بالأساطيل الضخمة المكلفة، واستبدالها بسفن حربية صغيرة لحماية السفن التجارية. لكن هذا الاقتراح، عند إحالته إلى وزارة الحربية، قوبل برفض قاطع من قبل اللوردات. رأوا أن تنفيذ هذه الخطة سيكون كارثياً على التجارة الإنجليزية، خاصة خارج المضيق، حيث ستصبح تحت سيطرة القوات البحرية الجزائرية. علاوة على ذلك، اعتبروا أن اعتراف إنجلترا بعجزها عن مواجهة أسطول من " سفن القرصنة

¹ محمد أمين بوحلوفة، إيالة الجزائر العثمانية ومملكة إنجلترا دراسة العلاقات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من 1620-1827، مذكرة لنيل درجة دكتوراه علوم في التاريخ الحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة -وهران-1، 2018-2019، ص 141.

² Playfair Lambert, op.cit, p 138.

يتكون من سبع عشرة سفينة " سيلحق العار بسمعتها. في المقابل، لم يبد الجزائريون رغبة في السلام، مدركين أن ذلك سيحرمهم من غنائم ثمينة¹.

رغم الصعوبات السابقة، عاود الأدميرال هاربرت **Admiral Herbert** محاولاته لإحلال السلام مع الجزائر في 12 فيفري 1682م. أرسل العقيد تشرشل **Lieutenant churchill** إلى الشاطئ حاملاً علم الهدنة وخطاباً يؤكد استمرار رغبة الملك الإنجليزي في السلام، بالرغم من النجاحات البحرية ضد الجزائريين. تبع ذلك إرسال السيد كول **Mr Cole**، وهو تاجر مقيم بالجزائر، لنقل مقترحات البابا حسن، داي الجزائر. كانت شروط الداي تتضمن إعادة جميع السفن المستولى عليها، مع تقديم هدية قوامها ألف تركي وكميات كبيرة من البارود والذخيرة مقابل إبرام المعاهدة. رد الأدميرال هاربرت **Admiral Herbert** بأنه غير قادر على تأكيد هذه الشروط. وفي 14 فيفري، حاول تشرشل مجدداً التواصل مع الجزائريين، لكنه فوجئ بقارب جزائري يأمره بالانصراف فوراً تحت تهديد إطلاق النار، محذراً إياه من العودة مرة أخرى².

في 21 مارس، عاد الأدميرال الإنجليزي إلى الجزائر في محاولة جديدة لاستكشاف إمكانية إبرام السلام. كان هذا التحرك مبنياً على فهم الإنجليز للطبيعة المتقلبة للجزائريين، الذين وصفوهم بأنهم " ذوي طبيعة متقلبة في مواقفهم السياسية" نادراً ما يثبتون على رأي واحد لفترة طويلة. هذه النظرة عكست مزيجاً من الفضول الدبلوماسي والتحيز الثقافي السائد في تلك الفترة. ورغم التوترات السابقة والمواقف المتباينة، نجحت هذه الجولة من المفاوضات في تحقيق اختراق

¹ Playfair Lambert, op.cit, p 138.

² Ibid, pp 138-139.

دبلوماسي. فقد أثمرت الجهود المتواصلة والمرونة من الجانبين عن توقيع معاهدة السلم والتجارة في 10 أفريل 1682م¹.

تضمنت المعاهدة عدة بنود مهمة، منها تعديل نظام جواز السفر في البند الرابع، حيث تم تحديد مدة صلاحيته بـ 15 شهراً كحد أقصى. البند السابع منع بيع الغنائم في مدينة سلا، في محاولة للحد من نشاط القرصنة الجزائري. البند الثامن أكد على عدم مشروعية التعرض للحامية الإنجليزية في طنجة، مما يعكس محاولة إنجلترا للحفاظ على نفوذها في المنطقة. البنود التاسع والعاشر أظهرتا تناقضاً لافتاً، حيث منعت الجزائر من بيع البضائع الإنجليزية المسروقة، بينما سُمح للإنجليز ببيع غنائمهم في الجزائر، مما يبرز النهج النفعي للسياسة الإنجليزية. أما البند الحادي عشر فقد خرج عن المألوف في قضية الأسرى، حيث لم يُطلب إعادة الأسرى المسيحيين الفارين إلى السفن البريطانية، ولا دفع فدية عنهم، وهو إجراء يُشك في تطبيقه فعلياً².

مع بداية القرن الثامن عشر، شهدت العلاقات بين الجزائر وبريطانيا فترة من الاستقرار النسبي، مدفوعة بتحويلات جيوسياسية أوسع في أوروبا. في هذه الفترة، اتخذت بريطانيا نهجاً دبلوماسياً تجاه الجزائر، سعياً منها لتأمين حليف استراتيجي في البحر المتوسط. تجلّى هذا النهج في سياسة "استرضاء" الجزائريين، حيث حرصت بريطانيا على تقديم الهدايا ودفع الضرائب المقررة في مواعيدها المحددة. هذه السياسة لم تكن نابعة من ضعف بريطاني، بل كانت إستراتيجية مدروسة في ظل الصراع الدولي المحتدم الذي كانت بريطانيا طرفاً فيه. فقد

¹ Playfair Lambert, op.cit, p 140.

² محمد أمين بوحلوفة، المرجع السابق، ص ص 143-144.

وجدت نفسها في مواجهة مزدوجة مع قوتين أوروبيتين كبيرين: فرنسا من جهة، وإسبانيا من جهة أخرى¹.

كما كانت الجزائر أيضًا تسعى جاهدة للحفاظ على السلام مع القوة البحرية الصاعدة. هذا الحرص المتبادل تجلى بوضوح في رسالة مهمة أرسلها علي شاوش (1710-1718) داي الجزائر إلى ملك إنجلترا بتاريخ 25 فيفري 1716م. في هذه الرسالة الدبلوماسية، أقر الداوي باستلام الرسالة والهدايا التي وصلته عبر القنصل البريطاني جيمس ديشارت **Sir James Wishart**، مؤكدًا في الوقت ذاته على التزامه بالسلام بين البلدين². ويرجع ذلك إلى الصراع الداخلي بين الانكشارية والداوي وكثرة اغتيالات في هرم السلطة وبالرغم من تغير الداوي من فترة إلى أخرى بسبب اغتيالات إلا أن موقف الدايات لم يؤثر على العلاقات بين البلدين³.

في عام 1767م، شهدت العلاقات الجزائرية-البريطانية توترًا ملحوظًا، مسلطة الضوء على التحديات الدبلوماسية المعقدة في تلك الفترة. محور هذا التوتر كان طلب القنصل البريطاني فريزر **Fraser** بتطبيق بند حيوي من معاهدة سابقة، والذي ينص على منع استعباد أي مواطن إنجليزي داخل الجزائر. هذا الطلب قوبل برفض من قبل الداوي، حاكم الجزائر، الذي اشترط وجود شهادة رسمية تحمل ختم الملك الإنجليزي لتنفيذ هذا البند. رد فعل القنصل فريزر كان توضيحًا للبروتوكولات الدبلوماسية المعمول بها، مشيرًا إلى أن تدخل الملك المباشر في مثل هذه القضايا أمر غير معتاد، وأن دوره كقنصل هو تمثيل الملك في مثل هذه المسائل⁴.

¹ Playfair Lambert, op.cit, pp 168-169.

² Ibid, p 172.

³ Ibid, p 170.

⁴ Ibid, p 207.

في خضم الأعراف الدبلوماسية السائدة، برز موقف القنصل الإنجليزي فريزر **Fraser** كتحدي جريء للتقاليد. فبينما كان من المألوف أن يقوم القناصل الأوروبيون بتقبيل يد الداي عند مقابلته، اتخذ فريزر موقفاً حازماً، رافضاً الانصياع لهذه الممارسة. هذا الموقف الجريء أشعل فتيل نزاع حاد بينه وبين حاكم الجزائر.

لم يكن موقف فريز **Freser** مجرد قراراً فردياً، بل حظي بتأييد قوي من الحكومة البريطانية. فقد رأت لندن في هذا الرفض تعبيراً عن كرامة التاج البريطاني، مؤكدة أن مثل هذه الممارسات المذلة لم تعد مقبولة حتى من قبل ملوك أوروبا أنفسهم.

كان لموقف وزير الخارجية البريطاني بُعد استراتيجي عميق. فقد رأى في القوة البحرية البريطانية المتنامية رادعاً قوياً ضد أي تجاوزات محتملة من قبل إيالة الجزائر. وفي الوقت نفسه، حذر من أن الرضوخ لمثل هذه الممارسات قد يثير استياء جلالة الملك¹.

على الرغم من الوهلة العاصفة التي عكرت صفو العلاقات البريطانية الجزائرية إثر حادثة القنصل البريطاني، إلا أن هذا التوتر سرعان ما تبدد، مفسحاً المجال لتقارب ملحوظ بين الطرفين. هذا التحول الإيجابي لم يكن وليد الصدفة، بل نتاج موقف استراتيجي اتخذته الجزائر.

في خطوة لافتة، أظهرت الجزائر ولاءً ضمناً لبريطانيا عبر رفضها القاطع لعقد أي معاهدات سلام مع الولايات المتحدة الأمريكية الناشئة. هذا الموقف تجلى بوضوح في عهد الداي حسين، خليفة الداي محمد عثمان، الذي أبدى موقفاً صارماً تجاه المساعي الأمريكية للتقارب.

¹ Playfair Lambert, op.cit, p 208.

ففي عام 1792م، عندما حاول وفد أمريكي رسمي زيارة الجزائر، قوبل بالرفض القاطع من الداي حسن (1791-1798). لم يكتف الداي بالرفض فحسب، بل أرفقه بتصريح يعكس عمق الارتباط بالتاج البريطاني، إذ صرح للأمريكيين قائلاً: " إذا رغبتم في إرسال مبعوث خاص إلى الجزائر لإبرام معاهدة سلام، فعليكم أولاً الحصول على أوراق اعتماد من ملك إنجلترا ذاته"¹.

من هذا المنطلق ، بدا وكأن القوى العظمى المتنافسة على النفوذ في البحر الأبيض المتوسط قد توصلت إلى تفاهم استراتيجي. غير أن هذا التقارب الظاهري سرعان ما تبدد، ليعود التوتر ويخيم على العلاقات البريطانية-الجزائرية في الفترة بين 1803-1804.

محور هذا التوتر الجديد كان حادثة مثيرة للجدل، تمثلت في طرد القنصل البريطاني فالكون Falcon (1799-1803). سبب هذا الإجراء الصارم كان اكتشاف وجود امرأتين أندلسيتين برفقة خادم القنصل داخل أسوار القنصلية البريطانية، أمر اعتبره الداي مصطفى باشا (1798-1805) انتهاكاً صارخاً للأعراف المحلية.

فور وصول هذه المعلومات إلى الداي، أرسل على الفور قوة من الانكشارية لاعتقال الخادم والمرأتين. في محاولة للهروب، لجأ الخادم الإنجليزي إلى القنصلية الفرنسية، إلا أن القنصل البريطاني نجح في استعادته.

¹ مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج1، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 187.

رغم محاولات القنصل فالكون **Falcon** لاحتواء الموقف، حيث عبر عن أسفه الشديد للداي، إلا أن الأخير رفض قبول اعتذاره. بل ذهب أبعد من ذلك، حيث أمر القنصل بمغادرة البلاد فوراً، رافضاً كل محاولاته المتكررة لطلب مقابلة.

بلغ التوتر ذروته في اليوم التالي، عندما اقتحمت مجموعة من الانكشارية القنصلية البريطانية. هذا العمل، في نظر القنصل، لم يكن مجرد انتهاك للحصانة الدبلوماسية، بل اعتبره إهانة مباشرة لتاج بريطانيا نفسه¹.

بعد حادثة اقتحام القنصلية، حاول القنصل فالكون تبرئة نفسه، لكن محاولاته باءت بالفشل. نتيجة لذلك، أُجبر مع عائلته على مغادرة البلاد فوراً على متن سفينة بريطانية راسية في الميناء، مع أوامر صارمة لقبطانها بمنع نزولهم إلى البر.

نتيجة هذه الأزمة الدبلوماسية المتصاعدة، كلفت الحكومة البريطانية اللورد نيلسون **Lord Nelson** بإجراء تحقيق شامل في القضية. وفي إطار هذه المهمة، تم إرسال الكابتن كيتس **Keats** على متن سفينة بريطانية، برفقة القنصل فالكون **Falcon** نفسه.

وصلت البعثة إلى الجزائر في 15 جانفي 1804م، حاملة رسالتين للداي. غير أن الأخير أبدى موقفاً متشدداً للغاية تجاه القنصل فالكون **Falcon**، مصرحاً مراراً وبجزم أنه لن يستقبله مطلقاً².

¹ Playfair Lambert, op.cit, p 233.

² Ibid, p234

في تطور لافت للأزمة الدبلوماسية، استمر الداوي في رفضه القاطع لأي لقاء مع الكابتن كيتس **Keats** . أمام هذا المأزق، أدرك فالكون ضرورة العودة إلى إنجلترا، فأقنع اللورد نيلسون بذلك، مما مهد الطريق لتعيين كارترايت **Cartwright** (1804-1806) قنصلاً جديداً¹.

في مطلع القرن التاسع عشر، وجدت الجزائر نفسها في مواجهة تحديات متعددة الأوجه، داخلية وخارجية. على الصعيد الخارجي، تعرض الأسطول البحري الجزائري لتآكل تدريجي جراء الغارات الأوروبية المتواصلة، في حين شهدت القوى الأوروبية نفسها طفرة في قدراتها العسكرية.

أما داخلياً، فقد اجتاحت البلاد موجة من الاضطرابات المتشعبة، تجلت في شح الموارد المالية، وصعوبات جمة في تحصيل الضرائب، إضافة إلى أعمال عنف داخلية بلغت ذروتها باغتيال الداوي مصطفى. كما شهدت هذه الفترة تصاعداً في اضطهاد الأقليات، مما زاد من حدة التوترات الداخلية.

زاد الوضع تعقيداً صعود نجم نابليون وبسط نفوذه على القارة الأوروبية، مما أدى إلى موقف فرنسي متشدد تجاه الجزائر. تجسد هذا الموقف في رفض باريس سداد الإتاوات المعتادة للجزائر، مصحوباً بتهديدات صريحة، مما وضع الجزائر في موقف دبلوماسي وعسكري حرج.

شكل انتصار بريطانيا على فرنسا في معركة الطرف الأغر² في 21 أكتوبر 1805م نقطة تحول، معززاً النفوذ البريطاني في الجزائر. توج هذا التحول باستيلاء بريطانيا على مركز القالة

¹ Playfair Lambert, op.cit, p 235.

² الطرف الأغر : يقع إلى الشمال الغربي من مضيق جبل الطارق، اشتهر بالمعركة التي وقعت قريباً منه وانتصر فيها الأميرال البريطاني نيلسون على الأسطول الفرنسي الأسباني عام 1805م. أنظر إلى : سلوان رشيد رمضان، " إشكالية

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

الفرنسي عام 1807م، واستغلاله لمدة عقد كامل¹. في هذا السياق، برزت براعة الدبلوماسية البريطانية في تحقيق توازن دقيق بين مصالحها ومصالح حلفائها. ففي عام 1810م، سعى القنصل البريطاني هنري بلانكلي Henry Blankley (1807-1812) لإرساء السلام بين الجزائر والبرتغال، مدفوعاً برؤية إستراتيجية شاملة. أثمرت هذه الجهود عام 1813 بإبرام معاهدة سلام بين الطرفين، في وقت كانت فيه البرتغال تحت الاحتلال الفرنسي. هدفت بريطانيا من هذه الخطوة إلى إضعاف النفوذ الفرنسي في شبه الجزيرة الأيبيرية وتأمين استقرار غرب المتوسط².

في 4 جانفي 1812م، اتخذ ملك بريطانيا وأيرلندا جورج الثالث George III³ (1738-1820) مبادرة دبلوماسية مهمة تجاه الجزائر. وجه الملك رسالة إلى الداوي الحاج علي، عارضاً تحالفاً استراتيجياً ضد الولايات المتحدة الأمريكية. تضمن العرض وعداً بمساندة الأسطول الجزائري ضد أي عدوان أمريكي محتمل، وطلب الملك من الداوي عدم السماح للأمريكيين بتعكير العلاقات بين بريطانيا والجزائر⁴.

العلاقات البريطانية الجزائرية 1580-1816"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 23، العدد 1، 2012، ص 149.

¹ نفسه، ص ص 126-127.

² Playfair Lambert, op.cit, p 247.

³ جورج الثالث (1738-1820): ملك إنجلترا، وُلد في 4 جويلية 1738م في نورفولك هاوس بساحة سانت جيمس في لندن، وهو أكبر أبناء الأمير فريدريك أمير ويلز. للاستزادة أكثر أنظر إلى:

Stephen leslie, Dictionary of National Biography, vol 21, Smith Elder and Co, London, 1890, p 172.

⁴ مولد نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص 188.

جاءت هذه الخطوة البريطانية في سياق دولي معقد، حيث غطت الاضطرابات في أوروبا على نشاطات البحارة الجزائريين، كما حجبت الأنظار عن الحرب الصغيرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا (1812-1814)، والتي انتهت بتوقيع معاهدة غنت **Ghent**. نتيجة لهذه التطورات، وبسبب امتناع الولايات المتحدة عن دفع الإتاوات المعتادة، أعلنت الجزائر الحرب عليها في عام 1815¹.

في أعقاب الحروب الأوروبية، برز التنافس البريطاني-الفرنسي على الساحة الجزائرية، ليس بهدف السيطرة المباشرة، بل لكسب مركز نفوذ في البحر المتوسط². أظهر هذا الصراع الفجوة العميقة بين واقع الجزائر والدول المغاربية المتأخر، وحالة التقدم التي شهدتها أوروبا نتيجة عصر التنوير والنهضة. تجلى تخلف المنطقة المغاربية بشكل جلي في أنظمة الحكم التي عجزت عن مواكبة التطورات العالمية³.

في هذا السياق، شهدت الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر فترة من الاستقرار النسبي، أثمرت عن تطوير قوتها البحرية وتوسيع أسطولها إلى ثلاثين سفينة حربية. لكن مع انعقاد مؤتمر فيينا⁴ نهاية 1814م، طُرحت قضية "القرصنة المغربية"، المصطلح الذي استخدمته القوى الأوروبية للإشارة إلى النشاطات البحرية لدول شمال أفريقيا¹.

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 444.

² جمال قنان، العلاقات الفرنسية-الجزائرية 1790-1830، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1997، ص 188.

³ محمد أمين بوحلوقة، المرجع السابق، ص ص 209-210.

⁴ فيينا : مؤتمر عُقد في أواخر عام 1814 بهدف تسوية الخلافات والقضايا الأوروبية الناتجة عن الحروب النابليونية. وقد تطرق المؤتمر إلى قضية القرصنة العالمية، حيث قَدَّم الأمير الإنجليزي سيدني سميث مذكرة استند في إعدادها إلى التجارب التي اكتسبها خلال المعارك البحرية التي شارك فيها. وقد ألحَّ سيدني سميث في مذكرته على ضرورة القضاء على قرصنة

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

في هذا الإطار، كُلف اللورد إكسموث² Lord Exmouth، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، بتنظيم حملة بحرية إستراتيجية في ربيع 1816، تستهدف زيارة الإيالات الرئيسية في الدول المغاربية : الجزائر، تونس، وطرابلس.

كان جوهر هذه المهمة الدبلوماسية يتمحور حول عرض مقررات مؤتمر فيينا على حكام الدول المغاربية، والسعي لضمان التزامهم بها. مثلت هذه المبادرة محاولة جريئة من القوى الأوروبية لرسم ملامح نظام جديد في حوض المتوسط، يتناغم مع مصالحها الإستراتيجية ورؤيتها للنظام العالمي المستجد.

في 4 مارس، أبحر الأسطول البريطاني بقيادة إكسموث من ميناء ليفورنو¹ الإيطالي، وبعد رحلة بحرية امتدت لقراءة شهر، وصلت السفن إلى مياه مدينة الجزائر في اليوم الأول من أبريل عام 1816م².

الدول المغربية، كما أشار إلى وسائل إلغاء تجارة الرقيق الأسود في سواحل إفريقيا الغربية، والوسائل التي يمكن أن تحقق هذا الهدف. للاستزادة أكثر أنظر إلى:

Charles-Roux F, France et Afrique du Nord avant 1830 les précurseurs de la conquête, libraire Félix Alcan, Paris, 1932, p p 496-500 .

¹ ارزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص 146-147.

² اللورد اكسموث Lord Exmouth: اسمه إدوارد بيللو (Edward Pellew) ، وُلد في 19 أبريل 1757م بإنجلترا، وتوفي عام 1833م عن عمر يناهز 76 سنة. قام بحملة على مدينة الجزائر برفقة الهولندي فان كابيلن (Van Cappelen) في نهاية أوت 1816م. للاستزادة أكثر أنظر إلى : فاتح بلعمري، " حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر 1816 في عيون رحالة محلي و قنصل أجنبي " ، مجلة معارف، العدد 17، جامعة البويرة ، 2014، ص 35.

كان الأسطول الذي قاده اللورد إكسموث مهيباً في قوته وحجمه، إذ ضم خمساً وعشرين سفينة، من بينها ست سفن حربية عملاقة. هذا التشكيل البحري الضخم أضفى على المهمة بُعداً عسكرياً صارماً، يتجاوز طابعها الدبلوماسي المعلن، مجسداً بذلك سياسة "الدبلوماسية المدعومة بالمدافع" التي اتبعتها بريطانيا في تلك الحقبة.

مستنداً إلى هذا الاستعراض الجلي للقدرة البحرية البريطانية، تقدم الأدميرال إكسموث بمجموعة من الشروط إلى حاكم الجزائر. كانت هذه الشروط تمثل خارطة طريق طموحة، هدفها الأسمى إرساء دعائم السلام بين الإيالة الجزائرية من ناحية، ومملكتي سردينيا ونابولي من ناحية أخرى³.

وفقاً لما ورد في تقرير عمر، مبعوث الداي إلى الباب العالي، سجلت الوثائق التاريخية

مجريات الأحداث بشكل دقيق عند رسو سفن اللورد إكسموث في ميناء الجزائر:

¹ ميناء ليفورنو : يُعد ميناء ليفورنو أحد أبرز الموانئ التاريخية في إيطاليا، حيث تطور من مجرد امتداد مينائي صغير تابع لمدينة بيزا في العصور الوسطى إلى مركز تجاري وبحري رئيسي في البحر المتوسط. شهد الميناء تحولاً جذرياً في القرن السادس عشر بعد قرار عائلة ميديشي الحاكمة بتحويله إلى مدينة كاملة، ليصبح بحلول منتصف القرن السابع عشر ثاني أكبر مدينة وأهم ميناء في منطقة توسكانا. تميز ميناء ليفورنو بطابعه المزدوج، فهو جمع بين دوره كميناء إقليمي يخدم دوقية توسكانا الكبرى، ودوره كمركز تجاري دولي على مستوى البحر المتوسط. وقد مثل الميناء نموذجاً فريداً للتطور الحضري والتجاري في إيطاليا آنذاك، حيث عكس تطوره نجاحات وتحديات الدولة التوسكانية الإقليمية حتى اندماجها في الدولة الإيطالية الموحدة . للاستزادة، أنظر إلى :

Samuel Fettah, florance et la Tascane, XIVE, XIXe Siècles, Press Universitaires de Rennes, 2015, Consulté le 10/08/2023 à 11 h 10 sur le site web : <https://books.openedition.org/pur/15764>

² Daniel Panzac , Barbary Corsairs The End of a Legend 1800-1820, Brill, Boston, 2005, p 273.

³ William Shaler, Sketches of Algiers political Historical and Civil Containing and Account of The Geography Population Government Revenues Commerce Agriculture Arts Civil institutions tribes manners Language and recent political History of that country, Boston, 1826, p 129.

بدأت المفاوضات بخطوة إستراتيجية من إكسموث، حيث أوفد مبعوثاً إلى الداى حاملاً طلباً لافتداء خمسين أسيراً من رعايا سردينيا. برر إكسموث طلبه بكون سردينيا تحت الإشراف البريطاني، عارضاً ألف ريال مقابل كل أسير. لقي هذا الاقتراح قبولاً من الباشا، مُظهراً انفتاحاً دبلوماسياً أولاً.

وبناءً على هذا الموقف الإيجابي من الباشا، قدم إكسموث طلباً إضافياً يتعلق بألف ومائتي أسير نابوليتاني، محتجزين منذ أمد بعيد، مقترحاً الفدية نفسها. هنا، اصطدمت الدبلوماسية البريطانية بواقع سياسي مختلف، إذ رفض الباشا هذا الطلب الموسع بحزم. استند في رفضه إلى حقيقة أن نابولي دولة مستقلة ذات ملك، مشروطاً أن يأتي الطلب مباشرة من العاهل النابوليتاني.

حاول إكسموث تجاوز هذه العقبة الدبلوماسية، مؤكداً أن استعداده لدفع الفدية يُغني عن تدخل ملك نابولي. إلا أن الباشا ظل ثابتاً على موقفه، مستنداً في ذلك إلى اعتبارات جيوسياسية أعمق. صاغ رده بدبلوماسية ماهرة قائلاً: "إن إنجلترا دولة تربطها علاقات وثيقة بالدولة العثمانية، وإيالتنا تابعة لها أيضاً. نحن جميعاً رعايا السلطان العثماني، ولذلك نحن مستعدون لتسليم هؤلاء الأسرى، ولكن فقط بعد دفع الفدية المتفق عليها"¹.

في أعقاب مفاوضات معقدة، توصلت الأطراف المعنية إلى اتفاقيات متعددة لتحرير الأسرى وتقديم التعويضات. حصلت الجزائر على 24,000 دولار من نابولي، إضافة إلى هدايا تقليدية مماثلة لتلك المقدمة من البرتغال. وفيما يتعلق بصقلية، تم تحرير 357 أسيراً من أصل

¹ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 151.

1000، بتكلفة 1000 دولار لكل أسير، حيث نُقلوا إلى نابولي على متن سفينة إنجليزية، مع تعيين القنصل الإنجليزي ممثلاً لصقلية وتحويل أموال الفدية على السفينة كريستيناChristina .

أما سردينيا، فقدمت للداي 364,000 دولار إسباني في 30 جويلية 1816م، مقابل تحرير 40 أسيراً سردينياً بتكلفة 500 دولار إسباني للأسير الواحد، ومُنحوا الحماية البريطانية، ثم نُقلوا إلى جنوة على متن السفينة كاليبس Calypso¹. وأخيراً، تم تحرير 33 مواطناً من مالطا وجبل طارق دون فدية، نظراً لاعتبارهم مواطنين بريطانيين، مما يبرز الدور المحوري الذي لعبته بريطانيا في تسهيل هذه المفاوضات وعمليات تحرير الأسرى².

في مطلع أوت 1816م، عقد اللورد كاسلريه Lord Castlereagh ، وزير الخارجية البريطاني، مؤتمراً دبلوماسياً في لندن، جمع فيه سفراء القوى الأوروبية الكبرى: روسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا. قدم كاسلريه مشروعاً لتأسيس تحالف عسكري مشترك يمتد لسبع سنوات، ظاهرياً لمواجهة الإيالات المغربية. لكن في الواقع، كان هدف بريطانيا الرئيس حشد التأييد الأوروبي لعملية عسكرية وشيكة ضد الجزائر، بالتعاون مع هولندا³.

وفقاً لروايات سلامي Salam ، المترجم الخاص للورد إكسموث، كانت الدوافع وراء هذه الحملة العسكرية متعددة ومثيرة للقلق. فقد انتهكت الجزائر بشكل صارخ معاهدة سابقة، وارتكبت فظائع ضد مجموعة من الصيادين الأوروبيين المعدمين الذين قدموا إلى عنابة لصيد المرجان،

¹ Playfair, Lambert ,op.cit., p 253-254.

² Daniel Panzac ,op.cit .,p 273.

³ حنيفي هلايلي، العلاقات الجزائرية الأوروبية و نهاية الإيالة 1815-1830، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص 24.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

رغم تمتعهم بالحماية البريطانية¹. زاد الطين بلة قيام السلطات الجزائرية باحتجاز القنصل الإنجليزي وعدد من البحارة على سواحلها²، مما صعد التوتر الدبلوماسي بشكل كبير وعجل بالتحرك العسكري البريطاني ضد الجزائر.

في 9 أوت، رسا الأسطول الإنجليزي في جبل طارق، حيث انضم إليه الأسطول الهولندي بقيادة البارون فان دي كابلان **Baron Van der Capellen**، والذي ضم خمس فرقاقات وسفينة واحدة³. عقد الطرفان اجتماعاً استراتيجياً لوضع خطة محكمة للعملية العسكرية المرتقبة، والتي تميزت بضخامة قوتها البشرية والعسكرية.

وفقاً لدراسة أجراها مولاي بلحميسي، بلغ إجمالي المدافع الإنجليزية والهولندية 450 قطعة، بعيارات متنوعة تتراوح بين 32 و24 و18. في المقابل، كانت تحصينات مدينة الجزائر موزعة على النحو التالي: 44 قطعة مدفعية في المنطقة الشمالية، 48 مدفعاً في برج الفنار، 60 مدفعاً في البرج الشرقي، و15 مدفعاً في برج السردين⁴.

¹ Abraham Salame, Narrative of the Expedition in The year 1816, under the Command of The Right box Admiral Lord Viscount Exmouth, Johan Murry Albemarle-Street, London, 1819, p 2.

² قرياش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1617-1830، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة معسكر، 2015-2016، ص 97.

³ Edward Osler , Esq., The Life of Admiral Viscount Exmouth , Smith Elder And Co Cornhill, London, 1835, p 317.

⁴ Moulay Belhamissi, Marine et Marins D'Alger (1518-1830), T2, Bibliothèque National d'Algérie, Alger, 1996, p 72.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

في ذروة الأزمة، أرسل الداوي عمر¹ تقريراً مفصلاً إلى الباب العالي عبر القبطان علي، رئيس ميناء الجزائر، يصف فيه الموقف المتوتر. كشفت إحدى الوثائق أن الداوي عبر عن صدمته من خرق الإنجليز والهولنديين للاتفاق الذي يمنح مهلة ستة أشهر لمراجعة قضية الأسرى، حيث فوجئ بوصول أسطول ضخم يضم ثلاثين سفينة حربية².

وفي 27 أوت، وصل هذا الأسطول المشترك إلى شواطئ الجزائر، حاملاً رسالتين نقلهما سلامي: واحدة للداوي وأخرى للقنصل الإنجليزي. تضمنت رسالة الداوي شروطاً صارمة، منها إنهاء استعباد المسيحيين، وإطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين، وإعادة الأموال المدفوعة لافتياء أسرى صقلية وسردينيا، وإبرام معاهدة سلام مع الهولنديين، وتحرير القنصل البريطاني وطاقم القاربين البريطانيين المحتجزين³.

في نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، وصل القارب البريطاني إلى الجزائر، فأرسل الداوي قارباً بقيادة رئيس الميناء لاستقبالهم. عند وصول سلامي، استفسر عن سبب احتجاز القاربين الإنجليزيين اللذين كانا يحملان 80 بحاراً. قدم سلامي رسالتين وأبلغ الأميرال بضرورة الرد

¹ الداوي عمر: تولى حكم الجزائر في أبريل 1815 واستمر حتى سبتمبر 1817، وذلك بعد سنوات طويلة قضاها في الريف كقائد لقبيلة مخزن عريب وأغا للعرب. وقد شهد عهده عودة الأمراض والأوبئة والجفاف، كما تميزت فترة حكمه بهزيمة الجزائر أمام البحرية الأمريكية عام 1815 وحملة إكسموث عام 1816. ونتيجة لهذه الأحداث، ثار السكان، وانتهى حكمه باغتياله على يد الانكشارية في 8 سبتمبر 1817. للاستزادة أنظر إلى :

Saidouni Nacereddine ,L'Algerois Rural a La Fin de L'époque Ottomane de (1791-1830), El Bassair el Djadida, Alger, 2012, p121

² حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص ص27-28.

³ Abraham Salame, op.cit, p 21.

خلال ساعة، لكن الأميرال أجاب بأن هذا "غير ممكن". اقترح سلامي الانتظار على القارب لمدة ساعتين أو ثلاث.

بعد ساعة ونصف، اقترب الأسطول البريطاني من الساحل. قدم سلامي تقريراً إلى اللورد إكسموث، الذي رد بقوله "سنرى"¹. في هذه الأثناء، بدأت المدفعية والتحصينات الشرقية الجزائرية بإطلاق النار على سفينتي "السبارب" "Alsparre" و"الألبيون" "Albion"، مما دفع اللورد إلى إصدار أمر بالرد. أسفر القصف الأول عن سقوط 500 ضحية بين قتيل وجريح².

يقدم مسلم عبد القادر توثيقاً للمعركة، واصفاً لحظات القتال: "تجاوزت السفن مدى المدافع، مظهرة نواياها العدائية، وتقدمت نحو سفن المسلمين بهدف إحراقها. عند صلاة العصر، بدأ القصف الذي استمر دون انقطاع لعشر ساعات متواصلة"³. وقد أظهرت التقارير حجم المعركة الهائل، حيث أطلقت القوات الأوروبية أربعين ألف قذيفة على الجزائر. وخلال هذه المواجهة العنيفة، برز الجزائريون بشجاعة فائقة في التصدي للهجوم البريطاني، حتى أن اللورد إكسموث نفسه أقر بذلك قائلاً: "لم أشهد في حياتي أعداءً بهذه الشدة والعناد"⁴.

¹ Abraham Salame, op.cit, pp 27-28.

² Ibid, pp 41-42.

³ عبد القادر مسلم، أنيس الغريب و المسافر، تح و تق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974، ص 108-109.

⁴ Moulay Belhamissi , op.cit, p 72.

وفي هذا السياق، قدم القنصل الفرنسي دوفال **Deval** تحليلاً دقيقاً يرجع هذا النجاح إلى عاملين رئيسيين:

أولاً: الزيارات المتكررة للأميرال البريطاني للجزائر، حيث زارها ثلاث مرات في عام واحد بذريعة التفاوض، مما أتاح له دراسة دقيقة لنقاط القوة والضعف في تحصينات المدينة، منحت القوات البريطانية ميزة استراتيجية هائلة.

ثانياً: تسرع الداى في الدخول بمفاوضات، وهو ما يراه دوفال عاملاً حاسماً في تحقيق النصر البريطاني. فلو استمرت المقاومة ليوم إضافي، لربما انقلب الوضع لصالح الجزائريين، إذ كانت الذخيرة البريطانية على وشك النفاد، إضافة إلى الخسائر الفادحة في صفوفهم. هذا التحليل يشير إلى أن نتيجة المعركة كانت متأرجحة، وأن قرار التفاوض المبكر رجع الكفة لصالح البريطانيين¹.

يقدم المؤرخون تقييمات متنوعة لسلوك الداى خلال هذه الفترة التاريخية الحاسمة. فمن منظور، ينتقد وليام شالر **William Shaler** بشدة أداء الداى، واصفاً إياه بالقصور والعجز. يؤكد شالر أن الداى لم يكتف برفض الرد على إنذار المبعوث البريطاني فحسب، بل سمح أيضاً للقوات المعادية باختيار مواقع استراتيجية لمهاجمة المدينة دون مواجهة حقيقية².

في المقابل، يطرح المؤرخ الأمريكي جون وولف وجهة نظر مغايرة. فهو يصف كيف بادر الداى عمر، فور توقف القصف، إلى قبول شروط السلام التي فرضتها القوى الإنجليزية والهولندية. غير أن وولف يسلط الضوء على حقيقة جوهرية غفل عنها الداى في ذلك الوقت:

¹ Moulay Belhamissi, op.cit, p 76.

² William shaler, op.cit, p 147.

أن سفن التحالف كانت قد استنفدت غالبية مخزونها من الذخيرة والبارود، مما جعلها غير قادرة على شن هجوم إضافي¹.

رغم تعدد العوامل التي أفضت إلى هزيمة الجزائر، فإن بنود المعاهدة المفروضة من قبل القوى الأنجلو-هولندية على الداى عمر اتسمت بصرامة استثنائية. تضمنت هذه الشروط إلغاء استعباد المسيحيين بصورة قطعية، وتحرير كافة الأسرى المسيحيين في الجزائر بصرف النظر عن جنسياتهم، واسترداد جميع الأموال المحصلة كفدية، فضلاً عن تعويض القنصل الإنجليزي عن الأضرار الناجمة عن اعتقاله. كما أرغم الداى على تقديم اعتذار علني بحضور حاشيته، وطلب الصفح من القنصل بعبارات محددة سلفاً².

أما فيما يخص هولندا، فقد أبرمت اتفاقية منفصلة مع الجزائر، بدت أخف حدة نسبياً. فوفقاً لرواية شريف الزهار، رغم المطالبة الأولية بغرامة باهظة، إلا أن المفاوضات اختتمت دون أن تسدد الجزائر أي تعويضات للهولنديين، مما يعكس تبايناً في نتائج التفاوض مع مختلف القوى الأوروبية³.

استناداً إلى تقديرات شالر Shaler، كانت التكلفة البشرية للمواجهة باهظة على جميع الأطراف. فقد تعرض الجزائريون خسائر فادحة بلغت نحو 600 بين قتل وجريح، في حين

¹ جون وولف، المرجع السابق، ص 446 .

² William Shaler, op.cit, pp 291-292 .

³ احمد شريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974، ص 125.

خسر الإنجليز 138 قتيلاً و569 جريحاً¹، وتكبد الهولنديون 13 قتيلاً و25 جريحاً². تعكس هذه الإحصاءات الطبيعة الشرسة للمعركة وأثرها العميق على كافة المشاركين فيها.

نتيجة لهذه الخسائر الجسيمة والأضرار التي ألمت بالجزائر، وجه الجيش الجزائري، ولا سيما فيلق الانكشارية، أصابع الاتهام نحو الداوي عمر، محملاً إياه مسؤولية هذه الهزيمة المريرة. وقد انتهى مصير الداوي عمر نهاية مأساوية، حيث لقي حتفه اغتيالاً على أيدي عناصر من الانكشارية في عام 1817م، مما يجسد حالة السخط والغضب العارم الذي ساد في صفوف الجيش عقب هذا الإخفاق العسكري.

ويلخص الزهار فترة حكم عمر باشا بعبارة موجزة ودالة: " كانت دولته وأيامه لها مصائب، الجراد والغلاء، ومصيبه حميدو ومصيبه الانجليز"³.

مثلت الحملة الإنجليزية-الهولندية منعطفاً حاسماً في تاريخ الجزائر العثمانية، إذ وضعت حدًا للازدهار الذي شهدته بحريتها مع مطلع القرن التاسع عشر. نجحت هذه الحملة في تحقيق أهداف متعددة، من بينها تحرير عدد كبير من الأسرى المسيحيين دون مقابل، مما حرم الجزائر من موارد مالية هامة، إضافة إلى إلحاق أضرار مادية وبشرية جسيمة بالبلاد. لكن الأثر الأعمق لهذه الحملة تجلّى في إسهامها الكبير في تقويض أركان الحكم العثماني في الجزائر⁴، مما مهد الطريق لسقوطه النهائي. وبهذا، يمكن اعتبار حملة اللورد إكسموث خطوة محورية نحو وقوع الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي في عام 1830م، حيث أضعفت دفاعات البلاد وقوضت

¹ William Shaler, op.cit, p 281.

² Ibid, p 294 .

³ حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص 31 .

⁴ ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص 158.

سلطتها، مسهلة بذلك المهمة أمام فرنسا لبسط نفوذها على الأراضي الجزائرية. هذه السلسلة من الأحداث لم تغير فقط مصير الجزائر، بل أعادت تشكيل الخريطة السياسية والاقتصادية لمنطقة المغاربية بأكملها.

2 العلاقات التجارية :

أسس البريطانيون حضورهم الرسمي في الإيالة الجزائرية منذ عام 1583م، رغم محدودية نشاطهم التجاري مقارنة بالنشاط التجاري الفرنسي. تمحور هذا التمثيل الدبلوماسي حول ضمان أمن السفن البريطانية في حوض البحر المتوسط. تميزت القنصلية البريطانية بطابعها المزدوج، إذ جمعت بين النشاط التجاري والدور الدبلوماسي، حيث كان القنصل في معظم الأحيان يمارس التجارة بمهارة عالية.

أظهر التجار البريطانيون مهارة عالية في المفاوضات التجارية، فكانوا الأوائل في تخفيض الرسوم الجمركية، لا سيما رسوم الدخول والخروج من المدينة، حتى وصلت إلى 5%¹.

حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، تميز وضع التجار البريطانيين بدرجة عالية من الاستقلالية وعدم الخضوع للقيود المؤسسية. ويرجع عدم خضوع أنشطتهم التجارية لتنظيم دقيق إلى الظروف السائدة آنذاك في كل من المملكة البريطانية والإيالة الجزائرية، مما منحهم مرونة في التعامل مع تغيرات السوق وتقلبات العلاقات السياسية.

¹ خديجة حالة، الجاليات الأوروبية في الجزائر إبان العهد العثماني 1700-1830، مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي و الثقافي عبر العصور تخصص التاريخ الحديث، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية- أدرار-، 2012-2013، ص 69.

علاوة على ذلك، سعت القنصلية البريطانية إلى تعزيز نشاطها التجاري في الجزائر، متأثرة بالمنافسة المتزايدة مع فرنسا. فعندما قامت شركة "ميشان" الفرنسية في عام 1724م باستئجار مواقع على السواحل الوهرانية لإنشاء مراكز تجارية، بادرت القنصلية البريطانية إلى توسيع نطاق أعمالها في الغرب الجزائري، ممتدة إلى مدينة الجزائر، حيث شهدت تجارتها نمواً ملحوظاً.

وفي هذا السياق، برز التاجر البريطاني الدون خوان وولف **Don Juan Wolf** عام 1779م، الذي تميز بحجم عملياته الواسع وخبرته العميقة في المنطقة، حيث امتدت تجارته لتشمل إسبانيا وإيرلندا وبريطانيا. وبعد ترسيخ الوجود البريطاني في الغرب الجزائري، توسعت الأنشطة التجارية لتشمل الشرق الجزائري، مستفيدة من تنظيم وتجهيز السفن التجارية.

شكلت الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م فرصة مواتية للبريطانيين لتحقيق مصالحهم التجارية. فقد نجحوا في إقناع الداى مصطفى باشا بإلغاء الامتيازات الممنوحة للفرنسيين بسبب تأخرهم في سداد الالتزامات المالية. قدمت القنصلية البريطانية عرضاً للحصول على الامتيازات التجارية لمدة عشر سنوات مقابل 271,150 فرنك سنوياً (ما يعادل حينها 10,846 جنيه إسترليني)، متفوقة على العرض الفرنسي البالغ 105,000 فرنك¹.

وفي أعقاب توسع النفوذ التجاري البريطاني، شهدت فترة حكم الداى أحمد خوجة (1805-1808م) تحولاً جوهرياً في العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا. استثمر نائب الوكيل البريطاني هذا التوتر المتصاعد بكفاءة، مما أدى إلى إضعاف كبير للمصالح التجارية الفرنسية. وقد ازدادت حدة الأزمة بسبب تصرفات القنصل الفرنسي دوبوا تانفيل **Dubois**

¹ خديجة حالة، المرجع السابق، ص ص 70-71.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

Tanville ، الذي استمر في مطالبة الداى بتنفيذ بنود المعاهدات التجارية الموقعة بين البلدين في الفترة 1800-1805م، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين.

في ظل هذه التطورات، اتخذ الديوان موقفاً متسامحاً إزاء تحركات نائب الوكيل البريطاني، حيث سمح له بالعودة إلى عنابة دون قيود. وفي المقابل، عندما حاول "تانفيل" مقابلة الداى لمناقشة الأزمة، تم منعه من دخول القصر بشكل قاطع. وامتد الأمر إلى أبعد من ذلك، إذ أصدر الداى أوامره بمصادرة سفن صيد المرجان الفرنسية في عنابة والقالا، في خطوة تصعيدية.

عكست هذه الأحداث المتتالية تحولاً جوهرياً في موازين القوى التجارية في الجزائر. فبينما نجح البريطانيون في تعزيز مكانتهم واستثمار الظروف لمصلحتهم، وجد الفرنسيون أنفسهم في وضع متراجع. وأظهر هذا التباين في المعاملة بين الطرفين فاعلية الدبلوماسية التجارية البريطانية، وكشف عن عمق الأزمة في العلاقات الفرنسية-الجزائرية، مهدداً بإضعاف النفوذ الفرنسي الراسخ في المنطقة¹.

استثمر الداى التوتر المتزايد مع فرنسا لاتخاذ قرار حاسم بإبعاد قنصلها وإلغاء امتيازاتها التجارية. وفي خطوة إستراتيجية، منح هذه الامتيازات للبريطانيين الذين قدموا عرضاً يفوق المبلغ الفرنسي السابق بـ 150,000 فرنك سنوياً. وتوج هذا التحول الدبلوماسي بمعاهدة رسمية في مطلع عام 1807م، وقعها الداى أحمد باشا والقنصل البريطاني هنري بلانكي **Henry Balanky**.

¹ خديجة حالة، المرجع السابق، ص 72.

نصت المعاهدة على شرطين أساسيين:

1. تسديد بريطانيا للضريبة على دفعتين: 50,000 دولار لخزينة الإيالة، والمبلغ المتبقي لخزينة البايلك، مع احتساب الهدايا.
 2. منح بريطانيا امتياز احتكار صيد المرجان، على غرار ما كان ممنوحاً للفرنسيين سابقاً.
- سارع البريطانيون لاستثمار هذا الوضع الجديد. إذ بادر السير "ألكسندر بال Sir Alexander Ball، حاكم مالطة، بإرسال مبعوث إلى قسنطينة للتفاوض على شراء المؤن الضرورية من حبوب ومواشٍ لتموين القوات البريطانية في مالطة وجبل طارق وماهون¹.

وهكذا، حققت بريطانيا تقدماً استراتيجياً في المنطقة، معززة نفوذها التجاري والعسكري، مستفيدة من تدهور العلاقات الفرنسية-الجزائرية وموظفة دبلوماسيتها بمهارة لملء الفراغ الناجم عن تراجع النفوذ الفرنسي.

يمكن تفسير انتقال المصالح التجارية من فرنسا إلى بريطانيا من خلال ثلاثة عوامل رئيسية:

أولاً: التحول في موازين القوى البحرية: مثلت الهزيمة الفرنسية في معركة ترافلغار البحرية عام 1805م نقطة تحول حاسمة. فقد أضعفت هذه المعركة الفاصلة قوة الأسطول الفرنسي، مما منح بريطانيا السيطرة على مياه البحر المتوسط. هذا التغير الاستراتيجي جعل من بريطانيا القوة الأوروبية الأكثر تأثيراً وأهمية للتعاون التجاري في تقدير حكام الجزائر.

¹ محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1792-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1972، ص ص 234-235.

ثانياً: العرض المالي البريطاني: في ظل أزمة مالية حادة واجهتها الجزائر، تفاقت بسبب الممارسات الاقتصادية لبعض التجار اليهود، قدم البريطانيون عرضاً مالياً تجاوز ما كان يقدمه الفرنسيون بـ 150,000 فرنك. شكل هذا العرض حلاً للخزينة الجزائرية المتعثرة، مما جعله عاملاً مؤثراً في ترجيح الموقف لصالح بريطانيا.

ثالثاً: الدبلوماسية البريطانية المحكمة: نجح القنصل البريطاني في تقديم بلاده كشريك موثوق للجزائر. استثمر الدبلوماسي البريطاني عدم وفاء فرنسا بالتزاماتها تجاه الإيالة، مقدماً بريطانيا كبديل يمكن الاعتماد عليه للتعاون في المجالات المختلفة¹.

في مطلع القرن التاسع عشر، شهدت الجزائر تحولاً في نشاطها التجاري، حيث عزز البريطانيون وجودهم في موانئ الشرق الجزائري الإستراتيجية كعنابة وجيجل والقالمة. ووسّعوا نطاق نشاطهم بتأسيس شركة متعددة الجنسيات، مما أتاح لشركة بكري الاستفادة من هذا التطور. واستمر الفرنسيون في المطالبة بحقوقهم في السواحل الشرقية، مما أدى إلى توترات، في حين تعززت العلاقات البريطانية-الجزائرية بالتبادل الدبلوماسي. غير أن حملة اللورد إكسموث البريطانية على الجزائر عام 1816م أضرت بمصالحهم، مما أتاح المجال لفرنسا لاستعادة نفوذها. ورغم توصية لجنة بريطانية بإعادة المراكز التجارية للفرنسيين، عارض الداوي والنائب البريطاني اسكوديرو Escudero هذا القرار، مما يعكس تعقد الأوضاع السياسية والتجارية آنذاك².

¹ محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص 233-234.

² نفسه، ص 237.

وفي ظل هذه التعقيدات السياسية والمنافسة بين القوى الأوروبية، تأثرت حركة التجارة الخارجية للجزائر بشكل ملحوظ. فقد اتسمت الصادرات الجزائرية إلى بريطانيا في تلك الحقبة بتعقيد ناتج عن تداخل عوامل متعددة. فمحدودية خبرة التجار الجزائريين، إلى جانب سيطرة الوسطاء والوكلاء على المسارات التجارية، أدت إلى نشوء ما يُعرف بـ "الصادرات غير الرسمية". ووفق هذا النمط، يقوم التاجر الجزائري ببيع بضائعه إلى نظيره البريطاني، الذي يتولى عملية الشحن والنقل إلى بريطانيا لإعادة بيعها، مما يجعل عملية التصدير من الجزائر إلى بريطانيا غير مباشرة.

تنوعت الصادرات الجزائرية لتشمل سلعاً رئيسة متداولة في الدول المغاربية. مثلت الحبوب والماشية سلعاً إستراتيجية، حظيت باهتمام بريطاني خاص لتموين قواعدهم البحرية. ويتضح ذلك من خلال تصدير 8000 طن من القمح من ميناء وهران إلى جبل طارق، مما أسهم في تنمية التبادل التجاري بين الطرفين. كما شملت الصادرات منتجات متنوعة مثل ريش النعام، والقطن، والشمع، وزيت الزيتون، والمرجان، والجلود. وبرزت أهمية الأخشاب، خاصة من ميناء جيجل، والصوف المصدّر عبر موانئ بجاية وستورة، رغم المنافسة الفرنسية في هذا المجال¹.

يعكس هذا التنوع في الصادرات، مع تعقد الآليات التجارية، طبيعة العلاقات الاقتصادية الجزائرية-البريطانية في تلك الفترة. فهو يبين قدرة الجزائر على تلبية متطلبات السوق البريطانية المتنوعة، كما يوضح الصعوبات التي واجهت التجار الجزائريين في الاتصال المباشر بالأسواق العالمية، مما دفعهم للاعتماد على الوسطاء البريطانيين للوصول إلى الأسواق الأوروبية.

¹ محمد أمين بوحلوقة، المرجع السابق، ص 245.

في ظل عدم توفر سجلات ضريبية دقيقة، تعتمد دراسة واردات الجزائر من بريطانيا على تحليل الدراسات التاريخية. تشير هذه الدراسات إلى أهمية متزايدة للتجارة البريطانية في حوض المتوسط وجنوب أوروبا، إذ شكلت نحو نصف التجارة الخارجية لبريطانيا بحلول عام 1660م. ومع بداية القرنين السابع عشر والثامن عشر، برزت الدول المغاربية، ومنها الجزائر، كشريك تجاري مهم في سياق التوسع الاستعماري البريطاني.

اتسمت الواردات من بريطانيا بالتنوع، مع التركيز على سلع محددة ذات أهمية إستراتيجية واقتصادية. احتل القماش البريطاني الفاخر مكانة متميزة، إضافة إلى المعدات البحرية اللازمة لتطوير القدرات البحرية للإيالة. تضمنت هذه المعدات حجر الشحن، والحديد، والقطران، والحبال، والزفت، والكبريت، والأسلحة النارية. كما استوردت الجزائر بعض السلع الهندية، مثل الشاي، عبر الوساطة التجارية البريطانية.

بلغت القيمة الإجمالية للواردات حوالي ثمانمائة ألف دولار إسباني، وهو مبلغ يعكس حجماً تجارياً مهماً. غير أن المنتجات البريطانية لم تحظَ برواج واسع في السوق المحلية، مما وجه التجارة البريطانية نحو الاستيراد من الجزائر أكثر من التصدير إليها. يعكس هذا النمط طبيعة العلاقات التجارية بين الطرفين، حيث مثلت الجزائر مصدراً للمواد الأولية أكثر من كونها سوقاً للمنتجات البريطانية المصنعة¹.

¹ محمد أمين بوحلوفة ، المرجع السابق، ص ص 245-246.

ثانيا : علاقات بريطانيا مع تونس العثمانية

1 -العلاقات السياسية :

تمتد جذور العلاقات التونسية-الإنجليزية إلى قرون مضت، إذ يعود الوجود الإنجليزي في تونس إلى عام 1551م¹. وتُعد نقطة التحول المفصلية في هذه العلاقات عام 1623م، حين تم تأسيس أول قنصلية إنجليزية على الأراضي التونسية. شكّل هذا الحدث الدبلوماسي حجر الأساس للعلاقات الرسمية بين البلدين، مدشناً عهداً جديداً من التعاون المشترك².

شهدت تونس في مطلع القرن السابع عشر تحولاً سياسياً جوهرياً مع تأسيس حكم البايات المراديين على يد مراد الأول (1628-1631). وعلى الرغم من كون هذه السلطة أدنى مرتبة من الدايات، فقد استمر حكمها في تونس قرابة سبعة عقود (1631-1702).

اتسمت العلاقات التونسية-الإنجليزية خلال هذه الحقبة بالحذر والدبلوماسية. فالسلطة المرادية، مدركة لتفوق الأسطول الإنجليزي، انتهجت سياسة دبلوماسية محكمة، مما أدى إلى ازدهار التبادل التجاري واستمرار العلاقات الاقتصادية بين الطرفين.

وفي عام 1638م، اتخذت إنجلترا في عهد الملك تشارلز الأول **Charles I** (1625-1649) خطوة دبلوماسية مهمة بتعيين وليام وودهوس **William Woodhous** (1638-1650) خلفاً لسلفه كوك **Cook** في المنصب الدبلوماسي. تركزت مهام وودهوس على هدفين

¹ Adel manai, "Anglo-Tunisian Commercial Relation in The Nineteenth Century, a Travel note", **the Journal of North African Studies**, N°4, vol 11 , London, 2006, p 365.

² Andre Raymond, British policy Towards Tunis (1830-1881), A Thesis of Doctor of Philosophy, Oxford, 1953, p 34.

رئيسيين: صون السلام مع ولاية تونس، وضمان حماية السفن الإنجليزية من نشاط الجهاد البحري¹.

ومع تزايد النشاط التجاري البحري الإنجليزي، برزت مشكلة أسر السفن في تونس عائناً رئيسياً أمام توسع التجارة الإنجليزية في البحر المتوسط، مما دفع الطبقة البرجوازية الإنجليزية للمطالبة بإيجاد حل.

وفي عام 1655م، أصدرت لندن أوامر ملكية للأسطول الإنجليزي لمعاقبة باي تونس. قاد الأدميرال روبرت بليك **Admiral Robert Blake** (1598-1657) أسطولاً مكوناً من 15 سفينة لفرض السيادة الإنجليزية. استهدفت الحملة ميناء حلق الوادي، مما أسفر عن تدمير تحصيناته وإحراق معظم سفنه الراسية.

رداً على هذا الهجوم، أقدم الباي على اعتقال القنصل الإنجليزي توماس براون **Thomas Browne** (1650-1660). غير أن الخشية من عودة الأسطول الإنجليزي أجبرت السلطات التونسية على إطلاق سراحه لاحقاً. ونتيجة لهذه التطورات، حول القراصنة التونسيون أنشطتهم نحو السفن الهولندية والسويدية والإيطالية، تعويضاً عن خسائرهم جراء توقف غاراتهم على السفن الإنجليزية.

¹ اياد تركان إبراهيم، " العلاقات الانجليزية مع ولاية تونس العثمانية آفاق الصراع و التحالف (1623-1762) "، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد 27، العدد 111، العراق، 2021، ص 156.

وبعد استتباب الأوضاع وعودة العلاقات إلى مجراها الطبيعي، نجح القنصل توماس براون في تحقيق إنجازين دبلوماسيين مهمين: تحرير الأسرى الإنجليز المحتجزين في تونس، وإرساء دعائم السلام والصداقة بين الطرفين¹.

في أكتوبر 1662م، تُوجت المساعي الإنجليزية لحماية مصالحها وتنمية تجارتها بتوقيع معاهدة صداقة وتجارة مع تونس. وقّع هذه الاتفاقية، المتضمنة لثلاث عشرة مادة، كل من السير جون لاوسون Sir John Lawson (1615-1665)، القائد العام للأسطول الإنجليزي، ومحمد باي الأول (حمودة باشا المرادي) (1631-1662) عن ولاية تونس. اشتملت المعاهدة على عدة بنود جوهرية: فأكدت المادة الأولى على السلام الدائم وتجاوز الخلافات السابقة، في حين منحت المادة الثانية الإنجليز حق الدخول والتجارة بحرية في الموانئ التونسية. والتزمت بريطانيا، بموجب المادة الرابعة، بحماية السفن التونسية وعدم تسليمها لأعدائها، بينما كفلت المادة السادسة حرية تنقل الرعايا الإنجليز وأسره داخل الولاية وخارجها. أما المواد الأخرى، فتناولت آليات التعاون بين الطرفين لضمان استدامة السلام وحماية سفن رعايا البلدين².

شكلت معاهدة 1662م منعطفاً تاريخياً في العلاقات الإنجليزية-التونسية، إذ مثلت أول تحالف رسمي بين البلدين. وتميزت بتركيزها على الجوانب التجارية، مما يعكس محورية المصالح الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية آنذاك. جاء توقيع هذه المعاهدة إبان فترة شهدت فيها تونس والدول المغاربية ذروة قوتها، لا سيما في النصف الثاني من القرن السادس

¹ اياد تركان إبراهيم، المرجع السابق، ص ص 156-157.

² Lewis Hertslet, A Complete collection of The Treaties and Conventions at Present Subsisting Between Great Britian & Foreign Powers, Vol 1, London, 1820, pp 157-158.

عشر. وخلال هذه الحقبة، تعاظم دور رياس البحر، حتى وصفهم تشارلز سومر Charles Sumner بأنهم "آفة على المسيحية"، مما يشير إلى نفوذهم الكبير وقوتهم البحرية المتنامية¹.

مع مطلع القرن الثامن عشر، شهدت تونس تحولاً سياسياً جذرياً تجلّى في صعود الأسرة الحسينية إلى سدة الحكم. هذه السلالة الجديدة من البايات، التي تنتسب إلى مؤسسها حسين بن علي التركي (1705-1740)، أرست دعائم الاستقرار النسبي في البلاد. وخلال هذه الفترة، تصاعدت حدة المنافسة بين القوى الأوروبية، ولا سيما بين إنجلترا وفرنسا، للهيمنة على الدول المغاربية عموماً وتونس خصوصاً، مما دفع بريطانيا إلى تكثيف مساعيها الدبلوماسية والتجارية في المنطقة.

ومما فاقم هذا التنافس النفوذ الكبير الذي تمتعت به فرنسا لدى الباي التونسي. غير أن مجريات الأحداث الدولية صبت في مصلحة بريطانيا². فعقب انتهاء حرب الوراثة الإسبانية (1701-1714)³، وتوقيع معاهدة أوترخت⁴ عام 1713م، حققت بريطانيا مكاسب إستراتيجية مهمة، إذ حصلت بموجب المعاهدة على جبل طارق الذي احتلته سنة 1704م وجزيرة منوركا

¹ Adel Manai, op.cit, p 365.

² إياد ترکان إبراهيم، المرجع السابق، ص 159.

³ Nat Cutter, "Peace with Pirates ? Maghrebi Maritime Combat, Diplomacy, and Trade in English Periodical News, 1622-1714", Vol 179, N°8, **Humanities**, Australlia, 2019, p 16.

⁴ معاهدة أوترخت : رسخت معاهدة أوترخت (1713) مكانة بريطانيا العظمى كقوة عالمية صاعدة. وقد تم إطلاق هذا المسمى بعد توحيد إنجلترا واسكتلندا وتأسيس البرلمان البريطاني عام 1707، ومنذ ذلك الحين أصبح يُطلق على إنجلترا اسم بريطانيا العظمى. للاستزادة أنظر إلى :

R.J.White, A Short History of England, At The University Press, Cambridge, 1967, p 190.

سنة 1708م¹. عززت هذه المكتسبات الجيوسياسية موقع بريطانيا في حوض البحر المتوسط وشمال إفريقيا، مما مهد السبيل لتعاون متنامٍ مع الدول المغربية في المجالين العسكري والاقتصادي. وفي ظل هذا التقارب، احتدم التنافس بين بريطانيا وفرنسا على شراء الحبوب من المنطقة².

وفي 30 أوت 1716م، تُوجت جهود تعزيز العلاقات بين تونس وبريطانيا العظمى بتوقيع معاهدة السلام بين حسين باي والأدميرال جون بيكر **John Baker** (1660-1716)، قائد الأسطول البريطاني. أرست هذه الاتفاقية، المكونة من ثمانية عشر بنداً، أسساً راسخة للتعاون بين البلدين.

نصت المادة الأولى من المعاهدة على إرساء السلام الدائم والتجارة الحرة بين رعايا البلدين، في حين كفلت المادة الثانية حرية دخول السفن إلى موانئ وأنهار الطرفين مقابل رسوم على البضائع المباعة فقط. وحظرت المادة الثالثة الاستيلاء على سفن أي من الطرفين في البحر، واشترطت على السفن التونسية حمل شهادة موثقة من القنصل البريطاني. أما المادة الرابعة، فألزمت السفن البريطانية بحماية البضائع والركاب التابعين لمملكة تونس على متنها³.

¹ استولت الملكية الإنجليزية على جبل طارق (1704) وجزيرة مينوركا (1708) في حرب الخلافة الإسبانية (1701-1714). كانت الحرب نجاحاً كاملاً لإنجلترا. بموجب معاهدة أوترخت (1713) استحوذت الملكية على جبل طارق ومينوركا. علاوة على ذلك، حصلت إنجلترا على فوائد مهمة أخرى، مثل الامتيازات التجارية في أمريكا الإسبانية، وجزيرة سانت كيتس في جزر الهند الغربية، وإقليم خليج هدسون وأكاديا. انظر إلى :

Hudson Bay Territory and Acadia. Dul!, Jonathan R.: The Age of the Ship of the Line: the British and French Navies, 1650-1815. University of Nebraska Press, Lincoln, 2009, p 33.

² Nat Cutter, op.cit, p 16.

³ Lewis Hertslet, op.cit, pp 159-160

تناولت المواد من الخامسة إلى التاسعة الأسس الجوهرية للعلاقات التجارية بين الدولتين، مؤسسة إطاراً قانونياً متيناً لحماية حقوق ومصالح الطرفين¹. وعالجت المادتان العاشرة والحادية عشرة مسائل السيادة والمعاملة التفضيلية، إذ أقرتا بالسيادة البريطانية الكاملة على جزيرة منوركا وجبل طارق، ومنحتا سكان هاتين المنطقتين وضعاً خاصاً كرعايا بريطانيين. كما ضمنت هاتان المادتان امتيازات تجارية استثنائية للسفن البريطانية القادمة من هذين الإقليمين في المياه التونسية.

وجاءت المادة الثانية عشرة لتتوج الاتفاقية بإرساء مبدأ المعاملة بالمثل في مجال الخدمات البحرية، حيث منحت سفن الطرفين حق الوصول إلى موانئ الطرف الآخر لإجراء الإصلاحات وتجديد المؤن دون رسوم جمركية².

ونظمت المادة الخامسة عشرة مراسم التحية البحرية، مؤسسة بروتوكولاً دبلوماسياً يجسد الاحترام المتبادل بين البلدين. فعند وصول السفن البريطانية، تبادر المدافع التونسية بإطلاق خمس وعشرين طلقة تحية للعلم البريطاني، لترد بريطانيا بالمثل.

أما المادة السادسة عشرة، فحددت إطاراً جمركياً واضحاً بتثبيت الرسوم عند نسبة ثلاثة في المائة، مما أرسى قواعد شفافة للمعاملات التجارية.

وأرست المادة السابعة عشرة مبدأ الدولة الأكثر رعاية مع ميزة تفضيلية لبريطانيا، إذ ألزمت تونس بمنح بريطانيا أي تخفيض جمركي تمنحه لفرنسا، مع ضمان أن تكون الرسوم البريطانية أقل بنسبة اثنين في المائة من نظيرتها الفرنسية.

¹ Lewis Hertslet, op.cit, p 161 .

² Ibid, 162.

وختاماً، منحت المادة الثامنة عشرة إعفاءات جمركية مهمة للبريطانيين، إذ أعفت سفنهم ورعاياهم من دفع أي رسوم على استيراد المعدات الحربية والمؤن، مما عزز الوجود البريطاني في المنطقة ويسر عمليات التمويل والدعم لقواتهم¹.

تجلت استقلالية ولاية تونس بوضوح في ظل غياب الدور العثماني في إبرام المعاهدات. غير أن هذا الاستقلال الظاهري، رغم أهميته، جعل تونس هدفاً يسهل بلوغه للقوى الأوروبية الطامحة للهيمنة. وفاقم من هذا الوضع محدودية سلطة الباي في كبح نشاط البحري لرياس، مما أفضى في مناسبات عديدة إلى تدخلات عسكرية بريطانية لضمان وفاء الباي بتعهداته.

شهد عهد علي باي الأول (1729-1756) تطوراً ملحوظاً في العلاقات البريطانية-التونسية. إذ سعت بريطانيا بحماس إلى توطيد روابطها مع الولاية، لا سيما مع امتداد صراعها مع فرنسا إلى خارج القارة الأوروبية في القرن الثامن عشر. وأضحت تونس، بموقعها الاستراتيجي، ميداناً للتنافس بين القوتين الاستعمارييتين.

وفي خضم هذا التنافس الدولي، انتهج الباي سياسة محكمة، فبينما وثق علاقاته مع بريطانيا، حافظ في الوقت نفسه على روابطه مع فرنسا. وقد مكنته هذه الموازنة بين نفوذ الدولتين من الإفادة من الصراع القائم بينهما².

وتعزيزاً للعلاقات بين البلدين، وُقعت معاهدة صداقة وتجارة في التاسع عشر من أكتوبر 1751م بين قائد الأسطول البريطاني الأدميرال أوغسطس كيبل¹ Augustus kepel وعلي

¹ Lewis Hertslet, op.cit, pp 164-163 .

² إياد تركان إبراهيم، المرجع السابق، ص 160.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

باي تونس². تضمنت المعاهدة ستة وعشرين بنداً، وجاءت تنويعاً لسلسلة من الاتفاقيات السابقة، مستندة إلى الأسس التي وضعتها معاهدتا عامي 1662م و1716م، مع إضافة بنود جديدة لتعزيز العلاقات الثنائية.

وفيما يتعلق بالبنود المستحدثة، جاءت المادة الأولى بمثابة حجر الأساس للمعاهدة، إذ أرسيت مبدأً جوهرياً: تجاوز خلافات الماضي والتطلع نحو مستقبل أكثر إشراقاً. فقد نصت على إنهاء جميع الخلافات السابقة بين الطرفين، معلنة بداية عهد جديد من السلام الدائم والتجارة الحرة.

نصت المادة الخامسة على التزام كل طرف بتقديم العون والمساعدة في حال تعرض سفن الطرف الآخر لحوادث بحرية على سواحلها، سواء نجمت عن سوء الأحوال الجوية أو أي ظروف قاهرة. وألزم هذا البند الطرفين بتحرير الأفراد وإنقاذ البضائع وإعادتها لأصحابها الشرعيين، مما وفر حماية للتجارة البحرية وعزز الثقة في المعاملات التجارية بين البلدين³.

أما المادة الثامنة عشرة فأرسيت أساساً للتعاون الاقتصادي والعسكري، إذ منحت الطرفين امتيازاً استثنائياً باستيراد المواد الحربية والغذائية دون رسوم جمركية.

¹ أوغسطس كابل(1725-1786): أميرال بريطاني في القرن الثامن عشر. تم تعيين كيبيل قائداً لأسطول البحر الأبيض المتوسط البريطاني في 11 مايو 1749. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

Keppel, Thomas Robert, The Life of Augustus, Viscount Keppel, Admiral of the White, and First Lord of the Admiralty in 1782-1783. Vol. I. Henry Colburn, London, 1842, p147.

² Lewis Hertslet, op.cit, p. 164

³ Ibid, pp 165-166.

وتضمنت المادة التاسعة عشرة تعهد الباي بعدم تقديم أي مساعدة لأعداء بريطانيا، مما وضع تونس في موقع الحليف الاستراتيجي لبريطانيا في منطقة البحر المتوسط. وعالجت المادة العشرون مسألة العدالة الجنائية عبر الحدود، إذ نصت على محاكمة أي رجل إنجليزي يقتل تونسياً وفقاً للقانون، وإعدامه في حال إدانته، مع إعفاء القنصل الإنجليزي من المسؤولية في حال هروب المتهم.

وضعت المادة الحادية والعشرون إطاراً إنسانياً للتعامل مع الأزمات الدبلوماسية، فنصت على السماح للقنصل البريطاني ورعاياه بمغادرة تونس بأمان في حال نشوب حرب بين البلدين، مع ضمان الحق نفسه للتونسيين في بريطانيا¹.

وفي أعقاب حرب السنوات السبع (1756-1763)، شهد ميزان القوى العالمي تحولاً جذرياً لمصلحة بريطانيا. فقد أسفر هذا الصراع الدولي عن انحسار النفوذ الفرنسي، إذ فقدت فرنسا غالبية مستعمراتها، وتكبد أسطولها خسائر فادحة، وعانت خزينتها من أزمة مالية حادة.

وفي المقابل، برزت بريطانيا قوة عظمى بلا منازع، موسعة نطاق نفوذها في الساحة الدولية. وانعكس هذا التحول الجيوسياسي على منطقة شمال إفريقيا وحوض البحر المتوسط، فبتمركزها الاستراتيجي في جبل طارق وجزيرة منوركا، تبوأَت بريطانيا مكانة القوة المهيمنة في هذه المنطقة الحيوية.

وفي خضم هذه التحولات، برز دور علي باي حاكم تونس، الذي أدرك بحنكة تراجع الموقف الفرنسي. فاستغل هذا الضعف بمهارة، متجاوزاً حدود الدبلوماسية التقليدية. وتجلّى ذلك في

¹ Lewis Hertslet, op.cit, p 169 .

حادثة دالة حين أجبر القنصل الفرنسي فرانسوا فورت **François Fort** على تقبيل يده، في مشهد يجسد تحول موازين القوى. واستمر هذا التقليد، الذي عكس تراجع النفوذ الفرنسي وصعود السلطة المحلية، حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر¹.

في إطار مساعيها لتعزيز نفوذها في تونس، أبرمت بريطانيا معاهدة مهمة في 22 جوان 1762م. وقّع على هذه المعاهدة كل من باي تونس علي باشا (1759-1782) والمبعوث البريطاني أرشيبالد كليفلاند **Archibald Cleveland**. اشتملت المعاهدة على أربعة بنود رئيسية، حيث تضمن البند الأول تأكيداً وتجديداً لمعاهدة السلام والتجارة السابقة التي أبرمت بين الطرفين عام 1751م.

أما المادة الثالثة من هذه المعاهدة، فقد منحت بريطانيا امتيازاً استراتيجياً مهماً، إذ نصت على أنه في حال وجود سفن تابعة لدول معادية لبريطانيا في الموانئ التونسية، يحق للبريطانيين الاستيلاء عليها².

كان الهدف الرئيس من هذه المعاهدة تعزيز التعاون التجاري والسلمي بين بريطانيا وتونس. فقد حصلت بريطانيا على امتيازات استثنائية، تمثلت في حرية حركة سفنها وصلاحيات التعامل مع السفن المعادية قبالة السواحل التونسية.

انعكست آثار حرب السنوات السبع¹ بوضوح على بنود المعاهدة، لا سيما في المادة الثالثة. سعت بريطانيا من خلالها إلى ضم تونس إلى نطاق نفوذها، آملة في الاعتماد عليها حليفاً

¹ إياد تركان إبراهيم، المرجع السابق، ص 161.

² Lewis Hertslet, op.cit, pp.172-171

استراتيجياً في صراعاتها المستقبلية مع خصومها. وعلى الرغم من أن المعاهدة صُممت لخدمة المصالح البريطانية بالدرجة الأولى، إلا أن تونس أظهرت استعداداً للتجاوب مع هذه المساعي.

يتضح أن الظروف الدولية في تلك الحقبة كانت تصب في مصلحة بريطانيا. فقد نجحت في بسط سيطرتها على الهند، مزيحة النفوذ الفرنسي، كما استولت على معظم المستعمرات الفرنسية في أمريكا الشمالية². منحت هذه الانتصارات بريطانيا موقفاً تفاوضياً قوياً، مكّنها من صياغة معاهدات تخدم مصالحها الاستراتيجية، كما حدث مع تونس.

وعقب وفاة علي باشا، تولى ابنه حمودة باشا (1782-1814) مقاليد الحكم في تونس. واصل حمودة سياسة والده في توطيد العلاقات مع القوى الأوروبية، مع الحرص على صد الأطماع الأجنبية. اتسمت فترة حكمه بنشاط دبلوماسي ملحوظ، إذ أبرم العديد من المعاهدات وتبادل السفراء مع الدول الأجنبية، واستقبل قناصلها في تونس.

¹ **حرب السنوات السبع** : هي الحرب التي شُنت بين بعض الدول الأوروبية، وامتد ميدان القتال إلى أمريكا الشمالية والهند والخليج العربي، وكانت بين فرنسا وحليفتها النمسا وحلفائها من جهة وبريطانيا وحليفتها روسيا من جهة أخرى، إذ اندلعت عام 1756م، واستمرت مدة سبع سنوات. خاضت الجيوش معارك عديدة قاسية في مناطق محتلة، أنهكت قوى الطرفين، وبعد خسارة فرنسا أصبحت بريطانيا الدولة الاستعمارية الأولى في العالم. كان العامل الأساسي الذي تسبب في قيام حرب السنوات السبع هو احتدام المنافسة بين بريطانيا وفرنسا في جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية في الغرب، لذا تأزم الموقف بين المستعمرين البريطانيين والفرنسيين، مما أُنذر بوقوع حرب بين الدولتين حتى يتقرر مصير المستعمرات. للاستزادة أنظر الى : يوسف ساحي فرحات حسين الدليمي، " أثر حرب السنوات السبع في منطقة الخليج العربي 1756-1763"، **مجلة الأدب**، العدد 139، 2021، ص 152.

² أياد تركان إبراهيم، المرجع السابق، ص 161.

وعلى الرغم من علاقاته الوثيقة مع فرنسا، بدأ حمودة يميل نحو بريطانيا، خاصة بعد تفوقها في الصراعات مع فرنسا. كان يرى أن مصلحة تونس تكمن في تبني سياسة متينة مع القوة العظمى آنذاك. تجلّى هذا التوجه في إيفاد العديد من السفراء والشخصيات التونسية البارزة إلى لندن.

ومن أبرز هذه البعثات الدبلوماسية مهمة الوزير محمد خوجة عام 1796م. أُوفد إلى بريطانيا حاملاً رسالة تطالب بإطلاق سراح ثلاث سفن فرنسية كان الأسطول البريطاني قد احتجزها في ميناء حلق الوادي التونسي. غير أن السلطات البريطانية لم تستقبل الوفد التونسي بالحفاوة المتوقعة، مما أدى إلى إخفاق المهمة الدبلوماسية.

أدى هذا الموقف البريطاني إلى توتر العلاقات بين البلدين. ونتيجة لذلك، تباطأت بريطانيا في سداد التزاماتها المالية تجاه تونس لسنوات عدة، مما أسهم في تعقيد العلاقات الثنائية¹.

تسبب التوتر المتصاعد في العلاقات التونسية البريطانية خلال حكم حمودة باشا في خلق فرصة إستراتيجية استغلتها فرنسا بمهارة. إذ سارعت فرنسا إلى ممارسة ضغوط دبلوماسية على الباي التونسي، ساعية للحصول على امتيازات اقتصادية جديدة. هذا التحرك الفرنسي أثار حفيظة بريطانيا، التي رأت فيه تهديداً لمصالحها في المنطقة.

¹ الحامد نوره بنت معجب، "علاقات بريطانيا بولاية تونس في العهد العثماني 1779-1830"، مجلة القراءة والمعرفة،

العدد 62، جامعة عين شمس، 2005، ص 144.

نتيجة لهذا، تحولت تونس في عهد حمودة باشا إلى ساحة صراع نفوذ بين القوتين الأوروبيتين العظميين آنذاك: فرنسا وبريطانيا. كل منهما كانت تسعى لتعزيز موقعها الاستراتيجي والاقتصادي في هذا الجزء الحيوي من الدول المغاربية¹.

خلال فترة حكم حمودة باشا، شهدت البحرية التونسية ازدهاراً ملحوظاً، مما مكّنها من الصمود أمام القوى الأوروبية وتحدي نفوذها. استخدم حمودة باشا هذه القوة البحرية كأداة للضغط الدبلوماسي، خاصة عند تولي حكام جدد في الدول الأوروبية. هذا التنامي في القوة البحرية التونسية والمغاربية أثار قلق بريطانيا، التي كانت تتمتع بتفوق بحري في البحر الأبيض المتوسط. نتيجة لذلك، تبنت بريطانيا سياسة تهدف إلى الحد من النشاط البحري للدول المغاربية، وسعت منذ بداية القرن التاسع عشر للقضاء على القوى البحرية المنافسة لها في المنطقة.

على الرغم من فترات التوتر، ظلت العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وتونس متينة في عهد حمودة باشا. استمر تبادل السفراء بين البلدين بوتيرة ملحوظة، مما يعكس الأهمية الإستراتيجية التي أولاهما الطرفان لهذه العلاقة.

من أبرز المبادرات الدبلوماسية في هذه الفترة، كانت مهمة محمد الجلولي سفيراً إلى بريطانيا ومالطة، التي كانت آنذاك تحت الحكم البريطاني. امتدت مهمة الجلولي من عام 1810م إلى 1813م، حيث قضى ثلاث سنوات حافلة بالنشاط الدبلوماسي والعسكري. خلال إقامته، أشرف الجلولي على مشروع لتعزيز القدرات العسكرية التونسية، إذ أشرف على بناء سفن حربية

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 144.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

وتصنيع معدات عسكرية لصالح تونس، مما يشير إلى مستوى الثقة والتعاون العسكري بين البلدين

بالإضافة إلى مهامه العسكرية، انخرط الجلولي في مفاوضات مكثفة مع المسؤولين البريطانيين حول قضايا ذات اهتمام مشترك. من أهم إنجازاته الدبلوماسية، نجاحه في الحصول على تصريح من الحكومة البريطانية يسمح للسفن التونسية بالوصول بحرية إلى الموانئ البريطانية¹.

في سياق تعزيز العلاقات الثنائية، أبرمت بريطانيا وتونس معاهدة إستراتيجية في 2 ماي 1812م بقصر باردو. وقع على هذه الاتفاقية الباي حمودة باشا والسيد رابنسون **Mr Rabenson**، مسؤول الشؤون القنصلية البريطانية في تونس. تميزت المعاهدة بإيجازها، إذ اشتملت على ثلاثة بنود رئيسية هدفت إلى تنظيم حركة السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة في الموانئ التونسية، وتأكيد حياد تونس في النزاعات الدولية، ومنع بيع الغنائم الحربية داخل أراضيها².

بعد وفاة حمودة باشا عام 1814م، دخلت تونس مرحلة جديدة تميزت بتولي حكام ضعفاء، مما أدى إلى تراجع قدرتها على مقاومة الضغوط الأوروبية المتزايدة. تزامن هذا التحول مع نهاية الحروب الأوروبية وانعقاد مؤتمر فيينا عام 1815م، حيث بدأت القوى الأوروبية تولي اهتماماً متجدداً بنشاط الدول المغاربية، وخاصة تونس.

¹ الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814، أطروحة دكتوراه في درجة الفلسفة، تخصص تاريخ أمريكا، جامعة بيروت، 1971، ص 457.

² Lewis Hertslet, op.cit, pp 173-174.

خلال فترة حكم حمودة باشا، شهدت البحرية التونسية ازدهاراً ملحوظاً، مما مكّنها من الصمود أمام القوى الأوروبية وتحدي نفوذها. استخدم حمودة باشا هذه القوة البحرية كأداة للضغط الدبلوماسي، خاصة عند تولي حكام جدد في الدول الأوروبية.

هذا التنامي في القوة البحرية التونسية والمغاربية أثار قلق بريطانيا، التي كانت تتمتع بتفوق بحري في البحر الأبيض المتوسط. نتيجة لذلك، تبنت بريطانيا سياسة تهدف إلى الحد من النشاط البحري للدول المغاربية. منذ بداية القرن التاسع عشر، سعت بريطانيا جاهدة للقضاء على القوى البحرية المنافسة لها في المنطقة، والتي كانت تفرض رسوماً على السفن المسيحية العابرة.

تذرت بريطانيا بمكافحة ما أسمته "القرصنة" وتجارة الرقيق لتبرير تدخلها. إلا أن الدوافع الحقيقية وراء هذه السياسة، والتي شاركتها فيها دول أوروبية أخرى، كانت الرغبة في السيطرة الكاملة على حوض البحر المتوسط والقضاء على المنافسة البحرية من الدول المغاربية¹.

في أعقاب مؤتمر فيينا مباشرة، اتخذت بريطانيا خطوات حاسمة للتدخل في شؤون المنطقة، متذرة بحماية المصالح المسيحية. لتعزيز شرعية تحركها، تحالفت مع الأسطول الهولندي، مما أضفى على الحملة طابعاً أوروبياً مشتركاً. كان هدفهم الظاهري إجبار تونس على توقيع معاهدة تلتزم فيها بوقف ما وصفوه بالقرصنة وتجارة الرقيق.

عندما لم تلتزم تونس بشروط المعاهدة، صعدت بريطانيا موقفها بإرسال أسطول قوي بقيادة الأدميرال إكسموث **Admiral Exmouth**. نجحت هذه الحملة في تقليص النشاط البحري

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 154.

التونسي في البحر الأبيض المتوسط بشكل ملحوظ، مما أدى إلى تغيير جذري في موازين القوى البحرية في المنطقة.

امتدت تداعيات الحملة البريطانية إلى البنية السياسية الداخلية للإيالة التونسية. فتحت وطأة الضغط العسكري، اضطر الباي محمود إلى إصدار قرار تحرير الأسرى، مما أثار موجة من السخط في صفوف الانكشارية. تطور هذا الاستياء إلى اضطرابات واسعة النطاق في عام 1816م، كشفت عن هشاشة النظام السياسي في تونس¹.

شكّل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م منعطفاً تاريخياً في المشهد السياسي لدول المغاربية. ألقى هذا الحدث بظلاله على الإيالة التونسية المجاورة، حيث أثار مخاوف جدية من امتداد النفوذ الفرنسي إلى أراضيها.

إزاء هذا التهديد المحدق، اتخذت السلطة الحاكمة في تونس موقفاً استباقياً. فقد بادر الباي، مدفوعاً بالخشية من تكرار السيناريو الجزائري، إلى تأمين موقف إيالته عبر المسار الدبلوماسي. وتجلّى ذلك في مبادرته بالتواصل مع القنصل الفرنسي، سعياً لفتح قنوات الحوار وتجنب المواجهة المباشرة. أثمرت هذه المساعي الدبلوماسية عن توقيع معاهدة قرطاج في 8 أوت 1830م².

ومع احتلال الفرنسي للجزائر، أسفرت المفاوضات عن توقيع معاهدة 8 أوت 1830م التي مثلت تحولاً في العلاقات الفرنسية-التونسية، إذ تعهد الباي بموجبها بوقف النشاط البحري غير

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص ص 156-157.

² Andre Raymond, op.cit, p 47.

المشروع وتحرير الأسرى المسيحيين. في المقابل، حصلت فرنسا على امتيازات إستراتيجية تمثلت في حق صيد المرجان وإنشاء كنيسة في قرطاج¹.

وفي أعقاب هذه المعاهدة، برزت مبادرة دبلوماسية لافتة من الممثلين الفرنسيين في المنطقة. فقد استغل كل من القنصل الفرنسي في تونس، فرديناند دو لسبس **Ferdinand de Lesseps**، والجنرال كلوزيل **Général Clauzel**، القائد العسكري في الجزائر، حالة التوتر السائدة لتقديم مقترح جريء للباي حسين. تمثل المقترح في إشراك الإيالة التونسية في إدارة أقاليم من الجزائر المحتلة، عبر تعيين أمراء من الأسرة الحسينية الحاكمة لإدارة بايلك وهران وقسنطينة. اقترن هذا العرض بشرط أساسي يتمثل في اعتراف هؤلاء الأمراء بالسيادة الفرنسية على الجزائر والتزامهم بدفع الجزية لفرنسا. وضع هذا المقترح الباي حسين في موقف حرج، دفعه إلى التريث في اتخاذ قراره. وفي خضم هذه المناورات السياسية، استشار الباي القنصل البريطاني توماس ريد **Thomas Read (1824-1849)**. جاءت نصيحة ريد حاسمة وصريحة: توخي أقصى درجات الحذر في التعامل مع فرنسا وتجنب أي خطوة قد تعزز نفوذها في تونس. لم يحظ هذا المقترح الطموح من دو لسبس **de Lesseps** وكلوزيل **Clauzel** بموافقة الحكومة الفرنسية².

أدت هذه التطورات إلى تراجع النفوذ البريطاني في تونس بشكل ملحوظ، وهو ما عبر عنه القنصل البريطاني توماس ريد **Thomas Reade** بقوله: "إن الحملة الفرنسية على الجزائر قد

¹ Andre Raymond, op.cit, p 47.

² Ibid, p 49.

قوضت التأثير البريطاني بشكل جوهري في أرجاء تونس. وفي ظل هذه الظروف، علينا أن نتقبل مؤقتاً نهج هؤلاء الحكام في التعامل مع فرنسا¹.

أدركت بريطانيا الأهمية الجيوستراتيجية للإيالة التونسية، لاسيما موانئها الإستراتيجية، مما دفعها إلى تبني سياسة تهدف إلى منع هيمنة أي من القوى الأوروبية عليها. لتحقيق هذه الغاية، طورت بريطانيا إستراتيجية متعددة المحاور: تمثل المحور الأول في السعي لدى الباب العالي لتعزيز سلطته المباشرة على تونس، خشية تكرار المجرى الجزائري. وفي المحور الثاني، حثت السلطان العثماني على تشجيع بايات تونس على إظهار ولائهم للسلطنة. أما المحور الثالث، فتجلى في تعزيز بريطانيا لمفهوم التبعية التونسية للدولة العثمانية من خلال رفضها إرسال قناصلها مباشرة إلى باي تونس، مفضلة توجيه الاتصالات الدبلوماسية عبر سفيرها في الآستانة².

في مقابل المسعى البريطاني لتوثيق الروابط العثمانية-التونسية، انتهجت فرنسا سياسة مغايرة. عملت على استمالة البايات التونسيين، متبعة إستراتيجية دقيقة لزراعة ثقتهم بالسلطنة العثمانية. روجت الدبلوماسية الفرنسية لفرضية وجود مخطط عثماني لضم تونس مباشرة إلى أراضي السلطنة، مستشهدة بالتجربة في ولاية طرابلس الغرب. هدفت فرنسا من خلال هذه المناورات الدبلوماسية إلى إحداث قطيعة في العلاقات التونسية-العثمانية، تمهيداً لبسط نفوذها على هذه الإيالة الإستراتيجية في حوض المتوسط³.

¹ Andre Raymond, op.cit, p 50.

² الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 164.

³ صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، 1993، ص ص 164-165.

استمر هذا الصراع على النفوذ خلال حكم المشير أحمد باشا باي (1837-1855)، الذي رأى في تقليص ارتباطه بالباب العالي سبيلاً لتعزيز استقلاليتة. وظفت فرنسا هذا التوجه لصالحها، فتعاملت مع الباي كحاكم مستقل، في حين أصرت بريطانيا على معاملته كتابع للسلطان العثماني.

أدى هذا التباين في المقاربة الدبلوماسية إلى تراجع النفوذ البريطاني في تونس، مقابل تعاظم الحضور الفرنسي. أصبح المشير أحمد يعتمد على فرنسا في مشاريعه الإصلاحية، مما عزز التغلغل الفرنسي في دواوين الدولة التونسية. استمر هذا المسار التصاعدي في النفوذ الفرنسي حتى بلغ ذروته بفرض نظام الحماية على تونس عام 1881م، متوجاً بذلك عقوداً من المناورات الدبلوماسية والسياسية الفرنسية في المنطقة¹.

2 - العلاقات التجارية :

أولت السلطة الحاكمة في تونس اهتماماً خاصاً بالنشاط التجاري الخارجي في إطار سياسة الانفتاح الاقتصادي، حيث عمد البايات إلى إبرام معاهدات تجارية مع القوى الأجنبية بهدف جذب الاستثمارات وتطوير الاقتصاد المحلي. شهدت العلاقات التجارية التونسية-البريطانية تطورات ملحوظة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر².

تمتعت كل من بريطانيا وفرنسا بامتيازات تجارية متميزة في الإيالة التونسية، تجلت في معدل تفضيلي للرسوم الجمركية بنسبة 3%، مقارنة بنسبة 5% المفروضة على بقية الدول

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 165-166.

² نفسه، ص 150.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

الأجنبية المتعاملة تجارياً مع تونس، كإسبانيا والولايات الإيطالية والولايات المتحدة الأمريكية والدنمارك والسويد¹.

على الرغم من هذه الامتيازات التفضيلية، ظل حجم التبادل التجاري البريطاني-التونسي محدوداً نسبياً. وقد لفت هذا الواقع انتباه الرحالة البريطاني ستانلي خلال زيارته للإيالة عام 1784م، حيث عبر عن أسفه لغياب المؤسسات التجارية البريطانية في السوق التونسية.

شكل هذا الغياب النسبي للنشاط التجاري البريطاني تناقضاً ملحوظاً مع الحضور الاقتصادي القوي للقوى الأوروبية الأخرى في تونس. برزت فرنسا تحديداً كشريك تجاري رئيسي، إذ نجحت في تأسيس شبكة من العلاقات الاقتصادية وترسيخ حضور تجاري متميز في الإيالة².

في سياق الجهود المبذولة لتعزيز الحضور التجاري البريطاني، برزت مساعي القنصل البريطاني بركينز ماجرا Perkins Magra (1789-1803) كمحاولة جادة لتغيير واقع العلاقات التجارية المحدودة بين الطرفين. استثمر بركينز ماجرا Perkins Magra المناخ الإيجابي الذي ساد خلال عهد الباي حمودة باشا، الذي أظهر انفتاحاً واضحاً تجاه تنمية العلاقات التجارية الدولية.

¹ Louis Frank, Histoire et Description De La Régence de Tunis, Firmin Didot frères, Paris, 1851, p 83.

² Edward Stanlay, Observations on The City of Tunis, and The Adjacent Country ; With A View of Cape Carthage, Tunis Bay, and The Goletta Taken on The Spot, Prented for the Author, London, 1786, p 15.

وثق بركينز ماجرا Perkins Magra في تقاريره الدبلوماسية هذا التوجه الإيجابي، مشيراً إلى تشجيع الباي حمودة باشا للجانب البريطاني على تعزيز التبادل التجاري مع الإيالة التونسية¹.

اتبع حمودة باشا سياسة اقتصادية توسعية ومدروسة، هدفت إلى تعزيز المكانة التجارية للإيالة التونسية في الساحة الدولية. فعمل على توسيع نطاق الصادرات الزراعية، وعلى رأسها القمح، إلى الأسواق الأوروبية بصورة غير مسبقة. ولم يقتصر جهده على ذلك، بل سعى إلى استكشاف أسواق جديدة للمنتجات التونسية في أوروبا، مما أدى إلى تعزيز التبادل التجاري مع الدول الأوروبية بشكل ملحوظ.

ولدعم هذه السياسة التجارية الطموحة، أولى حمودة باشا اهتماماً خاصاً بتطوير البنية التحتية للبلاد. فعمل على تحديث وتوسيع الأسطولين البحري والبري، مما يسّر عمليات النقل والتصدير.

وعلى الصعيد الدبلوماسي، انتهج حمودة باشا سياسة متوازنة تمثلت في إبرام معاهدات تجارية مع القوى الأوروبية. وهدفت هذه المعاهدات إلى تجنب النزاعات وضمان استمرارية العلاقات التجارية. كما التزم سياسة الحياد في الخلافات الأوروبية، متجنباً الانحياز لأي طرف في الصراعات القائمة بين القوى الأوروبية آنذاك².

شهدت العلاقات التجارية بين تونس وبريطانيا تحولاً إيجابياً ملحوظاً نتيجة للتطورات السياسية في أوروبا أواخر القرن الثامن عشر. فبينما كانت فرنسا تتمتع بنفوذ تجاري قوي في

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص ص 150-151.

² الإمام رشاد، المرجع السابق، ص ص 301-302.

تونس، أدت الاضطرابات السياسية الناجمة عن الثورة الفرنسية، وخاصة إعدام الملك لويس السادس عشر **Louis XVI** عام 1793م وإعلان الجمهورية، إلى تغيير جذري في المشهد.

اعتبر الباي حمودة باشا هذه التغييرات السياسية في فرنسا سبباً كافياً لإعادة النظر في الاتفاقيات التجارية القائمة بين البلدين. فقد رأى أن التحول في نظام الحكم الفرنسي يستدعي إلغاء المعاهدات السابقة وصياغة اتفاقيات جديدة. هذا الموقف قوبل برفض من الجانب الفرنسي، مما أدى إلى توتر العلاقات وحدوث قطيعة بين الطرفين. استغلت بريطانيا هذا الوضع بمهارة لتعزيز مكانتها التجارية في تونس. فمع حرمان فرنسا من الصادرات التونسية، ولا سيما القمح، تمكنت بريطانيا من الاستحواذ على حصة كبيرة من تجارة الحبوب التونسية¹.

واتخذ الباي إجراءات محددة لتهيئة مناخ تجاري مستقر في تونس، مع التركيز على استقطاب التجار الأجانب. فحرص على ضمان أمنهم وتوفير الظروف الملائمة لنشاطهم التجاري، مما شجعهم على الاستقرار في تونس والاستثمار فيها. وفي إطار هذه السياسة، أظهر حمودة باشا مرونة دبلوماسية في تعامله مع القنصل البريطاني بركينز ماجرا **Perkins Magra**. فعندما لاحظ تردداً من التجار البريطانيين في الإقامة بتونس، اقترح حلاً بديلاً لتنشيط التجارة، منها استقدام تجار يونانيين للعمل تحت رعاية القنصلية البريطانية وحمايتهم².

وشهد عام 1807م نشاطاً ملحوظاً في التجارة التونسية-البريطانية عبر جزيرة مالطة التابعة للتاج البريطاني. ولإحكام سيطرتها على التجارة، أبرمت بريطانيا اتفاقية مع باي تونس تقضي بحصر نقل البضائع التونسية على السفن البريطانية، تحت طائلة المصادرة. وتجلى هذا

¹ الإمام رشاد، المرجع السابق، ص ص 306 - 307.

² نفسه، ص 310

التعاون في استجابة حمودة باشا للمطالب البريطانية بتوفير الحبوب، حتى في أوقات الندرة، كما حدث في عام 1801م. وكان الباي يلبي هذه الطلبات من مخزونه الخاص مقابل الحصول على مدافع وأسلحة حربية من السلطات البريطانية¹

كان لصعود بريطانيا كقوة مهيمنة في القارة الأوروبية، ولا سيما في أعقاب الهزائم التي مُنيت بها فرنسا في عهد نابليون بونابرت **Napoléon Bonaparte** على يد التحالف الأوروبي، تأثير عميق في توجهات السياسة الخارجية التونسية. فقد رأى حمودة باشا في هذا التحول فرصة استراتيجية لتعزيز مكانة تونس الإقليمية والدولية. وتعزز هذا التوجه بفعل السيطرة البريطانية المتنامية على مواقع استراتيجية في البحر المتوسط. فسيطرة بريطانيا على جزر الأيونيان، وتحكمها في جزيرة مالطة، إضافة إلى موقعها الراسخ في جبل طارق، جعل منها شريكاً تجارياً لا غنى عنه لتونس².

والى جانب العوامل الجيوسياسية والاقتصادية التي دفعت تونس نحو تعزيز علاقاتها مع بريطانيا، برز عامل آخر ذو أهمية كبيرة في توطيد هذه العلاقات: السلوك المحترم الذي أبدته بريطانيا تجاه تونس، والذي تميز بوضوح عن نهج القوى الأوروبية الأخرى³. ووفقاً لما ذكره القنصل البريطاني توماس ريد **Thomas Reade** (1824-1835)، فإن الباي حسين (1824-1835) أوصى خليفته عند اقترابه من الوفاة بأنه في حال واجهته أي صعوبات،

¹ الإمام رشاد، المرجع السابق، ص ص 310-311

² نفسه، ص 311

³ Thomas MacGill, In Account of Tunis of Its Government, Manners, Customs, and Antiquities ; especially of its Productions Manufactures and Commerce, Printed by J.Heddervick & Co, London, 1811, p 101.

عليه اتباع نصيحة القنصل البريطاني قائلاً: " إنه رجل نزيه، وإنجلترا تنوي الخير لتونس، وليس لديها أي مؤامرات سرية ضدنا " ¹.

كما تميزت العلاقات التجارية البريطانية بتوثيق الروابط مع النخبة التونسية في القرن التاسع عشر. فكان حامد الجلولي، أحد أثري رجال تونس، شريكاً تجارياً رئيساً للبريطانيين. وكذلك محمد غوجيا، وزير البحرية السابق الذي أوكلت إليه مهمة السفارة في بريطانيا، صديقاً مقرباً للإنجليز. أما الجنرال بن عياد، المنحدر من عائلة تونسية ثرية ومرموقة، فقد سجل جده نفسه كرعية بريطانية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر لحماية ممتلكاته من الفرنسيين. وقد يسّر هؤلاء وصول البريطانيين إلى الدوائر السياسية والتجارية العليا في تونس ².

وقد مهدت هذه العلاقات الوثيقة مع النخبة التونسية الطريق لتطور ملحوظ في حركة التبادل التجاري بين البلدين. ففي مطلع القرن التاسع عشر، شهدت العلاقات التجارية بين تونس وبريطانيا نمواً غير مسبوق، مما أدى إلى تحول جوهري في طبيعة التبادل التجاري بين البلدين وحجمه. هذا التحول، الذي بلغ ذروته خلال فترة حكم حمودة باشا، لم يقتصر على مجرد زيادة في حجم التجارة، بل امتد ليشمل تنوعاً في السلع المتبادلة وإعادة هيكلة للنشاط التجاري في تونس.

¹ Adel Mania, op.cit, p 366.

² Ibid, p 367.

وتميز المشهد التجاري التونسي في تلك الحقبة بتركز النشاط في أيدي فئات محددة، ولا سيما بعض القناصل واليهود، الذين اضطلعوا بدور محوري في تسيير التبادل التجاري وتنظيمه¹.

وفي هذا السياق، برزت الأسلحة بوصفها إحدى أهم السلع التي تاجر بها البريطانيون في تونس. وفي المقابل، قدمت تونس مجموعة متنوعة من المواد الغذائية، إذ احتل الزبيب والتين والملح مكانة بارزة في قائمة الصادرات التونسية. كما شملت التجارة البريطانية المنسوجات، وإن كانت بكميات محدودة نسبياً. وحظي الصوف التونسي بإقبال كبير في الأسواق البريطانية، ليصبح من أكثر المواد رواجاً في التبادل التجاري بين البلدين. علاوة على ذلك، شكل الشمع والجلود سلعاً مهمة في قائمة الصادرات التونسية، مما عزز قيمة التجارة بين البلدين وتنوعها.

وفي الوقت نفسه، جذبت الأسواق التونسية المسافرين البريطانيين بتشكيلة واسعة من السلع ذات الطابع الشرقي المميز. فقد أقبلوا على شراء العطور الفاخرة، ولا سيما عطور الورد التي اشتهرت بها المنطقة. كما استهوتهم المجوهرات الثمينة، بدءاً من اللآلئ وحبّات العنبر، مروراً بالأحجار المنقوشة بدقة، وصولاً إلى المصوغات الفضية القديمة والمجوهرات الذهبية التي عكست براعة الصناعة التقليدية التونسية.

لم يقتصر اهتمام المسافرين البريطانيين على المجوهرات فحسب، بل امتد ليشمل القطع الفنية والتحف. فقد أبدوا إعجاباً خاصاً بالخزف الشرقي، الذي تميز بنقوشه الدقيقة وألوانه الزاهية. كما حظيت المسكوكات القديمة باهتمام كبير، نظراً لقيمتها التاريخية والثقافية.

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص ص 152-153.

وفي السياق نفسه، أظهر الزوار البريطانيون تقديراً للفنون التطبيقية التونسية. فاقتنوا الآلات الموسيقية التقليدية، التي جسدت التراث الثقافي للمنطقة، إلى جانب الخزفيات المصنوعة يدوياً التي عكست المهارة الحرفية المتوارثة عبر الأجيال. كما أولوا اهتماماً خاصاً بالمنسوجات الحريرية الفاخرة، التي اشتهرت بها تونس¹.

وشهدت الصادرات التونسية في تلك الفترة تنوعاً وتوسعاً ملحوظين. فإلى جانب المصنوعات التقليدية والمنتجات الحرفية التي اجتذبت المسافرين البريطانيين، برزت مجموعة من السلع الأساسية التي احتلت مكانة متزايدة الأهمية في التبادل التجاري بين البلدين، وتصدر زيت الزيتون قائمة هذه السلع، إذ شكل ركيزة أساسية في الصادرات التونسية، مستفيداً من جودته العالية وسمعته المرموقة في الأسواق الأوروبية. كما حظيت الطرابيش، وهي من الصناعات التقليدية المميزة لتونس، بإقبال متزايد، مما رسخ مكانتها سلعة تصديرية مهمة.

وفي القطاع الزراعي، سجلت صادرات القمح ارتفاعاً ملحوظاً، حيث أضحت تونس مصدراً رئيساً للحبوب بالنسبة إلى بريطانيا².

تميزت التجارة البريطانية في تونس بحجمها الكبير وتنوع منتجاتها. فقد زودت بريطانيا السوق التونسية بمجموعة واسعة من السلع، منها الأقمشة القطنية من مانشستر، وسكاكين

¹ Adel Mania, op.cit, p 368.

² الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 153.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

شيفيلد¹، والمخللات والصلصات واللحوم المعلبة من لندن. وقد هيمنت هذه المنتجات على الأسواق التونسية، أو ما وصفه القنصل توماس ريد **Thomas Reade** بـ "الاختكار العملي".

وأقبل التونسيون بكثافة على المنتجات الصناعية البريطانية الأخرى، ولا سيما الصوف الخشن والأقمشة الطويلة المصنعة في إكستر **Exeter**، والتي كانت تصل إلى تونس عبر ميناء ليفورنو **Livorno**. كما شملت الواردات التوابل والمعدات البحرية والعسكرية التي كانت معفاة من الرسوم الجمركية.

وتنوعت الواردات البريطانية لتشمل الصمغ القرمزي، والزجاج، والطرطير، والنيلة، والزئبق، والحرير الخام، والزعفران، والمسك، والشاي. كما شملت المواد الصناعية كالقصدير، والنحاس، والصلب، والمسامير، إضافة إلى السلع الغذائية كالسكر، والقهوة، واللوز، والمكسرات. وعكس هذا التنوع حجم النفوذ التجاري البريطاني في تونس².

ومع نهاية القرن التاسع عشر، شهدت تونس تدهوراً في أوضاعها المالية والسياسية. واشتد التنافس بين القوى الأجنبية، خاصة بين فرنسا وبريطانيا، اللتين سعت كل منهما إلى تعزيز نفوذها.

¹ شيفيلد : مدينة بريطانية، تقع في قلب منطقة يوركشاير و هامبر، على مسافة 40 كيلومتر جنوب مدينة ليدز. وتعتبر جزءاً حيوياً من التجمع الحضري في يوركشاير الجنوبية للاستزادة أنظر الى :

Astrid Winkler, " Sheffield City Report ", **Centrfor Analysis Social Exclusion**, London, 2015, p 4.

² Adel Mania, op.cit, p 368.

وأُتاحت قوانين عام 1857م للأجانب ممارسة الأنشطة التجارية والحرفية وتملك الأراضي. فتوسع البريطانيون في شراء العقارات وتأسيس الشركات وإقراض السكان المحليين. وبلغت مطالباتهم المالية 16 مليون فرنك من إجمالي الديون المحلية البالغة 40 مليون فرنك آنذاك.

وحتى أواخر السبعينيات، حافظت بريطانيا على سياستها التقليدية تجاه تونس، نظراً لموقعها الاستراتيجي وميناءها المتميز الذي كان يمكن تحويله إلى قاعدة بحرية كبيرة. وكان هدفها الرئيس منع وقوع تونس تحت سيطرة أي قوة أجنبية لحماية طرق تجارتها إلى الهند¹.

ثالثاً : علاقات بريطانيا مع إيالة طرابلس العثمانية

1 العلاقات السياسية :

بدأت الخطوات الأولى للتمثيل القنصلي الإنجليزي في شمال أفريقيا في أواخر القرن السادس عشر. ففي عام 1585م، أسست إنجلترا أول قنصلية لها في الجزائر، وعينت جون تيتون John Tyton قنصلاً لها هناك، حيث امتدت مسؤولياته لتشمل رعاية المصالح الإنجليزية في طرابلس الغرب، مما يشير إلى أهمية المنطقة في الاستراتيجية الدبلوماسية الإنجليزية.

أما في طرابلس الغرب تحديداً، فقد تأسست أول قنصلية إنجليزية رسمية بعد ذلك بحوالي سبعة عقود، وتحديداً في عام 1658م. جاء هذا التأسيس نتيجة مباشرة لاتفاقية هامة تم توقيعها في 25 جوان من نفس العام. وقع هذه الاتفاقية من الجانب الإنجليزي روبرت بليك Robert Blake، قائد الأسطول الإنجليزي، بينما وقعها من الجانب الطرابلسي عثمان باشا

¹ Adel Mania, op.cit, p 368.

الساقلي. وتُوج هذا التطور الدبلوماسي بتعيين صامويل تاكر **Samuel Toker** كأول قنصل إنجليزي رسمي في طرابلس الغرب¹.

كان إنشاء القنصلية نتيجة لتطورات سياسية وعسكرية مهمة، بدأت بمواجهة بحرية بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال روبرت بليك **Robert Blake** والقوات البحرية الطرابلسية. خلال هذا الصدام، نجحت القوات الطرابلسية في الاستيلاء على السفينة الإنجليزية "جورج" **George** بقيادة وليم واي **William White** ، حيث تم أسر القائد وطاقمه.

عقب هذا الحادث، قدم السفير الإنجليزي في القسطنطينية، توماس بندش **Thomas Bendish**، مذكرة للسلطان العثماني باسم اللورد أوليفر كرومويل **Lord Oliver** ، حامي اتحاد إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا. طالبت المذكرة بإطلاق سراح السفينة وطاقمها، إضافة إلى تعويض عن الأضرار. وعندما لم تثمر هذه المساعي الدبلوماسية، اضطر قائد الأسطول الإنجليزي إلى التفاوض مباشرة وعقد اتفاقية صلح مع الجانب الطرابلسي لحل الأزمة².

تطورت العلاقة بين الجانبين نحو الأفضل، رغم بعض فترات التوتر التي شهدتها. نتجت هذه التقلبات عن عدة عوامل، منها عدم كفاءة بعض القناصل، أو تصرفاتهم المنفردة بالتعاون مع قادة البحرية الإنجليزية في البحر الأبيض المتوسط دون الرجوع إلى حكومتهم في لندن. كما ساهمت تصرفات بعض المسؤولين في الولاية الطرابلسية، سواء كانوا وزراء أو ضباطاً أو قادة

¹ الأنسة توللي، عشرة أعوام في طرابلس، تر: عبد الجليل الطاهر، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي- ليبيا، 1967، ص 21-22.

² عبد الله خليفة الخطاط، العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795-1832، ط1، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، طرابلس، 1985، ص 15.

بحريين، في خلق بعض التوترات. إلا أن هذه الخلافات كانت عادة ما تُحل بسرعة من خلال التفاوض إما مع السلطان العثماني مباشرة، أو مع الداى في الولاية الطرابلسية¹.

خلال القرن السابع عشر، اتسمت العلاقات بين الطرفين بتقلبات متكررة. فرغم توقيع العديد من الاتفاقيات، لم تنجح هذه المعاهدات في تحقيق سلام مستدام. ظهرت فترات التوتر بشكل دوري، مؤدية إلى أزمات دبلوماسية وحتى مواجهات عسكرية. ومع ذلك، تمكن الطرفان دائماً من إيجاد حلول لهذه الخلافات عبر القنوات الدبلوماسية والمفاوضات، منتهية بالتوصل إلى اتفاقات ترضي الجانبين².

شكلت اتفاقية 6 أفريل 1699م نقطة تحول محورية في تطور العلاقات بين إنجلترا وولاية طرابلس الغرب خلال القرن الثامن عشر. تجلت أهمية هذه الاتفاقية في تجديدها المتكرر في الأعوام 1701م، 1703م، 1709م، 1711م، و1730م. صيغت الاتفاقية بدقة متناهية، محققة توازناً بين مصالح الطرفين وممهدة الطريق لتعاون طويل الأمد. تضمنت إحدى وعشرين مادة، واستمر سريانها لأربعين عاماً، مع تجديدها عند تولي كل حاكم جديد.

برزت الاتفاقية كمعاهدة شاملة للسلام والتجارة، منحت إنجلترا ميزة تفضيلية على الدول الأوروبية الأخرى في المجالين التجاري والدبلوماسي. وتجلّى ذلك في منح القنصل الإنجليزي أسبقية على نظرائه الأجانب في المناسبات الرسمية والدينية.

¹ عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص 16.

² نفسه، ص 18.

تضمنت الاتفاقية امتيازات جمركية مهمة للتجار الإنجليز، إذ حُدِدت الرسوم الجمركية بنسبة لا تتجاوز 3٪ من قيمة البضائع، مع منحهم حرية التجارة في جميع موانئ الولاية. كما تضمنت حماية ممتلكات الرعايا الإنجليز في حالة الوفاة، بحيث تؤول إلى القنصل الإنجليزي العام.

في المقابل، تعهدت إنجلترا بمعاملة التجار الطرابلسيين معاملة حسنة، والسماح لهم باستخدام السفن الإنجليزية التجارية لنقل بضائعهم. كما التزمت بتقديم المساعدة لهم عند مواجهة صعوبات أو تعرض سفنهم لهجمات من قوى أجنبية¹.

شهدت العلاقات بين طرابلس الغرب وإنجلترا تطوراً إيجابياً مع وصول الأسرة القرمانلية إلى الحكم. فقد استجاب محمد باشا القرمانلي لمبادرة الملك الإنجليزي جورج الثاني George II الرامية إلى تجديد معاهدة السلام السابقة. وتوجت هذه الجهود بتوقيع اتفاقية جديدة في 19 سبتمبر 1751م².

استمرت العلاقات الودية خلال فترة حكم ابنه علي باشا القرمانلي، حيث جُددت الاتفاقية في 22 جوان 1762م³.

ومع تعيين السيد ريتشارد توللي Mr. Richard Tully (1783-1793م) قنصلاً إنجليزياً في ولاية طرابلس الغرب، دخلت العلاقات بين البلدين مرحلة جديدة. تميز توللي بقدرته على فهم النسيج الاجتماعي لمدينة طرابلس، ونجح في الاندماج مع السكان المحليين، مشاركاً إياهم أفراحهم ومواسياً لهم في أوقات الشدة.

¹ عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص ص 21-22.

² Lewis Hertslet, op.cit, pp 143-144.

³ Ibid, p 151.

برزت هذه العلاقة الوثيقة خلال أزمة وباء الطاعون، كما وثقته الأنسة تولي في رسالتها المؤرخة في 10 ديسمبر 1786م. لجأ العديد من السكان إلى مبنى القنصلية الإنجليزية لتسجيل أسمائهم وحماية ممتلكاتهم.

في هذه الظروف الصعبة، برز دور القنصل الإنجليزي داعماً للسكان المحليين، حيث فتح أبواب القنصلية لاستقبال اللاجئين وتقديم العلاج والمساعدات اللازمة¹.

امتدت علاقات القنصل لتشمل أعيان البلاد وشخصياتها البارزة، حيث أقام شبكة من العلاقات الاجتماعية المتينة تجلت في تبادل الزيارات المنتظمة. وثقت الأنسة تولي Miss Tully هذه العلاقات في رسالتها المؤرخة في 20 سبتمبر 1787م، مقدمة وصفاً لزيارات القنصل وأسرتة إلى منزل الحاج عبد الرحمن، أحد الشخصيات المرموقة في المجتمع الطرابلسي آنذاك.

ما يلفت الانتباه في هذه الزيارات هو مشاركة القنصل وعائلته في تناول الطعام على الطريقة المغربية التقليدية. هذا الأمر يعكس مدى انفتاح القنصل على الثقافة المحلية واحترامه لعاداتها، مما ساهم في تعميق التفاهم المتبادل وتوطيد أواصر الصداقة بين الطرفين².

تجلت متانة العلاقات بين الحكومتين الطرابلسية والإنجليزية في عدة مظاهر، أبرزها الزيارات الشخصية المتبادلة بين كبار المسؤولين. وثقت الأنسة تولي في رسالتها المؤرخة في 23 جانفي 1793م حدثاً استثنائياً يعكس عمق هذه العلاقة، إذ كتبت: " في ذلك اليوم، وبعد أدائه

¹ Richard Tully, Narrative of a Ten years' Residence at Tripoli in Africa, Printed for Henry Colburn, London, 1816, p 129.

² Ibid, 149-150.

لصلاته في المسجد، قام الباشا بخطوة غير مسبوقه. أرسل أحد حراسه إلى منزل القنصل الإنجليزي لإبلاغه بزيارة وشيكة. هذه المبادرة من جانب الباشا تشير إلى مستوى عالٍ من الاحترام والتقدير للقنصل ولبلاده".

استقبل القنصل الإنجليزي ضيفه الرفيع بحفاوة بالغة، رغم مفاجأة الزيارة. وصل الباشا برفقة حاشية كبيرة بلغت ثلاثمائة شخص، مما يعكس أهمية الزيارة في نظره وحرصه على إضفاء طابع رسمي عليها. أظهر القنصل كرم الضيافة في أبهى صورته، مقدماً لجميع الضيوف مجموعة منتقاة من الحلويات والمشروبات المفضلة لديهم¹.

شهدت طرابلس الغرب في أواخر فترة حكم علي باشا القرمانلي اضطرابات سياسية حادة نتيجة صراع داخلي بين أبنائه الثلاثة: حسن، أحمد، ويوسف. بلغ هذا الصراع ذروته عندما أقدم يوسف، الابن الأصغر، على قتل أخيه الأكبر حسن بك، ولي العهد آنذاك، ثم سعى للاستيلاء على السلطة من والده بمحاصرة القلعة ومحاربته².

وسط هذه الأجواء المضطربة، شهد ميناء طرابلس في 29 جويلية 1793م وصول أسطول يرفع العلم العثماني بقيادة علي برغل³، ومعه نحو أربعمئة جندي مدجج بالسلاح. فور رسو السفن، تلا أحد أفراد الأسطول فرماناً سلطانياً يقضي بعزل وتعيين علي برغل خلفاً له¹.

¹ Richard Tully, op.cit, p 308.

² عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق ، ص 36

³ علي برغل : علي أفندي الجزائري، المعروف شعبياً باسم "علي برغل"، كان شخصية بارزة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في أواخر القرن الثامن عشر. كان قرصاناً شبه رسمي ذا أصول جورجية، اشتهر بطموحه السياسي وأساليبه الوحشية. نشأ في البلاط العثماني وتولى منصب رئيس البحرية في الجزائر، لكنه طُرد منها بسبب قسوته المفرطة. عاد إلى القسطنطينية،

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال القرنين 18م و19م

أمام هذا التطور المفاجئ الذي قلب موازين القوى في المشهد السياسي الطرابلسي، لم يجد علي باشا القرمانلي وأبنائه خياراً سوى الفرار إلى تونس المجاورة بحثاً عن ملاذ آمن.

شهدت العلاقات الدبلوماسية تدهوراً ملحوظاً مع تولي علي برغل السلطة في طرابلس، خاصة في تعامله مع ممثلي الدول الأجنبية. فرض إجراءات مهينة على القناصل عند لقائه، منها إلزامهم بخلع أحذيتهم قبل مقابلته وتقبيل يده عند إلقاء التحية، مما أثار استياءً شديداً لدى القناصل الأوروبيين لمخالفتها الأعراف الدبلوماسية.

اتخذ القنصل الإنجليزي موقفاً حازماً برفضه تقديم التهاني المعتادة لعلّي برغل بمناسبة توليه الحكم. بادر بإبلاغ حكومته بهذه التصرفات، فاستجابت بإصدار أوامرها لقائد الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض المتوسط بإرسال سفن حربية إلى سواحل طرابلس لتهديد الحاكم الجديد وإجباره على التراجع عن ممارساته².

حيث استغل علاقاته العائلية للحصول على فرمان من السلطان العثماني يعينه باشا على طرابلس. في عام 1793، وصل علي برغل إلى طرابلس على رأس قوة من المرتزقة والقراصنة، مستغلاً حالة الفوضى السياسية في المنطقة. لُقّب بـ"برغل" لعادته في إطعام رجاله الذرة المحمصة، وهو ما يشير إلى مزيج من البراغماتية والقسوة في شخصيته. يُعتبر علي برغل مثلاً على القراصنة الطموحين الذين سعوا للسلطة في فترة ضعف الإمبراطورية العثمانية، مستخدمين مزيجاً من الدهاء السياسي والعنف لتحقيق مآربهم. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

Seton Dearden, A Nest of Corsairs : The Fighting Karamanlis of Tripoli, John Murray, London, 1976, p p 128-129.

¹ Ibid, p129.

² Ibid, p 131

استعاد أبناء علي باشا القرماني السلطة بدعم من حمودة باشا، حاكم ولاية تونس، حيث تولى أحمد باشا القرماني الحكم خلفاً لوالده الذي آثر البقاء في تونس¹. قدمت إنجلترا دعماً مهماً في هذه المرحلة، شمل توفير سفينة لنقل علي باشا من مالطا إلى طرابلس، إضافة إلى مساعدات عسكرية للقوات القرمانية تضمنت الأسلحة والسفن الحربية.

أظهر أحمد باشا القرماني حنكة دبلوماسية في تعامله مع بريطانيا، إذ وجه رسالة شكر إلى الملك جورج الثالث George III، مؤكداً التزامه بتعزيز العلاقات بين البلدين².

بعد فترة طويلة من حكم أحمد باشا، بدأت طموحات أخيه يوسف باشا تتجلى في رغبته بالاستيلاء على السلطة. فقد استغل يوسف حالة الإهمال التي اتسم بها حكم أخيه، حيث أغفل أحمد باشا مصالح رعيته وأهمل شؤون الدولة، مما خلق مناخاً مواتياً لتحقيق مآرب يوسف.

شرع يوسف باشا في نسج خيوط مؤامراته بدهاء، حيث بدأ في رسم خطط محكمة للوصول إلى هدفه في الاستيلاء على الحكم. اتخذ استراتيجية ذكية تمثلت في تكثيف تواصله مع سكان مدينة طرابلس وضواحيها، متقرباً منهم بشكل منهجي. عمل جاهداً على كسب ودهم من خلال إظهار اهتمامه بقضاياهم ومشاكلهم، وتقديم المساعدة في حلها³.

وفي أعقاب ترسيخ مكانته بين أعيان البلاد والعلماء الموالين له، شرع يوسف باشا في تنفيذ المرحلة الحاسمة من خطته للاستيلاء على السلطة. فمستغلاً استياءه المعلن من سياسات أخيه

¹ أحمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج3، دار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص 24-25.

² عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص 38.

³ عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص 77.

أحمد الاستبدادية، انتهز يوسف فرصة ذهبية تمثلت في الزيارة التقليدية لأضرحة منطقة تاجوراء، وهي عادة متأصلة لدى الأسرة القرمانيّة. نجح في إقناع أخيه أحمد بالخروج معاً لهذه الزيارة، مموهاً نواياه الحقيقية. وفي لحظة حاسمة، غادر يوسف المكان مسرعاً، تاركاً أخاه خلفه، ليعود إلى قلعة طرابلس. هناك، أصدر أوامره الصارمة لحراس القلعة بإحكام إغلاق أبوابها والاستعداد لأي مواجهة محتملة مع أخيه. شكّل هذا التحرك الجريء إعلاناً صريحاً للثورة على الحكم القائم. وحين بلغت أنباء هذا الانقلاب مسامع أحمد، فضّل تجنب العودة إلى طرابلس خشية المواجهة، متجهاً بدلاً من ذلك إلى مصراته. وهكذا، بفضل هذه المناورة الذكية والجريئة، نجح يوسف في الاستيلاء على منصب والي طرابلس¹.

وبعد اعتقال يوسف باشا سدة الحكم في طرابلس، شهدت العلاقات الإنجليزية-الطرابلسية تطوراً إيجابياً سريعاً. فقد بادر القنصل الإنجليزي في إيالة، سيمون لوكاس **Simon Lucas** (1793-1801)، بتقديم هدايا ثمينة للحاكم الجديد، في إشارة واضحة إلى رغبة بريطانيا في توطيد العلاقات مع النظام الجديد. استجاب يوسف باشا لهذه البادرة بحرارة، معرباً عن امتنانه للدعم الإنجليزي منذ اللحظات الأولى لحكمه. وفي خطوة دبلوماسية مهمة، وجه يوسف باشا رسالة شخصية إلى الملك جورج الثالث **George III**، حيث أعرب عن شكره العميق للمساعدات البريطانية التي قُدمت لأسرته، والتي ساهمت في وصوله إلى الحكم وطرده ما وصفه بـ "العدو الغاصب لعرشهم". أكد يوسف في رسالته على شرعية حكمه، مشيراً إلى أنه يجلس الآن على عرش آبائه وأجداده في إيالة طرابلس الغرب. كما شدد على العلاقات

¹ عمر علي بن اسماعيل، المرجع السابق، ص ص 78-79.

التاريخية الوثيقة التي ربطت أسرته بإنجلترا منذ توليهم الحكم، مؤكداً حرصه الشديد على استمرار وتعزيز هذه العلاقات الطيبة¹.

ومنذ اللحظات الأولى لتولييه حكم إيالة طرابلس، أظهر يوسف باشا رؤية استراتيجية واضحة في سياسته الخارجية، مركزاً على توطيد العلاقات مع إنجلترا. فقد أدرك يوسف أهمية بريطانيا كقوة عظمى تمتلك أسطولاً قوياً في حوض البحر الأبيض المتوسط، مما جعلها حليفاً استراتيجياً لا يمكن تجاهله. وانطلاقاً من هذا الفهم العميق لموازين القوى الإقليمية، حرص يوسف باشا على تجنب أي صدام مع بريطانيا، مدركاً أن مثل هذه المواجهة قد تلحق ضرراً بالغاً بمصالح بلاده. وفي خطوة تؤكد التزامه بهذا النهج، قام بالمصادقة على المعاهدة التاريخية التي أبرمها جده محمد باشا مع الحكومة الإنجليزية عام 1751م، والتي خضعت لبعض التعديلات في عهد والده علي باشا. وقد سعى يوسف باشا جاهداً لتوطيد أواصر الصداقة مع الحكومة البريطانية، آملاً في تأمين احتياجاته من العتاد الحربي والأسلحة، غير أن هذه المساعي لم تستمر طويلاً نظراً للتطورات السياسية اللاحقة في المنطقة².

شهد عام 1798م تحولاً جذرياً في المشهد السياسي، إذ أدى اجتياح نابليون لجزيرة مالطة ومصر إلى تغيير جوهرى في الأولويات الاستراتيجية ليوسف باشا. وفي ضوء هذه المستجدات، اتخذ الباشا مساراً دبلوماسياً جديداً، متجهاً نحو توثيق العلاقات مع فرنسا. وكان هذا التوجه

¹ عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص ص 46-47.

² نفسه، ص 47.

بمثابة تحول محسوب، سيما وأن فرنسا كانت تتنافس آنذاك مع بريطانيا على بسط النفوذ في حوض البحر المتوسط¹.

وعقب السيطرة على جزيرة مالطا، أدرك نابليون الأهمية الاستراتيجية لولاية طرابلس الغرب، إذ شكل موقعها المتميز حلقة وصل بين قواته المتمركزة في مالطا وجيشه في مصر، مما جعلها محط اهتمامه المباشر. وبعد إحكام سيطرته على مالطا ومصر، شرع نابليون في تعزيز علاقاته مع يوسف باشا، والي طرابلس. وفي مبادرة دبلوماسية، أصدر أوامره بإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الطرابلسيين في سجون مالطا².

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اتبع نابليون سياسة محكمة لإظهار نفسه مدافعاً عن الإسلام والمسلمين. فأقام الاحتفالات بالمناسبات الدينية باهتمام بالغ، وأولى عناية خاصة بالحجاج المغاربة العائدين من الأراضي المقدسة، حيث استقبلهم في مصر بحفاوة واحتفاء كبيرين³.

وأدركت بريطانيا بنظرتها الاستراتيجية أهمية ولاية طرابلس الغرب في السياسة الفرنسية. وإزاء تنامي العلاقات الطرابلسية الفرنسية، اتخذت خطوات حاسمة لإضعافها. فأوعزت إلى الأميرال نلسون **Amiral Nelson**، قائد أسطولها في البحر المتوسط، بإرسال تعليمات عاجلة إلى سفيرها في إسطنبول. وتمحورت هذه التعليمات حول حث السلطان العثماني على ممارسة

¹ Seton Dearden, op.cit, p 144.

² Ibid, p 145.

³ عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص 50.

ضغوط على ولاية الدول المغاربية، وخاصة والي طرابلس الغرب، لإلغاء معاهداتهم مع فرنسا وإبعاد الرعايا الفرنسيين من أراضيهم¹.

واستجابة للمساعي البريطانية، وجه السلطان العثماني أوامره إلى الصدر الأعظم بإلغاء المعاهدات المبرمة بين ولايات شمال أفريقيا والحكومة الفرنسية. ثم أرسل أوامر صريحة إلى يوسف باشا في طرابلس الغرب، تضمنت سلسلة من الإجراءات ضد المصالح الفرنسية. شملت هذه التوجيهات قطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع فرنسا، ومصادرة سفنها في البحر المتوسط، ورفض استقبال مبعوثيها. كما تضمنت مصادرة أموال التجار الفرنسيين في طرابلس، ووقف التعاون مع القوات الفرنسية في مالطا، ومنع تموين سفنها. وامتدت الأوامر لتشمل اعتقال القنصل الفرنسي واعتبار فرنسا في حالة حرب مع الدولة العثمانية، مما يتيح ليوسف باشا مصادرة السفن الفرنسية وأسر بحارتها والاستيلاء على حمولتها².

غير أن الأحداث اتخذت منحى مغايراً حين قرر يوسف باشا تجاهل الأوامر السلطانية. أثار هذا الموقف استياء القنصل البريطاني، الذي عدّه تحدياً للنفوذ البريطاني والعثماني. وفي رد سريع، لجأ القنصل إلى القوة البحرية البريطانية، فتوجه بطلب عاجل إلى الأميرال نلسون **Amiral Nilson**، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، للتدخل العسكري المباشر. وكان الهدف واضحاً: إجبار يوسف باشا على الامتثال للأوامر السلطانية وإنهاء التعاون بين ولاية طرابلس الغرب والحكومة الفرنسية³.

¹ Seton Dearden, op.cit, pp 145-146.

² عبد الله خليفة الخليل، المرجع السابق، ص ص 51-52.

³ Seton Dearden, op.cit, p 146.

استجابة لطلب القنصل البريطاني، اتخذ الأميرال نلسون **Amiral Nilson** إجراءً حازماً، فأصدر أوامره بإرسال سفينة حربية بريطانية بقيادة نائبه الأميرال كامبل **Amiral Campbell** إلى شواطئ طرابلس الغرب. رست السفينة قبالة قلعة المدينة، حاملة إنذاراً شديد اللهجة ليوسف باشا. كان الإنذار صارماً ومحدد المدة، إذ منح كامبل **Campbell** الحكومة الطرابلسية مهلة ساعتين للاستجابة لمطالبه، مهدداً باستخدام القوة البحرية البريطانية في حال عدم الامتثال¹.

أبدى يوسف باشا في البداية موقفاً متصلباً برفضه الإذعان للإنذار. أثار هذا الموقف غضب الأميرال كامبل **Amiral Campbell**، خاصة عندما لم تحيّه مدفعية الميناء الطرابلسي عند دخوله. فشرع في تنفيذ تهديداته بقصف المدينة، مما أثار الذعر بين سكانها. كما حاصر إحدى السفن الطرابلسية وطالب بتسليم رئيس البحرية الطرابلسية، مراد الرئيس، صهر الباشا. غير أن استمرار القصف وضغط الأعيان في مجلس الباشا دفع نحو تغيير الموقف، إذ أقر المجلس بضرورة تحسين العلاقات مع بريطانيا وتجنب مواجهة عسكرية. وتحت هذا الضغط المزدوج، اضطر يوسف باشا للاستجابة، فأمر بوقف إطلاق النار، وتبادلت السفينة البريطانية والميناء الطرابلسي التحيات المدفعية².

نزل كامبل **Campbell** إلى الميناء والتقى يوسف باشا في القلعة. وخلال هذا اللقاء، وافق الباشا على تسليم القنصل الفرنسي وأربعين من الرعايا الفرنسيين إلى القنصل البريطاني السير سيمون لوكاس **Simon Lucas**. نُقل هؤلاء لاحقاً إلى سفينة كامبل **Campbell**، ثم إلى

¹ Seton Dearden, op.cit, p 147.

² عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص ص 56-57.

باليرمو **Palermo** في إيطاليا حيث كان الأميرال نلسون متواجداً، ومن ثم أمر بنقلهم إلى جنوة وسجنهم هناك¹.

وفي أعقاب الأزمة، أظهر يوسف باشا تحولاً واضحاً في سياسته تجاه بريطانيا، متخذاً سلسلة من الخطوات الدبلوماسية والعملية لتوطيد العلاقات معها. فهنا الملك البريطاني على انتصار قواته البحرية ضد الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط، مشيداً بطرد الفرنسيين من مالطا وإحلال القوات البريطانية محلهم. وفي خطوة عملية، أبدى استعدادة لتقديم الدعم للقوات البريطانية في مالطا، إذ أوضح للحاكم البريطاني هناك، السيد بول **Pool** ، استعدادة لتزويدهم بالمؤن والذخيرة والمواد الغذائية. ولتيسير ذلك، أصدر توجيهاته للتجار الطرابلسيين بتوفير هذه المواد للتجار البريطانيين المقيمين في إيالة.

وسعى يوسف باشا إلى توثيق العلاقات مع بريطانيا من خلال رسالة دبلوماسية إلى الملك البريطاني، مؤكداً حرصه على إقامة علاقات وثيقة بين ولاية طرابلس الغرب والمملكة البريطانية. وفي خطوة دبلوماسية، أشار إلى التاريخ الطويل من التعاون بين الطرفين، مؤكداً التزامه بالمعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها أسلافه مع بريطانيا².

ومع تحسن العلاقات بين إيالة طرابلس الغرب وبريطانيا، تعززت مكانة القنصل البريطاني في المشهد الدبلوماسي المحلي. وتجلّى هذا النفوذ المتنامي خلال الأزمة بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية والحكومة الطرابلسية، حيث نجح القنصل البريطاني في التوسط بين الطرفين.

¹ Seton Dearden , op.cit, p 148

² عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص ص 60 - 61.

أثمرت جهوده عن نتيجتين مهمتين: إيقاف الحرب بين الدولتين، وتمهيد الطريق لإبرام معاهدة سلام بينهما في 4 جوان 1805م¹.

على الرغم من التحسن الملحوظ في العلاقات البريطانية الطرابلسية، إلا أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً. فقد شهدت العلاقات بين الطرفين توتراً جديداً، كان سببه الرئيس تصرفات القنصل البريطاني الجديد، وليام لانجفورد **William Langford** (1804-1812)².

اتسم أسلوب وليام لانجفورد **William Langford** بسوء التصرف وكثرة تدخلاته في الشؤون الداخلية لولاية طرابلس الغرب، مما أثار استياء السلطات الطرابلسية، وعلى رأسها يوسف باشا. وقد وصل الأمر إلى أن طلب يوسف باشا رسمياً إقالة وليام لانجفورد **William Langford** من منصبه في طرابلس، وهو ما تم بالفعل³.

شكل هذا الحدث نكسة دبلوماسية في العلاقات بين الطرفين، مهدداً التقدم الذي تحقق في السنوات السابقة. غير أن الحكومة البريطانية، إدراكاً منها لأهمية العلاقات مع طرابلس الغرب، سارعت إلى تعيين قنصل جديد هو بتريك ويليكي **Patrick Wilkie** (1812-1813). مهمة إصلاح ما أفسده سلفه، فبذل جهوداً حثيثة لإعادة العلاقات الطيبة بين البلدين إلى مسارها⁴.

وفي عام 1814م، تم تعيين هنمر وارنجتون **Hanmer Warrington** قنصلاً جديداً

(1814-1846م). وعلى مدى اثنين وثلاثين عاماً، برز هنمر وارنجتون **Hanmer**

¹ عبد الله خليفة الخطاب، المرجع السابق، ص 72.

² Seton Dearden , op.cit, pp 214-215.

³ Ibid, pp 217-218.

⁴ عبد الله خليفة الخطاب، المرجع السابق، ص ص 86-87.

Warrington كشخصية محورية في المشهد السياسي الطرابلسي، متميزاً بقدراته الدبلوماسية. استطاع هذا الدبلوماسي البريطاني أن يبني شبكة علاقات متينة، واضعاً نفسه في قلب دوائر صنع القرار في طرابلس. وبحنكته السياسية، نجح في كسب ثقة الباشا وتقدير أعيان المدينة¹.

تجاوز النجاح الدبلوماسي لوارنجتون **Warrington** حدود العلاقات الثنائية بين بريطانيا وطرابلس ليصل إلى المستوى الدولي. فبفضل مكانته المتميزة لدى يوسف باشا، واحترام قناصل الدول الأوروبية والجاليات الأجنبية له، وسّع نفوذه بشكل ملحوظ. دفعت هذه المكانة العديد من الدول الأوروبية لطلب خدماته كممثل لمصالحها في الولاية. وبحلول نهاية عام 1815م، أصبح ممثلاً رسمياً لثمان دول أوروبية في طرابلس الغرب، شملت مملكة الصقليتين، ونابولي، والبرتغال، وهولندا، والنمسا، وهانوفر، وتوسكانا، وروسيا².

وعقب سقوط نابليون وعودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا في عام 1815م، شهد المشهد الدبلوماسي في طرابلس الغرب تحولاً جديداً. فمع وصول قنصل فرنسي جديد إلى طرابلس، بدأت العلاقات الطرابلسية البريطانية تعود تدريجياً إلى وضعها السابق، مما قلل من النفوذ الذي تمتعت به بريطانيا³. وحين أبلغت الحكومة البريطانية بهذا التطور عبر قنصلها وارنجتون **Warrington**، قررت اتخاذ إجراءات حاسمة بتطبيق قرارات مؤتمر فيينا المتعلقة بمكافحة القرصنة البحرية وتحرير المسيحيين. ولتحقيق هذا الهدف، جهزت أسطولاً بقيادة اللورد

¹ Seton Dearden, op.cit, p 223 .

² Ibid, p 241 .

³ عبد الله خليفة الخطاط، المرجع السابق، ص 115.

إكسماوث Lord Exmouth ، وكلفته بالإبحار إلى الجزائر وتونس وطرابلس، إضافة إلى إجبار يوسف باشا على عقد صلح مع سردينيا ومملكة الصقليتين¹.

أدى التصريح الحازم للورد إكسماوث Lord Exmouth إلى تعزيز مكانة بريطانيا لدى حكومة طرابلس الغرب. ونتيجة لذلك، ارتقت منزلة القنصل البريطاني وارينجتون Warrington بشكل ملحوظ. وقد منح هذا التطور القنصل البريطاني امتيازاً متفرداً على نظرائه من ممثلي الدول الأوروبية الأخرى المعتمدين في الإيالة.

وتجلى هذا الامتياز بوضوح في المراسم الرسمية والاحتفالات التي يستقبل فيها الباشا الممثلين الدبلوماسيين. فقد أصبح من المتعارف عليه أن يتصدر القنصل البريطاني المشهد عند الدخول إلى قصر الباشا، يليه سائر القناصل الأوروبيين².

وشهدت تصرفات القنصل وارينجتون Warrington في تلك الفترة تحولاً جوهرياً، إذ بدأ يمارس نفوذه بصورة متزايدة في الشؤون الداخلية لإيالة طرابلس الغرب، متجاوزاً حدود مهامه الدبلوماسية المعهودة. ولم يقتصر تدخله على المسائل السياسية فحسب، بل امتد ليشمل الجانب الاقتصادي أيضاً، حيث أضحى يؤدي دور الوسيط في المعاملات التجارية.

ولم يمر هذا السلوك المتنامي من قبل وارينجتون Warrington دون أن يثير استياء السلطات المحلية، وعلى رأسهم يوسف باشا، والي الإيالة، الذي عدّ هذه التدخلات المتكررة مصدراً للإزعاج والقلق¹.

¹ Seton Dearden , op.cit, p 243.

² عبد الله خليفة الخيلط، المرجع السابق، ص 116.

وقد أدركت بريطانيا الأهمية الاستراتيجية لإيالة طرابلس الغرب، نظراً لموقعها المتميز في قلب إيالات المغاربية وقربها من عمق القارة، مما جعلها نقطة انطلاق مثالية للمستكشفين البريطانيين في رحلاتهم نحو أواسط أفريقيا. هذا الإدراك دفع بريطانيا إلى مراجعة سياستها، مؤكدة ضرورة توثيق علاقاتها مع الحكومة الطرابلسية.

ونتيجة لهذا التوجه الجديد، شهد سلوك القنصل وارينجتون **Warrington** تحولاً جذرياً؛ فكف عن تدخلاته السابقة في الشؤون الداخلية للإيالة، وشرع في انتهاج سياسة جديدة تهدف إلى تحسين العلاقات مع السلطات المحلية².

وفي أعقاب هذا التحول في العلاقات، اتخذ يوسف باشا خطوة دبلوماسية مهمة بتعيين صهره، حسونة الدغيس، سفيراً له في لندن. وعكس هذا القرار رغبة الباشا الحقيقية في تعزيز أواصر الصداقة والتعاون مع بريطانيا. وقد أكد الباشا هذا التوجه بالتعبير صراحة عن رغبته في توطيد العلاقات الودية بين البلدين وتطويرها. ولم يقتصر الأمر على التصريحات فحسب، بل تجاوزها إلى الأفعال، حيث أبدى الباشا استعداداً لتقديم شتى أشكال الدعم والمساندة للمستكشفين البريطانيين الوافدين إلى الإيالة³.

وفي أعقاب احتلالها للجزائر عام 1830م، وجهت فرنسا أنظارها نحو ولاية طرابلس، مدركةً أهميتها الاستراتيجية في شمال أفريقيا. وفي العام نفسه، أوفدت الأميرال الفرنسي روزاميل **Rozamil** إلى حاكم الولاية، يوسف باشا القرماني (1766-1837)، حاملاً معه جملة من

¹ عبد الله خليفة الخطاط ص ص 120-121.

² نفسه، ص 122.

³ نفسه، ص 124-125.

المطالب الجريئة. تضمنت هذه المطالب تقديم الباشا اعتذاراً رسمياً للقنصل الفرنسي روسو **Rousseau** عن إساءة سابقة، وإلغاء جميع الاحتكارات التجارية، والكف عن استرقاق الأوروبيين. كما اشترطت فرنسا على الباشا الامتناع عن طلب إتاوات أو هدايا من الدول الأوروبية، وفرضت قيوداً على تطوير أسطوله البحري. وفي خطوة استفزازية إضافية، طالبت فرنسا بتعويضات حربية عما زعمت أنها خسائر تكبدتها في طرابلس الغرب¹.

وتراجعت مكانة الباشا يوسف القرماني تدريجياً مع تعاظم نفوذ القناصل الأوروبيين في ولاية طرابلس. وشهد شهر أوت عام 1830م منعطفاً حاسماً، إذ أُرغم الباشا على توقيع معاهدة مع فرنسا تحت ضغط الأميرال الفرنسي. تضمنت هذه المعاهدة التزامات ثقيلة على الباشا، أبرزها التعهد بالامتناع عن أي نشاط معادٍ للفرنسيين في الجزائر وقمع أعمال القرصنة. وأفضت هذه الالتزامات إلى فقدان مورد دخل رئيس تمثل في تجارة الغنائم البحرية، مما أدى إلى أزمة مالية خانقة في الولاية. وفي محاولة لتخفيف العبء المالي المتفاقم، اضطر الباشا إلى اتخاذ تدابير قاسية تمثلت في مصادرة الممتلكات. وعلى الرغم من هذه الإجراءات، استمرت الديون في التراكم بصورة كبيرة².

وأثارت التطورات المتسارعة في ولاية طرابلس قلق القنصل البريطاني، هانمر وارينجتون **Hammer Warrington** ، بشكل بالغ. فقد رأى في تدهور سلطة الباشا يوسف القرماني وتنامي النفوذ الفرنسي تهديداً للمصالح البريطانية في المنطقة. غير أن وارينجتون

¹ إياد تركان إبراهيم، حنان طلل جاسم، " السياسة البريطانية تجاه أطماع فرنسا في ولايتي تونس وطرابلس 1830-1882 " ،

مجلة أداب المستنصرية، عدد 71، العراق، 2015، ص 15.

² John E.Flint, The Cambridge History of Africa 1790-1870, Cambridge University Press, vol5, 2008, p 123.

Warrington وجد نفسه مقيداً في خياراته الدبلوماسية، إذ لم يكن في مقدوره اتخاذ إجراءات حاسمة لتغيير مجرى الأحداث. وفي ظل هذه الظروف المعقدة، اقتصر رد فعل القنصل البريطاني على مطالبة الباشا بسداد جميع الديون المستحقة للرعايا البريطانيين¹.

واجه الباشا يوسف القرماني أزمة مالية متفاقمة، دفعته إلى اتخاذ إجراءات صارمة في محاولة لإنقاذ خزينة الدولة. فلجأ إلى خيار بالغ الحساسية تمثل في فرض ضرائب على القبائل التي كانت تتمتع سابقاً بإعفاءات ضريبية. وأثار هذا القرار، الذي اتخذ تحت وطأة الضغوط المالية، ردود فعل عنيفة في أرجاء الولاية. فسرعان ما اندلعت تمردات واسعة النطاق، امتدت من فزان في الجنوب إلى المناطق الساحلية في الشمال. وقوضت هذه الاضطرابات أركان حكم القرماني، وكشفت عن عجزه في السيطرة على الأوضاع المتدهورة. وفي نهاية المطاف، أفضت هذه الأحداث المتلاحقة إلى نتيجة حتمية، إذ اضطر يوسف القرماني إلى التنازل عن العرش في عام 1832م².

وزادت المنافسة المحتدمة بين فرنسا وبريطانيا في هذه الفترة من تعقيد الوضع السياسي في ولاية طرابلس. فبعد تنازل يوسف القرماني عن العرش، تحول الصراع الدولي إلى معركة نفوذ حول خلافته. وبرزت في هذا السياق شخصيتان رئيسيتان: علي باشا، الذي حظي بدعم فرنسا،

¹ إياد تركان ابراهيم، حنان طلل جاسم، المرجع السابق، ص 16.

² Richard J.Reid, A History of Modern Africa 1880 to the Present, Wiley-Blackwell, Oxford, 2012, p 57.

ومحمد باشا، الذي نال تأييد بريطانيا. وأعلنت بريطانيا صراحة معارضتها لتولي علي باشا الحكم، نظراً لولائه المعروف لفرنسا¹.

وفي خضم الأزمة السياسية التي عصفت بولاية طرابلس، برز دور القنصل البريطاني وارينجتون Warrington بوصفه عنصراً مؤثراً في تشكيل مسار الأحداث. فقد اتخذ موقفاً صريحاً بمعارضة تولي علي باشا الحكم، وتجاوز ذلك إلى دعم معارضيه على جبهات متعددة. وشمل هذا الدعم الثوار مثل عبد الجليل سيف النصر من قبيلة أولاد سليمان في فزان، إضافة إلى المطالبين بالحكم من أبناء أخي علي باشا، وعلى رأسهم سيد محمد.

وأدى هذا التدخل البريطاني السافر في الشؤون الداخلية للولاية إلى تصاعد حدة الأزمة. وفي خطوة إستراتيجية، لجأت بريطانيا إلى الدولة العثمانية، طالبة منها التدخل لاستعادة الأمن والاستقرار في المنطقة. ورأت الدولة العثمانية في هذا الطلب فرصة سانحة لاستعادة سلطتها المباشرة على ولاية طرابلس، التي كانت قد فقدت السيطرة عليها لمصلحة الأسرة القرمانيّة.

وفي 14 ماي 1835م، تحرك الأسطول العثماني نحو طرابلس في عملية عسكرية حاسمة. وأسفر هذا التدخل عن اعتقال علي باشا وإنهاء حكمه. وفي خطوة لإعادة ترتيب الأوضاع، عينت الدولة العثمانية نجيب باشا والياً جديداً على طرابلس².

¹ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: أمين فارس ومنير البعلكي، دار العلم للملايين، بيروت، 2001، ص 619.

² أنتوني جوزيف كاكيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني (1835-1991)، تر: يوسف حسن العسلي، دار الحياء الكتب العربية، 1946، ص ص 37-38.

ويكشف المسار الذي اتبعته بريطانيا في التعامل مع الأزمة في طرابلس عن عمق إستراتيجيتها الاستعمارية في الدول المغاربية. فعندما وجدت نفسها تفقد السيطرة على مجريات الأحداث في طرابلس، وشعرت بتعاظم النفوذ الفرنسي، لم تتردد في اللجوء إلى الدولة العثمانية كورقة ضغط. ولم يكن هذا النهج مقصوراً على طرابلس، بل كان جزءاً من سياسة أشمل طبقتها بريطانيا في المنطقة، بما في ذلك تونس، بهدف كبح جماح الطموحات الفرنسية في الولايات العثمانية.

وعلى الرغم من نجاح هذه الإستراتيجية في إعادة طرابلس إلى الحكم العثماني المباشر وخلع الأسرة القرمانلية، ظل الاستقرار بعيد المنال. فقد استمرت الثورات القبلية، مما يشير إلى عمق الاضطرابات الداخلية وتعقيد النسيج الاجتماعي والسياسي للمنطقة. ومع ذلك، تمكنت القوات العثمانية، مدعومة بقوة من بريطانيا، من قمع هذه الثورات وفرض سيطرتها¹.

شهدت طرابلس في منتصف القرن التاسع عشر تكثيفاً للنشاط البريطاني الاستكشافي، إذ أرسلت بريطانيا عدداً من المستكشفين لتعزيز نفوذها في المنطقة. برز من بين هؤلاء المستكشفين جيمس ريتشاردسون **James Richardson** الذي استكشف مسارات تجارية جديدة عام 1845م، وديكسون **Dickson** الذي قدم دراسة وافية عن غدامس عام 1849م، وجيمس هاملتون **James hamilton** الذي أجرى دراسة عن الحركة السنوسية في برقة عام 1852م.

اضطلع القنصل البريطاني وارينجتون **Warrington** بدور محوري في دعم هذه البعثات الاستكشافية، فقدم لها الرعاية المادية والمعنوية، وجمع المعلومات الاستخباراتية عن المناطق الداخلية، كما عمل على توفير الحماية للمستكشفين بالتنسيق مع والي طرابلس. نجح وارينجتون

¹ أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص 43.

Warrington في إقناع حكومته بأهمية اتخاذ طرابلس قاعدة للاستكشافات في أفريقيا الوسطى، وحصل على تعهدات من الوالي العثماني لضمان سلامة المستكشفين البريطانيين. وفي خضم التنافس الاستعماري، عارض وارينجتون **Warrington** بشدة محاولات الدول الأوروبية الأخرى للقيام ببعثات استكشافية مماثلة، مما أدى إلى توترات حادة، لا سيما مع القنصل الفرنسي¹.

شهدت أواخر القرن التاسع عشر تصاعداً في التنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية على أراضي الدولة العثمانية، مما أفضى إلى سلسلة من المفاوضات والاتفاقيات. في ولاية طرابلس، تمحور هذا التنافس بين بريطانيا وإيطاليا وفرنسا. وعلى الرغم من احتدام الصراع بين فرنسا وإيطاليا، حافظت بريطانيا على دورها الفاعل من خلال قنصلها وارينجتون **Warrington**، وأسست قنصليات في خمس مدن استراتيجية لتعزيز نفوذها بين القبائل المحلية.

أثارت نتائج مؤتمر برلين عام 1878م، التي منحت تونس لفرنسا مقابل مصر لبريطانيا، استياء إيطاليا. ولتهدئة الأوضاع، اقترحت بريطانيا على إيطاليا التوجه نحو طرابلس، مما أبرز أهمية الولاية في المنظومة الاستعمارية. مثلت هذه الخطوة جزءاً من استراتيجية بريطانية لتحقيق التوازن في المصالح: منح فرنسا تونس مقابل تعزيز النفوذ البريطاني في مصر وقبرص، وإرضاء إيطاليا بطرابلس.

أدى احتلال فرنسا لتونس إلى إثارة المخاوف الإيطالية من احتمال التوسع الفرنسي نحو طرابلس أو شبه الجزيرة الإيطالية. وعلى الرغم من أن الإشارة البريطانية لإيطاليا بدت بمثابة

¹ إياد تركان ابراهيم، حنان طلال جاسم، المرجع السابق، ص 17.

موافقة ضمنية على ضم طرابلس، إلا أن بريطانيا تجنبّت تقديم التزام مكتوب، مما يشير إلى عدم نضج الظروف لتغيير الوضع القائم في طرابلس.

اتسمت السياسة البريطانية تجاه المطامع الإيطالية في طرابلس بالمرونة الدبلوماسية، حيث قدمت وعوداً دون التزام قطعي. ومع ذلك، نجحت الدبلوماسية الإيطالية في استثمار هذه الإشارات وتفسيرها على أنها التزام. وعندما استفسرت إيطاليا عما إذا كان الاتفاق البريطاني-العثماني بشأن قبرص يمنع السيطرة على طرابلس، أكدت بريطانيا أن التزاماتها مع الدولة العثمانية لا تحول دون ذلك.

تكشف هذه الأحداث عن تعقيد السياسة الاستعمارية الأوروبية وكيفية توظيف القوى الكبرى للمناورات الدبلوماسية في سبيل تحقيق مصالحها، مع الحفاظ على المرونة في مواقفها لتجنب الالتزامات المباشرة التي قد تقيد حركتها مستقبلاً¹.

2 - العلاقات التجارية :

تبوأت بريطانيا مكانة متميزة في العلاقات التجارية مع ولاية طرابلس خلال القرن التاسع عشر، إذ برزت كأهم شريك تجاري للولاية، متفوقة على الدول الأخرى في حجم المبادلات التجارية.

تميزت الصادرات من طرابلس إلى بريطانيا بتنوعها، إذ شملت مجموعة واسعة من المنتجات. تصدرت الحلفاء قائمة هذه الصادرات، حيث اكتسبت أهمية متزايدة بعد استخدامها

¹ إياد تركان ابراهيم، حنان طلال جاسم، المرجع السابق، ص ص 17-18.

في صناعة الورق. وقد نمت هذه النبتة في مساحات واسعة حول طرابلس، ولقيت إقبالا كبيرا في الأسواق البريطانية والاسكتلندية¹.

تضمنت قائمة الصادرات الطرابلسية إلى بريطانيا سلعا متنوعة ذات قيمة اقتصادية مرتفعة، من بينها المجوهرات والعاج، اللذان يعكسان ثراء الموارد الطبيعية في المنطقة. كما شملت القائمة ريش النعام والتمور، فضلا عن الماشية والملح والحبوب كالقمح والشعير. ولم تقتصر الصادرات على المواد الخام، بل امتدت لتشمل منتجات زراعية وصناعية مثل السنا والزيت والصوف والزعفران².

تمتعت بعض الصادرات الطرابلسية بميزة تنافسية في السوق البريطاني. فجزور الفوة، على سبيل المثال، لم تكن معروفة في إنجلترا، مما أكسبها قيمة خاصة. كما حظيت النترات والجلود المدبوغة بطلب كبير. وشكلت الأخشاب، وبخاصة المستخرجة من الجبل الأخضر قرب بنغازي، أهمية استراتيجية في تلبية احتياجات البحرية الملكية البريطانية في مالطا³.

شكلت الواردات من بريطانيا إلى ولاية طرابلس مرآة تعكس احتياجات السوق المحلية والتطور الصناعي البريطاني آنذاك. تنوعت هذه الواردات بين السلع الاستهلاكية كالقهوة والسكر والقطن، والمواد الصناعية كالمسامير والألواح. كما شملت منتجات ذات قيمة مضافة عالية مثل النبيذ والأواني الفخارية والأدوية، إضافة إلى مواد خام نادرة كالكوشينيل وخشب الساج.

¹ إياد تركان ابراهيم، حنان طلال جاسم، المرجع السابق، ص 19.

² Sara M.ElGaddari, British Diplomatic Engagement with North Africa : Consular Activity in Tripoli 1795-1832, being a Thesis submitted for the Degree of PhD History, in the University of Hull, 2015, p 209.

³ Ibid, p 215.

اتسمت عملية التصدير بالتنظيم المنهجي والدقة في التنفيذ. فقد اعتاد المصدرون البريطانيون شراء البضائع مباشرة من السوق الأسبوعية التي كانت تُقام كل يوم اثنين. وارتبطت الأسعار في هذه السوق ارتباطاً وثيقاً بأسعار السوق البريطانية، مما يؤكد عمق العلاقات الاقتصادية بين الطرفين. وتراوح سعر القنطار الواحد بين تسعة وسبعة عشر قرشاً.

عقب عملية الشراء، كان التجار يتولون فرز البضائع وتجهيزها للتصدير باستخدام تقنيات متطورة، مثل المكابس المائية المصنعة في بريطانيا. ثم يجري شحن البضائع إلى لندن على متن سفن مخصصة، بتكلفة تراوحت بين تسعة وأحد عشر شلناً للطن الواحد. وقد بلغ متوسط الصادرات السنوية من طرابلس إلى بريطانيا نحو ثلاثمئة طن، مما يعكس أهمية هذه العلاقة التجارية وحجمها¹.

شهد عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر نمواً ملحوظاً في الحصة البريطانية من التجارة الخارجية لطرابلس، مما عزز العلاقات الاقتصادية بين الجانبين. وتجلّى هذا التطور في المؤشرات التجارية المسجلة خلال تلك الفترة، إذ بلغت قيمة الواردات البريطانية إلى طرابلس نحو 2,168,000 فرنك، في حين وصلت قيمة صادرات طرابلس إلى بريطانيا ومالطا إلى 3,500,000 فرنك.

¹ إياد تركان ابراهيم، حنان طلال جاسم، المرجع السابق، ص ص 19-20.

تكشف هذه الإحصاءات عن حجم التبادل التجاري الكبير بين الطرفين، حيث تفوقت قيمة الصادرات الطرابلسية على الواردات البريطانية بشكل واضح. ويشير هذا الميزان التجاري الإيجابي لصالح طرابلس إلى مكانتها الاستراتيجية في المنظومة التجارية البريطانية¹.

رابعاً : علاقات بريطانيا مع المغرب

1 العلاقات السياسية :

تُعد العلاقات المغربية الإنجليزية من أقدم العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وأوروبا. يمكن تتبع جذورها إلى عصر الدولة الموحدية، غير أنها شهدت تطوراً ملحوظاً خلال فترة حكم الملكة إليزابيث الأولى Elizabeth I² في إنجلترا، والتي تزامنت مع عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي في المغرب.

وعلى الرغم من مرور هذه العلاقات بفترات من التوتر، لا سيما في أعقاب الاحتلال البريطاني لطنجة، إلا أنها استمرت حتى نهاية عام 1684م. ويشير هذا الاستمرار إلى عمق الروابط التي نشأت بين البلدين عبر القرون، والتي تجاوزت العديد من التحديات والأزمات السياسية³.

¹ أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص 184.

² إليزابيث الأولى: هي إليزابيث تيودور ابنة هنري و أن بولين، ولدت 1533م، توفيت 1603م عن عمر 72 سنة ، وفي سنة 1559م، تولت العرش ، كانت امرأة شجاعة و طموحة وجريئة وكانت محبوبة من شعبيها ، فلن تتزوج قط بل انشغلت بحكمها وإدارتها للبلاد مما جعل عهدها العهد الذهبي لانجلترا. للاستزادة أنظر الى :

Leslie Mary, Rhymes of the Kings and Queens of England, Toronto, 1896, p 92.

³ رضوان لحرش، " العلاقات المغربية الإنجليزية خلال الفترة الإسماعلية 1672-1727 "، مجلة ليكسوس، عدد 11، المغرب، 2017، ص 109.

وابان حصار طنجة، بدأت مرحلة جديدة من المفاوضات المهمة بين المغرب وإنجلترا. سعت المملكة الإنجليزية إلى تحقيق سلام دائم مع السلطان المولى إسماعيل¹، مما دفعها إلى إيفاد مبعوثها الدبلوماسي، السير جيمس لسلي Sir James Leslie ، إلى طنجة للتفاوض. وقد أيد ساكفيل Sackville هذا المسعى الدبلوماسي، مؤكداً على أهمية عدم الاستهانة بقوة المغرب ونفوذه.

وفي 20 مارس 1681م، وصل السير جيمس لسلي Sir James Leslie إلى البلاط السلطاني في مكناس، حيث استُقبل بحفاوة بالغة من قبل السلطان. وأسفرت المباحثات عن إجراء مفاوضات لعقد معاهدة سلام بين المبعوث الإنجليزي والقائد المغربي عمر بن حدو. وتم التوقيع على المعاهدة في مكناس في 29 مارس 1681م.

¹ المولى إسماعيل : هو إسماعيل علي الشريف العلوي والمعروف بمولاي إسماعيل ولد بسوس عام 1645م، ومنهم من يرجع موضع ولادته بتافيلالت بالقصر المعروف بأماجار، ذهب بعضهم ومنهم المؤرخ الضعيف أنه ولد عام وقعة القاعدة - وهي معركة بين الدلائيين وقوات مولاي محمد الشريف سنة 1646م، انهزم فيها مولاي محمد ، وأقتحم الدلائيون سجلماسة ، قسموا معه مناطق النفوذ فاعتبر كل ما يقع جنوب الصحراء ، هي مناطق تابعو للمولى محمد الشريف، ومن جهة الشمال مناطق نفوذ الحاج محمد الدلائي - وقد فرح به أبوه فرحاً شديداً لانه رزق به على حين كبر وسماه إسماعيل أما أمه فيذكر مؤرخ الدولة العلوية الشهير مولاي عبد الرحمان بن زيدان صاحب كتاب " المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف" أن والدة السلطان مولاي إسماعيل هي مباركة بنت يرك المتوفاة سنة 1668م، وضريحها بفاس بالمغرب ومباركة بنت يرك حرطائية لأولاد ديمان. للاستزادة أكثر أنظر إلي: بن قומר جلول، " جوانب من مظاهر العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في عهد المولى إسماعيل العلوي (1672-1727)", مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد 8، العدد 27، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة -، 2016، ص 204.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18م و19م

وتضمنت بنود المعاهدة إقرار هدنة بين الطرفين فيما يخص مدينة طنجة، لمدة أربع سنوات. واشترطت المعاهدة توقف الجانب الإنجليزي عن جميع أعمال التحصين خارج أسوار المدينة¹.

وعلى الرغم من نجاح المفاوضات الأولية، لم تتمكن الأطراف من حل قضية الأسرى. ونتيجة لذلك، قرر الجانب المغربي إيفاد بعثة دبلوماسية إلى لندن لمواصلة المباحثات حول مصير طنجة. وتم تعيين السفير محمد بن حدو لهذه المهمة.

وقد وصل السفير بن حدو إلى طنجة على رأس وفد رفيع المستوى، ضم شخصيات بارزة منهم الكاتب أحمد لوقش والقائد محمد الحافظ، إضافة إلى عدد من معاونين. وحظي الوفد باستقبال رسمي يليق بمكانته².

ولدى وصوله إلى لندن، استقبل السفير المغربي من قبل الملك تشارلز الأول Charles I في قاعة بانكويت Banqueting بقصر وايت هول في 11 جانفي 1682م. وقد وثق جون إيفلين John Evelyn، أحد الشهود على هذا اللقاء التاريخي، تفاصيل المشهد قائلاً:

" شهدت اللقاء مع السفير المغربي الذي حضر بحاشية محدودة العدد. جرى الاستقبال في قاعة بانكويت بحضور جلالة الملك والملكة. تقدم السفير نحو العرش دون إظهار علامات

¹ روجرو ب ج، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، تر و تح: يونان لبيب زرق، ط1، دار الثقافة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1980، ص ص 90-91.

² عبد الهادي التازي، " محمد بن حدو سفير السلطان مولاي اسماعيل"، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، عدد2، المملكة المغربية، 1985، ص 57.

البروتوكول المعتادة - إذ لم ينحن برأسه أو قامته. وقام بتقديم رسالته عبر مترجم إنجليزي مرتد، كان قد حصل على ضمانات بالعودة آمناً¹.

استمرت سفارة محمد بن حدو العطار في إنجلترا لمدة تجاوزت الستة أشهر. وخلال هذه الفترة، أجرى السفير مفاوضات دبلوماسية اتسمت بالسرية والأهمية. وتوجت هذه المساعي بتوقيع مشروع معاهدة للسلام والتجارة في 23 مارس 1682م، والتي كان من المقرر أن يحملها السفير معه للحصول على موافقة السلطان المولى إسماعيل.

غادر السفير بن حدو العطار إنجلترا في 23 جويلية 1682م، متوجهاً إلى المغرب على متن السفينة الحربية " لويلين " Llewellyn . ووصلت السفينة إلى ميناء طنجة في 30 أوت من نفس العام ، مختتمةً بذلك مهمة دبلوماسية مهمة.

ولدى وصوله إلى حاضرة مكناس، قدم السفير تقريراً مفصلاً إلى السلطان المولى إسماعيل، مرفقاً بمشروع المعاهدة. وكان الهدف عرض المعاهدة على السلطان لإقرارها أو إدخال التعديلات التي يراها ضرورية.

بيد أن النتيجة جاءت مخالفة للتوقعات؛ إذ رفض السلطان المولى إسماعيل المصادقة على المعاهدة التي أبرمها سفيره. ويُعزى هذا الرفض إلى مخاوف السلطان من تعامل التجار

¹ روجرو ب ج، المرجع السابق، ص 93.

الإنجليز مع بعض العناصر المناوئة في المغرب، مما عدّه تهديداً محتملاً لاستقرار حكمه وسيادة الدولة¹.

وخلال فترة حكم الملك جيمس الثاني James II في إنجلترا، شهدت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ركوداً ملحوظاً. ويمكن تفسير هذا الجمود بانشغال المملكة الإنجليزية بشؤونها الداخلية، مما أدى إلى تراجع اهتمامها بالشأن الخارجي، بما في ذلك علاقاتها مع المغرب.

غير أن هذه العلاقات شهدت انتعاشاً مع اعتلاء الملك وليام الثالث William III العرش الإنجليزي عام 1689م. فبعد فترة وجيزة من توليه الحكم، تلقى الملك الجديد رسالة مهمة من جان سميث هندورب John Smith Hudorbe ، القنصل الهولندي في مدينة سلا المغربية. وكانت هذه الرسالة، المؤرخة في 30 سبتمبر 1689م، بمثابة نافذة على واقع العلاقات الإنجليزية المغربية آنذاك.

وقد تضمنت رسالة هندورب Hudorbe معلومات قيمة وتحليلات معمقة حول طبيعة العلاقات بين البلدين، مسلطة الضوء على التحديات والفرص المحتملة لتعزيز التعاون. وأسهمت هذه الوثيقة الدبلوماسية في إحياء الاهتمام الإنجليزي بالمغرب، وفتحت المجال أمام مرحلة جديدة من التواصل الدبلوماسي بين الدولتين².

¹ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد 9، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، المحمدية، 1988، ص 162.

² رضوان لحرش، المرجع السابق، ص 111.

في 15 أوت 1690م ، اتخذ السلطان المولى إسماعيل مبادرة دبلوماسية مهمة، إذ وجه رسالة إلى الملك وليام الثالث تتناول قضية حساسة وملحة: افتداء الأسرى الإنجليز المحتجزين في المغرب¹.

وعلى إثر هذه المبادرة، بدأت سلسلة من المباحثات الرسمية بين مندوبين مفوضين من الجانبين المغربي والإنجليزي. وكان الهدف الرئيس التوصل إلى اتفاق متبادل لإطلاق سراح الأسرى المحتجزين لدى الطرفين.

إلا أن هذه المحادثات، رغم أهميتها، لم تحقق النتائج المرجوة. فبدلاً من التوصل إلى حل دبلوماسي، انتهت المفاوضات بالإخفاق في تسوية الخلافات القائمة بين البلدين. وأفضى هذا الفشل إلى تداعيات سلبية على العلاقات الثنائية.

ونتيجة لهذا الإخفاق الدبلوماسي، شهدت العلاقات بين المغرب وإنجلترا توتراً ملحوظاً، عاكساً عمق الخلافات وصعوبة التوفيق بين مصالح الطرفين، لا سيما في قضية حساسة كتبادل الأسرى².

أثمر التقارب الدبلوماسي عن اختراق مهم في قضية الأسرى؛ إذ أفرج عن 194 أسيراً إنجليزياً من إجمالي 224 أسيراً كانوا محتجزين في المغرب³. وعكس هذا التطور الإيجابي مدى التحسن في العلاقات بين البلدين، وأظهر رغبة حقيقية من الطرفين في تجاوز الخلافات السابقة والعمل على بناء علاقات أكثر استقراراً وتعاوناً.

¹ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي ...، المرجع السابق، ص 162.

² روجرو ب ج، المرجع السابق، ص 104.

³ نفسه، ص ص 108-109.

وعقب وفاة الملك وليام الثالث **William III** في 8 مارس 1702م، تولت الملكة **Anna** عرش إنجلترا. وفي هذا العهد الجديد، أبدى السلطان رغبة في توطيد العلاقات مع المملكة الإنجليزية. ولم يقتصر الأمر على طلب إيفاد سفير إنجليزي إلى بلاده، بل بادر بخطوة دبلوماسية لتعزيز أواصر الصداقة بين البلدين.

وفي مبادرة رمزية، أرسل السلطان هدية ملكية تليق بمقام الملكة **Anna** ، تمثلت في أسدين ونعامتين. ولأقت هذه المبادرة استجابة سريعة من الجانب الإنجليزي.

ونتيجة لهذا التقارب، تحققت رغبة السلطان على وجه السرعة. ففي 21 فيفري 1704م، عُيّن السير أندرو ليبيك **Sir Andrew Leapic** سفيراً لإنجلترا لدى المغرب، مما مثل خطوة مهمة في مسار العلاقات الثنائية وفتح آفاقاً جديدة للتعاون المشترك¹.

غير أن السير أندرو ليبيك **Sir Andrew Leapic** لم يتمكن من مباشرة مهامه عام 1704م. ودفع هذا التأخير غير المتوقع الملكة آن إلى اتخاذ إجراء حاسم لضمان استمرار العلاقات الدبلوماسية مع السلطان.

وفي 26 ديسمبر 1704م، أصدرت الملكة **Anna** مرسوماً ملكياً يحمل رؤية جديدة. وتضمن هذا المرسوم تكليفاً رسمياً لشخصية دبلوماسية بارزة، هو بول متوين **Paul Methuen**، بمهمة ذات أهمية قصوى.

¹ رضوان لحرش، المرجع السابق، ص ص 112-113.

وكُلف بول متوين **Paul Methuen** بمسؤولية التفاوض المباشر مع السلطان، وذلك بهدف التوصل إلى اتفاق يتجاوز نطاق العلاقات الدبلوماسية التقليدية. وكان الهدف الرئيس إبرام معاهدة شاملة للسلام والصداقة بين البلدين¹.

وفي مطلع عام 1705م، شهدت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين تطوراً ملموساً مع وصول المبعوث الإنجليزي بول متوين **Paul Methuen** إلى المغرب. وبدأت المفاوضات خلال شهري ماي وجوان في مدينة طنجة، حيث التقى بول متوين **Paul Methuen** بالقائد علي بن عبد الله، مبعوث السلطان .

وفي الوقت نفسه، قام مساعد بول متوين **Paul Methuen** ، جزريل جونز **Jezreel Jones**، برحلة إلى العاصمة المغربية حاملاً رسالة الملكة آن **Anna** وهداياها إلى السلطان، في مسعى لتعزيز العلاقات الثنائية.

وعلى الرغم من الجهود المبذولة، واجه متوين صعوبات في تحقيق أهدافه الرئيسية. فقد أخفق في إبرام معاهدة للسلام والتجارة مع مبعوث السلطان، كما لم ينجح في مهمته الإضافية المتمثلة في تأمين إطلاق سراح الأسرى البروتستانت الفرنسيين.

بيد أن بول متوين **Paul Methuen** حقق بعض النجاحات الجزئية. فقد نال موافقة علي بن عبد الله على تزويد حامية جبل طارق بالمؤن الطازجة، وهو ما شكل دعماً تمويئياً مهماً. كما تمكن من تمديد الهدنة البحرية القائمة لعام إضافي، بدءاً من 15 جوان 1705م، مما أسهم في استقرار الأوضاع البحرية بين البلدين.

¹ روجرو ب ج، المرجع السابق، ص 112.

أما في مكناس، فقد واجه جزريل جونز **Jezreel Jones** مصيراً مماثلاً في البلاط السلطاني. فالمولى إسماعيل لم يستجب لمقترحات بول متوين **Paul Methuen**، مما أدى إلى عودة جزريل جونز **Jezreel Jones** ومعه رسالة إلى الملكة آن **Anna**، دون تحقيق نتائج ملموسة¹. في أعقاب مغادرة بول متوين **Paul Methuen** المغرب إثر إخفاق المفاوضات، طرأ تطور مهم في قضية الأسرى البروتستانت الفرنسيين. فقد وافق المغاربة على افتداء أربعة وثلاثين أسيراً مقابل فدية كبيرة شملت مائتي برميل بارود وأربعة براميل إضافية، وثلاثة آلاف وأربعمئة زناد بندقية، وسبعة عشر أسيراً مغربياً، أو ما يعادل ذلك نقداً. غير أن الأمور تعقدت حين لم يتسلم المغاربة سوى مائة برميل من البارود، منها اثنان فقط أرسلهما الأميرال روك **Admiral Rooke**. وأدى هذا الإخلال بشروط الاتفاق إلى إبقاء المغاربة على الأسرى الفرنسيين في طنجة، حيث كانوا قد نُقلوا من مكناس منذ جانفي 1706م².

واستمرت العلاقات بين البلدين في حالة من التوتر والتذبذب لسنوات عديدة، وظلت قضية الأسرى محوراً رئيساً في هذه التوترات. وأدى إخفاق الجانب الإنجليزي في الوفاء بشروط الفدية المتفق عليها إلى تعميق الخلافات وزعزعة الثقة بين الطرفين.

وعلى مدى عقد من الزمن، اتسمت العلاقات الثنائية بتقلب ملحوظ بين مراحل من التقارب والتباعد. بيد أن مطلع أكتوبر 1716م شهد انفراجة دبلوماسية. فقد اتخذ السلطان المولى إسماعيل خطوة إيجابية نحو تهدئة الأوضاع وفتح باب جديد للحوار، إذ أرسل رسالة إلى الجانب الإنجليزي تحمل في طياتها بادرة حسن نية. وأبلغ السلطان في رسالته أنه أصدر أوامر

¹ روجرو ب ج، المرجع السابق، ص 112.

² نفسه، ص 113.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18م و19م

صارمة بوقف تكليف الأسرى بالأعمال الشاقة، وذلك كإجراء مؤقت في انتظار استكمال المفاوضات الخاصة بوضعهم¹.

واستجابة للمبادرة المغربية، قررت إنجلترا إيفاد بعثة دبلوماسية رفيعة المستوى. فوصلت هذه السفارة، برئاسة تشارلز ستewart **Charles Stewart** ، إلى خليج تطوان في 22 ديسمبر 1720م، مما مثّل خطوة مهمة نحو استئناف الحوار المباشر بين البلدين.

وبدأت المفاوضات بين السفير ستewart ومبعوث السلطان، موسى بن العطار²، في أجواء إيجابية³. وأثمرت هذه المحادثات عن نتيجة ملموسة في وقت قصير نسبياً. ففي 17 جانفي 1721م، توجّ الطرفان جهودهما بتوقيع معاهدة شاملة للسلام والتجارة، تضمنت أربعة عشر بنداً رئيساً إضافة إلى خاتمة⁴، تناولت مجموعة واسعة من القضايا الثنائية.

وشهدت العلاقات المغربية البريطانية فترة من التوتر المتصاعد، تزامنت مع حكم الملك جورج الثاني **George II** في بريطانيا (1727-1760م) والسلطانين المغربيين المولى عبد الله (1728-1757م) وسيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م).

¹ رضوان لحرش، المرجع السابق، ص 115.

² **موسى العطار**: من يهود سلا وكبار التجار، كانت له حطة كبيرة عند مولاي إسماعيل حتى كان يدعى محظي السلطان، وكان مكلفاً بخزائن السلطان توفي سنة 1724، انظر الى : جون وندوس، رحلة إلى مكناس، تروت: زهراء إخوان و عبد اللطيف الشاذلي، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، 1993، ص 32.

³ John windus, A journey to Mequinez ; The Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco. On the Occasion of Commodore Stewart's Embassy Thither for the Redemption of the British Captives in The Year 1721, Printed for George Ewing at The Angel and Bible in Dames-Street, Dublin, 1725, p 6.

⁴ Ibid, pp 239-251.

وبدأت الأزمة عندما قام تجار بريطانيون بتزويد المستضيء، أحد المناوئين للسلطان المولى عبد الله، بالأسلحة. وأثار هذا العمل، الذي عُدّ تدخلاً في الشؤون الداخلية المغربية، غضب السلطان. فرداً على ذلك، أقدم المولى عبد الله على حجز سفينتين بريطانيتين في جانفي 1754م، مما صعد التوتر بين البلدين.

واستمر هذا التوتر مع انتقال الحكم إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي اتخذ تدابير أشد صرامة. فقد أمر بإخراج التجار البريطانيين من ميناء أكادير، وأصدر أوامره بحجز السفن البريطانية في مختلف الموانئ المغربية، مما شكل ضربة قوية للمصالح التجارية البريطانية في المنطقة.

وفي محاولة لاحتواء الأزمة وإعادة العلاقات إلى مسارها، لجأ الطرفان إلى الدبلوماسية. فأوفد الملك جورج الثاني مبعوثه الخاص، هايد باركر **Hyde Parker** ، إلى مراكش في جويلية 1756م للتفاوض. غير أن هذه المحادثات واجهت عقبة كبيرة تمثلت في رفض بريطانيا تزويد المغرب بالمعدات اللازمة لصناعة السفن، وهو ما عده المغرب شرطاً أساسياً لتحسين العلاقات¹.

وشهد عام 1758م حادثاً مأساوياً تمثل في انتحار القنصل البريطاني ريد **Reade** أثناء أداء مهمته الدبلوماسية في المغرب. وكان لهذه الحادثة المؤسفة أثر غير متوقع، إذ دفعت السلطان المغربي إلى إعادة النظر في موقفه. ونتيجة لذلك، قرر السلطان تمديد معاهدة السلام مع

¹ Khalid Ben Srhir, Britain and Morocco During The Embassy of John Drummond Hay 1845-1886, Translated by Malcolm Williams and Gavin Waterson, Routledge Curzon, USA, 2005, p16.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18م و19م

بريطانيا لمدة عام إضافي، مما مثّل بادرة إيجابية نحو تهدئة التوترات وفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين¹.

شهدت العلاقات المغربية-البريطانية تحولاً إيجابياً مع وصول البعثة الدبلوماسية برئاسة مارك ميلبانك Mark Milbanke إلى المغرب عام 1760م. نجحت هذه البعثة في إبرام معاهدة جديدة بين البلدين، مما أرسى أسساً متينة للعلاقات الثنائية.

وخلال عهد الملك جورج الثالث George III (1760-1820)، شهدت العلاقات بين البلدين تطوراً ملحوظاً تمثل في تكثيف التبادل الدبلوماسي، مما أدى إلى تعميق أواصر التعاون المشترك.

غير أن مسار العلاقات لم يكن مستقراً، إذ تأرجح بين مد وجزر متأثراً بالمتغيرات الإقليمية والدولية. وبرزت إسبانيا كعامل مؤثر في هذه العلاقات، ساعية إلى توجيهها بما يخدم مصالحها الاستراتيجية في المنطقة.

وتجلى التأثير الإسباني في توقيع معاهدة مغربية-إسبانية عام 1781م، مما شكل تحدياً للنفوذ البريطاني ودفع لندن إلى مضاعفة جهودها الدبلوماسية لاستعادة مكانتها في المغرب.

وخلال الحروب النابليونية (1792-1814)، شهدت العلاقات المغربية-البريطانية تقارباً خاصاً، مدفوعاً بالتوجسات المشتركة من السياسة التوسعية الفرنسية في حوض البحر المتوسط².

¹ Khalid Ben Srhir, Britain and Morocco..., op.cit, p 16.

² Ibid, p17.

وفي عهد السلطان المولى يزيد (1790-1792)، اتسمت السياسة الخارجية المغربية برؤية استراتيجية واضحة تجاه القوى الأوروبية. وسعى السلطان إلى توطيد العلاقات مع بريطانيا، مدفوعاً برغبته في استعادة مدينة سبتة من السيطرة الإسبانية، معتبراً أن التحالف مع القوة البحرية البريطانية سيمنح المغرب دعماً دبلوماسياً وعسكرياً في مواجهة إسبانيا¹.

في مطلع القرن التاسع عشر، مع بداية حكم السلطان مولاي سليمان (1792-1822)، شهدت العلاقات المغربية-البريطانية تطوراً ملموساً. وقد توجت هذه المرحلة الأولى بتوقيع معاهدة 1801م، التي منحت بريطانيا امتيازات تجارية مهمة، منها تصدير ألفي رأس من الماشية سنوياً إلى جبل طارق بأسعار امتيازية².

وخلال الحروب النابليونية، أدى التفوق البحري البريطاني إلى إعادة تشكيل العلاقات التجارية للمغرب مع شركائه الأوروبيين، إذ فرض الحصار البحري البريطاني على فرنسا وحلفائها انقطاعاً شبه تام للتجارة مع المغرب. وقد برزت بريطانيا العظمى بوصفها المستفيد الأكبر من التحولات التجارية إبان الحروب النابليونية، فقد استثمرت تفوقها البحري وموقعها الاستراتيجي لملء الفراغ الناجم عن انسحاب القوى الأوروبية الأخرى من السوق المغربية، مما أدى إلى نمو ملحوظ في العلاقات التجارية بين البلدين³.

¹ Khalid ben shir, " Le Traite de Moulay Yazid avec L'Angleterre 1791", **in Hespéris Tamuda**, Fascicule 1, Rabat, 1991, p 127.

² Mohamed El Mansour, Political and Social Developments in Morocco during The Reign of Mawlay Sulayman, Thesis Submitted for the degree of doctor of philosophy in the school of oriental and African studies university of London, 1981, pp 155.

³ Ibid, p 153.

وفي هذا السياق، أظهر السلطان مولاي سليمان براعة دبلوماسية في إدارة العلاقات التجارية، إذ كان يسمح بزيادة صادرات الماشية عند الحاجة إلى موارد مالية إضافية، خاصة لتمويل شراء الأسلحة والمعدات العسكرية¹.

شكل التعاون العسكري منذ مطلع القرن التاسع عشر مظهراً بارزاً للنفوذ البريطاني في المغرب. وتجلّى ذلك في هيمنة الأسلحة البريطانية على الترسانة المغربية، وإشراف الضباط البريطانيين على تدريب المدفعيين المغاربة في جبل طارق. وبلغ هذا التعاون ذروته في التنسيق المشترك لمحاورة مدينة مليلة، حيث سُمح للجيش البريطاني باستخدام جزيرة تاور².

وشهدت المنطقة المتوسطية تحولاً استراتيجياً في السياسة البريطانية. إذ دفعت عوامل سياسية واقتصادية بريطانيا إلى إدراك أهمية السيطرة على مدخل البحر المتوسط والطرق المؤدية إلى المشرق. وأصبح الحفاظ على نفوذها في هذا الممر المائي أولوية دبلوماسية قصوى، مع تركيز جهودها على تعزيز وجودها حول مضيق جبل طارق³.

وفي عام 1828م، شهد المغرب تحولاً في سياسته البحرية عندما قرر السلطان المولى عبد الرحمن إحياء الجهاد البحري. أثار هذا القرار قلقاً عميقاً لدى القوى الأوروبية، وخاصة بريطانيا، التي ردت بفرض حصار بحري على ميناء طنجة⁴.

¹ Mohamed El Mansour, op.cit, p 155.

² Khalid Ben Srhir, Britain and Morocco During..., op.cit, p 18.

³ Francis R Flournoy, British Policy Towards Morocco in the Age of Palmeston (1830-1865), P.S. King & Son London, 1935, p 31.

⁴ Ibid, p 41.

قبيل احتلال فرنسا للجزائر عام 1830م، راقبت بريطانيا بحذر التحركات الفرنسية في الدول المغاربية. ومع تزايد الاهتمام الفرنسي بالجزائر، أبدت بريطانيا معارضة شديدة، محذرة من محاولات الاحتلال الدائم. ونجحت في انتزاع وعود من حكومة شارل العاشر Charles X بعدم إقامة وجود دائم دون موافقة القوى الأخرى.

غير أن الأحداث تسارعت بعد استيلاء فرنسا على الجزائر. فرغم تعهدات حكومة لويس فيليب Louis philippe بالالتزام بعود سابقها، اتضح عزم فرنسا على البقاء في الجزائر، متجاهلة مواقف القوى الأخرى.

ووجدت بريطانيا نفسها في موقف دقيق، إذ لم تكن مستعدة للدخول في نزاع مع فرنسا. فتبنى الدبلوماسيون البريطانيون موقفاً حذراً: رفضوا الاعتراف بشرعية الاحتلال الفرنسي، مع التزام الصمت.

واتخذت بريطانيا موقفاً أكثر صرامة تجاه التوسع الفرنسي خارج حدود الجزائر. إذ تحرك اللورد بالمرستون Lord Palmerston ، وزير الخارجية البريطاني، مطالباً بإيضاحات من الحكومة الفرنسية، مؤكداً رفض أي محاولة للسيطرة على تونس أو طرابلس أو المغرب¹.

وفي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، شهدت العلاقات الفرنسية-المغربية توتراً متزايداً بسبب الصراع في الجزائر. فقد قاد الجنرال بيجو General Bugeaud حملات

¹ Francis R Flournoy, op.cit, pp 54-55.

عسكرية أضعفت نفوذ الأمير عبد القادر الجزائري، مما دفعه للجوء إلى المناطق الحدودية مع المغرب¹.

وفي خضم هذا التوتر، برزت بريطانيا كوسيط دبلوماسي رئيس، متحركة بحذر بين أطراف الأزمة. وبدافع من حرصها على استقرار المنطقة وحماية مصالحها الاستراتيجية، تصدرت لندن جهود الوساطة، ساعية إلى تخفيف حدة التوتر.

في قلب هذا المناخ السياسي المشحون، جرت مفاوضات دقيقة تناغمت فيها مصالح القوى الكبرى مع هواجس الأمن الإقليمي. وفي لفظة دبلوماسية، حاول الملك لويس فيليب **Louis philippe** تهدئة المخاوف البريطانية، مصرحاً: " اطمئنوا، فلا وجود لخطر عدوان فرنسي على المغرب. أؤكد لكم أننا لن نقدم على أي توغل في الأراضي المغربية، ولن نفرض حصاراً عليها. لقد نلنا نصيبنا من الحصار وما جلبته علينا من مصاعب"².

غير أن هذه التطمينات لم تكن كافية لتبديد مخاوف اللورد بالمرستون **Lord Palmerston** ، الذي استمر في تلقي تقارير عن خطط فرنسية عسكرية وبحرية محتملة ضد المغرب. دفعه هذا إلى السعي للحصول على ضمانات رسمية إضافية من وزارة الخارجية الفرنسية. وفي وقت لاحق، أقر الملك الفرنسي بإدراكه لأهمية استقلال المغرب وسيادته في نظر الحكومة البريطانية³.

¹ Francis R Flournoy, op.cit, p 59.

² Ibid, p 60.

³ Ibidem .

وفي إطار مساعيها الدبلوماسية، وجهت بريطانيا رسالة إلى السلطان المولى عبد الرحمن، تحثه فيها على توخي الحذر والحكمة في التعامل مع الوضع الراهن، والامتناع عن أي تصرفات قد تتخذها فرنسا ذريعة للعمل العدائي¹.

في خضم التوترات المتصاعدة، حظيت قضية الأمير عبد القادر وعلاقاته المعقدة مع السلطان المولى عبد الرحمن والفرنسيين باهتمام كبير من الحكومة البريطانية. غير أن الأحداث تسارعت بشكل حاد في عام 1844م، متجاوزة المساعي الدبلوماسية. شنت فرنسا هجوماً عسكرياً حاسماً، إذ احتلت قواتها البرية مدينة وجدة الاستراتيجية على الحدود، في حين قام أسطولها بقصف مدينتي طنجة والصويرة الساحليتين. جاء هذا التصعيد العسكري رغم المساعي البريطانية المكثفة لإقناع السلطان المغربي بالابتعاد عن النزاع القائم بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية. وصلت الأزمة ذروتها في معركة إسلي الفاصلة، حيث تكبد الجيش المغربي، المؤلف من 30,000 ألف مقاتل، هزيمة قاسية قرب وجدة. انتهت هذه الحملة العسكرية بنتائج وخيمة على المغرب، مخلفة أثراً عميقاً في أوساط الدولة والمجتمع المغربي².

شهد منتصف القرن التاسع عشر تحولاً جوهرياً في مسار العلاقات البريطانية-المغربية، تزامن مع رحيل شخصية دبلوماسية مرموقة. ففي عام 1845م، توفي إدوارد وليام دراموند هاي **Edward William Drummond Hay**، القنصل العام البريطاني، تاركاً إرثاً دبلوماسياً عريقاً. واصل ابنه، جون دراموند هاي **John Drummond Hay**، هذا الإرث بتوليهِ المنصب نفسه، مفتتحاً بذلك حقبة دبلوماسية متميزة امتدت لأكثر من أربعة عقود.

¹ Francis R Flournoy, op.cit, p 61.

² C.R.Pennell, The social history of British Diplomats in North Africa and How its Affected Diplomatic Policy, Oxford University Press, Oxford, 2008, p 358.

تميزت المسيرة المهنية لجون دراموند هاي **John Drummond Hay** بالتدرج في المناصب الدبلوماسية. فمن منصبه الأول كقنصل عام، ارتقى إلى مرتبة مبعوث فوق العادة ووزير مفوض، محافظاً طوال هذه المدة على دوره المحوري في رسم وتوجيه السياسة البريطانية تجاه المغرب. استمر نفوذه الدبلوماسي حتى تقاعده في عام 1886م، مشكلاً عَصراً متميزاً في العلاقات الثنائية.

برزت أسرة دراموند هاي **Drummond Hay** كركيزة أساسية في العلاقات البريطانية-المغربية، تاركة أثراً عميقاً في مسار التفاعلات الدبلوماسية والتجارية خلال العصر الفيكتوري. عكس هذا الدور المحوري عمق الصلات التاريخية بين البلدين وأهمية الدبلوماسية الشخصية في تلك الحقبة. توج جون دراموند هاي **John Drummond Hay** مسيرته بإنجاز دبلوماسي مهم عام 1848م، يعكس مهارته في خدمة المصالح البريطانية. فقد نجح، بكفاءة دبلوماسية عالية، في إقناع السلطان المغربي بتخفيض الرسوم الجمركية 10%، مما أدى إلى تحسن ملحوظ في العلاقات التجارية لصالح بريطانيا¹.

شهد عام 1856م إنجازاً دبلوماسياً وتجارياً بارزاً، تُوج جهود جون دراموند هاي **John Drummond Hay** المتواصلة على مدى سنوات. فقد أثمرت مساعيه عن موافقة السلطان المغربي على إبرام معاهدة تجارية جديدة مع بريطانيا، مثلت نقطة تحول في العلاقات الاقتصادية بين البلدين.

¹ Margaret Graves, " Visual Culture as Historical Document : Sir John Drummond Hay and the Nineteenth-Century Moroccan Pottery in the National Museum of Scotland ", **British Journal of Middle Eastern Studies**, Vol36,N°1, Routledge, 2009, p 95.

وقد وثق المؤرخ المغربي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري هذا الحدث في كتابه "الاستقصا" قائلاً: "وفي سنة 1273 هـ/ 1856م انعقدت الشروط بين السلطان والإنجليز وهي قسمان: قسم في أمور التجارة وبيان الصكة والأعشار، وأن لا تُعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفس. وهي خمسة عشر شرطاً. وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعيتي الجانبين في أي موضع كانوا وهي ثمانية وثلاثون شرطاً. وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله الخطيب التطواني بطنجة"¹.

تميزت هذه المعاهدة بتنظيمها الدقيق للعلاقات التجارية والقانونية بين البلدين. فقد تضمن القسم المتعلق بالتجارة والملاحة بنوداً جوهرية أسست لمرحلة جديدة من التعاون الاقتصادي . من أبرز هذه البنود:

1. ضمان حماية السفن البريطانية وتموينها في السواحل المغربية.
2. تقييد احتكار المغرب لبعض الأنشطة التجارية في إطار تحرير التجارة، مع احتفاظه بحق تعليق التصدير عند الضرورة.
3. في حالة النزاع بين مواطن مغربي وآخر بريطاني، وكان المغربي مدعياً، تختص المحكمة القنصلية بالفصل في النزاع، مع السماح لممثل السلطة المغربية بحضور جلسات المحاكمة.
4. خضوع الرعايا البريطانيين للسلطة القضائية لقنصليات بلادهم.
5. تسديد الرسوم الجمركية نقداً، مع إمكانية الأداء عيناً برغبة من التاجر.

¹ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، ج9، تح و تع: جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، 1997، ص ص70-71.

6. إعفاء الرعايا البريطانيين والمحميين المغاربة من الضرائب، باستثناء الرسوم الجمركية.¹

تجاوز تأثير المعاهدة نطاق المصالح البريطانية المباشرة. فقد توصل جون دراموند هاي John Drummond Hay والخطيب التطواني، ممثل الجانب المغربي، إلى اتفاق يقضي بتعميم الامتيازات الممنوحة للبريطانيين على رعايا جميع الدول المتعاملة تجارياً مع المغرب. أكسب هذا البند المعاهدة أهمية دولية وبعداً استراتيجياً.²

شكلت هذه المعاهدة منعطفاً تاريخياً في مسار التجارة المغربية، إذ تجاوزت كونها وثيقة ثنائية لتمثل بداية مرحلة جديدة في تاريخ الاقتصاد المغربي، مهدت الطريق لعصر من الانفتاح التجاري والتعاون الاقتصادي الدولي.

برز جون دراموند هاي John Drummond Hay كشخصية محورية في المشهد الدبلوماسي المغربي، متجاوزاً حدود منصبه الرسمي ليصبح قوة مؤثرة في صنع القرار. اكتسب مكانة متميزة حتى عُـد ثالث أقوى شخصية في المملكة، بعد ملك المغرب والشريف الوزاني. أهله هذا النفوذ لتولي منصب عميد السلك الدبلوماسي، حيث نجح في توطيد العلاقات المغربية البريطانية لتصل إلى مستويات غير مسبوقة. تُوجت جهوده بمنحه لقب فارس "Knighthood" عام 1857م.³

¹ خديجة صبار، سفير فوق العادة: تجربة السير جون درامندهاي في المغرب 1845-1886، تأليف جماعي، تنسيق كريم بجيت، منشورات دار الأمان، الرباط، 2013، ص101.

² روجرو ب ج، المرجع السابق، ص220.

³ Margaret Graves, op.cit, p 95.

مع مرور الوقت، أصبح جون دراموند هاي **John Drummond Hay** خبيراً في الشؤون المغربية. وصف تجربته في المغرب بأنها "انتقال عبر الزمن ألف أو ألفي سنة إلى الوراء"، مما يعكس عمق فهمه لثقافة البلاد وتاريخها.

أدى جون دراموند هاي **John Drummond Hay** دوراً مزدوجاً في علاقته مع المخزن المغربي. فمن جانب، كان مستشاراً موثقاً يقدم النصيحة في القضايا المعقدة التي واجهت الحكومة المغربية. ومن جانب آخر، حرص على حماية مصالح بريطانيا. تماشت هذه السياسة مع نهج السياسة الخارجية البريطانية الذي صاغه وزير الخارجية اللورد بالمرستون **Lord Palmerston** بقوله: "ليس لدينا حلفاء خالدون ولا أعداء دائمون، بل مصالحنا هي الخالدة"¹.

بناءً على فهمه العميق للواقع المغربي، قدم جون دراموند هاي **John Drummond Hay** مقترحات إصلاحية شاملة لتطوير شؤون الدولة. في لقائه مع السلطان الحسن الأول في أفريل 1875م، وصف بصراحة الإدارة المغربية بأنها "من أكثر الإدارات فساداً في العالم"، في موقف يعكس جرأته الدبلوماسية.

أسفر اللقاء عن خطوة عملية فورية تمثلت في تركيب خط تلغرافي في القصر الملكي، بإشراف خبير بريطاني. شكلت هذه المبادرة بداية لسلسلة من المقترحات الإصلاحية، شملت ستة مجالات رئيسية:

¹ محمد أبو طالب، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب الرباط، 1983، ص 299.

1. التجارة والمالية
 2. نظام الحمایات
 3. الجيش
 4. الإدارة
 5. السجون
 6. المواصلات، مع التركيز على تطوير موانئ الجديدة وطنجة وآسفي والدار البيضاء¹.
- اقترح دراموند هاي مشروعاً لإنشاء خط اتصال بين طنجة وجبل طارق، لكنه واجه عقبات منها اشتراط المغرب السيطرة عليه، ومعارضة إسبانيا.
- في مجال إصلاح الجيش، قدم مقترحات محددة شملت:
1. تحسين آلية اختيار الجنود وضبط أعدادهم.
 2. إيفاد الضباط للتدريب في أوروبا.
 3. الاستعانة بخبراء عسكريين أوروبيين.
 4. تزويد القوات بأسلحة حديثة.
- استجاب السلطان المغربي إيجابياً لمقترحات جون دراموند هاي John Drummond Hay الإصلاحية، مبادراً بتطبيق جزء منها في جنوب المملكة كمرحلة تجريبية. غير أن هذه المبادرة الإصلاحية أثارت نقاشاً معمقاً بين الباحثين والمؤرخين².

¹ محمد عاقل، المرجع السابق، ص 131.

² نفسه.

في هذا السياق، يقدم المؤرخ المغربي خالد بن الصغير تحليلاً نقدياً عميقاً لهذه المقترحات وتداعياتها، إذ يقول:

" تبدو هذه المقترحات للوهلة الأولى واعدة، تحمل إمكانية ضبط النظام الضريبي وتعزيز موارد المخزن المالية. غير أن هذه الأفكار، المستمدة من مبادئ الفكر الليبرالي، تصطدم بواقع مختلف تماماً عن بيئتها الأصلية. فقد صُممت لدول شهدت تحولات جذرية في بنياتها الزراعية والصناعية، كبريطانيا وفرنسا، ولم تكن عرضة للضغوط الأجنبية الساعية لفتحها وإدماجها قسراً في المنظومة الرأسمالية العالمية، كما كان حال المغرب آنذاك.

لو كانت نوايا دراموند هاي خالصة للإصلاح الشامل، لما التزم الصمت إزاء فرض الضرائب على المحميين والمخالطين المغاربة والأجانب المقيمين في المغرب. بدلاً من ذلك، اكتفى بتوجيه النصح للمخزن بتشديد الضغط على الفئات الضعيفة من رعاياه، ممن لم يحظوا بعد بالحماية الأجنبية.

في الواقع، فإن هذه المقترحات الإصلاحية، رغم ظاهرها البراق، لم تمس مصالح الأجانب أو المحميين، بل ركزت ثقلها على الرعايا المغاربة الأصليين. أدى هذا النهج الانتقائي في الإصلاح إلى تفاقم مسألة الحماية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، مما عمق الفجوة بين فئات المجتمع المغربي وزاد من تعقيد المشهد السياسي والاقتصادي في البلاد¹.

شهد عام 1886م تحولاً مهماً في التمثيلية الدبلوماسية البريطانية بالمغرب. عينت وزارة الخارجية البريطانية ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** خلفاً لجون دراموند هاي

¹ محمد عاقل، المرجع السابق، ص 131.

John Drummond Hay. تولى ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** منصبه القنصل العام والوزير المفوض للمملكة المتحدة، وباشر مهامه رسمياً في الأول من جويلية من العام نفسه، مفتحاً مرحلة جديدة في العلاقات الدبلوماسية البريطانية-المغربية¹.

خلال ولايته التي امتدت لأربع سنوات، عالج ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** عدة قضايا، مع اهتمام خاص بالشؤون التجارية. قدم جون لوي ميج **John Louis Miège** تحليلاً لأسلوبه الدبلوماسي، واصفاً إياه بالبساطة والروتينية. غير أن ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** واجه صعوبة في إقناع السلطان الحسن الأول بتجديد المعاهدة القائمة.

لتقوية موقفه، راسل ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** وزير الخارجية البريطاني، اللورد سالزبوري **Lord Salisbury**، بشأن المفاوضات الجارية. سعى لإقناع الوزير بوجود توافق بين القناصل الأوروبيين - الإيطالي والإسباني والألماني - حول الوضع المغربي. وفق رؤيتهم، كانت الحكومة المغربية أمام خيارين:

1. تبني نهج إصلاحى تنويري، يواكب متطلبات العصر.
2. مواجهة خطر الزوال أمام تيار الحضارة الغربية المتسارع ومتطلباته المتزايدة².

¹ خالد بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886-1904، دار أبي رفاق للطباعة و النشر، 2011، ص 28.

² نفسه، ص 29.

بعد تقييمه للوضع، خلص ويليام كيربي غرين **William Kirby Green** إلى ضرورة صياغة معاهدة جديدة لتقديمها للسلطان المغربي. اقترح الاستفادة من مسودات المعاهدات السابقة التي قدمتها بريطانيا وفرنسا وألمانيا للسلطان الحسن الأول عام 1886م، والتي رفضها آنذاك.

في منتصف أفريل 1890م، نشرت الغرفة التجارية الإسبانية في طنجة، بتوجيه من حكومة مدريد، تقريراً مفصلاً عن مقترحات مراجعة معاهدة 1861م مع السلطان محمد الرابع. رداً على ذلك، وجه اللورد سالزبوري **Lord Salisbury** تعليماته لويليام كيربي غرين **William Kirby Green** بالتشاور مع نظرائه القناصل في طنجة لإعداد مسودة مشتركة تسبق المبادرة الإسبانية.

غير أن الدبلوماسي الألماني تانتباخ **Tattenbath** فاجأ الجميع خلال زيارته للسلطان عام 1890م، بنجاحه في إبرام اتفاقية تجارية من ثمانية بنود، تضمنت:

1. موافقة المخزن على تصدير القمح والشعير لمدة خمس سنوات
2. منح رخصة للتجارة الساحلية في الحبوب بين الموانئ المغربية، مقابل رسوم جمركية محددة.

مثل هذا الإنجاز الألماني تحقيقاً لمطلب سعى إليه ممثلو الدول الأوروبية في طنجة لعقود، وأثار قلق القوى الأوروبية الأخرى الساعية لامتيازات مماثلة¹.

أقلق التقارب المغربي-الألماني وليام كيربي غرين **William Kirby Green**، إذ رأى فيه تهديداً لجهوده الدبلوماسية ومصالح بريطانيا في المنطقة¹. لكن الأحداث اتخذت منحى مفاجئاً

¹ خالد بن صغير، المرجع السابق، ص ص 31-32.

الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18م و19م

بوفاته في مراكش في فيفري 1891م، مما أدى إلى تأجيل النظر في القضايا المشتركة بين البلدين².

شهد النفوذ البريطاني في المغرب تراجعاً بين عامي 1884م و1889م، تجلى في انخفاض قيمة الواردات المغربية من المملكة المتحدة من 717,293 جنيهاً إسترلينياً إلى 626,911 جنيهاً إسترلينياً. عزا التجار البريطانيون هذا التراجع إلى جمود الأطر التنظيمية للعلاقات التجارية.

لتصحيح المسار، عينت وزارة الخارجية البريطانية عام 1891م تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith** وزيراً مفوضاً وقنصلاً عاماً في المغرب. اتسمت سياسته باستقلالية عالية، متجاوزاً أحياناً توجيهات وزير خارجيته³.

حدد سميث أربع قضايا رئيسية لمناقشتها مع السلطان الحسن الأول:

1. إجراء تغييرات جوهرية في العلاقات التجارية.
2. إصلاح نظام الحماية القنصلية.
3. تحسين العلاقات بين شركة شمال غرب إفريقيا في طرفاية والسلطان.
4. معالجة قضية الرق.

¹ خالد بن الصغير، المرجع السابق، ص 32.

² نفسه، ص 34

³ نفسه، ص 35.

عكست هذه الإستراتيجية رؤية تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith**

لتعزيز النفوذ البريطاني وإحداث تغييرات أساسية في العلاقات بين البلدين، مع التركيز على القضايا الاقتصادية والإنسانية¹.

في تقييمه للمعاهدة المغربية-الألمانية عام 1890م، رأى تشارلز بين إيوان سميث **Charles**

Bean Euan Smith أنها، رغم محدودية نتائجها، عكست الحاجة الملحة للإصلاحات

التجارية في المغرب. أقر بأهميتها السياسية كونها أول اتفاقية تكسر الحظر المفروض على تصدير الحبوب، معتبراً إياها خطوة أولى نحو إصلاحات تجارية شاملة. بناءً على هذا التحليل، اقترح سميث نهجاً حازماً في التفاوض مع السلطان المغربي².

غير أن اللورد سالزبوري **Lord Salisbury** ، وزير الخارجية البريطاني، حذره من استخدام

أسلوب التهديد. نصحه بتبني نهج ودي ومعتدل، مشدداً على أهمية تقديم الحجج بوضوح لإظهار منافع المقترحات البريطانية للمغرب. استجابة لهذه التوجيهات، عدل تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith** مقاربته، متبنياً نهجاً دبلوماسياً أكثر حذراً في مفاوضاته³.

في 27 أبريل 1892م، توجه تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith** إلى

فاس لإبرام معاهدة تجارية مع السلطان الحسن الأول، لكنه واجه معارضة قوية. برر السلطان

¹ خالد بن الصغير، المرجع السابق، ص ص 40-42.

² نفسه، ص ص 43-44.

³ نفسه، ص ص 44-45.

رفضه بالتزام سابق مع ألمانيا يمنع مناقشة الإصلاحات التجارية لمدة خمس سنوات بعد اتفاقية 1890م.

في جويلية، غادر تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith** فاس غاضباً إلى طنجة مطالباً بدعم حكومته لفرض المعاهدة، لكن وزير الخارجية رفض اللجوء إلى التهديد خشية إثارة شكوك القوى الأخرى في نوايا بريطانيا تجاه المغرب¹.

بعد عودته إلى طنجة، غادر تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith** في إجازة إلى سويسرا ثم لندن في 8 أكتوبر 1892، موكلاً إدارة المفوضية لمت ترجمه الأول. أثار هذا التطور تكهنات حول مستقبله الدبلوماسي، بين احتمالي استدعائه للتحقيق في فشل مهمته، أو إقالته بأسلوب دبلوماسي.

لاحقاً، نشرت صحيفة التايمز **Times** في 20 أكتوبر 1892م خبراً يفيد بسفر تشارلز إليوت **Charles Eliott** إلى لندن لتولي مهامه الجديدة في المغرب كقائم بأعمال السفارة البريطانية في طنجة، مما يرجح فرضية إقالة تشارلز بين إيوان سميث **Charles Bean Euan Smith**². عكست هذه التطورات تعقيدات الدبلوماسية البريطانية في المغرب وصعوبات تحقيق أهدافها في ظل المنافسة الأوروبية ومقاومة المغرب للإصلاحات المقترحة.

¹ Taylor, "British Policy in Morocco, 1886-1902 ", **English Historical Review**, Vol 66,N° 260, Oxford, 1951, p 355.

² خالد بن الصغير، المرجع السابق، ص 107.

2 -العلاقات التجارية :

شهدت العلاقات التجارية بين جبل طارق والمغرب نمواً ملحوظاً في أعقاب السيطرة البريطانية على جبل طارق عام 1714م. في المرحلة الأولى، اقتصر الواردات على المؤن الغذائية ومواد البناء لسد احتياجات الحامية العسكرية البريطانية المستجدة. غير أن النشاط التجاري سرعان ما توسع ليشمل صادرات مغربية متنوعة، من بينها الشمع والجلود والزيوت والعسل، فضلاً عن استيراد السلع المصنعة. وفي سبتمبر 1725م، أشار نائب قائد الحامية البريطانية ريتشارد كين **Richard kane** إلى أن العلاقات الوثيقة مع المغرب " أسهمت في تعزيز التجارة البريطانية بصورة ملحوظة".

على الرغم من محدودية حجم التجارة في بداياتها، إلا أن جبل طارق شهد نمواً اقتصادياً متزايداً خلال العقود اللاحقة. وبحلول الربع الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، أصبحت بريطانيا الشريك الرئيس للمغرب، حيث تركزت معظم المعاملات بين مدينتي تطوان وجبل طارق¹.

انقسمت التجارة مع بريطانيا إلى محورين رئيسيين :

الأول: التجارة المباشرة مع بريطانيا، واتخذت من ميناء الصويرة مركزاً رئيساً لها. وقد شهد هذا الميناء، بعد تأسيسه، نمواً سريعاً حتى أصبح أكبر موانئ المغرب .

¹ James A.O.C. Brown, Anglo –Moroccan Relation in the late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries with the Particular Reference to the Role of Gibraltar, This dissertation is submitted for the degree of doctor of philosophy at the faculty of Asia & Middle Eastern studies , University Cambridge, 2009, p 145.

الثاني: تجارة موانئ المغرب الغربية التي اتخذت من جبل طارق معبراً رئيساً لها¹.

وفيما يتعلق بالصادرات والواردات المغربية، شهد القطاع التجاري الخارجي للمغرب ازدهاراً ملحوظاً خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، مع تركيز خاص على الصادرات عبر جبل طارق. وتصدرت الحبوب، ولا سيما الذرة والفول والشعير والقمح، قائمة الصادرات، إذ شكلت ما يزيد على نصف إجمالي الصادرات المغربية إلى بريطانيا².

كما برز المغرب بوصفه مصدراً رئيساً للماشية، خاصة إبان عهد السلطان مولاي سليمان، الذي تزامن مع الحروب الثورية والنابليونية في أوروبا. وأدى ذلك إلى تزايد الطلب من الجيش البريطاني، حيث اضطلعت مدينة تطوان بدور محوري في تموين السفن البريطانية. واكتسبت إمدادات الحامية البريطانية في جبل طارق أهمية استراتيجية متزايدة. ومع توسع النفوذ العسكري البريطاني في شبه الجزيرة الأيبيرية، تزايد الطلب على المنتجات المغربية، وخاصة المواشي. وخلال حرب شبه الجزيرة وحدها، قُدرت صادرات المواشي المغربية بنحو عشرين ألف رأس لدعم القوات البريطانية وحلفائها³.

تميزت التجارة المغربية الخارجية بتنوع صادراتها وتعدد أسواقها. فقد اشتهرت بتصدير الجلود إلى روسيا ودول البلطيق، مقابل المعادن والإمدادات البحرية والخشب. كما صدر المغرب البغال إلى جزر الهند الغربية البريطانية، والخضروات والفواكه والدواجن إلى جبل طارق.

¹ James A.O.C. Brown, op.cit, p 141.

² Khalid Ben Srhir, Britain and Morocco During..., op.cit, p 131.

³ James A.O.C. Brown, op.cit, p 153.

وشملت الصادرات المغربية أيضاً الشمع والعسل والحريير الخام وجلود الماعز والعاج وريش النعام واللبان والزيت والصوف واللوز وغبار الذهب. أما الواردات، فتضمنت مصنوعات أجنبية متنوعة عبر جبل طارق، منها أقمشة الصوف والكتان والحديد والصلب والرصاص.¹

واستورد المغرب كذلك المنسوجات القطنية والفخارية والقصدير والقهوة والسكر والشاي والتوابل والسلع القطنية الهندية والأفيون². ونظراً للمكانة المرموقة التي حظيت بها السلع الإنجليزية، عمد تجار مرسيليا إلى تقليد بعض المنتجات الإنجليزية، مما يعكس أهمية الصادرات البريطانية للمغرب³.

وعلى الرغم من هذا التنوع في الصادرات والواردات وازدهار التجارة، واجهت المبادلات التجارية المغربية عبر جبل طارق تحديات كبيرة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أبرزت هشاشة العلاقات التجارية وتأثرها بالظروف المحيطة. فقد أثرت الصراعات الأوروبية على حركة التجارة، خاصة خلال فترة الحصار الكبير (1779-1783). غير أن ميناء جبل طارق أظهر قدرة استثنائية على التعافي بفضل موقعه الاستراتيجي⁴.

كما شكلت الأوبئة والاضطرابات الداخلية عائقاً أمام استمرار النشاط التجاري. فأدى تفشي الطاعون عام 1818 إلى إغلاق الموانئ المغربية أمام السفن الأوروبية. وتسببت الاضطرابات السياسية، مثل تمرد تطوان (1821-1822)، في تعطيل الحركة التجارية⁵.

¹ James A.O.C. Brown, op.cit, p154.

² Ibid, p156 .

³ نايت قاسي الياس، المغرب الأقصى في اهتمامات السياسة الخارجية البريطانية 1792-1859، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم التاريخ، الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2013-2014، ص 184.

⁴ James A.O.C. Brown, op.cit, p 151.

⁵ Ibid, p 156.

خامسا : العلاقات الثقافية والاجتماعية بين بريطانيا والدول المغربية: مظاهرها وتأثيراتها المتبادلة

تعد دراسة العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الدول المغربية وبريطانيا موضوعاً ذا أهمية بالغة في فهم التفاعلات التاريخية بين العالم العربي الإسلامي والغرب الأوروبي. على مر القرون، شهدت هذه العلاقات تطورات متباينة، تأرجحت بين التواصل المحدود والانفتاح النسبي. فعلى الرغم من الروابط التجارية والسياسية بين دول المغرب والعالم الأوروبي، وبريطانيا على وجه الخصوص، ظلت العلاقات الاجتماعية بين شعوب هذه المناطق شحيحة.

في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر، كان الوجود المغربي في أوروبا نادراً ومحدوداً. ويُعزى هذا الغياب الملحوظ للأفراد والجاليات من دول المغرب إلى عدة أسباب، أبرزها الموقف الفقهي الإسلامي السائد آنذاك. فقد رفض الفقهاء بشدة فكرة إقامة المسلمين في البلدان غير الإسلامية، مما أدى إلى انعدام التمثيل الدبلوماسي والقنصلي الدائم للدول المغربية في أوروبا. وإن وُجد مغاربة، فكانوا في الغالب إما أسرى حرب، أو سفراء مؤقتين مبعوثين من قبل حكامهم، أو تجاراً. هذا الوضع حال دون نشوء تواصل اجتماعي حقيقي بين الثقافتين¹.

علاوة على ذلك، واجه المسلمون المتواجدون في أوروبا تحديات عملية في حياتهم اليومية. فكان الحصول على الطعام الحلال مشكلة رئيسية، مما اضطرهم إلى ذبح حيواناتهم بأنفسهم وفقاً للشريعة الإسلامية داخل منازلهم، متجهين نحو الشرق أثناء عملية الذبح. كما برزت مشكلة الدفن؛ إذ كان من الصعب إيجاد مكان مناسب لدفن المتوفين وفقاً للتقاليد الإسلامية في

¹ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 259.

مجتمع غير مسلم. هذه التحديات العملية والثقافية زادت من صعوبة الاندماج والتواصل الاجتماعي بين المغاربة والأوروبيين، مما عمق الفجوة الثقافية بين الجانبين¹.

ومن الملفت للنظر غياب روايات المسافرين المسلمين الذين زاروا إنجلترا بدافع شخصي، في حين نجد العديد من الرحالة الإنجليز والاسكتلنديين الذين جابوا أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، مدونين بدقة ملاحظاتهم عن العادات والتاريخ والدين الإسلامي. ويمكن تفسير هذا الغياب بعدة أسباب، منها عدم وجود أماكن مقدسة في بريطانيا تجذب المسافرين المسلمين، والخوف من اتهامات التجسس التي قد يواجهها العائدون من هذه الرحلات من قبل حكامهم المسلمين - كما حدث لشخص يُدعى ابن حدو².

نتيجة لهذا الانعزال الاجتماعي، ساد جهل كبير لدى دول المنطقة المغاربية بالتحويلات العميقة التي كانت تشهدها المجتمعات الأوروبية آنذاك، رغم استمرار العلاقات التجارية والسياسية. فقد انغلقت هذه المجتمعات على نفسها، معتقدة أن ما يجري في أوروبا لا يمت بصلة إلى شؤونها الاجتماعية والثقافية، مما حرّمها من فرصة التأثير والاستفادة من هذه التغيرات المجتمعية الحاسمة³.

عاش الرعايا الأجانب، وخاصة البريطانيون، في الدول المغاربية متمتعين بحرياتهم الشخصية. كانت لهم فنادقهم واستراحاتهم الخاصة، ومارس التجار منهم أعمالهم بحرية، في حين تولى القناصل مسؤولية حماية مصالح رعاياهم. ومع تزايد حاجة الدول المغاربية إلى

¹ Nabil Matar, *Turks, Moors & Englishmen in the Age discovery*, Columbia University Press, New York, 1999, p34.

² Ibid, p 39.

³ جمال قنان، المرجع السابق، ص 259.

تطوير مشاريعها الإنمائية، ازداد عدد الأجانب فيها، بما في ذلك البريطانيون. ساهم في هذه الزيادة أيضاً نمو الحركة الرأسمالية في أوروبا، وتصاعد هجرة العناصر الأوروبية إلى ما وراء البحار، خاصة إلى الأقاليم التي تمنحهم فيها دولهم حماية خاصة وامتيازات متميزة¹.

تمتع الأجانب في الدول المغربية، بمن فيهم البريطانيون ، بمكانة متميزة نتيجة للامتيازات الممنوحة لهم بموجب المعاهدات المبرمة بين دولهم والحكومات المغربية. منحت هذه الاتفاقيات الرعايا الأجانب حقوقاً استثنائية تجاوزت في بعض الأحيان ما كان متاحاً للسكان المحليين.

من أبرز هذه الامتيازات كان الإعفاء من الخضوع للقضاء المحلي في حالات ارتكاب الجرائم، حيث كان يحق للأجانب المثل أمام قناصلهم والمحاكمة وفقاً لقوانين بلدانهم الأصلية. أدى هذا الوضع إلى خلق نوع من عدم الاستقرار في المجتمعات المغربية، نظراً للحماية الكبيرة التي كان يتمتع بها هؤلاء الأجانب.

ورغم هذه الامتيازات الواسعة، لم يكتف الأجانب بما حصلوا عليه، بل استمروا في المطالبة بالمزيد من الحقوق والإعفاءات. وصل الأمر إلى حد إعفائهم بالكامل من دفع الضرائب، وطلب امتيازات إضافية كان من الصعب على الحكام المحليين، مثل الباي، تلبيتها.

كان دور القناصل الأجانب في الدول المغربية متعدد الأوجه وملئاً بالتحديات. فقد كان عليهم التعامل بحنكة مع السلطات المحلية، بما في ذلك الباي والوزراء، بالإضافة إلى التواصل

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 160.

مع السكان المحليين. في الوقت نفسه، حرص هؤلاء القناصل على زيادة أعداد رعاياهم في المنطقة، مستخدمين كافة الوسائل المتاحة لتحقيق هذا الهدف.

في سياق العلاقات الاجتماعية بين الدول المغربية وبريطانيا، برز دور رجال الدين البريطانيين إلى جانب القناصل في دعم مصالح بلادهم ونشر نفوذها. وقد سعى هؤلاء للحصول على امتيازات إضافية، مستفيدين من مكانتهم الخاصة. كما دعمت الصحافة البريطانية مواطنيها في المنطقة، حتى في حالات مخالفتهم للقوانين المحلية.

ومن المفارقات أن الرعايا البريطانيين، رغم تمتعهم بامتيازات تفوق ما يحصلون عليه في وطنهم الأم، كثيراً ما وجهوا انتقادات للحكومات المغربية عبر الصحف المحلية. وتعكس هذه الظاهرة التاريخية تعقيد العلاقات الاجتماعية بين البريطانيين والمجتمعات المغربية، حيث تداخلت عوامل النفوذ السياسي والديني والإعلامي¹.

تنوعت أدوار البريطانيين في الدول المغربية، وبرز دورهم بشكل خاص في المجال الطبي. فقد عمل العديد من الأطباء البريطانيين في خدمة الباي وعائلته وجيشه، بينما قدم آخرون خدماتهم للعامة. وقد أدى هذا التواجد المهني إلى تبادل معرفي مهم، إذ استفادت الدول المغربية من خبرات الأطباء البريطانيين. ونتيجة لذلك، ظهر عدد من الأطباء المحليين الذين تعلموا من نظرائهم البريطانيين وطوروا ممارساتهم الطبية وفق الأساليب العلمية الحديثة².

وقد حظي الأطباء الأوروبيون، ومنهم البريطانيون، بمكانة رفيعة لدى الباي وحاشيته، مما انعكس على معاملة الأهالي لهم. وفي هذا السياق، أكد الرحالة الفرنسي بوازي Poiret في

¹ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص ص 160-161.

² Louis Frank, op.cit, pp 137.

وصفه: "يتم استقبال الأطباء الأوروبيين بترحاب شديد، وهو اللقب الوحيد الذي يمكن أن يدفعهم لاحترام حياة أجنبي"¹. كما أشار الطبيب لويس فرانك Louis Frank إلى الترحيب والاحترام اللذين كان يلقيهما الأطباء من التونسيين².

كان الحكام في الدول المغربية يعتمدون على الخبراء البريطانيين في مجالات مختلفة كالطب والعلوم، ويمنحونهم مكانة مرموقة ومعاملة محترمة. حتى أن الحاكم كان يلجأ إليهم أحياناً للمساعدة في أمور مثل الترجمة. وفي المقابل، كان قناصل الإنجليز يستعينون بالحكام في الأمور التي يحتاجونها في الدول المغربية³.

حظي الأطباء الأوروبيون في المغرب بمكانة خاصة ورعاية متميزة من قبل السلطات المحلية. ولم يقتصر هذا الاهتمام على الأطباء فحسب، بل شمل الخبراء العلميين في مختلف المجالات، حيث كان الباي يستعين بهم، وكانوا يلقون الرعاية والتكريم من جانب الحكومة⁴. وامتد هذا التسامح والاحترام حتى إلى الأسرى من رجال الدين والأطباء، حيث سمح لهم رياس البحر وعامة السكان بالعيش بحرية في المدينة⁵.

هذه المعاملة الخاصة للأطباء والعلماء الأجانب تعكس تقدير المجتمع المغربي للعلم والمعرفة، وتبرز جانباً إيجابياً من العلاقات الاجتماعية بين البريطانيين والدول المغربية، حيث تجاوزت حدود السياسة والاستعمار لتصل إلى مستوى التبادل العلمي والثقافي.

¹ Poiret Jean, Voyage en Barbarie, ou lettre écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785&1786, Née de la Rochelle, Paris , 1789, p 114.

² Louis Frank, op.cit, p 3.

³ الحامد نوره بنت معجب، المرجع السابق، ص 162.

⁴ نفسه.

⁵ Louis Frank, op.cit, p 128.

كما برزت ظواهر اجتماعية مهمة تعكس التفاعل الثقافي بين الجانبين، ومن أبرزها حالات الزواج المختلط. ولعل أشهر هذه الحالات تلك التي جمعت بين شخصية دينية مرموقة، الشريف الوزاني - زعيم الطريقة الوزانية - والسيدة البريطانية إميلي كين **Emily Keene** في ثمانينيات القرن التاسع عشر. أقيم العرس بمقر المفوضية البريطانية بطنجة، وحضره أعضاء السلك الدبلوماسي وأقارب العروس. ارتدت العروس ملابسها الإنجليزية واحتفظت بكل عاداتها وشعائرها، ثم أقيمت بعد ذلك مراسيم الاحتفال على الطريقة المغربية¹.

كما تزوج العديد من حكام الدول المغربية نساء بريطانيات. على سبيل المثال، كان من بين حريم السلطان مولاي إسماعيل امرأة إنجليزية أنجبت له ولدين، مما يعكس مدى الانفتاح في البلاط المغربي. كذلك نجد قصة السفير المغربي محمد بن حدو، الذي أثناء مهمته الدبلوماسية في لندن، تزوج من خادمة إنجليزية.

هذا النوع من الزيجات، رغم قلته، ساهم في فتح آفاق جديدة للتبادل الثقافي والاجتماعي، وشكل جزءاً من النسيج المعقد للعلاقات بين بريطانيا والدول المغربية في تلك الحقبة التاريخية. يعكس هذا التطور في العلاقات الاجتماعية بين المنطقتين إمكانية التواصل والتفاهم بين الثقافتين على المستوى الشخصي، متجاوزاً الحواجز الدينية والثقافية التقليدية².

تميزت الدول المغربية، من الناحية الدينية، بدرجة ملحوظة من التسامح والحرية تجاه الرعايا الأجانب، بمن فيهم البريطانيون. منح الحكام هؤلاء الحرية الكاملة في ممارسة شعائهم الدينية، ولم يتدخلوا في الشؤون الدينية للمسيحيين المقيمين في البلدان المغربية. شملت هذه الحرية

¹ Leared Arthur, Morocco and The Moors ; being an Account of Travels, With a General Description of the Country and its People, Sampson Low, London, 1876, p 361.

²Nabil Matar, op.cit, 40

الدينية جميع الفئات، حتى الأسرى المسيحيين، الذين كانوا يمارسون حقوقهم الدينية بكل حرية. ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء المسيحيين اختاروا اعتناق الإسلام طواعية. في الوقت نفسه، كان بعض الحكام يشجعون على اعتناق الإسلام، مثل الباي علي (1759-1789)، والد حمودة باشا، الذي كان يقدم حوافز مادية شهرية لمن يختار اعتناق الدين الإسلامي¹.

عندما تولى حمودة باشا الحكم، أحدث تغييراً مهماً في السياسة الدينية التي كان يتبعها والده. فقد قرر إيقاف الجراية (المنحة المالية) التي كان والده يقدمها لمن يعتنق الإسلام. يبدو أن دافعه لهذا القرار كان نابغاً من رغبته في ضمان صدق النوايا لدى المعتنقين الجدد للإسلام، إذ شعر أن المال قد يدفع غير المسلمين إلى اعتناق الدين الإسلامي طمعاً في المكاسب المادية وليس إيماناً حقيقياً. ومع ذلك، فإن هذا التغيير في السياسة لم يؤثر سلباً على معدلات اعتناق المسيحيين للإسلام. قدم الرحالة الإنجليزي م الكجيل تفسيراً مثيراً للاهتمام لهذه الظاهرة، حيث أرجع سبب استمرار المسيحيين في اعتناق الإسلام إلى "رغبتهم في أن يصبحوا مواطنين تونسيين"، مضيفاً أنهم "لا يرغبون في العودة إلى بلادهم لأن حياتهم في تونس أفضل مما كانت عليه في بلادهم الأصلية"².

يلقي هذا التفسير الضوء على جاذبية المجتمع المغربي للأجانب، ويشير إلى أن اعتناق الإسلام كان في بعض الحالات وسيلة للاندماج الاجتماعي والثقافي أكثر منه قراراً دينياً بحتاً. تعكس هذه تفاعلية تعقيد العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الأجانب والمجتمع المغربي، حيث تداخلت الدوافع الدينية مع الرغبة في الاندماج الاجتماعي والاقتصادي، مما أدى إلى تشكيل هوية ثقافية متميزة للأعلاج في الدولة المغاربية خلال تلك الفترة.

¹ الإمام رشاد، المرجع السابق، ص 350.

² نفسه، ص ص 350-351.

أما نظرة الإنجليز للأسرى المغاربة أو المسلمين، فقد اتسمت بالحدس الشديد. كان مصدر هذا القلق هو الخشية من قدرة هؤلاء الأسرى على جمع معلومات استراتيجية. لذلك، اتخذت السلطات الإنجليزية إجراءات احترازية صارمة، حيث عمدت إلى سجن الأسرى في مناطق داخلية بعيدة عن الساحل. كان الهدف من هذا الإجراء هو منع الأسرى من رصد ومعاينة الموانئ والمرافئ ونقاط الرسو الأخرى.

كان التخوف الرئيسي هو احتمال قيام هؤلاء الأسرى بتقديم معلومات دقيقة عن طبيعة الساحل الإنجليزي، وهي معلومات قد تشكل تهديدًا خطيرًا إذا وقعت في أيدي السلطات المغاربية. ونظرًا لهذه المخاطر المحتملة، كانت السياسة المتبعة هي السعي للتخلص من هؤلاء الأسرى بأسرع وقت ممكن، وذلك من خلال تبادلهم مع الأسرى الإنجليز المحتجزين في الدول المغاربية¹.

عند دراسة تأثير ظاهرة الأسر على العلاقات بين الإنجليز والمجتمع المغربي، نجد أنفسنا أمام واقع مثير للاهتمام ومختلف عما قد يتوقعه المرء. فرغم العدد الكبير من الأسرى الإنجليز، يبدو أن تأثيرهم على المجتمع المغربي كان محدودًا جدًا. ويعود هذا بشكل أساسي إلى النظرة الدينية السائدة في المجتمع المغربي تجاه الأسرى، حيث كان يُنظر إليهم على أنهم "كفار نصارى" لا ينبغي منحهم مساحة من الحرية قد تمكنهم من التأثير في المجتمع. هذه النظرة، المبنية على الشك والريبة تجاه كل ما يأتي من الأسرى، حدّت بشكل كبير من إمكانية تأثيرهم على المجتمع المغربي. ومع ذلك، فإن العكس كان صحيحًا، إذ نجد أن الأسرى أنفسهم تأثروا بشكل ملحوظ بالمجتمع المغربي. فقد وقع العديد منهم في حب نساء مسلمات، مما دفعهم إلى

¹ Nabil Matar, op.cit, p 33.

اعتناق الإسلام. كما أن المعاملة الحسنة والاحترام الذي تلقاه بعضهم من أسيادهم جعلهم ينجذبون نحو العادات وأنماط الحياة المغاربية.

كان لظاهرة الأسر تأثيرات عميقة على المجتمع الإنجليزي، خاصة فيما يتعلق بالهوية الدينية والوطنية. عند عودة الأسرى إلى وطنهم، كانت الشكوك تحوم حولهم بشأن احتمال ارتدادهم عن المسيحية واعتناقهم الإسلام خلال فترة أسرههم. ولّد هذا الأمر قلقاً كبيراً في المجتمع الإنجليزي، وكشف عن حالة من انعدام الأمن في الهوية الوطنية والدينية. فوجود الأسير بين المسلمين لم يكن ضماناً للحفاظ على هويته الإنجليزية المسيحية، بل على العكس، كانت هناك حالات عديدة تخلى فيها الأسرى الإنجليز عن انتمائهم لإنجلترا والمسيحية، واعتنقوا الإسلام واختاروا الاستقرار في المجتمعات الإسلامية. من الأمثلة البارزة على هذه الظاهرة نجد حالتي جوزيف بيتس¹ في الجزائر الذي ظهرت قصته سنة 1704م، وتوماس بيلو، في المغرب الذي ظهرت قصته سنة 1739².

تقدم قصة توماس بيلو مثالاً لتأثير الأسر والاندماج في المجتمع المغربي على الهوية الإنجليزية. فبيلو، الذي تزوج من امرأة مغربية وأنجب منها أطفالاً، غيرت حياته الجديدة في المغرب بشكل جذري نظرتة إلى وضعه كأسير وهويته الأصلية. بدأ يتخلى تدريجياً عن فكرة

¹ جوزيف بيتس : عتبر أول إنجليزي وثاني أوروبي يزور مكة المكرمة في التاريخ الحديث. ولد بيتس في مدينة إكستر (Exeter) بإنجلترا عام 1663م، وبدأ حياته كبحار محب للسفر والمغامرة منذ سن الخامسة عشرة. وفي عام 1678م، قرر مغادرة وطنه إنجلترا متجهاً إلى نيوفاوندلاند (Newfoundland)، لكن القدر كان له خطط أخرى، إذ استولى قراصنة البحر على السفينة التي كان يستقلها، ليجد نفسه أسيراً في يد الجزائريين. بعد ذلك، تم بيعه لرجل تركي، مما فتح أمامه باباً غير متوقع للدخول إلى عالم جديد وثقافة مختلفة ستقوده لاحقاً إلى زيارته التاريخية لمكة المكرمة. للاستزادة أنظر إلى : وردة جيلالي زورقي ، خالدي بلعربي، " مظاهر من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني في الكتابات الانجليزية " جوزيف بيتس " أنموذجاً"، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 8، العدد 1، جامعة مسيلة، 2024، ص 375.

² Nabil Matar, op.cit, pp 71-72.

الهروب والعودة إلى إنجلترا، ومن المثير للاهتمام أنه كان على الأرجح سيبقى في المغرب بشكل دائم لولا وفاة زوجته وأولاده. تجسد هذه القصة بوضوح كيف أن الروابط العائلية والعاطفية التي تشكلت خلال الأسر كانت قادرة على تغيير الهوية والانتماء بشكل عميق. فبيلو لم يعد مجرد أسير إنجليزي يتوق للعودة إلى وطنه، بل أصبح جزءاً من النسيج الاجتماعي المغربي، مما يعكس قوة التأثير الثقافي والاجتماعي للمجتمع المضيف على الأسرى.

أثارت هذه الحالات جدلاً كبيراً في المجتمع الإنجليزي وعمقت المخاوف من فقدان الهوية الوطنية والدينية. كما سلطت الضوء على قوة التأثير الثقافي والديني للمجتمعات الإسلامية على الأسرى الإنجليز، وأثارت تساؤلات عميقة حول طبيعة الهوية وقابليتها للتغيير في ظروف الأسر والاحتكاك الثقافي المكثف. لمواجهة هذه الشكوك، حرص الأسرى عند كتابة مذكراتهم أو التواصل مع عائلاتهم على تقديم أنفسهم كبريطانيين صامدين، تحملوا سنوات من العبودية والمشقة من أجل الحفاظ على هويتهم الدينية والوطنية¹.

ونظراً لعدم قدرتهم على تصوير أنفسهم كفرسان بريطانيين يحققون بطولات عسكرية، لجأ الكتاب إلى تحويل رواياتهم إلى ما يشبه التقارير الاستخباراتية. قدموا معلومات مفصلة عن القدرات العسكرية والاستراتيجية للقوى الإسلامية. وفي رسائلهم إلى أقاربهم في الوطن، كانوا يضمنون معلومات عسكرية قيمة. كان هدفهم من ذلك أن تقدر السلطات البريطانية وطنيتهم وولاءهم، مما قد يدفعها للمساعدة في دفع فديتهم وتحريرهم من الأسر².

¹ Nabil Matar, Turk, Moor,...op.cit, pp 72-73.

² Nabil Matar, " Islam in British 1689-1750 ", **J.B.S.**, Vol 47, N°2, Cambridge University Press, 2008, p 286.

أدت التحولات الدينية الناتجة عن ظاهرة الأسر إلى تغيرات عميقة في الفكر الإنجليزي حول مفاهيم الحقوق والمساواة. تجلّى هذا التحول بشكل واضح في كتابات المفكرين الإنجليز، وعلى رأسهم جون لوك في عام 1689. ففي رسائله الثلاث الشهيرة، كان لوك من أوائل من دعوا إلى المساواة في الحقوق بين مختلف أطراف المجتمع الإنجليزي. تعكس عبارته الشهيرة "لا وثني ولا محدي ولا يهودي" إدراكاً متزايداً لوجود فئة مسلمة بدأت تتشكل داخل المجتمع الإنجليزي¹.

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تطورت هذه العلاقات الاجتماعية بشكل ملحوظ، حيث انعكست في مختلف أشكال التعبير الثقافي البريطاني. فقد تجاوز المفكرون النظرة اللاهوتية التقليدية، متبنين منظوراً أكثر نسبية يعترف بالتنوع الثقافي. وتجلّى هذا التطور في المسرح الإنجليزي، الذي شهد ظهور أعمال درامية تناولت موضوع الإسلام والتحول الديني، مستوحاة من العلاقات مع الدول المغاربية².

كما برزت القصائد الشعبية كمرآة تعكس تطور النظرة البريطانية تجاه المغاربة. فبينما حافظت على بعض الصور النمطية، إلا أنها بدأت تقدم معالجة أكثر تعقيداً وعمقاً لشخصية "المغربي"، متجاوزة التصورات البسيطة السابقة. وقد عكست هذه التطورات في الأدب والفكر البريطاني التغيرات المعقدة في العلاقات الاجتماعية بين المجتمعين، متأرجحة بين الفضول الثقافي والمخاوف الدينية، وبين التصوير النمطي والفهم الأعمق للثقافة المغاربية.

¹ بلقاسم قرياش، "مسألة الإسلام في إنجلترا 1571-1700"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 10، جامعة معسكر، 2015، ص 199.

² بلقاسم قرياش، "اعتناق الإسلام في الأدبيات الانجليزية الحديثة 1595-1750"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 5، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، 2016، ص ص 20-21.

هذا التطور في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المجتمعين البريطاني والمغربي كان له أثر عميق في تشكيل الوعي المجتمعي في كلا الطرفين، مما أسهم في خلق أرضية للتفاهم المتبادل رغم الاختلافات الدينية والثقافية. وقد أدى هذا التفاعل المستمر إلى تشكيل رؤية أكثر تعقيداً وعمقاً في فهم كل مجتمع للآخر، متجاوزة الصور النمطية البسيطة التي كانت سائدة في الفترات السابقة¹.

سادساً: تقييم الشخصية الإنجليزية وانعكاساتها على السياسة البريطانية في الدول المغاربية

وفقاً للدراسات المحللة للشخصية الإنجليزية، هناك خصوصيات كثيرة للشخصية الإنجليزية، انعكست على علاقات بريطانيا مع الدول المغاربية خلال الفترة الحاسمة من التاريخ الحديث:

1 الانفرادية² :

تجسدت سمة الانفرادية في الشخصية الإنجليزية من خلال السياسة البريطانية في المنطقة المغاربية خلال القرن التاسع عشر بشكل واضح وجلي. إذ تميزت هذه السياسة بنزوع بريطانيا نحو إقامة علاقات ثنائية مباشرة مع كل دولة مغاربية على حدة، متجاوزة بذلك السلطة العثمانية المركزية. وقد تجلّى هذا النهج الانفرادي في عدة مواقف تاريخية بارزة، لعل أبرزها معاهدة عام 1857م مع تونس، حيث عمدت بريطانيا إلى إبرام اتفاقية منفصلة منحتها امتيازات اقتصادية واسعة، متجاهلة النفوذ العثماني القائم³. كما تعزز هذا التوجه في المعاهدة

¹ Katie Sue Sisneros, The Abhorred Name of Turk : Muslims and the Politics of Identity in Seventeenth century English Broadside Ballads, in partial fulfillment of the requirements for the degree of doctor of philosophy, 2016, p 98

² محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

³ Adel Mania, op.cit, p 368.

التجارية المنفصلة مع المغرب عام 1856م، التي تضمنت إعفاءات جمركية خاصة للسلع البريطانية، متجاوزة بذلك التنافس الفرنسي المتزايد في المنطقة¹. غير أن هذا النهج الانفرادي، وإن كان يعكس سمة أصيلة في الشخصية الإنجليزية، فقد أفرز نتائج متباينة؛ فمن جهة نجحت بريطانيا في تحقيق مصالحها المباشرة، ومن جهة أخرى أسهم هذا النهج في إضعاف الموقف السياسي للدول المغربية وجعلها أكثر عرضة لأطماع القوى الأوروبية الأخرى. وقد اضطرت بريطانيا في كثير من الأحيان إلى التدخل العسكري لضمان التزام الحكام المحليين بتعهداتهم، خاصة في ظل محدودية سيطرتهم على الرياس²، مما يؤكد أن النزعة الانفرادية في الشخصية الإنجليزية، رغم فعاليتها في تحقيق المصالح المباشرة، قد أدت إلى تعقيدات غير متوقعة استدعت تدخلات إضافية.

2 البحث عن الأمن³ :

يتجلى البحث عن الأمن كسمة جوهرية في الشخصية الإنجليزية من خلال دراسة السياسات البريطانية في المنطقة المغربية خلال القرن الثامن عشر. فقد عكست هذه السياسات النزعة البريطانية العميقة نحو تحقيق الاستقرار والأمان عبر الوسائل الدبلوماسية والتنظيمية، متجنباً المواجهات العسكرية المباشرة. وتتجلى هذه السمة بوضوح في المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمتها بريطانيا مع دول المنطقة، حيث حرصت على تضمينها بنوداً تفصيلية لحماية مصالحها التجارية وتأمين سلامة سفنها.

¹ خديجة صبار، المرجع السابق، ص 101.

² إياد تركان إبراهيم، المرجع السابق، ص 160.

³ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298.

وتقدم معاهدة 1751م مع تونس مثلاً بارزاً على هذا النهج البريطاني المتأصل في البحث عن الأمن، إذ تضمنت بنوداً محددة لحماية السفن البريطانية وضمان مساعدتها في حالات الطوارئ¹. هذا الحرص على التفاصيل والتنظيم يعكس سمة أصيلة في الشخصية الإنجليزية التي تميل إلى توفير الضمانات القانونية والتنظيمية لتحقيق الأمن والاستقرار. كما يظهر هذا التوجه في المفاوضات مع المغرب عام 1705م، حيث فضلت بريطانيا تحقيق مكاسب جزئية مضمونة على المغامرة بمعاهدة شاملة قد تكون نتائجها غير مؤكدة². ويتضح هذا النمط من خلال حادثة عام 1804م في الجزائر، عندما واجهت بريطانيا أزمة رفض الداي استقبال القنصل فالكون. فبدلاً من التصعيد، اختارت بريطانيا حلاً دبلوماسياً تمثل في إقناع قائد البحرية اللورد نيلسون باستبدال القنصل، مما يؤكد حرصها على تجنب النزاعات والتوترات³.

وفي مواجهة التحديات الإقليمية، خاصة مع تزايد النفوذ الفرنسي في تونس وطرابلس بعد احتلال الجزائر، برزت الحنكة البريطانية في تبني استراتيجية دبلوماسية متعددة الجوانب. فقد سعت بريطانيا لدى السلطان العثماني لتعزيز نفوذه المباشر في المنطقة، وتشجيع ولاء البايات للدولة العثمانية، محققة بذلك أهدافها الأمنية دون اللجوء للمواجهة المباشرة⁴.

وامتد هذا النهج البريطاني المحب للأمن والحريص على تجنب المواجهات إلى طرابلس، حيث واجهت بريطانيا تحدياً مماثلاً مع تنامي النفوذ الفرنسي. وهنا أيضاً، تجلت حنكة الشخصية الإنجليزية في تفضيل الحلول الدبلوماسية، فلجأت مرة أخرى إلى استخدام الدولة العثمانية كورقة ضغط. هذا النمط المتكرر في السياسة البريطانية يكشف عن سمة عميقة في

¹ Lewis Hertslet, op.cit, p 166.

² روجرو ب ج، المرجع السابق، ص 112.

³ Playfair Lambert , op.cit, p 247.

⁴ Adel Mania, op.cit, p 368.

الشخصية الإنجليزية: القدرة على تحقيق الأمن والاستقرار من خلال الوسائل الدبلوماسية والسياسية الذكية، بدلاً من المواجهة المباشرة، مع الحفاظ على المصالح الاستراتيجية وحماية الرعايا والممتلكات¹.

إن هذه النماذج التاريخية تكشف عن جوهر الشخصية الإنجليزية في سعيها الدائم نحو الأمن والطمأنينة. فالبريطانيون، بطبيعتهم، يميلون إلى التخطيط طويل المدى وبناء الأنظمة المستقرة التي تضمن مصالحهم دون اللجوء إلى المواجهات المباشرة. هذا التوجه نحو الأمن لم يكن مجرد سياسة عابرة، بل كان انعكاساً عميقاً لثقافة مجتمعية تقدر النظام والثبات وتسعى إلى تحقيقهما من خلال الوسائل القانونية والدبلوماسية المنظمة.

3 استخدام روح المنطق² :

شكلت سمة استخدام روح المنطق إحدى الخصائص الجوهرية في الشخصية الإنجليزية، وقد انعكست هذه السمة بوضوح في السياسة البريطانية تجاه المنطقة المغاربية خلال القرن التاسع عشر. فقد تميزت المقاربة البريطانية في تعاملها مع حكام المنطقة - في كل من الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس - بتوظيف المنطق والحجة في مفاوضاتها، مما يعكس النزعة العقلانية المتأصلة في الشخصية الإنجليزية.

كما برز هذا النهج العقلاني في المفاوضات التجارية مع المغرب عام 1856م، حيث استطاعت بريطانيا إقناع السلطان المغربي بمنح امتيازات تجارية من خلال تقديم مقترحات

¹ أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص 43.

² محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

منطقية تراعي مصالح الطرفين¹. وقد عكست هذه المفاوضات العقلية البريطانية التي تميل إلى إيجاد حلول منطقية تخدم المصالح المشتركة للطرفين، معتمدة في ذلك على المناورة السياسية المدروسة والحجج المنطقية، بدلاً من اللجوء إلى الضغط المباشر أو القوة.

4 - روح الوطنية المرتكزة علي شعار " بلادنا على حق أم على باطل " ²:

تجلت روح الوطنية في الشخصية الإنجليزية، المتمثلة في شعار "بلادنا على حق أم على باطل"، بشكل واضح في السياسة البريطانية تجاه المنطقة المغاربية خلال القرن التاسع عشر. وقد عكست هذه السياسة مبدأ المصلحة العليا في فهم المصالح الوطنية وتطبيقها، حيث تميزت بالقدرة على اتخاذ قرارات استراتيجية تتجاوز المفاهيم التقليدية للمكسب والخسارة، مركزة على تحقيق المصالح البريطانية العليا في المنطقة.

ويمثل موقف بريطانيا في مؤتمر برلين عام 1878م مثلاً بارزاً على هذه الروح الوطنية في الشخصية الإنجليزية. فقد أظهرت بريطانيا استعداداً للقبول بنفوذ فرنسي في تونس مقابل تأمين مصالحها في مصر. ورغم أن هذا القرار قد يبدو "باطلاً" من المنظور الأخلاقي لكونه يمثل تخلياً عن منطقة نفوذ، إلا أن بريطانيا اتخذته بناءً على أولوية مصالحها الوطنية العليا. يعكس هذا الموقف جوهر شعار "بلادنا على حق أم على باطل" في السياسة البريطانية، حيث تُقدم المصلحة الوطنية على أي اعتبارات أخرى³.

¹ خديجة صبار، المرجع السابق، ص 101.

² محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298.

³ إياد تركان ابراهيم، السياسة البريطانية تجاه أطماع فرنسا في ولايتي تونس و طرابلس...، المرجع السابق، ص 18.

وقد تميز هذا الفهم البريطاني للوطنية بالقدرة على الموازنة بين المكاسب والتنازلات، والنظر إلى الصورة الأشمل للمصالح الوطنية، متجاوزاً النظرة الضيقة للمكاسب المباشرة. فقد أدركت القيادة البريطانية أن حماية المصالح الوطنية قد تتطلب أحياناً تقديم تنازلات في مناطق معينة لتحقيق مكاسب استراتيجية أكبر في مناطق أخرى، وهو ما يعكس نضجاً سياسياً في فهم المصالح الوطنية وتطبيقها.

5 روح المغامرة¹ :

تجلت روح المغامرة كسمة أساسية في الشخصية الإنجليزية من خلال النشاط الاستكشافي المكثف الذي قامت به بريطانيا في المنطقة المغاربية. فقد أدركت بريطانيا الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة، ليس فقط كمنطقة نفوذ، بل أيضاً كنقطة انطلاق مثالية نحو أعماق القارة الإفريقية².

وتجلت هذه الروح المغامرة من خلال عدد من الرحلات والمستكشفين البريطانيين البارزين. فنجد جيمس بروس الذي قام برحلات استكشافية في الجزائر، وجيمس ريتشاردسون الذي جاب أراضي المغرب وتونس وطرابلس، بالإضافة إلى الأخوين بيتيشي اللذين ركزا نشاطهما في طرابلس. وقد مثلت رحلات هؤلاء المستكشفين نموذجاً للشخصية الإنجليزية المغامرة التي تسعى إلى اكتشاف المجهول وفتح آفاق جديدة.

¹ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

² عبد الله خليفة الخليل، المرجع السابق، ص 116.

6 حب البحر والملاحة¹ :

شكل حب البحر والملاحة سمة جوهرية في الشخصية الإنجليزية، وقد انعكست هذه السمة بوضوح في السياسة البريطانية تجاه المنطقة المغاربية. فقد أولت بريطانيا اهتماماً خاصاً بالسيطرة على النقاط الاستراتيجية في البحر المتوسط، وعلى رأسها جبل طارق، سعياً منها إلى تأمين حرية الملاحة البحرية وحماية مصالحها التجارية.

وتجلى هذا الاهتمام البريطاني بالبحر بوضوح في مطلع القرن التاسع عشر، خلال فترة التنافس الفرنسي-البريطاني. فعندما توترت العلاقات بين الجزائر وفرنسا، استثمرت بريطانيا هذا الوضع بحنكة لتعزيز نفوذها البحري في المنطقة. فنجحت في الحصول على الامتيازات التي كانت ممنوحة سابقاً لفرنسا، وتمكنت من السيطرة على مركز القالة الاستراتيجي عام 1807، واستمر نفوذها فيه مدة عقد كامل².

ويكشف هذا المثال التاريخي عن عمق الارتباط بين الشخصية الإنجليزية والبحر، حيث نجحت بريطانيا في توظيف الظروف السياسية لخدمة مصالحها البحرية وتوسيع نفوذها في منطقة استراتيجية من البحر المتوسط.

7 الاستعداد لخوض الحروب حتى الموت :

برزت سمة الاستعداد لخوض الحروب حتى الموت كأحدى الخصائص المميزة للشخصية الإنجليزية من خلال السياسة البريطانية تجاه المنطقة المغاربية خلال القرنين الثامن عشر

¹ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

² Playfair Lambert, op.cit, p 247.

والتاسع عشر. فقد أظهرت بريطانيا عزمًا حازمًا في استخدام القوة العسكرية عندما تعرضت مصالحها التجارية للتهديد، خاصة في مواجهة نشاط رؤساء البحر في المنطقة.

وتمثل حملة اللورد إكسموث العسكرية ضد الجزائر عام 1816م نموذجاً بارزاً لهذه السمة في الشخصية البريطانية. فعندما تعرضت السفن البريطانية لهجمات من رؤساء البحر الجزائريين، لم تتردد بريطانيا في شن حملة عسكرية قوية للدفاع عن مصالحها ومواطنيها، مظهرة عزمًا لا يلين في خوض المعارك. عكست هذه الحملة العسكرية جانباً مهماً من الشخصية الإنجليزية التي لا تتردد في استخدام القوة عند استنفاد الوسائل الدبلوماسية، وتُظهر إصراراً في الدفاع عن المصالح الوطنية بكل الوسائل المتاحة، بما فيها القوة العسكرية.

8 حب السياسة¹:

يُعد الاهتمام بالسياسة والانخراط في الشؤون العامة من أبرز مميزات الشخصية البريطانية، وقد تجلّى ذلك بوضوح عبر التاريخ في عدة مظاهر. فداخل أروقة البرلمان البريطاني، اتسمت المناقشات السياسية بالعمق والتفصيل، خاصة في القضايا المتعلقة بالسياسة الخارجية وشؤون الدول المغاربية.

وقد تجلّى هذا الشغف السياسي في نهج الدبلوماسية البريطانية خلال مؤتمر فيينا (1814-1815)، حيث لم يكتف الساسة البريطانيون بمجرد إثارة قضية القرصنة في الدول المغاربية، بل سعوا بنشاط لحشد التأييد الأوروبي لمواجهتها. هذا النمط من المشاركة السياسية الفعالة يعكس تأصل الاهتمام بالشأن العام في المجتمع البريطاني.

¹ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص298.

كما برز هذا التميز السياسي في تعامل بريطانيا مع الأزمة الفرنسية-المغربية إبان احتلال فرنسا للجزائر. فقد أظهر الساسة البريطانيون براعة دبلوماسية في إدارة الأزمة، متنقلين بحكمة بين مختلف الأطراف¹. ولم يكن هذا النشاط الدبلوماسي مجرد تعبير عن المصالح الاستراتيجية فحسب، بل كان انعكاساً لتأصل الممارسة السياسية في الثقافة البريطانية وشغفهم بإدارة الشؤون الدولية.

إن هذه الشواهد التاريخية تؤكد أن الاهتمام بالسياسة والدبلوماسية ليس مجرد ممارسة عابرة في المجتمع البريطاني، بل هو سمة جوهرية في شخصيتهم الوطنية، تجلت في قدرتهم على المشاركة الفعالة في صياغة السياسات وإدارة الأزمات الدولية بكفاءة ومهارة.

9 الاحتراس من الأجانب²:

تُعد سمة الحذر والريبة من الأجانب من الملامح البارزة في الشخصية الإنجليزية، وقد انعكس ذلك جلياً في السياسة البريطانية خلال القرن التاسع عشر. فقد اتخذت بريطانيا موقفاً متشككاً تجاه التحركات الفرنسية في الدول المغربية، معبرةً عن مخاوفها من توسع النفوذ الفرنسي في المنطقة المغربية. وتجلّى هذا الحذر في مستويين: الأول من خلال التقارير المتواترة من القناصل البريطانيين التي كانت تحذر باستمرار من مخاطر التوسع الفرنسي، والثاني من خلال التعليمات الصارمة من وزارة الخارجية البريطانية لممثليها بضرورة الرصد الدقيق للتحركات الفرنسية.

¹ Francis Flournoy, op.cit, p 60.

² محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

10 - الميل الى التجارة¹:

تعد التجارة سمة أساسية في الشخصية الإنجليزية، وقد تجلّى ذلك في علاقات بريطانيا مع دول شمال أفريقيا. سعت بريطانيا لإقامة شبكة من المعاهدات التجارية مع الدول المغربية، بهدف فتح أسواق جديدة لمنتجاتها. وتجلّى هذا الاهتمام التجاري في طبيعة التمثيل الدبلوماسي البريطاني، حيث كان القنصل في كثير من الأحيان يجمع بين المهام الدبلوماسية والتجارية². وقد نجحت بريطانيا في الحصول على امتيازات تجارية مهمة، تمثلت في تخفيض الرسوم الجمركية على تجارتها إلى 3% فقط، مقارنة بـ 5% التي كانت تدفعها الدول الأجنبية الأخرى³.

وتتباين هذه الخصائص حسب التوزيع الجغرافي. فيتميز الاسكتلندي بانفتاحه وقدرته على التواصل مع الآخرين، مما يؤهله للنجاح في المهام الدبلوماسية⁴.

وفي سياق هذا التنوع في الشخصية البريطانية وأثره على السياسة الخارجية، يقدم لنا التاجر البريطاني توماس ماكجيل تحليلاً عميقاً ومثيراً للجدل حول السياسة البريطانية في المنطقة المغربية، يكشف عن تناقض لافت بين السمات الشخصية الإنجليزية وتطبيقاتها العملية. فعلى الرغم من سمات مثل 'الاستعداد لخوض الحروب' و'روح المغامرة' التي تميزت بها الشخصية الإنجليزية، يرى ماكجيل أن السياسة البريطانية في سواحل بربري اتخذت منحى مغايراً تماماً.

¹ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص 298 .

² خديجة حالة، المرجع السابق، ص 69.

³ Louis Frank, op.cit, p 83.

⁴ محمد أبو طالب، المرجع السابق، ص ص 298-299.

فبدلاً من استثمار قوتها وسلطتها للهيمنة والتفوق على القوى الأخرى في المنطقة، اختارت بريطانيا نهجاً أكثر مرونة وتكيفاً مع إرادة القوى المحلية.

ويعكس هذا التحول في السياسة البريطانية فهماً عميقاً لطبيعة المنطقة وخصوصياتها، وإدراكاً لأهمية التكيف مع الواقع المحلي. ويمكن فهم هذا التناقض الظاهري من خلال سمات أخرى في الشخصية الإنجليزية، خاصة 'استخدام روح المنطق' و'البحث عن الأمن'. فقد فضلت بريطانيا اتباع سياسة دبلوماسية مرنة تحفظ مصالحها التجارية والإستراتيجية، متخذةً منهجاً مغايراً للنهج الاستعماري المباشر الذي اتبعته فرنسا. وتجلى هذا في احترامها لسيادة الدول المغاربية وتجنب التدخل المباشر في شؤونها الداخلية.

وعلى الرغم من انتقاد توماس ماكجيل Thomas MacGill التاجر الانجليزي لهذا النهج 'المتساهل'، الذي رآه تنازلاً عن الكرامة والشرف الوطني، إلا أن هذه السياسة عكست في الواقع عمق وتعقيد الشخصية الإنجليزية وقدرتها على الموازنة بين متطلبات القوة ومقتضيات المصلحة¹. فما اعتبره ماكجيل ضعفاً، كان في حقيقته تجسيداً للنضج السياسي البريطاني وقدرته على تحقيق أهدافه بأقل قدر من المواجهة المباشرة.

وفي النهاية، يمكن القول إن تفاعل خصوصيات الشخصية البريطانية مع الظروف السياسية والجيوسراتيجية في المنطقة المغاربية أنتج سياسة متميزة، اختلفت في أدواتها ووسائلها عن القوى الأوروبية الأخرى، لكنها حققت في النهاية مصالح بريطانيا الاستراتيجية في المنطقة.

¹ Thomas MacGill, op.cit, p 102.

الفصل الثاني : التركيبة الثقافية للكتابات الإنجليزية

أولا : القناصل

ثانيا : رجال الدين و الأسرى

ثالثا : الرحالة

الفصل الثاني: التركيبة الثقافية للكتابات الإنجليزية

شهدت الدول المغاربية خلال القرون الماضية حضوراً ملحوظاً لمختلف الجنسيات الأوروبية، منها الإنجليز والفرنسيون والإسبان والألمان والإيطاليون والهولنديون. وقد تميز الحضور الإنجليزي بريادته الزمنية، إذ يعود وجود الإنجليز في المنطقة المغاربية إلى القرن السادس عشر الميلادي، وازداد بشكل ملحوظ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وتنوعت فئات الوافدين ودوافعهم، فشملت القناصل والرحالة ورجال الدين، إضافة إلى الأسرى الذين وجدوا أنفسهم في المنطقة بحكم ظروفهم الخاصة.

وعلى اختلاف أوضاعهم وأدوارهم، حرص معظم هؤلاء الوافدين على توثيق تجاربهم ومشاهداتهم في المنطقة المغاربية، واتخذوا في ذلك أشكالاً متنوعة من التدوين، مثل الكتب والمذكرات الشخصية والمراسلات والتقارير المفصلة. وعلى الرغم من تفاوت درجة موضوعية هذه الكتابات ودقتها، فقد اكتسبت أهمية بالغة على مستويين رئيسيين:

1. المستوى السياسي: أسهمت هذه الكتابات بشكل جوهري في تشكيل المواقف والقرارات الإنجليزية تجاه المنطقة المغاربية، مما جعلها عاملاً مؤثراً في صياغة السياسة الخارجية الإنجليزية.

2. المستوى المعرفي والأكاديمي: تمثل هذه الوثائق اليوم مصدراً معرفياً ثميناً للباحثين والدارسين المعاصرين، إذ تقدم رؤى متنوعة عن جوانب متعددة من تاريخ المنطقة المغاربية، بما فيها الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

وفي هذا الفصل، سنتناول بالدراسة والتحليل أبرز هذه الكتابات ومؤلفيها، مسلطين الضوء على إسهاماتهم المعرفية وتأثيرهم في تشكيل الصورة الإنجليزية عن المنطقة المغاربية. كما

سنقدم تحليلاً نقدياً لمحتوى هذه الكتابات، آخذين في الاعتبار السياق التاريخي والثقافي الذي أنتجت فيه، والدوافع المختلفة التي حفزت أصحابها إلى تدوين تجاربهم ومشاهداتهم.

أولاً : القناصل

1 جون براثوايت John Braithwaite :

مؤرخ إنجليزي عاش خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر¹. عمل منذ صغره في إحدى السفن التابعة للشركة الملكية الإفريقية في عهد الملكة آن Anne . خاض غمار رحلات بحرية طويلة وشارك في معارك عديدة، مما أكسبه خبرة قتالية واسعة. وبعدها انضم إلى الجيش الملكي وشارك في عدة حروب. لم تقتصر تجاربه على الميدان العسكري فحسب، بل امتدت إلى المجال الدبلوماسي، حيث عمل نائباً للقنصل الإنجليزي كريستيان كول Christian Cole في جمهورية البندقية، مما أتاح له فرصة السفر إلى فرنسا ولومبارديا والبندقية وهولندا.

قاد جون براثوايت John Braithwaite حملة إلى جزر سانت لوسيا Santa Lucia وسانت فنسنت Santa Vincent ، وزار معظم الجزر الفرنسية والبريطانية في منطقة الكاريبي. وبعد عودته، تجول في العديد من البلدان الأوروبية والإفريقية، مما أكسبه خبرة واسعة شكلت أساساً متيناً لعمله اللاحق كمؤرخ ومراقب للأحداث في المغرب.

¹ الشيخ لكل، " المصادر الغربية لتاريخ المغرب في العصر الحديث"، مجلة علوم الإنسان و المجتمع، العدد 3، جامعة محمد خيضر-بسكرة- 2014، ص 244.

عندما وصلت أنباء حصار جبل طارق، أبحر من لشبونة على متن سفينة حربية بريطانية، ليكون أول المتطوعين الذين دخلوا الحصن. أظهر شجاعة وبراعة استثنائية، مما أكسبه احترام وتقدير كل من الحامية والأسطول، خاصة عند التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار¹.

في عام 1727م، قام جون براثويت **John Braithwaite** بمهمة دبلوماسية إلى المغرب برفقة القنصل العام الإنجليزي جون راسل **John Rassel**. هدفت هذه البعثة، التي استمرت خمسة أشهر، إلى تحرير أسرى إنجليز، استناداً إلى معاهدات سابقة بين البلدين عام 1721م². بعد عودته إلى إنجلترا، أصدر جون براثويت **John Braithwaite** عام 1729م كتابه "تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب منذ وفاة السلطان إسماعيل".

The History of the Revolution in the Empire of morocco upon the Death of the late Emperor Muley Ismae

حظي الكتاب باهتمام دولي واسع، وتُرجم إلى الهولندية في نفس عام نشره، ثم إلى الألمانية عام 1730م، والفرنسية عام 1731م³. يعكس هذا الانتشار السريع أهمية الكتاب كمصدر أساسي لفهم الأوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب خلال تلك الحقبة.

يقدم جون براثويت **John Braithwaite** في مؤلفه شهادة حية عن فترة مفصلية في تاريخ المغرب، إبان حكم مولاي إسماعيل. كمرافق للقنصل العام، وثق جون براثويت **John**

¹ Braithwaite, The History of The Revolution in The Empire OF Morocco up on The Death of The late Empiror Muley Ismael, Printed for James and John Knapton, London, 1729, p VII.

² Khalid Chaouch, Khalid chaouch, British Travellers to Morocco and their Accounts, from mid 16th to mid- 20 th Centuries ; A bibliography, Representing Morocco, Vol7 , 2004, p 11.

³ Leslie Stephen, Dictionary of National Biography, vol 6, Smith Elder and Co, London, 1886, p 201.

Braithwaite بدقة متناهية الأحداث التي شهدتها من جوان 1727م إلى فيفري 1728م، مستنداً إلى مشاهداته الشخصية وشهادات موثقة من القنصل نفسه¹.

يتميز أسلوب جون براثويت **John Braithwaite** بالسلاسة والوضوح، حيث يصطحب القارئ في رحلة زمنية عبر يومياته. هذا النهج في السرد يخلق تجربة غامرة، تجعل القارئ وكأنه يعيش الأحداث لحظة بلحظة². يثري المؤلف عمله بخريطة تفصيلية لمملكتي المغرب وفاس (أنظر إلى الملحق رقم 02)، تعد بحد ذاتها وثيقة تاريخية قيمة تعكس فهم الفترة للجغرافيا السياسية للمنطقة.

يتناول جون براثويت **John Braithwaite** في دراسته الجانب الجغرافي والطبيعي للمغرب بتفصيل دقيق، حيث يقدم معلومات قيمة عن المدن الساحلية والداخلية مثل تطوان³ ومكناس وفاس⁴، مصحوبة بوصف جغرافي شامل للأنهار والتضاريس¹. كما يتعمق في دراسة خصوبة

¹ Jean Gay, Bibliographie de Ouvrages Relatifs A L'Afrique et l'Arabie, Chez Maisonneuve et Cie, Paris, 1875, p 86.

² John Braithwaite, op.cit, pp V-VI .

³ **تطوان** : مدينة تقع عند مدخل مضيق جبل طارق، على بعد 4-5 أميال من البحر، على منحدر تل بين سلسلتين صغيرتين من الجبال. تعرف باسم ياغات عند الرومان، وهي مدينة جميلة وكبيرة وغنية وتجارية في مقاطعة هاسبات. يحكمها حاكم مقيم يدعى حش-حش يتمتع بسلطة كبيرة ونفوذ قوي لدى السلطان. يمر بها واد مارتين على بعد نصف ميل شرق المدينة، ويصب في البحر عند ميناء مارتين الصغير الذي يشهد نشاطاً تجارياً مع إسبانيا وجبل طارق وفرنسا وإيطاليا. يبلغ عدد سكانها ما بين 9000-12000 نسمة، بينهم 4000 يهودي. للاستزادة أنظر إلى :

James Richardson, Travels in Morocco, Vol 2, Edited by his Widow, J.Skeet, Publisher, London, 1860, p 111.

⁴ **فاس** : مدينة يُقال أن اسمها مشتق من كلمة "معول" العربية الذي عُثر عليه عند حفر أساساتها، أو من كلمة "فضة". رغم أنها لم تعد كما وصفها ليون الأفريقي، إلا أنها تحتل المرتبة الأولى بين مدن المغرب من حيث العلم والثروة والصناعة.

تأسست على يد إدريس بن إدريس، أول حاكم مسلم للإمبراطورية المغربية، وابن إدريس بن عبد الله الذي استقر في ويلي. تقع المدينة في وادٍ على منحدر لطيف محاط بتلال تعلوها حدائق عطرية، وبالقرب منها يجري نهر صغير يسمى واد الجواهر يزود المدينة بالمياه.

التربة المغربية وأهم منتجاتها، مع تركيز خاص على الثروة الحيوانية، لا سيما الجمال والخيول التي تشكل عنصراً أساسياً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية².

في الجانب الاقتصادي والتجاري، يقدم المؤلف تحليلاً شاملاً للمبادلات التجارية في المغرب، مع تركيز خاص على دراسة الموانئ المهمة مثل سلا³ والمهدية⁴. يبرز في هذا السياق تأثير شبكة التجارة البحرية على الاقتصاد المغربي⁵، موضحاً دور هذه الموانئ في تنشيط الحركة التجارية وربط المغرب بالعالم الخارجي.

تنقسم إلى قسمين: فاس القديمة والجديدة. تتميز بشوارع ضيقة جداً ومظلمة ومقوسة، بعضها يمتد لميل واحد. منازلها عالية لكنها ليست جميلة، ومحلاتها التجارية كثيرة لكن مظهرها متواضع. تضم ما لا يقل عن 700 مسجد، منها 50 مسجداً فخماً مزيناً بأعمدة رخامية، وأكثر من 100 مسجد صغير. أشهر مساجدها هو القرويين المدعوم بـ300 عمود، والذي يضم مكتبة شهيرة يُقال أنها تحوي مؤلفات يونانية ولاتينية قديمة. للاستزادة أنظر إلى :

James Richardson, Travels in Morocco..., op.cit, pp 139-140

¹ John Braithwaite, op.cit, pp 422-423.

² Ibid, p 424.

³ سلا : مدينة قديمة تقع على الضفة اليمنى لنهر بورقراق قرب مصبه. استولى عليها ألفونسو الحكيم ملك قشتالة عام 1263، ثم استعادها ملك فاس بعد فترة وجيزة. ظلت تحت حكم السلاطين المغاربة رغم محاولات المدينة المتكررة للتخلص من السلطة الإمبراطورية. وهي حالياً مدينة تجارية كبيرة ومحصنة جيداً في مقاطعة بني حسن. مينائها كبير لكنه ضحل لا يستقبل السفن الكبيرة. تتميز بمبانيها وأماكنها العامة الجيدة البناء، ومحصنة ببطارية من 24 مدفعاً تواجه البحر وحصن عند مدخل النهر. ترسو بها البحرية المغربية المتبقية، لكن حوض بناء السفن مهجور تقريباً وسفنه غير صالحة للخدمة. سكانها جميعهم مسلمون معروفون بعنائهم الشديد للمسيحيين. للاستزادة أنظر :

James Richardson, Travels in Morocco..., op.cit, pp 120-121.

⁴ المهدية : تقع على المنحدر الشمالي الغربي لتل كبير، ترتفع حوالي أربعة أقدام فوق سطح البحر، على الضفة اليسرى لمصب نهر سبو، وعلى حافة سهل وغابة معمورة في مقاطعة بني حسن. بناها يعقوب المنصور للدفاع عن مصب النهر حسب مارمول. خضعت للحكم الإسباني عام 1614 واستعادها المغاربة عام 1681. كانت ملجأً للقرصنة سابقاً. حالياً هي مكان ضعيف به قلعة قديمة متداعية، يسكنها 500-600 صياد في 150 كوخاً، يتاجرون بسمك السلمون الشبل، ولديها حامية صغيرة جداً. تحتوي غابة معمورة المجاورة على ستين فدناً من الأشجار الجميلة، منها أشجار البلوط المناسبة للبناء البحري. للاستزادة أنظر :

James Richardson, Travels in Morocco..., op.cit, pp 119-120.

⁵ John Braithwaite, op.cit, p 429.

أما في الجانب الاجتماعي والثقافي، فيقدم براثويت دراسة عميقة للتركيبة السكانية للمغرب¹، مع تحليل دقيق للمعتقدات الشعبية كالتنجيم والسحر². ويبرز في هذا السياق التداخل المثير بين التدين العميق للمجتمع المغربي والمعتقدات الشعبية المتوارثة، كما يوثق بعناية العادات والتقاليد المغربية التي تميز المجتمع في تلك الفترة.

يشكل كتاب جون براثويت **John Braithwaite** مصدراً أساسياً للباحثين والمؤرخين المهتمين بتاريخ المغرب، إذ يجمع بين الدقة التوثيقية والرؤية الشخصية. يقدم صورة متكاملة ومتعددة الأبعاد لمجتمع المغربي، متيحاً للقراء فهماً عميقاً للحياة في المغرب خلال تلك الحقبة.

2 جوزيف مورغان Morgan Josephe :

من الشخصيات البارزة في العلاقات البريطانية مع الدول المغاربية خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. بدأت خدمته في المنطقة عام 1694م تحت إشراف القنصل البريطاني روبرت كول **Robert Cole** ، الذي أسهم في تشكيل رؤيته المنفتحة تجاه المجتمع الإسلامي. وعلى الرغم من وقوعه في الأسر الإسباني عام 1702م، واصل جوزيف مورغان **Morgan Josephe** تنقلاته بين الدول المغاربية وإنجلترا، مما أكسبه معرفة عميقة بالثقافة المحلية³.

شرح جوزيف مورغان **Morgan Josephe** في مسيرته العلمية عام 1723م، حيث قدّم دراسات متعمقة عن العالم الإسلامي. وقد أثمرت جهوده في تأليف مؤلف شامل باللغة الإنجليزية يتناول تاريخ الجزائر وأقاليمها منذ بداية الحكم العثماني.

¹ John Braithwaite, op.cit, p 431.

² Ibid, p 433.

³ Nabil Matar, " Islam in British 1689-1750 ",...op.cit, p 294.

Complete History of Algeriers and Territory, From The Times of its being possessed by The Turks.¹

صدرت الطبعة الأولى من هذا المؤلف في لندن عام 1728م، تلتها طبعة ثانية عام 1731م، وقد أعلن عن صدورهما في مجلة **Gentleman's Magazine** "جنتلمان" ².

يقع هذا الكتاب في 700 صفحة، وينقسم إلى مجلدين. يتناول المجلد الأول التاريخ العام لشمال إفريقيا، وهو منقسم إلى ستة أقسام تتناول أصول السكان والأقاليم الرومانية وإمبراطورية قرطاج والوندال وتاريخ المنطقة في بداية القرن السادس عشر ³.

أما المجلد الثاني، الموسوم بـ "الكامل في تاريخ الجزائر والأقاليم التابعة منذ السيطرة العثمانية"، فيشتمل على أربعة عشر فصلاً. يستعرض التسلسل التاريخي لفترات حكم باشوات الجزائر، وعلى رأسهم حسن باشا وخير الدين وصالح رايس. كما يتناول النشاط البحري الجزائري وقوته العسكرية، ويختتم بتحليل الحملة الإنجليزية غير الموفقة على الجزائر بقيادة روبرت مانسل **Robert Mansel** ⁴.

عقب عودته إلى إنجلترا، كرّس مورغان جهوده للكتابة والتأليف عن ثقافة وعقائد شعوب الدول المغاربية. وعلى الرغم من غزارة إنتاجه العلمي وتنوعه، ظل جوزيف مورغان **Morgan Josephe** شخصية لم تنل حقها من الشهرة في سياق العلاقات الأنجلو-إسلامية.

¹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص317.

² Thomson Ann, " Joseph Morgan et le monde islamique ", **Dix-huitième Siècle**, N°27, L'Antiquité, 1995, p 351.

³ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص317.

⁴ نفسه، ص ص 318-319.

تعكس أعمال جوزيف مورغان **Morgan Josephe** تحولاً جوهرياً في المنظور البريطاني تجاه العالم الإسلامي. فقد أسهم في تطوير فهم أعمق وأكثر موضوعية للحضارة الإسلامية، متجاوزاً النظرة النمطية السائدة آنذاك. وقد كان أحد رواد حركة علمية سعت إلى دراسة اللغات والتراث الإسلامي بمنهجية شاملة، معترفة بالإسهامات الحضارية الإسلامية في تطور الحضارة الأوروبية¹.

تميز منهج جوزيف مورغان **Josephe Morgan** بالموضوعية العلمية والاعتماد على الملاحظة المباشرة، إذ حرص على تقديم رؤى المسلمين وتصوراتهم بدلاً من الاعتماد على المرويات الشفهية أو المصادر غير الأصلية. وبهذا المنهج العلمي، قدم مورغان إسهاماً جوهرياً في تعميق فهم الثقافة الإسلامية في بريطانيا، متجاوزاً التصورات النمطية والمغالطات التاريخية السائدة في عصره².

اتسم جوزيف مورغان **Josephe Morgan** بنزعة نقدية تجاه المصادر الأوروبية السابقة، إذ رأى أن المؤلفين الأوروبيين الذين سبقوه كانوا يصدرن عن تحيزات دينية وأحكام مسبقة تجاه العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، وجّه نقداً لكتابات الأسير الإسباني هايدوا دي ديغو **Haedo De Diego**، على الرغم من إقراره بفضله وتسميته بـ"المرشد" في مؤلفاته. فقد رأى جوزيف مورغان **Josephe Morgan** أن كتابات هايدوا تمحورت حول قضية أسر المسيحيين من قبل الجزائريين واستشهادهم، وهو ما عدّه مورغان طرْحاً قاصراً نابعاً من التعصب الديني³.

¹ Nabil Matar, "Islam in British...", op.cit, p 293.

² Ibid, p 294.

³ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 315.

سعى جوزيف مورغان **Morgan Josephe** إلى توطيد العلاقات بين بلاده والجزائر، تلك القوة البحرية ذات الإمكانيات الإستراتيجية المهمة. ولذلك، بذل جهداً في تصحيح التصورات المغلوطة عن الجزائر. وعلى الرغم من إمكانية الاستفادة من المصادر السابقة والكتابة وفق منهجهم، إلا أنه آثر تقديم رؤية مغايرة. وعليه، عزم على تأليف تاريخ شامل للجزائر يقدمه لمواطنيه والأوروبيين لتصحيح المفاهيم السائدة¹.

وبالفعل، قدم جوزيف مورغان **Morgan Josephe** للقراء البريطانيين في القرن الثامن عشر الميلادي منظوراً مغايراً وتصويماً للرؤية النمطية عن العالم الإسلامي. فخلافاً لمعاصريه، استند إلى تجاربه الشخصية وعلاقاته المباشرة مع المسلمين لتقديم صورة أكثر دقة وإنصافاً، متجاوزاً الروايات الأسطورية، ومؤكداً القواسم الإنسانية المشتركة بين المسلمين والمسيحيين على الرغم من التباينات الثقافية.

اعتمد جوزيف مورغان **Morgan Josephe** على المصادر الشفوية في الدول المغاربية، مقدماً للقراء الإنجليز روايات تاريخية وثقافية من منظور المسلمين أنفسهم. وقد شكل هذا المنهج سابقة علمية مثيرة للجدل، نظراً لعدم اعتياد الجمهور البريطاني على الاطلاع على وجهات نظر المسلمين، خاصة في قضايا جوهرية كمكانة المرأة في الإسلام.

ومع ذلك، آثر جوزيف مورغان **Morgan Josephe** الرجوع إلى آراء العلماء والمفكرين المسلمين بدلاً من تكرار المسلمات الغربية. وبهذا المنهج، أتاح مورغان للقراء البريطانيين

¹ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 314-315.

فرصة للتأمل في ثقافتهم من خلال منظور إسلامي أصيل، مما أسهم في تعميق فهمهم وتقديرهم للحضارة الإسلامية¹.

وفي عام 1750م، أُعيد نشر كتابه الموسوم بـ :

A Complete History of the Piratical States of Barbary

"الكامل في تاريخ دول البربر البحرية "

تناول هذا المؤلف تاريخ الأقطار المغاربية (الجزائر، تونس، المغرب). والجدير بالذكر أن هذا العمل اعتمد بشكل كبير على كتاب لوجي دي تاسي. وقد أضاف مورغان فصولاً عن تاريخ المملكتين الجزائرية والتونسية، مستنداً في الأخيرة إلى تحليل مذكرات القنصل الفرنسي في تونس المعنونة :

Mémoires historique que concernent le gouvernement de l'ancien et

du nouveau Royaume de Tunis, Paris, 1736

أما الجزء الذي تطرق فيه الكتاب إلى تاريخ المغرب، فلا يُعرف مصدره².

من الظواهر اللافتة للنظر غياب اسم جوزيف مورغان Morgan Josephe عن الطبعة الثانية من أحد مؤلفاته، حيث اكتفى الناشر بوصف المؤلف بأنه "شخص أقام سنوات عديدة في المنطقة". وتثير هذه الظاهرة عدة إشكاليات جوهرية حول طبيعة هذه الطبعة وصلة جوزيف مورغان بها:

¹ Nabil Matar, "Islam in British...", op.cit, p 295.

² William (A.H), Magasiun encyclopédique arts, T1, Imprimerie de Delance, Paris, 1805, pp 546-547.

أولاً: إشكالية الانتحال العلمي، إذ يُثار التساؤل عن احتمالية كون هذه الطبعة نسخة غير مصرح بها من النص الأصلي.

ثانياً: موقف جوزيف مورغان من حذف اسمه، وهو ما يتناقض مع حرصه المعهود على إثبات ملكيته الفكرية لمؤلفاته.

ثالثاً: مدى علمه بصدور هذه الطبعة وموافقة عليها.

ولتحليل هذه القضية، يجدر استحضار منهجية مورغان التوثيقية في أعماله السابقة، والتي تميزت بما يأتي:

- الحرص على إثبات هويته العلمية في جميع مؤلفاته
- تقديم إهداءات إلى شخصيات مرموقة في المجتمع
- الدقة في توثيق المصادر والمراجع

هذه السمات الراسخة في منهجه تجعل من المستبعد موافقة على إخفاء هويته في هذا المؤلف تحديداً.

واستناداً إلى هذه المعطيات، يمكن ترجيح فرضية أن الطبعة الثانية كانت نسخة منتحلة، نُشرت دون علم مورغان أو إذنه. وهذا الاستنتاج يتوافق مع سمعته كمؤلف يلتزم بالأمانة العلمية¹.

وعلى الرغم من هذه الإشكالية، فإن كتابات مورغان تحتل مكانة مرموقة في الدراسات التاريخية، إذ تُعد مصدراً مهماً للمعلومات عن العالم الإسلامي في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي. وتتجلى أهمية هذه الكتابات في تقديمها وصفاً دقيقاً للمدن والعادات والنظم السياسية

¹ Thomson Ann, op.cit, p 353.

في الدول المغاربية، فضلاً عن تحليلها العميق للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين في تلك الحقبة.

غير أن التعامل مع هذه الكتابات يستدعي نظرة نقدية متأنية، فقد كان مورغان مراقباً متأثراً بخلفيته الثقافية، وغالباً ما انعكست توجهاته الشخصية على رواياته. كما اتسمت كتاباته في بعض المواضيع بالمبالغة والميل إلى الترويج الذاتي. ومع ذلك، تبقى أعماله مرجعاً أساسياً لا غنى عنه لمؤرخي العالم الإسلامي¹.

3 ميس تولي Miss Tully :

في صيف عام 1783م، وصلت إلى طرابلس السيدة الإنجليزية المعروفة باسم الأنسة تولي Miss Tully، شقيقة القنصل البريطاني ريتشارد تولي Richard Tully (1793- 1783) في طرابلس الغرب .

اتسمت كتابات الأنسة تولي Miss Tully بخصائص منهجية متميزة، تجلت في دقة الملاحظة والتوثيق المنظم للأحداث والوقائع. فمنذ وصولها إلى طرابلس، شرعت في تدوين مشاهداتها عبر سلسلة من المراسلات الموجهة إلى صديق لها في إنجلترا، متأثرة في ذلك بأسلوب الليدي ماري وورتللي مونتاجو² Lady Mary Wortley Montagu¹.

¹ Thomson Ann, op.cit, p 350.

² الليدي وورتللي مونتاجو : في عام 1689، ولدت ماري بيبربونت، التي عُرفت لاحقاً باسم الليدي ماري وورتللي مونتاجو، في أسرة إنجليزية أرستقراطية من كبار ملاك الأراضي. وفي قصر ثوريسبي الفخم الذي نشأت فيه، بدأت رحلتها الثقافية والأدبية التي ستترك أثراً عميقاً في الأدب الإنجليزي.

وتكتسب هذه المراسلات أهمية خاصة في توثيقها للعلاقات الدبلوماسية التي نشأت بين عائلة تولي وأسرّة باشا طرابلس على مدى عشر سنوات². ولعل من أبرز الأمثلة على عمق هذه العلاقات ما حدث عندما اضطر القنصل البريطاني وزوجته للسفر إلى إنجلترا، حيث عرض الباشا وزوجته استضافة أطفالهما تحت رعاية السيدة ليلي حلومة، مربية أطفال القصر. وقد تجلّى حرص الجانب الطرابلسي على احترام خصوصية الأسرة البريطانية في تعهد المربية رسمياً باحترام الهوية الدينية والثقافية للأطفال، معتبرة إياهم جزءاً من النسيج الاجتماعي المحلي. ورغم أن هذا العرض لم يُقبل نظراً للاختلافات الثقافية والدينية، إلا أنه يعكس مستوى الثقة والتقارب الذي وصلت إليه العلاقات بين الأسرتين.

شكلت ابنتا القنصل، المولودتان في طرابلس والمتحدثتان للغة العربية، جسراً ثقافياً مهماً في تعزيز العلاقات مع نساء الأسرة الحاكمة. وقد أسهم هذا التواصل في تحسين العلاقات بين

شكل عام 1717 منعطفاً حاسماً في حياتها، حين تم تعيين زوجها سفيراً في القسطنطينية. أتاحت هذه الفرصة لليدي ماري أن تخوض تجربة ثقافية فريدة، حيث وثقت مشاهداتها وانطباعاتها عن الحياة في تركيا من خلال رسائل مفصلة. وعند عودتها إلى إنجلترا، قامت بتحويل هذه المراسلات إلى عمل أدبي متكامل عُرف باسم "رسائل السفارة التركية". تميز هذا العمل بكونه مزيجاً فريداً بين أدب الرسائل وأدب الرحلات، حيث عملت ليدي ماري على تحرير رسائلها بعناية ودمجها مع مقتطفات من يومياتها، مما أضفى على العمل عمقاً وثراءً خاصاً. وقد حظي هذا العمل باهتمام كبير في الأوساط الأدبية المرموقة في عصرها، حيث شاركته مع نخبة من الأدباء والمفكرين مثل بوب وأديسون وسنتيل، مما عزز مكانتها في المشهد الثقافي الإنجليزي آنذاك. للاستزادة أنظر إلى :

Anna Secor, " Orientalism, Gender and Class in Lady Mary Wortley Montagu's Turkish Embassy Letters : To person's of distinction, men of letters", **Cultural Geographic**, Vol 6, N°4, Tulyor and Francis, 1999, pp 377-381.

¹ Seton Dearden, op.cit, p 98.

² Richard Tully, Letters Written During A Ten Years' Residence at the court of Tripoli, Vol 1, Third edition, Printed for Henry Colburn Conduit Street, London, 1819, p IV.

المجتمع الطرابلسي والجالية البريطانية المقيمة، مما انعكس إيجاباً على موقف الباشا تجاه المصالح البريطانية¹.

بعد ثلاث وعشرين سنة من عودة الأنسة تولي Miss Tully إلى بلادها، نشر سيتون ديرن Seton Dyne ، الذي كان يشغل منصب رئيس مكتبة المعلومات البريطانية في ولاية طرابلس خلال فترة الإدارة البريطانية، هذه الرسائل في كتاب بعنوان²

Narrative of Ten Years' Residence at Tripoli in Africa .

سرد إقامة عشر سنوات في طرابلس أفريقيا.

حظي هذا الكتاب بشعبية واسعة، مما أدى إلى صدور طبعات متعددة وترجمات إلى لغات مختلفة. فقد أعيد طبعه للمرة الثانية سنة 1817م، وللمرة الثالثة سنة 1819م. ونظراً لأهمية محتواه، تُرجم إلى عدة لغات، من بينها الفرنسية. صدرت الطبعة الفرنسية الأولى في باريس سنة 1819م بعنوان: رحلة إلى طرابلس أو حكاية إقامة عشر سنوات في أفريقيا

Mac Carthy, J. Voyage à Tripoli ou Relation d'un séjour de dix années en Afrique, traduit de l'anglais sur la seconde édition, Mongie Aîné, Paris, 1819"³.

صدرت هذه الترجمة الفرنسية في مجلدين. وهناك طبعة فرنسية أخرى سابقة صدرت سنة 1912م، ضمن المجموعة التاريخية المصورة التي كان يصدرها ألبير سافين Albert Savine

¹ Richard Tully, Letters Written..., op.cit, pp V-VI.

² الأنسة توللي، المصدر السابق، ص 19.

³ نفسه، ص 24.

، وهي ترجمة الأنسة تولي Miss Tully . ويظهر الكتاب في فهارس مكتبة نيويورك العامة تحت عنوان:

" Miss Tully, Tripoli au XVIIIe siècle; Annoté d'après les documents d'archives et les mémoires, Paris: Société des éditions Louis-Michaud, 168 Boulevard Saint-Germain, 1912"¹.

يتألف الكتاب من 143 رسالة كتبها الأنسة تولي Miss Tully من مقر القنصلية البريطانية في طرابلس إلى صديق لها في إنجلترا، على مدى عشر سنوات من 3 جويلية 1783م إلى 20 نوفمبر 1793م. وتوزعت الرسائل على النحو التالي:

1784 = 7 رسائل

1788 = 9 رسائل

1784 = 8 رسائل

1789 = 11 رسالة

1785 = 15 رسائل

1790 = 16 رسالة

1786 = 17 رسائل

1791 = 13 رسالة

1787 = 10 رسائل

1792 = 12 رسالة

1793 = 25 رسالة .

يلفت الانتباه أن أعلى معدل للرسائل سُجل في سنة 1793م بواقع 25 رسالة. وتغطي هذه المراسلات، التي امتدت لعشر سنوات، حقبة مهمة من تاريخ طرابلس الغرب خلال العهد

¹ الأنسة توللي، المصدر السابق، ص 24 .

القرمانلي، وتحديدًا في فترة حكم علي باشا القرمانلي (1754-1793م)، ثالث الباشوات القرمانليين¹.

تكتسب هذه الرسائل أهمية خاصة لكونها تقدم رؤية تفصيلية للحياة داخل قصر باشا طرابلس، وتوثق معلومات غير مسبوقة عن عادات المجتمع الطرابلسي وتقاليده. وتتفرد هذه الوثائق بكونها المصدر المنشور الوحيد الذي يصف بدقة سلوك هذا الحكم الأسرة القرمانلية وممارساتها، كما تسجل مشاهد وأحداثاً قد تبدو غريبة من منظور القارئ الإنجليزي، مما يعكس عمق التباين الثقافي بين المجتمعين.

سعت المؤلفة إلى تقديم صورة موضوعية عن طبائع سكان طرابلس وأفكارهم ومشاعرهم. وقد أتاح لها موقعها تحقيق هذا الهدف، إذ كان من النادر أن يحظى شخص غير مسلم بفرصة الاطلاع عن قرب على الحياة الداخلية للعائلات المغاربية المرموقة، ولا سيما عائلة الباشا².

وفي ضوء التحولات المعاصرة في العلاقات الأوروبية-المتوسطية، تشكل هذه الرسائل مصدراً ثميناً للمعرفة التاريخية. فهي لا تقتصر على تقديم مادة علمية للباحثين والمحليين السياسيين فحسب، بل تمثل أيضاً قراءة شائقة للجمهور البريطاني بصفة خاصة والأوروبي بصفة عامة. وتجمع هذه المراسلات بين العمق السياسي والثراء الثقافي، مما يجعلها تضاهي

¹ إبراهيم على مفتاح الشويرف، " مصادر تاريخ ليبيا في العهد القرمانلي كتاب ريتشارد توللي أنموذج : دراسة وصفية تحليلية"، مجلة علوم التربية الرياضية والعلوم الأخرى، العدد 1، 2016، ص 213.

² Richard Tully, Letters Written During A Ten Years' Residence at the court of Tripoli ...op.cit, p IV.

في قيمتها وجاذبيتها مراسلات الليدي ماري ورتلي مونتاغو Lady Mary Wortley Montagu الشهيرة¹.

4 جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson :

يُعد جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson تاجراً بريطانياً عاش في موغادور (الصويرة) إحدى عشرة سنة، في المدة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. وقد ذكر في مؤلفه أن إقامته في المغرب، دبلوماسياً وتاجراً، استمرت أكثر من ستة عشر عاماً².

جاء جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson خلال إقامته مختلف أنحاء البلاد وعاصر عدداً من السلاطين، منهم: السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل (1790-1757)، والسلطان مولاي يزيد (1790-1792)، والسلطان المولى سليمان بن محمد (1792-1822). وقد دوّن خلال إقامته كل ما شاهده وعاشه. كان هدفه في البداية تسجيل مذكراته الشخصية فحسب، لكنه بعد وصوله إلى إنجلترا بمدة قصيرة، تعرف على شخص يُدعى نوبلمان Nobleman ، اقترح عليه نشر مذكراته لتعريف الأوروبيين بسكان المغرب (السكان الأصليين الأمازيغ).

¹ Richard Tully, Letters Written During A Ten Years' Residence at the court of Tripoli ...op.cit, pp VII-VIII.

² جيمس غراي جاكسون، من فاس إلى تمبكتو رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهوسة (القرن الثامن عشر)، ترجمة محمد عبد الغني، إرث للنشر والترجمة، مصر، 2020، ص 12.

تميز جاكسون بكونه رجل سياسة وتاجراً، فضلاً عن إتقانه لغات شمال أفريقيا، بل حتى اللهجة المحلية. وهذا ما جعل مؤلفه عن المغرب متميزاً عن باقي الكتابات الإنجليزية. كما أن إقامته الطويلة في المغرب جعلت وصفه للبلاد أكثر دقة من غيره¹.

نشر جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson في عام 1809م كتابه في لندن بعنوان : "وصف المغرب ومنطقة سوس"

An Account of The Empire of Morocco and The District of Suse .

قدم في هذا المؤلف، الذي يقع في 328 صفحة، دراسة معمقة للبلاد. يتميز هذا العمل بأصالته وموضوعيته النسبية مقارنة بكتابات المستشرقين المعاصرين، إذ استوعب المؤلف اللغة والثقافة المحلية. يحتوي الكتاب على خرائط ورسوم توضيحية متنوعة (انظر إلى الملحق رقم 03)، مما يجعله مصدراً مهماً للمعلومات عن المغرب في مطلع القرن التاسع عشر. وقد لقي العمل استحساناً كبيراً من النقاد والقراء، مما أدى إلى إصدار طبعة ثانية منه.

قدم جاكسون في كتابه عن المغرب دراسة متعددة الجوانب تتجاوز أدب الرحلات التقليدي. فبينما يصف المدن والأقاليم كرحالة، نجده أيضاً يقدم دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ودراسة للتنوع الحيواني في المغرب، وتحليلاً للهجات الإفريقية، ودراسة للتجارة الخارجية المغربية. ويعكس هذا التنوع في الموضوعات والمنظور عمق فهم جيمس غراي جاكسون للبلاد، الناتج عن إقامته الطويلة فيها. لم يكتفِ بتسجيل انطباعاته السطحية، بل سعى إلى فهم عميق للثقافة والمجتمع المغربي².

¹ James Grey Jackson, An Account of The Empire of Morocco and The district of suse, Printed for The Author by W.Bulmer and Co, London, 1809, (Preface).

² Mohamed Chtatou, "Morocco in English travel Literature : A Look at J.G.Jackson's account ", J.N.A.S., Vol1, Issue1, London, 1996, pp 59-60

تميز منهج جيمس جراي جاكسون في دراسة المغرب بشموليته وعمقه خلال إقامته الممتدة في البلاد. تجاوز النظرة الاستشراقية التقليدية، متبنياً منهجاً قائماً على الاندماج في النسيج الاجتماعي والثقافي المحلي. وأولى اهتماماً خاصاً بتعلم اللغة العربية، معتبراً إياها وسيلة أساسية لفهم العقلية المغربية ورؤيتها للعالم. كما شدد على أهمية المعاشية المباشرة للسكان المحليين، ودراسة حياتهم اليومية، والتعرف على عاداتهم وتقاليدهم لتجنب سوء الفهم وتعزيز التواصل الإيجابي¹.

ويُعد إسهام جاكسون في الدراسات الإسلامية متميزاً، إذ برز كأحد الباحثين الغربيين القلائل الذين تناولوا الإسلام بموضوعية في تلك الحقبة التاريخية. فقد عمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة السائدة عن الإسلام، معتمداً منهجية علمية دقيقة تستند إلى المصادر الأصلية، وبخاصة القرآن الكريم، وهو نهج نادر في الكتابات الأوروبية آنذاك.

وفي السياق التاريخي، مثلت جهود جيمس غراي جاكسون **James Grey Jackson** محاولة جادة لتصحيح الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الغرب. فقد انتقد الكتابات الغربية المشوهة للإسلام، موضحاً أن معظم التصورات الخاطئة نشأت إما عن جهل أو تعصب ديني، أو قصور في فهم اللغة العربية.

ومن الناحية المنهجية، دعا جاكسون إلى دراسة العقيدة الإسلامية من مصادرها الأصلية، مؤكداً وجود قواسم مشتركة بين الإسلام والمسيحية. واستدل على قوة الإسلام وجاذبيته بانتشاره الجغرافي الواسع من غرب أفريقيا إلى شرق آسيا².

¹ Mohamed Chtatou, op.cit, p 61.

² James Grey Jackson, op.cit, p 159.

وفي معرض تصحيحه للمفاهيم المغلوطة، تناول جاكسون قضية تفسير حمل السيدة مريم في القرآن الكريم، مفنداً الادعاءات المغلوطة التي نسبت إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وأوضح أن النص القرآني يصف المعجزة الإلهية في حمل مريم، وأن ذكر التمر جاء في سياق تخفيف آلامها¹.

يمثل عمل جاكسون نموذجاً رائداً في الدراسات الإسلامية والمغربية الموضوعية في الغرب، ولا يزال مرجعاً مهماً في فهم الثقافة والمجتمع المغربيين.

5 -إليزابيث بروتون Elizabeth Broughton :

نشأت إليزابيث بروتون Elizabeth Broughton في بيئة دبلوماسية بريطانية مرموقة. فقد كانت ابنة هنري ستانفورد بلانكي Henry Stanyford Blankey²، الذي تولى منصب القنصل العام البريطاني في الجزائر من عام 1806م إلى 1812م. وفي سن السادسة، رافقت إليزابيث بروتون Elizabeth Broughton والديها وشقيقتها إلى الجزائر، كانت والدتها تدعى ماري ريتشاردز Mary Richards ، زوجة والدها الثانية. وخلال تلك الفترة، دوّنت

¹ James Grey Jackson, op.cit, p 170.

² بلانكي هنري ستانفورد : ولد في مدينة باث Bath في 29 سبتمبر 1752. خدم في السلك العسكري وشارك في عدة حروب، منها حصار جبل طارق (1779-1783) برتبة قائد هيئة الأركان العامة. وفي فبراير 1783، عُيّن قنصلاً في جزر البليار، حيث شغل هذا المنصب لمدة ستة عشر عاماً. وفي 26 مايو 1806، تولى منصب القنصل العام في الجزائر. للاستزادة أنظر إلى :

ماري ريتشاردز **Mary Richards** ملاحظات ومذكرات مفصلة عن تجاربها ومشاهداتها في المجتمع الجزائري¹.

وفي مطلع القرن التاسع عشر، برز اتجاه أدبي جديد في بريطانيا، إذ بدأت زوجات الدبلوماسيين في توثيق رحلاتهن وتجاربهن في البلدان الأجنبية. وكانت الليدي ماري ورتلي مونتاجو **Lady Mary Wortley Montagu** رائدة في هذا المجال، حيث نُشرت رسائلها عن رحلاتها في أوروبا وآسيا وأفريقيا منذ عام 1764م. وتبعها السيدة تولي **Miss Tully**، زوجة القنصل البريطاني في طرابلس، التي نُشرت رسائلها عن إقامتها في طرابلس عام 1816م.

في هذا السياق الثقافي، ورثت إليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton** تقليداً عائلياً وأدبياً مميزاً. فقد حافظت على الوثائق التاريخية القيمة لوالدتها، مما يعكس اهتمامها المبكر بالتوثيق التاريخي والثقافي. وبدافع من أهمية هذا الإرث، شرعت في إعادة صياغة مذكرات والدتها بين عامي 1816م و1827م².

وفي 29 جويلية 1831م، تزوجت إليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton** من أحد خريجي جامعة إدنبرة **Edimbourg** المرموقة³، حيث استقرت فيما بعد. واصلت عملها على المذكرات، متأثرة بأعمال أدبية معاصرة مثل رواية **"The Antiquary"** للسير والتر سكوت **Sir Walter Scott**. وفي عام 1839م⁴، نشرت كتابها بعنوان:

"ست سنوات من الإقامة في الجزائر".

¹ Jean Martin, " Six ans de résidences à Alger, 1806-1812 ", **Académie de Science d'outre-mer**, ed, Bouchene, 2010, p1.

² Elizabeth Broughton, six ans de Résidence ...op.cit, p 13

³ Ibid, p 11.

⁴ Ibidem.

Six Years Residence in Algiers.

أظهرت إليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton** براعة في اختيار إهداء كتابها إلى دوقة كنت **Duchess of Kent** ، وهي شخصية مرموقة في المجتمع البريطاني عُرِفَتْ باهتمامها بالفنون والثقافات الأجنبية. وكان هذا الإهداء خطوة استراتيجية نجحت في جذب اهتمام أوسع جمهور ، مما أدى إلى إعادة طباعة الكتاب وحصوله على مراجعات إيجابية في الصحافة، كما تُرجم إلى عدة لغات¹.

تمثل هذه المذكرات وثيقة تاريخية ثمينة تكشف عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر خلال بداية القرن التاسع عشر الميلادي. فقد قدمت المؤلفة، من خلال منظور دبلوماسي بريطاني، تحليلاً مفصلاً للبنية السياسية في الإيالة العثمانية الجزائرية، مع تركيز خاص على دور الداي وعلاقاته مع القوى الأوروبية.

وتوضح المذكرات أهمية العمل الدبلوماسي في تشكيل العلاقات الدولية في حوض البحر المتوسط، وتوثق العلاقات المعقدة بين الممثلين الدبلوماسيين والسلطات المحلية. كما تقدم نظرة عميقة للتركيبة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الجزائري، بما في ذلك أوضاع الأقليات الدينية والعرقية، وخاصة اليهود والمسيحيين.

يتناول العمل قضايا محورية مثل القرصنة والعبودية، مما يسلط الضوء على التفاعلات الاقتصادية والسياسية المعقدة في المنطقة. كما يوفر معلومات غنية عن الحياة اليومية والعادات والتقاليد، مما يجعله مصدراً مهماً للدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية.

¹ Elizabeth Broughton, six ans de Résidence ...op.cit, p 11 .

ومن الناحية المنهجية، تتطلب هذه المذكرات، بوصفها مصدراً أولياً، تحليلاً نقدياً دقيقاً، مع مراعاة خاصة لخلفية الكاتبة وموقعها الثقافي. فالنص يحمل نزعة واضحة لانتقاد نظام الحكم وقيادته كلما أتاحت الفرصة، كما يصف السكان المحليين بنظرة سلبية. ويتجلى هذا التحيز بوضوح في تعاطف الكاتبة الشديد مع الأسرى، مقابل وصفها للجزائريين بعبارات قاسية.

ومن اللافت استخدام الكاتبة لمصطلحات عكست النظرة الاستعمارية السائدة في العصر الفيكتوري، مثل "بربري"¹ و"عبد" و"كافر"² و"طاغية". ورغم هذه الإشكاليات، تكمن قيمة هذه

¹ مصطلح "بربري" في المفهوم الأوروبي خلال القرن الثامن عشر كان يحمل دلالات جغرافية وسياسية متداخلة. فمن الناحية الجغرافية، كان يشير بشكل أساسي إلى المناطق الساحلية والداخلية في شمال المغرب العربي، في حين ظلت المناطق الجنوبية والصحراوية خارج نطاق المعرفة الأوروبية آنذاك. أما من الناحية السياسية، فقد اتسم المصطلح بالمرونة في الاستخدام، حيث كان يطلق تارة على الولايات الخاضعة للحكم العثماني (الجزائر، تونس، وطرابلس)، وتارة أخرى على كامل المنطقة الشمالية لإفريقيا، بما فيها المغرب الذي تميز بمساره السياسي المستقل بعد أن نجح في صد محاولات التوسع العثماني . للاستزادة أكثر أنظر إلى:

Zehor Zizi, " Thomas Shaw au Proche-Orient, 1721-1722 ; élucidation et défense des Textes Sacrés, in XVIIe et XVIIIe ", **Revue de la société d'études anglo-américaines de XVIIe et XVIIIe siècle**, N° 67, 2010, p 22.

² مثل استخدام مصطلح "كافر" في الكتابات الإنجليزية خلال العصر الفيكتوري نموذجاً صارخاً للخطاب الاستعماري المتحيز، حيث تم توظيف هذا المصطلح كأداة لغوية لترسيخ التفوق الثقافي والديني الأوروبي. فعندما وُصف إليزابيث بروتون الداي بـ"الكافر" في سياق تراجعها عن وعوده السابقة، لم يكن ذلك مجرد وصف عابر، بل كان تعبيراً عن منظومة فكرية استعمارية متكاملة سعت إلى تشويه صورة الحكام المسلمين وتقويض شرعيتهم.

ويكشف استخدام هذا المصطلح عن عدة أبعاد:

1. البعد العنصري: حيث استُخدم المصطلح كأداة للتمييز والتحقير، مرتبطاً بالنظريات العنصرية السائدة في العصر الفيكتوري.
2. البعد الديني: حيث عكس الصراع التاريخي بين المسيحية والإسلام، وتم توظيفه لتعميق الفجوة الدينية والثقافية.
3. البعد السياسي: حيث ارتبط استخدام المصطلح بمحاولات تبرير السياسات الاستعمارية وتصوير الحكام المسلمين كغير جديرين بالثقة.

المذكرات في تقديمها رؤية شخصية للأحداث والتطورات خلال مرحلة مهمة في تاريخ الدول المغاربية، مما يجعلها وثيقة تاريخية جديرة بالدراسة والتحليل.

يمثل هذا العمل إضافة مهمة للدراسات التاريخية المتعلقة بالعلاقات الدولية في البحر المتوسط، والتاريخ الاجتماعي والسياسي للجزائر في أواخر العهد العثماني. كما يوفر أساساً متيناً لفهم التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة في العقود اللاحقة، وخاصة بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

6 جون درموند هاي John Drummond Hay :

ينتمي جون درموند هاي إلى الطبقة الأرستقراطية الاسكتلندية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي. ولد في الأول جوان عام 1816م في مدينة فالنسيين Valenciennes الفرنسية، حيث كان والده يؤدي مهامه العسكرية. وبعد انتهاء الخدمة العسكرية لوالده، استقرت الأسرة في مدينة إدنبرة Edinburgh ، عاصمة اسكتلندا.

تلقى جون درموند هاي تعليمه الأولي، برفقة أخيه فرانك Frank ، في أكاديمية تشارتر هاوس Charter House ، إحدى المؤسسات التعليمية المرموقة في المملكة المتحدة آنذاك.

وتجلى هذا التحيز بوضوح في النص المذكور، حيث تم ربط تراجع الداي عن عوده بهويته الدينية، في محاولة لإضفاء تفسير ثقافي وديني على قرار سياسي. كما أن اقتران وصف "الكافر" مع الإشارة إلى تأثير الهدايا الفرنسية يعكس محاولة لترسيخ صورة نمطية عن عدم موثوقية الحكام المسلمين. أنظر إلى :

Elizabeth Broughton, six years Residence in Algiers, Saunders and Otley, Consduit Street ,London, 1839, p 220.

استمرت دراسته في هذه الأكاديمية خمس سنوات، ولم يتجاوز تحصيله العلمي فيها، حسب مذكراته، سوى إتقان علوم الرياضيات المعروفة في عصره¹.

شهد عام 1829م تحولاً مهماً في حياة عائلة جون درموند هاي **John Drummond Hay** ، إذ عُيِّن الأب إدوارد درموند هاي **Edward Drummond Hay** قنصلاً عاماً للمملكة المتحدة في المغرب. غير أن هذا التعيين لم يؤثر مباشرة في مسار جون التعليمي، إذ بقي في بريطانيا لمواصلة دراسته مدة تراوحت بين سنتين وثلاث سنوات.

وفي عام 1832م، وهو في الخامسة عشرة من عمره، انتقل جون مع أخيه فرانك إلى مدينة طنجة المغربية. هناك، أُسندت مهمة تعليمهما إلى المعلم الإسباني دون غريغوريو دي بورغاس **Don Gregorio de Borgas**، الذي تولى تدريسهما أصول الآداب الكلاسيكية والرياضيات، إضافة إلى اللغتين الفرنسية والإسبانية². عكس هذا التعليم الخاص حرص العائلة على توفير تعليم شامل لأبنائها، يجمع بين العلوم الإنسانية والعلمية واللغات الأجنبية.

كان لروبرت درموند هاي **Robert Drummond Hay** ، أحد أفراد العائلة الذي شغل منصب نائب وزير المستعمرات، دور مؤثر في توجيه المسار المهني لفرانك، حيث مهّد له الطريق للحصول على وظيفة في الإدارة نفسها في لندن عام 1834م. وإثر ذلك، بقي جون في طنجة³ منفرداً، ولم يحرز تقدماً ملحوظاً في دراسته النظامية، باستثناء إتقانه اللغتين الفرنسية والإسبانية¹.

¹ Khalid ben Shir, Britain and Morocco...op.cit, p 20.

² Mr Louisa Annette Edla Drummond Hay, A Memoir of Sir John Drummond Hay, John Murry Albemarle Street, London, 1896, pp 6-7.

³ **طنجة** : تقع طنجة على بعد 3 أو 4 أميال شمال أزيلات. وتتميز بقلعتها التي لم يبذل المغاربة سوى جهود محدودة في إصلاحها بعد التخلي عنها، حيث اقتصر أعمالهم على بناء جدار على الجانب البري من القلعة وإنشاء بوابة جديدة تطل

بيد أن إقامة جون درموند هاي **John Drummond Hay** في طنجة شكلت نقطة تحول جوهريّة في مساره العلمي والمهني، إذ وجّه اهتمامه نحو تعلم اللغة العربية. وقد برع في إتقان الكتابة بها وترجمة نصوصها إلى الإنجليزية، مما أسس لمستقبله في العمل الدبلوماسي في الدول المغاربية. ويعكس هذا التوجه فراسة جون في إدراك أهمية اللغة العربية كوسيلة للتواصل والفهم في المنطقة.

وتعد الفترة الممتدة من 1839م إلى 1843م مرحلة محورية في المسار المهني لجون درموند هاي **John Drummond Hay**. ففي عام 1839م، وأثناء زيارته لبريطانيا، تقدم بطلب إلى اللورد بالمرستون **Lord Palmerston**، وزير الخارجية البريطاني آنذاك، للحصول على منصب دبلوماسي في إحدى دول المشرق العربي. وقد حظي طلبه بالقبول، مما يشير إلى تقدير السلطات البريطانية لكفاءاته وخبراته المكتسبة في المغرب.

وقبل مباشرة مهامه الدبلوماسية، خضع جون درموند هاي **John Drummond Hay** لفترة تدريبية قصيرة في وزارة الخارجية بلندن، حيث عمل بوظيفة كاتب مساعد. وفي عام 1840م، أوفد إلى الإسكندرية، حيث كُلف بمساعدة القنصل العام البريطاني هودجز **Hodges**. وقد تزامن وصوله مع فترة حساسة شهدت تصاعد نشاطات محمد علي باشا في مصر والمناطق المجاورة².

على الجنوب الشرقي، في حين ظل القالب وبقية القلعة على حالتها المهجورة والمدمرة. وقد شهدت المدينة إعادة بناء بعض المنازل والعديد من الأكواخ، إضافة إلى كنيسيتين: واحدة في المدينة في موقع الكنيسة البرتغالية السابقة، والأخرى بجوار القلعة. للاستزادة أكثر أنظر:

Simon Okley, An account of south-West Barbary. Containing What is Most Remarkable in The Territories of King of Fez and Morocco, Printed For J. Browyer, London, 1713, p 7.

¹ Mr Louisa Annette Edla Drummond Hay, op.cit, p 8.

² Khalid ben Shir, Britain and Morocco...op.cit, p 21

ومع تدهور العلاقات البريطانية-المصرية وانقطاعها في أواخر عام 1840م، انتقل جون درموند هاي John Drummond Hay إلى القسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية. وهناك، عمل تحت إشراف اللورد بونسونبي Lord Ponsonby في السفارة البريطانية. وسرعان ما شهدت السفارة تغييراً في قيادتها، إذ تولى اللورد كانينغ Lord Canning منصب السفير، وهو دبلوماسي عُرف بانضباطه الإداري الصارم.

وفي ظل قيادة اللورد كانينغ Lord Canning، أُسندت إلى جون درموند هاي John Drummond Hay مسؤولية حفظ سرية وثائق السفارة. كما كُلف في عام 1843م بمهمة دبلوماسية دقيقة في مدينة بروسه Brousse ، حيث نجح في تسوية نزاع بين القنصل البريطاني ووالي المدينة. وقد ترك أسلوب اللورد كانينغ Lord Canning وانضباطه أثراً عميقاً ودائماً في شخصية درموند هاي المهنية¹.

وشهد عام 1845م تحولاً مفصلياً في حياة جون درموند هاي John Drummond Hay ، فبعد وفاة والده إدوارد، وافق اللورد أبردين Lord Aberdeen ، وزير الخارجية البريطاني آنذاك، على تعيينه قنصلاً عاماً لبريطانيا في المغرب، على الرغم قلة خبرته الدبلوماسية مقارنة بمنصبه الجديد. وكان لتزكية اللورد كانينغ Lord Canning لدى وزارة الخارجية دور حاسم في هذا التعيين.

وقد دشّن هذا التعيين مرحلة جديدة وممتدة في حياة جون درموند هاي John Drummond Hay ، استمرت حتى عام 1886م، مما جعله شخصية محورية في العلاقات البريطانية-

¹ Khalid ben Shir, Britain and Morocco...op.cit, pp 21-22.

المغربية لأكثر من أربعة عقود. وخلال هذه الفترة، عمل جون دارموند هاي على توطيد العلاقات بين البلدين وتعزيز المصالح البريطانية في المنطقة.

من الجدير بالملاحظة موقف السلطان المولى عبد الرحمن من تعيين درموند هاي. فقد عبر السلطان عن رأيه في رسالة إلى خادمه بوسلهام بن علي، جاء فيها: "... وذكرت أن طاغية الإنجليز قدمت ابن القنصل الذي ذهب إلى الجحيم وكفى الله الإسلام من شره، للخدمة القنصلية في ميناء طنجة ..."¹. تكشف هذه الرسالة عن الموقف المتحفظ للسلطان تجاه التمثيل الدبلوماسي البريطاني، وتشير إلى التحديات التي واجهت جون درموند هاي John Drummond Hay في مهمته الجديدة.

وإلى جانب مسيرته الدبلوماسية الحافلة، قدم جون درموند هاي John Drummond Hay إسهامات أدبية مهمة في مجال وصف المغرب وثقافته. وتعود جذور هذه الإسهامات إلى مرحلة مبكرة من حياته في المغرب. ففي عام 1838م، وقبل توليه منصب القنصل العام بسنوات، قام برحلة استكشافية إلى المغرب. كان الهدف الرئيس من هذه الرحلة البحث عن فرس عربي أصيل من مرابط الخيول في العرائش، تلبيةً لرغبة الملكة فيكتوريا. وعلى الرغم من عدم تحقيق هذه الغاية، إلا أن رحلته القصيرة أثمرت عن ثروة قيمة من المشاهدات والروايات². وبعد مرور أكثر من عقدين على هذه الرحلة، وفي أثناء عمله قنصلاً عاماً، وتحديداً في عام 1861م، نشر درموند هاي كتابه المهم في لندن بعنوان: "المغرب والمغاربة، بربريا الغربية؛ قبائلها الرحل وحيواناتها المتوحشة".

¹ Khalid ben Shir, Britain and Morocco...op.cit, p 22.

² John H.Drummond Hay, Morocco and The Moors Western Barbary ; Its Wild Tribes and savage animals, John Murray Albemarle street , London, 1861. P (introduction) .

" **Morocco and The Moors, Western Barbary; its Wild Tribes and Savage Animals.**

وقد نال هذا الكتاب اهتماماً واسعاً، مما أدى إلى ترجمته إلى اللغة الفرنسية سنة 1944م على يد بيلوك لويز **Biloc Louise** تحت عنوان: "المغرب وقبائل البدو الرحل"

Le Maroc et ses tribus nomades.

ويتميز كتاب جون درموند هاي **John Drummond Hay** بأسلوب سردي مميز في وصف الحياة البرية المغربية. إذ يتناول مجموعة متنوعة من الحيوانات، من طيور النحام إلى أسود الأطلس، مما يعكس غنى التنوع البيولوجي في المنطقة. ولعل أبرز ما يميز أسلوبه هو تشكيكه لعلاقة ثلاثية الأبعاد بين المسافر الإنجليزي (نفسه)، والسكان المحليين، والحيوانات البرية. ويقدم هذا النهج رؤية متعددة الجوانب للحياة في المغرب.

ومن الجوانب اللافتة في سرد جون دارموند هاي **John Drummond Hay** توظيفه الواسع للروايات المضمّنة. فقد منح الأصوات المحلية حيزاً كبيراً، يشكل ما يزيد على 36% من النص، لسرد تجاربهم الخاصة مع الحياة البرية. ويضفي هذا الأسلوب حيوية وواقعية على وصف اللقاءات مع الحيوانات، لا سيما حين يأتي السرد مباشرة من أولئك الذين عاشوا هذه التجارب¹.

وبهذا الأسلوب السردية، يقدم هاي تصويراً متكاملًا للحياة البرية المغربية، يجمع بين رؤيته كمسافر إنجليزي ورؤى السكان المحليين. ويخلق هذا النهج صورة ثرية ومتعددة الأبعاد للتفاعل

¹ **Khalid** Chaouch, « Meet a Lion in the Atlas Mountains: 19th century Moroccan Fauna in John Drummond Hay's *Western Barbary* (1844) », *Caliban*, 59 | 2018, Accessed August, 24, 2024, 8: 00 PM from <https://journals.openedition.org/caliban/4114?lang=fr>

بين الإنسان والحيوان في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مقدماً للقارئ نظرة عميقة على الثقافة والبيئة المغربية في تلك الحقبة¹.

ثانيا : رجال الدين والأسرى:

1 سيمون أوكلي Ockley Simon:

في مدينة إكستر Exeter الإنجليزية، ولد المستشرق البريطاني سيمون أوكلي Ockley Simon عام 1678م، وقدم إسهامات في مجال الدراسات العربية والإسلامية. بدأت مسيرته الأكاديمية في سن مبكرة، حيث التحق بكلية الملكة في جامعة كامبريدج Cambridge وهو في الخامسة عشرة من عمره، متخصصاً في الدراسات الشرقية مع تركيز خاص على اللغة العربية.

ما لبث أن ظهرت كفاءته العلمية في هذا المجال، إذ عُين مدرساً للغة العربية في الكلية نفسها بعد عامين فقط من التحاقه بها. وفي عام 1701م، توسعت مجالات عمله الأكاديمي والمهني، حيث بدأ مسيرته الكنسية كمساعد قسيس في كنيسة سوافسي Swavesey، ليتولى منصب راعي الكنيسة فيها بعد أربع سنوات من تعيينه².

ومع تعمق خبرته اللغوية والمعرفية بالثقافة العربية والإسلامية، امتد نشاط سيمون أوكلي Simon Ockley إلى المجال الدبلوماسي. ففي عام 1714م، كُلف بمهمة دبلوماسية مهمة

¹ Khalid Chaouch, « Meet a Lion in the Atlas Mountains: 19th century Moroccan Fauna in John Drummond Hay's *Western Barbary* (1844) », *Caliban*, 59 | 2018, Accessed August, 24,2024, 8:00 PM from <https://journals.openedition.org/caliban/4114?lang=fr>

² Sidney lee, *Dictionary of National Biography*, vol 41 , Smith Elder and Co , London, 1895, p 362.

تمثلت في ترجمة المراسلات والوثائق الرسمية الواردة من المغرب، مما أسهم بشكل محوري في إبرام معاهدة دبلوماسية بين بريطانيا والمغرب في جويلية من العام نفسه¹.

شكلت المهمة الدبلوماسية في المغرب نقطة تحول في مسيرة سيمون أوكلي Ockley Simon العلمية والمهنية. فإلى جانب دوره في الترجمة الدبلوماسية، استثمر سيمون أوكلي تجربته في المنطقة لتأليف كتاب توثيقي مهم بعنوان:

"An Account of South-West Barbary; Containing What is most Remarkable in the Territories of the King of Fez and Morocco"

سرد تفصيلي عن جنوب غرب بلاد البربر؛ متضمنة أبرز ما يميز أراضي ملك فاس والمغرب

يكشف المؤرخ الفرنسي رولان لوبيل Roland Lebel جانباً مهماً في منهجية سيمون أوكلي Simon Ockley، حيث يشير إلى اعتماد الأخير في كتابه على مخطوط مجهول المصدر، كتبه أحد الأسرى الذين قضوا فترة طويلة في الأسر بالمغرب. هذا الاكتشاف يضيف بُعداً منهجياً جديداً على عمل أوكلي، إذ جمع بين المعرفة الأكاديمية والشهادات الميدانية المباشرة.

تمحورت أهداف الكتاب حول محورين رئيسيين: الأول، توثيق أوضاع الأسرى المسيحيين في البلاد الإسلامية، والثاني، تقديم دراسة توثيقية شاملة عن المغرب ومجتمعه. وقد عكست هذه الأهداف الجمع بين خبرة أوكلي اللغوية في العربية وخلفيته الدينية². ويؤكد أهمية هذا العمل ترجمته إلى الفرنسية عام 1726م بعنوان:

"Relation des états des Fez et de Maroc"

¹ الشيخ لكل، المرجع السابق، ص 246.

² Khalid chaouch, British travellers to Morocco and their accounts, from mid-16th to mid 20th centuries, op.cit , p 10.

مما يشير إلى الاهتمام الأوروبي المتزايد بفهم المنطقة¹.

قدم سيمون أوكلي Simon Ockley في كتابه وصفاً تفصيلياً للمدن المغربية من الشمال إلى الجنوب. فوثق حالة الإهمال في طنجة بعد الانسحاب الإنجليزي، وأبدى ملاحظاته حول ضيق شوارع سلا، ووصف مراكش بأنها "فوضى عمرانية"، في حين أفرد مساحة واسعة لوصف القصر الملكي في مكناس وعمارته المتميزة.

تميز أسلوب أوكلي بالاعتدال في التقييم، وظهر ذلك جلياً في وصفه لمدينة فاس، حيث نقد المبالغات في وصف عدد مساجدها. كما أولى اهتماماً خاصاً بالجوانب الاقتصادية، موثقاً الصناعات المحلية في المدن المغربية: صناعة الفخار في فاس، والجلود في مراكش، والنسيج الصوفي في مكناس².

يمثل وصف أوكلي للسلطان مولاي إسماعيل وأوضاع الأسرى المسيحيين الجانب الأكثر إثارة للجدل في الكتاب. فقد صور السلطان كحاكم استبدادي، ووثق معاناة الأسرى المسيحيين وظروف عملهم. وينبغي فهم هذا الوصف ضمن سياقه التاريخي والثقافي، مع الأخذ في الاعتبار خلفية أوكلي كمستشرق وعالم دين إنجليزي في مطلع القرن الثامن عشر³.

وختاماً، يمثل كتاب " سرد تفصيلي عن جنوب غرب بلاد البربر " وثيقة تاريخية مهمة لدراسة المجتمع المغربي خلال عهد السلطان مولاي إسماعيل. ويستمد الكتاب قيمته من الجمع

¹ المصدر الفرنسي :

Simon Okley, Relation des etats de fez et de Moroc, traduite de l'Anglais, Chez david Mortier, Libraire, A Amsterdam, 1726.

² Roland Lebel, Le Maroc Chez Les Auteurs Anglais du XVIe Au XIXe Siècle, Larose-Paris, 1939, pp 85-86.

³ Ibid, p 87.

الفريد بين الخبرة اللغوية والأكاديمية لأوكلي، وخلفيته الدينية، ومهمته الدبلوماسية، مقدماً بذلك رؤية متعددة الأبعاد للمغرب في بداية القرن الثامن عشر.

2 توماس بيلو Thomas Pellow :

وُلد توماس بيلو Thomas Pellow عام 1704م في ميناء بنرين Penryn بمقاطعة كورنوال Cornouailles البريطانية¹. وفي عام 1715م، إبان حكم الملك جورج الأول، كان توماس بيلو Thomas Pellow ، البالغ من العمر آنذاك إحدى عشرة سنة، يتلقى تعليمه في المدرسة اللاتينية ببنرين Penryn . وفي تلك الفترة، كان عمه جون بيلو John Pellow ، قائد سفينة فرانسيس Francis ، يستعد للإبحار إلى جنوة. فتوصل توماس إلى عمه أن يقنع والديه بالسماح له بمرافقته في الرحلة. وقد رفض الوالدان في البداية، خشية وقوع ابنهما في أسر المغاربة نظراً لصغر سنه. غير أن العم نجح في النهاية في استمالتهما.

ارتدى توماس بيلو Thomas Pellow زيه البحري²، وودع أصدقاءه، متأهباً لخوض تجربته الأولى بحاراً على متن سفينة كبيرة. وبعد وصولهم إلى جنوة وشحن البضائع، شرعوا في رحلتهم³. وعند بلوغهم رأس فينيستر Cap Finisterre ، وقعوا في قبضة قراصنة سلا. ففي اليوم الأول، أُسر القائد فوستر Foster من توبهام Topham . وفي اليوم التالي، وقع القائد فيريس Ferris من لندن في الأسر، رغم قوة سفينته المجهزة بعشرين رجلاً وثمانين بندقية. فبعد

¹ إدريس أبوا دريس، " وصف بعثة سلطانية إلى الصحراء المغربية في القرن الثامن عشر للانجليزي توماس بيلو T.Pellow ، " مكناسة ، العدد 13، المغرب، 1999، ص 93.

² Thomas pellow, The History of the long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in south Barbary, the second Edition, Printed for R.Goadby, London,1740, p5.

³ Ibid, p 6.

مقاومة استمرت عشر ساعات وأسفرت عن سقوط عدد من القتلى المغاربة، جرى الاستيلاء على السفينة وأسر بحارتها.

احتجز توماس بيلو **Thomas Pellow** مع ثلاثة آخرين على متن سفينة تابعة للحاج عبد الرحمان المديوني، أميرال سلا. في حين سُجن عمه وثلاثة رجال آخرون في سفينة تابعة لشخص يُدعى علي حاكم¹.

ولدى وصول توماس بيلو **Thomas Pellow** إلى المغرب عام 1716م، سُلّم إلى مولاي صفا **Mulay Spha** ، أحد أبناء السلطان المقربين، المعروف بقسوته تجاه الأسرى الأوروبيين. وقد أبدى بيلو في البداية مقاومة لاعتناق الإسلام، مما عرّضه لسلسلة من العقوبات الشديدة. وفي نهاية المطاف، رضخ لضغوط مولاي صفا واعتنق الإسلام. فخضع للختان، وشرع في تعلم اللغة العربية وتبني العادات الإسلامية والمغربية، بما في ذلك ارتداء اللباس المغربي². وكانت هذه التجربة القاسية بداية لمسيرة طويلة من التكيف والتحول في حياة توماس بيلو **Thomas Pellow** داخل المجتمع المغربي.

أمضى توماس بيلو **Thomas Pellow** فترة طويلة من حياته في المغرب، متحولاً من أسير حرب إلى جندي في جيش السلطان مولاي إسماعيل بعد اعتناقه الإسلام. وفي عام 1721م، تزوج من امرأة مغربية من منطقة تامسنا، مما وطّد صلته بالمجتمع المحلي. وخلال خدمته العسكرية، شارك في عدة حملات عسكرية أتاحت له فرصة استكشاف مناطق شتى من

¹ Thomas Pellow, op.cit, p 7.

² Mamaoui Mnulay Lmustapha, " Inhabiting the liminal : Encounter with Otherness in the history of the long captivity and adventures of Thomas Pellow", **The Journy and history**, N°1, Akadir,2020, p 368.

المغرب. ولم يكن بيلو مجرد شاهد على الأحداث التاريخية في المغرب¹، بل كان مشاركاً فاعلاً فيها، إذ أدى دوراً محورياً في إنجاح السفارة الإنجليزية إلى المغرب عام 1721م².

وعلى الرغم من اعتناقه الإسلام، لم يذكر بيلو في مذكراته الاسم الإسلامي الذي أطلق عليه³، مما يثير تساؤلات عن هويته الثقافية المركبة وقدرته على التنقل بين الثقافتين.

حاول توماس بيلو Thomas Pellow الفرار عدة مرات خلال فترة أسره دون جدوى⁴. غير أنه بعد زواجه وإنجاب له ابنة، بدأ في التكيف مع حياته في المغرب. إلا أن وفاة زوجته وابنته أحييت من جديد رغبته في الفرار⁵. وفي جويلية 1738م، نجح أخيراً في الهروب من المغرب⁶، مستفيداً من حالة الاضطراب السياسي في مملكة فاس⁷. وعاد إلى وطنه في 15 أكتوبر 1738م.

وبعد عودته بعامين، وبمعاونة محرر محلي، دوّن توماس بيلو Thomas Pellow تجاربه في كتاب نُشر في لندن بعنوان "تاريخ الأسر الطويل ومغامرات توماس بيلو في جنوب البربر"⁸

البربر⁸

The History of the Long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in South Barbary

¹ Roland Lebel, op.cit, p 91.

² إدريس أبوا دريس، المرجع السابق، ص 93.

³ نفسه.

⁴ Khalid chaouch, British Travellers to Morocco and their Accounts,...op.cit , p 12.

⁵ Roland Lebel, op.cit, p 94.

⁶ Mark celinscak, Captivity and Encounter ; Thomas pellow, The Moroccan Renegade, p2. Accessed 18/07/2023/ 13:25 PM, From <file:///C:/Users/USER/Downloads/titusland,+MarkCelinscak.pdf>

⁷ Ronald Lebel, op.cit, pp 94-95.

⁸ Mark celinscak, op.cit, pp 2-3.

وقد نُشرت المذكرات الأصلية في الفترة بين عامي 1743م و1745م. وفي عام 1983م، قدمت الباحثة مالكي مورسي ترجمة فرنسية محققة لهذه المذكرات كجزء من أطروحة دكتوراه الدولة في جامعة نيس عام 1976م¹.

يتسم كتاب بيلو بالدقة والشمولية في تقديم المعلومات الجغرافية والتاريخية عن المغرب. فهو يتضمن تفاصيل دقيقة لأسماء المواضع والمسارات، فضلاً عن معلومات عن الجيش المغربي وحملاته العسكرية في عهد السلطان مولاي إسماعيل. كما يلقي الضوء على المؤامرات السياسية، مما يتيح رؤية معمقة للتحويلات السياسية والعسكرية في المغرب إبان تلك الحقبة.

يتميز كتاب توماس بيلو Thomas Pellow باحتوائه على ثروة من المعطيات اللغوية والجغرافية والتاريخية والأنثروبولوجية. وتكتسب هذه المعلومات أهمية خاصة لندرة وجودها في مصادر أخرى²، مما يجعل الكتاب مرجعاً مهماً للباحثين في مختلف المجالات، إذ يقدم رؤية شاملة ومتعمقة للمجتمع المغربي في القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد أتاحت إقامة بيلو في المغرب التي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، واعتناقه الظاهري للإسلام، فرصة لمعايشة المجتمع المغربي عن كثب. فقد مكّنه هذا الوضع من رصد وتوثيق الظواهر الاجتماعية والثقافية بعمق، وفهم طبائع السكان وأمزجتهم. وقد أثرى هذه التجربة عمله في القصر السلطاني على مقربة من السلطان، ومشاركته اللاحقة في الحملات العسكرية.

ومما يميز هذا المصدر التزام مؤلفه بتدوين ما شهده بنفسه حصراً، متجنباً تسجيل الأحداث التي لم يعاينها شخصياً. ووفقاً لتقييم الباحثين الذين درسوا المخطوطة، يُعد هذا العمل من أبرز

¹ إدريس أبوا دريس، المرجع السابق، ص 93.

² Nordman Daniel, " La mémoire d'un Captif " , **In Annales Economies Sociétés Civilisations**, 41 Année, N°6, 1986, p 1398.

المصادر التاريخية في عصره، إذ يقدم للقراء مادة علمية قيمة تجمع بين الدقة التوثيقية والقيمة المعرفية¹.

3 إيلزابيث مارش Elizabeth Marsh :

امرأة إنجليزية وجدت نفسها في رحلة مصيرية عقب سقوط جزيرة منورقة في أيدي الفرنسيين. غادرت إلى جبل طارق، ومن هناك استقلت السفينة التجارية "آن" في 28 جويلية 1756م، أملاً في الوصول إلى خطيبها في إنجلترا. كانت المرأة الوحيدة بين أربعة عشر من البحارة والركاب.

في 8 أوت 1756م، اعترضت سفينة قرصنة مغربية طريقهم، وكانت مجهزة بعشرين مدفعاً ومئة وثلاثين بحاراً. اقتيد الجميع إلى مدينة سلا، في حين تخلت عنهم سفينة حربية من غوسبورث Gosport كان من المفترض أن تؤمّن رحلتهم. وبعد احتجازهم لفترة قصيرة في سلا، نُقل الأسرى إلى مراكش لمقابلة السلطان.

وفي مراكش، لجأت إيلزابيث مارش Elizabeth Marsh إلى حيلة ذكية للحفاظ على نفسها، إذ تظاهرت بأنها زوجة التاجر اللندني جيمس كريسب James Crisp ، قبطان السفينة. وحين مثّلوا أمام ولي العهد المغربي السلطان سيدي محمد، كشف لهم أن أسرهم كان رداً على إهانة سابقة من القبطان الإنجليزي هايد باركر Hyde Parker².

أبدى السلطان اهتماماً خاصاً بمارش، محاولاً ضمها إلى قصره. حاولت إحدى الزوجات الملكيات - وهي ابنة مرتد إنجليزي - إقناع إيلزابيث مارش Elizabeth Marsh باعتناق

¹ Thomas Pellow, op.cit, p 3.

² Khalid Bekkaoui, White Women Captives in North Africa Narratives of Enslavement 1735-1830 , First Publish, Palgrave Macmillan, The United kingdom, 2010, p 121.

الإسلام، مما أدى إلى اعتبارها "مغربية" دون علمها. وعندما رفضت مارش الاستجابة لهذه المحاولات المتكررة لإقناعها باعتماد الإسلام والانضمام إلى القصر، تحول الموقف إلى تهديد مباشر¹.

واجهت مارش حينها خياراً صعباً: إما الخضوع لرغبة السلطان باعتماد الإسلام والبقاء في القصر، أو مواجهة الموت. وبشجاعة لافتة، اختارت الموت على التخلي عن معتقداتها. وأمام إصرارها وثباتها، تراجع السلطان وقرر منحها حريتها، مشروطاً موافقة بريطانيا على استئناف مفاوضات السلام مع المغرب.

عادت إليزابيث مارش Elizabeth Marsh إلى وطنها بعد أربعة أشهر من الأسر في المغرب عام 1756م، حاملة معها تجربة فريدة دونتها في يومياتها. كانت مدركة لاهتمام المجتمع البريطاني بقصص الأسر في الدول المغاربية، لكن المخاوف المتعلقة بسمعتها منعها من نشر قصتها مباشرة. فعند عودتها إلى بريطانيا، واجهت تحديات اجتماعية كبيرة تمثلت في شكوك المجتمع حول عفيتها وثبات عقيدتها، مما دفعها للتعبير عن مرارة موقفها بقولها: "إن المحن التي واجهتها في بلاد البربر هانت أمام معاناتي في هذه الأرض المتحضرة"².

تكتسب تجربة مارش أهمية خاصة من خلال زواجها السوري من التاجر البريطاني جيمس كريسب James Crisp أثناء الأسر كوسيلة للحماية، والذي تحول لاحقاً إلى زواج حقيقي بعد فسخ خطوبتها السابقة. ويعكس هذا التحول المعقد أساليب النجاة التي ابتكرتها النساء في ظروف الأسر الاستثنائية³.

¹ Khalid Bekkaoui, op.cit, p 121.

² Ibid, pp 121-122.

³ Ibid, p 309.

تأخر نشر مذكراتها ثلاثة عشر عاماً، حتى دفعتها الظروف المعيشية الصعبة للنشر عام 1769م. فبعد سفر زوجها إلى الهند بحثاً عن فرص عمل، وجدت نفسها وحيدة مع والديها في تشاتام Chatham . نشرت كتابها بعنوان :

" The Female Captive: A Narrative of Facts, Which Happened in Barbary in the Years 1756

" الأسيرة: سرد وقائع حدثت في بلاد البربر عام 1756"، لكن بعد إجراء تعديلات أساسية شملت حذف أسماء الشخصيات الرئيسة وإخفاء التواريخ لحماية هويتها. ورغم نشرها المذكرات دون ذكر اسمها، انتشرت الإشاعات سريعاً، مؤكدة الاهتمام المجتمعي بروايتها¹.

تُحفظ هذه المذكرات، التي تُعد وثيقة تاريخية مهمة في دراسات الأسر خلال القرن الثامن عشر، في مكتبة تشارلز إي يونغ Charles E. Young للأبحاث بجامعة كاليفورنيا California ، لوس أنجلوس Los Angeles . وتكتسب المخطوطة قيمة تاريخية مهمة من خلال سياقها التاريخي، وخاصة ارتباطها بحرب السنوات السبع 1756م، مع توثيق إقامة مارش في مينوركا وظروف رحلتها. وقد خضعت المخطوطة لتحقيق علمي دقيق، ركز على الرواية الأساسية مع استبعاد القسم المتعلق برحلاتها اللاحقة في الهند (1774-1776م)².

¹ Khalid Bekkaoui, op.cit, p 122.

² Mario Klarer, *Barbarary Captive , An Anthology of Early Modern Slave Memoirs by Europeans in North Africa*, Columbia University Press, NewYork, 2022, p 310.

4 ماريا مرتين Maria Martin:

امراة إنجليزية الأصل، ولدت سنة 1779م، تنحدر من عائلة غنية ومحترمة في بلادها، وفي سنة 1797م تزوجت ماريا من الكابتن هنري مارتين **Henry Martin**، قائد إحدى السفن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية **The East India Company**، كانت ماريا مرتين **Maria Martin** شغوفة بالسفر حول العالم. وفي 20 جوان 1800م، طلبت من زوجها مرافقته في رحلته إلى مينوركا **Minorca**، فوافق وأبحروا على متن سفينة تدعى يونيكورن **Unicorn** برفقة " 100 شخص " ¹.

في 14 أوت 1800م، تعرضت السفينة لعاصفة عاتية أدت إلى انحرافها وتحطمها على الساحل الجزائري ². تروي ماريا مارتين **Maria Martin** في مذكراتها أنها وزوجها والناجين الآخرين كادوا يهلكون جوعاً وعطشاً لولا لقاءهم برجال في الغابة. تصف ماريا مرتين **Maria Martin** اللقاء قائلة: "عندما رأونا، اقتربوا وتحدثوا بلغة لم نفهمها. حاول زوجي التواصل بالإنجليزية والفرنسية دون جدوى، ثم حاول رفيقه باللغة الإسبانية أيضاً بلا نتيجة. أخيراً، نجح أحد البحارة، الذي كان أسيراً سابقاً لدى الجزائريين، في التواصل باللغة المورسكية. فهم بعضهم كلامنا وأخبرونا أننا أصبحنا أسرى لديهم". استفسر زوج ماريا عن موقعهم، فأجابوا: "أنتم في بلاد البربر، على بعد 30 ميلاً من تنس و90 ميلاً من مدينة الجزائر" ³. رغم إنقاذ هؤلاء الرجال لهم من الموت المحقق، إلا أن هذا كان بداية لسنوات من الأسر والمعاناة. تم فصل ماريا

¹ Maria Martin , History of The Captivity and Sufferings of Maria, Who was six years a slave in Algiers, Printed for W.crary , Boston, 1807, p 41.

² Ibid, p 42.

³ Ibid, p 46.

مرتين **Maria Martin** عن زوجها وعرضها للبيع في السوق، حيث قام حوالي 100 شخص بتفحصها¹.

كان بيع الأسرى في أسواق النخاسة ممارسة شائعة عالمياً آنذاك، وليس في الجزائر فحسب. بعد عرضها في السوق، اشترى ماريا مرتين **Maria Martin** رجل تركي، حيث عملت كخادمة في منزله، راعيةً لابنه². وفقاً لما سردته ماريا في كتابها، انتقلت لاحقاً إلى ظروف معيشية بالغة الصعوبة³. استمرت محنتها حتى وصلت أخبارها إلى القنصل البريطاني، الذي تدخل لدى الباي طالباً إطلاق سراحها. رغم الرفض الأولي من الباي، إلا أنه في النهاية استجاب للطلب⁴. بعد استعادة حريتها، عادت ماريا إلى وطنها لتوثق تجربتها المريرة فيما أطلقت عليه "بربريا". وبعد مرور ستة أشهر على عودتها إلى إنجلترا، تمكن زوجها أيضاً من نيل حريته بفضل الجهود الحثيثة للقنصل البريطاني، ليلتحق بها في الوطن⁵. استغرق الأمر ست سنوات منذ بداية أسر ماريا مرتين **Maria Martin** في الجزائر وحتى عودتها النهائية إلى بلدها. وبعد هذه المدة، أصدرت كتابها الذي يحمل عنوان "تاريخ أسر ومعاناة السيدة ماريا مارتين".

History of The Captivity and Sufferings of Mrs Maria Martin

الذي نشرته سنة 1807م. قسمت الكتاب إلى جزأين: الأول يقدم وصفاً شاملاً للجزائر، متناولة تركيبتها السكانية ونظام حكمها وقوتها العسكرية. يظهر في هذا الجزء تحيزها ضد السكان المحليين والحكم العثماني، خاصة عند حديثها عن الأخوين بربروس.

¹ Maria Martin, op.cit, pp 47-48.

² Ibid, p 48.

³ Ibid, p 56.

⁴ Ibid, pp 70-71.

⁵ Ibid, p 72.

عند تناولها الوجود العثماني في الجزائر، تصف ماريا مرتين **Maria Martin** الأخوين بربروسا ورؤساء البحر المسلمين بـ "المرعبين" وتنعت أعمالهم بـ "القسوة والتدمير". وتدّعي أن الأخوين بربروسا " اغتالا سرّاً الملك الذي جاء لمساعدتهما " أثناء محاولته الفرار¹.

تتناول ماريا تولي خير الدين (1518-1546)، شقيق عروج بربروسا، عرش الجزائر، واصفة استمراره في عمليات القرصنة البحرية وتوسيع فتوحاته في الدول المغاربية. وتشير إلى إدراكه تردد المغاربة والعرب في الخضوع لحكمه، مما دفعه إلى اتخاذ قرار وضع الجزائر تحت الحماية العثمانية عام 1520م².

في استكمالها للأحداث التاريخية، تتناول ماريا مرتين **Maria Martin** حملة شارل الخامس **Charles V** على الجزائر عام 1541، مبرزة دور تنبؤات المرابطين (علماء الدين وأصحاب الزوايا) في تعزيز صمود السكان³. كما تتطرق إلى فترة الاحتلال الإسباني لوهران (1509-1792) وحملة الكونت أوريلي **O'Reilly** الإسبانية عام 1775، التي انتهت بالفشل بسبب المقاومة الجزائرية⁴.

تلقت ماريا مرتين **Maria Martin** الانتباه إلى المواجهة بين الولايات المتحدة الأمريكية ورؤساء البحر الجزائريين (1785-1815)، موضحة استغلالهم لضعف القوة البحرية الأمريكية في البحر المتوسط آنذاك. وتقارن ذلك بقدرة الدول الأوروبية على حماية تجارتها عبر أساطيلها البحرية القوية⁵.

¹ Maria Martin, op.cit, p 17.

² Ibid, 18.

³ Ibid, pp 21-22.

⁴ Ibid, p33.

⁵ Ibid, p 37.

تختتم الجزء الأول بلمحة اقتصادية عن الجزائر، مستعرضة أهم صادراتها (القمح، الزيتون، الجلود، الصوف) ووارداتها (الأقمشة، المعادن، الأخشاب)، راسمة بذلك صورة شاملة للحياة الاقتصادية والسياسية في تلك الحقبة¹.

في الجزء الثاني من الكتاب، تقدم ماريا مرتين **Maria Martin** سرداً ذاتياً، مصورة رحلتها منذ لحظة قرار السفر حتى تحررها وعودتها إلى إنجلترا. وتمزج بين تجربتها الشخصية والملاحظات الثقافية، واصفة عادات وتقاليد سكان تنس وحياتهم اليومية. هذا المزيج بين السرد الشخصي والتحليل الثقافي يجعل من كتابها وثيقة تاريخية قيمة، رغم التحيز الواضح في بعض مواقفها تجاه السكان المحليين والحكم العثماني.

5 جوناثان كوردي Jonthan Cowdery:

ولد جوناثان كوردي **Jonthan Cowdery** في جانفي عام 1768م في مدينة ساندزفيلد **Sandsfield** بمقاطعة بيركشاير **Berkshire** في جنوب شرق إنجلترا. تزوج في سن الثانية والعشرين خلال فترة دراسته للطب. وبعد إتمام دراسته الطبية، مارس مهنة الطب في عدة مقاطعات، مما أكسبه خبرة مهنية مهدت لمسيرته المستقبلية في البحرية الأمريكية².

في مطلع القرن التاسع عشر تحولاً مهماً في مساره المهني، إذ عُيِّن في الأول من جانفي عام 1800م في منصب مساعد طبيب بالبحرية الأمريكية. تمثلت مهمته الأولى في الخدمة على متن الفرقاطة الحربية "فيلادلفيا" **Philadelphia** تحت قيادة القبطان ديكاتور، حيث شاركت في العمليات العسكرية ضد فرنسا في منطقة جزر الهند الغربية.

¹ Maria Martin, op.cit, p 40.

² جوناثان كوردي، يوميات الطبيب جوناثان كوردي في قلعة طرابلس الغرب 1803-1805، تر وت عبد الكريم أبو شويرب، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، طرابلس، 1982، ص 19.

وبعد ثلاث سنوات من خدمته على متن "فيلادلفيا"، وجد جوناثان كودري **Jonthan Cowdery** نفسه في خضم نزاع دولي جديد. ففي 18 جوان 1803م، أبحرت الفرقاطة متجهة إلى البحر المتوسط لتعزيز القوة البحرية الأمريكية في حربها ضد القوى البحرية في الدول المغاربية. وصلت السفينة إلى جبل طارق في 24 أوت 1803م، حيث تلقت أوامرها بالمشاركة في حصار مدينة طرابلس¹.

غير أن الأحداث شهدت تحولاً حاسماً في 30 أكتوبر 1803م، حين وقعت الفرقاطة "فيلادلفيا" في الأسر من قبل القوات البحرية الليبية قرب ميناء طرابلس. وكان على متنها 308 من الضباط والبحارة، من بينهم الطبيب جوناثان كودري **Jonthan Cowdery**. شكّل هذا الحدث نقطة تحول محورية في حياة جوناثان كودري **Jonthan Cowdery** المهنية، إذ وجد نفسه في موقف استثنائي كأسير حرب².

حظي جوناثان كودري **Jonthan Cowdery** بوضع متميز بين الأسرى في قلعة طرابلس بحكم مهنته كطبيب. إذ منح امتيازات خاصة سمحت له بقدر من حرية الحركة داخل القلعة، مما أتاح له تقديم العناية الطبية للأسرى الآخرين، ومراقبة الحياة اليومية داخل القلعة وخارجها³.

أتاح موقعه المتميز في القلعة فرصة لرصد الأحداث الجارية، فكان بإمكانه متابعة حركة السفن في الميناء، وجمع معلومات عن التحركات العسكرية من خلال تواصله مع الحاشية والحراس. كما وسع نطاق خدماته الطبية ليشمل عائلات المسؤولين والقادة البحريين الليبيين،

¹ جوناثان كودري، المصدر السابق، ص 20.

² نفسه.

³ Jonthan Cowdery, American Captives in Tripoli Or, Dr Cowdery's Journal, Printed and Sold by Bzl chez Armstrong, Boston, 1806, p5.

مما عزز مكانته وجعله موضع ثقة، حتى أن باشا طرابلس نفسه طلب استشارته الطبية في مناسبات عدة.

استثمر جوناثان كودري Jonthan Cowdery حريته النسبية في دراسة مدينة طرابلس وتوثيقها، فتجول في أزقتها، وتعرف على عمارتها ومنازلها، ورصد أسواقها ومقاهيها. كما وثق المظاهر الاجتماعية والدينية خلال شهر رمضان والأعياد، مسجلاً ملاحظاته بدقة في مذكراته اليومية.

انتهت فترة أسر جوناثان كودري Jonthan Cowdery وزملائه في 5 جوان 1805م، بعد تسعة عشر شهراً. وفي العام التالي¹، نشر مذكراته في بوسطن

بعنوان :

"American Captives in Tripoli, Or, Dr. Cowdery's Journal in Miniature Kept During His Late Captivity in Tripoli"

الأسرى الأمريكيون في طرابلس، أو يوميات الدكتور كودري المختصرة خلال أسره الأخير في طرابلس

سعى كودري من خلال يومياته إلى تحقيق عدة أهداف: أولاً، توثيق ظروف الأسر والمعاناة اليومية للأسرى الأمريكيين. ثانياً، تسجيل الحالات المرضية التي عالجها، مما يقدم سجلاً طبياً مهماً عن الأوضاع الصحية في ظروف الأسر. ثالثاً، رصد العمليات العسكرية التي شهدتها أو سمع عنها، مضيفاً بذلك بُعداً استراتيجياً لمذكراته. وبهذا النهج الشامل، قدم كودري وثيقة تاريخية تجمع بين الأبعاد الإنسانية والطبية والعسكرية لتجربة الأسر في طرابلس.

¹ جوناثان كودري، المصدر السابق، ص 14.

6 السيدة اليزا برادلي Mr.s Eliza Bradley :

إمرأة انجليزية الأصل، ولدت في ليفربول Liverpool بإنجلترا لأبوين ذوي سمعة طيبة في عام 1783م، وفي عام 1802م، في سن التاسعة عشرة، تزوجت من الكابتن جيمس برادلي James Bradley¹، في ماي عام 1818م، انطلقت السفينة "سالي" Sally من ميناء ليفربول Liverpool، حاملةً على متنها السيدة إليزا برادلي Eliza Bradley ، التي تبلغ من العمر الثلاثين ، برفقة زوجها الكابتن جيمس برادلي. كانت إليزا المرأة الوحيدة وسط بحر من الرجال، متجهين نحو جزيرة تينيريفي Tenerife في رحلة لم تكن تعلم أنها ستغير مجرى حياتها.

بعد ستة أسابيع من الإبحار، تحول مسار الرحلة بشكل مأساوي حين تحطمت السفينة على الساحل المغربي الجنوبي في خضم اضطرابات بحرية عاتية. نجا الركاب من نوائب البحر، لكن القدر كان يخبئ لهم تحدياً آخر، إذ سرعان ما وقعوا في قبضة البدو الرحل الذين حولهم إلى أسرى.

فُصلت إليزا برادلي Eliza Bradley عن زوجها وأصبحت في ملكية شخص مغربي وصفته في مذكراتها بالقسوة الشديدة. نُقلت على ظهر جمل في رحلة شاقة عبر الصحراء إلى قبيلة سيدها (أنظر الى الملحق رقم 04).

تميزت حياة إليزا برادلي Eliza Bradley في المخيم بظروف غير متوقعة، إذ خُصصت لها خيمة منفردة، ومُنحت قدراً من حرية الحركة، وُسِّمَح لها بقراءة الإنجيل. اشتملت مهامها

¹ Eliza Bradley, *An Authentic Narrative of The ship Wreck and Sufferings of Mrs. Eliza Bradley, The Wife of Capt. James Bradley of liverpool Commander of The ship Sally, Which was Wrecked on The Coast of Barbary in June 1818, Printed by James Walden, Boston, 1820, p 5.*

اليومية على رعاية الإبل وحلبها وجمع الأصناف البحرية. ورغم معاملة بعض النساء القاسية لها، وجدت عند أخريات تعاطفاً وصداقة.

تغير وضع إليزا برادلي **Eliza Bradley** حين علم القنصل البريطاني في الصويرة، ويليام ويلشاير **William Willshire**، بمحناتها، فنجح في تحريرها وجمع شملها بزوجها الذي كان قد تحرر قبلها.

ومن المثير للاهتمام في تجربة إليزا برادلي **Eliza Bradley** أنها اعتبرت أسرها نجاة من مصير أسوأ، إذ رأت أن الأسر حال دون هلاكها ورفاقها عطشاً وإجهاداً في الصحراء. وأكدت أن هذه المحنة عمقت إيمانها وكانت سبباً في تقوية إيمان آخرين، حتى صرحت بقولها: "كان من حسن حظنا المرور بهذه التجربة"¹.

وثقت إليزا برادلي **Eliza Bradley** تجربتها في كتاب عنوانه : "حكاية حقيقية عن تحطم سفينة ومعاناة السيدة إليزا برادلي، زوجة الكابتن جيمس برادلي من ليفربول، قائد سفينة سالي التي تحطمت على الساحل المغربي في جوان 1818".

An Authentic Narrative of The ship Wreck and Sufferings of Mrs. Eliza Bradley, The Wife of Capt. James Bradley of liverpool Commander of The ship Sally, Which was Wrecked on The Coast of Barbary in June 1818.

صدر الكتاب أول مرة عام 1820م، وحظي بنجاح لافت، إذ أصدر سبعة ناشرين مختلفين في الولايات المتحدة اثني عشر طبعة منه حتى عام 1848م. واستُخدم الكتاب في مدارس

¹ Khalid Bekkoui, op.cit, p 206

الأحد¹ كنص تعليمي، وظل شاهداً على تجربة استثنائية حولتها صاحبها إلى درس في الصبر والإيمان².

ثالثاً : الرحالة

1 - توماس شه Thomas Shaw :

هو عالمٌ إنجليزي، عاش حوالي ستين سنة، وُلِدَ سنة 1692م بكندال Kendall في إنجلترا، وتوفي فيها سنة 1751م³. كان من أشهر رحّالي إنجلترا، قام بزيارة إلى الجزائر وتونس و طرابلس والمغرب في القرن الثامن عشر الميلادي. درس في جامعة أكسفورد، حيث تعلم اللغات القديمة والحديثة المختلفة (اليونانية، واللاتينية، والعربية، والعبرية).

¹ مدارس الأحد : تعد مدارس الأحد في ويلز من أهم المؤسسات التعليمية الدينية التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر، وتحديدًا عام 1798م مع بدء حملة جمع التبرعات لإنشائها. كان التأسيس الرسمي الأول لهذه المدارس في عام 1787م على يد مورغان جون ريس، الذي أنشأ أول مدرسة أحد في هينجويد بغلامورغانشاير، وكانت مرتبطة بالكنيسة المعمدانية. لعب القس توماس تشارلز من بالا دوراً محورياً في تطوير هذه المدارس، حيث لاحظ خلال عمله التبشيري انتشار الجهل الديني وضعف القدرة على قراءة الكتب الدينية. حققت هذه المدارس نجاحاً كبيراً، إذ وصل عددها خلال ثلاث سنوات فقط إلى 177 مدرسة تضم أكثر من 8000 طالب. كان الهدف الرئيسي من هذه المدارس تعليم الكاثوليكية والبروتستانتية، ومحو الأمية الدينية بين السكان، وتوفير تعليم ديني منظم ومنهجي. تميزت هذه المدارس بنظام تعليمي مميز يعتمد على الاجتماعات المركزية والتجمعات الدورية، حيث كان الطلاب يجتمعون من مناطق متفرقة للمشاركة في الدروس والمناقشات الدينية . للاستزادة أنظر الى :

William Henry Watson, The First Fifty Years of Sunday School, Old Bailey, London, 1862, pp 60-61.

² Khalid Bekkoui, op.cit, p 206

³ فاتح بلعمري ، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال المصادر الرحالة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2016-2017، ص 80.

وفي عام 1720م، عُيِّنَ توماس شو Thomas Shaw كاهناً في الكنيسة الإنجليكانية، وفي السنة نفسها عُيِّنَ قسيساً للقنصلية البريطانية في الجزائر. كان لشاو اهتمام خاص بالآثار والتاريخ الطبيعي وعلم النبات وعلم الفلك¹.

يُعد توماس شو Thomas Shaw من أبرز المستكشفين الأوروبيين الذين جابوا أرجاء الدول المغاربية، حيث أمضى اثنتي عشرة سنة ثرية بالاكشافات والمشاهدات، امتدت بين عامي 1720م و1732م.

خلال رحلته في الجزائر، قام توماس شو Thomas Shaw برحلات استكشافية شاملة غطت مساحات واسعة من البلاد. في الغرب، وصل إلى جبال ترارة ومدينة وهران الساحلية، كما زار المناطق الساحلية المحاذية لوادي الشلف. وفي الجهة الشرقية، امتدت رحلاته إلى جبال جرجرة الشامخة، ثم واصل مسيره على طول الساحل حتى وصل إلى مدينة عنابة، منتهياً بحصن باستيون².

في عام 1727م، قام توماس شو Thomas Shaw برحلة علمية مهمة إلى تونس، امتدت لتشمل بعض بلدان المشرق. تميزت هذه الرحلات بمنهجية علمية دقيقة، حيث اتبع توماس شو Thomas Shaw أسلوباً منظماً في توثيق ملاحظاته وأبحاثه.

اعتمد توماس شو Thomas Shaw في دراساته الجغرافية على منهج علمي متكامل، جمع فيه بين دراسة الجغرافيا القديمة ورسم الخرائط وفق معطيات الطبيعة الواقعية، مع الأخذ بعين

¹ Bakhta Moukranta, "La Docteur Thomas Shaw et les Antiquités de l'ouest Algérien ", **Revue de connaissance pour la Recherche et les études historiques** , N° 19, alwadi, 2018, p 521.

² Nedjma Benachour, " Constantine de la Période Ottomane dans la Récits de Voyage de Léon l'Africain et Thomas Shaw", **in Revue de Sciences Humaines**, N° 29, Université Mantouri Constantine Algérie, 2008, p 29.

الاعتبار ما دونه المؤرخون المحدثون. كما تعمق في دراسة علم الآثار والكتابات القديمة **épigraphie**، مقدماً تحليلات واستنتاجات عميقة لكل موضوع تناوله.

تميزت دراساته المناخية بشموليتها، حيث ربط بين النباتات الطبيعية والإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية في المناطق التي زارها¹. وعُرف عنه دقته العلمية الصارمة ورفضه للخرافات والأساطير، معتبراً إياها غير جديرة بالبحث العلمي الجاد.

حرص توماس شو Thomas Shaw على التحقق من صحة كل ملاحظاته، مستعيناً بخبرات علماء جامعة أكسفورد وأعمال رجال الدين الفرنسيين. كان منهجه يتسم بالدقة والشمول، فلم يترك مجالاً للصدفة في أبحاثه، مما جعل أعماله مرجعاً علمياً موثقاً².

خلف توماس شو Thomas Shaw إراثاً علمياً قيماً تمثل في كتابه الشهير الذي نشره للمرة الأولى باللغة الإنجليزية في أكسفورد عام 1738م، بعنوان:

"Travels or Observation Relation to Several Parts of Barbary and the Levant"

رحلات أو ملاحظات تتعلق بأجزاء عديدة من البربر والشام.

أثار الكتاب جدلاً علمياً وتلقى انتقادات من معاصريه من الرحالة، مما دفعه إلى إعادة نشر نسخة منقحة وموسعة في عام 1746م بعنوان:

¹ حسان كشرود، "بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتين والدكتور توماس شو"، قضايا تاريخية، العدد 06، الجزائر، 2017، ص51.

² Nedjma Benachour, op.cit, p 29.

"A Supplement to Book entitled Travels, or Observations & C. Wherein Some Objections, lately Made Against it are fully Considered and Answered; With Several Additional Remarks and Dissertations"

في هذه الطبعة الجديدة، أجرى توماس شو Thomas Shaw تحسينات جوهرية على عمله، حيث أضاف فصولاً جديدة وملاحظات تكميلية وملاحق توضيحية، كما عزز محتوى الكتاب بقائمة موسعة من المراجع العلمية. ورغم هذه التحسينات والإضافات، استمر الجدل العلمي حول الكتاب، وواجه مجدداً انتقادات من رحالة عصره.

شهد كتاب توماس شو Thomas Shaw انتشاراً واسعاً عبر طبعات وترجمات متعددة. ففي عام 1757م، صدرت الطبعة الثانية في لندن، والتي راجعها توماس شو Thomas Shaw بنفسه قبل وفاته، لتليها طبعة ثالثة صدرت في إدنبورغ Edinburgh عام 1808م، مؤكدة الأهمية المستمرة لهذا العمل العلمي القيم.

تجلى الاهتمام العالمي بكتاب توماس شو Thomas Shaw من خلال ترجماته إلى عدة لغات أوروبية. فقد تُرجم إلى اللغة الفرنسية في عام 1743م، ثم إلى الألمانية عام 1765م، تلتها الترجمة الهولندية عام 1773م¹. كما قدم ماك كارثي Mac Carthy ترجمة فرنسية جديدة نُشرت في باريس عام 1830م²، مما يؤكد استمرار أهمية هذا العمل وقيمه العلمية على مر السنين.

ويُعد كتاب شاو مرجعاً أساسياً في أدب الرحلات، حيث اعتمد عليه العديد من الرحالة الإنجليز في رحلاتهم اللاحقة إلى الدول المغاربية. وتشكل كتاباته شهادة تاريخية مهمة على

¹ Zehor Zizi, op.cit, p p 22-23.

² فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص 80.

ريادة الإنجليز في استكشاف الدول المغاربية وتوثيق معالمها وجمالها، مما جعل مؤلفاته مصدراً قيماً للباحثين والمؤرخين المهتمين بتاريخ المنطقة وحضارتها¹.

وعلى الرغم من القيمة العلمية الكبيرة لأعمال توماس شو Thomas Shaw ، إلا أن دراساته شابها بعض القصور، خاصة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويرجع هذا القصور بشكل أساسي إلى نظريته المتحيزة تجاه العرب، والتي انعكست في نظريته السلبية لثقافتهم وحضارتهم.

كما يُلاحظ في رحلاته محدودية التطرق إلى الجوانب السياسية والإدارية في الدول المغاربية، وهو ما يمكن تفسيره بخلفيته العلمية والمهنية المزدوجة. فمن جهة، كان تكوينه العلمي قريباً من مجال الطب والعلوم الطبيعية، ومن جهة أخرى، كان لمنصبه كرجل دين تأثير في توجهاته وأولوياته البحثية.

هذا المزيج في شخصية توماس شو Thomas Shaw بين العالم الدقيق ورجل الدين الملتزم، انعكس بوضوح في كتاباته ومنهجه البحثي، حيث جمعت أعماله بين الدقة العلمية في الملاحظة والتوثيق، والالتزام الديني الذي أثر في رؤيته وتفسيراته للظواهر المختلفة التي صادفها خلال رحلاته².

¹ فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص 145.

² نفسه، ص 146.

2 جون وندوس John Windus:

في عام 1721م، أوفد الملك جورج الأول **George I** ملك إنجلترا بعثة دبلوماسية إلى المغرب برئاسة تشارلز ستوارت **Charles Stewart**. تمثلت مهمة البعثة في التفاوض مع السلطان المغربي بشأن تحرير الأسرى وعقد معاهدة سلام. وقد رافق البعثة المؤرخ جون وندوس **John Windus**، الذي دوّن تفاصيل هذه السفارة في مؤلف يكشف عن طبيعة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في تلك الحقبة.

وصل الوفد إلى تطوان في 6 ماي، حيث حظي باستقبال رسمي على الرغم من غياب الباشا في البداية. وقد أقيمت للوفد مضارب فاخرة وقُدمت لهم مآدب عامرة، مما يعكس تقاليد الضيافة المغربية وحرصهم على إكرام الوفد الإنجليزي.

عند عودة الباشا، استقبل الوفد استقبالا رسمياً ونُظم استعراض للفروسية. أبدى أعضاء الوفد البريطاني إعجابهم بمهارات الفرسان، مع ملاحظتهم قلة التنسيق الجماعي. مثل هذا الاستعراض إظهاراً للقدرات العسكرية المغربية، كما شكّل فرصة للتبادل الثقافي بين الطرفين.

غير أن مسار المفاوضات شهد بعض العقبات، إذ نشبت أزمة دبلوماسية عندما هاجم قراصنة من سلا سفينتين إنجليزيتين، متجاوزين الأوامر السلطانية بعدم التعرض للسفن البريطانية. كاد هذا الحادث أن يقوض مساعي البعثة، إذ هدد السفير بإنهاء المفاوضات. إلا أن تدخل الباشا السريع باسترداد السفن ومعاقبة المسؤولين أسهم في تجاوز الأزمة¹.

¹ John Leyden et Hugh Murray, Histoire Complète des Voyages et découvertes en Afrique, Tome 1 , Chez Arthus Bertrand, Paris, 1821 , pp 390-391.

انتقل الوفد بعد ذلك إلى مكناس، حيث وصلوا في 3 جوان. وبعد ثلاثة أيام، جرى اللقاء المرتقب مع السلطان مولاي إسماعيل. اتسم هذا اللقاء بالمراسم والرمزية التي تعكس أهمية البروتوكول الدبلوماسي في العلاقات الدولية آنذاك.

ظهر السلطان في موكب مهيب، ممتطياً صهوة جواده، يرافقه حاجب يحمل المظلة السلطانية، فيما اصطف مستشاروه خلفه على شكل هلال. أضفى هذا المشهد هيبة ووقاراً على المقابلة السلطانية، وهو ما يعكس رمزية السلطة في المغرب آنذاك.

عند اقترابه من السفير، ترجل السلطان مولاي إسماعيل عن جواده، وأدى صلاة شكر قصيرة¹. وفي تبادل التحيات، أدى السفير انحناء عميقة، بينما اكتفى السلطان بإيماءة خفيفة برأسه، مردداً كلمة "بونو"، مما يشير إلى استخدام لغة دبلوماسية مشتركة آنذاك.

وفي لحظة ذات دلالة، قدم السفير رسالة ملك إنجلترا ملفوفة في منديل حريري، وهو تقليد دبلوماسي يجسد الاحترام المتبادل. وقد أبدى السلطان ترحيباً بالغاً، معبراً عن مودته للإنجليز واستعداده للتعاون، مما مهد السبيل لنجاح المفاوضات².

أثمرت المفاوضات عن نجاح البعثة في تحقيق هدفها الرئيسي المتمثل في تحرير الأسرى البريطانيين. فقد بلغ عدد الأسرى الأوروبيين في مكناس آنذاك 1100 أسير، من بينهم 296 بريطانيًا، دون احتساب 90 آخرين ممن اعتنقوا الإسلام. وبعد مفاوضات مكثفة، تم افتداء

¹ في تصرف يجسد دوره كأمير للمؤمنين وحامي للدين الإسلامي في المغرب. كان هذا السلوك متعمداً من السلطان لإظهار التزامه الديني أمام الوفد الأجنبي، وتأكيد شرعيته السياسية والدينية كحاكم يجمع بين السلطتين.

² John Leyden et Hugh Murray, op.cit, p 395-396.

الأسرى البريطانيين ونقلهم إلى تطوان، وتُوجت المفاوضات بتوقيع معاهدة للتجارة والصداقة مع السلطان المغربي¹.

وإثر نجاح المهمة الدبلوماسية، عكف جون وندوس John Windus على توثيق تجربته في المغرب، مستثمراً إقامته التي امتدت لأربعة أشهر في جمع المادة العلمية وتدوين ملاحظاته. وقد تمخض ذلك عن تأليف كتابه الموسوم بـ

A Journey to Mequinez, the Residence of the present Emperor of Fez and Morocco on the occasion of Commodore Stewart's Embassy Thither for the Redemption of the British captives in year 1721.

"رحلة إلى مكناس، مقر إقامة إمبراطور فاس والمغرب بمناسبة سفارة القائد البحري ستewart لافتداء الأسرى البريطانيين سنة 1721.

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في لندن عام 1725م، ولقي إقبالاً واسعاً، مما حدا بنشر طبعة ثانية في دبلن عام 1726م، كما تُرجم إلى اللغة الألمانية في العام نفسه².

يندرج كتاب وندوس John Windus في فئة المذكرات، إذ اعتمد فيه أسلوب التدوين اليومي المتسلسل لمشاهداته وانطباعاته. ولم يقتصر المؤلف على تسجيل ملاحظاته الشخصية، بل عزز نصه بمعلومات استقاها من مصادر متنوعة، مكتوبة وشفهية، مع إيراد وثائق تتعلق بالسفارة. وقد أكسب هذا المنهج التوثيقي الشامل الكتاب قيمة علمية وتاريخية مميزة³.

¹ Roland Lebel, op.cit, p 288.

² جون وندوس، المصدر السابق، ص 13.

³ نفسه، ص 15.

أولى جون وندوس **John Windus** عناية خاصة في كتابه لوصف حاضرة مكناس الإسماعيلية، فقدم تفاصيل دقيقة لعمرانها وقصورها. كما تطرق إلى الحياة الاجتماعية والثقافية في المدينة، متناولاً أعيانها ومفصلاً في عادات سكانها وتقاليدهم في شتى مناحي حياتهم اليومية. وقد شكلت هذه الأوصاف التفصيلية مصدراً معرفياً مهماً للقارئ الأوروبي عن طبيعة الحياة في المغرب آنذاك.

غير أن فهم محتوى الكتاب يستدعي وضعه في سياقه التاريخي والثقافي. فلم يكن كتاب جون وندوس **John Windus** مجرد سرد موضوعي للمغرب وأهله، بل تأثر بشكل جلي بالسياق التاريخي والثقافي لبريطانيا في مطلع القرن الثامن عشر¹.

كما عكس الكتاب مكانة بريطانيا كقوة بحرية وتجارية عالمية عقب انتصارها في حرب الوراثة الإسبانية (1701-1714م). فقد دفع هذا الوضع الجديد البريطانيين إلى استكشاف المناطق المجهولة من العالم، مما أدى إلى ازدهار الكتابات الجغرافية التي تُعنى برصد الشعوب الأخرى ومواردها وإمكاناتها العسكرية والطبيعية. ويتجلى هذا التوجه في اهتمام ويندوس بوصف ثروات المغرب وعلاقاته التجارية مع المشرق وإفريقيا.

بيد أن هذا النمط من الكتابة الإرشادية الجغرافية والتجارية والعسكرية كان يميل إلى المبالغة في وصف الغرائب، وأحياناً اختلاقها. وتظهر هذه النزعة في بعض فصول كتاب جون وندوس **John Windus** من خلال الوصف المبالغ فيه للغرائب. كما أنه، شأنه شأن معاصريه من

¹ جون وندوس، المصدر السابق، ص 3.

الكتاب الإنجليز الذين تناولوا المغرب، لم يتحرر تماماً من تعصبه الديني ونظرته المتحيزة، مما أثر على موضوعية بعض أجزاء الكتاب¹.

وعلى الرغم من هذه التحيزات والنظرة الإنجليزية المركزية التي تتخلل الكتاب، يظل مصدراً قيماً للمعلومات عن المغرب في تلك الحقبة. فكتاب جون وندوس John Windus وثيقة تاريخية مهمة تعكس ليس فقط أحوال المغرب في مطلع القرن الثامن عشر، بل أيضاً طبيعة العلاقات والتصورات المتبادلة بين أوروبا والعالم الإسلامي في تلك الفترة.

3 جيمس بروس James Bruce :

يُعدّ جيمس بروس (1730-1794) من أبرز الرحالة والمستكشفين الاسكتلنديين في القرن الثامن عشر الميلادي. وُلد في 14 ديسمبر 1730م في قرية كينيرد Kinnaird بمقاطعة ستيرلنغ Stirling². تلقى تعليمه الأول في مدرسة هارو Harrow المرموقة³، ثم التحق بإحدى الجامعات الاسكتلندية لدراسة القانون⁴، غير أن هذا المجال لم يتوافق مع ميوله وتطلعاته.

شهدت حياة بروس المهنية والشخصية تحولات جذرية بعد إتمام دراسته. ففي عام 1753م، انتقل إلى لندن، حيث تزوج من بنت أحد تجار النبيذ المعروفين⁵. بيد أن زواجه انتهى بصورة

¹ جون وندوس، المصدر السابق، ص 4.

² Head Francis Bond, The life of Bruce the African Traveller, the fourth edition , Albemarle Street, London, 1830, p 1.

³ Ibid, p 2.

⁴ Ibid, p 4.

⁵ Ibid, pp 6-7.

مأساوية إثر وفاة زوجته بعد تسعة أشهر فقط¹. في أكتوبر 1754م، دفعت هذه الحادثة المؤلمة، إلى جانب تراجع نشاطه في تجارة النبيذ، إلى اتخاذه قرار الترحال والسفر².

استهل جيمس بروس James Bruce رحلاته بزيارة البرتغال، حيث أقام فيها قرابة أربعة أشهر، ثم توجه إلى إسبانيا. وخلال إقامته هناك، اطلع على مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية في مكتبة الإسكوريال El Escorial الشهيرة. شكل هذا الاكتشاف منعطفاً مهماً في مساره البحثي، إذ أثار اهتمامه بشكل عميق بتاريخ الدول المغاربية³.

عاد جيمس بروس James Bruce إلى اسكتلندا عام 1758م عقب وفاة والده، ليتولى إدارة أملاك العائلة في كينيرد Kinnaird. ورغم هذه المسؤولية الجديدة، لم يتخلّ عن طموحاته في مجالي الاستكشاف والعمل الدبلوماسي.

وفي خضم الحرب بين إسبانيا وبريطانيا العظمى، قدم جيمس بروس James Bruce للحكومة البريطانية خطة استراتيجية للاستيلاء على مدينة فيرول Ferrol الإسبانية. ورغم عدم تنفيذ هذه الخطة، فإنها استرعت اهتمام اللورد هاليفاكس Lord Halifax⁴، مما أفضى إلى تعيينه في منصب القنصل البريطاني في الجزائر⁵. وإلى جانب مهامه الدبلوماسية، كُلف بتوثيق بتوثيق المعالم الأثرية والمباني التاريخية خلال رحلاته.

¹ Head Francis Bond, op.cit, p 8.

² Ibid, p 10.

³ Ibid, pp 11- 12.

⁴ Ibid, pp 14 -15.

⁵ Ibid, p 17.

وتأهباً لهذه المهمة، أمضى جيمس بروس **James Bruce** ثمانية أشهر في عدة مدن إيطالية، منها نابولي وبارما وبولونيا وفلورنسا، حيث صقل مهاراته في الرسم والتوثيق الأثري. مثّلت هذه المرحلة إعداداً عملياً مكنه من أداء مهامه المستقبلية بكفاءة عالية.

وصل جيمس بروس **James Bruce** إلى الجزائر في 15 مارس 1763م¹، حيث باشر مهامه قنصلاً لبريطانيا. ولم يقتصر نشاطه خلال إقامته على العمل الدبلوماسي فحسب، بل اهتم بتطوير مهاراته في اللغة العربية واللهجات المغاربية. كما عُني بترجمة المخطوطات العربية، وحرص على التواصل مع السكان المحليين²، مما أثّر معرفته بالثقافة المجتمع الجزائري.

انتهت مهمة جيمس بروس **James Bruce** الدبلوماسية في الجزائر في 25 أوت 1765م، مما أتاح له التفرغ لشغفه الرئيس: دراسة الآثار على الساحل الإفريقي. وقد حظي بتقدير داي الجزائر، الذي زوده برسائل توصية إلى بايات تونس وطرابلس، مما يسّر له مهمته الاستكشافية³.

استهل جيمس بروس **James Bruce** رحلته بدراسة المواقع الأثرية في شرق الجزائر، متوقفاً عند آثار أفروديسيوم في عنابة وسيرتا في قسنطينة. ثم رحل إلى تونس، حيث قدم أوراق اعتماده إلى الباي، فمنحه حرية التنقل في البلاد.

¹ Head Francis Bond, op.cit, p 20.

² Ibid, p 25.

³ Ibid, pp 38- 39.

وخلال فصل الشتاء، تنقل بين المواقع الأثرية وصولاً إلى ساحل قابس عبر منطقة الجريد. وبعد زيارته جزيرة جربة، عاد إلى تونس، حيث وثق علاقته بالباي. ثم توجه إلى سببلة، وأمضى فيها خمسة أيام في مراجعة رسوماته للمدينة الأثرية وتدقيقها¹.

وفي مطلع عام 1766م، بلغ جيمس بروس **James Bruce** ليبيا. غير أن خلافاً نشب بين القنصل البريطاني وباشا طرابلس، إضافة إلى إشاعات عن تحضير بريطانيا لحملة عسكرية على طرابلس، مما حدا به إلى العودة مؤقتاً إلى تونس. وما إن تحسنت العلاقات بين البلدين، حتى عاد بحراً إلى طرابلس.

وفي زيارته الثانية لطرابلس، أعد جيمس بروس **James Bruce** توثيقاً شاملاً ودقيقاً لمشاهداته، مدوناً ملاحظاته في مذكراته التي غدت لاحقاً مصدراً مهماً للمعلومات عن المنطقة في تلك الحقبة².

وبعد استكشافاته في الدول المغاربية، خطط للتوجه إلى جزيرة كريت. بيد أن سفينته تحطمت قبالة سواحل بنغازي في ليبيا³، مما دفعه إلى تغيير وجهته شرقاً نحو سوريا، حيث زار المواقع الأثرية في تدمر وبعبلك⁴، قبل أن يتجه جنوباً نحو وادي النيل.

وتجدر الإشارة إلى أن جيمس بروس **James Bruce**، قبل مواجهته المخاطر في ليبيا، كان قد أنجز العديد من الرسومات التوثيقية للآثار في المدن المغاربية، وبخاصة في الجزائر

¹ Head Francis Bond, op.cit, pp 41-42.

² Ibid, pp 42- 43.

³ Ibid, p 45.

⁴ Ibid, pp 49-50.

وتونس. وقد أرسل هذه الأعمال الفنية والتوثيقية القيمة إلى الملك جورج الثاني **George II** ، وهي محفوظة اليوم في مكتبة قلعة وندسور **Windsor Castle** ¹.

عاد جيمس بروس **James Bruce** إلى إنجلترا عام 1774م بعد سنوات من الاستكشافات والتوثيق الدقيق لآثار الدول المغاربية. وقد امتدت رحلاته على مدى اثني عشر عاماً (1762-1774م)، قطع خلالها نحو ستة آلاف ميل بحراً وعشرة آلاف ميل برّاً². غير أن عودته لم تكن كما توقع، إذ واجهت أعماله نقداً حاداً من معاصريه. فقد وصف بعض الرحالة رسوماته بأنها من نسج الخيال، وادعى آخرون أن رسوماته لآثار الحبشة من عمل فنان إيطالي³.

دفعت هذه الانتقادات جيمس بروس **James Bruce** إلى الرد عليها بأسلوب علمي، فنشر عام 1790م مذكراته المعنونة :

Travels to Source of Nile in The Years 1768-1773.

"رحلات لاكتشاف منبع النيل في السنوات 1768-1773" في خمسة مجلدات. ورغم أن هذه المذكرات لم تتل التقدير المستحق آنذاك، فقد تجلت قيمتها العلمية مع مرور الزمن.

وبعد نحو قرن من رحلات جيمس بروس **James Bruce** ، وتحديداً عام 1877م، بادر الكولونيل الفرنسي بلايفير **Playfair** إلى إعادة تقييم إرث بروس. فجمع رسوماته ومدونات، مستعيناً بمصادر من المتحف البريطاني وحفيدة. ورغم صعوبة تتبع مسار بروس بدقة، قرر بلايفير **Playfair** زيارة المواقع الأثرية في الجزائر وتونس التي وصفها بروس في كتابه⁴.

¹ Head Francis Bond, op.cit, p 54.

² Duncan Cumming, "James Bruce in Libya 1766", **libyan Studies**, N°1, Cambridge, 1970 , p 12.

³ Playfair Lambert, "épisodes de l'histoire des relations de la Grande-Bretagne avec les états barbaresques avant la conquête française", **R.A.**, N° 22, Alger, 1878, p419.

⁴ Ibidem.

أثار اكتشاف بلايفير **Playfair** للدقة الاستثنائية في ملاحظات جيمس بروس **James Bruce** اهتمامه العلمي، مما دفعه إلى تأليف كتاب بعنوان: " رحلات على خطى بروس في الجزائر وتونس ".

Travels in The Footsteps of Bruce in Algeria and Tunis

وقد أكد في هذا المؤلف على القيمة العلمية لأعمال بروس، معتبراً إياها من أهم المصادر التاريخية المتعلقة بآثار الدول المغاربية.

وفي شهادة ذات دلالة على أهمية أعمال جيمس بروس ودقتها، كتب بلايفير **Playfair**: " أتذكر العناية التي بذلتها شخصياً في رسم قوس النصر في تيمقاد. كنت أعتزم نشر هذا الرسم في دراسة عن الآثار الرومانية في الدول المغاربية، بيد أنني عدلت عن ذلك. فرسومات جيمس بروس تتفوق كثيراً على عملي من حيث الدقة والتفاصيل. وإني أرى أن رسوماته ستكون ذات قيمة عظيمة للمهندسين المعماريين كافة، ليس فقط للأفكار المبتكرة التي تقدمها في مجال التراكيب والزخارف، بل أيضاً لدقتها الاستثنائية"¹.

تؤكد شهادة بلايفير **Playfair** هذه على القيمة العلمية والتاريخية لأعمال جيمس بروس **James Bruce**، وتبرز أهميتها مرجعاً أساسياً في دراسة العمارة والآثار في الدول المغاربية. وفي الختام، تتجلى مكانة جيمس بروس بوصفه أحد أبرز المستكشفين والموثقين في القرن الثامن عشر الميلادي. فعلى الرغم من الانتقادات التي واجهها في حياته، أثبتت الدراسات اللاحقة، ولا سيما عمل الكولونيل بلايفير **Playfair**، الدقة المتناهية في ملاحظاته ورسوماته. وما تزال إسهاماته في توثيق الآثار والثقافات في الدول المغاربية والمشرق العربي تشكل مصدراً

¹ Playfair Lambert, op.cit, pp 420.

قيماً للباحثين والمؤرخين في العصر الحاضر. وقد نجح جيمس بروس، من خلال مزيج من الشغف العلمي والدقة المنهجية والمثابرة، في ترك إرث علمي راسخ في مجالات الاستكشاف والأنثروبولوجيا وعلم الآثار، مما يؤكد مكانته رائداً في تاريخ البحث العلمي.

4 إدوارد ستانلي Edward Stanley :

رحالة إنجليزي قام بزيارة إلى تونس استمرت لمدة عامين بين 1784م و1786م. خلال إقامته، وثّق ستانلي بدقة مشاهداته وتجاربه في كتاب قيم نُشر عام 1786م في لندن.

عنوان الكتاب:

"Observations on The City of Tunis and The Adjacent Country with A View of Cape Carthage, Tunis Bay, and The Golletta Taken on The Spot "

ملاحظات عن مدينة تونس والمدن المجاورة لها، مشاهد حول قرطاج وخليج تونس وحلق الوادي أُخذت عن المنطقة"، يعكس محتواه الغني بالتفاصيل عن المنطقة.

كان الهدف الرئيسي لستانلي من رحلته وتأليف كتابه هو تقديم صورة شاملة عن مدينة تونس، مسلطاً الضوء على ثرواتها المتنوعة. أراد أن يلبي فضول الأوروبيين تجاه هذه المنطقة، وأن يوفر لهم معلومات دقيقة ومباشرة عنها¹.

رغم صغر حجمه الذي لا يتجاوز 40 صفحة، يعد كتاب إدوارد ستانلي Edward Stanley كنزاً معلوماتياً قيماً عن تونس في أواخر القرن الثامن عشر. يقدم الكتاب وصفاً شاملاً لمختلف مظاهر الحياة في تونس، مع التركيز على الجوانب الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية.

¹ Edward Stanlay, op.cit, p1.

في الجانب الجغرافي، يبدأ ستانلي بوصف العاصمة، مشيراً إلى أنها تقع على موقع قرطاج القديمة. يلفت انتباهه البنية التحتية المتطورة للمدينة، ذاكراً وجود قنوات مائية ونوافير عامة ومسجد كبير. كما يلاحظ إعادة استخدام الأعمدة الرومانية القديمة في المباني الحديثة، مما يعكس مزيجاً من التاريخ والحداثة¹.

تستمر الرحلة إلى مدينة منوبة، حيث يصف الحمام الكبير الذي بناه حسن باشا، ثم إلى حمام الليف² المعروف بمياهه الساخنة المستخدمة لعلاج الروماتيزم. بعد ذلك، يزور الكاتب مدينة لامان، حيث يلتقي بأحفاد الأندلسيين ويلاحظ احتفاظهم بلغتهم الإسبانية القديمة. في زغوان³، يصف معبد ديانا القديم الذي بناه القرطاجيون. قدم إدوارد ستانلي Edward Stanley أيضاً معلومات دقيقة عن مدن أخرى مثل سليمان⁴، إضافة إلى وصف المعالم الطبيعية مثل بحيرة تونس⁵ وبحيرة شكلي⁶. ويختتم جولته الجغرافية بزيارة سيدي بوسعيد، واصفاً جمال المدينة المطلّة على خليج تونس، مع ملاحظة تحفظ السكان تجاه الزوار المسيحيين¹.

¹ Edward stanley, op.cit, p 6.

² حمام الليف: يبعد عن تونس 12 ميلا، يشتهر بحماماته فعالة لمعالجة روماتيزم والعديد من الأمراض الاخرى، كما يوجد حمام رائع وخاص للباي، حيث يسمح في بعض الأحيان للقناصل باستعماله. أنظر إلى :

Ibid, p 18.

³ زغوان : مدينة صغيرة، تقع جنوب مدينة تونس، تبعد عنها حوالي 36 ميلا، يعلوها جبل عالي يوجد به معبد ديانا، الذي بناه القرطاجيين في العصور الأولى. أنظر إلي:

Ibid, p 19.

⁴ مدينة سليمان : تقع علي بعد 6 أميال عن حمامات تقع في سهل جميل يزخر بأشجار الذرة والزيتون يسكنها التونسيون والأندلسيون القدماء الذين مازالو يتحدثون اللغة الاسبانية، وهم مهذبون مع المسيحيين أنظر الى:

Ibid,p 19.

⁵ بحيرة تونس: يبلغ محيطها ثلاثين ميلا تقريبا، كانت في العصور القرطاجية تستقبل سفن ضخمة أما الآن فقد تراجعت مكانتها، وأصبحت مكان للقوارب الصغيرة. أنظر إلى:

Ibid, pp 21-22.

⁶ بحيرة شكلي: كانت في الماضي بحيرة ذات أهمية كبيرة، أما الان فقد تراجعت مكانتها وأصبحت عبارة عن بحيرة لطير النحام، و بجمال ريشها تمثل زينة رائعة لها. أنظر إلى :

فيما يتعلق بالمناخ، يقدم ستانلي وصفاً دقيقاً لتونس، مشيراً إلى اعتدال الصيف بفضل نسيم البحر، وقصر فترة الشتاء الممطر. كما يحذر من رياح السموم وخطورتها².

أما من الناحية السياسية، فيقدم ستانلي وصفاً إيجابياً للباي حمودة باشا، واصفاً إياه بالعدل والمسالمة، مشيراً إلى سياساته الداعمة للتجارة الخارجية³ وتساوله مع الفلاحين في دفع الضرائب⁴.

في الجانب الاقتصادي، يصف الحياة اليومية في تونس، مسلطاً الضوء على الأسواق النابضة بالحياة ووفرة المنتجات الطازجة. يشير إلى اللوائح الصارمة التي تحكم جودة الخبز، مما يدل على تنظيم جيد للمجتمع. كما يلاحظ أن تكلفة المعيشة في تونس منخفضة نسبياً، مما يجعلها مكاناً جذاباً للعيش⁵.

Edward stanley, op.cit, p 22.

¹ Ibid, p25.

² Ibid, pp 34-35.

³ ما يلفت انتباهه هو أن مابين 1792-1813 تغيرت سياسة حمودة باشا، وبدأ يهتم بنشاط الجهاد البحري، وكان يرى من خلالها بأنها الوجه الذي يمكن له استعراض قوة وصمود تونس أمام مختلف القوة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي وسيلة من وسائل الضغط على الدول التي كانت تبحر سفنها في البحر الابيض المتوسط، مثل السويد، الدنمارك وأمريكا، التي كانت تشتري الأمان لسفنها بإتاوات وأموال، بناء قوة تجارية في البلاد ينظر الى : رزيقة محدي، " الإصلاحات الاقتصادية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا (1782-1814)"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد 30، العراق، 2016، ص 95.

⁴ Edward stanley, op.cit, p 16-17.

⁵ Ibid, p 12.

يتطرق إدوارد ستانلي **Edward Stanley** أيضاً إلى التجارة الخارجية لتونس، مسلطاً الضوء على أهم الصادرات والواردات. يذكر استيراد تونس للصوف الإسباني لصناعة الشاشية، إضافة إلى القهوة والسكر والأقمشة، بينما تصدر الذرة والزيت والشمع والجلود¹.

كما يصف إدوارد ستانلي **Edward Stanley** الحياة الزراعية في تونس بتفصيل، مشيداً بخصوبة الأراضي وتنوع المنتجات الزراعية. يذكر وفرة المحاصيل مثل الزيتون والذرة، إضافة إلى الخضروات والفواكه المتنوعة. كما يتحدث عن نظام الري المتقدم في قرطاج، مبدياً إعجابه بكفاءته وجماله².

رغم وعد إدوارد ستانلي **Edward Stanley** بالموضوعية في مقدمة كتابه، إلا أنه لم يستطع التخلص تماماً من تحيزاته الدينية، حيث يظهر أحياناً موقفاً سلبياً تجاه السكان المسلمين³.

يختتم الرحالة رحلته بتأكيد خصوبة الساحل البربري، واعتباره مخزناً للحبوب لأوروبا، لو توافر له المزارعون المناسبون⁴. وهذه الملاحظة الختامية تعكس نظره الاستعمارية للمنطقة، والتي تجلت في مواضع متفرقة من كتابه رغم محاولته الالتزام بالموضوعية.

وبشكل عام، يقدم كتاب ستانلي صورة شاملة ومفصلة عن الحياة في تونس في تلك الفترة، مزوداً القارئ بمعلومات قيمة عن الجغرافيا والاقتصاد والمجتمع، مما يجعله مصدراً مهماً للباحثين والمؤرخين المهتمين بتاريخ تونس في القرن الثامن عشر.

¹ Edward stanley, op.cit, p 15.

² Ibid, pp 35- 36.

³ الإمام رشاد، المرجع السابق، ص 24.

⁴ Edward Stanly, op.cit, p 36.

5 وليام لومبرير William Lempiere :

يُعد وليام لومبرير **William Lempiere** ، الطبيب العسكري الإنجليزي، من الشخصيات البارزة التي عاشت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي¹. ارتبط اسمه بحادثة دبلوماسية مهمة في سبتمبر 1789م، حين تقدم ماترا **Matra** ، القنصل البريطاني في طنجة، بطلب إلى الجنرال أوهارا **O'hara** ، حاكم جبل طارق آنذاك، لإرسال طبيب ماهر لمعالجة الأمير مولاي عبد السلام، نجل السلطان المغربي سيدي محمد، الذي كان يعاني من مرض خطير في عينيه.

كان العرض المقدم للطبيب ذا قيمة مادية كبيرة ، إذ تضمن مكافأة سخية، إضافة إلى وعد بتحرير مجموعة من الأسرى المسيحيين، تشمل قبطاناً وتسعة بحارة كانت سفينتهم قد جنحت إلى السواحل المغربية².

باشر وليام لومبرير **William Lempiere** رحلته الطبية والدبلوماسية في 14 سبتمبر 1789م، مبحراً من جبل طارق على متن سفينة صغيرة. وصل إلى طنجة بعد ست ساعات³، ليبدأ منها رحلته البرية عبر المدن الساحلية المغربية، منتقلاً على ظهور البغال⁴.

اتبع وليام لومبرير **William Lempiere** مساراً محدداً عبر المغرب، متوقفاً في مدن رئيسة. فمن طنجة، سافر إلى أصيلا في رحلة استغرقت عشر ساعات، ثم واصل طريقه إلى

¹ Jean Gay, Bibliographie de Ouvrages Relatifs A L'Afrique et l'Arabie, Chez Maisonneuve et Cie, Paris, 1875, p 88.

² William Lempiere, Voyage dans L'empire de Maroc et le Royaume de Fez, fait Pendant Les Années 1790 et 1791, Traduit de l'Anglais par M.De Sainte-Suzanne, Cordier et Legras Imprimeurs-Libraires, Paris, 1801, pp 1-2.

³ Ibid, p 4.

⁴ Ibid, p16.

العرائش¹ ، فالمعمورة، فسلا²، ثم الرباط³. وقبل وصوله إلى الدار البيضاء، عبر ثلاثة أنهار: يكم وشراط وبوزنيقة⁴، مما يعكس طبيعة التضاريس والتحديات الجغرافية التي واجهها المسافرون آنذاك.

واصل رحلته جنوباً، فوصل إلى أزموور في 10 أكتوبر⁵، ثم آسفي⁶ في 13 أكتوبر منه⁷. وبعد ثلاثة أيام، بلغ الصويرة⁸، التي وصفها بقوله: "مدينة كبيرة ومنظمة، شيدها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لتكون مركزاً للتجار الأوروبيين"⁹.

وصل وليام لومبرير **William Lempiere** إلى تارودانت في 26 أكتوبر لتحقيق هدف رحلته الرئيس: معالجة الأمير عبد السلام¹⁰. عند فحص الأمير، تبين أنه يعاني من تشنج في عينه اليسرى¹¹، في حين كانت عينه اليمنى مصابة بعمامة تحد من قدرته على الإبصار¹².

¹ William Lempiere, op.cit, p 19

² Ibid, p 43-44.

³ Ibid, p 47.

⁴ Ibid, p 53

⁵ Ibid, p 56.

⁶ آسفي : مدينة عريقة في إقليم عبدة (نسبة إلى قبائل عبدة)، بناها القرطاجيون قرب رأس باننتين. تقع بين تلتين في وادٍ معرض للفيضانات المتكررة. تتميز بمرسى جيد وآمن في الصيف، وكانت مركزاً للتجارة الأوروبية على ساحل المحيط الأطلسي. يبلغ عدد سكانها حوالي ألف نسمة، منهم مجموعة من اليهود الفقراء. تمتاز بأسوار ضخمة وعالية. خضعت للحكم البرتغالي من 1508 حتى 1641 حين تخلوا عنها طواعية. المنطقة المحيطة بها قليلة الزراعة وتغلب عليها الصحاري، لكن يزرع فيها بعض الحبوب. على بعد 40 ميلاً جنوب شرقها توجد بحيرة مالحة كبيرة، وتبعد عن مוגادور بيوم ونصف للاستزادة أنظر إلى :

James Richardson, Travel in Morocco..., op.cit, p 131.

⁷ William Lempiere, op.cit, p 59.

⁸ Ibid, p 62.

⁹ Ibid, p 65.

¹⁰ Ibid, p 93.

¹¹ Ibid, p 96.

¹² Ibid, p 100.

شرع وليام لومبريير **William Lempiere** في تقديم العلاج، وظهرت علامات التحسن على صحة الأمير في وقت قصير.

بعد نجاح علاج الأمير مولاي عبد السلام، دُعي وليام لومبريير **William Lempiere** لمعاينة زوجات الأمير¹، مما أتاح له فرصة نادرة للاطلاع على عالم الحريم المحجوب عن الأجانب. تكشف هذه الحادثة عن الأعراف الاجتماعية والثقافية في البلاط المغربي آنذاك، إذ كان على وليام لومبريير **William Lempiere** فحص نبض الأميرة من وراء ستار، عبر فتحة صغيرة تسمح بمرور يدها فحسب. وحين طلب معاينة لسانها²، قامت بإحداث فتحة أخرى في الستار لإظهار لسانها دون كشف وجهها، مما يعكس المحددات الثقافية والدينية التي كانت تحكم التفاعل بين الجنسين في ذلك العصر.

وعندما أمر السلطان ابنه بالتهيؤ للحج، رافق وليام لومبريير **William Lempiere** الأمير إلى مراكش. استثمر الطبيب هذه المناسبة لتذكير السلطان بالاتفاق السابق بشأن إطلاق سراح تسعة بحارة والقبطان إيوينج **Iwing** مقابل شفاء الأمير. غير أن السلطان لم يلتزم بوعده³، واكتفى بمنح وليام لومبريير **William Lempiere** ساعة ذهبية وحصاناً ومبلغاً من المال. ويتجلى استياء وليام لومبريير **William Lempiere** في تساؤله: "أمن أجل هذا قطع الطبيب خمسمئة ميل لمعالجة مريضه؟"، مما يكشف عن خيبة أمله في إخفاق مهمته الدبلوماسية.

غادر وليام لومبريير **William Lempiere** تارودانت 30 في نوفمبر، مخترباً جبال الأطلس الكبير⁴ متجهاً إلى مراكش. هناك لاحظ تحولاً في موقف السلطان تجاهه، إذ أصبحت معاملته

¹ William Lempiere, op.cit, p 106.

² Ibid, pp-110-111.

³ Ibid, p p 131-132.

⁴ Ibid, p 133-134.

تتسم بالفتور واللامبالاة. يعكس هذا التغير تعقيدات السياسة في البلاط وحساسية العلاقات الدبلوماسية في تلك الحقبة. تفاقم الوضع حين واجه وليام لومبرير **William Lempiere** اتهامات خطيرة، منها محاولة تسميم ابن السلطان، في حين اتهمه الأطباء المغاربة بإعطاء الأمير عقاقير شديدة التأثير للإضرار بصحته. تبرز هذه الاتهامات التوتر والريبة المتبادلة بين المدارس الطبية الأوروبية والمحلية، كما تعكس المخاوف السياسية من النفوذ الأجنبي.

استجابةً لهذه المزاعم، أمر السلطان بفحص العقاقير التي قدمها وليام لومبرير **William Lempiere**¹، مما يشير إلى حالة من عدم الثقة، وربما محاولة للموازنة بين المصالح السياسية والحاجات الطبية. بعد إقامة شهر في مراكش دون أن يحظى باهتمام السلطان، سعى وليام لومبرير **William Lempiere** للتقرب من الوزراء عبر تقديم الاستشارات الطبية²، لكن مساعيه باءت بالفشل. في النهاية، تمكن من مقابلة السلطان بفضل معالجته لسيدة يهودية ذات نفوذ، كان زوجها يحظى بمكانة مرموقة لدى السلطان.

خلال لقائه بالسلطان، خضع وليام لومبرير **William Lempiere** لاستجواب دقيق حول أصل مهمته وخلفيته الطبية. استفسر السلطان عما إذا كان قدومه إلى المغرب محض صدفة أم بتكليف من ملك إنجلترا، كما سألته عن تكوينه الطبي، متطرقاً إلى الشائعات حول تفوق الأطباء الفرنسيين على نظرائهم الإنجليز³. تعكس هذه الأسئلة الاهتمام المتزايد بالطب الغربي في البلاط المغربي، فضلاً عن الحذر الدبلوماسي تجاه الوجود الأجنبي.

بعد شهر من مغادرة الأمير مولاي عبد السلام لأداء فريضة الحج، طرأ تحول غير متوقع في مسار مهمة وليام لومبرير **William Lempiere**. فبدلاً من إنهاء خدماته كما كان متوقعاً،

¹ William lempiere, op.cit, pp 145-146.

² Ibid, p 165.

³ Ibid, p 171.

طلب منه السلطان معاينة إحدى زوجاته¹. يشير هذا التطور إلى تزايد الثقة في كفاءة وليام لومبرير **William Lempiere** الطبية، على الرغم من التحفظات السابقة، كما يكشف عن تعقيدات الحياة في الحريم السلطاني.

كانت السيدة لالة زهرة، الزوجة الأولى التي عاينها وليام لومبرير **William Lempiere** ، تعاني من حالة صحية حرجة جراء تسمم مزعوم من إحدى الجواري. تجلت الأعراض في ضعف شديد وآلام متواصلة في المعدة واصفرار الوجه وتساقط الأسنان، مما يرجح احتمال التعرض لمادة سامة قوية². قام وليام لومبرير **William Lempiere** بوصف العلاج المناسب ونظام غذائي خاص.

أما السيدة لالة البتول، فقد التمسست استشارة وليام لومبرير **William Lempiere** لعلاج نزلة برد³. استثمرت هذه المناسبة لإطالة الحديث مع الطبيب الأجنبي، حتى أنها أمرت بإعداد الكسكس له. يكشف هذا التفاعل عن اهتمام نساء الحريم بالزائر الأجنبي، وربما رغبتهم في كسر رتابة حياتهن المنعزلة.

طلبت السيدة لالة الضاوية، الزوجة الثالثة، أيضاً معاينة الطبيب. كانت موضع حسد من نساء القصر الأخريات بسبب جمالها وصغر سنها، فضلاً عن كونها المفضلة لدى السلطان⁴.

أما الزوجة الرابعة، التي تعذر على وليام لومبرير **William Lempiere** معاينتها لوجودها في فاس، فكانت ذات مكانة خاصة، إذ كانت ابنة مرتد إنجليزي ووالدة مولاي يزيد، الذي سيتولى العرش لاحقاً بعد وفاة والده¹.

¹ William Lempiere, op.cit, p 291.

² Ibid, pp 299-300.

³ Ibid, pp 301-302.

⁴ Ibid, pp 303-304.

مع تحسن الحالة الصحية للسيدة لالة زهرة، والذي يعكس نجاح الممارسات الطبية الأوروبية في البلاط المغربي، شرع وليام لومبريير **William Lempiere** في التخطيط للعودة إلى وطنه². استثمر علاقته المهنية مع السيدة لالة زهرة، مقترحاً عليها التوسط لدى السلطان للسماح له بالسفر إلى أوروبا بذريعة جلب المزيد من العقاقير والأدوية، مدعياً أنه الوحيد القادر على تحضيرها وأنها غير متوفرة إلا في أوروبا³.

نجحت خطته، إذ حصل على وثائق تتيح له السفر إلى جبل طارق. عبر وليام لومبريير عن سعادته الغامرة قائلاً: "عندما رأيت أنني سأغادر بلد كرهته لما لقيته من تناقضات"⁴.

في 12 فيفري 1790م، شرع وليام لومبريير **William Lempiere** في رحلة العودة من مراكش، مروراً بقلعة بولفوان **Bulvane**، ثم سلا، وأخيراً طنجة⁵. وهناك، تلقى مكافأة سخية نظير خدماته الطبية للسيدة لالة زهرة، تمثلت في ثورين وعشر معزات ومائة دجاجة، إضافة إلى الفواكه والخضراوات.

في 27 مارس 1790م، وصل الطبيب الإنجليزي وليام لومبريير **William Lempiere** إلى جبل طارق، مختتماً بذلك رحلته الأولى في المغرب. وقد عبّر عن ابتهاجه بهذه العودة، إذ قال: "كانت فرحتي عظيمة بوصولي إلى وطني، تماثل سعادة سجين يغادر زنزانته"⁶.

غير أن صلة وليام لومبريير **William Lempiere** بالمغرب لم تنقطع عند هذا الحد، إذ قرر العودة إلى المغرب في رحلة ثانية، مدفوعاً برغبته في إثراء التوثيق التاريخي لرحلته

¹ William Lempiere, op.cit p 310.

² Ibid, p 331.

³ Ibid, p 333.

⁴ Ibid, p 337.

⁵ Ibid, p 342-343.

⁶ Ibid, p 344-345.

الأولى. كان هدفه الأساسي جمع معلومات إضافية حول أحداث جوهريّة شهدّها المغرب في تلك الفترة، ولا سيما وفاة السلطان سيدي محمد والنزاع على العرش بين أبنائه. كما أراد زيارة مدينة تطوان التي لم تتسنّ له رؤيتها في رحلته الأولى. ولتحقيق هذه الغاية، طلب إجازة مدتها شهران، معبراً عن مشاعره المتباينة تجاه هذه العودة بقوله: "طلبت إذنًا بالذهاب إلى هناك للحصول على جميع المعلومات التي كنت أرغب في جمعها، وبعد أن مُنحت الإذن، غادرت جبل طارق مجدداً عائداً إلى هذه الأرض التي أقسمت ألا أعود إليها"¹.

أتم وليام لومبرير رحلته الثانية بعودته إلى جبل طارق في 10 جويلية 1790م². دفعته هذه التجربة الثرية في المغرب إلى تأليف كتاب يوثق رحلاته ومشاهداته. نُشر الكتاب باللغة الإنجليزية في لندن عام 1793م بعنوان :

" رحلة من جبل طارق إلى طنجة، وسلا، والصويرة، وأغادير، وتارودانت، ومنها عبر جبال الأطلس إلى مراكش، متضمنة وصفاً مفصلاً للحريم السلطاني"

"A Tour From Gibraltar to Tangier, Sallee, Mogador, Santa-Cruz, Tarudant, and Thence over Mount Atlas to Morocco, Including a Particular Account of the Royal Harem"

وتجلت أهمية هذا العمل في ترجمته إلى اللغة الفرنسية من قبل دو سانت سوزان De Saint Suzanne عام 1801، ونُشر في باريس تحت عنوان:

"Voyage dans L'empire de Maroc et le Royaume de Fez, fait Pendant les années 1790 et 1791"

¹William Lempiere, op.cit, p 346.

² Ibid, p 383.

تميز كتاب وليام لومبرير **William Lempiere** بشموليته وعمق تحليله. فإلى جانب وصفه المميز للحياة داخل القصر السلطاني، قدم رؤية متعمقة لجوانب متنوعة من الحياة المغربية، شملت تحليلاً دقيقاً للنظم القانونية والمالية، ووصفاً للقوات العسكرية، فضلاً عن تصوير حي للحياة الاجتماعية والدينية. كما أولى اهتماماً خاصاً بالتجارة بين المغرب والسودان، موثقاً بدقة مسارات القوافل التجارية وتكوينها، مما يقدم معلومات قيمة عن الشبكات الاقتصادية الإقليمية آنذاك¹.

اتسم عمل وليام لومبرير **William Lempiere** باعتماده على مصادر موثوقة ومباشرة، مما عزز مصداقية المعلومات المقدمة. فقد استفاد من مدونات سابقة، كمذكرات توماس بيلو، مضيفاً إليها تفاصيل دقيقة وفصولاً جديدة، مما أثري المعرفة الأوروبية عن المغرب.

يمثل عمل وليام لومبرير نقطة تحول في الكتابات الإنجليزية عن المغرب، إذ جمع بين روح الاستكشاف والمنهجية العلمية، ممهداً الطريق لموجة جديدة من الدراسات المعمقة في القرن التاسع عشر. وقد أدى تأثير كتابه مع مطلع ذلك القرن إلى ظهور اتجاهين متميزين: الأول تمثل في الدراسات التوثيقية العلمية المتعمقة، والثاني في المدونات السياحية الوصفية.

تكمن أهمية عمل وليام لومبرير في كونه حلقة وصل بين حقبتين من الكتابة عن المغرب. فهو يمثل ذروة الاستكشاف الإنجليزي للمغرب في أواخر القرن الثامن عشر، ويمهد في الوقت نفسه للدراسات المتخصصة في القرن التاسع عشر. ولا يزال كتابه حتى يومنا هذا مصدراً ثميناً للباحثين والمؤرخين، يقدم رؤية للمغرب في مرحلة فاصلة من تاريخه، عشية التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة في القرن التاسع عشر².

¹ Renald Lebel, op.cit, p 132.

² Ibid, p 133.

6 ماثيو كيري Mathew Carey :

ماثيو كيري Mathew Carey ، ناشر وصحفي ومؤلف إيرلندي، برز كشخصية مؤثرة في الحياة الفكرية والسياسية في أواخر القرن الثامن عشر. عبر رحلاته بين إيرلندا وفرنسا وأمريكا، ترك كيري بصمة واضحة في مجالات النشر والصحافة والكتابة التاريخية.

ولد ماثيو كيري Mathew Carey في مدينة دبلن Dublin الإيرلندية عام 1760م، وأظهر تفوقاً مبكراً في ميدان النشر. فقد بدأ مسيرته المهنية في الخامسة عشرة من عمره، تحديداً في 28 جانفي 1775م، حين عمل ناشراً وبائعاً للكتب¹، مما يعكس موهبته الاستثنائية وطموحه المبكر.

شهد عام 1779م منعطفاً مهماً في حياة ماثيو كيري Mathew Carey ، إذ أصدر مؤلفاً ينتقد فيه القوانين القمعية المفروضة على الكاثوليك في إيرلندا. أدى هذا العمل الجريء، الذي عكس وعياً سياسياً واجتماعياً متقدماً، إلى ملاحقته قضائياً، مما دفعه إلى الفرار إلى فرنسا تجنباً للسجن².

استقر كيري خلال إقامته في فرنسا بقرية باسي Passy غربي باريس، حيث شهدت مسيرته المهنية تطوراً ملحوظاً. تعاون في هذه الفترة مع شخصيات مرموقة، أبرزهم بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin، مما أتاح له الاطلاع على التيارات الفكرية والسياسية الأمريكية. كما

¹ John R. Shook, The Dictionary of Early American philosophers , Volume 1, Printed and bound in the United states of America , 2012, p 179.

² Lawrence Flick, " Selections from The Correspondence of the deceased Mathew Carey Records of the American Catholic", **Historical society of philadelphic**, Vol 9 ; N° 3, Septembre, 1898, p 351.

عمل لدى المطبعي الشهير ديدو جون **Didot Le Jeune** ، مما أثرى خبرته في مجالي الطباعة والنشر .

عاد ماثيو كيري **Mathew Carey** إلى دبلن عام 1783م¹، حيث تولى إدارة صحيفتين مهمتين: " فريمانز جورنال " **Freeman's Journal** " و " فولنتير " **Volunteer** ". استخدم هاتين المنصتين لنشر مواد معارضة للسلطة، مما أدى إلى سجنه لفترة وجيزة. دفعت هذه التجربة، إضافة إلى خشيته من الملاحقة القضائية مجدداً، إلى اتخاذ قرار الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية².

وصل ماثيو كيري **Mathew Carey** إلى فيلادلفيا في نوفمبر 1784م، حيث أقام علاقات مهمة، كان أبرزها مع الماركيز دي لافاييت **Marquis de Lafayette** . وبفضل الدعم المالي الذي قدمه له لافاييت، نجح في تأسيس ثلاث مجلات مؤثرة: " ذي بنسلفانيا إيفننج هيرالد " **The Pennsylvania Evening Herald** عام 1785م، و " كولومبيان ماجازين " **Columbian Magazine** في أكتوبر 1786م، و "أمريكان ميوزيم " **American Museum** " في جانفي 1787م³.

في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، برز كتاب ماثيو كيري **Mathew Carey** المعنون ب : " وصف مختصر للجزائر "

A Short Account of Algiers

¹ John R.Shook, op.cit, p 179.

² Lawrence Flick, op.cit, p 354.

³ John R. Shook, op.cit, p 179.

كإضافة مهمة إلى أعماله الأدبية والصحفية. صدر هذا المؤلف في 8 جانفي عام 1794م في فيلادلفيا، مواصلاً نهج لئيري في تقديم دراسات توثيقية عن مناطق متعددة من العالم. قدّم الكتاب دراسة تحليلية شاملة عن الجزائر في العهد العثماني، متناولاً جوانب متعددة كالجغرافيا التاريخية والبنية الاجتماعية والنظام السياسي.

اهتم ماثيو لئيري Mathew Carey في مؤلفه بدراسة الحواضر الساحلية الرئيسة مثل وهران وتلمسان وقسنطينة وجبل وبجاية¹، كما تناول التاريخ العسكري والعلاقات الدبلوماسية للإيالة الجزائرية. وأضفى قيمة توثيقية على الكتاب بإدراج خريطة توضح الحدود الجغرافية للأقاليم المغاربية (انظر الى الملحق رقم 05)، مما يعكس حرصه على تقديم معلومات دقيقة وشاملة للقراء.

وعلى الرغم من أهمية هذا المؤلف في سياق إنتاج ماثيو لئيري Mathew Carey العلمي والفكري، تظل بعض التساؤلات قائمة حول ظروف تأليفه. فخلافاً لإقاماته الموثقة في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، تفتقر سيرته الذاتية إلى أي دليل قاطع يثبت زيارته للجزائر أو إقامته فيها، مما يثير تساؤلات حول مصادر معلوماته ومنهجية تأليفه.

ويُرجَّح أن ماثيو لئيري قد استقى معلوماته من مصادر متنوعة دون زيارة ميدانية للجزائر. فالمكانة السياسية والاقتصادية للجزائر في تلك الحقبة، وما أثارته من اهتمام في الأوساط

¹ Mathew Carey, A short account of Algiers, containing a description of the climate of that country, of the manners and customs of the inhabitants, and of their several wars against Spain, France, England, Holland, Venice, and other powers of Europe, from the usurpation of Barbarossa and the invasion of the Emperor Charles V. to the present time; with a concise view of the origin of the rupture between Algiers and the United States .., Market street, Philidelphia, 1794, pp 4-6.

الأوروبية والأمريكية، قد تكون دافعاً كافياً لتأليف دراسة تعريفية عنها. ومما يعزز هذا الترجيح التشابه الملحوظ في المادة العلمية والأسلوب مع كتابات معاصرة أخرى، مثل مذكرات ماريا

مارتن **Maria Martin**.

كما أن المنهج التألفي الذي اتبعه ماثيو لثيري يثير تساؤلات حول مدى موضوعية الكتاب. فقد يكون المؤلف مزيجاً من الوقائع التاريخية والسرد الأدبي، وهو أسلوب شاع في العصر الرومانسي. هذا المزج بين التوثيق التاريخي والصياغة الأدبية كان نهجاً متبعاً لاستقطاب القراء وإثارة اهتمامهم بالثقافات الأجنبية. وتفتح هذه الإشكالية المجال لمزيد من البحث في سيرته وعلاقته بللدول المغاربية.

وفي الختام، تجسد سيرة ماثيو لثيري ومؤلفاته نموذجاً للمؤرخ والأديب في القرن الثامن عشر. أسهمت كتاباته وأنشطته الصحفية في تشكيل الخطاب السياسي والثقافي في أوروبا وأمريكا، تاركاً إرثاً فكرياً ثرياً للباحثين والمؤرخين اللاحقين.

7 جون بؤفا John Buffa :

في مطلع القرن التاسع عشر، برز طبيب عسكري في صفوف الجيش البريطاني يدعى جون بؤفا **John Buffa**، كان يمارس مهنته في مستشفى ديبوت بجزيرة وايت **Wight**¹. وفي عام 1805م، اقترح السيد تورنبول **Mr Turnbull**، رئيس لجنة التجارة البريطانية في بلاد الشام، تعيين طبيب وجراح في جبل طارق لفحص السفن الخاضعة للحجر الصحي. وقع الاختيار

¹John Buffa, Travels Through The Empire of Morocco, Printed for J.J.Stockdale, 41, Pall-Ma, London,1810, p (preface).

على الدكتور جون بوفـا **John Buffa** لهذا المنصب¹، مما دفعه للانتقال مع عائلته إلى جبل طارق.

بيد أن مسار حياة الدكتور جون بوفـا **John Buffa** المهنية شهد منعطفًا غير متوقع، إذ حالت بعض الإشاعات المغرضة دون تعيينه في المنصب المذكور. وعلى الرغم من محاولاته للتواصل مع السيد تورنبول **Mr Turnbull** لتوضيح الأمر، لم يتلق أي رد.

في جانفي 1806م، وفي خضم هذه الظروف المحبطة، تلقى بوفـا دعوة غير متوقعة من القنصل العام البريطاني في طنجة. كان الطلب واضحًا ومثيرًا : السفر إلى المغرب لعلاج أمير العرائش، الذي كان يشغل منصب الوزير الأول في الإمبراطورية المغربية، والذي كان يعاني من مرض خطير. كانت هذه فرصة لبوفـا لإثبات قدراته الطبية وربما تغيير مسار حياته المهنية².

قبل أن يباشر مهمته الطبية، كان على جون بوفـا **John Buffa** أن يمر باختبار دبلوماسي صعب. التقى بإمبراطور المغرب في لقاء مصيري حدد مسار الأحداث اللاحقة³. وضع الإمبراطور شروطًا صارمة أمام الطبيب البريطاني، قائلاً بلهجة حازمة: " مصيرك يتوقف على نجاحك في علاج الأمير. إن نجحت، ستحظى أنت وعائلتك بمكانة رفيعة في بلادنا. وإن فشلت ومات الأمير، فأنصحك بالهرب سرًا ولا تفكر بالعودة أبدًا " ⁴. هذه الكلمات وضعت جون بوفـا **John Buffa** تحت ضغط هائل، لكنها أيضًا منحتة الدافع لبذل قصارى جهده.

¹ John Buffa, op.cit,p (preface).

² Ibid, p V-VI.

³ Ibid, p VII.

⁴ Ibid, pp 38-39.

نجح جون بوبا **John Buffa** في مهمته الطبية بشكل ملموس، إذ بدأت صحة الأمير تتحسن بشكل ملحوظ بعد يومين من بدء العلاج. وفي غضون مدة وجيزة، استعاد الأمير عافيته وقدرته على ركوب الخيل، مما أكد شفاؤه التام¹.

أفضى هذا النجاح الطبي إلى نتائج دبلوماسية مهمة، إذ منحت المغرب بريطانيا امتيازات استراتيجية، من بينها تسهيل تزويد القوات البحرية البريطانية بالمؤن.

لم يقتصر تقدير جهود جون بوبا **John Buffa** في مهمته الطبية بصورة لافتة، إذ بدأت صحة الأمير تتحسن بشكل ملحوظ بعد يومين من بدء العلاج. وفي غضون مدة وجيزة، استعاد الأمير عافيته وقدرته على ركوب الخيل، مما أكد شفاؤه على المستوى السياسي فحسب، فقد نال مكافأة سخية من السلطان المغربي، ووسام شرف من اللورد كولينجود **Lord Collingwood** ، قائد الأسطول البريطاني. والأهم من ذلك أن سلطان المغرب بعث برسالة خاصة إلى ملك بريطانيا العظمى، مشيداً بمهارات الدكتور جون بوبا. أبرزت هذه الأحداث الدور المحوري للأطباء في تشكيل العلاقات الدبلوماسية، لا سيما في حقبة كانت فيها الصحة الشخصية للحكام ذات أهمية بالغة للاستقرار السياسي.

فتح نجاح جون بوبا **John Buffa** في معالجة الأمير أمامه أبواب المغرب. فخلال إقامته، شهد إقبالاً متزايداً على خدماته الطبية²، مما أتاح له فرصة استثنائية لاستكشاف البلاد والتعرف على ثقافتها عن كثب. قام برحلة استكشافية إلى المناطق الساحلية الغربية للمغرب برفقة مرشدين محليين³، مما أثرى فهمه للمجتمع المغربي وثقافته.

¹ John Buffa, op.cit,p 40

² Ibidem.

³ Ibid, p 45.

غير أن تجربة جون بؤفا John Buffa لم تخلُ من التحديات. ففي أوت 1806م، قرر العودة إلى جبل طارق ومنها إلى إنجلترا، متأثراً جزئياً بالإحباط الناجم عن بعض المكائد التي حيكّت ضده. وقد عبّر عن استيائه بقوله: " بالفعل الذي يكون نشيطاً دائماً في الأذى"¹، مشيراً إلى الصراعات المهنية والسياسية التي واجهها حتى بعد نجاحه.

توّج جون بؤفا John Buffa تجربته في المغرب بتأليف كتاب مهم نُشر عام 1810م بعنوان:

Travels Through The Empire of Morocco

"رحلات عبر المغرب".

ويُعد هذا المؤلف وثيقة تاريخية قيمة تتناول جوانب متعددة من الحياة في المغرب آنذاك. قدم فيه وصفاً تفصيلياً للحواضر الرئيسية مثل طنجة والعرائش وتطوان وفاس ومكناس، وتحليلاً للتاريخ المغربي والسلالات الحاكمة. كما قدم رؤية معمقة للحياة الاجتماعية والثقافية، متضمنة تفاصيل عن البلاط السلطاني.

تناول جون بؤفا John Buffa في مؤلفه الجوانب الاقتصادية، فدرس الصناعات المحلية والنشاط الزراعي، كما قدم معلومات طبية مهمة عن الأمراض المنتشرة وأساليب معالجتها في المغرب. وأوضح في مقدمة كتابه أن هدفه الأساسي من نشر هذه الدراسة هو إبراز النهج الدبلوماسي المتوازن الذي تتبعه السلطنة المغربية في علاقاتها مع الدول الأوروبية الصديقة، مع التزامها بضوابط محددة في هذه العلاقات².

¹ John Buffa, op.cit, p VII.

² Ibid, pp VIII-XI.

تكتسب مذكرات جون بؤفا **John Buffa** أهمية تاريخية خاصة لعدة اعتبارات. فهي تقدم رؤية توثيقية للمغرب في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وتكشف عن التوجهات الاستراتيجية للقوى الأوروبية تجاه هذه المنطقة الحيوية. كما توضح بجلاء كيف يمكن للخبرات الطبية أن تمهد السبيل للعمل الدبلوماسي وتؤثر في العلاقات الدولية. وفضلاً عن ذلك، توثق هذه المذكرات بداية تنامي الاهتمام الأوروبي بالدول المغاربية، مما أسهم لاحقاً في تشكيل التنافس الاستعماري في المنطقة.

وختاماً، تمثل سيرة جون بؤفا **John Buffa** نموذجاً للتفاعل بين العلوم والسياسة في العلاقات الدولية. فمن خلال كفاءته الطبية، استطاع فتح قنوات دبلوماسية جديدة، وتقديم صورة عن مجتمع ظل غامضاً نسبياً للأوروبيين آنذاك. وتُظهر تجربته أن العمل الدبلوماسي قد يتخذ مسارات غير تقليدية، وأن التبادل الثقافي والعلمي يمكن أن يشكل جسراً للتفاهم بين الشعوب، حتى في أوقات التوتر السياسي. وتبقى سيرة جون بؤفا **John Buffa** شاهداً على أثر المعرفة والخبرة في صياغة مسار التاريخ، وعلى الدور المحوري للأفراد في التأثير على مجريات الأحداث الكبرى.

8 توماس ماكجيل Thomas MacGill :

ولد توماس ماكجيل **Thomas MacGill** في مدينة غلاسكو **Glasgow** عام 1779م، وكان نموذجاً بارزاً للتاجر البريطاني في مرحلة ما قبل الثورة الصناعية. وقد نشأ في أسرة ثرية، وبرز منذ شبابه المبكر بوصفه رجل أعمال ذا كفاءة عالية، مما أهله لتبوء مكانة مرموقة بين كبار تجار غلاسكو **Glasgow**¹.

¹ John Murry Archibald Constable, "Skocyali Tuccar Thomas MacGill in 1804 yilindaki Kusadasi izlenimleri ", **Sedat onar Kuyetayerel Tarih dergisi**, Subat ayi, 2012, p 1.

تميزت مسيرة توماس ماكجيل **Thomas MacGill** المهنية بالجمع بين النشاط التجاري والبحث العلمي، وهو ما يعكس روح عصر التنوير السائدة آنذاك. فقد أولى اهتماماً خاصاً بعلم النبات، مدفوعاً برغبة مزدوجة في الاستكشاف العلمي والاستثمار التجاري. وقد قاده هذا المزيج من الاهتمامات إلى القيام برحلات استكشافية مهمة، جمع فيها بين أهدافه العلمية والتجارية.

وفي عام 1803م، قام توماس ماكجيل **Thomas MacGill** برحلة استكشافية مهمة، انطلقت من غلاسكو **Glasgow** مروراً بإيطاليا وجزر بحر إيجه، وصولاً إلى الأراضي العثمانية. وتكتسب هذه الرحلة أهمية خاصة في سياق العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية المتنامية بين بريطانيا والدولة العثمانية في تلك الفترة. وخلال إقامته في الأراضي العثمانية، ركز توماس ماكجيل اهتمامه على دراسة نبات الخشخاش وإنتاج الأفيون، مما يعكس اهتمامه بالنباتات ذات القيمة التجارية والطبية¹.

حظي توماس ماكجيل **Thomas MacGill** باهتمام السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807م)، الذي كلفه بمهمة الحصول على أفيون عالي الجودة. ونجح في تطوير طرائق علمية لتحويل الأفيون إلى مسكن فعال للآلام، الأمر الذي يشير إلى تطور الصناعات الدوائية في مطلع القرن التاسع عشر. وقد نتج عن هذا النجاح تصدير كميات كبيرة من الأفيون من الدولة العثمانية إلى إنجلترا.

وفي عام 1806م، أنهى توماس ماكجيل **Thomas MacGill** رحلته وعاد إلى إنجلترا، حيث قدم تقريراً يتضمن ملاحظاته إلى الحكومة. وبعد خمس سنوات، في عام 1811م، قام برحلة استكشافية وتجارية أخرى، هذه المرة إلى تونس. وعند عودته مباشرة إلى إنجلترا في العام نفسه،

¹ John Murry Archibald Constable, op.cit, pp 1-2.

نشر كتاباً عن رحلته بعنوان : "وصف تونس: حكومتها وآدابها وعاداتها وآثارها، مع التركيز على إنتاجها وصناعاتها وتجارتها".

"An Account of Tunis : Of its Government, Manners, Customs and Antiquities"

وقد تميز هذا الكتاب بأسلوب أدبي سلس جذب عدداً كبيراً من القراء، مما يعكس قدرة ماكجيل على المزج بين الدقة العلمية والأسلوب الأدبي الجذاب في كتاباته¹.

حظي كتاب توماس ماكجيل Thomas MacGill باهتمام بالغ تجلى في ترجمته إلى اللغة الفرنسية عام 1815م، تحت عنوان :

"Nouveau Voyage à Tunis Publié en 1811"

" رحلة جديدة إلى تونس نُشرت عام 1811م "

نُشرت هذه الترجمة في باريس على يد بوكوك Pauckouke ، الذي أثرى الكتاب بإضافة ملاحظات وتعليقات، مما عزز من قيمته كمصدر للمعلومات عن تونس في مطلع القرن التاسع عشر².

كشف توماس ماكجيل Thomas MacGill في مقدمة كتابه عن دوافع تأليفه، مسلطاً الضوء على السياق الجيوسياسي لعصره، إذ كتب: " في هذه الأوقات العصيبة، حيث يسعى طاغية فرنسا بكل ما أوتي من قوة لتقويض تجارة بريطانيا العظمى، أرى أن من واجب كل مواطن بريطاني أن يضع ما لديه من معرفة في خدمة وطنه"³. ويكشف هذا التصريح عن طبيعة

¹ John Murory Archibald Constable, op.cit, p1-2.

² Ibid, p 2.

³ Thomas MacGill, op.cit, p 1.

الصراع الاقتصادي والسياسي بين بريطانيا وفرنسا آنذاك، ويوضح كيف كانت رحلات ماكجيل الاستكشافية مدفوعة بمزيج من المصالح التجارية والوطنية.

وأضاف توماس ماكجيل **Thomas MacGill** : "عندما غادرت مالطة متوجهاً إلى تونس، كان هدفي الأساسي التجارة وليس السياحة. لكن حين وجدت أن مهمتي استغرقت وقتاً أطول مما توقعت، قررت استثمار هذا الوقت الإضافي في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التجارية والسياسية". وهذا يوضح كيف تضافرت مهاراته التجارية وفضوله العلمي لإنتاج عمل شامل يغطي جوانب متنوعة من الحياة والثقافة والاقتصاد التونسي¹.

استهل توماس ماكجيل **Thomas MacGill** كتابه بلمحة تاريخية، متتبعاً التحولات السياسية وصراعات السلطة في تونس حتى فترة حكم حمودة باشا، مما وفر خلفية مهمة لفهم الوضع السياسي الذي عاصره أثناء زيارته. ثم انتقل إلى وصف شخصية حمودة باشا وكبار موظفي الدولة، مقدماً صورة واضحة عن هيكل السلطة في تونس آنذاك. كما تناول موضوعات متنوعة مثل الجيش التونسي وحروبه مع الجزائر، إضافة إلى وصف السكان وموقع مدينة تونس وتحصيناتها ومناخها.

أولى توماس ماكجيل **Thomas Macgill** ، بحكم خلفيته التجارية، اهتماماً خاصاً بالجانب الاقتصادي، فقدم تفصيلاً دقيقاً للصادرات والواردات والنشاط التجاري، بما في ذلك الرسوم المفروضة على البضائع الإنجليزية وأسباب تراجع التجارة. ويعكس هذا التركيز هدفه المعلن في خدمة المصالح التجارية البريطانية.

¹ Thomas MacGill, op.cit, p 2 .

ولم يغفل ماكجيل الجوانب الثقافية والاجتماعية، فوصف عادات سكان الحواضر وتأثير الدولة العثمانية في قرارات الإيالة. كما تطرق إلى موضوعات مهمة مثل القرصنة التونسية وأسباب تعيين قناصل أوروبيين في البلدان المغاربية.

خصص المؤلف فصلاً للأوزان والمكايل والعملات، والقوافل التي تقد إلى تونس. وركز على المنتجات التونسية المهمة مثل الشاشية والقبعات ونسيج الصوف المغربي، مما يعكس اهتمامه بالصناعات المحلية وإمكانات التجارة.

وقد جعل هذا النهج الشامل في الكتابة، الذي يجمع بين التاريخ والسياسة والاقتصاد والثقافة، كتاب توماس ماكجيل **Thomas MacGill** مصدراً قيماً للمعلومات عن تونس في مطلع القرن التاسع عشر، وهو ما يفسر الاهتمام الكبير الذي حظي به في أوروبا، وترجمته إلى الفرنسية عام 1815م.

9 جورج فرانسيس ليون George Francis Lyon :

يُعد جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** (1795-1832م) من أبرز المستكشفين والضباط البحريين البريطانيين الذين عُرفوا برحلاتهم الاستكشافية في الدول المغاربية. بدأ مسيرته المهنية في البحرية الملكية البريطانية، حيث خدم في البحر المتوسط برتبة نقيب، قبل أن ينتقل للعمل في قطاع التعدين بالمكسيك، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية¹.

¹ميلاد أحمد الزليتي، " الصعوبات البشرية التي واجهت الرحالة العرب والأوروبيين عند عبورهم الأراضي الليبية في الفترة ما بين 1798-1923م"، مجلة البحوث الأكاديمية، د. م، جامعة مصراته، 2017، ص 471.

قام جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** برحلة استكشافية في الأراضي الطرابلسية بين عامي 1818 و1820م، مستهدفاً الوصول إلى أعماق القارة الأفريقية. ورغم اقتصار رحلته على منطقة فزان، إلا أنها تميزت بمنهجية علمية دقيقة في البحث الميداني. فقد حرص على التكيف مع البيئة المحلية، متبنياً الزي والعادات المحلية، متخذاً لنفسه هوية "سعيد بن عبد الله". بل تعمق في الاندماج بتعلم الصلاة والقراءة بالعربية على يد أحد القائمين على رعاية المساجد وخدمتها¹.

مكّن هذا النهج جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** من جمع معلومات دقيقة وحديثة، خاصة عن المناطق الواقعة جنوب مرزق، ومنطقة غات، والمسالك المخترقة لمنطقة التبستي. وعلى الرغم من عدم تحقيق هدفه في الوصول إلى بلاد السودان، أثمرت رحلته عن تقرير شامل وثق فيه ملاحظاته وانطباعاته عن الأحداث التي رافقت رحلته.

من أبرز إنجازات جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** رسمه لأول خريطة توضح معالم الطرق والمسالك المؤدية إلى مناطق ما وراء الصحراء (أنظر الى الملحق رقم 06). شكلت هذه الخريطة، مع ملاحظاته التفصيلية، إسهاماً علمياً وجغرافياً مهماً، فتح آفاقاً جديدة لاستكشاف المنطقة وفهمها².

¹ Lyon Francis George, A Narrative of Travels in Northern Africa, in The Years 1818, 1819, 1820, John Murray, Albemarle Street, London, 1821, p 10.

² رجب نصير الأبيض، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2009، ص ص 62-63.

عاد ليون إلى بريطانيا في 29 جويلية 1820م¹، ونشر كتابه في لندن عام 1821م بعنوان : "سرد لرحلات في شمال إفريقيا خلال الأعوام 1818 و 1819 و 1820"

A Narrative of Travels in Northern Africa in the years 1818, 1819 and 1820.

حظي الكتاب باهتمام كبير في الأوساط العلمية والأكاديمية الأوروبية، مما أدى إلى ترجمته إلى الفرنسية بعد عام من نشره الأصلي. تولى الترجمة جان-باتيست جاك أوغستان Jean-Baptiste Jacques Augustin عام 1822م، تحت عنوان : "رحلة إلى المناطق الداخلية لشمال إفريقيا في الأعوام 1818 و 1819 و 1820"

Voyage dans l'intérieur de l'Afrique septentrionale en 1818-1819-1820.

يتألف الكتاب من تسعة فصول غنية بالمعلومات والمشاهدات. يستهل الفصل الأول بوصف تفصيلي لمدينة طرابلس، مستعرضاً عادات سكانها وتقاليدهم. كما يتناول وصف مدينتي غريان وبني وليد، مقدماً رؤية شاملة عن التنوع الثقافي والجغرافي في المنطقة².

يخصص جورج فرانسيس ليون George Francis Lyon الفصل الثاني لتوثيق رحلته من طرابلس إلى مرزق، عاصمة فزان، مستعرضاً تفاصيل الطريق وصعوبات السفر³. ويمهد هذا السرد للفصل الثالث، الذي يقدم فيه دراسة مستفيضة لمدينة مرزق، متناولاً الموروث الثقافي لسكانها وأنشطتهم التجارية⁴.

¹ Lyon Francis George, op.cit, p 351.

² Ibid, pp 1-57.

³ Ibid, pp 58-88.

⁴ Ibid, pp 89-151.

يتوسع جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** في الفصل الرابع ليستكشف الشبكات التجارية التي تربط فزان بالدول المجاورة، وخاصة مصر والسودان، مما يوضح الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للمنطقة¹.

يواصل الرحالة سرده في الفصل الخامس، موثقاً مسيرته من مرزق إلى تجرحي²، ليتبعه في الفصل السادس بوصف تفصيلي لمدينة تجرحي ورحلة عودته إلى مرزق³. يتيح هذا التسلسل للقارئ تتبع مسار الاستكشاف بدقة.

يعود جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** في الفصل السابع إلى تحليل أوضاع فزان، مركزاً على النشاط الزراعي والحياة الاجتماعية⁴، مما يعمق فهم القارئ للواقع المعيشي في المنطقة.

يختتم الكتاب بفصلين يوثقان رحلة العودة: الفصل الثامن يصف المسير من مرزق إلى سوكنة⁵، والفصل التاسع يستعرض الرحلة من سوكنة إلى طرابلس⁶، مستكملاً بذلك دائرة رحلته. رحلته الاستكشافية.

يتميز الكتاب باتباعه أسلوب المذكرات اليومية، حيث يوثق فرانسيس أحداث رحلته بدقة زمنية، مسجلاً التواريخ والأيام، قبل الانتقال إلى وصف العادات والتقاليد والأوضاع في كل منطقة زارها. هذا التنظيم المنهجي يقدم للقارئ رؤية متكاملة عن طرابلس، تمزج بين التوثيق الجغرافي، والتحليل الاجتماعي-الاقتصادي، والسرد الشخصي لتجارب الرحالة. وبذلك يجمع

¹ George Francis Lyon, op.cit, pp 152-202.

² Ibid, pp 202-238.

³ Ibid, pp 239-269.

⁴ Ibid, pp 270-289.

⁵ Ibid, pp 290-322.

⁶ Ibid, pp 323-351.

العمل بين القيمة العلمية وجاذبية أدب الرحلات، مما يجعله مصدراً أساسياً للباحثين المهتمين بتاريخ ليبيا وثقافتها في تلك الحقبة.

10 - الأخوين فريدريك وهنري بيتشي Frederick and Henry Pichy :

في مطلع القرن التاسع عشر، قام الأخوان فريدريك وهنري بيتشي Frederick and Henry Pichy، وهما ضابطان في البحرية الملكية البريطانية، برحلة استكشافية مهمة على امتداد الساحل الليبي¹. جاءت هذه المهمة الطموحة، التي حظيت بدعم وزارة المستعمرات البريطانية، في أعقاب الزيارة الاستطلاعية التي قام بها الكابتن سميث إلى الساحل الأفريقي عام 1817م، والتي مهدت الطريق لبعثة أكثر شمولاً².

انطلقت البعثة على متن السفينة "أدفنتشر" Adventure، وضمت فريقاً متخصصاً أوكلت إليه مهمة مزدوجة: إجراء دراسة تفصيلية للساحل الليبي، واستكشاف المعالم الأثرية في المنطقة. امتدت الرحلة من طرابلس غرباً إلى درنة شرقاً، واستغرقت عامين تقريباً (1821-1822م) من البحث والدراسة³.

وتتويجاً لهذه الرحلة الاستكشافية، ألف الأخوان بيتشي كتاباً بعنوان:

Proceedings of the Expedition to Explore the Northern Coast of Africa from Tripoli Eastward

" وقائع البعثة الاستكشافية للساحل الشمالي لأفريقيا من طرابلس نحو الشرق".

¹ أبيدة أحمد ناجي، " زيارات الرحالة الأجانب الى طرابلس الغرب في القرن التاسع عشر"، مجلة العلوم الانسانية، المجلد 27، العدد 1، جامعة بابل، العراق، 2020، ص9.

² Frederick and Henry Beechey, Proceeding of The Expedition to Explore the Northern Coast of Africa from Tripoly East Ward, John Murray, Albemarle-Street, London, 1828, p (introduction).

³ Ibid, p XXII.

الذي نُشر في لندن عام 1828م. وقد أهدى المؤلفان كتابهما إلى اللورد باثورست واللورد ميلفيل ¹ Lord Bathurst and Lord Melville.

يتألف كتاب الأخوين بيتشي من تسعة عشر فصلاً تتناول بالتفصيل رحلتها الاستكشافية على امتداد الساحل الليبي. استهل المؤلفان كتابهما بوصف دقيق لمدينة طرابلس ومعالمها التاريخية، ثم انتقلا إلى توثيق رحلتها شرقاً، متتبعين مسارهم عبر لبة² وشنيف، حيث قدما دراسة تفصيلية لآثار المنطقة. وواصلوا سردهما بوصف مدينتي زليتن ومصراته³، مع إيلاء اهتمام خاص لخليج سرت والزعفران، معتمدين في ذلك على مصادر جغرافية قديمة مثل سيلاريوس وسولينوس واسترابون وبطليموس. كما استندا إلى مصادر جغرافية عربية مهمة، منها كتابات حسن الوزان (ليون الإفريقي) والإدريسي، إضافة إلى روايات الرحالة السابقين كالكتور شو وجيمس بروس والسيدة تولي، زوجة القنصل البريطاني.

¹ Frederick and Henry Beechey, op.cit, p (dedication).

² لبة : تقع مدينة لبة التاريخية على حافة المنطقة الجبلية في الحد الغربي لسهل لبة العظيم، حيث تنتشر أطلال المدينة القديمة قرب الساحل، رغم أن معظمها قد غطته الرمال المتراكمة. وتبعد المدينة بضعة أميال غرباً عن تجمعات النخيل التي يمكن رؤيتها بسهولة من البحر. ورغم اندثار ميناء لبة القديم، إلا أن المنطقة تضم مرسى صغيراً يقع على بعد ميل ونصف غرب الأطلال، حيث يمكن للسفن الرسو فيه باستثناء أوقات هبوب الرياح الشرقية. وتتميز المنطقة بثرواتها الطبيعية المتنوعة، حيث تزرع مياهها بأنواع جيدة من الأسماك، كما تتوفر فيها قطعان الأغنام، وتنتج مجموعة متنوعة من الفواكه والخضروات والحبوب، وتتميز هذه المنتجات جميعها بأسعارها المعقولة مقارنة بأسعار طرابلس. أنظر إلى :

Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 577.

³ مصراته : هي مدينة ساحلية تقع على بعد ميلين جنوبي رأس مصراته. يحكمها أحد الأغوات الذي يستحسن تقديم هدية رمزية له لتسهيل الحصول على احتياجات السفن من المؤن، كالزاد والفواكه والخضروات والمياه العذبة. أنظر إلى : Ibid, p 578.

تابع المؤلفان رحلتها شرقاً نحو سرت ومختار وصولاً إلى بنغازي¹، مقدمين ملاحظات قيمة حول المنطقة. ثم انتقلا لوصف رحلتها إلى توكرة² وطمليثة³، ومنها إلى المرج والسلوم، مع تقديم دراسة وافية لينابيع قورينا وآثارها. واختتما كتابهما برحلتها من درنة إلى مدينة أبولونيا، مضيفين في الفصل الأخير ملاحظات الكابتن سميث حول قرزة، مع التنويه إلى احتواء هذا الجزء على بعض العناصر غير الموثقة.

يمثل عمل الأخوين بيتشي إنجازاً علمياً مرموقاً في مجال الدراسات الجغرافية والأثرية للمنطقة. وقد تميز بشموليته وعمق تحليله، إذ قدم وصفاً دقيقاً للساحل الليبي من الناحيتين الطبوغرافية والهيدروغرافية. ولم يقتصر على تحديد مواقع المدن الرئيسية فحسب، بل شمل القرى والمواقع الصغيرة، مع ربطها بمسمياتها في المصادر الكلاسيكية حيثما أمكن.

ومن الناحية الكارتوغرافية، قدم الكتاب تصويبات جوهرية للخرائط السابقة، لا سيما فيما يتعلق بساحل خليج سرت. واستندت هذه التعديلات إلى الملاحظات الميدانية الدقيقة التي جمعها فريق البعثة، مما أسهم في تحسين الدقة الجغرافية للمنطقة بشكل ملحوظ.

¹ بنغازي : تقع عند المدخل الشرقي لخليج سرت، وتتميز بوجود تجمعات أشجار النخيل التي تعد الوحيدة من نوعها في المنطقة الممتدة حتى درنة. يمكن التعرف على المدينة من خلال معلمين بارزين: ضريح أبيض مقام على منطقة مرتفعة قرب الساحل، وقصر مربع الشكل يقع عند مدخل الميناء . أنظر إلى :

Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 583.

² توكرة : هي مدينة أثرية تقع على نتوء أرضي ينتهي إلى البحر على شكل جرف، مما يجعل رسو السفن صعباً إلا في أوقات الطقس المعتدل. تتميز المنطقة بقرب الأعشاب والشجيرات من خط الساحل، لكنها لا تقدم للمراكب سوى بعض المياه . أنظر إلى :

Ibid, p 585.

³ طلميثة : تتميز بوجود قبر كبير مربع الشكل قرب الشاطئ، ومخلفات أثرية تقع على الهضاب شرقي القبر مباشرة. على بعد ميل واحد يوجد خليج صغير يوفر حماية للمراكب، إلا في أوقات هبوب الرياح الموازية للساحل. يقع هذا الخليج قرب نتوء صخري، وهو أول خليج يصادف المسافر بعد القبر المذكور. تجدر الإشارة إلى أن المياه غير متوفرة بشكل مضمون باستثناء ما توفره بعض الصهاريج . أنظر إلى :

Ibidem .

أما في المجال الأثري، فقد أولى الكتاب عناية خاصة بالمدن الأثرية في شرق ليبيا. وقدم هنري بيتشي دراسات تفصيلية لهذه المواقع، مصححاً أخطاء الرحالة السابقين. وتميزت المخططات التي أعدها لهذه المواقع بكونها الأولى من نوعها من حيث الدقة والتنفيذ، مما جعلها مرجعاً أساسياً في الدراسات الأثرية اللاحقة¹.

11 - غرينفيل تيمبل Grenville Temple :

هو رحالة انجليزي²، ولد 20 جويلية 1799م، وبدأ مسيرته العسكرية رسمياً في 12 ديسمبر 1826م حين تم تعيينه ضابطاً في الجيش البريطاني.

في فيفري 1829م، انتقل تيمبل غرينفيل Grenville Temple إلى باكنغهام Buckingham في خطوة مهمة في حياته المهنية. وإلى جانب خدمته العسكرية، تميز تيمبل غرينفيل Grenville Temple بميوله الفنية الواضحة، وقد ترك إرثاً فنياً يتمثل في مجموعة من الرسومات التي تُعد اليوم جزءاً من المقتنيات القيمة في متحف فيكتوريا وألبرت، مما يعكس الجانب الثقافي والفني لشخصيته.

توفي تيمبل غرينفيل Grenville Temple في 7 جوان 1847م في مدينة كونستانس Constance السويسرية Suisse عن عمر يناهز الثامنة والأربعين عاماً³. يُعد غرينفيل تيمبل Grenville Temple نموذجاً للشخصية البريطانية المتعددة المواهب في العصر الفيكتوري المبكر، حيث جمع بين الخدمة العسكرية والاهتمامات الفنية، تاركاً بصمة في كلا المجالين.

¹ خالد محمد الهدار، "حول ترجمة كتاب رحلة الأخوان بيتشي"، الثقافة العربية، العدد 3، بنغازي، 1998، ص 57.

² الامام رشاد، المرجع السابق، ص 36.

³ Kbenayed, Sir Grenville Temple rend visite a ben Ayed en 1834, Accessed October 10, 2023, 12:24 PM, from <http://palaisbenayed.com/sir-grenville-temple-rend-visite-a-ben-ayed-en-1834>

شهد عام 1830م انضمام تيمبل غرينفيل Temple Grenville إلى الجمعية الاستكشافية الفرنسية، وهي مؤسسة أنشأها نخبة من الأرستقراطيين الفرنسيين بهدف تعزيز الاستكشافات الجغرافية¹. تزامن ذلك مع بداية المرحلة الاستعمارية الفرنسية في الدول المغاربية، حيث شرع تيمبل غرينفيل Temple Grenville في رحلة استكشافية كان يعتزم أن تبدأ من الجزائر. غير أن الأحداث العسكرية المصاحبة للتوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر دفعته إلى إعادة النظر في مساره، متجهاً نحو الإيالة التونسية كوجهة بديلة².

يُعد تيمبل غرينفيل Temple Grenville من أبرز الرواد الإنجليز الذين أسهموا في توثيق وتطوير الموروث الأدبي التونسي القديم³. وقد قام بتوثيق رحلاته في تونس من خلال عدة مؤلفات، أهمها كتابه الذي نُشر عام 1835م بعنوان : " رحلات في البحر الأبيض المتوسط، الجزائر وتونس".

Excursions in The Mediterranean Algiers and Tunis

يتناول المجلد الأول من هذا العمل الأهمية التاريخية والحضارية للساحل التونسي ومناطقه الداخلية. وتبرز مدينة قرطاج كنموذج بارز للحضارة البونيقية، متمثلة في قلعتها المعروفة بـ"البيرصة" وتحصيناتها المتقنة وصهاريجها المائية المتطورة. كما يستعرض المؤلف المعالم الرومانية في المدينة، كالمدراج الروماني ومعبد سيريس، إضافة إلى نظام الموانئ المزدوج الذي أسهم في ازدهارها كمركز تجاري.

¹ Myriam Bacha , " Patrimoine et monuments en tunisie 1881-1920", **institut de Recherche sur le Maghreb Contemporain**, 2013, p 32.

² Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algiers and Tunis, Vol1, Saunders and Otley, Conduit street, London, 1835, (Preface).

³ Myriam Bacha, op.cit, p 33.

ويمتد التوثيق التاريخي ليشمل المدن الساحلية الشرقية، حيث تبرز سوسة¹ (هادروميوم) كمركز تجاري وعسكري مهم، والمنستير التي تطورت من محطة فينيقية إلى مدينة إسلامية محصنة. كما يسلط الضوء على المهديّة²، العاصمة الفاطمية السابقة، وصفاقس³ التي اشتهرت بنشاطها التجاري والصناعي، وجزيرة جربة ذات الأهمية الاستراتيجية والتجارية المستمرة عبر العصور.

¹ **سوسة** : سوسة مدينة تجارية مهمة تقع في موقع مدينة أدوماتوم التاريخية، يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة. برزت أهميتها في التاريخ الإفريقي خلال العصرين القرطاجي والروماني، واشتهرت بخصوبة أراضيها المحيطة بها حتى أصبحت من أغنى مناطق المقاطعة التي عرفت باسم صومعة روما. تتميز المدينة بتخطيطها شبه المربع وتحصيناتها القوية، حيث تحيط بها أسوار عالية تعلوها أبراج مزودة بمدافع خفيفة. تقع القصة على مرتفع في الزاوية الجنوبية الغربية، كما تحمي البطاريات واجهتها البحرية وميناءها. للمدينة بوابتان فقط: الأولى قرب البحر، والثانية في الجانب الغربي تؤدي إلى المناطق الداخلية. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, Henry Colburn Publisher, London, 1846, p 67.

² **المهديّة** : المهديّة مدينة تاريخية تقع على شبه جزيرة صخرية منخفضة، تتميز بموقعها الاستراتيجي القوي بطبيعته. يعتقد أنها موقع "تونس هانيباليس" التي ذكرها الجغرافيون القدماء، رغم أن هذا الاسم يُنسب أيضاً لأطلال في منطقة ساليكتو الواقعة على بعد أميال قليلة جنوباً. تعود نشأة المدينة بشكلها الحديث إلى حوالي عام 940 ميلادي، حين أسسها أو أعاد بناءها الخليفة الفاطمي الأول للقيروان الملقب بـ"المهدي" (الموجه)، الذي صعد للحكم كمصلح ديني وأطلق اسمه على المدينة. وفي منتصف القرن السادس عشر، شهدت المدينة أحداثاً تاريخية مهمة حين استولى عليها القائد دراغوت (الذي استشهد لاحقاً في حصار مالطا)، قبل أن تسقط بيد قوة مسيحية. ثم قام الإمبراطور تشارلز الخامس بتحسينها بهدف تحويلها إلى قلعة حصينة ومحطة لسفنه الحربية، لكن المشروع لم يكتمل وتم التخلي عن المدينة وتدمير تحصيناتها. للاستزادة أكثر أنظر الى :

Ibid, pp 90-91.

³ **صفاقس** : مدينة تجارية مهمة يبلغ عدد سكانها ثلاثة عشر ألف نسمة، وتستمد أهميتها من موقعها الاستراتيجي الذي يربطها بمنطقة الجريد وجزيرة جربة والمناطق الصناعية في الأراضي التونسية. تشتهر المدينة بإنتاج الفستق المميز بجودته ونكهته، حيث تنتج حادائقها المجاورة كميات كبيرة منه، كما تصدر كميات ضخمة من الفستق واللوز سنوياً. تتميز صفاقس عن غيرها من المدن بامتلاكها أوسع وأنظف شارع في الوصاية، يمتد من البوابة الداخلية حتى الميناء. للاستزادة أنظر إلى :

Ibid, p110.

أما في المناطق الداخلية، فيبرز مدرج الجم (ثيسدروس) الروماني كتحفة معمارية استثنائية، في حين تمثل مدينتا لبتييس بارفا وتابسوس نموذجاً للتمازج الحضاري الفينيقي-الروماني، مع إشارة خاصة إلى دورهما في الحروب البونيقية¹

يبدأ المجلد الثاني بمسار استكشافي في منطقة بوقرنين، حيث يتتبع المؤلف مآثر الأولياء المحليين ويصف الحمامات الرومانية القديمة وضريح إيميليوس. يمتد المسار عبر فرادي والحمامات وصولاً إلى نابل القديمة، مع توثيق دقيق للحياة الاجتماعية والمشاهد الثقافية المتنوعة في المنطقة. يختتم هذا القسم بزيارة قرية وسيدي داود قبل العودة إلى تونس.

ينتقل النص بعد ذلك إلى دراسة مقارنة مثيرة للاهتمام بين الوصف الجغرافي في ملحمة الإنياذة والواقع الطبيعي للساحل التونسي. يتناول بالتفصيل المواقع المذكورة في النص الكلاسيكي، مثل البروكسيما ليتورا ورأس الأحمر، مع تحليل دقيق للتطابق بين الوصف الأدبي والواقع الجغرافي.

تتواصل الرحلة الاستكشافية عبر المناطق الداخلية، حيث يوثق المؤلف محاولات الممالك لتبادل الخيول ويقدم وصفاً دقيقاً لملايس السفر، مع ملاحظات مهمة حول التشابه بين الأزياء العربية والرومانية القديمة. يمر المسار عبر تستور وتبرسك، موثقاً الحياة الاجتماعية والعادات المحلية، بما في ذلك صيام رمضان².

¹ Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algiers and Tunis, Vol1..., op.cit, pp X-XI.

² Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2, Saunders and Otley Conduit Street, London, 1835, pp I-IV.

يتعمق الكتاب في وصف المناطق الجنوبية، متناولاً القيروان¹ وأهميتها التاريخية ومكتباتها. ثم ينتقل إلى وصف الحياة البدوية في المناطق الصحراوية، موثقاً العادات والتقاليد المحلية، وطرق العيش التقليدية، مع تركيز خاص على قابس وواحاتها.

يختتم المجلد برحلة استكشافية في المنطقة الغربية، حيث يوثق المؤلف البقايا الأثرية في تالة وسببلة، مع وصف دقيق للحياة الاجتماعية للقبائل المحلية. يقدم معلومات قيمة عن العلاقات القبلية والتراث المعماري في منطقة الكاف، قبل أن يختتم برحلة العودة إلى تونس². يمثل هذا العمل، إلى جانب كتاب الدكتور "شو"، أحد أهم المصادر التوثيقية عن المنطقة المغاربية وتونس على وجه الخصوص، وفقاً لتقييم المؤرخ غيرين **Guerin**. تكمن أهمية هذا

¹ القيروان : مدينة تاريخية إسلامية تأسست عام 669م على يد القائد عقبة بن نافع، فاتح إفريقيا، الذي اختار موقعها كقاعدة للفتوحات الإسلامية وملأها آمناً في حالة النكسات. احتلت المدينة مكانة مرموقة كعاصمة غربية للعالم الإسلامي لمدة ثلاثة قرون، واشتهرت بكونها مركزاً للعلوم والدين والتعلم. ورغم تراجع أهميتها السياسية بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة عام 973م، إلا أنها حافظت على مكانتها الدينية وأصبحت ثاني أهم مدن إيالة تونس. تستمد القيروان قدسيتها من احتضانها لضريح الصحابي أبي زمعة البلوي رضي الله عنه، تلميذ النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحلاقه المقرب. وتخضع المدينة تاريخياً لحكم عائلة القايا، حيث يتولى حالياً إدارتها سيدي عثمان المرابط عبر ابنه نظراً لإصابته بالشلل. ورغم أن سلطة القايا كانت في السابق أقوى مما هي عليه اليوم، وكانت قادرة على تحدي الباي رغم خضوعها الاسمي له، إلا أنهم ما زالوا يتمتعون باستقلالية نسبية في إدارة أراضيهم. تتميز المدينة بمسجدها الرئيسي الذي يعد من أبرز معالمها، كما تحظى بمكانة خاصة في نفوس سكانها المحليين. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

John Clark Kennedy, op.cit, pp 128-129.

² Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2..., op.cit, pp V-VI.

العمل في توثيقه الدقيق للفترة الممتدة بين عامي 1832-1833، حيث قدم رسداً منهجياً شاملاً للمناطق والمعالم الأثرية في الإيالة التونسية¹.

تميز منهج تيمبل غرينفيل Temple Grenville في دراسته بالموضوعية العلمية، متجاوزاً أسلوب السرد الرحلي التقليدي إلى تقديم توثيق منهجي شامل للبلاد. وقد برز اهتمامه الخاص بالموقع الأثري لقرطاج²، حيث قدم دراسة تفصيلية للمكتشفات الأثرية، مستفيداً من خلفيته المعرفية العميقة بتاريخ العصور القديمة. وقد شكلت هذه الدراسة مرجعاً أساسياً للأجيال اللاحقة من علماء الآثار.

لم يقتصر اهتمام تيمبل غرينفيل Temple Grenville على الآثار القديمة فحسب، بل امتد ليشمل العمارة الإسلامية المحلية، حيث قدم توثيقاً دقيقاً للتقنيات المعمارية وأساليب البناء التقليدية. أضاف تيمبل غرينفيل Temple Grenville قيمة عملية لدراسته من خلال ملحق يتضمن معلومات ذات أهمية مزدوجة للباحثين والسياح على حد سواء. واهتم بتوثيق المعلومات

¹ Demarsy, Essai Bibliographie Tunisienne ou indication des principaux ouvrages publiés en France sur la Régence de Tunis, Paris, 1869, p 23.

² قرطاج : مدينة تاريخية تقع عند رأس يمتد شمالاً، وتتميز بموقعها الاستراتيجي قرب بحيرة تونس التي يفصلها عن البحر شريط ضيق من الأرض. شهدت المنطقة تحولات جغرافية كبيرة عبر التاريخ، فبعد أن كانت البحيرة ميناءً عميقاً وواسعاً في القرن السادس الميلادي، يشهد على ذلك رسو أسطول بيليساريوس المكون من 600 سفينة عام 533م، تحولت مع مرور الزمن إلى مسطح مائي ضحل. وقد شهدت البحيرة تغيراً آخر قبل أربعة عشر عاماً من كتابة النص، حين اخترق البحر ضفتها خلال عاصفة عنيفة، مما أدى إلى تشكيل قناة ثانية وتوسع البحيرة لتصل إلى محيط يبلغ ثلاثين ميلاً، بعمق يصل إلى عشرة أقدام في أعماق نقطة. تتصل المنطقة بالبحر عبر ممر مائي يعرف باسم "غوليتا"، وتتميز المنطقة بوجود طيور النحام في مياهها الضحلة. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

العملية كأسعار السفر والطعام، مما جعل عمله مصدراً شاملاً يجمع بين القيمة العلمية والفائدة العملية للمسافرين اللاحقين¹.

يمثل عمل تيمبل غرينفيل Temple Grenville نموذجاً متميزاً في أدب الرحلات يجمع بين المنهجية العلمية والخبرة العملية، حيث اتخذ شكل مذكرات سفر غنية بالملاحظات المتعمقة. وتكمن أهمية هذا العمل في توجهه المزدوج نحو فئتين مستهدفتين من القراء: الباحثين الأكاديميين والمسافرين. فبالنسبة للباحثين، قدم توثيقاً علمياً دقيقاً للمواقع الأثرية وتحليلاً معمارياً للمنشآت التاريخية، إضافة إلى دراسات تفصيلية للنظم الاجتماعية والثقافية. أما للمسافرين، فقد وفر معلومات عملية قيمة عن طرق السفر والتكاليف، مع وصف دقيق للمسارات وملاحظات مهمة عن العادات المحلية وأساليب التعامل. هذا المزج المنهجي بين الأسلوبين العلمي والعملية جعل من عمله مصدراً شاملاً يلبي احتياجات كلا الفئتين².

¹ Myriam Bacha, op.cit, p 33.

² Ibidem.

12 -إليزابيث موراي Elizabeth Murry :

ولدت إليزابيث هيفاي Elizabeth Heaphy ، الفنانة الإنجليزية المرموقة، في لندن عام 1815م في عائلة متجذرة في الفن. كان والدها توماس هيفاي Thomas Heaphy¹ فناناً، ووالدتها ماري ستيفنسون Mary Stevenson². نشأت في بيئة فنية ثرية حيث برز إخوتها أيضاً كفنانيين مشهورين في المشهد الفني الإنجليزي خلال القرن التاسع عشر. وقد شكل هذا الموروث العائلي والبيئة الإبداعية مساراً فنياً متميزاً لإليزابيث هيفاي Elizabeth Heaphy في تاريخ الفن البريطاني³.

وفي ضوء هذا التكوين الفني المتميز وتماشياً مع طموحاتها الإبداعية، انتقلت إليزابيث هيفاي Elizabeth Heaphy إلى طنجة عام 1842م، حيث أمضت تسع سنوات هناك. وفي عام 1846م، تزوجت من هنري جون موراي Henry John Murray ، الذي كان يشغل

¹ توماس هيفاي: ولد في لندن في 29 ديسمبر 1775، كان في البداية يعمل في صباغة الأقمشة ثم أصبح نحاساً، وأخيراً كرس نفسه للرسم الزيتي والألوان المائية. تلقى تعليماً فنياً جيداً، إذ درس في الأكاديمية الملكية للفنون في لندن، حيث عرض أعماله لأول مرة عام 1797. وفي عام 1802م، تزوج توماس من ماري ستيفنسون، ابنة ويليام ستيفنسون، وهو عضو في البرلمان عن مقاطعة دورهام. كان للزوجين عشرة أطفال، وكانت إليزابيث هي الابنة السابعة. كان توماس هيفاي رساماً ناجحاً، وحصل على العديد من التكاليفات لرسم صور للأرستقراطيين والمشاهير الآخرين. كان أيضاً عضواً مؤسساً لجمعية الفنانين البريطانيين، وعرض أعماله هناك بانتظام. للاستزادة انظر إلى:

José Luis García Pérez, Elizabeth Murray: Un Nombre en el Siglo XIX, Memoria de Licenciatura dirigida por La Doctora, Universidad de La Laguna, 1979-1980, p. 29

² ماري ستيفنسون: ولدت في لندن عام 1780، كانت ماري امرأة مثقفة تهتم بالفن والأدب، وكانت أمّاً مخلصه، دعمت أطفالها في مساعيهم الفنية. للاستزادة أكثر انظر إلى:

José Luis García Pérez, op. cit., p. 29

³ Ibidem.

منصب القنصل البريطاني في المغرب. وبعد زواجها، ارتبطت حياتها بمهام زوجها الدبلوماسية، وبدأت تُوقع أعمالها الفنية باسم "إليزابيث موراي" بدلاً من اسمها السابق الذي استخدمته في أعمالها قبل عام 1846¹. (ينظر الى الملحق رقم 10)

شهدت إليزابيث موراي **Elizabeth Murry** في عام 1844م حدثاً تاريخياً بارزاً - معركة إيسلي - التي وقعت على الأراضي المغربية. اندلعت المعركة عندما شن المارشال بوجو **Maréchal Bugeaud**، قائد القوات الفرنسية، هجوماً على المغرب، كرد انتقامي على دعم المغاربة للأمير عبد القادر في مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر. وخلال هذه الأحداث الدامية، وبحكم موقعها كزوجة القنصل البريطاني، اضطلعت إليزابيث موراي **Elizabeth Murry** بدور إنساني مهم في حماية المواطنين البريطانيين المقيمين في المنطقة².

على الرغم من الظروف السياسية المضطربة في المغرب، استطاعت إليزابيث موراي **Elizabeth Murry** أن تحول إقامتها إلى تجربة ثقافية وفنية ثرية. فقد تأثر نتاجها الفني بشكل ملحوظ بتقلات زوجها الدبلوماسية، مما انعكس على موضوعات لوحاتها وأساليبها الفنية. اهتمت موراي بتوثيق مختلف جوانب الحياة المغربية، من المشاهد الطبيعية إلى الأسواق التقليدية والحياة الاجتماعية للنساء المغربيات اللاتي شكلن محوراً رئيساً في أعمالها الفنية. حولت إليزابيث موراي **Elizabeth Murry** مسكنها في المغرب، الذي أطلقت عليه "منزلي الصغير"، إلى نموذج معماري يجمع بين الطرازين المغربي والإنجليزي، حيث زينته بالنقوش

¹ José Luis García Pérez, op.cit, p 45.

² Ibid, p 10.

النباتية والزخارف التقليدية. وخلال فترة القصف الفرنسي للمدينة، تحول منزلها إلى مستودع للسلع التجارية.

وثقت موراى تجاربها في المغرب في مؤلفها الموسوم بـ

"Sixteen Years of an Artist's life in Morocco, Spain and the Canary Islands"

"ستة عشر عاماً من حياة فنانة في المغرب وإسبانيا وجزر الكناري" الذي نُشر في لندن عام 1859م في مجلدين.

تناول المجلد الأول، المكون من ثمانية عشر فصلاً، رحلاتها المتنوعة، وقد أفردت منها سبعة فصول لتوثيق تجربتها في المغرب، متتبعاً المراحل المفصلية في حياتها منذ وصولها إلى طنجة، مروراً بفترة إقامتها، وانتهاءً بزواجها من السيد موراى. وقد زُين الغلاف الخلفي للكتاب بمشهد طبيعي مغربي نُقش لاحقاً بريشة تي بيكين. واختتمت إقامتها في المغرب عام 1850م إثر تعيين زوجها قنصلاً في جزر الكناري، حيث عبّرت عن هذا التحول بقولها المؤثر: " كان عليّ الآن، مرة أخرى، أن أبدأ من جديد "¹.

في كتابها البالغ 353 صفحة، قدمت المؤلفة نظرة شاملة عن الحياة في المغرب، مع تركيز خاص على مدينة طنجة خلال القرن التاسع عشر. بدأت رحلتها بوصف العبور عبر جبل طارق، ثم انتقلت إلى توثيق تفاصيل الحياة اليومية في طنجة، من الإقامة في الفنادق المحلية إلى استكشاف ميناء طنجة والمعالم البارزة في المدينة. تعمقت في وصف الجوانب الثقافية والاجتماعية للمجتمع المغربي، حيث تناولت الممارسات الدينية والتعليمية، والعادات المتعلقة بالطعام، والاحتفالات المهمة مثل رمضان وحفلات الزفاف . كما استكشفت المعتقدات

¹ José Luas Garcia Perez, op.cit, p 46.

والخرافات المحلية، ودور البعثات الأجنبية في المغرب، والحياة الاجتماعية للسيدات من خلال وصف نزعاتهن. وتطرق أيضاً إلى قضايا اجتماعية مهمة مثل وضع الزوجات في المجتمع المغربي والعبودية، كما تناولت التنوع الديني من خلال وصف الاحتفالات اليهودية مثل عيد البوريم وعيد الفصح، مقدمةً بذلك صورة متكاملة عن الحياة الاجتماعية والثقافية في المغرب خلال تلك الفترة التاريخية¹.

وبهذا يمثل كتاب "ستة عشر عاماً من حياة فنانة في المغرب وإسبانيا وجزر الكناري" نموذجاً متميزاً في أدب الرحلات الإنجليزي، حيث نجحت إليزابيث موراي من خلال رؤيتها الفنية الخاصة في تقديم توثيق شامل ودقيق للمجتمع المغربي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. فمن خلال مجلداتها الأول بفصوله الثمانية عشر، وخاصة الفصول السبعة المخصصة لتجربتها في المغرب، استطاعت أن تقدم صورة متكاملة عن الحياة في طنجة وضواحيها، بدءاً من رحلة وصولها عبر جبل طارق وحتى مغادرتها إلى جزر الكناري عام 1850م. وقد جعل هذا التوثيق المفصل والشامل من مؤلفها مصدراً تاريخياً مهماً لدراسة المجتمع المغربي في تلك الحقبة².

13 - جيمس ريتشاردسون James Richardson :

رحالة و مستكشف إنجليزي، ولد في مقاطعة لنكولن شاير Lincolnshire البريطانية عام 1806م. تلقى تعليماً دينياً في مجال الخدمة الإنجيلية، وقد شكل تدريبه المبكر وروحه المغامرة دافعاً قوياً لديه للجمع بين نشر المسيحية ومكافحة تجارة الرقيق في القارة الأفريقية³.

¹ Elizabeth Murray, Sixteen years of an artist's Life in Morocco, Spain and Canary Island, Vol1, Hurst and Blackett Publishers, London, 1859, pp I-II.

² José Luis García Pérez, op.cit, pp 76-77.

³ Sidney Lee, Dictionary of National Biography, vol48, Smith elder, London, 1896, p 226.

اتخذ جيمس ريتشاردسون **James Richardson** من جزيرة مالطا قاعدة لنشاطه، حيث عمل في الصحافة وتعلم اللغة العربية ودرس الجغرافيا، استعداداً لرحلاته الاستكشافية في شمال غرب أفريقيا.

كانت أولى رحلاته الرئيسية إلى المغرب، حيث يُرجح أنه وصل إلى مدينة الصويرة عام 1844م. جاءت زيارته في فترة تاريخية حساسة، قبيل معركة إيسلي 14 أوت 1844م بعام تقريباً. في أعقاب هذه الأحداث المفصلية، شهد المغرب توقيع معاهدة لالة مغنية مع فرنسا في 18 مارس 1845م.¹

واجه جيمس ريتشاردسون **James Richardson** صعوبات مالية أجبرته على اختصار إقامته في المدن الساحلية المغربية. غير أنه واصل رحلاته عبر الجزائر وتونس وطرابلس في ربيع 1845. وفي أثناء تجواله، اطلع على مقال مثير نشره سبتل **Subtil** في مجلة الشرق الباريسية **Revue L'orient** عن مدينة غدامس، مما أثار فضوله وحفزه للسفر إليها.²

بدأت الرحلة البحرية ثمانية أيام حتى وصل إلى طرابلس في 15 ماي. أقام في طرابلس عدة أسابيع قبل أن يغادرها في 12 أوت متجهاً نحو غدامس.

سلك المستكشف طريق خبزور والزاوية الغربية حتى وصل إلى قصر بفرن في 16 أوت. وهناك قرر الانفصال مؤقتاً عن القافلة لدراسة منطقة الرحيبان وكهوفها **Trogloditico** ، حيث وثّق الظروف المعيشية للسكان المحليين الذين - حسب ملاحظاته - كانوا يتطلعون إلى تدخل أوروبي يخلصهم من الحكم العثماني.

¹ Khalid Ben Sghir and Lahoucine Aammari, "James Richardson's "Abolitionist and civilizing " Tour in The Sharifian Empire ", **Hespéris Tamuda**, Rebat, 2021, p 331.

² Oscar Mac Carthy, " Voyage dans le Grand Désert de Sahara en 1845-1846 par James Richardson", **Revue de l'orient de l'Algerie et Colonies**, Tome III , Paris, 1848, p 129.

استأنف رحلته عبر سناون حتى وصل إلى غدامس في 25 أوت، ليكون بذلك أول المستكشفين المعاصرين الذين سلكوا الطريق التقليدي بين الساحل الطرابلسي والواحة. أمضى في غدامس ثلاثة أشهر كاملة، أجرى خلالها دراسة شاملة لمختلف جوانب الحياة في المدينة، شملت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، والعادات والتقاليد، والتاريخ والنشاط التجاري.

في 25 نوفمبر، غادر غدامس متجهاً نحو غات في رحلة استغرقت عشرين يوماً. حاول مواصلة رحلته نحو السودان لكنه واجه معارضة من زعماء المنطقة، مما دفعه إلى تغيير وجهته نحو فزان.

بدأ رحلة العودة من غات في 5 فيفري 1846م برفقة قافلة تجارية، ووصل إلى مرزق في 22 من الشهر نفسه. غادر مرزق في 5 مارس متجهاً إلى طرابلس في رحلة استمرت حتى 8 ماي 1846م، مروراً بسوكنة وأبي نجيم ومصراتة¹.

عاد إلى طرابلس مرة أخيرة في 18 أبريل 1847م قبل رجوعه النهائي إلى إنجلترا².

وبعد ثلاث سنوات من عودته إلى لندن، نشر جيمس ريتشاردسون James Richardson في عام 1848م كتابه الثاني المكون من مجلدين بعنوان :

"Travels in The Great Desert of Sahara in The years of 1845-1846"

"رحلات في الصحراء الكبرى في السنوات 1845-1846"

تكمن أهمية هذا العمل في تقديمه وصفاً تفصيلياً لطرابلس (1845-1846م). قدم الكتاب معلومات وافية عن السكان ، مع تركيز خاص على الحياة في المدن. غير أن تصويره للمجتمع

¹ اثيلو موري، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا، تع: خليفة محمد التليسي، مكتبة الفرجاني، طرابلس-ليبيا، 1971، ص ص 44-45.

² Sidney Lee, op.cit, p 226.

الطربلسي اتسم بنظرة غير واقعية ومبالغ فيها، وفي بعض الأحيان عبّر عن مشاعر الصدمة والنفور.

نجح جيمس ريتشاردسون **James Richardson** خلال إقامته في إنجلترا في كسب دعم وزير الخارجية اللورد بالمرستون **Lord Palmerston** لمشروع استكشاف الصحراء والسودان. وتوسيعاً لنطاق المشروع، زار باريس في سبتمبر 1849م، ونجح بمساعدة السفير البروسي في لندن بونس **Bunsen** في ضم العالمين الألمانين بارث وأوفيرفيغ **Berth and Overber** إلى البعثة الممولة من الحكومة البريطانية لاستكشاف بحيرة تشاد.

قبل انطلاق مغامرته الثالثة والأخيرة، تزوج جيمس ريتشاردسون **James Richardson** واصطحب زوجته إلى طرابلس، حيث بقيت في انتظار عودته. بدأ المستكشفون الثلاثة رحلتهم من طرابلس في 23 مارس 1850م، ووصلوا إلى غات في 24 جويلية، ثم واصلوا حتى بلغوا آير على الحافة الجنوبية للصحراء. غير أن القدر لم يمهلهم لإكمال رحلته، إذ تدهورت صحته بشكل حاد متأثراً بالمناخ الأفريقي القاسي، حتى وافته المنية في أونغوراتونا في 4 مارس 1851¹.

ترك ريتشاردسون إرثاً علمياً وأدبياً ثميناً، ومن أبرز مؤلفاته عن بلاد المغرب كتابه

"**Travels in Morocco**".

يتألف هذا العمل من مجلدين يوثقان رحلته الأولى، وقد نُشر بعد تسع سنوات من وفاته، أي في عام 1860م.

¹ Sidney Lee, op.cit, p 227.

يتميز الكتاب بمقدمة مزدوجة: الأولى كتبها صديق العائلة الملازم ترينت جريف **Trent Greve**، والثانية كتبها زوجة ريتشاردسون. في مقدمته، ركز جريف على أهمية فهم المجتمع المغربي، لكنه تبنى رؤية متعالية تضع إنجلترا كنموذج للحضارة، معتبراً أن المغرب بحاجة إلى التحضر والتعليم. أما زوجة ريتشاردسون، فحاولت إبراز البعد الإنساني لمهمة زوجها في مكافحة تجارة العبيد، غير أن هذا الطرح كان في حقيقته ذريعة تخفي وراءها أهدافاً تبشيرية وأطماعاً إمبريالية، تسعى لاختراق المغرب من خلال دراسة مؤهلاته ومقوماته¹.

وفي تأليفه للكتاب، اعتمد جيمس ريتشاردسون **James Richardson** على مصادر متنوعة، فاقتبس بشكل موسع من كتابات الرحالة السابقين، وعلى رأسهم الحسن الوزان (ليون الأفريقي)، كما استفاد من كتابات معاصريه مثل جيمس غراي جاكسون ووليام لومبرير وغيرهم من الرحالة².

يكشف التحليل النقدي لكتابات جيمس ريتشاردسون **James Richardson** عن تناقض جوهري في الفكر الاستعماري. فبينما يدّعي تبني مبدأ المساواة الإنسانية، نجده يصور المجتمعات المغربية كمجتمعات متخلفة بحاجة إلى "إنقاذ". هذا التناقض خدم هدفين رئيسيين:

- إضفاء الشرعية على ما يُسمى "المهمة الحضارية" للقوى الاستعمارية
- ترسيخ صورة نمطية تصف المغاربة كشعب بدائي

وظف ريتشاردسون قضية العبودية كأداة خطابية لتشويه صورة المجتمع المغربي وتصويره كمجتمع منحط أخلاقياً، مما يبرر - من وجهة نظره - التدخل الاستعماري. كما عمد إلى

¹ Khalid Ben Sghir and Lahoucine Aammari, op.cit, p 334.

² Sidney Lee, op.cit, p 227.

تضخيم الاختلافات الدينية والثقافية والاجتماعية لخلق تباين حاد بين ما أسماه "الغرب المتحضر" و"الشرق المتخلف"¹.

14 - جون كينيدي كلارك John kennedy Clark :

الجنرال جون كينيدي كلارك John kennedy Clark ، المنحدر من أصول اسكتلندية، يُعد من الشخصيات العسكرية البارزة في الجيش البريطاني خلال القرن التاسع عشر. نشأ في بيئة عسكرية، إذ كان والده السير ألكسندر كينيدي كلارك Sir Alexander Kennedy Clark أحد فرسان الجيش الملكي البريطاني المتميزين في معركة واترلو.

بدأ جون كينيدي كلارك John kennedy Clark مسيرته العسكرية في مارس 1837م بتعيينه في رتبة ملازم بالجيش الملكي البريطاني. وقد أظهر كفاءة عسكرية ملحوظة في مهامه المختلفة، حيث شارك في البعثة العسكرية إلى الصين عام 1842م، مما أدى إلى منحه وساماً عسكرياً نظير جهوده المتميزة في هذه المهمة².

شهدت مسيرته العسكرية مشاركة فعالة في حرب السيخ الثانية عام 1847م بين الهند وبريطانيا، حيث حصل على وسام عسكري تقديراً لإنجازاته. امتدت خدماته العسكرية والدبلوماسية لتشمل مشاركات مهمة في حرب القرم، إضافة إلى مهام في كل من سردينيا، والدولة العثمانية، ومصر، والحبشة.

¹ Khalid Ben Srhir and Lahoucine Aammari, op.cit, p 336.

² Leslie Stephen, The Dictionary of National Biography, Vol 10, London, 1887, p 412.

انتهت مسيرته العسكرية بشكل مؤسف في 18 ديسمبر 1867م، إذ توفي في الحبشة (إثيوبيا حالياً) متأثراً بمرض الزحار الذي أصابه أثناء وجوده في مصر¹. ترك كلارك إرثاً عسكرياً حافلاً بالإنجازات في خدمة التاج البريطاني.

في عام 1845م، قام الجنرال جون كينيدي كلارك John kennedy Clark برحلة استكشافية إلى الدول المغاربية، متوجهاً إلى الجزائر وتونس. تعددت دوافع رحلته، إذ سعى إلى الاستكشاف المباشر والتوثيق العلمي الدقيق للمنطقة، متجاوزاً الروايات المتداولة، وهاذفاً إلى رصد الحياة اليومية والثقافية بموضوعية علمية.

تمثل هدفه الرئيسي في تقديم دراسة موثقة وشاملة للقراء الغربيين، لا سيما في ظل محدودية المصادر الدقيقة عن المنطقة في تلك الفترة. كما اهتم باستكشاف الأهمية التاريخية لتونس ودورها المحوري في تشكيل تاريخ المنطقة، حريصاً على تقديم صورة موضوعية عن البلاد وسكانها، مبتعداً عن الأحكام المسبقة والتحليلات السياسية المتحيزة.

حرص جون كينيدي كلارك John kennedy Clark ، على غرار العديد من الرحالة والدبلوماسيين الذين زاروا المنطقة المغاربية، على تدوين ملاحظاته بمنهجية علمية دقيقة². جمع هذه الملاحظات في مؤلف نشره عام 1846م بعنوان :

" الجزائر وتونس في 1845 "

Algeria and Tunis in 1845

¹ Leslie Stephen, op.cit, p 413.

² John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1845, Vol 1, Henry Colburn Publisher, London, 1846, p (Preface).

الذي جاء في مجلدين. خصص المجلد الأول لدراسة الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، في حين كرس المجلد الثاني، موضوع دراستنا، لتونس التي كانت تحت حكم الأسرة الحسينية في الفترة السابقة للاستعمار.

بدأت رحلة كينيدي إلى تونس في 4 أفريل عام 1845م، منطلقاً بحراً من قسنطينة، ليصل إلى ميناء حلق الوادي مساء 6 أفريل 1845م¹. وثق تجربته في تونس بشكل مفصل في المجلد الثاني من كتابه، الذي اشتمل على ثلاثة عشر فصلاً. استهل المجلد بوصف دقيق لميناء تونس وتاريخه، مقدماً دراسة تحليلية عن المدينة وتركيباتها السكانية وموقعها الاستراتيجي. تمكن خلال إقامته التي امتدت لثلاثة أسابيع من استكشاف معالم تونس الرئيسية، بما في ذلك قصر باردو والأسواق التقليدية، كما حظي بمقابلة الباي أحمد باي، قدم خلاله وصفاً دقيقاً للبروتوكول الرسمي والحياة في القصر².

شرع بعدها في رحلة ميدانية عبر البلاد التونسية، زائراً المواقع التاريخية في قرطاج³ وسوسة⁴، والمهدية⁵، وصفاقس⁶، والقيروان⁷. وثق بمنهجية علمية الآثار الرومانية والبيزنطية والإسلامية، مسجلاً ملاحظاته عن الحياة اليومية للسكان وعاداتهم. كما قدم تحليلاً للجوانب الاقتصادية والتجارية في المدن التي زارها، مركزاً على الصناعات المحلية، خاصة إنتاج زيت الزيتون والصابون، مقارناً إياها بما شاهده في رحلات سابقة إلى مناطق البحر المتوسط.

¹ John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1845, Vol 1..., op.cit, pp 303-304.

² John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, ..., op.cit, pp 10-12

³ Ibid, pp 30-31

⁴ Ibid, p 67

⁵ Ibid, pp 90-91

⁶ Ibid, p 110

⁷ Ibid, p 128

شملت دراسته وصفاً علمياً للتنوع البيئي والحياة البرية في تونس، موثقاً أنواع الطيور والحيوانات التي رصدها. اختتم رحلته بالعودة إلى تونس العاصمة، حيث قدم تحليلاً شاملاً لنظام الحكم والبنية الاجتماعية والثقافية في البلاد.

15 - جيمس هاملتون James Hamilton :

يُعد جيمس هاملتون James Hamilton من أبرز الرحالة الاسكتلنديين الذين اهتموا بمنطقة المغاربية. تميز بإتقانه للغة العربية واهتمامه العميق بدراسة تاريخ ليبيا القديم، ولا سيما الحقتين اليونانية والرومانية في إقليم برقة¹.

شرع جيمس هاملتون James Hamilton في رحلته منتصف عام 1852م، متخذاً من مالطا نقطة انطلاق إلى بنغازي. ومنها انتقل براً إلى قورينا (عين شحات)، حيث حظي باستقبال حافل من الوالي العثماني المكلف بإدارة الإقليم. وفي 12 سبتمبر، توجه إلى درنة للاستقصاء عن تفاصيل الحملة الأمريكية السابقة ضد القرصنة البربرية.

عقب ذلك، عاد جيمس هاملتون James Hamilton إلى بنغازي مروراً بطولميثة وتوكره، ثم اتجه جنوباً نحو الواحات. سلك طريقاً عبر أوجلة وجالو وجغبوب وصولاً إلى واحة سيوة². في سيوة، واجه مقاومة شديدة من السكان المحليين، إذ نشب النزاع حين حاولوا منعه من زيارة المواقع الأثرية في المنطقة.

دافع جيمس هاملتون James Hamilton عن حقه في التنقل والاستكشاف مستنداً إلى جواز سفره وقرمان السلطان العثماني. أكد احترامه للأعراف المحلية وتقاليد الضيافة، مشدداً على

¹ ميلاد امجد الزليتي، المرجع السابق، ص 468.

² G.R.H.Wright, "James Hamilton in Tripoli, 1855-1856, The Strang Sequel to Wandings in North Africa", **Libyan Studies**, N° 37, Cambrige University Press, 2006, p58

نواياه السلمية وعدم رغبته في التدخل بالشؤون المحلية. خلال مفاوضاته مع وجهاء القرية والمفتي، تعرض لاتهامات بالتطفل وسوء الأدب. غير أنه ظل متمسكاً بحقه في معاينة الآثار، مستشهداً بالشرعية الإسلامية والمعاهدات الدولية التي تكفل حمايته¹.

أفضت المفاوضات المطولة إلى اتفاق مؤقت يتيح للرحالة زيارة بعض المواقع في اليوم التالي، أملاً في تهدئة الأوضاع. بيد أن الموقف تأزم ليلاً حين تعرضت خيمته لإطلاق النار، مما اضطره إلى الفرار طلباً للنجاة².

التجأ جيمس هاملتون إلى منزل الشيخ يوسف مستجيراً به. ومن هناك، شاهد جمعاً من المسلحين يتجهون صوب مخيمه، ظناً منهم أنه ما زال فيه. وبفضل تدخل الشيخ يوسف، أمكن حماية متعلقات الرحالة من النهب³.

اضطر جيمس هاملتون **James hamilton** إلى التفكير في مغادرة سيوة فوراً، إلا أن السكان المحليين حالوا دون ذلك بمنعهم العرب من تأجيره الإبل اللازمة للرحلة. وحين سعى إلى إيجاد وسائل بديلة للمغادرة، وردته تحذيرات من احتمال نصب كمين له خارج الواحة⁴. وفي محاولة لتجاوز هذا المأزق، راسل القنصل البريطاني في القاهرة طالباً العون، مما أثار مخاوف الأهالي من احتمال التدخل العسكري، ودفع زعماء القرية إلى استئناف المفاوضات معه⁵.

قضى جيمس هاملتون **James hamilton** الأسبوعين التاليين محتجزاً في غرفة بمنزل الشيخ يوسف. ورغم تقييد حريته، شهدت تلك الفترة أحداثاً متلاحقة، من إطلاق نار تحذيري إلى

¹ James Hamilton, Winding in North Africa, John Murry Albemarle Street, London, 1856, pp 240-241

² Ibid, p 242-243.

³ Ibid, pp 243-244.

⁴ Ibid, pp 246-247

⁵ Ibid, p 248.

تحركات عدائية من قرية مجاورة، فضلاً عن مساعٍ دبلوماسية من المشايخ المحليين لإقناعه بالمغادرة مقابل عدم رفع شكوى للسلطات المصرية¹.

اختتم جيمس هاملتون James Hamilton رحلته الأولى في القاهرة، حيث أنجز في الأول من سبتمبر 1853م تأليف كتابه :

Wanderings in North Africa.

" جولات في شمال أفريقيا"² نشر الكتاب جون موراي في لندن عام 1856م³.

احتوى الكتاب على واحد وعشرين فصلاً، يستعرض فيها تفاصيل رحلته وملاحظاته. خصص الفصل الأول لوصف رحلته من مالطا إلى بنغازي، متناولاً طبوغرافية المدينة وديموغرافيتها، والحياة اليومية فيها، والأوبئة المتفشية، ونظام الحكم، والمعالم الأثرية. كما تطرق إلى الأزياء التقليدية، والنشاط التجاري والحرفي، مع تركيز خاص على دور الجالية اليهودية.

تناولت الفصول اللاحقة استعدادات هاملتون لمغادرة بنغازي، ووصف رحلاته عبر المناطق المختلفة، مستقصياً المواقع الأثرية، ومتفاعلاً مع المجتمعات المحلية. قدم توثيقاً دقيقاً للتضاريس الطبيعية، وأنماط الحياة اليومية، والموروث الثقافي في المناطق التي ارتحل إليها.

¹ James Hamilton, op.cit, p 249.

² G.R.H.Wright, op.cit, p 58.

³ James Hamilton, op.cit, p (introduction).

يمثل كتاب "جولات في شمال إفريقيا" مصدراً مرجعياً في الدراسات الأثرية لمنطقة برقة، جامعاً بين المنهجية العلمية وأدب الرحلات، مما جعله ركيزة أساسية للباحثين في تاريخ المنطقة وآثارها¹.

ظل الاعتقاد السائد لسنوات أن جيمس هاملتون كان مجرد مستكشف شغوف ورحالة فضولي، يجوب برقة موثقاً معالمها الأثرية. غير أن الدراسات المعاصرة كشفت عن دور أكثر تعقيداً، إذ كان يؤدي مهمة مزدوجة: فإلى جانب نشاطه العلني كباحث، كان يعمل سراً كعميل استخباراتي، يجمع معلومات استراتيجية عن المنطقة وسكانها².

يضيف هذا الكشف أهمية إضافية على كتاب جيمس هاملتون، بوصفه وثيقة تجمع بين الدقة العلمية في الرصد الأثري، والتحليل الاستراتيجي للمنطقة. وبذلك يظل عمله شاهداً على تداخل المصالح العلمية والسياسية في عصر الفكتوري، ومصدراً أساسياً لفهم تاريخ برقة وآثارها في منتصف القرن التاسع عشر.

16 - لويس وينجفيلد Lewis Wingfield :

أحد أبرز الرحالة البريطانيين الذين أسهموا في توثيق الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة المغاربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولد في العاصمة البريطانية لندن عام 1842م، لأبوين هما ريتشارد وينجفيلد Richard Wingfield ووالدته إليزابيث فرانسيس Elizabeth Francis، وكان أصغر أبنائهما. تلقى تعليمه في مؤسستين

¹ G.R.H.Wright, op.cit, p 57.

² Monika Rekowska, " Ptolemais in ealy European research and Topography of the city in travellers' accounts", Northeast African Studies, N°7, Warsaw, 2000, p10.

عريقتين: مدرسة إيتون **Eton** البريطانية المرموقة، ثم أكمل دراسته في جامعة بون **Bonn** الألمانية.

على الرغم من رغبته في الانخراط في السلك العسكري، إلا أن معارضة والدته حالت دون تحقيق هذا الطموح¹. وفي عام 1865م، اتجه نحو مسار مهني مختلف بانضمامه إلى المسرح اللندني، لكن شغفه بالاستكشاف والتتقل دفعه إلى ترك المسرح بعد فترة وجيزة، ليبدأ بعدها مرحلة جديدة من حياته كرحالة. تميزت رحلاته باتساع نطاقها الجغرافي، حيث قام برحلات استكشافية في المشرق، وسجل لنفسه مكانة تاريخية كأحد الرواد البريطانيين الذين اخترقوا المناطق الداخلية للصين في وقت كانت فيه هذه المناطق شبه مغلقة أمام الأجانب².

بدأت الرحلة الاستكشافية للرحالة الإنجليزي لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** في الدول المغاربية مع وصوله إلى الجزائر في 24 ديسمبر 1866م³، حيث تجول في مدنها المتعددة قبل أن يبحر نحو تونس⁴. وثّق هذه الرحلة في مؤلفه القيم بعنوان :

"Under The Palms in Algeria and Tunis"

تحت أشجار النخيل في الجزائر وتونس

يتألف مؤلف لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** من مجلدين رئيسيين، يتناول الأول منهما دراسة مقارنة بين الجزائر خلال الفترة الاستعمارية وتونس تحت حكم الأسرة الحسينية، في حين يركز المجلد الثاني على عودته إلى الجزائر ومشاهداته فيها.

¹ John Sutherland, The Longman Companion to Victorian Fiction, Second Edition, London , 2009, p 684.

² Ibid , pp 684-685

³ Lewis Wingfield, Under The palms in Algeria and Tunis, Vol 1, Great Marlborough Street, London, 1868, p 3.

⁴ Ibid, p 233.

وفي سياق دراستنا المتمحورة حول تاريخ الدول المغاربية في حقبة ما قبل الاستعمار، يكتسب القسم المخصص لتونس في المجلد الأول أهمية بالغة. فقد اعتمد لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** منهجية تحليلية رصينة، قسم من خلالها مشاهداته إلى ثلاثة فصول متكاملة. خصص الفصل التاسع¹ منها لتحليل متعمق للبنية السياسية والإدارية في الإيالة التونسية، حيث قدم دراسة تفصيلية شملت عدة جوانب محورية: النظام الجمركي في ميناء حلق الوادي، والمؤسسات الرسمية للدولة مثل فندق فرنسا، والنظام الضريبي الذي أثقل كاهل السكان. كما تطرق إلى العلاقة المضطربة بين الباي ودائنيه، وطبيعة الحكم الاستبدادي السائد آنذاك، ونظام العدالة المطبق، مدعماً تحليله بأمثلة واقعية معاصرة.

انتقل وينجفيلد في الفصل العاشر² إلى رصد النسيج العمراني والاجتماعي للمدينة، فقدم وصفاً تفصيلياً لشوارعها وأسواقها ومصانعها ومنازلها، موثقاً مظاهر الحياة اليومية والاقتصادية من خلال وصف دقيق لأسواق التطريز والملابس والحياة الليلية، بما فيها المقاهي الغنائية والمهرجين ونظام حظر التجول.

أما الفصل الحادي عشر³ والأخير، فقد خصصه وينجفيلد لدراسة أثرية وتاريخية شاملة لمدينة قرطاج، متناولاً معالمها الأثرية وبقايا قصر ديدو والحفريات ومعبد سان لويس. كما قدم تحليلاً عميقاً للتركيبة السكانية في تونس، مستعرضاً اكتشافات المؤرخ نيبور وتاريخ قرطاج في العصر الروماني، ليختتم بوصف شامل للحياة الثقافية والاجتماعية، مركزاً على التنوع الديني والعرقي في المجتمع التونسي، والأوضاع الزراعية والاقتصادية في تلك الفترة التاريخية المهمة.

¹ Lewis Wingfield, op.cit, p 233.

² Ibid, p 273.

³ Ibid, p 290.

تنوعت الدوافع التي حركت اهتمام لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** بالمنطقة المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد أشار في مقدمة كتابه إلى أن ندرة المعرفة البريطانية بالمنطقة وغياب النفوذ التجاري البريطاني فيها كانا من أهم محفزات رحلته الاستكشافية¹. وقد تزامن هذا مع تصاعد ملحوظ للنفوذ الفرنسي في المنطقة، تجسد بشكل خاص في النشاط التجاري المكثف للشركات الفرنسية، لا سيما شركة باستون التي اتخذت من عنابة في الجزائر مقراً لها²، وشركة إفريقية التي نجحت في تأسيس شبكة واسعة من الوكالات التجارية امتدت على طول الساحل التونسي من رأس رو وصولاً إلى بنزرت منذ القرن السادس عشر³.

تميز وينجفيلد عن معاصريه من الرحالة الإنجليز بمنهجيته العلمية الدقيقة في دراسة المنطقة وتوثيق مشاهداته. فبينما اكتفى معظم الرحالة الإنجليز بزيارة المنطقة لأغراض سياحية واستجمامية هرباً من برد بلادهم، انتقد وينجفيلد بشدة إغفالهم لتوثيق مشاهداتهم وتجاربهم، مما أبقى المنطقة مجهولة نسبياً للمجتمع البريطاني. وقد لخص منهجيته في دراسة المجتمعات بقوله: " لكي نعرف شعباً علينا أن نعيش بينهم، وندرس عاداتهم وأخلاقهم، ونستمع إلى شكواهم"⁴.

يكشف التحليل المعمق لكتابات لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** عن تعقيدات الصراع الاستعماري في المنطقة المغربية. فرغم أن الظاهر من كتابه يقدم دراسة مقارنة بين الجزائر

¹ Lewis Wingfield, op.cit, p (preface)

² قدور عبد المجيد، " النشاط الإقتصادي الفرنسي في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني"، مجلة العلوم الانسانية، العدد 28، 2007، ص 272.

³ نفسه، ص 274.

⁴ Lewis Wingfield, op.cit, p VIII.

وتونس¹، إلا أن مضمونه يعكس الأبعاد الاستعمارية المتشابكة في المنطقة. وقد أبرز وينجفيلد مخاوفه من تحول تونس إلى مستعمرة أوروبية، مشيراً إلى أن الاضطرابات الداخلية قد تفتح الباب للتدخل الأجنبي تحت ذريعة حماية السلام العام.

برز التنافس الاستعماري في المنطقة من خلال محورين رئيسيين: الأول يتمثل في السياسة التوسعية الفرنسية التي سعت، انطلاقاً من سيطرتها على الجزائر، إلى بسط نفوذها على كامل شمال إفريقيا في محاولة لإحياء نموذج المستعمرة الرومانية القديمة. أما المحور الثاني فتجسد في المطامع الإيطالية تحت قيادة فيكتور إيمانويل، الذي رأى في تونس، بحكم قربها الجغرافي، فرصة مثالية لتأسيس إمبراطورية استعمارية تنافس القوى الأوروبية الكبرى².

17 - آرثر ليريد Arthur Leared :

آرثر ليري (1822-1874) طبيب إيرلندي من مدينة ويكسفورد Wesford ، قدم إسهامات طبية مهمة، أبرزها تطوير السماعة الطبية STethoscope عام 1851م في دبلن Dublin، حيث ابتكر النموذج ثنائي السماعات بدلاً من النموذج الأحادي. تميز بأبحاثه في الدورة الدموية والجهاز الهضمي، وله مؤلفات طبية باللغة الأيسلندية.³

أجرى آرثر ليري Arthur Leared ، العضو في الجمعية الجغرافية الملكية، أبحاثاً في أيسلندا، ثم قام برحلتين إلى المغرب: الأولى عام 1872م، بهدف مقابلة السلطان في مراكش،

¹ Lewis Wingfield, op.cit, p IX .

² Ibid, p 272

³ Sydney Lee, Dictionary of National Biography, vol 32, Macmillan, New York, 1892, pp 326-327.

لكن الاضطرابات السياسية حالت دون ذلك. والثانية عام 1877م، حيث رافق السفارة البرتغالية كطبيب في زيارتها لمدينة فاس لتهنئة السلطان الحسن الأول بتوليته العرش¹.

نتج عن رحلاته كتاب "المغرب والمغاربة" **Morocco and the Moors**

الذي نُشر في لندن عام 1876م، وأهداه إلى موسى مونتيغيوري **Montefiore Moses** ، المدافع عن حقوق اليهود في المغرب. يتألف الكتاب من سبعة عشر فصلاً: اثنا عشر فصلاً تصف مدن طنجة، والدار البيضاء، ومزغان، والصويرة، ومراكش، وآسفي، وأزمور. أما الفصول الخمسة المتبقية فتحلل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والموارد الطبيعية في البلاد.

تضمن الكتاب سبعة ملاحق تناولت مناخ طنجة والصويرة، والإحداثيات الجغرافية، والتجارة المغربية، والأودية المستخدمة، وزواج شريف وزان، وقصة أسر السيد باتلر **Mr. Butler** . اعتمد آرثر ليريد **Arthur Leared** في مصادره على مذكرات القناصل السابقين، وخاصة هوراس وايت **Horace White** والقنصل السيد لامبرت **M.Lambert** في طنجة ونائب القنصل في آسفي².

أعيد نشر كتاب " المغرب والمغاربة " عام 1891م بتحقيق ريتشارد بورتن **Richard Burton**³، استجابة لطلب أرملة آرثر ليريد **Arthur Leared** . امتازت هذه الطبعة بحذف

¹ خالد شاوش، " قراءة في أدب الرحلة البريطانية لمغرب القرن 19"، عالم الفكر، العدد 1، المغرب، 2014، ص ص 300-301.

² Arthur Leared, Morocco and The Moors, Being in Account of Travels with a General description of the country and its people, sampson Low, London, 1876, p (preface).

³ ريتشارد بورتن: (1821-1890) هو أحد أقطاب الساعد الفكرية و الأدبية بريطانيا في القرن 19م، إلا أن معرفته بالمغرب كانت تقتصر - حسب لامبرت بلايفير روبرت بروان على فصل الشتاء قضاه في طنجة. للاستزادة أكثر أنظر :

معظم الملاحق، مع الإبقاء على قسم الأدوية المغربية، وإضافة دراسة عن مدينة ويلي Volubilis الرومانية ووثيقة جواز سفر آرثر ليري الصادرة عن السلطان المغربي¹.

وفي عام 1879م، نشر آرثر ليري **Arthur Leared** كتابه الثاني "زيارة للبلاط المغربي"

A visit to the court of Morocco في لندن، والذي كان في الأصل محاضرة ألقاها في دبلن **Dublin** عام 1878م أمام الجمعية البريطانية للتقدم العلمي². تناول الكتاب في فصوله الثلاثة مسار رحلته من طنجة إلى مكناس مروراً بالقصر الكبير، ثم وصف مدينة مكناس وقصرها الملكي واستقبال السلطان للبعثة، وأخيراً رحلة العودة عبر فاس والقصر الكبير والعرائش وصولاً إلى طنجة.

أضاف آرثر ليري **Arthur Leared** خمسة ملاحق إلى كتابه، تضمنت سرداً تفصيلياً لمعركة وادي المخازن عام 1578م³، ودراسة لموقع مدينة ويلي الرومانية⁴، ونسخة من جواز سفره السلطاني⁵، وجدولاً بالمدن التي زارها ودرجات حرارتها⁶، ووصفاً لرحلته مع زوجته من طنجة إلى تطوان برفقة المرشد قدور وجندي مغربي⁷.

Sir R.Lambert Playfair and Dr Robert Brown, A Bibliography of Morocco from The Earliest Time to the End of 1891 in Bibliography of Barbary state, vol3, Part IV, John Murray For the Royal Geographical Society, London, 1892, p 366.

¹ Arthur Leared, Morocco and The Moors, Being in Account of Travels with a General description of the country and its people, second Edition, Revised and edited by Sir Richard Burton, sampson Low, London, 1891, p (introduction).

² Arthur Leared, A visit Court of Morocco, Sampson Low , Marston Searle & Rivington, London, 1876, p (preface).

³ Arthur Leared, A visit Court of Morocco..., op.cit, pp 65-68.

⁴ Ibid, pp 69-77.

⁵ Ibid, pp 78-86.

⁶ Ibid, pp 80-82.

⁷ Ibid, pp 82-86.

تُعد كتابات آثر ليري نموذجاً متميزاً لأدب الرحلات في القرن التاسع عشر، متفوقة على سابقتها في جانبين رئيسيين: دقة التوثيق والمنهجية العلمية. ولم يكن تركيزه على الجوانب الجغرافية للمغرب عفوياً، بل جاء استجابة لتطلعات أوروبية تهدف إلى دراسة معالم البلاد وفهم مقوماتها الثقافية وثرواتها الطبيعية¹، مما يميزها عن كتب الأسفار السياحية التقليدية.

18 - أميليا بيريه Amelia Perrier :

أميليا بيريه Amelia Perrier ، الصحفية والروائية الإنجليزية التي ولدت في كورك Kurk عام 1841م. حققت بيريه نجاحاً أدبياً من خلال روايتها *Mea Culpa* التي نشرتها سنة 1869م و "A Good Match" التي نشرتها سنة 1872م، لكن حياتها المهنية تأثرت بشدة بعد وفاة شقيقها عام 1872م إثر مرض، مما أدى إلى تدهور صحتها. دفعتها ظروفها الصحية للسفر إلى المغرب، حيث ألّفت كتابها *A Winter in Morocco* "شتاء في المغرب" نشر بلندن سنة 1873م . توفيت عام 1875م في ساسكس Sussex بعد إصابتها بفشل رئوي.

جاءت رحلة أميليا بيريه Amelia Perrier إلى المغرب في فترة شهدت ذروة النظريات التطورية في أوروبا والتوسع البريطاني في شمال إفريقيا، حيث أصبح التبشير الديني جزءاً أساسياً من المشروع الاستعماري. انعكس هذا السياق في كتابها، إذ خصصت قسماً للحديث عن المعتقدات الدينية في المغرب، متبوعاً بفصل عن العمل التبشيري. صورت البلاد في حالة تراجع، عازية ذلك إلى ما وصفته بالمعتقدات الإسلامية، واقترحت التحول الديني حلاً لهذا الوضع².

¹ Roland Lebel, op.cit, p 137.

² Lhoussain Simour, " Gendered Eyewitness in Narration ; Imaging Morocco in British Women Travel Inspired Narratives in late Nineteenth ", *Anglo Saxonica*, Issue 1, No17, Casablanca, 2020, p 8.

تزامن نشر "شتاء في المغرب" مع تصاعد الخطاب الاستشراقي المؤيد للتوسع الاستعماري. وظفت أميليا بيريه **Amelia Perrier** النشاط التبشيري لدعم المصالح البريطانية، مقدمة رؤية سلبية للإسلام من خلال سردها للعلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية.

يكشف تحليل الكتاب عن خطاب استشراقي واضح في رؤية أميليا بيريه الاستعمارية. قدمت المؤلفة وصفاً سلبياً للمجتمع المغربي في جوانبه الثقافية والدينية والاجتماعية، مستندة إلى مفهوم التفوق الغربي. تمحور سردها حول فكرة "الرسالة الحضارية" للغرب، حيث صورت بريطانيا في دور المنقذ للمرأة المغربية. تجلّى هذا في وصفها للنساء اليهوديات والمسلمات كضحايا للنظام الاجتماعي والديني، وفق تصورهما¹.

لم تكن أميليا بيريه **Amelia Perrier** بالتصوير السلبي للمجتمع المغربي، بل وظفت صوراً نمطية قاسية في وصف المرأة المغربية، فصورتها كامرأة جاهلة ومستعبدة، بغض النظر عن مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، بهدف استدراج التعاطف الغربي وتبرير التدخل الاستعماري تحت شعار "الإنقاذ" و"الحماية".

يكشف تحليل كتابها عن تناقض جوهري، فبينما تتبنى ظاهرياً خطاباً تحريراً يستند إلى مبادئ حقوق الإنسان، تحصر تحقيق هذه الحقوق بالإصلاحات البريطانية. يتجلّى هذا التناقض في أسلوبها الوصفي المتأثر بالفكر الدارويني، حيث تستخدم السمات الجسدية والعرقية لترسيخ فكرة دونية المغاربة.

تصل نظرتها العنصرية ذروتها في استخدام التشبيهات الحيوانية لوصف النساء المغربيات، فتصفهن بـ"الضبع الضاحك المسجون" و"البقرة السمينة الفاترة"، مصورة إياهن ككائنات مستسلمة

¹ Lhoussain Simour, op.cit, p 9.

بلا إرادة. ويمتد خطابها العنصري ليشمل وصف الرجل اليهودي المغربي بتفاصيل جسدية تحط من إنسانيته وتقارنه بالقروء. فهي تعتبر العمل التبشيري المسيحي الحل الوحيد لما تراه "مشاكل" في المجتمع المغربي، كتعدد الزوجات والعبودية. كما ينعكس هذا التناقض أيضاً في موقفها من دور اليهود المغاربة كوسطاء في عملية التنصير، إذ تنتقدهم بسخرية، معتبرة أن دورهم يضعف فعالية العمل التبشيري المسيحي. كما يتأرجح موقفها من المشروع التبشيري نفسه بين الرفض والتأييد.

وبهذا يمكن القول أن أميليا بيريه قدمت نفسها نموذجاً للمرأة الفيكتورية المتنورة، مستندة إلى مزاعم حول تناقضات في الشريعة الإسلامية لتبرير التدخل البريطاني. يمثل كتابها نموذجاً مهماً لدراسة العلاقة بين الخطاب الاستشراقي والمشروع الاستعماري في القرن التاسع عشر¹.

19 - إيميلي كين Emily keene :

تُعد إيميلي كين Emily keene شخصية إنجليزية تركت أثراً بارزاً في تاريخ المغرب. وُلدت لأبٍ إنجليزي يُدعى جون كين John Keene ، الذي شغل منصب مدير سجن في مقاطعة سوري Surrey . أما والدتها فتتحدّر من أسرة ادّعت انتسابها إلى رئيس أساقفة كانتربري Canterbury في إنجلترا .

قدمت إيميلي كين Emily keene إلى طنجة عام 1872م، وهي في 21 من عمرها، للعمل مربيةً لأبناء تاجر أمريكي ثري. ومن الدوافع الرئيسة لهجرتها إلى المغرب رغبتها في التحرر

¹ Lhoussain Simour,op.cit, p 9.

من القيود الاجتماعية والثقافية التي كانت تُفرض على الأسر ذات المكانة الاجتماعية المرموقة في إنجلترا الفيكتورية¹.

وعند وصولها إلى طنجة، استرعت اهتمام شخصية مغربية مرموقة، وهو شريف الوزان. وقد تعرّف عليها خلال الحفلات الموسيقية التي كان يحضرها، إذ أعجب بثقافتها وحسن أدبها. وتذكر إيجيلي كين **Emily keene** في مذكراتها أن شريف الوزان كان متميزاً عن سائر من عرفتهم من المغاربة، ولم تكن تتصور أن حياتها ستشهد تحولاً جذرياً عندما وقعت في حب أحد أبرز زعماء الطريقة الصوفية في المغرب².

واجه زواجهما معارضة شديدة من الطرفين - من أسرة إيجيلي كين **Emily keene** ومن عائلة شريف الوزان والسلطات المغربية. ومع ذلك، وافقت إيجيلي على الزواج بشروط ثلاثة: ألا يتزوج عليها، وأن تحتفظ بحرية ممارسة شعائرها الدينية والتنقل، وأن يتم دفنها في موطنها الأصلي إنجلترا. في المقابل، اشترط شريف الوزان أن ينشأ أبناؤهما على الدين الإسلامي وأن يتلقوا تربية إسلامية³.

وعقب زواجهما، انتقلت إيجيلي كين **Emily keene** للإقامة مع زوجها في مقر الزاوية، حيث أصبحت جزءاً من المجتمع النسائي المغربي، وحظيت بمكانة مرموقة باعتبارها "شريفة الوزان". وخلال إقامتها، أتقنت اللغة العربية واللهجة الطنجاوية⁴.

¹ Lahoucine Aammari, "A woman Traveller in the Moorish sanctum : A look at Emily keene , Shareefa of Wazzan 's My Life Story ", **Prague Journal of English studies**, Volume6, N°1, 2017, pp 11-12.

² Ibid, p p 12-13.

³ Ibid, p 13.

⁴ Emily keene , My Life Story, Edward Arnold, London, 1912,p 9.

بعد ثلاث سنوات من زواجهما، رُزق الزوجان بطفلين: الأول مولاي علي الذي وُلد في 6 جوان 1874م¹، والثاني مولاي أحمد الذي وُلد في 6 سبتمبر 1876م². وقد أظهر شريف الوزان تسامحاً دينياً ملحوظاً تجاه زوجته، إذ كان يصطحبها إلى الكنيسة لممارسة شعائرها الدينية، وسمح لها بتناول لحم الخنزير المحرم في الإسلام³. وهذا الموقف يتناقض مع ما كانت تروج له الكتابات الأوروبية آنذاك من إجبار الأسرى على اعتناق الإسلام وتعرضهم للعقاب في حال رفضهم.

وفي عام 1892م، توفي شريف الوزان، وبعد وفاته قامت إيهيلي كين **Emily keene** بزيارات متعددة إلى وطنها إنجلترا.

وفي عام 1911، نشرت كتابها " قصة حياتي " **My Life Story** ⁴.

سجّلت فيه رحلاتها وتنقلاتها مع زوجها إلى مختلف المدن المغربية، مثل وزان وفاس ومكناس وتطوان وسبتة ومليلية والريف وجدة وبني زناسن، كما امتدت رحلاتهما إلى مدن جزائرية مثل مغنية وتلمسان والجزائر ووهران وتيارت.

حفل كتاب إيهيلي كين **Emily keene** بمعلومات وافية عن المجتمع المغربي في أواخر القرن التاسع عشر، حيث تناول جوانب متعددة شملت الأوضاع الصحية وسبل الوقاية، والعادات والمعتقدات الشعبية، وصلاحيات شيخ الزاوية ونفوذه، فضلاً عن قضايا تتصل بالعبيد والقبائل وأنماط معيشتهم.

¹ Emily Keene, op.cit, p 17.

² Ibid, p66.

³ Lahoucine Aammari, op.cit, p 16.

⁴ Ibid, p 12.

وتكمن القيمة العلمية للكتاب في تقديمه رؤية متفردة للمجتمع المغربي من منظور إيهيلي كين **Emily keene** ، التي حظيت بموقع متميز كزوجة لإحدى الشخصيات المرموقة في المغرب. وقد دفعته دوافع متعددة لتدوين تجربتها: فأولاً، تميزت روايتها عن باقي الرحالة الأوروبيين بنظرتها الموضوعية البعيدة عن النزعة الاستعمارية، حيث قدمت وصفاً صادقاً للحياة اليومية المغربية من موقعها الفريد كمشاركة في هذه الحياة وليس كمجرد مراقبة خارجية. وثانياً، سعت إلى تعريف الرأي العام الأوروبي والبريطاني بقصة زواجها من شريف الوزان التي رفضتها أسرتها. وثالثاً، أرادت إثبات احتفاظها بديانيتها رغم زواجها من شريف مغربي، مما يدحض المزاعم الأوروبية حول إجبار الأسرى على اعتناق الإسلام. وأخيراً، هدفت إلى تعريف الأوروبيين بثقافة البلاد الإسلامية وعاداتها، وتلبية تطلعاتهم المعرفي نحو هذه البلاد.

ومن الملفت للنظر أن إيهيلي كين **Emily keene** عدلت عن شرطها الأولي بالدفن في إنجلترا، مما يعكس عمق ارتباطها بالمغرب. فقد تأقلمت مع المجتمع المغربي حتى شعرت بالاغتراب عند زيارتها إنجلترا وفرنسا بعد وفاة زوجها شريف الوزان، ولم تعد تتصور حياتها خارج المغرب. ويرجح بعض الباحثين اعتناقها الإسلام قبيل وفاتها، رغم غياب الأدلة القاطعة على ذلك¹.

وفي ختام مذكراتها، حذرت إيهيلي كين **Emily keene** الأوروبيين من سلوك مسارها، مع تأكيدها عدم ندمها على خياراتها. واختتمت كتابها معربة عن أملها في أن تكون السنوات الأربعين التي قضتها في المغرب قد أثرت إيجاباً في المستقبل².

¹ Mohammed Saâd Zemmouri, Mohammed Saâd Zemmouri, " Regard d'une Anglaise sur la Société marocaine à la fin du XIX éme à Travers son , Récit de vie ", **Anaquel de Estudios Arabes**, vol 17, Tetuan, 2006, pp 239- 240.

² Emily keene , op.cit, p 303.

يمثل كتاب إيهيلي كين أحد أبرز المصادر الأوروبية، ولا سيما الإنجليزية، عن المجتمع المغربي في تلك الحقبة. فقد تميزت تجربتها عن غيرها من الرحالة والباحثين بمعاشتها المجتمع المغربي من الداخل، مما أتاح لها الاحتكاك بالشخصيات الدبلوماسية والمخزنية، والاطلاع على عالم النساء المغربيات، واعتماد زيهن. وبذلك، يشكل كتابها مصدراً أساسياً لفهم المجتمع المغربي في تلك المرحلة التاريخية من منظور أحد أفراده المقربين.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18 و 19

أولا : الجانب السياسي

ثانيا : الجانب العسكري

ثالثا : الجانب الاقتصادي

رابعا : الجانب الاجتماعي

خامسا : الجانب الديني

سادسا : الجانب الثقافي

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18و19

يمثل دراسة المجتمع المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من منظور الكتابات الإنجليزية أهمية بالغة في فهم التحولات العميقة التي شهدتها المنطقة في مختلف المجالات. فقد قدمت هذه الكتابات رؤية متكاملة للواقع المغربي، متناولة الجوانب السياسية التي تمثلت في طبيعة الحكم وعلاقات السلطة، والجوانب العسكرية التي عكست القدرات الدفاعية والتنظيم العسكري للمنطقة.

كما تطرقت هذه المصادر إلى الواقع الاقتصادي من خلال رصد الأنشطة التجارية والزراعية والصناعية، والحياة الاجتماعية التي شملت العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية. ولم تغفل هذه الكتابات الجانب الديني الذي يمثل ركيزة أساسية في المجتمع المغربي، إضافة إلى المشهد الثقافي الذي يعكس الهوية الحضارية للمنطقة.

وتكتسب هذه الكتابات أهمية خاصة كونها تقدم نظرة خارجية للمجتمع المغربي، تختلف في رؤيتها وتحليلها عن المصادر المحلية، مما يتيح فهماً أعمق وأشمل لواقع المنطقة خلال هذه الفترة التاريخية المهمة.

أولاً : الجانب السياسي

1 - التنظيم الإداري والسياسي للإيالات المغربية :

منذ خضوع دول المغربية الثلاث - الجزائر وتونس وطرابلس - للحكم العثماني، شرع العثمانيون في تنظيم شؤون تلك الولايات عبر توطيد الأطر السياسية والإدارية فيها. وقد مر نظام الحكم هناك بمراحل عدة، عكست كل منها تفاصيل العلاقة بين تلك الولايات والباب العالي في إسطنبول (الآستانة). وانطلاقاً من ذلك، اتجه تركيزنا نحو دراسة تلك المراحل التي مر بها نظام الحكم في تلك البلاد الثلاث، مسلطين الضوء أولاً على الجزائر، ثم تونس، وأخيراً طرابلس.

أ - الجزائر:

تعاقبت على حكم الجزائر عدة عهود تاريخية، شكّل كل عهد منها مرحلة سياسية مميزة تتمتع فيها سلطة الحاكم بصلاحيات وامتيازات خاصة. وتنقسم تلك العهود إلى أربع محطات رئيسية؛ فشهدت الأولى بروز نظام "الباليريات" بين عامي 1519م و1587م، إذ تدار الجزائر بشكل مباشر من قبل الآستانة، ويُعيّن "الباليرباي" من قبل السلطان العثماني نفسه¹. ثم جاءت مرحلة "الباشوات" بين 1587م و1658م، ويُلقب الحاكم فيها بـ"الباشا"، وتستمر ولايته لمدة ثلاث سنوات². تلتها فترة الأغوات وسيطرة "الإنكشارية" بين 1659 و1671، التي وصفها المؤرخ الفرنسي "غرامون" بأنها "جمهورية عسكرية"³.

¹ أحمد السليمان، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993، ص 10.

² نفسه، ص 12.

³ Henri Delmas de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque, Ernest Leroux, Paris, 1887, p 210

وأخيراً جاءت مرحلة الدايات (1671-1830)، والتي انطلقت فعلياً بعد أن تم رفض الباشا الجديد الذي عينه السلطان العثماني، وهدده الداوي علي شاوش بالإعدام إذا تجرأ على وضع قدمه في الجزائر. ومنذ ذلك التاريخ، رأى الداوي نفسه مستقلاً عن الدولة العثمانية وأصبحوا حلفاء لها¹. وهذا التحول الجديد أعطى إيالة الجزائر شكلها النهائي، وأصبح الداوي يجمع بين لقبه الباشا والداوي، كما قام الدايات بالانفصال السياسي عن الباب العالي².

ويؤكد الطبيب الألماني سيمون بفايفر **Simon Pfeiffer** في كتابه "رحلتي وخمس سنوات من الأسر في الجزائر" هذا الاستقلال بقوله: "... في هذا الوقت وصل السفير المبعوث من السلطان في القسطنطينية إلى الداوي يأمره بأن يجهز له جيشاً قوامه أربعون ألفاً، ولكن الداوي رفض القيام بذلك وقال له أنه كان لديه الكثير من الاهتمامات... من الواضح أن يفهم السلطان أنه ليس له الحق في قيادة الجزائر وأنه ينبغي أن يهتم بنفسه"³. غير أن الإيالة أبقت على الروابط التاريخية والدينية التي تجمع بين السلطان العثماني، وهذا ما يؤكد نور الدين عبد القادر بقوله: "فإن إيالة الجزائر لا يربطها بالدولة العثمانية سوى رابط ديني ووازع أدبي"⁴.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن للدايات أن يمارسوا سلطتهم فور انتخابهم حتى يتم تثبيتهم رسمياً. إذ كان عليهم انتظار استلام فرمان السلطان العثماني مع الققطان وسيف الدولة، الذي

¹ Thomas Shaw , Voyage dans la Régence d'Alger ou Description Géographique, physique, philologique etc et de cet état, traduit de l'anglais par J.Mac Carthy, Paris, 1830, p p 151-152.

² Watbled Ernest, « Pachas ; pachas dey », **R.A** , N°17, Alger, 1873, p 441.

³ Simon pfeiffer, The Voyage and Five Years Captivity in Algiers, translates in German by I. Daniel Rupp, Harrisburg pa John Winebrenner Printer, 1836, p 137.

⁴ حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2008، ص 128.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

عادةً ما يتم إرساله مع قابجي باشي أو مبعوث الدولة. وفي أوقات الازدهار، كانت الجزائر ترسل هدية إلى الباب العالي مرة في كل ثلاث سنوات¹.

ب - تونس:

شهدت تونس تحولاً سياسياً مهماً عندما فتحها القائد العثماني سنان باشا سنة 1574م، إذ أصبحت ولاية عثمانية. وقد أسس سنان باشا ديواناً لإدارة شؤون البلاد يضم كبار المسؤولين. ولم يستمر هذا النظام طويلاً، إذ شهد عام 1590م تمرد الجند على رؤساء الديوان².

وقد مرت تونس بمراحل متعددة في نظام حكمها العثماني، بدأت بحكم الدايات (1591-1640). ثم تلتها فترة البايات (1640-1705) التي تميزت بحكم الأسرة المرادية بقيادة مؤسسها مراد باي. وبتوطيد سلطة الأسرة المرادية في تونس، تحول نظام الحكم إلى النظام الوراثي³.

وشهدت تونس بعد ذلك تأسيس نظام الحكم الحسيني، الذي أرساه مؤسس الأسرة الحسينية حسين بن علي، معتمداً مبدأ توريث الحكم للأكبر سناً. غير أن هذه القاعدة لم تحترم دائماً، مما أدى إلى نشوب صراعات وحروب أهلية بين أفراد الأسرة. ويتجلى ذلك في حادثتين مهمتين: الأولى عام 1759م، حين قدم علي باي ابن حمودة باشا لولاية العهد متجاوزاً حق حمودة بن محمد الرشيد الأكبر سناً. والثانية عام 1814م، عندما قدم عثمان باي على محمود

¹ William Shaler, op.cit, p 17.

² الإمام رشاد، المرجع السابق، ص ص 44-45.

³ نفسه، ص ص 49-50.

صاحب الحق الشرعي، مما دفع الأخير إلى استخدام القوة واغتيال عثمان للوصول إلى العرش الحسيني¹.

ومنذ ذلك التاريخ، استقر نظام الوراثة على العرش، وأصبحت قاعدة أولوية الأكبر سناً من أبناء الأسرة الحسينية مطبقة بانتظام.

وكانت مراسم تولية الباي الجديد تتم على مرحلتين: الأولى هي البيعة الصغيرة (البيعة الخاصة) التي يؤديها الوزراء والمقربون مباشرة بعد وفاة الباي السابق وقبل مراسم دفنه. والثانية هي البيعة الكبيرة (البيعة العامة) التي تُعقد في اليوم التالي بحضور أعضاء المجلس الشرعي والعلماء وكبار رجال الدولة والقناصل الأجانب. ويعقب ذلك توافد نواب المناطق والقبائل لتهنئة الباي الجديد، ثم إرسال وفد محمل بالهدايا إلى الباب العالي لإعلام السلطان وطلب فرمان التعيين².

وعلى الرغم من أن إيالة تونس في العهد الحسيني كانت نظرياً جزءاً من الدولة العثمانية وخاضعة للباب العالي، وأن الباي لم يكن سوى ممثل للسلطان، إلا أن البايات الحسينيين، وخاصة منذ عهد أحمد باي (1837-1855)، تمتعوا باستقلال شبه تام، وأصبحت علاقتهم بإسطنبول رمزية في طبيعتها³.

ت - طرابلس :

¹ أحمد بن تيشة، الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في تونس خلال العهد العثماني - الأسرة الحسينية - ، رسالة تخرج لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس، 2020-2021، ص66.

² أحمد بن تيشة، المرجع السابق، ص 66.

³ نفسه، ص 67.

مر نظام الحكم في طرابلس خلال العصر الحديث بأربع مراحل رئيسة عكست تطور علاقتها السياسية مع الدولة العثمانية. تميزت المرحلة الأولى (1551-1603م) بالحكم المباشر من قبل الآستانة عبر تعيين "البكربك". أما المرحلة الثانية (1603-1711م) فشهدت تحولاً إلى نظام انتخابي محلي يُنتخب فيه "الداي"، مع احتفاظ السلطة العثمانية المركزية بحق المصادقة¹.

وشكلت المرحلة الثالثة (1711-1835م) تحولاً مهماً باستيلاء أحمد باشا القرماني على الحكم وتأسيسه للأسرة القرمانية التي حكمت وراثياً. وفي المرحلة الرابعة والأخيرة (منذ 1835م) عادت طرابلس إلى نظام الحكم المباشر تحت النفوذ العثماني الكامل².

وفيما يتعلق بالتنظيم الإداري، قُسمت إيالة طرابلس إلى مقاطعات يرأسها بايات، وكان الباشا في طرابلس يعين ابنه أو أخاه باياً على الأقاليم مثل بنغازي ودرنة وفزان، حيث كان هؤلاء البايات مسؤولين عن جمع الضرائب.

وقد أقام العثمانيون تنظيماً إدارياً هرمياً، يترأسه الباشا التابع للسلطان العثماني عبر قبودان باشا، وكان الباشا قائداً للفرق الإنكشارية. وضم الهيكل الإداري عدة مناصب مهمة منها الكاهية الذي يعد نائباً للباشا، والخزندار المسؤول عن الشؤون المالية، والخوجات الذين يتولون مهام الكتابة والاستشارة، وقاضي الجند، والدفتردار أو الموظفون الإداريون، ووكيل الجباية والخراج المسؤول عن المخازن والتموين³. أما لقب البك، فقد تطور استخدامه عبر الزمن، إذ

¹ سمير عبد الرسول العبيدي، " تأسيس الحكم القرماني"، مجلة آداب المستنصرية، العدد 86، العراق، 2019، ص 448.

² نفسه، 449.

³ محفوظ سعيداني، الواقع الاقتصادي للمجتمعات المغربية في العهد العثماني (مقارنة تحليلية) من مطلع القرن 18م إلى 1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2011-2012، ص 61.

كان يُمنح أولاً للضباط المكلفين بمهام عليا، ثم أصبح خاصاً بقيادة الحملات الضريبية، وبعدها صار يطلق على صاحب السلطة التنفيذية في قيادة الجيش، وأخيراً تحول إلى لقب تشريفي لأبناء الباشوات. في حين اقتصر لقب الداى على الضابط المكلف بدفع رواتب الجند. وكانت الشؤون العامة للحرس الإنكشاري تناقش في الديوان برئاسة الآغا، بينما تولى القبودان ريس رئاسة البحرية والإشراف على جميع السفن التابعة للباشا أو الداى¹.

2 النظام الإداري والسياسي في المغرب

أ - المؤسسة المخزنية :

يثير مصطلح المخزن، بصفته مفهوماً متداولاً في الخطاب التاريخي بالمغرب، جدلاً نظرياً حول طبيعته ووظائفه وأشكال حضوره. فمن جهة، هو مصطلح واضح وفقاً لمعناه المعجمي، ومن جهة أخرى، هو مصطلح معقد لتشابك دلالاته في القاموس السياسي المغربي².

اشتق لفظ المخزن من خزن، أي حافظ واكتنز وادخر. وقد استُعمل لأول مرة في شمال إفريقيا في سياقه الرسمي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، لوصف صندوق حديدي تُخزن فيه الأموال. فاللفظ في أصله كان يرتبط في المغرب بنظام الحكم في الأساس، متصلاً بتنظيم مالي. إن لفظ المخزن بعد أن استُعمل لوصف مستودع محلي تُخزن فيه الأموال المخصصة لبيت مال الأمة الإسلامية، اقتصر فيما بعد على التعبير عن خزينة المغرب عندما ظهرت مستقلة مع الدول البربرية التي حكمت المغرب، ثم اتخذ مع الدولتين الشريفيتين السعدية والعلوية

¹ إيتوري روسي، المرجع السابق، ص 256.

² محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2011، ص 385.

دلالة إدارية، تشمل الجهاز الإداري بأكمله الذي يعتمد على أموال هذه الخزينة، أي مجموع الحكومة المغربية¹.

المخزن يعني مفهومين متكاملين: فهو مؤسسة سياسية يُمارس الحكم من خلالها، وهو نظام اجتماعي وسياسي يتميز به المغرب. فأصل الكلمة من فعل "خزن"، أي "جمع". وقد كان يعني في بداية الأمر المكان الذي كانت تُجمع فيه الضرائب الشرعية الموجهة إلى بيت مال المسلمين، واتسع معناه فيما بعد ليشمل "الحكومة المغربية" ببنياتها وتشعباتها وجميع دواليبها، أي السلطان والجيش والموظفين وكل الأشخاص الذين يربطون السلطة العليا بالمجتمع المدني. وبعبارة أدق، يشمل جميع من يتقاضون أجراً من خزينة السلطان ويمثلون المدافعين عن شرعية المخزن، مقابل الاعتراف لهم بصفة الانتماء إليه².

ومن هنا يمكن القول إن نظام المخزن يهدف بشكل أساسي إلى توطيد السلطة المركزية للدولة وتعزيز سيطرة السلطان.

1 السلطان: ويُسمى أيضاً العاهل؛ تمثل شخصية العاهل الدور المحوري في هذا الجهاز، فهو مصدر السلطات جميعها. غير أنه لا يتصرف عادةً بصورة انفرادية عندما يتعلق الأمر بقرارات تؤثر في مصير الدولة، ولذلك يلجأ إلى استشارة كبار المسؤولين والفقهاء. ولفظ السلطان في معظم الأحوال، هو لقب عُرف منذ عهد السلاجقة واستعمله الخلفاء العثمانيون، ولكن ملوك الدولة المغربية عموماً لم يولوا اهتماماً كبيراً بتعدد الألقاب

¹ كلة نصيرة، المغرب الأقصى في عهد الدولة العلوية في كتاب "الاستقصا" للناصري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د،

في تاريخ المغرب العربي الحديث و المعاصر، جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان، 2017-2018، ص 134-135

² عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 1987، ص ص

والتشريعات¹. وتصفه الكتابات الانجليزية ، انه حاكمه مستبد و مطلق، إرادة الملك هي القانون، ورضاه الوحيد لأفعال رعيته . يرفع ويفضل من يراه مناسباً ، و يتصرف في حياة و ثروات شعبه وفقاً لرغبته، دون أن يسمح لهم بمخالفة أو مناقشة أي شيء يقوله²

2 **ولي العهد** :أو خليفة السلطان، وعادةً ما يُختار لهذا المنصب ابن السلطان أو أحد أفراد أسرته أو أخوه أو ابن أخيه. وقد تخلى عدة سلاطين عن ترشيح أحد أفراد الأسرة، تاركين الأمر للأطراف ذات الثقل السياسي. فعلى سبيل المثال، عندما استشار مولاي إسماعيل القاضي اليمحمدي بشأن ولاية العهد، أخبره بأنه لم يعد على قيد الحياة من أبنائه من يصلح لهذه المهمة، فتخلى عن ترشيح أي من الأمراء. وفي موقف آخر، اقترح الزياني على السلطان سليمان ترشيح نجله مولاي إبراهيم، ووضع لذلك مشروعاً للبيعة، إلا أنه لم يأخذ بهذا الاقتراح وشرح ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام. وهكذا كان أحزم ملوك الدولة يتحرجون من تحمل مسؤولية ولاية العهد خضوعاً لاعتبارات دينية أو رغبة في تجنب الانقسام في الأسرة والعاهل على قيد الحياة³.

ب - **الحكومة** :تشكل الجهاز الحكومي في المغرب خلال تلك الفترة على النحو التالي:

1 -**الصدر الأعظم** :يُعد الصدر الأعظم من أبرز الوزراء في النظام السياسي التقليدي بالمغرب، متميزاً بقربه من السلطان ومكانته لديه. وغالباً ما كان هذا المنصب الرفيع يشغله أحد كبار الفقهاء، نظراً لما يتمتعون به من مكانة مرموقة وثقة عالية لدى السلاطين.

¹ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994، ص ص 355-356.

² Simon Okley, op.cit, p 48 .

³ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص ص 363-364.

وبذلك، كان الصدر الأعظم بمثابة المستشار المقرب والحكيم، يساعد السلطان في إدارة شؤون الحكم بما يمتلكه من خبرة وحنكة سياسية.

2 -**الحاجب** : يُعد من أهم الشخصيات في الدولة بعد السلطان، إذ يشغل منصب رئيس التشريفات ورئيس الديوان الملكي، ومن مهامه تنظيم استقبالات السلطان والمحافظة على الخاتم الملكي¹.

3 -**الوزير** : يعينه السلطان، ويتولى إدارة الشؤون البحرية والخارجية والحربية.

4 -**أمين الأمناء** : يتولى استقبال التقارير المالية والحسابات ومراقبة الأمناء المسؤولين عن الجمارك والموانئ.

5 -**وزير المظالم** : أو ما يعادل وزير العدل في العصر الحديث، يتلقى شكاوى المواطنين من الولاة ويقدم تقريراً عنها إلى السلطان الذي يتخذ ما يلزم من قرارات بشأنها².

6 **قائد الجيش** : يُعرف أيضاً بكبير المحلة أو العلاف، وهو المسؤول عن تموين الجيش³، ويتولى منصباً يوازي وزير الدفاع، حيث يقود الحملات العسكرية الكبرى⁴.

شهد التنظيم الإداري للمغرب خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر تقسيماً جغرافياً وإدارياً متميزاً. وقد قدم جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson في دراسته وصفاً دقيقاً لهذا التنظيم، حيث قسم التراب المغربي إلى أربعة أقسام رئيسية:

القسم الشمالي : ضم هذا القسم محافظات متعددة، هي: الريف، والغرب، و بني حسان، وتامسنا، والشاوية، وتادلة، ومنطقة فاس. وقد تميز هذا القسم بطابعه الديموغرافي الخاص، إذ

¹ نفسه، ص 365-366.

² إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 366.

³ نفسه، ص 366-367.

⁴ نفسه، ص 394.

سكنته قبائل عربية متنوعة تعود أصولها إلى الصحراء ، واتسمت بنمط معيشي بدوي يتمثل في سكنى الخيام¹.

القسم الأوسط: تميز هذا القسم بوجود مراكز حضرية مهمة، وقد حدد جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson أبرز مدنه وهي: مراكش، وفروجة، وآزمور، ومازاغان، وتيط، والولادية، وآسفي (صفرو)، والصويرة (موغادور)². وشكلت هذه المدن مراكز تجارية وإدارية مهمة في البنية الحضرية للمغرب آنذاك.

القسم الجنوبي: شمل هذا القسم محافظتين رئيسيتين هما درعة وسوس، وتتميز بوجود تشكيلات قبلية قوية، أبرزها: هواره، وإمسكينة، وإكسيما، وإداوتنان، وإداوليت، وأيت-ألثير، وويدنون، وكيتيوا. وقد شكلت سلسلة جبال الأطلس معلماً جغرافياً بارزاً في هذا القسم³.

القسم الشرقي: يقع هذا القسم شرق جبال الأطلس، وعُرف باسم تافيلالت. وقد أشار جاكسون إلى خصوصية هذا القسم التاريخية، إذ كان في السابق مملكة مستقلة بذاتها⁴.

كان الهيكل الإداري يتميز بتنظيم هرمي دقيق. على رأس هذا الهرم يقف السلطان، يليه خليفة السلطان الذي كان يُختار من بين إخوته أو أبنائه أو كبار رجال الدولة الموثوق بهم⁵. تحت هذا المستوى يأتي الباشوات، ثم القضاة في المدن والشيخوخ في المعسكرات العربية⁶. وكان خليفة

¹ James Grey Jackson, op.cit, p 1.

² James Grey Jackson, op.cit, p 2.

³ Ibidem.

⁴ Ibid, p 3 .

⁵ عبد اللطيف اكنوش، المرجع السابق، ص 123.

⁶ William Lempiere, op.cit, p 212.

السلطان يتمتع بصلاحيات واسعة تشمل إدارة الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية في الأقاليم التي يُعين فيها¹.

3 طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع :

تناولت الدراسات التاريخية المعاصرة جوانب متعددة من العلاقة بين السلطة والمجتمع في الدول المغربية، سواء في أبعادها السياسية والإدارية أو الاقتصادية. وقد اقتصر معظم هذه الدراسات على تحليل مناطق أو قبائل محددة. لذا يسعى هذا البحث إلى تقديم تحليل شامل لطبيعة العلاقة بين السلطة المركزية والمجتمع في المنطقة المغربية.

تحكمت في هذه العلاقة خلال العصر الحديث، وتحديداً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثلاثة عناصر رئيسية:

- النظام الضريبي باعتباره الرابط الأساسي بين السلطة السياسية ومختلف شرائح المجتمع
- أوجه التعاون المتمثلة في التصدي للتهديدات الخارجية، ودور العلماء والطرق الصوفية في الوساطة الاجتماعية
- مظاهر التوتر المتجلية في التمردات الشعبية

¹ عبد اللطيف اكنوش، المرجع السابق، ص 123.

ويكشف تحليل التاريخ السياسي والاجتماعي للمنطقة خلال هذه الفترة عن مرحلتين متميزتين: مرحلة التعاون والتوافق، ومرحلة التوتر والمواجهة¹.

أ - مرحلة التوافق والتحالف:

أدركت السلطة المركزية في الدول المغربية أهمية استمالة العلماء ورجال الدين نظراً لتأثيرهم في المجتمع. وقد وثقت المصادر الإنجليزية المكانة المرموقة التي حظي بها هؤلاء العلماء والمشايخ. فتشير إليزابيث بروتول **Elizabeth Broughton** ، ابنة القنصل البريطاني بلانكي، إلى المكانة الاجتماعية والروحية الرفيعة التي تمتع بها المرابطون، واحترام المجتمع لهم².

كما وثقت الرحالة إيميلي كين **Emily Kenne** الدور المحوري للزوايا الدينية، مشيرة إلى زاوية الشريف الوزاني بالمغرب كمثال على دورها في توفير الملاذ للمحتاجين والوساطة في حل النزاعات الاجتماعية. وقد شكلت هذه الزوايا مراكز إشعاع روحي واجتماعي³.

سعت السلطة المركزية إلى تعزيز علاقاتها مع العلماء ورجال الدين من خلال منحهم امتيازات ومناصب إدارية. وفي المقابل، استفادت من نفوذهم في تحقيق أهدافها السياسية، خاصة في المناطق النائية. فعُين العديد منهم في مناصب جباية الضرائب أو كممثلين للبايات، مستثمرين مكانتهم الاجتماعية في خدمة السلطة المركزية. ويؤكد حمدان خوجة هذا الدور بإشارته إلى اصطحاب الحاميات العثمانية للمرابطين في تحركاتها نحو حصن بجاية⁴.

¹ صغير عبل، السلطة والمجتمع الجزائري نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 من خلال المصادر الأوروبية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في التاريخ الحديث، جامعة أحمد بن بلة، 2020-2021، ص 384.

² Elizabeth Broughton, six years ..., op.cit, p 53.

³ Emily keene, op.cit, p 7.

⁴ Hamdan Ben Othman Khoja, Aperçu Historique et Statistique sur la Régence d'Alger, imprimerie de goetschy Fils et Compagnie, Paris, 1833, p 81.

كما استعانت السلطة المركزية بالعلماء في تعزيز شرعيتها ومواجهة الحركات المعارضة. فعلى سبيل المثال، نجح حاكم تونس علي باشا (1735-1756م) في استقطاب شخصيات دينية بارزة مثل القاضي محمد سعادة من المنستير، الذي تولى إمامة جامع الزيتونة والإفتاء في مدينة الكاف. كما برز في عهده الفقيه محمد الخياطي الذي تولى مناصب إدارية متعددة وأصبح من كبار الأعيان. وشهدت هذه الفترة أيضاً صعود عائلة بن ساسي إلى مناصب قيادية في الإدارة والمؤسسة العسكرية¹.

في إطار العلاقة التكاملية بين السلطة الحاكمة ورجال الدين في البلاد المغربية، منحت السلطات العثمانية امتيازات عديدة للعلماء والمشايخ. فعلى سبيل المثال، تمتعت عائلة الفكون في قسنطينة بصلاحيات إدارية واسعة في تسيير شؤون المدينة².

وفي السياق ذاته، أصدر الدايات فرمانات خاصة بمنح امتيازات للمرابطين، ومن ذلك ما قام به الداوي مصطفى حين فوض إدارة مدينة بجاية للمرابط محمد شريف، مع منحه سلطة الإشراف على الكراسته.

كما استثمر الحكام المكانة الاجتماعية والدينية لهؤلاء العلماء، فعينوهم في مناصب إدارية مهمة، كجباية الضرائب والتمثيل الرسمي للسلطة، وذلك بهدف تعزيز نفوذهم في المناطق النائية وضمان ولائها³.

¹ فاطمة بن سليمان، الأرض والهوية، جامعة تونس، تونس، 2009، ص 202.

² رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث، جامعة الجزائر، 02، 2005-2006، ص 108.

³ نفسه، ص ص 109-110.

ومن تجليات التعاون بين السلطة والمجتمع القبلي ما اتخذته حسين بن علي، حاكم تونس، من إجراءات تنظيمية، حيث ألحق قبيلة أولاد سعيد الموالية للمخزن بقيادة خاصة، كما أشرك الأهالي في المؤسسة العسكرية، مما أدى إلى توطيد العلاقة بين الطرفين¹.

وفي الجزائر، برزت أهمية التحالف مع قبائل المخزن في ظل التهديدات الخارجية، خاصة التحرشات الإسبانية وعداء حكام المغرب الأقصى. وإبان الاحتلال الإسباني لوهـران، اضطلعت قبائل المخزن (الزمالة والدوائر) التابعة لمخزن معسكر بدور دفاعي مهم. وقد قدمت هذه القبائل خدمات جليلة للباي بوشلاغم (1708-1732) في معسكر، حيث استخدمها في مواجهة الإسبان في وهران وحلفائهم من بني عامر. وقد تميزت قبائل الزمول والدوائر بمهاراتها الفروسية المتقدمة، وتمركزت قواتها قرب وهران المحتلة².

ب - مرحلة التنافر والصدام :

شهدت العلاقة بين السلطة والرعية في البلاد المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولاً جذرياً نحو القطيعة والانفصال. وقد تجلّى ذلك في غياب قنوات التواصل المباشر بين الحكام ورعاياهم. ويصف المؤرخ أبو القاسم سعد الله هذه الحالة في الجزائر، مشيراً إلى أن البايات كانوا يعيشون في عزلة تامة عن الشعب، حتى غدا الحاكم شخصية مجهولة لدى عامة الناس طوال فترة حكمه³.

¹ احمد بن تيشة ، المرجع السابق، ص 152.

² محمد السعيد عقيب، عمر لمقدم، " قبائل المخزن ودورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان (إيالة الجزائر)"، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد 9، عدد2، جامعة الوادي، 2018، ص 113.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 211.

يؤكد المؤرخ صالح العنتري هذه الحقيقة ذاتها فيما يتعلق بحكم شاكر باي بقسنطينة، مشيراً إلى أن حكم السلطة اتسم بالقسوة والظلم رغم كرم الحكام في العطاء¹.

أما المستشرق فايست فوصف وضع العرب في الدول المغربية تحت الحكم بالقمعي والاستبدادي، إذ ركّز الحكام على مصالحهم الشخصية دون مراعاة للشعب أو تطوير للبلاد. فأثقلوا كاهل السكان بفرض الضرائب والرسوم الجائرة².

ويؤكد القنصل الإنجليزي في المغرب "جون براثوايت" John Braithwaite ذلك، حيث كان الباشا "أحمد بن علي" يستغل سلطته المطلقة في إجبار الناس على دفع ضرائب تفوق قدرتهم، بحجة الحاجة للمال. وقد عانى حتى المقربون منه من مطالبه التعسفية، كما يعاني ألد أعدائه³.

شكّلت الأوضاع الاقتصادية في الدول المغربية خلال تلك الفترة محركاً رئيساً للأوضاع الأخرى، إذ كان المصدر الوحيد لدخل السلطات هو الضرائب التي شكّلت عبئاً كبيراً على السكان. فقد مارس المكلفون بجمع الضرائب أساليب قمعية أدّت إلى استنزاف القدرات الاقتصادية لتلك الدول ووضع غالبية السكان في حالة من الفقر والبؤس.

ويصف الرحالة الإنجليزي جون وندوس John Windus، الذي زار المغرب عام 1729م، هذه الأوضاع بقوله: "أما الذين يعيشون في المدن فقد أفلسوا الآن، وقد سمعت أن أهل تطوان، الذين كانوا تجاراً كباراً، تخلى بعضهم عن التجارة عندما تولى السلطان السلطة ظناً منهم أنهم بهذه الوسيلة سيحفظون ما لديهم، لكن حدث العكس، حيث فُرضت عليهم الضرائب واستمر هذا

¹ ابن صالح العنتري، تاريخ قسنطينة، تح: يحي بوعزيز، عالم المعرفة لنشر و التوزيع، 2009، ص 96.

² Vayssettes (E), " Histoire des beys de Constantine ", in **R.A**, N°3 , Alger, 1858, pp 107-108.

³ John Braithwaite, op.cit, p34.

الفرض إلى أن استنفدت كل الثروات التي جمعوها، وانتهى بهم المآل الآن إلى خصاص بالغ وأصبح عدد كبير منهم لا يملك رغيف خبز. أما من استمر في المتاجرة فلم يجد وسيلة أخرى للعيش"¹.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانت السلطة تشن حملات قمعية ضد الممتنعين عن دفع الضرائب، سعياً منها لإخضاع الرعية بالقوة وإرغامهم على تسديد ما عليهم من التزامات مالية. ومن أمثلة ذلك نذكر تصادم السلطة المغربية مع الرعية في سنة 1710م، حين امتنع أهل فاس عن دفع الضرائب، فأمر السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727م) بتوجيه حملة بقيادة جيوش مكناس وأمره بجمع الأموال من أهلها. ويعلق الزياتي على ذلك بقوله: "وخلت المدينة ولم يبق بها أحد من أهل اليسار"².

شهدت تلك الفترة تصادمات بين البايات الحسينيين في تونس والقبائل، سعياً من البايات لفرض سيطرتهم وتحصيل المستحقات المالية. فقد شنوا حملات عسكرية ضد الجماعات المناهضة للسلطة المركزية.

ففي عهد الباي علي باشا (1735-1756م)، تدخل عسكرياً لردع قبيلة "الهمامة" التي كان ولاؤها متقلباً، بحسب ابن أبي الضياف، إضافة إلى اعتداءاتهم على القبائل المجاورة. وقد نجح في هزيمتهم ومصادرة ثلاثة عشر ألف بعير كانت في حوزتهم، مسجلاً إياها باسم الدولة، مما أضعف نفوذهم بشكل كبير.

¹ John Windus, op.cit,p 214.

² حسام محمد عبد المعطى، العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008، ص ص 22-23.

كما امتنعت قبيلة "النمامشة" في الفترة نفسها عن دفع الضرائب المفروضة مقابل رعي أغنامها في أراضي "الجريد"، وقامت عام 1750م بالاعتداء على قافلة الحجاج، فهزمهم علي باشا وأجبرهم على الفرار خارج تونس¹.

ويروي الرحالة جون وندوس أحداثاً قاسية حول اعتقال وتعذيب الممتنعين عن دفع الضرائب. فقد كان ينتظر هؤلاء مصير مؤلم من السجن والعذاب، حيث تنتزع السلطة أموالهم بالقوة.

ويصف شاهد عيان تلك الممارسات القاسية بقوله: " كنت أمام السجن فرأيت رجلاً معلقاً من كاحليه بسلاسل حديدية مربوطة بساقيه، ووجهه مجروح بالملاقط وجلده ممزق بالمقص، يضربه اثنان باستمرار بالعصي مطالبين إياه بالنقود. وعند فقدانه القدرة على الكلام يجددان ضربه... كان تعذيبه شديداً لدرجة أن أحد المارة صاح: يا إلهي، إنها نتائج حكم مستبد!²

لم تتح للسكان في المناطق المغربية فرصة تطوير أوضاعهم في مختلف المجالات بسبب سياسات الولاة المجحفة، فكانت التمردات والانتفاضات التي قادها الزعماء المحليون رد فعل على النظم الضريبية الجائرة³.

وقد أدت سياسة القمع الحكومي في جباية الضرائب إلى اندلاع ثورات شعبية ضد السلطة، من أبرزها: انتفاضة عبد الجليل سيف النصر في فزان التي بدأت عام 1831م. اكتسبت الانتفاضة قوة كبيرة عندما تحالف سيف النصر مع قبائل ورقلة، ودخل مدينة بني وليد، وبايعه

¹ أحمد بن تيشة، المرجع السابق، ص 154.

² John Windus, op.cit, pp 199-200.

³ حماد أحמידة سالم، " إيالة طرابلس أثناء حكم علي باشا القرمانلي 1832-1835، إنهيال العهد القرمانلي وعودة السلطة العثمانية"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، عدد 46، موريثانيا، 2020، ص 194.

شيوخ ورقلة والقذاذفة في سرت رئيساً لجميع مناطق ورقلة وسرت والشاطئ. كما أعلنت قبائل مقاطعة الجبل ولاءها له¹.

أرسل يوسف باشا حملة بقيادة ابنه علي لإخماد الانتفاضة، ووقعت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة سيف النصر. وكانت نتائجها وخيمة، كما ورد في رسالة بعث بها يوسف باشا إلى وزيره محمد بيت المال في بنغازي، جاء فيها: "قُتل في المعركة من أتباع سيف النصر مئتان واثنا عشر شخصاً وثلاثمئة جريح، وشرع العسكر في قطع الأشجار وهدم البيوت، وقبل الباشا الشروط التي اقترحها مشايخ القبيلة"².

وفي عام 1795م في تونس، قاد حامد بن شريفة الفرجاني، شيخ فريق أولاد مساهل من ماجر، حركة تمرد ضد السلطة المركزية، رداً على فرض الباي حمودة باشا عليهم غرامات مالية باهظة بلغت سبعة آلاف ريال، وغرامات عينية تمثلت في ثمانين فرساً.

بعد فشل سياسة المرونة التي اتبعها الباي في بداية الانتفاضة، أرسل حملة عسكرية بقيادة كاهيته سليمان هاجمتهم على حين غرة، بحسب ابن أبي الضياف. ولم يكتفِ الباي بمعاقتهم، بل اتبع سياسة التهجير وإخلاء الأرض، حيث نقلهم إلى مناطق متعددة كالقيروان والكاف. ويُرجح أنه استلهم هذه الاستراتيجية من تجربة والده مع انتفاضة إسماعيل بن يوسف سنة 1762م³.

¹ حماد أحميدة سالم، المرجع السابق، ص 195-196.

² حماد أحميدة سالم، المرجع السابق، ص 197.

³ أحمد بن تيشة، المرجع السابق، ص ص 155-156.

ومن الثورات التي اندلعت في الجزائر بسبب النظام الضريبي الجائر، نذكر الثورة التيجانية التي قادها محمد الكبير التيجاني ضد السلطة الحاكمة، حيث أعلن الثورة احتجاجاً على الضغوط والمطالب المالية وتكرار الحملات العسكرية من قبل السلطات¹.

حظيت ثورة التيجانيين بمساندة قبيلة الحشم، كما ذكر شريف الزهار بقوله: " فقدم إلى حشم غريس وبايعهوه سرّاً "². وفي عام 1826م، قاد التيجاني ثورة انضم إليها نحو ستمئة رجل من عين ماضي وأتباع الزاوية التيجانية، إضافة إلى عدد كبير من الصحراويين والحشم.

توجه التيجاني إلى معسكر ودخلها، ثم خرج منها والتقى به الباي حسن في عواجة من أرض غريس. دارت معركة بين الطرفين، انتهت بهزيمة التيجاني ومقتل جميع أتباعه³.

ويضيف شريف الزهار أن الباي طلب من كبار الحشم التخلي عن التيجاني، ففروا مع بقية الجيوش، وبقي معه ثلاثمئة فقط قاتلوا حتى قُتلوا. ثم قُطعت رؤوسهم وأُرسل رأس التيجاني إلى الجزائر وُصِّلَ قبالة الباب الجديد، وعلقت الرؤوس الأخرى حوله عبرة للناس⁴.

وعليه، يمكن القول إن غالبية الحكام في الدول المغاربية عاشوا منفصلين عن رعاياهم، ولم يطبقوا تعاليم الإسلام إلا شكلياً. غير أن هذا الحكم لا ينطبق على جميع الحكام.

ومن الأمثلة على الحكام المعتدلين حمودة باشا باي تونس. فبعد أن اتسمت سياسته في البداية بالشدّة، أصبح أكثر اعتدالاً في وقت لاحق. وقد تجلّى ذلك في مراعاته لأحوال الناس

¹ حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 25.

² أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص 159.

³ مسلم عبد القادر، المصدر السابق، ص 31.

⁴ أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص ص 159-160.

عند جمع الضرائب، كما ذكر ابن أبي الضياف في قوله: " قال الباي لوزرائه: 'قد طلبت منكم تدابير في شأن الجباية يناسب الوقت والحال وأنا أنتظره منكم'"¹.

ويؤكد الرحالة الإنجليزي ستانلي هذا الأمر بقوله: " كان الباي حمودة باشا متساهلاً مع الفلاحين في دفع الضرائب، إذ كان يسمح لهم بتسديدها نقداً أو عيناً وفق قدراتهم المادية، بدلاً من فرض نظام موحد يصعب عليهم تحمله، ويعكس ذلك حرص الباشا على تيسير الأمور على الفلاحين وعدم التضيق عليهم في جباية الضرائب المفروضة عليهم"².

ثانيا : الجانب العسكري

1 نشأة الجيش لدى الدول المغربية :

يمثل الجيش الإنكشاري الركيزة الأساسية في تاريخ الدولة العثمانية. وتعود أصول الإنكشارية إلى نظام الجند الجديد الذي أسسه السلطان أورخان، ثاني سلاطين آل عثمان (1326-1362م)، بتوجيه من أخيه الأصغر ووزيره الأول "علاء الدين" وقاضي العسكر " قره خليل جندرلي". تشكلت هذه الفرقة في البداية من أبناء المسيحيين الأسرى، وأطلق عليهم اسم "يني تشاري" (الجيش الجديد)³.

¹ أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 16.

² Edward Stanlay, op.cit, p 17.

³ حنيفي هلايلي، أوراق...، المرجع السابق، ص 9.

تأسس النظام العسكري العثماني على نظام "الدفشمة" أو "الدوشمة" (Devşirme) ، وهو نظام لتجنيد الأطفال المسيحيين وتنشئتهم عسكرياً وإسلامياً في المدارس العسكرية. كانت هذه العملية تجري كل خمس سنوات قبل أن تصبح سنوية، وشملت مناطق اليونان ومقدونيا وألبانيا وصربيا وبلغاريا والبوسنة والهرسك وأرمينيا، أي جميع الأراضي الخاضعة للحكم العثماني¹.

أما في إيالات المغاربة ، فيعود تأسيس الجيش الإنكشاري إلى القرن السادس عشر الميلادي، حين طلب خير الدين بربروس، بموافقة سكان الجزائر، الانضمام إلى الدولة العثمانية. استجاب السلطان سليم الأول بإرسال ألفي جندي إنكشاري وأربعة آلاف متطوع تركي إلى الجزائر². وفي تونس، تأسس الجيش الإنكشاري عام 1574م، بعد انتصار سنان باشا على الإسبان، حيث أرسل ما بين ثلاثة وأربعة آلاف جندي إنكشاري³.

وفي طرابلس الغرب، يعود تأسيس الجيش الإنكشاري إلى عام 1556م، مع وصول درغوث باشا وجيشه الإنكشاري لمواجهة فرسان القديس يوحنا⁴. وكان الهدف الأساسي من ذلك مواجهة التوسع الأوروبي في المنطقة وترسيخ السلطة العثمانية في تلك الولايات⁵.

ونظراً لارتباط الجيش الإنكشاري باستمرار الحكم العثماني في الولايات، حرص حكامها على تجنيد عناصره من الأقاليم العثمانية في آسيا وأوروبا وجزر البحر المتوسط. وعلى الرغم

¹ Nahoum Weissman, Les Janissaire études de l'organisation Militaire des ottomas, thèse pour le doctorant, d'université présentée a la faculté des lettres, Paris, 1938, p 12

² Nahoum Weissman, op.cit, p 59.

³ العبيدي نبيهة السلطاني، القوى العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من 1756م إلى 1814م، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تونس، 2000، ص 32.

⁴ عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص ص 23-24.

⁵ جميلة معاشي، الانكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008، ص12.

من التوترات السياسية التي شهدتها العلاقة مع الباب العالي أحياناً، ظل التجنيد أحد أهم الروابط الأساسية بين الولايات والدولة العثمانية.

عينت الولايات ممثلين عنها في المدن الرئيسية للدولة العثمانية، وخاصة في إزمير المطلة على بحر إيجه. أُطلق على هؤلاء الممثلين اسم "الدائيات" يرأسهم "الباش دائي". وكانت مهمتهم الأساسية تجنيد العناصر الجديدة وإرسالها إلى الولايات¹. كان هؤلاء الوكلاء من الإنكشارية في الولايات الثلاث (الجزائر، تونس، طرابلس)، يقودهم ضابط رفيع المستوى، وتوضع تحت تصرفهم مخصصات مالية. أقام هؤلاء الوكلاء في "خان" بإزمير، وهو مبنى يتكون من اثنتين وثلاثين غرفة، حيث يتم تجميع المتطوعين في انتظار نقلهم .

اتبع الوكلاء أساليب متنوعة في التجنيد، فكانوا يجوبون المناطق التركية حيث ينصبون خيمة كبيرة تسمى " أوطاق "، يتوافد إليها الراغبون في التطوع. وفيها يستمعون إلى الخطب والإغراءات التي تحفزهم على الانخراط في أوجاق الولايات التابعة للدولة العثمانية. وصف الوكلاء للمتطوعين حياة الرفاهية المنتظرة في الولايات، إضافة إلى الأجور المرتفعة والامتيازات المتنوعة، وخاصة الغنائم التي سيحصلون عليها بعد مشاركتهم في الجهاد البحري². كما برز أسلوب آخر للتجنيد، حيث كان الجنود عند عودتهم إلى مواطنهم الأصلية لزيارة أهاليهم، يروون قصصاً عن حياة الترف التي يعيشونها في الولايات. وبعد انتهاء عطلتهم، يصطحبون معهم

¹ محمد بوشنافي، " تجنيد المتطوعين للجيش الانكشاري الجزائري أثناء العهد العثماني من خلال الوثائق"، عصور الجديدة،

جامعة وهران 1، 2014، ص 129.

² محمد بوشنافي، المرجع السابق، ص 131.

عددًا من المتطوعين الجدد ويقدمونهم إلى دفتر الجند، حيث يتم قبولهم في صفوف الإنكشارية، ويتولون تدريبهم وتعليمهم، ويعرفونهم بإمكانية الارتقاء إلى أعلى المناصب¹.

2 الترتيب العسكرية :

عرف نظام الرتب العسكرية في الإيالات الثلاث تطوراً ملحوظاً مع تأسيس الحاميات العسكرية، حيث اتخذ شكلاً مماثلاً للنظام المعتمد في الدولة العثمانية. وقد برزت مجموعة من الرتب العسكرية التي كان لها تأثير كبير ودور محوري في أحداث الإيالات:

اليولداش: وهي كلمة تركية تعني الرفيق²، ويشير المصطلح إلى الجندي البسيط الذي يتقاضى أجراً متواضعاً، يزداد مع مشاركته في الحروب أو عند تعيين باشا جديد³.

الأوداباشي: يتولى قيادة فرقة تتراوح بين 10 إلى 20 من الإنكشارية وفقاً لتعليمات الأغا⁴. ويضطلع بمهام الإشراف على غرفة الجنود، كما يتولى ست وظائف عسكرية تختلف حسب المكان والزمان وهي: رئاسة الثكنة، والإشراف على المؤونة ومصاريف الجنود كوكيل للخروج، وحمل الراية كبيرقدار، ورئاسة الحرس كباش إسكي - وغالباً ما يكون أكبر أفراد الأ كبر سناً وأقدمهم في الرتبة. وتعادل هذه الرتبة رتبة ملازم عند مطلع القرن العشرين⁵.

¹ Hamdan ben othman khoja, op.cit, p p90-91.

² Tal Shuval , la ville d'Alger vers la fin du 18 siècle, éd CNRS , Paris, 1998, p 68.

³ Fray Diego de Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, trad Monnerieu et Berbrugger, Valladolid, 1870, pp 63-64.

⁴ Ibid ,p 64.

⁵ محمد العايبي، تطور الجيش التونسي خلال الحكم العثماني وتأثيره على الوضع العام للأيالة (1574-1881)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ بلاد المغرب الحديث، 2021-2022، ص ص 73-74.

بلوكباشي: يقود الفرقة العسكرية التي تضم ما بين 300 إلى 400 جندي للقيام بالحملة العسكرية، كما يشكلون محلة لتحصيل الضرائب¹.

أيا باشي: يصل الجنود إلى هذه الرتبة بالأقدمية، ويتميزون بتقدمهم الداي إلى المسجد لصلاة الجمعة وبوضع ريش فوق رؤوسهم². وقد استعان بهم الدايات كسفراء ومبعوثين إلى الدول الأجنبية. كما تولوا مراقبة السفن الأجنبية والحرص على منع هروب الأسرى، إضافة إلى تنفيذ أوامر الداي في مختلف مناطق الإيالة³.

كاهية: أو باش بلوكباشي، وهي رتبة تُمنح بالأقدمية⁴، ويقوم صاحبها بمهام نائب الأغا في حال غيابه. ويتمتع بمكانة مرموقة وسلطة واسعة، ويتولى مهمة الحراسة عند قصر الداي⁵.

الأغا: يمثل القائد الأعلى للجيش وقائد جميع الإنكشارية في الإيالات الثلاث. ويشغل الأغا أيضاً منصب رئيس الديوان، ويُعرف حينها بأغا الكرسي. يتم انتخابه لمدة ستة أشهر بمساعدة نائبه الكاهية⁶، أما في الجزائر فتدوم مدة انتخابه شهرين قمرين⁷. وتعاذل رتبة آغا الكرسي رتبة أمير لواء، وهو منصب رفيع يخوله التواصل المباشر مع الباي. وتشير بعض المصادر إلى أن هذه الرتبة تعاذل رتبة جنرال في سلم الرتب العسكرية المعاصرة.

¹ Diego de Haedo, op.cit, pp 62.

² Ibidem.

³ Thomas Shaw, op.cit, p161.

⁴ Picquet Ch, Aperçu historique , statistique et topographique sur l'état d'Alger , Quai Conti , N° 17 , Paris , 1830 , p 204.

⁵ Fray Diego de Haedo, op.cit, p 67.

⁶ محمد العايبي، المرجع السابق، ص 72.

⁷ Picquet CH, op.cit, p p 203.

ويعد الأغا الديوان صاحب القرار الميداني في فترة تميزت بأولوية المهام العسكرية والحربية على المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، نظراً للتحديات الكبيرة التي واجهتها الإيالة داخلياً وخارجياً، إضافة إلى المدة المحدودة لولاية الباشا المقدرة بثلاث سنوات¹.

أما في المغرب خلال العصر العلوي، فقد شهد النظام العسكري تطورات مهمة تمثلت في ظهور تشكيلات عسكرية نظامية بالمفهوم الحديث. وقد اضطلعت هذه التشكيلات بأدوار متعددة، ومن أبرزها:

قبائل المخزن: وهو نظام ورثته الدولة العلوية عن الدولة السعدية، وقد ظهرت بعض عناصره كقوات دائمة في الجيش المخزني منذ عهد المرينيين. واتبع المولى إسماعيل مع هذه القبائل النظام نفسه الذي اعتمده السعديون، حيث أعفاها من الغرامات والضرائب باستثناء الزكاة والأعشار، ومنحها حق الانتفاع بأراضي مخزنية مقابل تجهيز عدد محدد من الفرسان لخدمة المخزن².

جيش الودايا: أو الجيش الأبيض، وقد شكل النواة الأولى للجيش النظامي الذي ضم أفراداً من القبائل الموالية للعلويين، سواء عن طريق المصاهرة أو الولاء³.

جيش النار: تألف من أربعة آلاف من الأندلسيين وألف وخمسمائة من الزواويين وأربعة آلاف من المسلمين الجدد، والمرابطين على شواطئ المغرب⁴.

¹ محمد العايبي، المرجع السابق، ص 72.

² ثريا بريدة، الجيش المغربي وتطوره في القرن 19م، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص 63.

³ عبد الحق المريني، المرجع السابق، ص 95-97.

⁴ نفسه، ص 97.

الجيش البخاري:

أسس السلطان العلوي إسماعيل مؤسسة عسكرية جديدة من الممالك، مستفيداً من تماسكهم العرقي في إنشاء قوة عسكرية موحدة بعيداً عن النزاعات القبلية. وقد عزز ولاءهم وانضباطهم من خلال قسّمهم على صحيح البخاري والالتزام بالطاعة للسلطان، فعُرفت هذه القوات بالقوات النظامية البخارية¹.

يعود تأسيس القوات النظامية البخارية إلى مشورة المستشار الخاص للسلطان إسماعيل "أبي حفص عمر بن قاسم المراكشي" المعروف بـ "كليش"، الذي قدّم للسلطان سجلاً يتضمن أسماء جميع الممالك الذين كانوا جزءاً من القوات النظامية في عهد السلطان السابق "المنصور". وبناءً على مشورة مستشاره، أصدر السلطان إسماعيل أوامره بتجميع أولئك الممالك المقيمين في ولاية مراكش، وتنظيمهم في وحدات عسكرية، ليشكلوا النواة الأولى للقوات النظامية البخارية².

اتبع السلطان إسماعيل استراتيجية متميزة لتعزيز القوات النظامية البخارية من خلال العناية بأبناء وبنات المنتسبين إليها وتنشئتهم تنشئة عسكرية منهجية. فقد التحقت الإناث بالقصر للتدريب على إدارة شؤون المنزل ليصبحن زوجات مستقبلاً، في حين تلقى الذكور تدريباً مكثفاً مهنيّاً وعسكريّاً استمر لمدة خمس سنوات. بدءاً من فنون النجارة وركوب الدواب، مروراً بأعمال البناء والخدمات اللوجستية، وصولاً إلى التدريب العسكري المتقدم وفنون الفروسية والمبارزة.

¹ ابوطالب إبراهيم، الموالي إسماعيل 1672-1727، مذكرات من التراث المغربي، ج4، ص 50. تم الاطلاع على المقال يوم 10/03/2023 على الساعة 10:45 على الرابط التالي : <https://archive.org/details/mly-ismail/page/n3/mode/2up>

² Morsy Magali, " Moulay Isma'il et l'armée de métier ", in Revue d'histoire moderne et contemporaine, Tome14, N°2 , 1967, p101.

وفي نهاية المطاف، تم تزويجهم من بنات المنتسبين إلى القوات وتوزيعهم في أنحاء البلاد؛ ليشكلوا تعزيزاً نوعياً لصفوفها¹.

بلغ تعداد القوات النظامية البخارية ما يزيد على 150 ألف مقاتل. وبفضل هذه القوة العسكرية الفعالة، تمكن السلطان إسماعيل من بسط نفوذه وسلطته على مختلف أقاليم المغرب، كما نجح في تحرير المعمورة والعرائش وأصيلة من السيطرة الإسبانية، وتحرير مدينة طنجة من الاحتلال الإنجليزي².

كان الهدف الاستراتيجي للسلطان إسماعيل من تأسيس القوات النظامية البخارية هو إنشاء مؤسسة عسكرية نظامية موحدة، تتميز بالولاء والتفاني في خدمة الدولة، متجاوزة التحالفات والانتماءات القبلية. فقد سعى إلى جعل هذه المؤسسة العسكرية أداة فعالة تحت إمرته، مستفيداً من انضباط عناصرها من المماليك، ومبتعداً بهم عن الصراعات بين مختلف القبائل المغربية. وهكذا، أصبحت القوات النظامية البخارية ركيزة أساسية لتوطيد سلطة الدولة المركزية³.

يمكن ملاحظة تشابه لافت بين الجيش الإنكشاري العثماني في ولايات الجزائر وتونس وطرابلس، وجيش العبيد البخاري في المغرب الذي أسسه السلطان العلوي إسماعيل، من عدة جوانب:

فكلا الجيشين أنشئاً خصيصاً لخدمة السلطان المعين، مع ولاء مطلق وانضباط شديد. كما فُصل جنودهما عن عائلاتهم، وتربوا منذ الصغر تربية عسكرية صارمة، لضمان ولائهم المطلق للحاكم، بعيداً عن أي انتماءات قبلية أو مجتمعية.

¹ Ibid, pp 103-104.

² عبد الحق الميريني ، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، 1997، ص 97.

³ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 374.

واعتمد الجيشان بشكل أساسي على المرتزقة والعبيد، كما كان لهما دور في زعزعة الاستقرار السياسي، من خلال التحكم في تنصيب وخلع السلاطين، مما أدى إلى إضعاف الأنظمة وسقوطها.

3 الجيش غير النظامي :

مع تزايد التهديدات الأوروبية وتصاد وتيرة الانتفاضات الداخلية، وفي ظل محدودية أعداد القوات النظامية، اضطرت دول المغربية إلى تشكيل قوات احتياطية لمساندة القوات النظامية وتعزيز قدراتها العسكرية. وقد ضمت هذه القوات عناصر من الكراغلة وسكان القرى المحليين إضافة إلى مقاتلين من القبائل الموالية للسلطة المركزية.

أ - الكراغلة : أو الحنفية كما يطلق عليهم في تونس. نشأوا من خلفيات عرقية مختلطة ناتجة عن تزاوج رجال من أصول تركية وإنكشارية (جنود عثمانيون) مع نساء من الإيالات الخاضعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت. فقد تزوج العديد من عناصر الجيش العثماني الإنكشاري خلال فترة وجودهم في تلك الإيالات من نساء محليات وأنجبوا منهن أطفالاً، وهم ما عرفوا فيما بعد بالكراغلة ، والذين يتمتعون بذات الامتيازات التي يحظى بها آباؤهم الأتراك. وقد شكل هؤلاء الكراغلة همزة وصل بين السلطة العثمانية وخاصة الأعيان منهم. وهذا خلافا لما هو الحال عليه في الجزائر من تهميش لهذه الفئة وحرمانها من تقلد المناصب السامية في الجيش¹. ويرجع ذلك إلى نظرة الإنكشارية غير المتزوجين إلى هؤلاء الأبناء على أنهم خطر عليهم، فإذا وقع أي نزاع مع السكان فإن أولئك الأبناء قد ينضمون إليهم بدلاً من الانضمام إلى الفرقة الإنكشارية. وهكذا عمل الإنكشاريون منذ البداية على

¹ محمد العايبي، المرجع السابق، ص 66.

الحد من عدد الكراغلة المسموح لهم بالتسجيل في فرقهم ثم استصدروا قوانين تمنع صعودهم إلى مراكز القوة أو المسؤولية في الفرقة¹. ولكن مع مرور الوقت وحاجة العثمانيين الماسة إلى تدعيم صفوف الجيش لاسيما في ظل التهديدات الخارجية وثورات الداخلية، بات الاعتماد على الكراغلة أمراً حتمياً. وخلال القرن الثامن عشر الميلادي تحديداً، زادت مكانة الكراغلة ودورهم في تشكيل القوة العسكرية في الإيالات بشكل كبير وكان الاعتماد عليهم في البايكات ضرورياً². حيث اعتمد عليهم البايات في حراسة الحصون والأبراج والمدن ومرافقة المحلات وتنظيم عملهم³. وتولوا بعض المناصب الهامة والمشاركة في الفرق الإنكشارية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، إذ سجل تولي 4 بايات من أصل 5 هذا المنصب في بايلك قسنطينة بين عامي 1700 و1713م. كما تم تعيين كرغلي واحد كباي في بايلك الغرب في فترتين منفصلتين هما 1780-1803م و1805-1812م. أما في بايلك التيطري، فقد تم التعرف على كرغلي واحد هو محمد الذباح تولى منصب الباي بين عامي 1768 و1771م. أما بايلك الشرق، فقد شغل منصب الباي ثلاثة كراغلة خلال الفترات التالية: حسن باي بن حسن بوحنك (1803 - 1807م)، وحسن باي ولد صالح (1812 - 1815م)، ومحمد نعمان باي مع الباي أحمد (1826 - 1837م)⁴.

ب الزواوة:

¹ حنيفي هلايلي، أوراق...، المرجع السابق، ص ص 79-80.

² Boyer Pierre, " le problème kouloughli dans la regence d'Alger ", **in Revue des Mondes Muslmans et de La Méditerranée**, N°8 , 1970, p 88.

³ محجوب السمياني، الجيش التونسي (1831-1881) رافد النهضة وإصلاح، منشورات سوتيميديا، تونس، 2017، ص

⁴ Boyer Pierre, op.cit, p 88.

مثلت قوات الزواوة عنصراً مهماً في المؤسسة العسكرية غير النظامية بإيالات الدولة العثمانية. تنحدر أصول هذه القوات من مناطق جبال القبائل في الجزائر، وخاصة من منطقة بايلك التيطري، حيث برزت قبائل أولاد سيدي عمر المنحدرين من أولاد علان¹. يمتد تاريخ انخراط الزواوة في المؤسسات العسكرية إلى العهد الحفصي، وبعد سقوط الدولة الحفصية ودخول العثمانيين، أعلنوا ولاءهم للسلطة الجديدة. تم استيعابهم في الحاميات العثمانية، لكن بمرتبة أدنى من العناصر التركية²، مع نظام أجور مرتبط بأداء الخدمة الفعلية، حتى عُرفوا بمقولة "الزواوة مقدمون في المعارك ومؤخرون في المرتبات."

تركزت المهام الرئيسية لقوات الزواوة في حراسة التحصينات المحيطة بالمراكز الحضرية الكبرى والمشاركة في حملات تحصيل الضرائب³، حيث شكلوا ثلث القوة العددية للحاميات في مدينة الجزائر. خضعت قيادتهم لسلطة آغا الإنكشارية⁴، واعتمد عليهم البايات والدايات في النزاعات الداخلية والخارجية. فعلى سبيل المثال، استعان بهم حمودة باشا في تونس خلال صراعه مع الجزائر مطلع القرن التاسع عشر. كما برز دورهم في إخماد الحركات التمردية، مثل ثورة العساكر الأتراك عام 1811م وثورة علي بن غذاهم عام 1864م⁵.

ج- قبائل المخزن :

¹ Federman H.Aucapitaine, "Notices sur l'histoire de l'administration du beylik de Titteri ", in **R.A.**, N°9, Alger, 1865, pp 299.

² محمد العايبي، المجموعات العسكرية غير النظامية الداعمة للجيش التونسي، مجلة الإحياء، المجلد 21، العدد 28، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2021، ص 950.

³ Federman H.Aucapitaine, op.cit, p 300.

⁴ Fray Diego de Haedo, op.cit, p p 44-45.

⁵ محمد العايبي، المرجع السابق، ص 950.

عُرفت قوات المخزن بتسميات متعددة منها المخزنية والزمول والدواير. يشير مصطلح "المخزن" في أصله إلى الموظف المكلف بجمع الضرائب والمهام العسكرية، ثم تطور ليبدل على السلطة التركية بشكل عام. نشأت هذه القوات في الفترة التي أعقبت حكم الموحيدين، واستمرت خلال العهد العثماني حيث منحتها السلطات صلاحيات واسعة منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي. تألفت من وحدات فرسان عُرفت بالمزراقية أو الصبايحية أو المكاحلية¹.

اضطلعت قوات المخزن بمهام أساسية شملت مراقبة السكان المحليين ومساعدة القياد في العمليات الضريبية وردع القبائل المتمردة عن دفع الضرائب. حظي أفرادها بامتيازات مماثلة لليولداش، بما في ذلك الإعفاءات الضريبية والمكافآت المالية، مما عزز مكانتهم في النظام العسكري والإداري للإيالة².

ح- الصبايحية :

يرجع أصل مصطلح "الصبايحية" إلى اللغة التركية، ويشير إلى وحدات الفرسان التي اقتبس نظامها العسكري من المؤسسة العسكرية العثمانية. بلغ تعدادها في القرن الثامن عشر نحو أربعين ألف فارس موزعين على الإيالات العثمانية، وينحدر معظمهم من السكان المحليين. تنظيمياً، تألفت كل وحدة من خمسمائة فارس، وأضيفت لاحقاً خمس فرق من الصبايحية الأتراك، مما عزز قدراتها العسكرية والتنظيمية³.

تركزت مهام الصبايحية في حماية البايات في عواصم المقاطعات والمساعدة في تحصيل الضرائب من الممتنعين. وقد وثق المؤرخ الفرنسي دي لانيسان آلية عملهم في جباية الضرائب،

¹ نفسه، ص 954.

² Federman H.Aucapitaine, op.cit, p359

³ محمد العايبي، المرجع السابق، ص 952.

حيث كان يُمنح المتأخرون مهلة محددة للدفع، وعند انقضائها يُرسل صبايحي للإقامة في منزل المتخلف عن الدفع، مع إلزام الأخير بتحمل نفقات إقامة الصبايحي وفرسه حتى تسديد المستحقات كاملة. شكل هذا النظام آلية فعالة لضمان تحصيل الضرائب وتعزيز سلطة الدولة في المناطق النائية¹.

خ- المرزقية:

شكلت قوات المرزقية، المعروفة أيضاً بالرماة، تشكيلةً عسكرياً متميزاً في المؤسسة العسكرية بإيالات المغربية. اشتق اسمهم من المرزاق، وهو السهم أو الرمح. انحدر أفراد هذه القوات من السكان المحليين، حيث جرى اختيارهم وفقاً لمعايير الكفاءة والقدرة العسكرية. وبعد اجتياز معايير القبول، كان يتم تسجيل أسمائهم في سجلات خاصة للاستدعاء وقت الحاجة².

تميزت قوات المرزقية بنظام خدمة مرن، حيث كانت الدولة تستدعيهم للمشاركة في الحملات العسكرية عند الحاجة. وفي مقابل هذه الخدمة، حظي أفرادها بامتيازات عدة، شملت تقاضي مرتب منتظم والإعفاء من الضرائب (المجبي). وكان على أفراد هذه القوات توفير خيولهم وأسلحتهم الخاصة عند الاستدعاء³. وقد وثق ابن أبي الضياف في كتابه "الإتحاف" دور هذه القوات، مشيراً إلى أن كل عرش من عروش العربان كان يضم عدداً من المزرابية الذين يتلقون رواتب منتظمة، ويشاركون في المهام العسكرية مع المخازنية باعتبارهم مماثلين للصبايحية⁴.

¹ Jean Marie Antoine de Lanessan, La Tunisie, Félix Alcane Editeur, Paris, 1887, p165.

² محمد العايبي، المرجع السابق، ص 96.

³ محبوب السميّراني، المرجع السابق، ص 128.

⁴ أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج4، دار العربية للكتاب، تونس، 1999، ص 39.

وإلى جانب المرزقية، برزت فرقة "الصولاق" أو المخازنية كما عُرفت في المغرب. تألفت هذه الفرقة من ثمانية أقدم الجنود، يرتدون أنبوا نحاسيا، أو مدفعا في مقدمة قبعاتهم ، وسيوفا كبيرة ذهبية . واضطلعت بمهمة حماية الداي أو السلطان كحرس خاص¹. كما تولت بعض وحداتها مسؤولية تحصين المدن وحراستها².

أما سلاح المدفعية، المعروف بالطوبخية، فقد ضم العناصر المتخصصة في تشغيل المدافع وإدارة الحصون ومصانع البارود. تنوعت تركيبته العرقية لتشمل الأتراك والكرغلة والعرب³. وفي المغرب، انحدر معظم أفراد هذا السلاح من سكان فاس والمنطقة الشرقية. تميز هؤلاء بمهاراتهم في استخدام المدافع والمجاذيف والقذائف وآلات الحصار، مما جعلهم عنصراً أساسياً في العمليات العسكرية⁴.

ثالثا : الجانب الاقتصادي

يُعدّ فهم طبيعة ملكية الأراضي الزراعية وأنماطها وأساليب استغلالها أمراً جوهرياً قبل التطرق إلى دراسة النشاط الزراعي في المجتمع المغربي ومحاصيله. فالأرض تمثل العنصر الأساسي في العملية الإنتاجية الزراعية، كما أن طبيعة ملكيتها وطرق استثمارها تؤثر تأثيراً مباشراً في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع⁵.

1 ملكيات الأراضي :

¹ Thomas Shaw, op.cit, p 162.

² عبد الحق المريني ، المرجع السابق، ص 98.

³ علي خلاصي ، الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 104

⁴ عبد الحق المريني، المرجع السابق، ص 98.

⁵ أرزقي شويتم، المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، الجامعة الجزائر 02، 2005-2006، ص 212.

وقد انقسمت ملكية الأراضي في الدول المغربية تاريخياً إلى صنفين رئيسيين:

أ - الملكيات الخاصة:

تمثلت في الأراضي التي كان يستثمرها مالكوها مباشرة، ولم يكن عليهم تجاه الدولة سوى أداء العشر والزكاة. وقد تركزت هذه الأراضي في محيط المدن فيما عُرف بالفحوص، واشتملت في معظمها على بساتين الخضراوات والفواكه ومزارع الحبوب. وكان يمتلكها في الغالب موظفو الدولة وأعيان المدن والميسورون من مختلف الفئات المقيمة داخل الأسوار، كالتجار والقناصل والحرفيين، كما هو الحال في مدن فاس ومكناس وتطوان والجزائر وقسنطينة وتونس¹. كما وُجد قسم من هذه الملكيات الخاصة في المناطق الجبلية، حيث خضعت للتنظيم القبلي المستند إلى الأعراف المتوارثة، كما في مناطق الريف شمال المغرب الأقصى، وطرارة شمال تلمسان، والونشريس، وبني مناصر، والظهرة، والتيطري، وجرجرة، والأوراس، وشمال قسنطينة، إضافة إلى بعض السهول الداخلية والواحات الصحراوية كسهول معسكر وبعض النواحي الشمالية والشرقية من البلاد التونسية².

ب - الملكيات المشاعة:

شكلت الأراضي المشاعة جزءاً مهماً من المساحات الزراعية في المنطقة المغربية، وعُرفت بمسميات متنوعة: "أراضي الجماعة" في المغرب، و"السبقية" في الغرب الجزائري، و"العرش" في الشرق الجزائري، و"العربي" في تونس. وقد أدارت هذه الأراضي القبائل والعشائر المحلية، حيث وُزّع استغلالها بين أفراد القبيلة وأسرهم وفق حاجاتهم، مع تخصيص جزء منها للرعي

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية في الفترة الحديثة، ط1، بيروت، 2001، ص48

² ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 49.

المشترك أو لتجديد خصوبتها. وكانت الجماعة تسترد الأراضي من المهملين من أفرادها وتمنحها لآخرين لاستثمارها. وفي حالة خضوع القبيلة للدولة، كان الشيخ أو القائد المعين من قبل السلطة هو المسؤول عن تنفيذ ما تواضع عليه أفراد القبيلة¹. وتتقسم الملكيات في المنطقة المغربية إلى عدة أنواع رئيسية هي:

1. أراضي العرش:

تُعد أراضي العرش نمطاً من أنماط الملكية المشاعة التي انتشرت في المنطقة المغربية، وتختص بالقبيلة أو العرش دون سواهما. يحق لكل أسرة من القبيلة استغلال جزء منها للزراعة لمدة محددة دون تملكه. وهي أراضي غير مقسمة ومشاعة بين أبناء القبيلة الواحدة، يتوارثون حق استغلالها جيلاً بعد جيل². وقد انتشرت هذه الأراضي بكثافة في مناطق الريف والأطلس المتوسط والكبير والهضاب السهبية بالمغرب الأقصى، ومناطق وهران الداخلية، وجهات التيطري الجنوبية، وأطراف بابلك قسنطينة حيث تستقر قبائل النمامشة والحنانشة والحراكتة وأولاد قاسم وأولاد عاشور وأولاد مقران في البلاد الجزائرية، وفي السهول الواسعة بالوسط الغربي والجنوب التونسي وداخل إقليمي طرابلس وبرقة³.

2. أراضي البايك (الدولة):

تمثل الأراضي الخراجية صنفاً من أصناف الملكيات الزراعية التي سادت في المنطقة المغربية، وتعود ملكيتها مباشرة للدولة، وللحكام حق التصرف فيها. وقد حصلت الدولة على

¹ نفسه، ص ص 51-52.

² نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص 153.

³ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 52.

مساحات شاسعة منها عبر المصادرة أو الشراء أو وضع اليد عليها، كما في حالات انعدام الورثة أو تهجير السكان الممتنعين عن دفع الضرائب. وتتركز أغلب هذه الملكيات في المناطق الخصبة ذات الإنتاجية العالية من الحبوب، والمناطق ذات الأهمية العسكرية، مثل شمال تونس وشرقها وسهول الجزائر وسواحل المغرب. وكان استغلالها يتم إما بالتأجير أو بتسخير السكان المحليين، مع منح أجزاء منها لكبار الموظفين وذوي النفوذ¹.

3. أراضي الوقف:

هي الأراضي المحبسة للإنفاق على الأعمال الخيرية، مثل فداء الأسرى المسلمين، ومساعدة أبناء السبيل واليتامى والمرابطين والأشراف والأندلسيين، وكذلك لرعاية المؤسسات الدينية، سواء التابعة للحرمين الشريفين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - أو الخاصة بالمساجد والزوايا والأضرحة. وتصنف الأراضي الموقوفة من حيث طريقة استغلالها إلى:

الوقف الخيري²: يعود ريعه إلى المصلحة العامة التي حُبس من أجلها.

الوقف الأهلي أو العائلي : يحتفظ فيه المحبس أو ذريته بحق الانتفاع، بحيث لا يُصرف على الغرض الأصلي للتحبیس إلا بعد انقراض الذرية أو انقطاع نسل صاحب الأرض المحبسة، وفق ما تنص عليه وثيقة التحبیس، عملاً بأحكام المذهب الحنفي. وقد شجع هذا النظام على

¹ نفسه، ص 55-54.

² ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 58.

انتشار هذا النوع من الوقف في البلاد المغربية، إذ مكّن المحيَّس من حماية مصدر رزقه وذريته من مصادرة الحكام، باعتبار أن الأرض أصبحت محمية بأحكام شرعية¹.

4. الأراضي الموت:

تُعرف بأنها أراضٍ مهمة لا مالك لها أو غير صالحة للزراعة، وتقع عادةً بعيداً عن التجمعات السكانية. ورغم إمكانية استصلاحها، فإن الفلاحين أحجموا عن ذلك بسبب عدم الاستقرار الذي شهده المغرب في العهد العثماني، مما أدى إلى تحول مساحات شاسعة من الأراضي الخاصة والجماعية إلى أراضٍ موات غير مستغلة. وتتركز هذه الأراضي في المناطق الجافة وشبه الجافة المعرضة للجفاف والآفات، وقد بلغت مساحتها ذروتها مع مطلع القرن التاسع عشر، متزامنة مع تدهور الأوضاع الأمنية وضعف سلطة الدولة².

2 المحاصيل الزراعية :

شكل النشاط الزراعي العمود الفقري للاقتصاد المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك لتوفر المقومات الطبيعية الملائمة من أراضٍ خصبة شاسعة ومناخ معتدل. وقد أسهم التنوع التضاريسي في تعدد المحاصيل الزراعية، حيث انقسمت المنطقة المغربية إلى ثلاثة أقاليم جغرافية رئيسية: الإقليم الشمالي ذو المناخ المعتدل والأمطار الوفيرة، وإقليم الهضاب العليا شبه الجاف، والإقليم الصحراوي الجاف الذي يندر فيه النشاط الزراعي³.

¹ نفسه، ص ص 59-60.

² راصر الدين سعيديوني، المرجع السابق، ص ص 46-48.

³ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 212.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

تميزت المناطق الساحلية الشمالية المطلة على البحر المتوسط بإنتاجها الوفير من الحبوب والشعير، وامتدت هذه الأراضي الخصبة من شمال المغرب الأقصى مروراً بمناطق الجزائر (أزغار، البليدة، قسنطينة، عنابة، وتلمسان)، وصولاً إلى شمال تونس وسهل جفارة وجبل نفوسة. وقد أشاد الرحالة والجغرافي الإنجليزي "ستانلي" بخصوبة هذه الأراضي قائلاً: "إن ساحل البلاد المغربية من جبل طارق إلى طرابلس يزرع بأراضي زراعية خصبة، ولو وُضعت في أيدي فلاحين نشطين لأمكنها أن تصبح مخزوناً غذائياً مهماً لأوروبا"¹. وفي السياق نفسه، وصف القنصل الفرنسي فيليب فالير هذه الأراضي بأنها "مطمورة روما" نظراً لخصوبتها وجودتها الاستثنائية².

واشتهرت المناطق المغربية بتنوع إنتاجها الزراعي، فانتشرت زراعة الخضروات والفواكه في الضياع والبساتين المحيطة بالمدن الكبرى مثل فاس ومكناس ومراكش³، ومنطقة القبائل والأوراس ومليانة والأطلس البليدي⁴، وسيدي بوسعيد والوطن القبلي⁵. كما تميزت هذه المناطق بكثرة بساتين الفاكهة كالبرتقال والليمون والرمان والتين واللوز والمشمش. وحظي الزيتون بأهمية خاصة كمحصول غذائي وتجاري، وتركز إنتاجه في مناطق سوس⁶، وقفصة وتوزر وصفاقس⁷، وفي إقليم دار السلطان (يسر، موزاية، الزواتنة، بني مناصر) ومنطقة القبائل⁸.

¹ Edward Stanley, op.cit, p 36.

² Cesaire Phillippe Valliere, op.cit, p 25.

³ James Gray Jackson, op.cit, p 14.

⁴ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 216

⁵ Edward Stanley, op.cit, p 20.

⁶ Arthur Leared, op.cit, p 290.

⁷ حفيظة بوتوقوماس، المجتمع التونسي خلال العهد الحسيني 1835-1882 / 1229-1250، أطروحة مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله، 2017-2018، ص 141

⁸ صغير عبلة، المرجع السابق، ص 374

تميزت الدول المغربية بتنوع بيئي ثري، حيث انتشرت فيها مجموعة متنوعة من الأعشاب الطبية والنباتات البرية. ومن أبرز هذه النباتات: الخروع، والزعفران البري، والهليون، والخشخاش، والفجل، والورد البري، والبابونج، والزنابق¹.

واحتضنت هذه المنطقة ثروة حيوانية متنوعة شملت الماشية والدواجن المستأنسة، إضافة إلى الحيوانات البرية كالغزلان والأرانب والقروود والخنازير البرية. كما عرفت المنطقة وجود الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور والذئاب، فضلاً عن تنوع الطيور من نسور وصقور وحمائم بري وأصناف مختلفة من العصافير².

وقد أولى المغاربة اهتماماً خاصاً بتربية الخيول، لا سيما الحصان الصحراوي المعروف برشاقتة وسرعته الفائقة. وكان البدو يتبعون أساليب خاصة في تربيته، كتقنين كمية المياه صيفاً، ومزجها أحياناً بحليب الماعز لفوائده المتعددة. كما حرصوا على إطالة ذيول خيولهم تماشياً مع الشريعة، معتقدين أن قصّ الذيل يؤثر سلباً في شجاعة الحصان ومروءته³.

أما الجمل، فقد وصفه بانانتي بأنه من أثمن نعم العناية الإلهية على سكان إفريقيا، وأطلق عليه لقب "سفينة الصحراء" لقدرته على اجتياز المساحات الرملية الشاسعة. وبلغ احترام قبائل الصحراء للجمل درجة تقديسه، حتى أنهم كانوا يغتسلون برغوة فمه اعتقاداً منهم بقدسيته⁴.

وبينما كان الجمل وسيلة التكيف الرئيسية مع البيئة الصحراوية، فإن المناطق الساحلية للدول المغربية شهدت نمطاً مختلفاً من التكيف من خلال تطوير القطاع الزراعي بفضل إسهامات

¹ John Buffa, op.cit, p 189.

² Ibid, p 190.

³ Fillippo Pananti, Relation d'un séjour à Alger, traduit de l'anglais, imprimeur-libraire Rue de seine, Paris, 1820, pp 180 -181.

⁴ Ibidem.

المزارعين الأندلسيين. فقد عملوا على إحياء المزارع والضياع، واستصلاح الأراضي، وتجفيف المستنقعات، وإدخال أساليب زراعية متطورة. كما أنشأوا شبكة متكاملة من الطرقات والنوريات والقنوات والعيون والحنايا والقناطر والآبار والسواقي. علي سبيل المثال لا الحصر نذكر ما قام به الصانع الأندلسي أوسطى موسى عام 1610م من مد قنوات مائية لمدينة الجزائر وبساتينها، مستفيداً من عيون التل وأملي وبير طريلية والزبوجة والحامة، بطول إجمالي بلغ 23,228 متراً¹.

اتسمت الأساليب الزراعية في الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بطابعها التقليدي البسيط. فكانت أدوات الحرث بدائية، حيث كان المحراث لا يترك سوى آثار سطحية على الأرض. كما اعتمد السكان في درس الحبوب على طرق تقليدية، مستخدمين الحيوانات كالجمال التي كانت تدور بشكل دائري فوق المحصول لدرسه².

أما عن الأدوات والممارسات الزراعية، فكان الفلاح المغربي يباشر موسم الزراعة مع بداية هطول الأمطار في شهر أكتوبر، حيث يقوم أولاً بتهيئة الأرض وتنظيفها من الأعشاب الضارة والشجيرات البرية. ثم يحرقها باستخدام محراث خشبي بسيط تجره الثيران أو الخيول، وفي بعض المناطق كانت تُستخدم الجمال والحمير في عملية الجر³. وكان هذا المحراث التقليدي لا يترك سوى آثار سطحية على الأرض المحروثة⁴.

¹ ناصر الدين سعيدي، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية من القرن 16 إلى 19م،

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، العدد 31، جامعة الكويت، 2010، ص 29

² Filippo Pananti , op.cit , p 357-358.

³ Arthur Leared, op.cit,p 282.

⁴ Filippo Pananti, op.cit, p 357.

وفي مرحلة البذر، كان الفلاح يزرع الحبوب كالقمح والشعير، والمحاصيل كالبصل والطماطم بما يكفي احتياجات أسرته للعام. وكانت عملية زراعة المحاصيل مثل الذرة والفاصوليا تتم يدوياً باستخدام الأصابع أو عيدان مدببة، ثم تُغطى البذور بسحب شجيرات الشوك فوقها¹.

وفي مرحلة الحصاد والدرس، كانت تُستخدم الحيوانات في درس الحبوب، حيث كانت الجمال تدور بشكل دائري فوق المحصول لفصل الحبوب عن السنابل². وفي طرابلس ويصف لنا بانزه طريقة درس الحبوب قائلاً: "يقوم المزارعون بسوق الحيوانات، خاصة الخيول، ذهاباً وإياباً فوق الحبوب المنثورة على الأرض حتى تفرغ السنابل. ويحرص الفلاح على منع الحيوانات من أكل المحصول بضربها على أفواهها بقصب مديب"³.

أما عن تخزين المحاصيل، فكانت تُحفر مخازن عميقة تُسمى "المطامير" أو "العقل"، تبعد مسافات متساوية عن بعضها. وكانت هذه المخازن تحفظ القمح والشعير، وأحياناً التمر، لمدة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات أو أكثر، وذلك بعد إغلاق مداخلها بإحكام⁴.

وفيما يخص محصول الذرة، فكان يُحصد باستخدام منجل صغير، مما جعل العملية شاقة وغير فعالة، في حين كانت تُقطع الذرة والفاصوليا ذات السيقان الكبيرة بالخناجر التقليدية. وبعد الحصاد، كان المحصول يُحزم ويُكوم قبل وضعه في "بيدر الدريس" - وهو حوض طيني

¹ Arthur Leared, op.cit, p 283 .

² Filippo Pananti ,op.cit , p 358.

³ رجب نصير الأبيض، المرجع السابق، ص ص 217-218.

⁴ نفسه.

مخصص لدرس الحبوب بواسطة الماشية. ثم تأتي مرحلة تنظيف الحبوب وتجفيفها قبل تخزينها¹.

وعلى الرغم من غنى البلدان المغربية بإمكاناتها الزراعية، إلا أن الاعتماد على الأساليب التقليدية وقلة الحوافز حدّ من الاستغلال الأمثل لهذه الموارد. ومع ذلك، فإن تطبيق الأساليب الزراعية الحديثة من شأنه أن يرفع القدرة الإنتاجية للأراضي الصالحة للزراعة لتكفي خمسة أضعاف عدد السكان آنذاك. وتجدر الإشارة إلى أن موسم الأمطار بعد فصل الصيف كان يحول المساحات الشاسعة من الأراضي القاحلة إلى مساحات خضراء مزدهرة، حتى في مناطق الكثبان الرملية².

3 عوامل تراجع الإنتاج الزراعي في المنطقة المغربية:

واجه القطاع الزراعي تحديات كبيرة نتيجة إهمال السلطات الحاكمة. فرغم أهمية الزراعة في الاقتصاد المحلي، لم تتخذ الحكومات خطوات جادة لتطوير هذا القطاع الحيوي. فلم تقدم التسهيلات والقروض اللازمة للمزارعين، ولم تشجع استخدام التقنيات الحديثة. وفي هذا السياق، علق القنصل الفرنسي فيليب فالير قائلاً: " كان بإمكان الحكومة أن تشجع زراعة الأرض، التي تتميز تربتها بالخصوبة، وجعلها إحدى وسائل الثراء وتنمية ثروة الشعوب"³.

ومن أبرز العوائق التي واجهت القطاع الزراعي :

¹ Arthur Leared, op.cit, p 284 .

² Ibid, p 279-280.

³ Cesaire Phillippe Vallière, op.cit, p 24.

أ -السياسة الضريبية المجحفة:

فقد فرضت السلطات ضرائب باهظة على المزارعين، واتبعت أساليب قمعية في تحصيلها، إضافة إلى الضرائب غير المباشرة على التجارة. وقد أدت هذه السياسة إلى فقدان المزارعين الحافز لتطوير إنتاجهم، إذ كان الفائض عن حاجتهم يُصادر على شكل ضرائب. وقد رصد ليدر ظاهرة عزوف المزارعين عن العمل في الحقول، حيث أوضحوا أنهم يكتفون بزراعة ما يسد حاجتهم فقط، لأن أي إنتاج إضافي سيُصادر من قبل السلطات¹.

ب - تأثر بالأوضاع الطبيعية :

شهدت المنطقة المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولات جذرية في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية، نتيجة لعوامل طبيعية وسياسية متعددة. فعلى الصعيد الطبيعي، تعرضت المنطقة لموجات متتالية من الجفاف وشح الأمطار، مما أثر سلباً على الإنتاج الزراعي. علي سبيل المثال نذكر المجاعة الحادة التي حدثت في الجزائر بين عامي 1775م و1780م بسبب قلة الأمطار في موسمي مارس وأ فييل، مما ألحق أضراراً بالغة بالمحاصيل الزراعية².

وفي تونس، وثّق الرحالة الإنجليزي ستانلي جفافاً استمر ثماني سنوات في منتصف القرن الثامن عشر، مما أدى إلى هجرة جماعية لسكان طرابلس³. كما شهدت تونس مجاعة مدمرة

¹ Arthur Leared, op.cit, p 280 .

² Cesaire Phillippe Vallière, op.cit, p 25.

³ Edward Stanley, op.cit, p 33 .

عام 1805م أثرت بشكل كبير على القطاع الزراعي والاقتصاد، وتسببت في خسائر بشرية فادحة¹.

ت - الثورات الاضطرابات الداخلية:

وعلى الصعيد السياسي، شهدت المنطقة اضطرابات وثورات داخلية عديدة، كان من أبرزها ثورة ابن الأحرش في الجزائر عام 1803م. وقد أدت هذه الاضطرابات إلى تعطيل النشاط الزراعي وانعدام الحراثة وتقلص إنتاج المحاصيل بشكل ملحوظ. كما ساهم انتشار ظاهرة النهب وعدم الاستقرار الأمني في تدهور القطاع الزراعي.²

ث - استخدام أساليب التقليدية :

على الرغم من التطور النسبي الذي أدخله الأندلسيون في القطاع الزراعي من خلال تقنيات زراعية متقدمة ومحاصيل جديدة، فإن هذا التطور ظل محدوداً في مناطق استقرارهم فقط³. وتميزت الزراعة في المنطقة المغربية بالطابع التقليدي، حيث استمر الفلاحون في اعتماد أساليب زراعية بدائية رغم خصوبة التربة.

شكلت الممارسات الزراعية البدائية ونقص البنية التحتية عائقاً رئيسياً أمام تطوير القطاع الزراعي. وكان نقص مياه الري من أبرز التحديات، إذ اعتمد المزارعون بشكل أساسي على مياه الآبار العميقة، خاصة خلال فترات الجفاف الطويلة، مع استخراج المياه بأساليب بدائية⁴.

¹ Thomas MacGill, op.cit, p 137

² صالح العننزي ، المصدر السابق، ص 33

³ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 218.

⁴ Arthur Leared, op.cit, p 281 .

4 -الصناعة :

تميزت الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بنهضة صناعية تقليدية، اعتمدت على الموارد الزراعية والحيوانية المتوفرة في المنطقة. وقد أدى ذلك إلى تنوع ملحوظ في المنتجات الصناعية. ففي المناطق الريفية، تركز الإنتاج على تلبية الاحتياجات المعيشية الأساسية للأسر، في حين توجهت الصناعة في المدن نحو التصدير والتجارة الخارجية. وبرزت الصناعات النسيجية والجلدية والمعدنية والخشبية والفخارية كأهم الصناعات التقليدية آنذاك، حيث لبت الطلب المحلي وصدرت الفائض إلى دول الجوار وأوروبا.

أ -الصناعة الجلدية:

ازدهرت الصناعات الجلدية في المدن والبوادي، معتمدة على الجلود المعالجة المعروفة باسم "الفيلاي" المتوفرة محلياً. وشملت المنتجات الجلدية السروج والمحافظ والأحذية (الصنادل والبابوش) وأغمدة السيوف والقرب والأحزمة والمحافظ المخصصة لحمل الأوراق والمقتنيات الثمينة. وقد اشتهرت بهذه الصناعة مدن تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس وطرابلس¹ وفاس ومراكش، مع تميز خاص للأخيرتين. وفي هذا السياق، يشير ليرد إلى الشهرة العالمية التي حظيت بها صناعة الجلود المغربية المدبوغة من جلود الماعز².

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية ...، المرجع السابق، ص 35.

² Arthur Leared, op.cit, p 294.

ومن أبرز المنتجات الجلدية المحافظ المطرزة بالذهب والفضة، ومستلزمات الخيول كالسروج والجم التي لقيت رواجاً كبيراً لدى القبائل المهمة بتربية الخيول، حيث كانت بعض القبائل تمتلك ما بين ثلاثمئة وأربعمئة حصان¹.

ب - الصناعة الفخارية :

تُعد الصناعة الفخارية من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان، وقد مارسها المجتمع المغربي منذ العصور القديمة نظراً لأهميتها الاجتماعية والاقتصادية. وساهمت هذه الحرفة في استقرار السكان وتشكيل التجمعات السكنية. فقد انتشرت صناعة الأواني الفخارية للاستخدامات اليومية ومواد البناء كالقرميد والأجر والزليج في معظم المدن والقرى، مع تفاوت في الجودة والنوعية بين المناطق².

وقد برع في هذه الصناعة حرفيو ندرومة وشرشال والجزائر وميلة وطرابلس³ وفاس⁴. كما تميز أهالي نابل وجربة وزرزييس بصناعة الجرار والصحون والخوابي والقلال والقصاع والقدر والفناجين التي حظيت بإقبال كبير لجودتها العالية.

وجدير بالذكر أن الصناع الأندلسيين في الجزائر وتونس وبعض مناطق الساحل والوطن القبلي بالولاية التونسية قد برعوا في صناعة نوع متميز من الخزف المطلي المعروف بالزليج، الذي استُخدم في تغطية أرضيات المنازل وكساء الجدران وتزيين المساجد والعيون والأبواب.

¹ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 225.

² نفسه ، ص 227.

³ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع... المرجع السابق، ص 36

⁴ Arthur Leared, op.cit, p 293.

كما انتشرت ورش معالجة الرخام وتحضير الجبس وصناعة الآجر والقرميد المجوف المستخدم في تغطية المنازل في المناطق الساحلية¹.

ت - الصناعة المعدنية:

انتشرت الصناعات المعدنية في المناطق الجبلية والمدن المغربية، حيث تأسست مسابك لصناعة المدافع والقذائف والبنادق والأقفال ومختلف الأدوات الحديدية. ويرتبط انتشار هذه الصناعة بوجود المناجم في المنطقة لاستخراج المواد الأولية². وقد أشارت المصادر التاريخية إلى وجود مناجم في مواقع متعددة، منها جبال دور وجبل كوتا قرب مدينة العرائش، والتل الواقع بين طنجة وسبتة، وسلسلة جبال الأطلس³، إضافة إلى مناجم في طرابلس وشرشال وجبال الزكار بمليانة وقسنطينة وتونس⁴.

وكانت صناعة الأسلحة والذخيرة والأدوات الزراعية حكرًا على سكان المدن والمناطق الجبلية التي تتوفر فيها المناجم. وقد شكل هؤلاء الصناع المصدر الرئيس لتزويد سكان المناطق السهلية بهذه المنتجات، في حين اقتصر النشاط الصناعي لسكان السهول على صناعة بعض المنتجات اليومية كالسلال والسروج⁵.

ث - الصناعة الخشبية:

¹ ناصر الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 36.

² أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 226.

³ John Buffa, op.cit, p 188 .

⁴ ناصر الدين سعيدي، المرجع السابق، ص 34.

⁵ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 227.

تنوعت الصناعات الخشبية في المجتمع المغربي بين الريف والمدينة. ففي الأرياف، اقتصرت على صناعة الأواني المنزلية كالأقداح والملاعق، والأدوات الزراعية كمقابض الأدوات والمحاريث. وكانت هذه الحرفة تمثل نشاطاً ترفيهياً لسكان الأرياف في أوقات فراغهم.

أما في المدن، فقد شهدت الصناعات الخشبية تطوراً ملحوظاً، حيث برز النجارون والخراطون في صناعة الأثاث المنزلي والصناديق الملونة والخزائن والنوافذ والأبواب ومستلزمات الصناعة النسيجية. كما أولت الدول المغربية اهتماماً خاصاً بصناعة السفن، نظراً لحاجتها إلى أسطول قوي لمواجهة الأخطار الخارجية، مما جعلها تشترط في معاهداتها مع الدول الأوروبية تضمين الأخشاب ضمن الإتافات المقررة¹.

ج - الصناعة النسيجية :

تميزت العديد من المدن المغربية بصناعاتها النسيجية، مثل الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبرشك وتونس وزغوان وسوسة والقيروان وجربة وتوزر وطرابلس ونالوت² وفاس والعرائش وتطوان³. وتنوعت المنتجات النسيجية لتشمل الشاشية والأقمشة والأغطية والزرابي. وقد برع الصناع الأندلسيون في تلمسان والجزائر وتونس وزغوان في صناعة الشاشية وأعمال التطريز والتوشية والقفاطين والصدريات والسراويل والأحزمة وأغطية الرأس⁴.

¹ نفسه، ص ص 228-229

² ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع...، المرجع السابق، ص 33.

³ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 502

⁴ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع...، المرجع السابق، ص 33

واشتهرت مدن معينة بمنتجات نسيجية محددة: فعُرفت فاس¹ وتونس بمصانع الكتان والحرير والصوف، وجزيرة جربة بالشالات والبطانيات الصوفية الجيدة، وتوزر ومناطق الجريد بالمنسوجات الصوفية والبرانس، وقلعة بني راشد ومعسكر بالأغطية، وندرومة وتلمسان بأقمشة الكتان والقطيفة. كما تميزت زغوان بتحضير الصباغ من قشور السماق، والبليدة بمعالجة القرمز المستخدم في صباغة الصوف². كما اشتهر فاس بحايك و السبنيات (وهي أغطية الرأس تصنع من الحرير) كما تنتج الطرابيش التي اشتهرت لدى الأوروبيين باسم فاس ودخلت معاجمهم، كما كانت تطوان تمون الجيش والمخزن بحاجياته من الخيام و ملابس الجيش ، كما تصنع أنواع متعددة من الثياب كالكمخة الجيم³

وتجدر الإشارة إلى أهمية صناعة الزرابي والمعلقات والأغطية التي تميزت بتنوع أشكالها وألوانها ورسومها حسب المناطق. وقد اشتهرت بها مناطق عديدة مثل قلعة بني راشد وعمور وميزاب وقرقوز ووادي سوف والنامشة والقيروان والساحل وطرابلس والجبل الغربي (جبل نفوسة)⁴.

5 التجارة :

شكّل النشاط التجاري في الدول المغربية عصب الحياة الاقتصادية في البلاد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. وقد تمحورت المبادلات التجارية آنذاك حول السلع

¹ إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 502.

² ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع... المرجع السابق، ص ص 34-33.

³ إبراهيم بركات، المرجع السابق، ص ص 503-502.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع...، المرجع السابق، ص 34.

الزراعية المتنوعة، والمنسوجات الصوفية ذات الجودة العالية، والتحف والمصنوعات النحاسية والفضية الفاخرة، إضافةً إلى المصنوعات الجلدية، والشمع، والكبريت، وغيرها من البضائع. وكانت هذه التبادلات التجارية تتم في الأسواق اليومية داخل المدن، وكذلك في الأسواق الأسبوعية في المناطق الريفية حيث كان سكان البادية يعرضون منتجاتهم الزراعية والحرفية المصنعة محلياً.

شكل النشاط التجاري محوراً أساسياً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة، حيث امتد تأثيره من المدن إلى البوادي والمناطق الجبلية. وتميزت هذه الفترة بنشاط سوقي حيوي، خاصة في الأسواق المفتوحة الممتدة على طول الطرق .

كانت هذه الأسواق نقطة التقاء مهمة بين التجار والمزارعين وسكان المناطق الجبلية. حيث عرض التجار منتجات متنوعة تشمل الحرف التقليدية والأقمشة الراقية، بينما قدم المزارعون محاصيلهم من الحبوب والماشية والصوف والجلود والفحم الخشبي. وتميزت هذه الأسواق، وخاصة المقامة بالقرب من الأضرحة والزوايا، بثراء بضائعها وتنوعها¹.

داخل المحلات التجارية، كان المشهد أكثر إثارة وتعقيداً. فقد امتلأت الأسواق بالشالات الحريرية والصوفية والقطنية بألوان زاهية وتصاميم معقدة. وجنباً إلى جنب مع هذه المنسوجات، كان هناك عرض وفير للسجاد الفارسي والتركي، والجلود المنقوشة، والأسلحة الشرقية، والمجوهرات، والأواني الفخارية.

¹ كلة نصيرة، المرجع السابق، ص ص 218-219

وميزت هذه الأسواق المساومة كقاعدة أساسية في التعامل، حيث كان المشتري الماهر يستطيع الحصول على خصومات كبيرة. وعلى الرغم من ارتفاع الأسعار بشكل عام، إلا أن التبادل التجاري استمر في تعزيز الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين مختلف فئات المجتمع¹.

شكلت التجارة عبر القوافل شريان الحياة الاقتصادية للمناطق المغربية، حيث كانت الرحلات التجارية تمتد عبر مسافات شاسعة وظروف صعبة. فكانت القوافل تنطلق بشكل دوري إلى وجهات مختلفة، حاملة مجموعة متنوعة من البضائع.

كانت الرحلات الموسمية إلى مكة والمدينة تتم كل ستة أشهر، محملة بأقمشة عالية الجودة مثل "Albernuzes" و "Alhagues"، إلى جانب الجلود المدبوغة والنيلي والقرمز وريش النعام. وفي المقابل، كانوا يتبادلون هذه السلع بالحريز والأقمشة الخفيفة والأدوية.

أما القوافل المتجهة إلى غينيا، فكانت تتكون من آلاف الجمال، متحدية ظروف الصحراء القاسية التي لا تتوفر فيها مقومات الحياة الأساسية، حيث تستغرق الرحلة ما يزيد عن عشرين يوماً².

شكلت المدن المغربية محطات حيوية للتبادل التجاري. فمدينة تونس كانت نقطة التقاء مهمة للقوافل القادمة من فاس، والتي تستغرق رحلتها ثلاثة أشهر عبر تلمسان والجزائر وقسنطينة. وكانت القوافل الفصلية تحمل الشمع والجلود وقطعان الماشية، لتعود محملة بالأقمشة والمنسوجات المحلية والأوروبية والتوابل والحلي والعطور³.

¹ Graville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2 ,...,op.cit, p 13.

² James Grey Jackson, op.cit, p 426.

³ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 39

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

وامتدت شبكة التجارة لتشمل مناطق واسعة. فطرابلس حافظت على علاقات تجارية وثيقة مع بلاد السودان، حيث كانت القوافل القادمة من برنو تحمل سلعاً ثمينة مثل الرقيق والعطور والجلود وريش النعام والعاج. وقد تبادل تجار طرابلس هذه البضائع مع نظرائهم الأفارقة مقابل الأقمشة والمنتجات المعدنية¹.

وفي سياق متصل، مارس المغرب نشاطاً تجارياً موسعاً شمل الرحلات إلى مكة وأجزاء من إفريقيا الداخلية وساحل غينيا، حيث جلبوا الذهب والرقيق، الذين وُظف بعضهم في الجيوش والخدمات المنزلية والزراعية².

شهدت المدن الساحلية الرئيسية في الدول المغربية ازدهاراً كبيراً في التبادل التجاري مع العديد من الموانئ الأوروبية والشرقية على البحر المتوسط. فقد وصل إلى ميناء تونس، على سبيل المثال، 29 سفينة تجارية في الفترة بين عامي 1792م و1797م، وارتفع العدد إلى 126 سفينة في الفترة بين 1820م و1826م، قادمةً من موانئ إسطنبول وراغوزة وإزمير وبيروت والإسكندرية.

حافظت الموانئ المغربية على علاقات وثيقة مع المرافئ الأوروبية الرئيسية مثل مالطا ونابولي وليغورنو وجنوة والبندقية ومرسيليا وبرشلونة وجبل طارق. وقد استحوذ ميناء ليفورنو ومرسيليا على النصيب الأكبر من هذه التجارة، إذ سيطر تجارهما على حركة الصادرات والواردات بفضل الامتيازات الممنوحة لهم.

¹ Lyon George Francis, op.cit, p 159.

² John Buffa, op.cit, p 193.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

وتؤكد إحصائيات الحركة الملاحية بين هذه الموانئ ونظيراتها المغربية حجم النشاط التجاري، إذ استقبل ميناء ليفورنو في الفترة بين 1794م و1830م نحو 362 سفينة تجارية (133 من الجزائر، و133 من تونس، و96 من طرابلس)، في حين استقبل ميناء مرسيليا 96 سفينة من تونس.

شهد حجم التبادل التجاري بين المراكز التجارية الكبرى مثل مرسيليا وليفورنو والمدن الساحلية المغربية نمواً ملحوظاً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فعلى سبيل المثال، استوردت مرسيليا من الجزائر عام 1755م نحو 54 ألف قنطار من البضائع، لترتفع هذه الكمية إلى أكثر من 177 ألف قنطار في عام 1779م.

غير أن مجموعة من العوامل حالت دون ازدهار هذا التبادل التجاري وتحقيق فائض تجاري لصالح المدن المغربية، منها: تراجع الإنتاج الحرفي المحلي، وتدهور القطاع الزراعي، وصعوبة المواصلات الداخلية وارتفاع تكلفتها، إضافة إلى انعدام الأمن على طرق القوافل الصحراوية. كما أدت المعاهدات غير المتكافئة مع الدول الأوروبية، وغياب نظام جمركي موحد يحمي الاقتصاديات المغربية، إلى اختلال في ميزان المدفوعات وهيمنة الواردات الأوروبية على حساب الصادرات المحلية. فقد بلغ العجز التجاري للجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي عام 1830م نحو 937 ألف دولار، في حين وصل عجز ميزان المدفوعات التجارية مع فرنسا وحدها في تونس عام 1787م إلى ما يزيد على 600 ألف ليرة¹.

تميزت المبادلات التجارية بين الدول المغربية وأقطار المشرق بالتركيز على السلع الكمالية التي كان يقبل عليها سكان المدن بشكل رئيس، مثل الأقمشة والمنسوجات المحلية كالشاشية

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع...، المرجع السابق، ص 41.

والزراعي، إضافةً إلى الأغذية والحبال والمنتجات الزراعية. في المقابل، اقتصرت واردات هذه الدول من الأقطار العثمانية على المنتجات الحرفية والصناعات التقليدية مثل الأزياء الفاخرة والمجوهرات وخيوط الحرير، إضافةً إلى التوابل والعمود وبعض المواد الغذائية كالأرز والسكر. وهكذا تمحورت حركة التبادل التجاري بين الدول المغربية والدولة العثمانية آنذاك حول السلع غير الأساسية والكماليات التي تلبي احتياجات الطبقات الحضرية¹.

ومن الملاحظ في إطار التبادل التجاري أن سياسة منح الامتيازات والحقوق التجارية للأوروبيين في الدول المغربية أدت إلى ظهور طبقة من الوسطاء وكبار الموظفين الذين استغلوا مناصبهم لتحقيق مكاسب مالية على حساب مصلحة بلدانهم. فقد حرص هؤلاء على شراء المواد الأولية والسلع الزراعية من المزارعين المحليين بأسعار منخفضة، ليقوموا بتصديرها عبر التجار الأجانب بأسعار مرتفعة في الأسواق الأوروبية، مستفيدين من هامش الربح الكبير على حساب اقتصادات بلدانهم. فعلى سبيل المثال، كان الموظفون في الجزائر يشترون الصوف بسعر 15 صولدي للقنطار الواحد، ليتم تصديره إلى التجار الفرنسيين بسعر 24 فرنكاً، ثم يُباع في أسواق مرسيليا بما لا يقل عن 38 فرنكاً. وقد أسهمت سياسات بعض الحكام في تونس والجزائر وليبيا والمغرب في تشجيع هذه الممارسات غير النزيهة من كبار موظفي الدولة، مما أدى إلى استنزاف ثروات البلاد وإضعاف اقتصاداتها².

كما تمكن التجار اليهود ذوو الأصول الليفورية من السيطرة الفعلية على التجارة الداخلية والخارجية في الدول المغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. ويؤكد القنصل الانجليزي جوزيف مورغان هذا الدور المهيمن بقوله: "إن تجارة السكان المحليين منخفضة جداً؛

¹ راصر الدين سعيدوني، الأوضاع، المرجع السابق، ص 42.

² نفسه، ص 42-43.

لأنهم لا يمارسون أي تجارة مباشرة أو مراسلات مع أي دولة أجنبية، إذ يتم نقل جميع بضائعهم إليهم من خلال التجار المسيحيين أو اليهود الذين يُعدون التجار الرئيسيين هناك، والذين يقومون من خلال شركائهم بتزويد الأسواق بكل الضروريات¹. ويعود ذلك إلى عدة عوامل، أبرزها: معرفتهم العميقة بالأسواق الأوروبية، وحصولهم على ثقة الحكام، وقيامهم بدور الوسيطاء خلال الحروب النابليونية، إضافةً إلى نشاطهم المتميز في مجال التجارة. فقد أكد أحد التجار الفرنسيين هيمنتهم على تجارة القمح في الجزائر وتفضيل الداي للتعامل معهم. كما صرّح حاكم طرابلس يوسف القرمانلي، رداً على شكوى أحد كبار التجار المسلمين، بأن ازدهار اليهود يعود إلى اجتهادهم، متجاهلاً المزايا والامتيازات التي مُنحت لهم. وهكذا تمكن هؤلاء من السيطرة على اقتصادات المنطقة والتأثير في قرارات حكامها².

رابعاً : الجانب الاجتماعي

1 التركيبة السكانية للمنطقة المغربية :

أ - السكان الأصليون :

¹ Gentelman Who Resided There Many years, A Compleat History of The Piratical States of Barbary, Viz, Algeriers, Tunis, Tripoli and Morocco, Printed For R.Griffiths at the Dumciad in St, Paul, London, 1750, p 38.

² ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع...، المرجع السابق، ص 43.

يسكن في الدول المغربية من شرقه إلى غربه عنصر بشري واحد هو الأمازيغي ذو الأصول التاريخية العريقة، والتي يعود بها بعض المؤرخين إلى عصور ما قبل التاريخ، تحديداً إلى العصر الحجري الحديث مع ظهور سلالاتي الإنسان المشتي في المناطق الساحلية والإنسان القفصي في المناطق الريفية، اللتين أصبحتا فيما بعد مناطق استيطان لقبائل الجيتول منذ عصر الحجر المصقول.

وقد تعرض سكان هذه المنطقة، ذات التنوع البشري الثري، لتأثيرات حضارية متعددة عبر التاريخ. فأطلق عليهم الإغريق اسم "الليبيين" في المنطقة الممتدة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، بينما أطلق عليهم الرومان مصطلح "البرابرة"، في إشارة إلى من استعصى على الاندماج في الحضارة اللاتينية. ومع الفتح الإسلامي، تحولت التسمية إلى "البربر" وأصبحت شائعة للإشارة إلى عموم السكان الأصليين¹.

ويقدم الأسير الإيطالي بانانتي وصفاً دقيقاً لسكان الدول المغربية، حيث يشير إلى أنهم السكان الأصليون لمنطقة بربريا، وأن أصولهم تمتد إلى القرطاجيين وقبائل الجيتول والليبيين. ويذكر أن بعض هذه القبائل اندمجت مع العرب الفاتحين لاحقاً.

وكان هؤلاء يتوزعون على سلاسل جبال الأطلس الممتدة من إقليم السوس. ويؤكد بانانتي على وحدة أصولهم مع القبائل البربرية المنتشرة في مصر وجزر البليار، مشيراً إلى تشابه لغاتهم. ويصفهم بالشجاعة، كما يشير إلى تميزهم بجمال أسنانهم وعيونهم البنية².

¹ محفوظ سعيداني ، المرجع السابق، ص 73.

² Filippo Pananti, op.cit,p 247.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

في المقابل، اتبعت القوى الاستعمارية الأوروبية سياسة مغايرة تجاه المنطقة، إذ سعت لاستغلال التنوع العرقي والتاريخي بهدف دمج شمال إفريقيا في المشروع الاستعماري الأوروبي. وقد تجلّى ذلك في ادعاءاتهم بأسبقية استيطانهم للمنطقة تحت مسمى " الأمازيغ " كمقدمة لضمها إلى النفوذ الأوروبي¹.

تجلت الرؤية الاستعمارية الأوروبية ل دول المغربية في اعتبارها امتداداً طبيعياً للقارة الأوروبية، حيث رَوّج المستعمرون لفكرة أن المنطقة كانت جزءاً من أراضيهم قبل الفتح الإسلامي². وقد انعكس هذا التصور في كتابات المؤرخين والرحالة الأوروبيين، ومن أبرزها شهادة الأسيرة الإنجليزية ماريا مارتين عام 1800م، التي وصفت الوجود العربي في الجزائر بأنه "احتلال" رغم البعد الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والدول المغربية³.

غير أن الدراسات التاريخية تؤكد أن الفتح الإسلامي ل دول المغربية لم يكن حركة احتلال، بل كان حركة حضارية أدت إلى نشر الإسلام في المنطقة. وقد تجلّى ذلك في التفاعل الإيجابي لسكان الدول المغربية مع الدعوة الإسلامية، حيث شاركوا بفعالية في حركة الفتوحات الإسلامية في المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط، مستفيدين من شبكات التجارة القائمة مع أعماق القارة الأفريقية.

شهدت المنطقة تحولات اجتماعية وديموغرافية مهمة، خاصة خلال أواخر العصر الأموي، حيث أدت الصراعات السياسية والعقائدية إلى إعادة توزيع القبائل البربرية واختلاطها مع

¹ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج1، دار الغرب الاسلامي، 2005، ص 34.

² على مفتاح إبراهيم منصور، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلا القرنين الثامن عشر و التاسع عشر 1700-1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ، جامعة الجزائر 02 ، - 2007، 2006، ص 86.

³ Maria Martin , op.cit, p 6.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

العناصر العربية. نتج عن هذا التمازج ظهور مجتمع جديد يجمع بين البربر المستعربة والعرب والسكان المحليين¹. وقد وصف الرحالة الانجليزي ماثيو كيري Mathew Carey هذا المجتمع الجديد بأنه يشترك مع سكان شبه الجزيرة العربية في العادات واللغة والدين، مع تميزه بخصائص فيزيائية واجتماعية خاصة²..

وهكذا تشكلت في الدول المغربية هوية حضارية متميزة، تركز على أسس الحضارة الإسلامية وتندمج في إطار الوحدة الثقافية للعالم العربي، مع احتفاظها بخصوصياتها الاجتماعية المستمدة من القيم الإسلامية. وتعد هذه الهوية المركبة دليلاً على عمق التفاعل الحضاري الذي شهدته المنطقة، بعيداً عن مفاهيم الاحتلال والاستعمار التي حاول الخطاب الاستعماري الأوروبي ترسيخها³

ب - العثمانيون :

برز الوجود العثماني في الدول المغربية كظاهرة مميزة، حيث يصفهم فيليب فاليير Phillipe Vallière بأنهم كانوا يمثلون في الجزائر ما يمثله فرسان مالطا في جزيرتهم، إذ شكلوا طبقة النبلاء وأصحاب المكانة الرفيعة في البلاد. وعلى الرغم من أن معظمهم قدموا من بلاد المشرق كمجرمين استحقوا أقسى العقوبات، إلا أنهم سرعان ما تحولوا إلى العمود الفقري للحكم في المنطقة المغربية⁴. لعب العثمانيون دور حلقة الوصل المهمة بين السكان المحليين والباب العالي في الآستانة، مما منحهم مكانة متميزة في إدارة وتسيير شؤون الغرب العثماني.

¹ محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص 74.

² Mathew Carey, op.cit, p 12.

³ محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص 75.

⁴ Cesaire Phillippe Vallière, op.cit, p 9.

تشكلت هذه الطبقة في غالبيتها من الموظفين والجند القادمين من الولايات العثمانية المشرقية، فأصبحوا يمثلون الطبقة الاجتماعية العليا في المجتمع¹.

تمتع الجنود الأتراك بامتيازات واسعة، منها إمكانية الوصول إلى أعلى المناصب حتى منصب الداي، كما سُمح لهم بممارسات مخالفة للشريعة الإسلامية مثل ارتياد الحانات ومعاشرة النساء العامة. وامتدت امتيازاتهم لتشمل الحصانة من العقاب على نهب المحاصيل والأراضي الزراعية، والتصرف مع السكان المحليين وفق أهوائهم².

كما اتبع العثمانيون سياسة احتكار المناصب الحكومية الرئيسية واستبعاد السكان المحليين عنها، سعياً منهم للحفاظ على نفوذهم وضمان استمرارية سلطتهم. وتجلت هذه السياسة في استقدامهم المتواصل للموظفين من الأناضول للعمل في الإدارات والأوجاقات العسكرية، بهدف إحكام سيطرتهم على مفاصل الدولة وإقصاء السكان المحليين عن المناصب القيادية³.

ت - الكراغلة :

برزت طبقة الكراغلة كإحدى أهم الفئات الاجتماعية في المجتمع المغربي، وتشكلت من نتاج الزواج بين الجنود العثمانيين والنساء المحليات. وعلى الرغم من انتمائهم الجزئي للأصول العثمانية، ظل الكراغلة مستبعدين عن المناصب العليا خشية تهديد نفوذ الطبقة العثمانية الحاكمة⁴.

¹ محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص77

² Cesaire Phillippe Vallière, op.cit, p 9.

³ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، البصائر الجديدة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012، ص 40.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي...، المرجع السابق، ص 41.

مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، شهدت أوضاع الكراغلة تحسناً ملحوظاً، إذ سُمح لبعضهم بتولي مناصب إدارية مهمة. فتمكن عدد منهم من الوصول إلى منصب حاكم المقاطعات (البايك) في الجزائر، كما تولى بعضهم منصب حاكم الولاية، مثل أحمد القرماني وأسرته في طرابلس.

استقر معظم الكراغلة في المراكز الحضرية، في حين انخرط آخرون في الحاميات العسكرية (النوبة) وفرق فرسان المخزن، كما حدث في طرابلس. ومع نهاية القرن الثامن عشر، أصبح الكراغلة يشكلون نسبة كبيرة من سكان المدن الرئيسية مثل تلمسان وتونس والجزائر وطرابلس¹.

ث - جماعة الحضرة Moors:

لابد من الإشارة بداية إلى أن مصطلح "الحضريون" أو **Moors** كما يستخدمه الكتاب الإنجليز، يشير إلى السكان الأصليين الذين استوطنوا المدن المغربية عبر العصور. وقد قدم رينيه باسي سنة 1901 تعريفاً دقيقاً لهذا المصطلح عند تقديمه للأدب الموري قائلاً: "تختص هذه التسمية كما يبدو بثلاثة شعوب مختلفة تمام الاختلاف من حيث الأصول: البربر، عرب الغرب، ومسلمي إسبانيا، وهي شعوب منقسمة بشكل كبير بسبب الصراعات السياسية، ولكنها موحدة منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين تحت شرعها الديني". ولهذه الاعتبارات، فإننا نرى أن كلمة "مغربي" هي الترجمة الأنسب لمصطلح **Moor**².

يُعد الأندلسيون عرقاً هجيناً اختلطت فيه دماء المورسكيين الإسبان الذين تحولوا عن المسيحية، مع البربر واليهود والزنوج. وقد تميزوا حتى الآن بكونهم الأكثر موهبة وتحضراً

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية...، المرجع السابق، ص ص 55-56.

² Anonymous, Moorish Literature Translated into English With a Special introduction by Rene Basset, The Colonial Press, London, 1901, p III.

وتمدناً في المنطقة المغربية. فهم يعيشون في المدن ويمتلكون أفضل الضياع، كما أنهم - على الرغم من قلة عددهم مقارنة بالعرقين الأول والثاني - يحتكرون معظم المراكز الرسمية وجزءاً كبيراً من النشاط التجاري¹.

ويرجع ذلك الى الترحاب الذي لقوا الترحيب والدعم من الحكام المحليين، مثل الداوي عثمان في تونس. وقد أسهموا في تأسيس مدن جديدة مثل قرنبالية والجديدة وزغوان وطبرقة وقلعة الأندلس، كما شكلوا أحياء خاصة بهم في مدينة تونس عُرفت باسم "حومة الأندلس" و"زقاق الأندلس"². ولم يقتصر استيطان الأندلسيين على تونس فحسب، بل امتد ليشمل مناطق واسعة من المغرب العربي. ففي الجزائر، استوطنوا المدن الساحلية مثل تلمسان وتنتس وبرشك ودلس وعنابة³، وفي المغرب الأقصى، استقروا في مدن سلا وتطوان ومراكش ومكناس⁴. كما وصل تأثيرهم إلى طرابلس، في حين حافظت مدينة درنة في إقليم برقة على طابعها الأندلسي منذ استيطانهم فيها حوالي عام 1630م⁵.

وقد أثرى المهاجرون الأندلسيون المجتمع المغربي بتنوع مهنهم وأنشطتهم، فمنهم الفقهاء والعلماء وأصحاب الحرف والصناعات الذين سكنوا المدن، بينما عمل آخرون في الزراعة

¹ James Graig, Un Aperçu du Maroc, Bulletin de la société de géographie, , Tome dix neuve, cinq eme série, Chez M.Arthus Bertrand, libraire de la societe Rue Hautefeuille ,Paris, 1870, p 200.

² حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 1917، ص ص 134-135.

³ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية...، المرجع السابق، ص 57.

⁴ محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، افريقيا الشرق، الرباط، 1998، ص 302.

⁵ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية...، المرجع السابق، ص 57.

واستقروا في السهول والوديان والمرتفعات الجبلية. وفي تطور لافت، انخرط بعضهم في أعمال القرصنة البحرية، مستهدفين السفن الإسبانية انتقاماً لطردهم من موطنهم الأصلي¹.

ج الأعلاج:

هم فئة اجتماعية متميزة تشكلت من المسيحيين الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام. وقد تنوعت أسباب اعتناقهم الإسلام، فمنهم المجرمون الفارون من سبتة، ومنهم من دفعه اليأس والمعاناة الطويلة. وقد حظي العلوج بمكانة مهمة في المجتمع، حيث تمكنوا من الانضمام إلى الجيش والحصول على أجور مماثلة للأتراك، بل وصل بعضهم إلى مناصب حكم عليا مثل ميزومورتو الإيطالي في الجزائر²، ومراد آغا في تونس³، ودرغوث باشا في طرابلس الغرب⁴. إلا أن وضعهم الاجتماعي كان محفوفاً بالتحديات والقيود، فقد مُنعوا من الزواج بالمسلمات، وتعرضوا لعقوبات قاسية على أخطائهم البسيطة، وظلوا تحت المراقبة المستمرة والمؤامرات. ومع مرور الوقت، تراجعت مكانتهم الاجتماعية تدريجياً حتى أصبح من الصعب حصولهم على مناصب مرموقة في الدول المغربية⁵.

ح - اليهود:

شهد القرن السادس عشر تحولاً ديموغرافياً مهماً في أوضاع اليهود بـالدول المغربية. فبعد أن تناقصت أعدادهم في المنطقة، وفدت إليها موجات كبيرة من يهود إسبانيا برفقة مسلمي

¹ نصيرة كلة، المرجع السابق، ص 236.

² Fillippo Pananti, op.cit, p 241.

³ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص 54.

⁴ علي مفتاح إبراهيم منصور، المرجع السابق، ص 105.

⁵ Filippo Pananti, op.cit, p 242.

الأندلس. وقد شكّل هؤلاء المهاجرون تجمعات سكانية مهمة في المدن الرئيسية مثل تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس وسوسة وطرابلس¹ ومكناس².

تميز وضع اليهود في الدول المغربية بازدواجية لافتة؛ إذ تمكنوا من تبوؤ مكانة اقتصادية مرموقة وشغل مناصب مهمة في الدولة، مع تمتعهم بحرية ممارسة شعائرهم الدينية³. وقد خضعوا لنظام إداري خاص، حيث كان لهم حاكم يُعرف باسم "الشيخ"، يُعيّن مباشرة من قبل الإمبراطور ويتمتع بسلطات واسعة تشمل فرض الضرائب وإصدار أحكام الإعدام⁴.

وفي هذا السياق، يقدم الرحالة الإنجليزي جون وندوس John Windus وصفاً دقيقاً لأوضاعهم في مدينة مكناس، موضحاً أنهم كانوا يقطنون في حي خاص وسط المدينة، تُغلق أبوابه ليلاً، مع وجود قائد خاص لحمايتهم. ومع ذلك، خضعوا لقيود صارمة مثل عقوبة الإعدام في حال إهانة أي مغربي، وإلزامهم بخلع أحذيتهم قرب المساجد، وارتداء ملابس سوداء مميزة، ومنعهم من ركوب الخيل⁵.

ويؤكد الرحالة ج. ورج فرانسيس ليون هذه الصورة في وصفه لأحوال يهود طرابلس الغرب، حيث يذكر سكنهم في حي خاص يُعرف باسم 'زنقة اليهود'، ومنعهم من ارتداء الملابس الزرقاء، رغم سيطرتهم على معظم النشاط التجاري⁶.

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص 58.

² Windus John, op.cit, p 184.

³ محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص 80.

⁴ John Braithwaite, op.cit, p 434

⁵ Windus John, op.cit, p 184.

⁶ G.F.Lyon, op.cit, p12.

ولكن بفضل مواهبهم التجارية تمكنوا من إستمالة عطف الحاكم، وهم حالياً التجار الأكثر نفوذاً في البلد، وهم الوسطاء المفروضون تقريباً في كل الأعمال إنطلاقاً من العقود التي تبرمها الأسواق مع الحكومة إلى أبسط وساطة مالية¹. وقد أدى هذا إلى سيطرتهم التدريجية على النشاط الاقتصادي، حتى أصبح المغاربة عاجزين عن إتمام أبسط المعاملات التجارية دون وساطة يهودية². وقد وصفهم براثوايت بأنهم من أكبر المحتالين، مشيراً إلى أن المغاربة المسلمين كانوا يدركون ذلك ويعاملونهم وفقاً لهذا التصور³.

خ الزنوج :

شكلت الفئة الزنوج في المجتمع المغربي مجموعة اجتماعية جلبها تجار العبيد من مناطق وسط أفريقيا، إضافة إلى أولئك المنحدرين من أسر عبيد قديمة استقرت في المنطقة منذ فترات سابقة. وتميزت العبودية في البلاد المغربية بطابعها الإنساني النسبي مقارنة بأشكال العبودية في مناطق أخرى من العالم.

واتسمت هذه الفئة الاجتماعية باعتناقها للإسلام بعد فترة قصيرة من وصولها، مما منحها مكانة مختلفة في المجتمع، إذ أصبح أفرادها يتمتعون بحقوق مشابهة لتلك التي يتمتع بها الأحرار. ومن المميزات المهمة للمجتمع المغربي آنذاك أنه لم يكن يعتمد التمييز على أساس اللون، حيث تمكن العديد من السود من تولي مناصب رفيعة في الدولة.

¹ James Graig, op.cit, p 201.

² M.Rozet, Voyage dans la Régence d'Alger on description du pays occupé par l'Armée française en Afrique, T2, Arthus Bertrand , Libraire éditeur, Paris, 1833, pp 226-227.

³ John Braithwaite, op.cit, p 434.

وفيما يخص معاملة العبيد، فقد كانت تنتم عموماً بالإنسانية من قبل أسيادهم، لدرجة أن شكاوهم من أوضاعهم كانت أقل من شكاوى الأحرار أنفسهم من ظروفهم المعيشية¹.

د +الأوروبيون:

شكّل الأوروبيون في المنطقة المغربية خلال العصر الحديث طبقة متميزة عن باقي السكان لاعتبارات دينية وحضارية. وقد ركزت المصادر التاريخية الغربية التي تناولت المنطقة المغربية في العصر الحديث، وخاصة في مرحلته الأولى، على دور النشاط البحري في نمو هذه المنطقة وبروزها كقوة بحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. غير أن أهمية الوجود الأوروبي تراجعت مع بداية القرن التاسع عشر، وتحديدًا بعد مؤتمر فيينا عام 1815م، وحملة اللورد إكسموث Lord Exmouth على السواحل المغربية سنة 1816م. وقد تمثل الوجود الأوروبي أيضاً في استقرار جاليات من الإيطاليين والجنوبيين والفرنسيين وغيرهم، الذين أسسوا تجمعات في أهم المراكز الحضرية الساحلية للدول المغربية من خلال وكالاتهم التجارية².

ذ -قبائل الرعية :

مثلت قبائل الرعية الغالبية العظمى من سكان الريف، وكان نشاطهم الرئيسي الزراعة. عمل أفراد هذه القبائل في الأراضي التابعة للدولة بصفتهم عمالاً أو مزارعين بنظام الخامسة، كما استغلوا أراضيهم الخاصة المعروفة بأراضي العرش في الجزائر وأراضي العرب في تونس.

¹ James Graig, op.cit, p 200.

² محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص ص 80-81.

ونظراً لخضوعهم للسلطة المركزية، فقد كانوا ملزمين بدفع أنواع مختلفة من الضرائب وتقديم خدمات إلزامية مثل "التوزيع" لصالح الدولة وموظفيها وكبار المسؤولين. كما كان عليهم الامتثال لتوجيهات الإدارة المركزية من خلال قادة القبائل وشيوخ العشائر. فعلى سبيل المثال، خضعت قبائل الرعية في الشرق الجزائري لسلطة أربعة وعشرين قائداً وأحد عشر شيخاً¹.

ر القبائل الممتنعة:

هم سكان المناطق الجبلية في الدول المغربية تميزوا بخصائص مميزة عن غيرهم من سكان السهول والمدن. فقد وصفهم جون براثوايت John Braithwaite بأنهم من أفضل الشعوب في المنطقة، وتمكنوا من الحفاظ على استقلالهم وحريتهم بشكل أكبر من غيرهم، متخذين من التضاريس الجبلية الوعرة حصوناً طبيعية لهم. وعلى عكس سكان السهول والمدن، لم يتعامل معهم الإمبراطور كرعايا خاضعين لسلطته المباشرة².

وقد تجلّى هذا الاستقلال في مناطق مختلفة من الدول المغربية . ففي الجزائر، برزت قبائل الأوراس والبابور ، وفي تونس عُرفت هذه القبائل المستقلة باسم "أهل المنعة"، ومن أبرزها قبائل المقعد وجبل الخمير وجبل الظهرة، مثل أولاد أبي الليل وأولاد حمزة وأولاد شنوف وأولاد سعيد. كما شمل هذا الاستقلال قبائل الجنوب التونسي مثل قفصة وأولاد مدافع وجبل وسلات، إضافة إلى قبائل جبل نفوسة في طرابلس الغرب³. و قبائل بني حسان وتامسنا في منطقة الريف و تادلة بالمغرب⁴

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية...، المرجع السابق، ص 62-63.

² John Braithwaite, op.cit, p 434.

³ محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص 82 .

⁴ James Gray Jakson, op.cit, p 1 .

اتسم سكان هذه المناطق الجبلية بالجد في العمل والكرم ، واعتمدوا في نشاطهم الاقتصادي بشكل رئيسي على تربية الماشية¹. وقد تولت قيادة هذه القبائل المستقلة أسر ذات مكانة دينية أو عسكرية مرموقة، مثل أولاد سليمان في طرابلس الذين بسطوا نفوذهم وسلطتهم على أتباعهم².

ز قبائل المخزن:

برز نظام المخزن في الدول المغربية الإسلامية عقب انهيار دولة الموحدين، وقد حافظ عليه الحكام العثمانيون ومنحوه صلاحيات واسعة منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي. وكان الهدف الرئيس من هذا النظام إسناد مهام حفظ الأمن وإقرار النظام إلى قبائل مختارة، إضافة إلى تحصيل الضرائب من القبائل الأخرى في المناطق الريفية. وتشكلت قبائل المخزن من مجموعات فرسان مسلحين عُرفوا باسم "المخازنية"، وتمثلت مهامهم في مراقبة السكان والمشاركة مع القوات النظامية في الحملات العسكرية، مقابل حصولهم على امتيازات تمثلت في إعفاءات ضريبية ومنح أراضٍ زراعية. ومن أبرز قبائل المخزن: المناشية في طرابلس، والمزارقية في تونس، وقبيلة عمراوة في منطقة سباو الجزائرية، إضافة إلى قبائل الزمول والدوائر في وهران والمناطق المجاورة لها³.

2 عادات والتقاليد:

يتميز المجتمع المغربي الممتد من المملكة المغربية غرباً إلى ليبيا شرقاً بتراث ثقافي مشترك غني، يتجلى في العديد من العادات والتقاليد المتوارثة عبر الأجيال. ويظهر هذا التراث

¹ John Braithwaite, op.cit, p 434.

² محفوظ سعيداني، المرجع السابق، ص 82 .

³ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية...، المرجع السابق، ص 62.

المشترك في مختلف المناسبات الاجتماعية، من مراسم الزواج والولادة والختان إلى الاحتفالات الدينية المتنوعة. وتعكس هذه الممارسات الاجتماعية عمق الروابط التاريخية والثقافية بين شعوب المنطقة التي تجمعها عوامل مشتركة عديدة، منها: اللغة العربية، والتاريخ المشترك، والتراث الثقافي المتميز. وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة في تشكيل الهوية الثقافية المميزة للفضاء المغربي، على الرغم من تعدد كياناته السياسية وتنوع مجتمعاته المحلية.

أ - الزواج:

يُعد الزواج ركيزة أساسية في حياة الأفراد والأسر، إذ يمثل الرابطة التي تجمع بين العائلات والقبائل وتعزز التماسك الاجتماعي. فهو يساهم في توطيد العلاقات وتوحيد الرؤى بين أفراد المجتمع الواحد، مما يؤدي إلى تناغم وتوافق اجتماعي يقوي أواصر الترابط بين مختلف مكونات النسيج المجتمعي.

تتنوع مراسم الزواج وتختلف باختلاف المناطق والثقافات، حيث تعكس عادات وتقاليد كل بلد أو قبيلة أو فئة اجتماعية¹.

تبدأ مراسم الزواج في الدول المغربية عندما يُبدي الشاب رغبته في الزواج، فيرسل وسيطة من أقاربه للبحث عن عروس مناسبة. تقوم الوسيطة بزيارة العائلات وتتعرف على الفتيات المؤهلات للزواج، ثم تصف مواصفاتهن ومؤهلاتهن للشباب. فإذا وجد إحداهن مناسبة لتطلعاته، يتم إرسال المجوهرات الثمينة كخطوة أولى في مراسم الخطبة.

¹ على مفتاح إبراهيم منصور، المرجع السابق، ص 112.

وبعد الاتفاق على شروط الزواج، يقوم العريس بدفع المهر المتفق عليه للعروس والحصول على إذن القاضي لإتمام مراسم الزفاف. يُتوج هذا كله باحتفال يجمع بين عائلتي العريس والعروس في مناسبة تعكس البهجة والفرح¹.

وقد لفتت عادات الزواج اهتمام الرحالة والكتاب الغربيين، لا سيما الإنجليز منهم. فقد لاحظ الرحالة جورج ليون فرانسيس **George Lyon Francis** أن عقد الزواج في طرابلس الغرب، كان يتم في معظم الأحيان دون رؤية الطرفين لبعضهما، ودون أخذ رأي العروس، حيث كان القرار بيد والدي الزوجين². ويؤكد الدكتور توماس شاو **Thomas Shaw** الذي زار تونس والجزائر هذه الملاحظة، مضيفاً أن الزواج كان يُبنى على اتفاق أولياء الطرفين حول قيمة المهر وتفاصيل الجهاز، بما في ذلك الألبسة والمجوهرات والخدم³.

ويصف لنا جون بؤفا مشهداً حياً من احتفالات الزفاف في المغرب، حيث يخرج العريس في موكب مهيب، ممتطياً جواداً من خيرة خيول الإمبراطور، حاملاً سيفه المسلول، تتقدمه راية بهيجة وفرقة موسيقية. ويتبعه موكب من النقالات يحملها عبيد، وكتيبة من الفرسان تطلق البنادق احتفاءً، مع حشد من الأقارب والأصدقاء.

وعند وصول الموكب إلى بيت العروس، يطرق العريس الباب ثلاث مرات، لتخرج العروس في عربة مغطاة برفقة أربع نسوة متحجبات. وبعد العودة إلى بيت العريس⁴، تمر العروس تحت يده اليمنى الممدودة، في إشارة رمزية إلى قبولها بقوامته. ثم يقضي العريس ثلاثة أيام في بيت

¹ John Buffa, op.cit, p 165.

² George Lyon Francis, op.cit, p 42.

³ Thomas Shaw, Travels, Or, Observations, Relating to several parts of Barbary and Levant, Printed at the Theatre, Oxford, 1738, p 133.

⁴ John Buffa, op.cit, p 166.

أحد أقاربه، يتلقى خلالها التهاني والهدايا من أصدقائه الذكور، بينما تستقبل العروس التهاني من النساء، قبل أن يعود الزوج إلى بيته.¹

تُقدم لنا السيدة ريتشارد تولي **Richard Tully**، شقيقة القنصل البريطاني، وصفاً تفصيلياً لمراسم الزفاف في طرابلس خلال مطلع القرن التاسع عشر. إذ تذكر في مؤلفها أن الاحتفالات بالزفاف كانت تُقام ليلاً، حيث يتم نقل العروس إلى منزل العريس في موكب مهيب يضم الأهل والأقارب.

يتصدر الموكب مجموعة من حاملي المصابيح والعازفين على الطبول التقليدية. ويتبعهم الخدم وهم يحملون أطباق الحناء والعطور والحلي والمجوهرات والملابس والمرايا. كما يصاحب الموكب نساء يطلقن الزغاريد والأغاني الاحتفالية حتى وصول العروس إلى منزل زوجها. وتستمر الاحتفالات، التي تتضمن الموسيقى والرقص والغناء، حتى منتصف الليل.²

أما في الجزائر، فيصف لنا الرحالة البريطاني ماثيو كاري **Mathow Carey** طقوساً مختلفة للزواج. فيذكر أن الشاب المقبل على الزواج كان يقود قطيعاً من المواشي إلى منزل والد عروسه. وهناك، تعطي العروس صهوة جواد وتمسك بعضاً تشير بها نحو الأرض، مرددة عبارات تؤكد التزامها الدائم تجاه زوجها.

¹ John Buffa, op.cit, p 167.

² Tully Richard, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 174.

وفي طقس رمزي يعبر عن استعدادها لتحمل مسؤوليات الحياة الزوجية، تقود العروس قطيع زوجها إلى مورد ماء قريب. بعدها، تُقام مراسم الزفاف داخل المنزل، حيث ترتدي العروس الحجاب وتلتزم بعدم الخروج مدة شهر بعد الزواج¹.

في سياق وصف الطقوس الاجتماعية للزواج، تُظهر رواية اليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton**، ابنة القنصل بلانكي، تفاصيل دقيقة عن مراسم الزفاف. ونظراً لكونها امرأة، تمكنت من الاختلاط بالنساء ومراقبة ما لم يتمكن المسافرون الإنجليز من رؤيته.

تروي ابنة القنصل عن الحفل: " كانت العروس مخلوقاً رائعاً، محاطة بمجموعة من السيدات الأنبيات². انبهرت عيني حقاً بروعة المجوهرات التي يرتدينها. كانت قبعاتهن مزينة بزهور الورد أو الياسمين أو ريش الطاووس أو الفرشات المصنوعة من الألماس. لا أستطيع وصف العجائب التي رأيته، فقد كان المشهد مذهلاً. كما أدهشني أيضاً عدد النساء الجميلات بينهن. كنّ جميلات تقريباً مثل الأوروبيات، وكانت عيونهن أكثر لمعاً وجمالاً من أي عيون رأيته من قبل. ولم يكن هناك ما يفوق لطفهن وكرم ضيافتهن. جلست على نفس الأريكة المنخفضة التي جلست عليها العروس. وبعد وصولنا بوقت قصير، قُدم لنا القهوة والحلويات³. ثم بدأت فرقة من المغنيات تستخدم نوعاً من الغيتار وطبلة غريبة الشكل تُدعى "الطبوقة" مصنوعة من الفخار وبعض الدفوف. وفي تلك اللحظة، دخلت راقصة محترفة إلى وسط الغرفة، وبينما كانت تلوح بمنديلين مطرزين في كل يد وتديرهما حولها، انحنت في جميع الاتجاهات دون تحريك قدميها تقريباً. وبعد فترة وجيزة، انضمت إليها راقصة أخرى وفعلت مثلها. وبدأت المغنيات في الغناء، لأن فكرة أن ترقص سيدات محترفات وذوات مكانة كانت تتنافى مع معايير الأدب التي

¹ Mathew Carey, op.cit , pp 11-12.

² Elizabeth Broughton, Six Years ..., op.cit, p 20.

³ Ibid, p 21.

تربينا عليها. أما الراقصات، فكن من فئة أدنى، وكانت مهنتهن أن يُظهرن أنفسهن للتسلية والترفيه مقابل المال. وبعد فترة من هذا المشهد، صعدت العروس، التي تقودها أهم السيدات، إلى غرفة، وبدأت رفيقاتها في إجراء تغييرات كبيرة على ملابسها ومظهرها¹، مضيفات زخارف على قبعاتها المزينة وأخريات يغطين وجهها الجميل بكميات وافرة من المساحيق. ثم تمت دعوتي، من خلال السيدة الإيطالية المرافقة لي، لزيارة العريس، ووافقت بسرور.

بعد المرور تحت سلسلة من ستائر الديباج والحرير والموسلين، وجدنا العريس². ومع اقتراب وقت دخول العروس، عدنا إلى حجرتها، فوجدنا الاستعدادات قد اكتملت تقريباً. فقد أُضيف لها المزيد من المجوهرات. وعندما غادرت الغرفة، غُطِّي رأسها بغطاء بنفسجي حريري رائع مطرز بالذهب واللالئ والأحجار الكريمة. وقُيِّدَتْ بهذا اللباس إلى باب حجرة العريس، وسط صراخ الحاضرين جميعاً "Lia, Lai, Lai, Lella"، وهي الطريقة التقليدية التي يُعبّر بها الضيوف في الزفاف عن فرحهم الشديد. ثم رُفِع الستار، وقادوا العروس محجبة الوجه لتجلس على يسار العريس الجالس. ثم أزيلت إحدى السيدات البرقع عن وجهها، فرأى العريس زوجته لأول مرة. ثم اقتربت امرأة عجوز كانت قد شاركت بنشاط في الحفل بأكمله، وأخذت من يد امرأة أخرى إبريقاً فضياً صغيراً يحتوي على ماء الورد³، وتقدمت نحو العروس مخاطبةً إياها. فمدّت العروس كفيها مفتوحتي الراحتين، فملأتهما المرأة العجوز بماء الورد. ثم التفت العريس نحوها وشرب الماء من يديّ العروس. وقام العريس بنفس الطقس، حيث شربت العروس من يديه.

¹ Elizabeth Broughton, Six Years ..., op.cit, p 22.

² Ibid, p 23.

³ Ibid, p 24.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

وطيلة تلك الفترة، استمرت صيحات الزغاريد " Lai, Lai, Lai, Lella " بتردد، من الداخل والخارج. وبهذا انتهت مراسم زفاف هذين الزوجين وودّع الجميع¹.

وتستكمل ابنة القنصل وصفها الدقيق لملابس العروس فتقول : " كانت العروس غارقة في ثراء الذهب واللاّئى الفاخرين. فقد كانت مزينة بقبعة ذهبية رائعة تتدلى منها سلسلتان من اللاّئى الباهظة الثمن على جانبي وجهها الأنيق، بينما رقبتها مغطاة تماماً بالجواهر النفيسة. وكان زيتها يتألف من ثوب وقفطان قصير بلا أكمام، مشدودة عند الخصر ببساطة، وسروال أنيق، وشال مطرز بخيوط ذهبية كانت نهاياته مربوطتين على الجزء الأمامي من خصرها، ومعتدلا باقي الشال كتتورة. أما أكمام قميصها فكانت من الموسلين المطرز وعرضها كبير بحيث رفعت خلف قفطانها وعقدت معاً في ثنية أنيقة. أما قدمها فكانت عاريتين وتحوطهما أساور ذهبية ثقيلة على الكاحلين " ².

وفي سياق متصل بتوثيق الأعراس في المنطقة المغربية، تقدم لنا الرحالة إيم كين Emily Kenne شهادة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، حيث تسلط الضوء على تقليد احتفالي جوهري في مراسم الزفاف ألا وهو حفل الحناء التي تجري في ساعات الفجر الأولى. تبدأ هذه المراسم المميزة بين الساعة الأولى والثالثة صباحاً، حيث يجتمع المدعوون لمشاهدة العروس وهي تتزين بالحناء، تلك العشبة المميزة التي تنبت بوفرة في جنوب المغرب ومنطقة توات، وتشبه في شكلها نبات السنا.

يتطلب تحضير الحناء عناية فائقة، حيث تمر بمراحل دقيقة من التجفيف والطحن والتخيل، قبل مزجها بالماء الساخن للحصول على عجينة متماسكة. وتتميز عملية تزيين القدمين بدقتها

¹ Elizabeth Brouthon, Six Years ...,op.cit, p 25.

² Ibid, pp 7-8.

الفائقة، إذ تُستخدم أشرطة قماشية لتشكيل نمط الصندل، ثم يُطبق معجون الحناء بعناية. تُغطى القدم بعدها بقماش أبيض وطبقة من الصوف السميك لساعات طويلة، لتظهر بعدها بلون بني محمر جذاب. ويمكن إضافة لمسات جمالية إضافية باستخدام "الهاركو"، وهو حبر هندي يدوم طويلاً، يُطبق باستخدام قلم قصب دقيق.

أما تزيين الأيدي، فيتنوع حسب الرغبة الشخصية، من غمس كامل في المعجون إلى تطبيق دقيق يتجنب التشققات. وتحظى الأظافر باهتمام خاص، حيث تُغطى بطبقة سميكة من المعجون قبل لفها. وتكتمل العملية بتجفيف الحناء على نار الفحم، مما يمنح نتيجة مذهلة، خاصة عند دمجها مع نقوش "الهاركوس" الدقيقة.

وتشير إيملي كين **Emily kenne** إلى فوائد الحناء المتعددة، فقد استخدمتها شخصياً لتقوية قدميها وتبريدهما أثناء السفر في فصل الصيف، كما تعتقد أن كثافة شعرها تعود جزئياً لاستخدامها المنتظم للحناء¹.

وتُعد مراسم الحناء جزءاً لا يتجزأ من الاحتفالات الممتدة للزفاف، والتي تستمر لخمس أيام كاملة، حيث تشكل خلالها العروس رمزاً للجمال والتقاليد، بشعرها المصفور بخيوط بيضاء، ترتدي ملابس بسيطة حتى زفافها في المساء الخامس. وفي صباح اليوم الثاني، يجتمع رجال العائلتين لحضور طقس ذبح الثور أمام منزل العروس، تليه احتفالية خاصة بالرجال تتميز بالموسيقى المحلية العازفة على الكمان والقيثارة، مع تقديم الشاي والحلويات التقليدية والأوروبية، يليها وليمة غنية من اللحوم والدجاج والكسكس².

¹ Emily Keene, op.cit, p 127.

² Ibidem.

وفي إطار استكمال المشهد التوثيقي لطقوس الزواج في الدول المغربية ، يقدم لنا الرحالة الإنجليزي جيمس هاملتون **James Hamilton** مشهداً مغايراً ومتميزاً في طبيعته، حيث ينقل لنا بعين الملاحظ الدقيق خصوصية مراسم الزفاف في المجتمع البدوي بطرابلس الغرب، مضيفاً بذلك بُعداً جديداً لفهم تنوع العادات والتقاليد في المنطقة إذ يقول : " بينما كان جالساً، مر أمامه موكب زفاف كان ينقل العروس إلى بيت زوجها. كانت العروس مخبأة داخل صندوق بيضاوي مقوس يُسمى الهودج، يُوضع على ظهر جمل. يُغطى الهودج بغطاء أسود، بينما تُغطى نهايته بقطعة قماش بيضاء اللون. وتُغطى زربية الجمل باللون الأسود أيضاً.

يتكون موكب العرس عادةً من ستة فرسان (لا يشملون والد العروس وشقيقها)، ومجموعة من الرجال، وثمانية نساء يسيرن على الأقدام. وفي كل مائة خطوة تقريباً، يتوقف الموكب، فتطلق النساء صيحات عالية تُعرف بالزغاريد، بينما يؤدي الرجال رقصة أمام الجمل الذي يحمل العروس. وتنتهي هذه الاحتفالية بإطلاق عدة طلقات نارية¹.

وبينما تُحمل العروس إلى منزلها الجديد، يجلس العريس الأنيق في منزله في صمت، منتظراً وصولها. وبعد ذلك، يبرك الجمل الذي يحمل العروس أمام منزلها الجديد، وقبل أن يُنزل الهودج الذي يحتوي على أغراض العروس المهمة، مثل الملابس والمجوهرات، من على ظهر الجمل، يُذبح خروف عند ركبته اليمنى. وعند دخول العروس إلى المنزل، تبدأ الموسيقى والرقص وضرب الطبول. وينتهي الحفل بإطلاق النار، وينصرف الحاضرون ليعودوا في المساء التالي، حيث يتجدد الطعام والرقص " ².

¹James Hamilton, op.cit, p 108

² Ibid, p 213.

ب - المآتم:

شكلت طقوس وشعائر الجنازة ودفن الموتى في المجتمعات المغربية مادة خصبة لاهتمام الكتابات الأوروبية عموماً، والإنجليزية على وجه التحديد. فقد دَوّن هؤلاء وصفاً دقيقاً ومفصلاً لتلك الطقوس والشعائر، بدءاً من عملية غسل الميت وتكفينه، وانتهاءً بمراسم دفنه.

ومن أبرز تلك الشهادات الإنجليزية، شهادة إيميلي كين **Emily Keene**، زوجة شريف وزان، التي حضرت مراسم تغسيل وتجهيز ابنة زوجها "لالة هبة" استعداداً لدفنها. تروي إيميلي تفاصيل تلك المراسم بدقة متناهية قائلة: "لإعداد الجسد للدفن، يتم استئجار شخص محترف لتغسيله ثلاث مرات بالماء الفاتر والصابون، من أعلى الرأس إلى أخمص القدم. وينبغي أن يُحضر الماء من خارج المنزل، لأنه لا يُسمح بإشعال النار لمدة ثلاثة أيام في البيت الذي وقعت فيه الوفاة.

ويُستخدم ماء الزهر والبرتقال بكثرة، إلى جانب العطور المستخلصة من الورد وأنواع أخرى من العطور المحلية والبخور. كما يُرش الجسد كله بماء زمزم المقدس الذي يأتي من مكة، وتُسد فتحتا الأنف والأذن بالكافور المغطى بالقطن، الذي يوضع أيضاً تحت الإبطين¹.

ويُحضر قرابة اثنتي عشرة قطعة من القماش القطني الأبيض لإعداد الكفن، الذي يُقص على شكل قطع من الملابس مربوطة إلى بعضها، وتتكون من قميص وسروال تحتي وخمارين لتغطية الرأس، الذي تُشد عليه عصابة أيضاً. وحالما تُكسى الجثة، تُلف في قطعة طويلة من القماش الأبيض القطني، ثم تُربط عند الرأس والقدم. وبعد وضع الجسد داخل التابوت، يجلس

¹ Emily keene, op.cit, p 153

العلماء حوله لقراءة ما تيسر من القرآن، على ضوء الشموع التي أوقدت حولهم، وذلك إن لم تُجر هذه الطقوس في المسجد"¹.

وعندما يحين موعد الدفن، يُحضر الجثمان إلى المسجد وقت صلاة الظهر أو العصر، ويرافقه جميع الحاضرين في موكب الجنازة، مرددين آيات من القرآن، معبرين عن رضاهم بقضاء الله وقدره. ويظهر الحزن على فقد ان الميت بوضوح على محيا ذويه وأصدقائه، فيما يُقدم لهم العزاء بقول: "البركة في راسكم"².

كما لاحظ جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson في دراسته للمجتمع المغربي المسلم أن الممارسات الجنائزية تتميز بخصائص محددة وإجراءات منضبطة. فقد أشار إلى أن المسلمين يلتزمون بإتمام مراسم الدفن في مدة لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعة من وقوع الوفاة، مع تعجيل هذه المراسم خاصة في فصل الصيف لاعتبارات صحية وعملية.

وتتبع مراسم الدفن نظاماً دقيقاً يبدأ بغسل المتوفى، ثم تجهيزه على نقالة خشبية، مع تجنب استخدام التوابيت، واعتماد الكفن القطني كغطاء. يتولى أربعة رجال مسؤولية حمل النعش، فيما يتبعهم المشيعون من الأهل والأصدقاء، مرددين الشهادتين "لا إله إلا الله محمد رسول الله"

وتتسم هذه الممارسات بطابعها الاجتماعي والتكافلي، حيث يُمنع تقاضي أي رسوم على الخدمات الجنائزية، ويكون النعش ملكاً للجامع، متاحاً للاستخدام المجاني لمن يحتاجه. كما تُراعى في عملية الدفن توجيهات محددة، كتوجيه رأس المتوفى نحو مكة المكرمة، ووضع علامات حجرية لتحديد موضعي الرأس والقدمين.

¹ Emily keene, op.cit, pp 153-154.

² Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, 102-103.

أما المقابر، فهي مساحات مسوّرة تقع خارج النطاق العمراني للمدن، وتكون ملحقة ببعض الأضرحة، وذلك انسجاماً مع المبدأ الإسلامي الذي يمنع دفن الموتى في الأحياء السكنية. ويولي المسلمون أماكن الدفن احتراماً خاصاً، يتجلى في حرصهم على الدعاء للموتى كلما مروا بها¹.

وفيما يتعلق بمراسم الدفن، قدم الرحالة جورج ليون فرانسيس George Lyon Francis وصفاً دقيقاً لجنائز ابنة أحد الوزراء في طرابلس الغرب، إذ يقول: " أما طقوس الدفن فلا شيء منها يستحق الذكر. يوضع الجسد في النعش ويُغطى بالقماش، وتُتلى عليه آيات من القرآن. ثم يحمله أصدقاؤه مودعين إياه على عجل، وهم يتمتمون ببعض الجمل والأناشيد الدينية. أما القبر، فلا يميزه سوى قطعة حجر توضع عند مكان الرأس"

ويضيف ليون أن مراسم دفن النساء كانت أكثر إثارة وتعقيداً، قائلاً: "لقد قُدر لي أن أشهد جنازة ابنة الوزير وحفيدة السلطان، فرأيت الناس يحملونها وهي ملففة بكفن أرجواني من قماش ثمين مطرز بالذهب، كُتبت عليه آيات من القرآن بخيوط ذهبية. ووُضعت عند رأسها باقة من الورد وبعض مقتنيات الفقيدة . وخلف النعش كانت تمشي النساء يحملن باقات من الزهور، مرتديات ملابس قديمة، ووجوههن خالية من الأصباغ وصدورهن خالية من الحلي. وقد رأيت الوزير يتصدر الموكب بنفسه، وعلى الرغم مما يُشاع عن قسوته وغلظة قلبه، فقد كان بادي التأثير²".

¹ James Grey Jackson, op.cit, p 157.

² George Francis Lyon ,op.cit, p 19.

ومن عادات المجتمع في هذه المناسبات عتق عبد أو اثنين، وتوزيع الأطعمة على الفقراء الذين يتجمعون بكثرة. وتختلف هذه الأطعمة بحسب قدرة أسرة الفقيد، وتتباهى كل أسرة بالإنفاق على روح فقيدها¹.

وفي وصف آخر للممارسات الجنائزية في المنطقة، تقدم إيميلي كين **Emily Keene** مشهداً تفصيلياً لموكب جنازة أخت زوجها لالة هبة في مدينة وزان، حيث تقول: " شارك في تشييع الجنازة خلق كثيرون من أهل وزان، وكان الجميع في لباس أبيض. كما احتشدت النساء على الأسطح والجدران، مرتديات الأبيض أيضاً. وتسلق الصبيان والفتيات الأشجار ليروا موكب الجنازة. وبعد انتظار طويل، بدأت مقدمة الموكب تتقدم من جانب حديقة مولاي محمد. كانت التراتيل خافتة ثم ازدادت علواً ووضوحاً، حتى ظهرت كتلة بيضاء من المشيعين بين الأشجار"².

وتواصل إيميلي وصف المشهد قائلة: "عندما سألتُ عن موعد انتهاء هذا الموكب ومكان التابوت، ظهر أخيراً محمولاً على أكتاف رجال من توات، يبدو كقفص طويل مزين كهودج العروس. وكانت التراتيل جميلة ومؤثرة، تنبعث من آلاف الحناجر بانسجام. وعند وصول الموكب، تُلّيت آيات من القرآن، ووضع الجسد في القبر المحفور، ثم وُزع المال والطعام على الفقراء، قبل أن تتفرق الجموع"³.

وقد تطرقت المصادر الإنجليزية بدقة إلى وصف طقوس الحداد والنواح التي تصاحب الجنازات الدول المغربية، حيث رصد الرحالة "جون وند وس **John windus** " في المغرب،

¹ George Francis Lyon ,op.cit, p 19.

² Emily keene, op.cit, p 154.

³ Ibid, p 155.

و"ماريا مارتن **Maria Martin** " في الجزائر، و"ليون جورج فرانسيس **George Francis Lyon** " في طرابلس، مشاهد متشابهة.

يصف " جون وندوس **John windus** " قائلاً: "عند موت شخص ذي مكانة، تُستأجر نساء للعويل والتأوه الحزين، وضرب الرؤوس ولطم الخدود. وإذا كان المتوفى رجلاً، تضع نساؤه الرماد فوق رؤوسهن ويصدرن أصواتاً كأصوات القطط، ويخدشن خدودهن طيلة الوقت بأظافرهن. وعندما تنوح النساء على المتوفى، يسألنه عما كان يريد الحصول عليه في هذه الدنيا، وهل تناول ما يكفيه من الكسكس خلال حياته؟ أما إذا كانت المتوفاة هي الزوجة، فإن الزوج من الطبقة المتوسطة لا يجد غضاضة في الخروج من منزله والتهيؤ للمأتم ولو في نفس اليوم الذي توفيت فيه زوجته"¹.

وتذكر ماريا مارتن **Maria Martin** : "عند الدفن، كانوا يستأجرون أشخاصاً للبكاء والعويل على قبورهم، متسائلين لماذا توفوا وقد حظوا في الحياة بكل ما يلزمهم، يمضي هؤلاء الناس وقتهم في الأكل والشرب والنوم وركوب الخيل للتسلية"².

أما جورج فرانسيس ليون **George Francis Lyon** فيصف النساء قائلاً: "وهناك بعض النسوة اللاتي يرتدن منزل الفقيدة، ليندبنها ويطلقن الآهات والصرخات. وتستمر هذه الأحزان ثلاثة أيام، ويبدو أن الضجة التي يحدثنها لا تكفي، فيقمن بدق الطبول والأوعية الفارغة"³.

¹ John windus, op.cit, pp 52-53.

² Maria Martin, op.cit, p 49.

³ George Francis Lyon, op.cit, p 20.

وهكذا لفتت طقوس الحداد والنواح أنظار الرحالة والكتّاب الإنجليز، الذين وصفوا تلك المراسم بدقة في كتاباتهم، حيث تعبر النساء عن حزنهن بتزيين قبر المتوفى بالزهور والنباتات، بينما يعبر الرجال بتقديم الصدقات والدعاء له.

تسلّط المصادر التاريخية الضوء على امتداد فترات الحداد الطويلة عند المغاربة، والتي تبلغ اثني عشر شهراً كاملاً، حيث ترتدي الأرامل أبسط الملابس وأكثرها تواضعاً طوال تلك المدة، تعبيراً عن الأسى العميق¹.

كان المجتمع المغربي يحرص على زيارة القبر الجديد يومياً، حيث يقوم "الطلبة" بتلاوة ما تيسر من القرآن عنده بين الحين والآخر. كما يحضر الأقارب والأصدقاء والمعارف وجبات الطعام لبית العزاء لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، تُوزّع أطباق الكسكس مع الخبز والتين على "الطلبة" وغيرهم، ويُكرّر هذا إجراء في اليوم الأربعين من الوفاة².

أما بالنسبة للمرأة الأرملة، فيتوجب عليها أن تلف نفسها بالحايك إلى أن تُعدّ لنفسها ثياباً بيضاء جديدة، غالباً من القماش القطني الأبيض. ويُمنع عليها ارتداء الملابس الملونة لمدة أربعة عشر شهراً وأحد عشر يوماً ونصف اليوم. وتُغسل ثيابها يوم السبت فقط، ولا يجوز خلطها مع ملابس أهل المنزل. كما يُمنع على من ترمّلت حديثاً الذهاب إلى الحمام بمفردها، وإذا قصدت حماماً عمومياً فعليها العودة إلى البيت قبل العصر. ويُسمح للأرملة بزيارة صديقاتها بعد أربعة أشهر، لكن لا يمكنها بأي حال من الأحوال حضور الاحتفالات، ويجب أن

¹ John Buffa ,op.cit, p 168.

² Emily keene, op.cit, p 156.

تحرص على عدم الخروج حافية القدمين. أما الملابس التي كان يرتديها المتوفى عند احتضاره فيتم التصديق بها على الفقراء، بغض النظر عن سبب الوفاة مرض معد أم لا¹.

ومن العادات المهمة أيضاً اعتناؤهم بمقابر موتاهم، إذ يحرصون على إحاطتها بأشجار السرو الشاهقة وغيرها من النباتات المتشابكة، والتي تشكل سياجاً كثيفاً يكاد يكون منيعاً. وبالرغم من بساطة تصاميمها، تتميز بعض المقابر بمظهرها الـ مميز. كما يزيد من قداستها وجمالها انتشار أضرحة الأولياء المقدسة بالقرب منها².

وقد حظيت عادات الحداد ومراسم الدفن عند المغاربة باهتمام ودراسة واسعين من قبل الكتاب الإنجليز، الذين ساهمت أبحاثهم وكتاباتهم في تسليط الضوء على تلك التقاليد و مظاهر ذات الجذور الثقافية العريقة. فقد أبدى الرحالة والمؤرخون الإنجليز اهتماماً بالغاً وحرصاً شديداً على تدوين ملامح وتفاصيل طقوس الحداد والعزاء، ووصفها بدقة متناهية في كتبهم ومذكراتهم التي خلفوها عن رحلاتهم وأبحاثهم في الدول المغربية. وقد قاموا بتسجيل وقائع تلك الطقوس عن كثب، بدءاً من مراسم غسل الموتى وتكفينهم وصولاً إلى دفنهم في مدافنهم الأخيرة، مروراً بمختلف مظاهر النواح والبكاء الجماعي التي كان يعبر بها المغاربة عن حزنهم العميق على فقدان أحبّتهم.

ت - مراسيم احتفال بالمولود الجديد :

تشكل لحظة الولادة في المجتمع المغربي مشهداً مفعماً بالحياة والمشاعر المتداخلة، حيث تقف الأم على أعتاب تجربتها المصيرية، تستغفر الله . وما إن تشق صرخة القابلة الهواء معلنة

¹ Emily keene, op.cit, p 156.

² John Buffa, op.cit, p 169

قدوم الصبي المنتظر، حتى تنطلق الزغاريد كموجة صوتية تحمل البشرى للأب المترقب في مجلسه القريب. ويتحول المشهد في لحظات إلى احتفال صاخب، حيث يدوي صوت البنادق في الخارج، معلناً للعالم وصول الوريث الجديد¹.

وتبدأ عادات العناية بالمولود فور ولادته، في مزيج مميز من الحكمة القديمة والممارسات التقليدية، حيث يُدهن جسده الطري بالحناء والزيت، ويُلف بأقمشة الكتان العتيقة والحاك التقليدي. ويحظى رأسه الصغير بعناية خاصة، فتُكحل عيناه بسخاء، ويُرسم حاجباه بدقة لحماية من العين الشريرة، كما يُنظف فمه بالزيت وعصير الجوز بعملة نحاسية. وتتحول الغرفة في الأيام التالية إلى مزار، حيث تحجب الستائر الحريرية الأم المتعبة عن الأنظار الفضولية، بينما تدور صينية الشاي، رمز الضيافة، بين الزوار حاملة معها عبق التهاني والدعوات².

أما الرعاية الأولية للمولود، فتبدأ بإطعامه مزيجاً من الزبدة والعسل، ثم يُسقى ماءً محلي بالعسل. وبعد مرور عدة أيام، يُمنح الطفل اسمه ويقام احتفال صغير بهذه المناسبة. ويأتي عادة الحمام الأول بعد أسبوع من الولادة، حيث يُحضر حوض كبير على صينية نحاسية، ويملاً بماء فاتر مع غصن من الأعشاب المعطرة. وتُزال عن الطفل ملابسه القديمة الملوخة بالحناء والزيت، ليتم تنظيفه وتجفيفه بعناية، ثم يُلبس ملابس جديدة تمثل زياً مصغراً للبلد. وأخيراً، يُعرض على الضيوف الذين يباركونه ويلقي كل منهم قطعة فضية في ماء الحمام، لتكون من نصيب القابلة (المولدة). وقد تطورت هذه الممارسات مع الزمن، حيث أصبح

¹ Emily Keene, op.cit, p 69.

² Ibid, p 70.

استخدام الصابون والمنشفة أكثر شيوعاً، وازداد عدد النساء الواعيات اللواتي يفضلن الاستحمام المنتظم لأطفالهن منذ الولادة¹.

ث - المأكولات المغربية و عاداتهم :

تزرخ الدول المغربية بتنوع غني من الأطباق التقليدية التي تعكس عمق ثقافتها وتراثها الغذائي، وفي قلب هذا التنوع يبرز الكسكسي كأحد أشهر الأطباق وأكثرها شعبية وانتشاراً في المدن والأرياف على حد سواء . وقد أكد جون وندوس على أهميته البالغة، باعتباره الوجبة الرئيسية والأساسية التي يتناولها المغربية يومياً، معزياً شعبيته إلى قيمته الغذائية والصحية العالية نظراً لاحتوائه على مكونات طبيعية ومفيدة ويصف جون وندوس John Windus بإسهاب طريقة تحضير الكسكسي التقليدية، إذ يبدأ المغربية بوضع الدقيق الممتاز في صحن واسع، ورشه بقليل من الماء مع العجن الجيد بهدف تشكيل كرات صغيرة متماسكة. ثم ينقلون هذه الكرات إلى صحن آخر بعناية فائقة، ويكررون عملية تشكيل الكرات حتى الوصول للكمية المطلوبة من الكسكسي.

وفي المرحلة التالية، يضع المغربية كمية مناسبة من كرات الكسكسي فوق إناء مغطى يحتوي على اللحم والدجاج، لتتضج بالبخر المنبعث من الإناء. وبمجرد اكتمال نضج الكسكسي، يتم سكب مرقة شهية ودسمة عليه، ثم وضع قطع اللحم والدجاج فوقه قبل تقديمه ساخناً كوجبة شهية ومشبعة تميز المائدة المغربية².

كما وصفت إليزابيث بروتون Elizabeth Brouthon في كتابها طريقة تحضير الكسكسي بالتفصيل، موضحة أنه عبارة عن كرات صغيرة مستديرة مصنوعة من السميد، وهو نوع من

¹ Ibid, p72.

² John windus, op.cit, pp 36-37.

الدقيق المستخدم عادةً في تحضير العجائن في المطبخ المغربي. وتتميز هذه الكرات بصغر حجمها مقارنةً بحبة الرصاص. وفصلت إليزابيث بروتون Elizabeth Brouthon الخطوات اللازمة لتحضير الكسكسي، بدءاً من تنقيعه بالماء، ثم تجفيفه وفركه بالزبدة ووضعه في الكسكاس ليُطهى بالبخار. وبعد نضجه، يُزال من الكسكاس ويُفرك مجدداً بالزبدة قبل تقديمه في طبق عميق مع إضافة اللحم والدجاج والخضروات وسكب مرققتها فوقه¹.

وتضيف الأنسة بروتون أيضاً طريقة تحضير المرققة التي تُقدم مع طبق الكسكسي، إذ توضح أنه يتم أخذ لحم نظيف ودجاج متبل جيداً بالتوابل المختلفة، بالإضافة إلى حبة قرنبيط مقطعة وخرشوف (كرفس) وفص ثوم وجزرتين وحفنة حمص. يوضع الخليط في قدرة ثم يُغطى بالماء البارد وتوضع فوقه قطعة قماش (كسكاس)، وما إن يبدأ البخار بالارتفاع حتى يتم وضع الكسكسي لينضج بالبخار².

أما إيم يلي كين Emily Keene زوجة الشريف الوزان فتصفه بقول: " وهو طعام حبيبي مصنوع من السميد، الطبق الأصلي للبلاد، يحيرني حتى يومنا هذا "³. ويضيف الأسير توماس بيلو Thomas Pellow بإعجاب: " أنا حقاً أتفق مع رأي المغاربة لدرجة أنني لا أستطيع إلا أن أوافق بكل احترام على أنه يستحق حقاً تقديرهم العالي وتوصياتهم، فهو في الواقع جيد جداً، وممتع، ومغذي، ويتم تحضيره بأبسط طريقة.

¹ Elizabeth Brouthon, Six Years..., op.cit, pp 420-421.

² Ibid, p 241.

³ Emily Keene, op.cit, p 73.

يضعون الدقيق الناعم في وعاء خشبي كبير ، ثم يصبون عليه كمية كبيرة من الماء ، ويستمررون في رج الوعاء حتى يتم امتصاص الماء . ثم يصبون المزيد ، ويستمررون في رج الوعاء حتى يتحول كل الدقيق إلى كرات صغيرة بحجم حبة جوزة الطيب تقريباً.

ثم يتم نقلها إلى وعاء آخر يشبه المصفاة، توضع فوق بخار قدر غليان أو فرن حيث يتم غلي الدجاج واللحوم الأخرى. وبحلول الوقت الذي يتم فيه غلي اللحم جيداً، تصبح الكرات (التي يسمونها كسكس) جاهزة. يضيفون إليها الزبدة، والملح، والتوابل، والزعفران، ثم يقدمون اللحم فوقها. وأقول إن هذا طعام ممتاز، وأنه يستحق أن يُقدم كطبق ملكي في إنجلترا وغيرها من البلدان¹.

أما جون براثوايت John Braithwaite فيقول: " لكن ما أثار إعجابنا حقاً كان طبق الكسكس، وهو تحفة الطعام المغربي. تأملنا بانبهار كيف يُعد هذا الطبق الشهى: حبيبات دقيق ناعمة تشبه بذور القنب، تُرش بعناية فوق مزيج شهى من الدجاج واللحوم والخضروات. في طبق كبير، يُصنع تجويف في وسط الكسكس، يُملأ باللحم والخضروات، ثم يُسكب المرق الغني فوق كل شيء، مما يخلق مزيجاً متناغماً من النكهات. راقبنا بإعجاب كيف يتناول المغاربة الكسكس بأيديهم، مستخدمين قطعاً صغيرة من الخبز لغرف الطعام بمهارة " ² .

لقد قدم هؤلاء الإنجليز وصفاً دقيقاً لطريقة تحضير الكسكسي ومكوناته، مبرزين أهميته البالغة في المطبخ والثقافة المغربية، باعتباره الوجبة الشعبية الأكثر شيوعاً وتناولاً على مستوى كافة أنحاء الدول المغربية .

¹ Thomas Pellow, op.cit, p 31.

² John Braithwaite, op.cit, p 83.

تشتهر الدول المغربية، إضافة إلى الكسكس، بمجموعة متنوعة من الأطباق التقليدية. فمن الحساءات المميزة، نجد حساء الأحشاء الذي يحتوي على الأرز والشعيرية والبيض وعصير الليمون.

ومن الأطباق المميزة الأخرى الشكشوكة ذات النكهة الحارة، التي تُحضّر باللحم أو السمك وتُتبل بكميات وفيرة من الفلفل الأحمر والتوابل والبيض¹. وتحظى الكفتة، وهي كرات من اللحم المقلي الشهي، بشهرة واسعة في جميع أنحاء المنطقة. كما تتميز الدولمة، المصنوعة من اللحم والأعشاب العطرية والمتبلّة بكميات وفيرة من القرفة، بمذاقها اللاذع، وتُقدّم مع صلصة بيضاء من الكريمة.

وفي وجبة الإفطار، تنتشر القهوة مصحوبة بالفطائر المصنوعة من العجين والمقلية والمضاف إليها العسل، والمعروفة باسم "الفطيرة"². إن هذا التنوع في الأطباق المغربية التقليدية يعكس بصدق ثراء الثقافة والتاريخ العريق لهذه المنطقة.

يعتمد المغرب في غذائهم بشكل رئيس على بعض الأطعمة الأساسية مثل الخبز والأرز والفواكه، في حين تكاد تكون المشروبات الكحولية غير موجودة في مجتمعهم³. ويمكن فهم هذه العادات الغذائية من خلال النظر إلى تقاليدهم المتوارثة، وطبيعة بيئتهم الجغرافية والمناخية

فالدول المغربية بلدان زراعية في الأساس، تنتشر فيها زراعة الحبوب كالقمح والشعير اللذين يُصنع منهما الخبز، كما يُزرع الأرز في بعض المناطق الرطبة، خاصة على ضفاف الأنهار. وتتوافر الفواكه بكثرة نظراً لملاءمة المناخ الدافئ لإنتاجها، إذ تنتشر أشجارها في

¹ Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2,..., op.cit, p 61.

² Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2,...op.cit, p 62.

³ Mathew Carey, op.cit, p 11.

المدن والقرى المغربية. أما المشروبات الكحولية، فغيابها عن المائدة المغربية يأتي انسجاماً مع تعاليم الدين الإسلامي.

وقد أولى المغاربة اهتماماً خاصاً بتحضير الخبز، إذ تصف إيم طلي كين **Emily keene** عملية تحضيره بدقة قائلة: " في صناعة الخبز، يتم دائماً غسل الذراعين واليدين بالصابون والماء قبل خلط العجين، وعادة ما يتم غسل القمح في مائين وتجفيفه قبل إرساله إلى الطاحونة من قبل أولئك الذين يفضلون طحن قمحهم الخاص بدلاً من شراء الدقيق بالوزن أو بالكيس". وتضيف أن هذه العملية تقتن بالمارسات الدينية، إذ "عند الأكل أو الشرب أو أي تحضيرات طهوية، يتم نطق 'بسم الله' قبل بدء العمليات، وعند الانتهاء يتم نطق 'الحمد لله'".¹

وفيما يتعلق بالمشروبات، يشير جوزيف بيتس **Joseph Pitts** الأسير الانجليزي بالجزائر إلى أن الماء كان الخيار الرئيس لدى عامة الشعب، في حين اقتصرت القهوة على الأغنياء، مضيفاً أنها في الأساس لا تروي العطش². بالإضافة إلى الشاي، فقد حظي باهتمام خاص في الثقافة المغربية، وقد وصفت إيم طلي كين **Emily keene** طريقة تحضيره بدقة قائلة: "عملية صنع الشاي تتم بخطوات منظمة، إذ يُلقى حفنة من الشاي الأخضر في إبريق ويُشطف جيداً بالماء المغلي، ثم تُضاف العشبة المختارة والسكر في مكعبات تملأ الإبريق. يُضاف الماء المغلي بعد ذلك، ويُترك الخليط لبضع ثوانٍ. تتم إزالة الرغوة وتقليب الشاي، ثم تقوم صانعة الشاي، بعد غسل يديها، بتذوق القليل منه في كوب للتأكد من حلاوته. وبعد الرضا عن المذاق، تملأ كل كوب صغير، وتشرع السيدة، مع مساعدتها، في توزيعه. يضع المستلم الكوب أمامه على الأرض، بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة بنشر منديل من الشاش على حضنه مسبقاً،

¹ Emily Keene, op.cit , p 95.

² Joseph pitts, **A True and Faithful Account of The Religion & Manners of The Mohametans**, Second Edition ,Printed by George Bishop, Exon , 1717, p 20.

ثم يُقدم الكعك والبسكويت. ويُذكر أن الشاي الأسود المحضر بالطريقة نفسها كان شائع الاستخدام أيضاً. وعندما يتم تقديم الشاي للجميع، يبدأ احتساؤه، غالباً بطريقة مسموعة، ويرافق ذلك رش العطر وحرق البخور لتطيب الملابس¹.

يقدم الانجليز في كتاباتهم وصفاً دقيقاً لعادات الطعام والشراب في الدول المغربية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وتكشف هذه الشهادات عن تفاصيل ثرية حول التقاليد الغذائية والاجتماعية للمجتمع المغربي آنذاك.

فيما يتعلق بالمشروبات التقليدية، يرصد جون وندوس John Windus عادات الشرب لدى المغاربة بعد الطعام، مشيراً إلى شعبية مشروب "المخيض" الذي كان يُقدم في جرة سوداء كبيرة مع مغرفة خشبية. وكان تقديم هذا المشروب يتبع نظاماً اجتماعياً محدداً، إذ يُقدم أولاً لكبار السن ثم يدور على باقي الحضور عدة مرات. ويلاحظ جون وندوس John Windus أن المغاربة كانوا يضربون المثل بحلاوة المخيض عند وصف أي طعم شديد الحلاوة².

أما فيما يخص آداب المائدة و عادات تناول الطعام، فيقدم الأسير الإنجليزي جوزيف بيتس Joseph Pitts وصفاً تفصيلياً لها. فيصف الموائد المستديرة المنخفضة التي يجلس حولها المغاربة متربعين على الأرض، مع توفر المناديل لتنظيف الأيدي. وبلغت الانتباه إلى الطقوس الدينية المصاحبة لتناول الطعام، كقول "بسم الله" عند البدء و "الحمد لله" عند الانتهاء. كما يشير إلى خصوصية المطبخ المغربي في طهو اللحوم، حيث يتم سلقها أو شويها جزئياً ثم إعادة طهوها بالزيت مع إضافة الملفوف والفلفل والأعشاب المختلفة³.

¹ Emily Keene, op.cit, p 93.

² John windus, op.cit, p 21.

³ Joseph pitts, op.cit, p 19.

وتكتمل الصورة مع شهادة إيميلي كين **Emily Keene** التي تصف بتفصيل دقيق تقاليد الضيافة والولائم المغاربة، والتي تعكس كرمهم وحسن استقبالهم للضيوف. فعندما يرغبون بإكرام ضيوفهم، يُحضرون طاولات خشبية منخفضة تتسع لجلوس ما بين 8 و 10 أشخاص على أرائك ووسائد مريحة. ويوضع الطبق الرئيسي وعادة ما يكون لحمًا أو دجاجًا في وسط المائدة . وقبل البدء بتناول الطعام، يتم تمرير أرغفة الخبز الطرية لجميع المتواجدين، بحيث يمسك كل منهم بقطعتين أو أكثر. ثم يردد الجميع عبارة "بسم الله" قبل أن يبدأوا بغمس قطع الخبز في صحن اللحم أو الدجاج وتناوله. وغالبًا ما تتولى ربة البيت تقطيع الدجاج بمهارة واحتراف، كما تحرص على تقديم كل ما يلزم. ومن آداب المائدة لدى المغاربة عدم لمس الطعام باليد اليسرى باستثناء كأس الماء. وفي ختام الوليمة، يغسل الضيوف أيديهم ويمضمضون أفواههم، تمهيدًا لتقديم القهوة مع إضافة ماء البرتقال أو القرفة¹.

ج - المعتقدات الشعبية :

ومن المعتقدات الخرافية الشائعة في المجتمع المغربي، اعتقادهم بأن بعض الناس يمتلكون القدرة على إلحاق الضرر بكل ما ينظرون إليه، خاصة الأطفال الصغار والحياد الجميلة. وتُعد العين الشريرة إحدى أبرز المعتقدات الشعبية في البلدان الإسلامية عامة والدول المغربية خاصة، حيث يسود الاعتقاد بأن مجرد الإعجاب أو المديح - خاصة من شخص غريب - قد يجلب سوء الحظ والضرر².

يؤكد الرحالة جون كلارك كينيدي **John Clark Kennedy** هذه المعتقدات من خلال حادثة شهداها في سوق صفاقس. روى كيف أن نظرة إعجاب بسيطة ألقاها على طفل جميل

¹ Emily keene ,op.cit, p 74.

² John windus, op.cit, p 31.

دفعت والدته إلى التصرف بذعر شديد، فسارعت إلى حمله والبصق في وجهه وفرك اللعاب على جبينه، معتقدة أن هذا سيحميه من أثر العين الشريرة¹.

ولم تقتصر هذه المعتقدات على السكان المحليين، بل امتد تأثيرها إلى الأجانب المقيمين في المنطقة. يورد توماس ماكجيل Thomas MacGill مثلاً على شخص أوروبي في تونس كان يسارع إلى بيع أو التخلي عن أي شيء يمتلكه إذا سمع مديحاً له من أشخاص يُشتبه في امتلاكهم للعين الشريرة².

وفي سياق توثيق هذه الظاهرة، يقدم الرحالة توماس شو Thomas Shaw وصفاً دقيقاً لها، مشيراً إلى إيمان المغاربة القوي بتأثير العين والحسد. فكانوا يبتكرون وسائل متعددة للحماية، حيث كانوا يضعون رسم "العين الخامسة" في منازلهم وعلى أعناق أطفالهم، ويحملون لفافات ورقية مكتوب عليها آيات قرآنية، ويلجؤون إلى السحرة والمشعوذين طلباً للحماية والعلاج³.

وفي تأكيد على أهمية التمايم في المجتمع المغربي، يضيف جون كلارك كينيدي John Clark Kennedy تفاصيل حول انتشار التعويذات، مؤكداً أن أكثرها قداسة وفعالية في نظرهم كانت التي تحتوي على آيات قرآنية. وقد ساد الاعتقاد بأن غموض هذه الكتابات وصعوبة فهمها يزيد من قوتها الروحية⁴.

على الرغم من تصوير الرحالة الإنجليز لمعتقدات العين والحسد في المجتمع المغربي على أنها مجرد خرافات وممارسات بدائية، فإن الحقيقة العلمية والدينية تؤكد خلاف ذلك تماماً.

¹ John Clark Keenney, op.cit, p 81.

² Thomas MacGill ,op.cit, p 87.

³ Thomas Shaw, Travels Or ..., op.cit, p 243.

⁴ John Clark Keenney, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, ..., op.cit, p 31.

فالعين والحسد حقيقة ثابتة في الدين الإسلامي ومذكورة في القرآن الكريم، ومن علاجها قراءة المعوذات (الإخلاص والفلق والناس) ثلاث مرات صباحاً ومساءً وغيرها من الآيات الراقية الشافية، والتحصن بأذكار الصباح والمساء. وقد أكدت السنة النبوية ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين". وقال أيضاً: "العين تدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر...". وإيماناً بديننا وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن المسلم عندما يرى شيئاً يعجبه - حتى لا يصيبه بعين أو حسد عن قصد أو بدون قصد - يسبق رؤيته بقول "بسم الله ما شاء الله" أو "بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله"¹.

ولذلك، فإن وصف الرحالة الإنجليز لهذه المعتقدات بالخرافية يعكس جهلهم بحقيقة الدين الإسلامي وتعاليمه، وهو جزء من النظرة الاستشراقية المتعالية التي حاولت تصوير كل ما هو إسلامي على أنه بدائي وخرافي، متجاهلة الأسس العقائدية والشرعية لهذه المعتقدات والممارسات.

والى جانب الاعتقاد في العين والحسد، كان هناك اعتقاد راسخ في المجتمعات المغربية بأن كثيراً من الأمراض سببها إيذاء الجن - وهي مخلوقات يعتقدون أنها تقع منزلة بين الملائكة والشياطين. ويُعتقد أن هذه المخلوقات تسكن قرب الظلال والينابيع، وتتجسد في هيئة مخلوقات صغيرة كالضفادع والديدان، مما يجعلها عرضة للأذى غير المقصود من البشر.

ونتيجة لانتشار هذه المعتقدات المتنوعة في المجتمع المغربي، ظهرت فئة اجتماعية خاصة تولت مهمة التعامل مع هذه الظواهر الروحية، وهم المرابطون الذين يحظون بمكانة خاصة في

¹ هدى عبد الرحمن العلام، "الأوضاع الصحية في فزان من خلال مشاهدات الرحالة في القرن التاسع عشر"، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية، مجلد 20، العدد 03، ليبيا، 2021، ص 243.

المجتمع. وهم عادة من يمارسون حياة زهد، مكرسين وقتهم للعبادة والتأمل. وتنتقل هذه المكانة المقدسة بالوراثة من الأب إلى الابن، شريطة أن يحافظ الابن على نفس نهج والده من الجدية والوقار¹.

وكانت هناك معتقدات أخرى غريبة، مثل ذبح الدجاج أو الضأن ودفنها مع شرب دمائها، أو حرق صوفها وريشها، اعتقاداً بفاعليتها في الوقاية من الأمراض ودرء الحسد. وكان المغاربة يؤمنون أيضاً بوجود الملائكة والجن في هذا العالم².

كما يضيف لنا توماس شو Thomas Shaw أن المسلمون أو كما يسميهم بالمحمديين يؤمنون بتنبؤات مرابطين، أنه سوف يتمكن المسيحيين من نشر دينهم في كل البلدان التي دخلها المسلمون أو أتراك، ولهذا السبب يغلقون أبواب مدنها يوم الجمعة من الساعة العاشرة صباحاً حتى الظهر، ويقولون أن هذا الوقت المناسب لحدوث هذه الكارثة³. ونفس شئ يذكره لنا أيضاً الرحالة جون كلاك كينيدي John Clark Kennedy ، حيث يكشف عن تأثير المعتقدات الشعبية على النظام الأمني في المدن التونسية، حيث يشير إلى نبوءة قديمة كانت منتشرة في المجتمع. تتنبأ هذه النبوءة بأن المسيحيين سيتمكنون من اقتحام تونس والمدن المحصنة الأخرى في يوم جمعة أثناء صلاة الظهر، مستغلين البوابات التي تُركت مفتوحة سهواً، مما سيؤدي إلى خراب البلاد وانهايار الإسلام.

ونتيجة لهذه المخاوف، تطورت إجراءات أمنية صارمة في المدن التونسية. فكانت أبواب المدن تُغلق بشكل روتيني. واستثناءً من هذه القاعدة، طورت بعض المدن مثل المنستير

¹ Thomas Shaw , Travels Or..., op.cit, p 243.

² Ibidem.

³ Thomas Shaw, Travels Or ...,op.cit, p 143.

والقيروان حلاً عملياً تمثل في "الحوشة" - وهي ممرات ضيقة ومنخفضة تخترق جدران المدينة بالقرب من البوابات الرئيسية. صُممت هذه الممرات بحيث تسمح بمرور شخص واحد متوسط الحجم في وضع الانحناء، وتميزت بتصميمها الملتوي الذي يوفر حماية إضافية¹. ونفس شئ يذكره أيضا توماس ماكجيل Thomas MacGill إذ يقول: " وفيما يتعلق بالنبوءات، يسود بين سكان بلاد البربر اعتقاد غريب مبني على نبوءة قديمة تنتبأ بسقوط بلادهم يوم الجمعة أثناء صلاة الظهر. وقد أدى هذا الاعتقاد إلى إجراءات أمنية صارمة تتمثل في إغلاق أبواب المدن خلال ساعة الصلاة. وتضيف النبوءة أن الغزاة سيكونون من الشعوب التي ترتدي اللون الأحمر، وهو ما فُسر على أنه إشارة إلى الإنجليز"².

يكشف توماس ماكجيل Thomas MacGill في مشاهداته عن تداخل المعتقدات الشعبية مع مختلف جوانب الحياة في المجتمع المغربي. ففي المجال العسكري، يبرز الدور المحوري للمرابطين الذين كانت تُطلب استشارتهم قبل أي تحرك عسكري. وكان من مهامهم الأساسية رصد حركة النجوم وتحديد الأوقات المناسبة لتحرك الجيوش، مما يعكس مزجاً مميزاً بين المعتقدات الدينية والممارسات العسكرية.

ويرصد توماس ماكجيل Thomas MacGill أيضاً تشابهاً لافتاً بين المعتقدات الشعبية في المنطقة المغربية وتلك السائدة في المجتمعات الأخرى. فيشير إلى اشتراك المغاربة والأتراك والأوروبيين في التشاؤم من اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة، مما يدل على

¹ John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, ..., op.cit, p 81.

² Thomas MacGill, op.cit, p 87.

التقارب في بعض المعتقدات الشعبية بين الثقافات المختلفة، رغم التباين في أصولها الدينية والحضارية¹.

هذه المعتقدات كانت جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الشعبية في المجتمع المغربي، وقد استمرت في التأثير على حياة الناس لقرون عديدة.

ح - طريقة تحيتهم:

دوماً مثل أسلوب التحية عنصراً أساسياً في التواصل الاجتماعي والثقافي بين مختلف الشعوب. وقد حظيت طريقة التحية التقليدية عند المغاربة باهتمام كبير من قبل الكتابات الإنجليزية، نظراً لما تكشف عنه من رموز ومعاني ثقافية . يصف لنا الرحالة جون وندوس John Windus تفاصيل تلك الطريقة : " يتبادل الأشخاص مصافحة سريعة بين أيديهم ثم يفصلونها فوراً. وإذا كان المتحيان من نفس المستوى الاجتماعي يقبل كل منهما يد الآخر، أما إذا كان أحدهما أعلى مقاماً فإن الأدنى مرتبة يقبل يد الأعلى وغالباً رأسه أيضاً"².

ومن أبرز مظاهر التحية اللفظية عبارة "السلام عليكم"، التي تجاوزت كونها مجرد تحية بسيطة لتصبح تعبيراً عن عمق الروح الدينية في المجتمع المغربي، حاملة معها دعاء بالخلاص والنجاة. وقد حلت هذه التحية محل عبارات أقدم كانت شائعة قبل الفتح الإسلامي مثل "الله يحييك" و"الله يطيل عمرك"، والتي تشابه في جذورها التحية البونية القديمة "هافو أدوني"³.

¹ Thomas MacGill, op.cit, p 87.

² John Windus, op.cit, p

³ Thomas Shaw, Travels Or..., op.cit, p 237.

كما يتبادل المتحيون عبارات ودية أخرى مثل "كيف حالك؟" و"أين كنت؟" و"إني مسرور برؤيتك". وتزداد مراسم التحية تعقيداً عند لقاء القادة، حيث تختلف طريقة التحية باختلاف وضعية القائد: فإذا كان على صهوة جواده، يقبلون رجله، وإن كان ماشياً، يقبلون يده أو ثيابه، أما إذا كان جالساً، فيقبلون ركبته إظهاراً للاحترام والتقدير¹.

خ أخلاق المغاربة :

يميل كل من الرجال والنساء في الدول المغربية إلى قضاء وقت فراغ كبير في الاسترخاء والراحة؛ فالرجال يجلسون لساعات طويلة يتناولون القهوة ويدخنون الشيشة، بينما تقضي النساء وقتهن في ارتداء الملابس والاهتمام الدائم بمظهرهن وزيارة الحمامات وقبور أقاربهن والتنزه في الحدائق².

وهذا ما لاحظته أيضاً جون برايتوايت John Braithwaite القنصل الإنجليزي في المغرب إذ يقول: "عند رؤية عدد الكسالى الجالسين في الأزقة من الصباح إلى المساء، يصعب على الأجنبي أن يفهم كيف يستطيعون الحصول على ما يقتاتون به دون عمل، وأنا شخصياً لم أستطع الكشف عن مواردهم"³.

غير أن هذه الصورة تتناقض مع ما يقدمه القنصل الإنجليزي جوزيف مورغان Joseph Morgan، الذي يرسم صورة لمجتمع نشط ومنتج. فهو يصف كيف يتولى الرجال أعمال الزراعة والتجارة في المدن، بينما تقوم النساء والأطفال برعاية الماشية وإدارة شؤون المنزل،

¹ John windus, op.cit, pp 64-65.

² Mathew Carey, op.cit, p14.

³ John Braithwaite, op.cit , p 158.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

إضافة إلى أعمال تربية دود القز. كما يشير إلى تنوع الأنشطة الاقتصادية، من تربية النحل وإنتاج العسل والشمع إلى التجارة في المحاصيل المختلفة¹.

ويأتي وصف توماس شو Thomas Shaw ليقدم صورة أكثر توازناً، حيث يوضح أن المجتمع المغربي يتبع نظاماً يومياً منتظماً يجمع بين العبادة والعمل. فالיום يبدأ قبل الفجر بوجبة خفيفة من الشورية، تليها صلاة الفجر في المساجد. ومع شروق الشمس، يتوجه الناس إلى أعمالهم المختلفة حتى العاشرة صباحاً، موعد وجبة الإفطار الرئيسية. ثم يعودون للعمل حتى صلاة العصر، حيث يتوقف النشاط التجاري. وبعد صلاتي المغرب والعشاء، يخلد الناس للراحة، فيما ينشغل كبار السن بالذكر والعبادة².

وإلى جانب هذا النظام اليومي المنظم، لفت انتباه الرحالة الإنجليز في المجتمع المغربي سمة أخرى مميزة، وهي تمتع أفراده بروح الدعابة والمرح العالية. فقد وصفهم آرثر ليريد Arthur Leared بالأيرلنديين في إفريقيا، مشيراً إلى أنه وبالرغم من القمع والاستبداد الذي يتعرض له هذا الشعب، إلا أن حس الفكاهة لديهم لا ينطفئ، ولا تزال تلك النزعة نحو مقارنة الأمور من منظور فكاهي، سمة بارزة في شخصيتهم.

كما انتشر بينهم تقليد بعضهم البعض بطريقة مرحة لا تحمل الإهانة، بل كانت تلك المهارة تحظى بتقدير كبير لدى المجتمع. ويقدم لنا آرثر ليريد Arthur Leared مثالاً على ذلك، فيقول إنه شاهد شخصاً يقلّد شخصية أخرى في سلوكياتها وإيماءاتها ونبرة صوتها، بأسلوب طريف أثار ضحكاً عالياً³.

¹ Gentaleman Who riseded There many years, op.cit, p 47.

² Thomas Shaw, Travels Or..., op.cit, p 233.

³ Arthur Leared, op.cit, p 221

كما تميز المغاربة بحبهم للضيافة وكرمهم. إنهم دائماً مستعدون لمساعدة الغرباء، وهم يرحبون بالزوار في منازلهم. إنهم أيضاً شعب متدين للغاية، ويحافظون على تقاليدهم وعاداتهم القديمة¹.

د اللباس:

سكان الحضر والمدن يتميزون بارتداء طرابيش حمراء فريدة، يُلف حولها عمامة مزينة بخيوط حريرية دقيقة أو موسلين ناعم. تُرتب طيات العمامة بعناية وفقاً للمكانة الاجتماعية والرتبة العسكرية. يكمل السكان زيهم التقليدي بارتداء "الجلابة" والبرنوس الأنيق².

يختلف زي سكان الحضر (Moors) والأتراك عن سكان الريف والقبائل، حيث يرتدون قمصاناً تحت ستراتهم، بينما يقتصر ارتداء القميص على المناسبات الخاصة كحفلات الزفاف لدى سكان الريف والقبائل³.

تتميز قمصان الرجال بأكمام واسعة ومفتوحة، بينما تزين النساء قمصانهن بالشاش والشرائط الملونة. لا يرتدي البدو السراويل، وتختلف سراويل الفتيات عن سراويل النساء المتزوجات في المدن⁴.

وفقاً لـ "شو"، تحافظ النساء على جمالهن المشابه للإنجليزيات حتى سن الثلاثين إذا بقين عازبات. غالباً ما يتم تزويجهن مبكراً في سن الحادية عشرة، وببلوغ سن 24 قد يكون لديهن أحفاد¹.

¹ John Buffa, op .cit, p 142.

² Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit , p 114.

³ Ibid, p 116.

⁴ Thomas Shaw, Travels Or..., op.cit, p 117.

تتكون الملابس التقليدية لشعب الموريين (Moors) أساسًا من عباءة أو قفطان مصنوع من الصوف أو القطن بألوان زاهية مثل الأزرق والأبيض، ونادرًا ما تكون من الحرير. يرتدون قميصًا فضفاضًا مربوطًا حول الرقبة، يلتف حول الجسم عدة مرات، ويتم ربطه عند الخصر بوشاح يوضع فيه سكين طويل يشبه الخنجر، وأحيانًا سكينان.

يرتدي الرجال والنساء قميصًا فضفاضًا مماثلاً، غالبًا من الكتان الأسود، مع قطعة قماش تغطي المرأة بها رأسها وكتفها. يلف الرجال هذه القطعة حول رؤوسهم كعمامة أو حول خصورهم. تتنوع تسريحات شعر النساء بين الربط في عقدة وتركه منسدلاً، بينما يبدو الرجال غير مهتمين بتسريح شعرهم².

وفوق هذا الزي الأساسي، يرتدون أحذية مصنوعة من الجلود المحلية، وقبعة حمراء مطرزة بالقطن. الرداء الفضفاض الطويل من القطن الأبيض أو الصوف المخطط، المعروف باسم "الحايك"، يتميز بمظهره الأنيق ويرتدى فوق القميص. يتميز هذا الرداء بغطاء رأس مدبب طويل يتدلى خلفهم، معلقًا بطرفه حبل رفيع. أما الفقراء، فيرتدون ملابس على طريقة الزنوج وبالنسبة للنساء، فيُضفن إلى زيهن قميصاً طويلاً من القطن بأكمام طويلة وواسعة، وقطعة من القطن أو الكتان تغطيهم من الرأس حتى القدمين، متدلّية بشكل مريح خلفهن. ويكتمل المظهر بالحلي، إذ يتزين الجميع بالأقراط والقلادات الثمينة، التي تختلف قيمتها بحسب مكانة ومرتبة مرتديها³.

¹ Ibid, p p 134-135.

² Maria Martin, op.cit, p 51

³ Maria Martin, op.cit, p 52.

ويقدم ماثيو كيري Mathew Carey وصفاً تفصيلياً آخر لهذه الأزياء، حيث يصف ملابس الرجال بأنها قطعة طويلة من القماش الخشن، تُلف حول الأكتاف وتمتد حتى الكاحلين، مع قبعة مصنوعة من نفس القماش البسيط. وعلى النقيض من بساطة ملابس الرجال، ترتدي النساء أزياء زاهية الألوان ومزخرفة بتطريزات معقدة وجميلة. أما الأطفال، فيُسمح لهم بالبقاء عراة حتى سن السابعة أو الثامنة. ويتميز شيخ القبيلة عن باقي أفراد المجتمع بقبعة من قماش فاخر، مما يعكس مكانته القيادية ورمزيته في المجتمع¹.

خامسا : الجانب الديني

1 تدين المجتمع المغربي:

في سياق الصراع بين الإسلام والمسيحية، شكلت الكتابات الغربية بصفة عامة والانجليزية بصفة خاصة عن الإسلام ظاهرة متعددة الأوجه، تراوحت بين الموضوعية والتحيز، وبين الفهم العميق والتشويه المتعمد.

¹ Mathew Carey, op.cit, p 12.

وفي هذا السياق، يُعرف الإسلام - أو المحمدية كما تسميها الكتابات الإنجليزية - بأوصاف متنوعة. فيذكر القسيس الإنجليزي أوكلي سيمون **Okely Simon** أن دين المسلمين بشكل عام هو إيمان بالله الواحد الأحد، خالق السماء والأرض، وأنه سيجازي الصالحين ويعاقب الأشرار. كما يؤمنون بعقيدة الإسلام المذكورة في القرآن الكريم، وأن الله أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس طريق الخلاص والنجاة.

ومن أهم العبادات في الشريعة الإسلامية هي الصلاة، والتي يؤديها المسلمون خمس مرات في اليوم واللييلة. وتُقام الصلوات في المساجد، حيث يجتمع المسلمون لأداء الصلاة جماعة. وتُقام الصلوات الخمس في أوقات محددة من اليوم. وقد ارتكب القسيس أوكلي سيمون **Okely Simon** خطأً عندما ذكر أن المسلمين يؤدون الصلاة في المساجد سبع مرات في اليوم و اللييلة. إن عدد الصلوات المفروضة في الإسلام هي خمس صلوات، أعتقد أن القسيس ارتكب هذا الخطأ نتيجة لجهله بعدد الصلوات في الإسلام وأوقاتها، مما أدى إلى ذكره الخاطئ لعدد الصلوات بأنها سبع بدلاً من خمس¹.

ومن جانب آخر، يقدم جيمس غراي جاكسون **James Gray Jackson** رؤية متوازنة ومنصفة، تتجاوز الصور النمطية السائدة في عصره، مؤكداً على نقاط التلاقي بين الإسلام والمسيحية، وعلى القيم الإنسانية المشتركة بينهما. فهو يشير إلى أن العديد من الكتاب حاولوا تشويه صورة الإسلام من خلال التركيز على جوانب سلبية وخرافات لا تمت للدين بصلة. وقد نشأت هذه التمثيلات المشوهة إما من قبل متحمسين سعوا للشهرة الكنسية، أو من قبل أشخاص يفتقرون إلى المعرفة الحقيقية باللغة العربية وثقافة المسلمين. غير أن جيمس غراي جاكسون

¹Simon okley, op.cit, p 57.

James Gray Jackson يؤكد أن الفحص الدقيق للعقيدة الإسلامية كما وردت في القرآن يكشف عن تقارب كبير مع المسيحية في مبادئها الأخلاقية، أكثر من أي دين آخر.

ويدعم جيمس غراي جاكسون **James Gray Jackson** رؤيته بحجة منطقية مفادها أن انتشار الإسلام على نطاق جغرافي واسع - من شواطئ غرب بربريا إلى أقصى شرق التتار الصيني، ومن البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح - يشهد على قوة مبادئه وعمق تعاليمه. فلو كان الإسلام قائماً على خرافات وسخافات، كما ادعى البعض، لما استطاع أن يمتد على مساحة تزيد عن 8000 ميل¹.

ويؤكد جيمس غراي جاكسون **James Gray Jackson** على الجذور المشتركة بين الإسلام والمسيحية، مشيراً إلى أن الرسالة المحمدية تتضمن قيماً أخلاقية وروحية تتوافق مع التعاليم المسيحية. فالتوحيد، والعفو، والعدالة، والإحسان كلها مبادئ مشتركة بين الديانتين.

كما يذكر جيمس غراي جاكسون **James Gray Jackson** التعريف الجوهرى للإسلام، حيث يؤكد أن معناه الأساسي هو الخضوع لله. وينطلق من فكرة فطرية مهمة تقول إن كل إنسان يولد على الفطرة السليمة (الإسلام)، لكن العوامل البيئية والتربوية قد تؤدي إلى انحرافه عن هذه الفطرة الأصلية².

ثم يتطرق أيضاً إلى علاقة العقل بالإيمان في المنظور الإسلامي، حيث يشير أن العقل وحده، دون هداية الإيمان، قد يعجز عن التمييز الكامل بين الصواب والخطأ. ومع ذلك، فإن الاعتماد المطلق على العقل وحده قد يؤدي إلى الكفر.

¹ James Gray Jackson, op.cit, p 159.

² Ibid, p 161.

أما فيما يخص الصدقة، فيذكر جيمس غراي جاكسون James Gray Jackson أنها تُعد من الفضائل الأساسية والواجبات الضرورية في الدين الإسلامي، إلا أن الشريعة وضعت ضوابط محددة لتنظيم هذه العبادة . فقد حددت نصاباً معيناً يجب توفره قبل وجوب الصدقة، وهو امتلاك خمسة جمال أو ثلاثين من الغنم أو مئتين من قطع الفضة. ومن لا يملك هذا النصاب لا يُعد ملزماً بإخراج الصدقة، وذلك انطلاقاً من مبدأ أن المتصدق لا ينبغي أن يضر بنفسه، أو كما يُقال "تبدأ الصدقة من المنزل". أما من يمتلك ما لا يفوق هذا النصاب، فيُتوقع منه أن يخرج "مزونة" من أرباحه السنوية، وهي ما يعادل ستة بنسات في الجنيه. ويتم حساب هذه الصدقة في نهاية شهر رمضان المبارك، حيث يُمنح الناس فترة عشرة أيام لتجهيز صدقاتهم قبل حلول عيد عاشوراء، وهو الوقت الذي يقصد فيه الفقراء طلب هذه الصدقات¹.

2 مكانة القرآن الكريم عند المغاربة :

يتميز القرآن الكريم بمكانة مميزة في قلوب المؤمنين،. يؤمن المسلمون بأن القرآن أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الملاك جبريل عليه السلام، وتحديداً في ليلة القدر المباركة.

وتأكيداً لهذا، يستشهد المغاربة بآيات سورة القدر التي تصف هذا الحدث العظيم². قال الله تعالى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5) " ³.

¹ James Grey Jackson, op.cit, p 162.

² Tully Richard, Narrative of Ten years ...,op.cit, p 80 .

³ سورة القدر، الآية 5.

وتجد هذه الآيات في جدران المنازل والمساجد، تعبيراً عن إيمانهم العميق بقدسية القرآن ومصدره الإلهي.

يولي المغاربة عناية فائقة للمحافظة على كتاب القرآن، فلا يتجرأون على طباعته إلا وفق ضوابط صارمة، ويحرصون على حماية كتاب القرآن الكريم بكل تقديس. ويعتبر أي تغيير في نصه، مهما كان بسيطاً، أمراً مرفوضاً تماماً. كما يؤمنون بقوته الروحية في الشفاء والحماية، فيلجأون إلى آياته طلباً للبركة والعافية وطول العمر.

ومن مظاهر تقديسهم للمصحف الشريف أنهم لا يمسونه إلا على طهارة (وضوء)، ويحرصون على حفظه من أي امتهان أو تدنيس وغالباً ما يلجأ الناس إلى العلماء والأئمة للحصول على آيات وأذكار قرآنية خاصة، رغم ما قد يتكلفونه من نفقات في سبيل ذلك¹.

3 صوم رمضان:

شكّل شهر رمضان، بوصفه ركناً أساسياً من أركان الإسلام، محوراً مهماً في الحياة الدينية والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية عبر العصور. فهو شهر أنزل فيه القرآن، وفُرض صيامه على المسلمين، وتميز بالعبادات وعادات اجتماعية خاصة، من إعداد ألوان الطعام والحلويات، وتبادل الدعوات للعشاء، وإحياء الليالي بالعبادة والألعاب، وإقامة صلاة التراويح في المساجد المنارة.

ولقد جذبت هذه الخصوصية الدينية والاجتماعية لشهر رمضان اهتمام العديد من الرحالة الإنجليز الذين زاروا المنطقة المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن بين هؤلاء

¹ Tully Richard, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 81.

الرحالة، برز سيمون أوكلي **Simon Okley** الذي قدم تحليلاً دقيقاً للجوانب الفلكية والاجتماعية للصيام. فقد لاحظ سيمون أوكلي **Simon Okley** اعتماد المسلمين على الرؤية البصرية للهلال في تحديد بداية الشهر ونهايته، وما يترتب على ذلك من تفاوت في توقيت بدء الصيام بين المناطق المختلفة. كما يلفت النظر إلى الأدوار الاجتماعية المتباينة بين الرجال والنساء خلال الشهر، حيث تتحمل النساء، إضافة إلى صيامهن، مسؤولية إعداد وجبات الإفطار للأسرة¹.

وفي السياق نفسه، قدمت ميس توللي **Miss Tully**، شهادة قيّمة عن طبيعة الصيام وتنظيمه اليومي، موضحة كيف يمتد الصيام من شروق الشمس إلى غروبها، وكيف يقوم حراس المدينة بإيقاظ الناس للسحور إذ تقول: " إن الصيام يستمر لمدة ثلاثين يوماً، ويحظر على المسلمين الأكل والشرب من شروق الشمس إلى غروبها. وقبل الفجر، يجوب حراس المدينة لإيقاظ النائمين لتناول وجبة السحور"².

تُعدّ رحلة المستكشف البريطاني تمبيل جريفيل **Grenville Temple** إلى تونس عام 1835م مصدراً قيّماً لفهم عادات وتقاليده شهر رمضان في تلك الفترة. يصف تمبيل جريفيل **Grenville Temple** كيف استيقظ في منتصف الليل على أصوات الطبول، معلنة بدء وجبة السحور التي يتناولها المسلمون استعداداً لاستكمال صوم يوم جديد. ويلاحظ بدهشة التزام التونسيين الصارم بالصيام طوال النهار، حيث يمتنعون ليس فقط عن الطعام والشراب، بل عن الماء والتدخين والعطور منذ الفجر حتى المغرب³. ويبدو تمبيل جريفيل **Grenville Temple** معجباً بتمسك الناس الشديد بهذه العبادة الدينية طوال شهر رمضان رغم صعوبتها، ما يعكس الأهمية البالغة لهذا الشهر في المجتمع المغربي آنذاك.

¹ Simone Okley, op.cit, pp 70-71

² Tully Richard, Narrative of Ten years ...,op.cit , p 15.

³ Grenville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2,..., op.cit, p 62.

يقدم لنا الرحالة الإنجليزي جون وندوس **John Windus** لمحة مميزة عن مظاهر الحياة الاجتماعية خلال شهر رمضان في بلاد المغرب خلال القرن الثامن عشر. فهو يصف بإعجاب كيف يلتزم المغاربة بصوم شهر رمضان بدقة شديدة، ممتنعين عن الطعام والشراب والتدخين وغسل الفم والتمخط وشم العطور طيلة النهار حتى غروب الشمس¹. كما يصور احتفالاتهم الحماسية في الليلة السابقة لدخول الشهر، فيقول: "عشية حلول شهر الصيام، يقيمون فرحاً كبيراً صائحين ومرددن اسم الله. كما يراقبون ظهور الهلال، وبمجرد ما يبدو لهم يشعلون النار في فتيل بنادقهم ثم يشرعون في أداء صلواتهم. ويستيقظون ثلاث أو أربع مرات في الليل ثم ينامون من جديد. والهدمنون على شرب الخمر يمسون عنها في هذا الشهر"².

ويعصف جون وندوس **John Windus** أيضاً أجواء وقت الإفطار فيقول: " يُسمع في تطوان، في وقت الإفطار مساءً، نغير ينبعث من القلعة معلناً نهاية الصيام. قبل هذه اللحظة، يكون من الطريف رؤية حالة المغاربة، فهذا يرفع غليوناً مليئاً ومهيئاً مترقباً صوت النغير بنفاذ صبر، والآخر أمام صحن الكسكس ويده تنتهياً لتناوله، والبعض الآخر يتخذ مكاناً بجوار النوافير ليكون أول من يشرب"³.

يروى لنا الرحالة الإنجليزي جيمس ريتشاردسون **James Richardson** مشهداً حياً ومُعبراً عن تجربته الأولى في صباح أحد أيام شهر رمضان بمدينة غدامس الليبية. فقد فوجئ جيمس ريتشاردسون **James Richardson** بالسكون والخلو التامين اللذين يخيمان على شوارع المدينة، وكأنها أصيبت بالشلل⁴، حتى إنه تساءل في دهشة عن سبب ذلك المشهد الغريب. وسرعان ما

¹ John windus, op.cit, p 127.

² Ibid, pp 127-128.

³ John Windus, op.cit, p 128.

⁴ James Richardson, Travels in The Great Desert of Sahara in The Years of 1845and 1846, Vol 1 , Richard Bentley , New Burlington Street, London, 1848, p 129.

أدرك أن سكان المدينة المسلمين كانوا ملتزمين تماماً بصيام أول أيام شهر رمضان، فاختراروا الانعزال في بيوتهم، منهمكين في العبادة والتأمل في هذا اليوم الفضيل، ما جعل الشوارع خالية من أي نشاط.

ويعبّر جيمس ريتشاردسون James Richardson عن إعجابه وتقديره لهذا المستوى الرفيع من الورع والالتزام الديني الذي يجسّده اعتكاف المسلمين وانقطاعهم للعبادة، مدركاً أن صوم رمضان ليس مجرد عبادة جسدية، بل هو رحلة روحية عميقة تمس كافة شؤون الحياة. وهذا ما نستشفه من قوله: " إن صوم رمضان هو ظاهرة تكاد تكون عامة، كبار السن وصغار، والأغنياء والفقراء وذوو شأن كبير، كلهم صائمون، يمزجون معه مشاعر دينية قوية والجرأة مما يجعله ظاهرة نادرة عن أصدق وأنبل الأحاسيس الدينية"¹.

ولم يقتصر اهتمام ريتشاردسون James Richardson على الجانب الروحي للصيام فحسب، بل قدم لنا أيضاً ملاحظاته الدقيقة حول حياة الناس وسلوكهم خلال شهر رمضان في طرابلس. فهو يشير إلى أن الناس في الشوارع خلال شهر رمضان لا تبدو عليهم آثار الصداق كما توقع. وأدرك أن معظم سكان الصحراء، وخاصة المزارعين، اعتادوا على تناول وجبة واحدة فقط في المساء. وبالتالي، فإن الصيام في حد ذاته لا يشكل تحدياً كبيراً بالنسبة لهم².

وفي سياق وصفه لتفاصيل الصيام، تطرق ريتشاردسون James Richardson إلى السحور، مستخدماً الكلمة الإنجليزية "Sehour"، حيث وصفه بأنه الوقت الذي يُسمح فيه بتناول الطعام

¹ James Richardson, op.cit, pp 134.

² Ibid, pp 136-137.

والشراب والتدخين في شهر رمضان. ويبدأ الإمساك عند الفجر، عندما يصبح من الممكن تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وبالتالي فإن السحور يمثل نهاية الليل وبداية النهار¹.

ومع هذا الوصف الشامل للصيام، أشارت ملاحظات الرحالة الأوروبيين إلى وجود بعض الاستثناءات المتعلقة بالصيام في شهر رمضان، كإفطار المرضى الذين يلتزمون بالقضاء عند استعادة عافيتهم، وكذلك السماح للمسافرين بشرب قليل من الماء². وبالرغم من إعجاب هؤلاء الرحالة بمدى التزام المسلمين ودقتهم في الصيام، إلا أنهم نظروا بتردد وشك تجاه تلك الاستثناءات المشروعة. وقد ركزت كتاباتهم بشكل رئيسي على المظاهر والعادات الخارجية للشهر الفضيل، مثل الامتناع عن الطعام والشراب، مع إهمال الجوانب الروحية والعبادية الأعمق لهذه العبادة في الإسلام. ويعكس ذلك الفجوة والاختلافات الكبيرة آنذاك بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية الأوروبية، مما أدى إلى عدم قدرة تلك الرؤى الأوروبية على استيعاب الأبعاد الحقيقية والمقاصد السامية لشهر رمضان عند المسلمين.

ومن الشهادات التي تدحض شكوك هؤلاء الإنجليز في مدى التزام المسلمين بالصيام، نذكر شهادة إيم يلي كين **Emily Keene**، التي انخرطت في المجتمع المغربي، حيث قدمت لنا شهادة قيّمة عن مدى تمسك المسلمين بفريضة صوم رمضان والتزامهم الدقيق بها. تقول في كتابها: " يبدو الأوروبيون في هذا الصدد مشككين أكثر، ولا يصدقون أن يتم احترام الصيام بهذا الشكل الدقيق. يمكنني أن أقول، وأنا التي شهدت أربعين رمضاناً وسط المسلمين من جميع طبقات المجتمع، بأنني لم أر أحداً يتهرب متعمداً من هذه الفريضة الدينية. حتى في حالة المرض التي تعتبر عذراً للإعفاء، يرفض المرضى أن يتناولوا أدويتهم وأغذيتهم خلال ساعات

¹James Richardson, op.cit, p 160.

² John windus, op.cit, p 127.

الصوم. كما أن مدمني الخمر ومدخني الحشيش يقدمون برهاناً على الامتثال بإيقاف عاداتهم. والمشروبات المخمرة أو التي تحتوي على كحول تُمنع ثلاثة أشهر في السنة: شهرين قبل رمضان وطيلة شهر رمضان عند الذين اعتادوا شربها".

وتضيف كين: "إذا أفطر أحدهم لحادث ما، فعليه أن يصوم يوماً آخر للتعويض قبل حلول رمضان الموالي. وهكذا، من المفروض تعويض جميع الأيام التي لم نستطع أن نلتزم خلالها بالصيام"¹.

وبهذا تؤكد شهادة إيميلي كين **Emily Keene** صدق وعمق التزام المسلمين بكل تفاصيل وأحكام شهر رمضان، من حيث الالتزام التام بالصيام أثناء الشهر، وكذلك الحرص على قضاء ما فات من أيام بعده. وقد قدمت بصدق وموضوعية رائعة ما ينفي الشكوك الأوروبية حول مصداقية وعمق التزام المجتمعات الإسلامية بهذه العبادة العظيمة.

4 احتفال بالعيد:

يمثل عيد الفطر خاتمة مسك لشهر رمضان المبارك، حيث تتجلى فيه مظاهر الفرح والابتهاج في كافة أنحاء العالم الإسلامي. وقد حظيت هذه المناسبة باهتمام خاص من قبل الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة المغربية، وتركوا لنا وصفاً دقيقاً لمظاهر الاحتفال وتقاليده.

وفي هذا صدد يصف لنا سيمون أوكلي **Simon Okley** أجواء عند رؤية هلال شوال، إذ يقول: "تعم البهجة أرجاء المدن والقرى، حيث يستقبل المسلمون العيد بمظاهر احتفالية

¹ Emily keene, op.cit, p 292.

متنوعة. يبدأ الاستعداد للعيد بتنظيف وتجهيز البنادق التقليدية التي تستخدم في الاحتفال، وتجوب الطبول والمزامير الشوارع معلنة قدوم العيد. يحرص الناس على ارتداء أفضل ثيابهم، حتى أن الفقراء يدخرون من أموالهم لشراء أحذية جديدة خاصة بهذه المناسبة¹.

وقد وصف القنصل الفرنسي فليب فاليار **Phillippe Vallière** عيد الفطر بأنه أيام فرح وسرور ولعب ورقص ومأكولات، رغم قصر مدته².

ومن مظاهر الاحتفال بالعيد، يقيم الحاكم مباريات ترفيهية في فناء القصر أمام القناصل الأجانب، حيث يختار أقوى الرجال كمتصارعين، يُدهنون بالزيت من رؤوسهم حتى أقدامهم، وتُغطى ساحة النزال بالرمال التي يُغرس في وسطها علم أحمر. وعند إشارة الداي تبدأ المباراة العنيفة وسط ضجيج الطبول والأبواق، حيث يُكافأ الفائز بكيس من الذهب، بينما تُرمى نقود معدنية للخاسرين³. يعود المحتفلون بعد الأنشطة الصباحية إلى منازلهم، حيث يقضون بقية اليوم في الاحتفال مع العائلة والأصدقاء، متناولين الأطعمة المتنوعة والحلويات التقليدية في أجواء من البهجة والسرور. تستمر احتفالات العيد لمدة ثلاثة أيام، وهي فترة يتوقف فيها الناس عن أعمالهم اليومية للتفرغ للاحتفال والزيارات العائلية. وبعد انقضاء أيام العيد، يعود الجميع إلى حياتهم المعتادة وأنشطتهم اليومية⁴. وبعد مرور سبعة أيام من عيد الفطر، يحتفل المسلمون بعيد الأضحى بالطريقة نفسها، ويستمر الاحتفال لمدة ثلاثة أيام⁵.

¹ Simon Okley, op.cit, p 73.

² Cesere Phillippe Vallière, op.cit, p 33.

³ Elizabeth Broughton, Six Years...,op.cit, p 18.

⁴ Simon Okeley, op.cit, p 73

⁵ Cesere Phillippe Vallière, op.cit, p32.

وقد ألفت ابنة القنصل الإنجليزي إليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton** الضوء على تقليد مميز للاحتفالات التي تلي عيد الفطر في المجتمع الجزائري، حيث تقدم كبار سيدات المجتمع من زوجات مسؤولي الداي والنخبة صواني كبيرة مليئة بأشهى الحلويات وأطيب المعجنات التقليدية، يصل عددها في كل هدية إلى سلتين أو ثلاث¹. وتعكس هذه التقاليد الاحتفالية التكافل والترابط الاجتماعي العميق بين طبقات المجتمع المختلفة.

أما في طرابلس، فقد وصفت السيدة تولي **Miss Tully** مشاهد احتفالية مميزة، حيث يستمر الاحتفال لفترات طويلة تصل إلى سبعة أيام في بعض المناطق الريفية. وتتميز هذه الاحتفالات بارتداء المحتفلين ملابس وأقنعة غريبة، واتخاذهم أسماء حيوانات، مما يضفي طابعاً مميزاً على هذه المناسبة².

وفي إحدى ليالي العيد، تصف السيدة تولي **Miss Tully** الأجواء قائلا: " تنزهنا حتى منتصف الليل، وكانت أزقة السوق مكتظة بالناس. كانت روائح العطور الفواحة من العنبر وأزهار البرتقال والياسمين تملأ المكان. وكان السوق مُناراً بالمصابيح الكثيرة التي حولت ظلامه إلى نهار. اجتمع المسلمون بعد الإفطار عند غروب الشمس للترفيه والتسلية، حيث يتناولون القهوة ويستمتعون بأجواء الاحتفال المميزة³.

ويتجلى في وصف السيدة تولي **Miss Tully** مظاهر البهجة والسعادة التي تسود احتفالات العيد، من خلال الازدحام الشديد وانتشار الأنوار وروائح العطور، حيث ينسى الناس همومهم

¹ Elizabeth Broughton, Six Years..., op.cit, p 426.

² Richald Tully, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 16.

³ Ibid, p 17.

ويندمجون في الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، مستمتعين بتناول القهوة وقضاء أوقات ممتعة مع الأهل والأصدقاء.

5 الصلاة :

جعل الإسلام للصلاة منزلةً رفيعةً ومكانةً متميزةً، فاتخذها أول عبادة دينية يفرضها الله تعالى على عباده المؤمنين، تأكيداً لأهميتها القصوى وضرورتها في حياة المسلم. وقد أعلى الإسلام من شأن الصلاة بجعلها الركن الثاني من أركان الدين الإسلامي بعد النطق بالشهادتين، واختصها بكونها أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة، فهي مقياس صدق إيمانه واستقامة سلوكه. وقد فُرض هذا الركن العظيم على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به إلى السماء العليا.

ونظراً لهذه المكانة العظيمة للصلاة في الإسلام، فقد لفتت انتباه الرحالة الأوروبيين عامةً والإنجليز خاصةً مدى التزام المجتمع المغربي بها، إذ كان أفرادها يتركون أعمالهم وما بين أيديهم لأدائها في أوقاتها المحددة. وفي هذا السياق، تحدث العديد من الرحالة الإنجليز عن كيفية أداء الصلاة، ومن أبرزهم جون وندوس **John Windus** الذي وصف بدقة مشهد توجه المصلين إلى المسجد قائلاً: "بمجرد أن يشرع المؤذن في الأذان من منئذته، يترك النجار منشاره والخراز مخرزه والخياط مقصه، ثم يسرع الجميع كاللاعبين إلى مباراة لكرة القدم إلى المسجد"¹.

ويستطرد جون وندوس **John Windus** في وصف تفاصيل أداء الصلاة، فيذكر أنهم يتلون - وهم واقفون - سورة الفاتحة، ثم يرفعون أيديهم إلى أعلى رؤوسهم قدر المستطاع، وعندما

¹ John windus, op.cit, p 48.

يخفضون أيديهم يسجدون متجهين نحو القبلة (كما يسمونها) في اتجاه الشرق مع ميل نحو الجنوب. بعد ذلك يسجدون مرتين ويجلسون على أعقابهم لحظة يتمتمون خلالها ببعض الأذكار. ثم يقفون من جديد ويكررون تلك الحركات مرتين أو ثلاثاً، وأخيراً يلتفتون يميناً وشمالاً قائلين: "السلام عليكم". وعندما يجتمع عدة مصليين، يشبّهم الناظر إليهم بالمجدفين الأسرى في حركاتهم وهم راكعون¹.

وتكمل ميس توللي **Miss Tully** هذا الوصف بانطباعات عميقة عن روحانية المشهد وخشوعه. فقد أثار انتباهها المظهر المهيب للمصليين وهم في حالة من التركيز العميق والانقطاع التام عن محيطهم، حيث تنتقل أعينهم بين السماء والأرض في تأمل روحاني عميق. وتلفت النظر إلى البساطة والمساواة في المسجد، حيث يقف المصلون جنباً إلى جنب دون تمييز في المكانة أو الملابس، في مساحة خالية من المقاعد والمكاتب والمساند².

وفيما يتعلق بالطهارة، يضيف جون وندوس **John Windus** أن الوضوء يُعد شرطاً أساسياً قبل أداء الصلاة في المجتمع المغربي، حيث يغسلون رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم قبل كل صلاة. وإذا ارتكبوا ما يوجب الغسل أو لمسوا شيئاً نجساً أو جامعوا النساء، فإنهم يلتزمون بغسل أجسادهم كاملةً تطهراً للصلاة³.

وتمثل الصلوات الخمس اليومية أبرز مظاهر العبادة والتدين عند المغاربة، حيث يؤدونها بانتظام في المساجد. وتتوزع هذه الصلوات على مدار اليوم كالآتي: صلاة الصبح أو "Sobboh Nomas"، وتؤدى عند طلوع الفجر صيفاً وشتاءً، وصلاة الظهر أو "Nomas"

¹John windus, op.cit, pp 48-49.

²Tully Richard, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 7

³John Windus, op.cit, p 44.

"Ewle"، وتؤدى قبل الساعة الثانية ظهراً، وصلاة العصر أو "d'eqindenomas"، وتؤدى حتى الساعة الرابعة عصراً، وصلاة المغرب أو "d'acsbam Nomas"، وتؤدى مباشرة بعد غروب الشمس، وصلاة العشاء أو "Ashee El Nomas"، وتؤدى بعد ساعة ونصف من حلول الظلام¹.

وقد قدم جوزيف بيتس Joseph Pitts وصفاً دقيقاً لكيفية الوضوء عند المسلمين، موضحاً أنهم يبدؤون بغسل اليدين ثلاث مرات، ثم يملؤون راحة اليد اليمنى ماءً للمضمضة ثلاث مرات، ثم للاستنشاق. بعد ذلك يغسلون الوجه ثلاثاً، فالذراعين إلى المرفقين، ثم يمسحون الرأس مع اليدين. ويختمون بمسح الأذنين والرقبة وغسل القدمين إلى الكاحلين، مع النطق بالشهادتين: "لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وفي ملاحظة جديرة بالاهتمام، سجل الرحالة الإنجليز أن المسلمين يحملون عادةً سبحة في أيديهم، يرددون مع كل حبة من حباتها دعاءً قصيراً يتضمن صفات الله تعالى مثل: "الله عظيم"، "الله كريم"، "الله رحيم"².

6 - يوم الجمعة :

يُعرف يوم الجمعة في اللغة العربية بهذا الاسم المشتق من الجذر اللغوي "جمع"، إشارةً إلى اجتماع المسلمين فيه. وهو يوم العبادة والراحة في الإسلام.

يتميز النظام الإسلامي في تسمية أيام الأسبوع بالبساطة والترتيب، حيث يُطلق على معظم الأيام أسماءً عددية: فالأحد هو "اليوم الأول"، والاثنين هو "اليوم الثاني"، وهكذا.

¹ Joseph Pitts, op.cit, p 41.

² Maria Martin, op.cit, p 50.

وفيما يتعلق بالنشاط التجاري في يوم الجمعة، فإن المسلمين لا يغلقون متاجرهم بشكل كامل، ولكنهم يخففون من نشاطهم التجاري مقارنة ببقية أيام الأسبوع. أما بخصوص العمل لدى المسيحيين، فالأصل أنهم يمتنعون عن ذلك، إلا في حالات خاصة كتوفير الطعام أو بعض الأعمال الاستثنائية¹.

7 التسامح الديني :

شكلت الدول المغربية نموذجاً حياً للتعايش الديني بين مختلف الأعراق والديانات، حيث تمتع المسيحيون واليهود بحرية مطلقة في ممارسة شعائهم الدينية. وقد وثّق الرحالة الإنجليزي تيمبل غرافيل Temple Greville هذا التسامح من خلال تجربته الشخصية في تونس، حيث شهد جنازتي القنصلين الفرنسي والإنجليزي. فعلى الرغم من الاعتقاد السائد آنذاك بأن الإسلام يدعو أتباعه إلى معاداة غير المسلمين، إلا أن الواقع كان مغايراً تماماً. فقد سارت المواكب الجنائزية للقنصلين عبر شوارع المدينة، واصطف على جانبيها الأتراك والعرب والبدو، دون الحاجة إلى أي حماية أمنية، ولم يواجه المشيعون أي مظاهر للعداء أو الاستهزاء من السكان المحليين².

غير أن بعض الكتابات الإنجليزية، وعلى رأسها كتابات جون وندوس John Windus ، قدمت صورة مغايرة. فقد ركز جون وندوس John Windus على نظرة المغاربة للمسيحيين المتسمة - في رأيه - بالحق والكراهية، رابطاً إياها بالدين الإسلامي. يقول في هذا الصدد: "يعتقدون أيضاً جازمين أن الذين يحاربون المسيحيين ويقتلونهم يدخلون الجنة مباشرة، وأنهم

¹ James Gray Jackson, op.cit, p141.

² John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, ..., op.cit, pp 101-102 .

يستحقون جزاءً لا يُقدَّر بقضائهم على أعداء دينهم"¹. وقد ألصق جون وندوس John Windus بالمسلمين والإسلام صفة العنف والاستبداد، مرجعاً ذلك إلى الصراع الديني والدعاية المضللة التي روجت لفكرة أن الإسلام يشجع على إيذاء غير المسلمين.

والملاحظ أن جون وندوس John Windus قد خلط في كتاباته بين الإسلام كدين وبين سلوكيات الأفراد ومدى فهمهم له أو جهلهم به. فالصاق صفة الدموية والاستبداد المطلق بالإسلام واعتباره ديناً يشجع على قتل غير المسلمين يُعد تزيفاً للحقائق. فالإسلام، خلافاً لما تزعم الأكثرية، ليس عنيفاً أو متعطشاً للدماء، وليس من أهدافه فرض نفسه على الناس قسراً ليكون الديانة العالمية الوحيدة².

وقد أكد القرآن الكريم هذا المبدأ في آيات عدة تنهى عن الإكراه في الدين وتدعو إلى حرية العقيدة. ومن الشواهد الدالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾³. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁴.

¹ John Windus, op.cit, p 24 .

² عبد الله الخريجي، علم الاجتماع الديني، سلسلة دراسات المجتمع العربي السعودي، جدة، 1990، ص ص 344-345.

³ سورة هود، الآية 118.

⁴ سورة البقرة، الآية 256.

سادسا : الجانب الثقافي

1 التعليم :

انتشر التعليم بشكل محدود بين سكان الدول المغربية، إذ اكتسب معظمهم مهارات القراءة والكتابة وتلاوة القرآن. ومع ذلك، فقد اقتصر تعليمهم على هذا المستوى البسيط دون التوسع في العلوم والمعارف. ففي كل دوار كان هناك معلم مدرسة، يجتمع التلاميذ حوله على شكل حلقة لترديد الدروس¹.

وقد أسفر إهمال العلوم والفنون لدى المسلمين عن تراجعهم وتخلّفهم عن ركب التقدم الحضاري العالمي. في المقابل، ازدهرت العلوم وتطورت في أوروبا التي سبقت المسلمين حضارياً.

لذلك، عندما تتحدث الكتابات الإنجليزية عن العلوم العقلية، فإنها تصفها بالتدهور والانعدام تقريباً في البلاد الإسلامية. وفي هذا الصدد، يقول توماس شو Thomas Shaw معبراً: "ما زالت الحياة الفكرية متدهورة كما كانت منذ زمن بعيد. حيث أصبحت فروع المعرفة التي اشتهر بها العرب في الماضي كالفلسفة والرياضيات والطب مجهولة الآن"². ونفس شئ يذكره لنا جون براثوايت John Braithwaite إذ يقول : " كان المغاربة يولون اهتماماً استثنائياً بالتراث الفلسفي اليوناني، وخاصة أعمال أرسطو. ويتجلى هذا الاهتمام في وجود ما يزيد عن اثني عشر ألف نسخة مترجمة من أعماله إلى اللغة العربية. وقد برز في تلك الفترة فلاسفة عرب عظام كالفارابي والكندي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، الذين أثروا هذه الأعمال بشروحهم وتفسيراتهم العميقة. ولم يقتصر تميز العرب على الفلسفة وحدها، بل برعوا أيضاً في مجالي التاريخ

¹ John Clark Kennedy, Algeria and Tunis in 1845, Vol2, op.cit, p 124.

² Thomas Shaw, Travels, Or,..., op.cit, p 194.

والطب. غير أن هذا المجد العلمي قد أفل، وتحول المشهد المعرفي في المغرب إلى حالة من التردّي، حتى أصبح أكثر علمائهم تميزاً لا يتعدى كونه يجيد القراءة والكتابة بشكل يفوق قليلاً مستوى العامة¹.

ويقدم "شاو" في تحليله تفسيراً شاملاً لهذا التراجع العلمي، مرجعاً إياه إلى مجموعة من العوامل المترابطة. فالطبيعة البدوية المتنقلة للمجتمع ا لمغربي لم تكن تسمح باستقرار المؤسسات العلمية وازدهارها. كما أن الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية فقد أدت إلى انهيار شبه الكامل للحياة العلمية . وأضاف إلى ذلك تقصيل انشغالهم بالتجارة لجمع الثروات على حساب تطوير العلوم والمعارف. ويسجل " شاو" ملاحظة لافتة في هذا السياق، حيث يذكر أن بعض المغاربة أنفسهم كانوا يستغربون اهتمام المسيحيين بتحصيل العلم والمعرفة، معتبرين ذلك مجرد إهدار للوقت والمال².

في سياق هذا التراجع العلمي العام، يبرز مثال علم الفلك كشاهد على التحول الذي أصاب الحضارة المغربية. فبعد أن كان هذا العلم مصدر فخر واعتزاز للحضارة الم غربية، وبرع فيه علماءها بشكل لافت، شهد تراجعاً تدريجياً عبر الأجيال. ويرجع هذا التراجع بشكل رئيسي إلى تمسكهم بالوسائل التقليدية وعدم مواكبتهم للتطورات العلمية الحديثة، حتى انحصر دوره في ممارسات التنجيم البدائية المعتمدة على الخرافات بدلاً من المنهج العلمي³.

أما الجغرافيا، فهي مجال مجهول إلى حد كبير بالنسبة لهذه الشعوب، التي لا تعرف سوى القليل عن العالم المحيط بها⁴. وفي مجال الشعر، برع الشعراء المغربية في الإبداع، إذ ركزت

¹ John Braithwaite, op.cit, p 432.

² Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 194.

³ John buffa, op.cit, p 198.

⁴ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, 79.

قصائدهم على مدح قادتهم وكبار رجالات قبائلهم، معتمدين على الأسلوب الارتجالي تماماً مثل شعراء الأجداد¹.

وفي مجال الكيمياء، الذي كان علماً متقدماً في هذه البلاد، انحصر الأمر في صناعة ماء الورد فقط. يذكر توماس شو أثناء رحلته إلى الدول المغربية أنه في لقاءاته النادرة مع الأطباء، لاحظ أن معرفتهم بأعمال الرازي وابن رشد وغيرهم من العلماء المسلمين كانت سطحية. كانوا يعتمدون بشكل رئيسي على النسخة الإسبانية من كتاب ديوسكوريدس، مركزين على دراسة الصور التوضيحية للنباتات والحيوانات أكثر من دراسة خصائصها. وفي موقف يعكس عمق الجهل، سأل طبيب الداوي، وهو كبير الأطباء، توماس شو عما إذا كان لدى المسيحيين عالم يضاها "بو قراط" (وهو تحريف لاسم أبقرط)، معتقداً أنه كان أول الأطباء العرب وأنه عاش قبل ابن سينا بفترة قصيرة².

وفي سياق التراجع العلمي والثقافي، انعكست محدودية المعرفة على التعليم والكتابة . يتميز المغاربة بأسلوبهم الخاص في الكتابة، حيث يكتبون من اليمين إلى اليسار على غرار اللغة العبرية، ويمتازون بسرعتهم في الكتابة وأناقة أختامهم . وقد انتشرت المدارس العامة حديثاً في مختلف المدن والقرى المغربية، إلا أن تأثيرها في تحسين أخلاق المجتمع ظل محدوداً، نظراً لكون المعلمين من المرابطون الذين يتسمون بالتعصب³.

وتبدأ العملية التعليمية للأطفال في سن السادسة، حيث يرسلهم آبائهم إلى المدارس لتعلم القراءة والكتابة. وتتميز هذه المدارس باستخدام ألواح خاصة للكتابة، تتصف بكونها رقيقة

¹ John Buffa, op.cit, p 199.

² Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 195 .

³ John Buffa, op .cit, 186.

ومربعة وصغيرة الحجم، يميل لونها إلى الأبيض، مع إمكانية محو ما يُكتب عليها بسهولة. وقد لاحظ توماس شو Thomas Shaw أن المغاربة لم يستخدموا الورق في الكتابة.

وبعد أن يتقن الطفل مهارتي القراءة والكتابة، ينتقل إلى مرحلة تعلم القرآن الكريم. وحين يُظهر تفوقاً استثنائياً في دراسته، يحتفي به أهله بطريقة مميزة، حيث يلبسونه ثياباً فاخرة ويضعونه على صهوة حصان مزين، ثم يطوف به رفاقه في شوارع المدينة احتفالاً بتفوقه، مع تقديم الهدايا والهتاف باسمه واسم والديه¹.

وفي تأكيد لما ذكره توماس شو Thomas Shaw ، يضيف جون وندوس John Windus وصفاً مشابهاً لنظام التعليم، إذ يقول: " يوجد عدد كبير من المدارس حيث يتعلم الأطفال القراءة والكتابة والحساب ويحفظون القرآن عن ظهر قلب. وعندما يتمون حفظه، يستعير أهاليهم حصاناً جميلاً وعدته، ويحملون الطفل فوقه، ثم يطوفون به في المدينة والكتاب بين يديه، بينما يسير مرافقه خلفه وتتقدمهم مختلف أنواع الموسيقى المحلية " ².

بعد قضاء 3 أو 4 سنوات في المدرسة، تتفرع مسارات الأطفال حسب ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية. ينتقل بعضهم إلى تعلم التجارة واكتساب المهارات العملية اللازمة لإدارة الأعمال التجارية. بينما يلتحق البعض الآخر بالجيش، حيث يتولون مهام جمع الضرائب وغيرها من الواجبات العسكرية. إلا أن عدد الذين يسلكون هذا الطريق قليل ³. أما الأطفال المنحدرون من أسر ميسورة الحال والغنية، فيحظون بفرصة مواصلة تعليمهم في المساجد. هناك، يتعمقون في دراسة القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث والفقه. كما يتعلمون مهارات الخطابة وإلقاء المواعظ

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, 194.

² John windus, op.cit, p 63.

³ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 195.

الدينية أمام الجمهور . وبعد إكمال دراستهم، ينضم هؤلاء الطلاب إلى هيئة الطلبة، واثقين من أنهم قد اكتسبوا المعرفة والمهارات اللازمة.

ومع ذلك، فإن القليل من الناس يخصصون وقتهم للدراسة المتعمقة. يكتفي معظمهم بقراءة القرآن الكريم وبعض التفاسير التي غالباً ما تكون غامضة بالنسبة لهم¹.

2 المساجد :

تُعد المساجد ركيزة أساسية في النسيج الاجتماعي والديني للمجتمع المغربي، حيث تتجاوز كونها دور عبادة لتصبح مراكز حيوية للتعليم والتواصل الاجتماعي. وقد حظيت هذه المؤسسات الدينية باهتمام كبير من الرحالة الإنجليز الذين زاروا المنطقة وسجلوا ملاحظاتهم عن هندستها وطقوسها.

وفي إطار هذا الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة للمساجد المغربية، يبرز نظام الأذان كأحد أهم الممارسات اليومية التي لفتت انتباه الرحالة إذ يقول جيمس غراي جاكسون **James Gray Jackson** : "... حيث يقوم المؤذن بأداء دوره خمس مرات يومياً من أعلى المئذنة. يبدأ النداء متجهاً نحو الشرق (القبلة) ثم يدور إلى الجهات الأخرى: الجنوب والغرب والشمال، مردداً كلمات الأذان المعروفة: "الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، الله أكبر، لا إله إلا الله"².

والى جانب هذا النظام الدقيق للأذان، يقدم لنا الرحالة جون وندوس **John Windus** وصفاً تفصيلياً للجوانب المعمارية للمساجد، مشيراً إلى تصميمها المربع وسقوفها المنخفضة المدعومة

¹ John windus, op.cit, p p 63-64.

² James Gray Jackson, op.cit,p 141.

بأعمدة مقوسة، مقسمة إلى بلاطات متساوية يبلغ عرضها حوالي أربع مترات. كما أشار إلى خصوصية هذه الأماكن المقدسة، حيث لا يُسمح لغير المسلمين بدخولها¹.

ويستكمل سيمون أوكلي Simon Okley المشهد المعماري بتفاصيل أكثر دقة حول المكونات الداخلية للمساجد فيقول : "... حيث تتميز هذه المساجد بطابعها الجمالي والوظيفي. فهي تزدان بالحصائر المنسوجة بعناية فائقة ومتعددة الألوان، وتضاء بمصابيح الزيت المستخرج من الزيتون. ويلفت النص النظر إلى خصوصية توزيع هذه المصابيح التي لا تخضع لنمط هندسي صارم، بل تتوزع في مختلف الاتجاهات . وتُعد المئذنة عنصراً معمارياً بارزاً في هذه المساجد، حيث تتخذ شكلاً مربعاً، ويتجه أحد جوانبها نحو الشرق. ويعلو المئذنة عمود مجهز بنظام بسيط يتكون من بكرة وحبل، يستخدم لرفع الأعلام كوسيلة لإعلام الناس بمواقيت الصلاة، إذ يرفع العلم الأبيض في أوقات الصلوات الخمس، بينما يخص العلم الأخضر لصلاة الجمعة، التي تحظى بمكانة خاصة في المجتمع . ويتولى "الطالبي" أو أحد رجال الدين مهمة الصعود إلى المئذنة لرفع العلم والأذان، حيث ينتقل بين جوانبها الأربعة مردداً تكبيرات "الله أكبر" أربع مرات في كل جانب"².

وفي سياق متصل، يضيف الرحالة توماس شو Thomas Shaw ملاحظات قيمة حول الجانب الوظيفي للمساجد بأنها "مفروشة بالحصائر التي يجلس عليها المصلون ويسجدون". ويضيف شو أن "في وسط كل مسجد يوجد منبر كبير مرتفع بستة درجات، وفي كل جمعة، يصعد المفتي أو الإمام ويشرح بعض الآيات القرآنية، ويحث الناس على التقوى والعمل

¹John windus, op.cit, p 50.

² Simon Okley, op.cit, p 58.

الصالح". ويشير توماس شو Thomas Shaw أيضاً إلى أن "المسجد يتجه إلى مكة المكرمة، ويتجه المسلمون بوجوههم إليه أثناء صلاتهم، ويُسمى هذا الاتجاه بالقبلة"¹.

يعود جون وندوس John Windus ليقدم تفاصيل أكثر عمقاً عن العناصر الرئيسية في المسجد أن "بجانب هذه الأعمدة، في مركز المسجد، يوجد منبر يُلقى من فوقه خطب الوعظ كل جمعة". ويشير أيضاً إلى وجود "محراب" في المسجد، وهو "نوع من القباب تتجه ناحية المشرق إكراماً لمسقط رأس رسولهم".

ويصف وندوس صلاة الجمعة في المسجد، حيث يدخل القاضي أو كبير الفقهاء إلى المحراب ويتجه ناحية المشرق ويشرع في أداء الصلاة، ويسجد كل الناس خلفه في جناح المسجد، ثم يلتفت إلى الحاضرين وهم على نفس الهيئة ويبارك صلاتهم².

ويوجد بجانب المسجد غرفة فارغة وبرج مريح يعلوها جناح سارية، يصعد المؤذن ويدعو الناس إلى الصلاة ثم يرفع علماً، كما أن المسلمين ينفقون على المفتين والأئمة وجميع الأشخاص المرتبطين بصيانة المسجد³.

هذه الشهادات تؤكد الدور المحوري للمساجد في المجتمع المغربي، ليس فقط كأماكن للعبادة، بل كمؤسسات اجتماعية وتعليمية متكاملة تساهم في تشكيل الهوية الثقافية والدينية للمنطقة.

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 101.

² John windus, op.cit, p p 50-51.

³ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p102.

3 الموسيقى:

يذكر "شو" أن الموسيقى في المنطقة المغربية تتميز بخصوصية مميزة، رغم أن أهلها لا يكتبون مؤلفاتهم الموسيقية ولا يسعون إلى التنوع في الأجزاء الموسيقية نفسها. وهذا ما يجعل من الصعب اعتبار الموسيقى علماً قائماً بذاته، إذ إن موسيقى البدو تحديداً نادراً ما تتجاوز اللحن الواحد، وهو ما يتناسب مع طبيعة آلاتهم الموسيقية البسيطة.

وفي سياق هذه البساطة الموسيقية، تعد الربابة من أقدم الآلات الوترية وأكثرها انتشاراً، وهي تُعزف بالقوس. كما تنتشر الغسابة، وهي نوع من القصب المفتوح من الطرفين يشبه الناي الألماني، تحتوي على ثلاثة ثقوب أو أكثر على جانبها، يختلف عددها حسب مهارة العازف. ورغم بساطة هذه الآلات، إلا أن عازفيها يتبعون أسلوباً وطقوساً معينة في العزف، خاصة في الأغاني التاريخية حيث تبدأ بمقدمة من الربابة، ويصاحب السرد عزف خفيف على الغسابة.

أما الطار، وهو من الآلات الأساسية أيضاً، فيصنع على شكل المنخل من حافة خشبية رقيقة مغطاة بجلد الرق. ويستخدم لتقديم النغمات الجهيرة في الحفلات الموسيقية، حيث يعزف عليه بمهارة باستخدام الأصابع أو مفاصل اليد أو راحتها، وفقاً لمتطلبات الإيقاع والوقت. وقد انتشر استخدام الطار في جميع أنحاء المغرب ومصر والمشرق¹.

وتتميز الموسيقى المغربية بكونها أكثر تطوراً وإتقاناً من موسيقى البدو، حيث تتسم ألحانها بالحيوية والمتعة. ويروى أن لموسيقاهم تأثيراً خاصاً، حتى أن أزهار الميولين تسقط عند عزف المزمارة. كما يمتلك المغاربة مجموعة متنوعة من الآلات تفوق ما لدى البدو، فإلى جانب

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 202 .

المزامير والأبواق المختلفة، لديهم الربابة ذات الوترين، والعود ذو الوترين الجهير الذي يعزف بالمضرب، إضافة إلى القيثارات المتعددة بأحجامها المختلفة.

وقد طور المغاربة الطار البدوي بإضافة أزواج من صفائح النحاس المجوفة الرقيقة المعلقة بأسلاك على حافته، مما يخلق إيقاعاً منتظماً يملأ الفراغات الصوتية. ورغم تعدد الآلات وتعلم العازفين بالسماع وانتقالهم السريع بين المقامات، إلا أنهم يحافظون على التناغم والدقة في الأداء. ويمكن لعشرين أو ثلاثين عازفاً أن يعزفوا معاً طوال الليل دون أخطاء، وهو الوقت المفضل لعروضهم الرسمية.

أما الموسيقى التركية، فتقع في منزلة وسط بين البدوية والمغربية من حيث الحيوية والتركيب. وقد عُرف الأتراك تاريخياً كأمة مزدهرة تميل للنشاط والبهجة، لكن موسيقاهم تحمل لمسة حزينة وكئيبة تمتد عبر مختلف مؤلفاتهم¹.

تُظهر هذه المجموعة من الآلات الموسيقية التنوع الثقافي الغني لتلك المنطقة الجغرافية، إذ تأثرت عبر التاريخ بمختلف الحضارات التي مرّت من هناك أو استقرّت فيها لفترات زمنية معينة.

4 لغة سكان المغاربة

تعد اللغة العربية اللغة الرسمية لسكان الدول المغربية. وهي لغة القرآن الكريم ، ويُنسب استخدامها الأول إلى يعرب بن قحطان ، كما تُكتب أحرفها بطرق مختلفة لكتابة الحرف الواحد

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 203.

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

بحسب موقعه داخل الكلمة. وتكمن الصعوبة الأكبر في تعلّم اللغة العربية في اكتساب النطق السليم، إذ يتطلب من المتعلم التمييز بين الحروف المتشابهة من حيث الجهر والهمس¹.

ويضيف ماثيو كيري **Mathew Carey** أن المغاربة يتحدثون العربية إلى جانب الموريسكية وبقايا من اللغة الفينيقية القديمة. كما يُلاحظ أن السكان الأصليين من مختلف الفئات يفهمون، في الغالب، اللهجة الفرنكا المنتشرة في دول البحر الأبيض المتوسط والمركبة من عدة لغات كالعربية والإسبانية والإيطالية والتركية والفرنسية. وتعد هذه اللهجة بمثابة قناة اتصال بين التجار و البحارة والأشخاص الذين لا يستطيعون فهم بعضهم البعض إلا من خلالها. ولها نوعٌ من الانتشار في مختلف أنحاء العالم².

5 الطب والاضاع الصحية :

عانت الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أوضاع صحية متردية، حيث انتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة بشكل واسع بين السكان، مما تسبب في معاناة وآلام كبيرة.

ويُعزى تدهور الأوضاع الصحية آنذاك إلى عدة عوامل، أبرزها ندرة الكوادر الطبية المؤهلة والنقص الحاد في الأدوية والمستلزمات الطبية، إضافة إلى إهمال السلطات في توفير المرافق الصحية والطبية اللازمة لمواجهة تفشي الأوبئة.

¹ James Grey Jackson, op.cit, p 173.

² Mathew Carey, op.cit, p 14.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة، اعتمد السكان بشكل أساسي على الطب الشعبي والممارسات التقليدية في العلاج، في حين ظلت الخدمات الطبية الحديثة محدودة للغاية أو منعدمة في معظم المناطق.

5.1 الأوبئة :

أ- الطاعون :

الطاعون مرض معدٍ خطير تسببه بكتيريا اليرسينيا. ويرجع بعض المؤرخين سبب ظهور هذه البكتيريا إلى تلوث البيئة وتسمم الهواء بالروائح الكريهة المنبعثة من جثث الجراد المتحللة بعد كل غزو.

وتعد القوارض، وخاصة الفئران، الناقل الرئيس لهذا الوباء الفتاك. فقد كان ظهور المرض في منطقة المغربية يرتبط غالباً بانتشار الأوبئة بين الحيوانات قبل انتقال العدوى إلى البشر¹.

أما أسباب انتشار المرض في ال دول المغربية فترجع إلى حركة السكان المستمرة داخلياً وخارجياً، عبر المجندين والحجاج والتجار القادمين من مناطق تفشي الوباء. وقد ساهمت المحطات التجارية على طول الساحل في تسهيل انتقال العدوى بين بلدان المنطقة².

ومن التدابير الوقائية التي اتخذتها السلطات الحاكمة في بلدان المغربية لمكافحة انتشار الطاعون، تطبيق نظام الحجر الصحي. ففي عام 1790م، لاحظ القنصل الإنجليزي في تونس تطبيق هذا النظام حتى على السفن القادمة من بعض الدول الأوروبية، مثل راغوصة.

¹ علامة صليحة، " تاريخ الأوبئة في الجزائر"، مجلة قرطاس، العدد2، جامعة أبو بكر ، تلمسان، 2015، ص 210.

² نفسه، ص ص 210-211.

غير أن القنصل وصف الإجراءات الوقائية بأنها "سخيفة"، إذ كان العمال المكلفون بتطهير البضائع على متن السفن يلمسونها بأيدي عارية، مما يزيد من احتمال انتقال العدوى.

ويشير هذا إلى محدودية فاعلية إجراءات الحجر الصحي بسبب قصور التدابير المتخذة لمنع انتشار المرض. فعلى الرغم من تطبيق نظام الحجر الصحي، استمر انتقال العدوى نتيجة لممارسات التعقيم غير الكافية¹.

شهدت تونس عام 1783م وباءً خطيراً، اتخذ خلاله حمودة باشا إجراءات صارمة للحد من انتشار العدوى. وقد وثّق المؤرخ أبو ضياف هذا الحدث قائلاً: "وقع في المملكة التونسية طاعون جارف عُرف بالوباء الكبير، مات بسببه كثير من أعيان الحاضرة وأثر تأثيراً فادحاً في عمران البلاد. فور ظهور الوباء، أصدر الباي أوامره بحرق ملابس الموتى وتطهير منازلهم وإغلاقها، كما أمر بغسل جثث الموتى في المقابر وعزل المرضى في مخازن الحبوب"².

عكست هذه الإجراءات الصارمة حزم حمودة باشا في مواجهة تفشي المرض. فمن خلال حرق ملابس الموتى وتطهير منازلهم وإغلاقها، سعى إلى منع انتشار العدوى عبر الأشياء الملوثة. كما أسهم غسل الجثث في المقابر وعزل المرضى في مخازن الحبوب في الحد من انتقال المرض إلى السكان الأصحاء.

وفي سياق مماثل، اتخذت سلطات طرابلس الغرب إجراءات وقائية مشابهة عندما اجتاح وباء الطاعون مدينة درنة قادماً من الإسكندرية، الأمر الذي أدى إلى هلاك كثيرين وهجرة آخرين من منازلهم. وكان من أبرز الإجراءات العاجلة التي اتخذها الباي محمد القرماني: إصدار

¹ الإمام رشاد، المرجع السابق، ص ص 308-309.

² أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 14.

أوامر بحرق ملابس المصابين جميعهم، وتنظيف المنازل وتهويتها، وتطهير الشوارع. ولم يكن هناك من علاج متاح آنذاك سوى كيّ المريض بالنار أملاً في القضاء على العدوى في جسده¹.

على الرغم من التزام بعض الحكام بتدابير الوقاية من الطاعون، أهمل آخرون هذه التدابير ولم يحترموا إجراءات الحجر الصحي. ويتجلى هذا الإهمال بوضوح في حادثة تفشي الطاعون بمدينة الجزائر عام 1718م، حين وصلت سفينة إنجليزية قادمة من الإسكندرية. فقد سمح الداوي للسفينة بالرسو في الميناء دون اتخاذ أي إجراءات احترازية، مما أدى إلى انتشار الوباء بسرعة في المدينة وسقوط عدد كبير من الضحايا. ويُعزى هذا التفشي إلى تقاعس السلطات عن اتخاذ التدابير الوقائية اللازمة، مثل فحص السفن القادمة من المناطق الموبوءة وفرض الحجر الصحي على المصابين².

وتكرر هذا النمط من الإهمال في تونس عام 1785م، عندما وصلت سفينة من القسطنطينية إلى سوسة تحمل مصابين بالطاعون. فعلى الرغم من تحذيرات القناصل الأوروبيين وحثهم لباي تونس حمودة باشا على فرض الحجر الصحي، استخف بتحذيراتهم معتبراً الأوبئة قضاءً وقدرًا. لكنه ما إن أصبح الوباء يهدد حياته حتى اتخذ تدابير وقائية متأخرة، فمنع الناس من الاقتراب منه، وألغى مراسم تقبيل اليد، ورفض تسلّم الأوراق إلا بعد غمسها في الخل³.

¹ Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 474.

² Jean Marchika, La Peste en Afrique septentrionale, Thèse pour le doctorat en Médecine, Université d Alger, 1927 , p 75.

³ Louis Frank, op.cit, p 130.

وقد بلغ إهمال الحكام ذروته في موقف الداى إبراهيم عام 1740م، حين طلب منه نائب القنصل الفرنسي فرض الحجر الصحي على سفينة فرنسية قادمة من الإسكندرية تحمل مرضى الطاعون. فردّ الداى قائلاً: "إني أرى خوفك من انتقال العدوى يُفسّر بكونك مسيحياً، وبهذه الصفة تظن أن بإمكانك الإفلات والهروب من القدر وإرادة الله. اذهب! أنا تركي ولا أخشى الطاعون، فماذا يستطيع أن يفعل الطاعون ونحن أسوأ وأخطر منه؟ ولو حاول اجتياح المدينة فلدينا مدافع لمواجهة". وقد أدى قراره بإنزال البضائع إلى انتشار الوباء في الدول المغربية لمدة أربع سنوات، مخلفاً خسائر فادحة بلغت أربعمئة حالة وفاة يومياً¹.

5.2 الأمراض

أ- الجدري:

يُعدّ الجدري من الأمراض الفتّكة شديدة العدوى، إذ يسببه فيروس قادر على إحداث آثار وخيمة في جسم المصاب. تبدأ الإصابة بظهور بقع حمراء ملتهبة على الجلد، تتحوّل سريعاً إلى حويصلات مملوءة بسائل أبيض. وإذا لم تُعالج هذه الحويصلات، فإنّها تنفجر مخلفة ندوباً عميقة في الجلد، حتى يبدو الوجه وكأنه منقوش بها.

وتتفاقم خطورة المرض من خلال مضاعفاته التي قد تؤدي إلى العمى والصمم، وقد تفضي إلى الوفاة في بعض الحالات. ويُعدّ الأطفال الفئة الأكثر عرضة للإصابة بهذا الفيروس، الذي ينتقل عبر التبادل المباشر لقطيرات الجهاز التنفسي مع الشخص المصاب².

¹Jean Marchika, op.cit, pp 79-80.

² علامة صليحة، المرجع السابق، ص 212.

وقد طَوَّر الأهالي طريقةً تقليديةً لعلاج هذا المرض الفتاك، تتمثل في وضع المريض في غرفةٍ معتدلة الحرارة، مع تقديم حبات التين المجفف الممزوجة بالعسل له بشكلٍ دوري حتى ظهور البثور الجلدية، التي تُعدّ علامةً على بدء مفعول العلاج. ثم يقومون بتدليك هذه البثور برفق باستخدام الزبدة الطرية؛ لإزالة آثارها تدريجياً ومنع تشكّل الندوب. كما يضعون الكحل على عيني المريض ووجهه؛ وقايةً من التقرّح والتشوّه الذي قد ينجم عن تطور المرض¹.

ت - مرض التيفوئيد (التيفوس):

عُرف التيفوئيد محلياً باسم "مرض السّخانة"؛ نظراً لارتفاع درجة حرارة المصابين به. وكان سكان إيالة طرابلس الغرب يطلقون عليه اسم "التيفس"؛ اختصاراً لكلمة "التيفوئيد"².

ويرتبط ظهور هذا المرض بالظروف الاجتماعية السيئة أكثر من ارتباطه بالعوامل الطبيعية. فقد أسهمت عوامل متعددة في انتشاره، منها: الفقر والبؤس الناجمان عن الحروب، والكوارث الطبيعية كالجفاف والفيضانات وتقلبات المناخ، وتفشي الجراد، والمجاعات، وسوء التغذية، وانتشار القذارة. وقد تفاقت آثار المرض بسبب غياب الإجراءات الوقائية والصحية التي كان من شأنها الحد من انتشاره³.

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 197.

² هدى عبد الرحمن العلام، "الأوضاع الصحية في فزان من خلال مشاهدات الرحالة في القرن التاسع عشر"، مجلة جامعة سيما للعلوم الإنسانية، المجلد 20، العدد3، 2021، ص 245.

³ صليحة علامة، المرجع السابق، ص 214.

ث - الملاريا :

تُعَدّ الملاريا، المعروفة أيضاً بحمى المستنقعات، من الأمراض المعدية الخطيرة. يتسبب في هذا المرض طفيلي يُدعى البلازموذيوم المنجلي، الذي ينتقل إلى الإنسان عبر لدغة بعوضة الأنوفيل.

تتجلى أعراض المرض في ارتفاع درجة الحرارة والشعور بالحمى، إلى جانب إصابة خلايا الدم الحمراء وحدوث فقر الدم. ولا يمكن انتقال المرض دون وجود بعوض الأنوفيل، الذي يتكاثر في المستنقعات والمسطحات المائية ذات المياه الراكدة والعكرة. وقد أكّد تقرير الجيش الفرنسي عام 1830م العلاقة الوثيقة بين انتشار هذا البعوض وتفشي المرض¹.

يقدم ليون جورج فرانسيس **Lyon George Francis** وصفاً مفصلاً لتجربته المريرة مع حمى الملاريا خلال زيارته لمدينة طرابلس برفقة صديقه ريتشي **Ritchy**. فقد عانى من أعراض وخيمة شملت آلاماً شديدة أدت إلى فقدان وعيه أحياناً، إضافة إلى آلام مبرحة في الكبد والطحال، مما أدى إلى تدهور حالته الصحية بشكل كبير.

وفي وصفه للوضع الصحي العام في المدينة، يشير ليون جورج فرانسيس **Lyon George Francis** إلى انتشار واسع للأمراض الوبائية وارتفاع معدلات الوفيات بين السكان، حيث فقدت المدينة عشرين تاجراً في شهر واحد بسبب سوء التغذية وتلوث مياه الشرب. وقد تحولت طرابلس، وفق وصفه، إلى مدينة منهكة بالأمراض، حيث كان من النادر رؤية شخص يتمتع بمظهر صحي معافى².

¹ صليحة علامة، المرجع السابق، ص 216.

² Lyon George Francis ,op.cit, pp 182-183.

ويروي ليون جورج فرانسيس Lyon George Francis تجربته مع العلاجات الشعبية التقليدية، واصفاً شفاؤه بالمعجزة بعد أن كان الجميع متيقنين من قرب وفاته. ويذكر كيف أصر الحاج محمود على استدعاء أحد المرابطين لعلاج صديقه ريتشي Ritchy، معتقداً أن هذيانه ناجم عن مس الشياطين¹. ورغم رفض ليون لهذه العلاجات الخرافية، إلا أنه لم يستطع مقاومة إصرار الحاج محمود، الذي قام بإعداد "ماء الكتابة" عبر غسل آيات قرآنية في طبق وإعطائها لريتشي، في حين كان ما يحتاجه فعلياً هو كوب من الحليب للتعافي².

5.3 الممارسات الطبية والصحية في المجتمع المغربي:

شكّلت الظروف الصحية في البلدان المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر موضوعاً معقداً يستحق الدراسة والتحليل. تعكس هذه الفترة تحديات صحية متعددة الأبعاد، حيث تداخلت العوامل الاجتماعية والثقافية والعلمية في تشكيل المشهد الصحي.

أما عن الوضع الصحي العام في المجتمعات المغربية آنذاك، فتشير تقارير الزوار الإنجليز، مثل الدكتور توماس شو Thomas Shaw وجون ليون فرانسيس Lyon George Francis، إلى أن خطورة الأمراض المنتشرة كانت أقل مما يتصور البعض³. فرغم ندرة الأطباء، اقتصرت الأمراض الشائعة على حالات محددة مثل اضطرابات الكبد والطحال والربو والسل وضعف البصر والفتق والحمى والشلل والروماتيزم⁴.

¹ Lyon George Francis, op.cit, p 100.

² Ibid, p 103.

³ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p196.

⁴ Lyon George Francis, op.cit, pp 106-107.

وقد لفت انتباه المراقبين، وخاصة الأخوين بيتشي Beechey ، انتشار الأمراض الجلدية على امتداد الساحل الشمال أفريقي. وظهر تباين في تفسير أسباب هذا الانتشار بين السكان المحليين، الذين ربطوه بتربية المواشي في منطقة برقة، والزوار الأوروبيين الذين عزوه إلى تناول الطعام والماء غير النظيفين¹.

ولمواجهة هذه الأمراض، طور سكان المنطقة المغربية مجموعة من العلاجات التقليدية، شملت الكي بالنار لتخفيف آلام الروماتيزم، ووضع شرائح البصل بين الجفون لعلاج التهابات العين²، وشرب التعاويذ المذابة في الماء، واستخدام الحمامات العلاجية بمياهها الساخنة ومعادنها لتخفيف آلام العضلات والمفاصل³.

وفي مجال معالجة الحمى، اعتمد السكان المحليون على علاجين أساسيين، أبرزهما مشروب مغلي من نبات "السندغورة" (الشامبيتيس أو الصنوبر الأرضي). وقد أثبت هذا النبات المنتشر في الدول المغربية فعالية ملحوظة في علاج نوبات الحمى الثلاثية والرابعة الشديدة، سواء بتناوله طازجاً كسلطة، أو كعشب، أو كمشروب مغلي مركز⁴.

تميز العرب بمعرفة عميقة في مجال الطب التقليدي، خاصة في استخدام النباتات المحلية والعلاجات الطبيعية. ورغم أن بعض الممارسات الطبية الحديثة كالحقن كانت نادرة الاستخدام في المنطقة المغربية بسبب محدودية الأدوات الطبية والحساسية الثقافية، إلا أنهم طوروا أساليب علاجية متنوعة وفعالة، رغم وجود بعض التحفظات الثقافية تجاه العلاجات الغربية. ويتجلى ذلك في قصة المريض التركي الذي رفض العلاج بحقنة شرجية عندما اقترحها طبيب

¹ Beechey Frederick William, Henry, op.cit, p 310.

² Lyon George Francis, op.cit, pp 106-107.

³ Thomas Shaw, Travels Or..., op.cit, P 196.

⁴ Ibidem.

إنجليزي في الجزائر لعلاج صداعه، معترضاً على فكرة علاج الرأس عبر الجزء السفلي من الجسم¹.

أما في معالجة الجروح والإصابات، فقد استخدم العرب الزبدة شبه المغلية للجروح الناتجة عن الأسلحة البيضاء والنارية، محققين نتائج ناجحة موثقة. كما لجأوا إلى أوراق الصبار المحمصة في الرماد لمدة ربع ساعة لعلاج التورمات والكدمات والالتهابات، وأثبتت فعاليتها في علاج الدامل والقروح والنقرس. ولإصابات الأخف، استخدموا نبات المدرة كمسكن ومطهر، إضافة إلى معجون الحناء المخلوط بالماء الدافئ.

وفي مجال علاج آلام المفاصل، برع العرب في استخدام نبات الألمة لعلاج الآلام الروماتيزمية، كما ابتكروا مرهماً فعالاً من جذور نبات التفاحلة المحمصة والمسحوقة لتخفيف آلام العصب الوركي وعرق النسا، حيث كانوا يضعونه ساخناً على منطقة الورك².

وفي سياق آخر، يصف جيمس بروس **James Bruce** الطريقة التي ابتكرها سكان الصحراء لمعالجة لدغات الأفاعي القاتلة. فقد كانوا يلجأون إلى بتر العضو المصاب أو إحداث شقوق عميقة فيه أو كيه بالنار، ثم سكب زيت الزيتون الساخن مباشرة على الجرح لتطهيره ومنع انتشار السم. ويشير إلى أن لدغة الأفعى كانت تسبب أعراضاً خطيرة كالتشنجات وفقدان القدرة على الكلام والورم والالتهابات، وغالباً ما كان الناجون يعانون من مضاعفات وإعاقات دائمة، بينما يموت آخرون جراء تفاقم الحالة المرضية³.

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit, p 197

² Ibid, p 197-198.

³ Playfair R.Lambert, Travels in the Footsteps of Bruce in Algeria and Tunis ; illustrated by facsimiles of his original draiving, Paternoster square, London, 1877, p286.

رصد الرحالة الإنجليز ظاهرة لافتة في المجتمعات المغربية، حيث كان بعض المسلمين يؤمنون بأن المرض قضاء إلهي، مما جعلهم يعزفون عن العلاجات الطبية ونصائح الأطباء¹. وقد تجلّى هذا الموقف في حادثة التاجر من طرابلس يدعى أبو بكر بوخلوم ، الذي أصر على مواصلة رحلته التجارية إلى برنو رغم مرضه الشديد، معتقداً أن شفاءه مرهون بالقدر وليس بالعلاج².

يكشف التاريخ الطبي في الدول المغربية عن صراع مستمر بين الطب الحديث والممارسات التقليدية. ويتجلى هذا الصراع في العديد من الروايات التي وثقها الرحالة والمستكشفون الأوروبيون في القرن التاسع عشر.

يروى المستكشف جيمس بروس **James Bruce** قصة معبرة عن هذا الصراع، حيث رفض أحد الآباء علاج ابنه المصاب بالحمى على يد الطبيب كامبل **Camball** ، مفضلاً تسليم مصير طفله للقدر. غير أن براعة الطبيب وإصراره مكّناه في النهاية من إقناع الأب وإنقاذ الطفل³.

وفي السياق ذاته، يشير جيمس هاملتون **James Hamilton** إلى اعتماد سكان الدول المغربية بشكل كبير على الطب التقليدي والعطارين ودجاجة الأعشاب، واستخدام التمايم والتعاويز. فرغم وجود أطباء أوروبيين، فضّل المغاربة اللجوء إلى الفقهاء وأطباء الأعشاب،

¹ Thomas Shaw, Travels Or...,op.cit p 196.

² Mjordenham, clapperton, Oudney , Narrative of Travels and discoveries in northern and central africa, vol1, john Murray albemarle- street, London, 1826, p XXXV.

³ Playfair R.Lambert, op.cit, p 309.

وكانوا مستعدين لدفع المال مقابل التعاويذ، لكنهم امتنعوا عن دفع أجور الأطباء الأوروبيين وشراء أدويتهم¹.

ويقدم الأخوان بيتشي Beechey مثلاً مأساوياً على عواقب هذا التوجه، من خلال قصة فتاة في بنغازي أصيبت بالتهاب خطير في الحلق. فقد استمر والداها في استخدام التعاويذ لتسعة أيام قبل استدعاء الطبيب البريطاني، مما أدى إلى وفاتها بسبب تأخر العلاج المناسب².

وفي هذا السياق، تروي ميس تولي تجربة شخصية من طرابلس، حيث شهدت حالة طفل مريض وطرق علاجه التقليدية. فقد استدعت العائلة رابطاً كتب آيات قرآنية مختارة تتناسب مع حالة الطفل، ثم غُسلت هذه الكتابات في طبق خزفي، كما جُمع الجمر في كأس ماء شربه الطفل لاحقاً. وقامت الممرضة بتغطية جسد الطفل بالكامل بتمائم وتعاويذ من مكة المكرمة، وحرصت على إبعاده عن المسيحيين خشية تأثيرهم عليه. واستُكملت طقوس العلاج بتقديم أضحية من الخراف تحت إشراف فقيه تأكد من سلامة عظام الذبيحة من أي تشوه، وأشرف على دفن الدم بعناية فائقة، ثم تناولت العائلة اللحم ودفنت العظام باحتفالية مماثلة³.

يقدم جيمس هاملتون James Hamilton تفسيراً آخر لظاهرة لجوء المرضى إلى التعاويذ والتمائم، وهو اعتقادهم بأن الأمراض سببها الجن. ويروي قصة مريض مصاب بحمى الروماتيزم، كان مقعداً من شدة الألم، فخضع لطقوس طرد الجن على يد شيخ قام بتلاوة التعاويذ ثم ضربه بعنف لإخراج الجن من جسده. ورغم أن الضرب زاد من آلامه، إلا أن

¹ James Hamilton, op.cit, p100.

² Beechey Frederick william, Henry , op.cit,p p 308-309.

³ Richard Tully, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 80 .

الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م

المريض فسر محاولاته للهروب من الضربات على أنها دليل خروج الجن، مما دفع الشيخ لإعلان شفائه¹.

ويتفق حمدان خوجة مع ملاحظات الرحالة الإنجليز حول اعتماد سكان المنطقة على النباتات الطبية. فهو يرى أن معرفتهم الطبية كانت محدودة ببعض الأعشاب الفعالة، وأن جهلهم بمبادئ الطب الحديث، مقروناً باعتقادهم في قدرة الطبيعة وحدها على الشفاء، دفعهم للاعتماد على الشعوذة والحميات الغذائية بدلاً من طلب المساعدة الطبية المتخصصة². وقد أدى هذا التوجه إلى وقوع ضحايا أكثر لأمراض كان يمكن علاجها لو تلقوا الرعاية الطبية المناسبة في الوقت المناسب.

وعلى الرغم من انتقادات الرحالة الإنجليز للأوضاع الصحية في البلاد المغربية، إلا أن بعض الحكام أولوا اهتماماً خاصاً بالقطاع الصحي. ففي تونس، استقدم حمودة باشا الطبيب الفرنسي "ديفنتان" Desfontaines الذي أقام بها سنتين³، والطبيب الإيطالي "مندريتش" Mendrici عام 1797م كطبيبه الخاص، والطبيب الفرنسي "فرانك" Frank كرئيس للأطباء (1806-1812)⁴.

¹James Hamilton ,op.cit, p 101.

²Hamdan Ben othman Khoja, op.cit, p 33.

³ الإمام رشاد ، المرجع السابق، ص 332.

⁴ نفسه، ص ص 332-333.

وفي الجزائر، تم استدعاء الطبيب الإسباني "خوان فرنانديز دي لاس هيراس" **Dr Juan Fernandez de Las Heras** لمواجهة وباء الطاعون عام 1818م. كما كان للباي حسين في قسنطينة طبيبه الهولندي الخاص "سانسون" **Sanson** منذ عام 1713م¹.

أما في طرابلس الغرب، فيذكر جيمس هاملتون **James Hamilton** وجود طبيب ألماني عينته السلطات للإشراف على النظافة والصحة العامة في بنغازي، حيث كان مسؤولاً عن تنظيف الشوارع، وإزالة مصادر الأمراض، وفحص اللحوم في الأسواق، والتأكد من أسباب الوفيات².

وفي المغرب، قدم الطبيب الإنجليزي وليام لومبرير **William Lempiere** عام 1789م لمعالجة الأمير مولاي عبد السلام، ابن السلطان سيدي محمد، من مرض في عينه³.

وقد أدرك سكان المنطقة التفوق الطبي الأوروبي، فأظهروا تقديراً كبيراً للأطباء الأوروبيين. فقد ذكر القس بواي أن سكان القالة كانوا يستقبلون الأطباء الأوروبيين بحفاوة، ويتسابقون لطلب الكشف عليهم حتى وهم أصحاء⁴.

ويؤكد ليون جورج فرانسيس **Lyon George Francis** هذا التوجه قائلاً: " كان كثيرون يأتون إلينا لطلب المشورة الطبية. وعلى الرغم من أن السيد ريتشي لم يكن قادراً على الرد عليهم، فقد توليت الأمر، وكانت وصفاتي الطبية ناجحة في العديد من الحالات المستعصية. ومع ذلك،

¹ فوزية لزغم، " الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني"، عصور، المجلد 12، العدد 2، جامعة أحمد بن بلة - وهران، 2013، ص 238.

² James Hamilton, op.cit, p 67.

³ William Lempiere, op.cit, pp 1-2.

⁴ فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 239.

في الحالات التي لم أجد فيها دواءً مناسباً، لم أجازف بإجراء أي تجارب قد تهدد حياة مرضاي"¹.

لطالما مزج الأطباء والمستكشفون إلا نجليز القادمون إلى الدول المغربية بين أهدافهم الاستعمارية وتقديم الرعاية الصحية للسكان المحليين. فمنهم من تظاهر بممارسة الطب ليكسب ثقة الناس والسلطات، ومنهم من كان طبيباً حقيقياً ولكن كانت له نوايا استعمارية. وعلى الرغم من هذه الأهداف المبطّنة، إلا أن العديد منهم حرصوا على تقديم المساعدة الطبية دون المجازفة بحياة المرضى من خلال تجارب غير مضمونة.

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك، ليون جورج فرانسيس **Lyon George Francis** الذي ذهب إلى طرابلس، والألماني هبنسترايت **Hapenstriate** الذي زار تونس والجزائر، والإنجليزي وليام لومبريير **William Lempiere** الذي انتقل إلى المغرب، حيث قدّموا جميعاً خدمات طبية إلى السكان المحليين.

اتخذت السلطات في الدول المغربية خطوات كبيرة للوقاية من الأمراض من خلال إنشاء العديد من المستشفيات. ففي تونس، كان هناك مستشفى واسع في منطقة العزافين مخصص للمرضى والمعوقين. كما تدخلت الدول الأوروبية، مثل فرنسا وإسبانيا، في بناء مستشفيات للجاليات الأوروبية. ومن أبرز هذه المستشفيات المستشفى الإسباني الذي أداره الأب فرانسوا خيمينار ، وفي وقت لاحق تولى الأب سيرانو **Père Serrano** إدارته في عهد علي باشا².

¹ Lyon George Francis , op.cit, p 106.

² حفيظة بوتوقوماس، المرجع السابق، ص 194.

أما في الجزائر، فقد تلقت خمسة مستشفيات دعماً مالياً من أوروبا بقيمة ألفي ريال، كما فُرضت على السفن المسيحية رسوم مخصصة لدعم المستشفيات¹. وفي طرابلس، بُني مستشفى خاص بالمقاتلين سنة 1835م، ثم افتُتح آخر موجّه لعامة الناس في عهد محمد باشا (1842-1847م)، ليكون أول مستشفى يخدم المدنيين على الرغم من تركيزه على العسكريين².

غير أن هذا التطور في البنية التحتية الصحية لم يواكبه تطور مماثل في مجال التعليم الطبي. فقد عانت المنطقة من قلة حادة في عدد الأطباء، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى إهمال المؤسسات التعليمية لتدريس العلوم العقلية، وخاصة الطب³. وقد وثّق العالم الجزائري ابن حمادوش هذا الواقع عند زيارته لتطوان في المغرب، حيث لاحظ غياباً شبه تام للاهتمام بالعلوم الطبية⁴.

ورغم هذا الواقع المؤسف، برز عدد من الأطباء المتميزين في تلك الفترة، وكان من أبرزهم الشيخ عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري. تميز ابن حمادوش بأنه اعتمد في تعلمه للطب على جهوده الذاتية، مستفيداً من خبرات العشابين. وقد برع في تصنيع المستحضرات

¹ حميد أيت حبوش، " الواقع الصحي للجزائر العثمانية من خلال المصادر الأوروبية"، مجلة آفاق فكرية، المجلد 9، العدد 2، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2021، ص 160.

² وفاء كاظم ماضي الكندي، " قراءة في الأحوال الصحية والعادات الغذائية لمجتمع ولاية طرابلس الغرب (1835-1911)" ، مجلة التربية الأساسية، العدد 13، العراق، 2013، ص 683.

³ لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، الجزائر، 2011، ص 71

⁴ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق و تح وتع: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص 71.

الطبية وألف العديد من الكتب القيمة في مجال الطب، من أهمها "الجواهر المكنون من بحر القانون" و"تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"¹.

ويمثل ابن حمادوش، الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي، نهاية عصر ذهبي للطب العربي. فقد جاء في فترة وصفها أبو القاسم سعد الله بـ"الظلام الدامس" الذي أصاب الحضارة الإسلامية. وما يثير الاهتمام أن ابن حمادوش كان أقرب في منهجه وتفكيره إلى العلماء الأوروبيين المعاصرين له منه إلى العلماء المسلمين، مما يعكس التباين الكبير في مسارات التطور العلمي بين العالم الإسلامي، الذي كان يشهد فترة انحطاط، وأوروبا التي كانت تخطو خطوات واسعة نحو عصر الاستنارة².

¹ لزغم فوزية، الإجازات العلمية...، المرجع السابق، ص 71.

² نفسه، ص 72.

الفصل الرابع : دراسة نقدية للكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

أولا : أساليب الكتابة لدى المؤلفين الإنجليز

ثانيا : منهجية العرض في المؤلفات الإنجليزية

ثالثا: مصادر الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

رابعا : أهمية الكتابات الإنجليزية في التأريخ المجتمع المغربي

خامسا : دوافع الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

سادسا : دور الكتابات الإنجليزية كأداة سياسية و عسكرية في خدمة الاستعمار في

الدول المغربية خلال القرنين 18 و 19

أولاً : أساليب الكتابة لدى الكتاب الإنجليز :

شهدت الكتابات الإنجليزية حول المنطقة المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولاً جوهرياً في أساليبها ومناهجها، عاكسةً للتغيرات العميقة في المشهد المعرفي والسياسي الأوروبي إبان عصر الاستكشاف والتوسع الاستعماري. تميزت هذه الكتابات بتنوع أساليبها التي تراوحت بين الغرائبي والخيالي من جهة، والسردية والوصفي من جهة أخرى، مع حضور لافت لعناصر الدقة والواقعية التي غالباً ما تداخلت مع نبرات السخرية والمقارنة. وقد أفرز هذا المزيج المعقد من الأساليب نصوصاً تتسم بالهجانة والتناقض، تعكس تعقيد العلاقة بين "الذات" الإنجليزية و"الآخر" المغربي في تلك الحقبة التاريخية المفصلية. إن دراسة هذه الأساليب الكتابية لا تقتصر أهميتها على فهم تطور الكتابة التاريخية الإنجليزية فحسب، بل تتعداها إلى تقديم رؤية أعمق للكيفية التي تشكلت بها المعرفة الاستعمارية عن الدول المغربية.

شكلت هذه النصوص، بتنوعها وتناقضاتها، جزءاً لا يتجزأ من المشروع الاستعماري المعرفي الأوسع، حيث تداخلت فيها عناصر الفضول العلمي مع الدوافع السياسية والاقتصادية. ويمكن تتبع هذا التداخل من خلال تحليل الطريقة التي وظف بها الكتاب الإنجليز الأساليب المختلفة في نصوصهم، من الوصف الدقيق للجغرافيا والعادات الاجتماعية، إلى السرد الخيالي الذي يستجيب لتطلعات القارئ الأوروبي وتصوراته المسبقة عن "الشرق الغامض".

أدى هذا التنوع في الأساليب إلى خلق صورة مركبة ومتناقضة في كثير من الأحيان عن المجتمعات المغربية، تتأرجح بين الإعجاب والنفور، بين محاولة الفهم الموضوعي والإسقاط الذاتي للتصورات الإنجليزية. إن فهم هذه السيرورة التاريخية المعقدة في الكتابة التاريخية

الإنجليزية يفتح نافذة مهمة ليس فقط على تاريخ العلاقات الإنجليزية-المغربية، بل أيضاً على تطور الفكر الاستعماري وآليات إنتاج المعرفة عن الآخر في السياق الاستعماري الأوسع.

من خلال دراسة هذه الأساليب الكتابية، يمكننا فهم كيف ساهمت في تشكيل الصورة النمطية عن المنطقة المغربية في المخيال الإنجليزي.

1 أسلوب الغرائبي :

في القرن الثامن عشر، شهدت أوروبا تغيرات ثقافية كبيرة أثرت على الأدب والفن. ظهر نوع أدبي جديد يُعرف بالأدب الغرائبي، استوحى موضوعاته من أماكن بعيدة مثل الأمريكتين والشرق والجزر النائية وإفريقيا جنوب الصحراء¹.

رغم عدم وجود مصطلح محدد له آنذاك، إلا أن الاهتمام بالثقافات الغريبة كان واضحاً في الفن والأدب. ساعدت ترجمة "ألف ليلة وليلة" على ظهور "الحكاية الشرقية" كنوع أدبي جديد. استخدم الكتاب هذا النوع لنقد مجتمعاتهم ومناقشة أفكار فلسفية بحرية أكبر².

¹ تشمل الأمريكتين قارتي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، حيث تضم الشمالية دولاً مثل كندا والولايات المتحدة والمكسيك، بينما تضم الجنوبية دولاً مثل البرازيل والأرجنتين وتشيلي. أما الشرق، فكان يُقصد به منطقتين رئيسيتين: الشرق الأوسط الذي يشمل المنطقة العربية وتركيا وإيران، والشرق الأقصى الذي يضم الصين واليابان والهند وجنوب شرق آسيا. وتتمثل الجزر النائية في مجموعات الجزر البعيدة عن القارات الرئيسية، مثل جزر المحيط الهادئ (بولينيزيا، ميكرونيزيا، ميلانيزيا)، وجزر الكاريبي، وجزر المحيط الهندي مثل مدغشقر وسيشل. أما إفريقيا جنوب الصحراء، فهي المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى في القارة الإفريقية، وتشمل مناطق غرب إفريقيا مثل نيجيريا والسنغال، وشرق إفريقيا مثل كينيا وتنزانيا، ووسط إفريقيا مثل الكونغو والكاميرون، وجنوب إفريقيا.

² Jennifer Yee, Exotism and colonialism, Collective book, The Cambridge Companion to Franche Literature, by John D.Lyons, Cambridge University Press, Cambridge, 2015, p153-154.

عكس هذا الأسلوب الأدبي نظرة جديدة للعالم في أوروبا. استخدمه الكتاب لنقد مجتمعاتهم والتعليق على قضايا مهمة بطريقة غير مباشرة. سمحت الشخصيات والأماكن الغريبة بطرح أسئلة صعبة وتحدي الأفكار السائدة.

شهد هذا الأسلوب في القرن الثامن عشر تطوراً ملحوظاً، متأرجحاً بين النقد الاجتماعي والتمثيل النمطي للثقافات الأخرى. رغم استخدامه كأداة لتحدي الاستبداد الأوروبي، إلا أنه أحياناً عزز الصور النمطية الإمبريالية¹. خاصة مع انتشار الرحلات العجائبية في القرن الثامن عشر، برزت المبالغات في كتابات الإنجليز مما دفع جوناثان سويفت **Swift** ² **Jonathan** إلى نقدها في مؤلفه الشهير "رحلات غاليفر"، إذ يقول : " وددت من كل قلبي لو كان هناك قانون يغض على كل رحلة، قبل أن يسمح له بنشر رحلاته، بأن يقسم أمام رئيس مجلس اللوردات بأن كل ما ينوي نشره هو حقيقي حسبما يدرك هكذا له ينخدع العالم كما هو حاله الآن حينما يُقدم بعض الكتاب من أجل كسب الشهرة على تقديم أفكار مزيفة للقارى البسيط"³.

تعكس مقولة سويفت هذه، التي يختم بها حكايته عن الرحلات العجائبية الاربع لغاليفر **Gulliver** ، تصورا نقديا، إن كان قالب ساخرا للمعرفة المتراكمة حول المناطق المكتشفة آنذاك في إفريقيا وجزر الكاريبين وفي آسيا وجنوب المحيط الهادي، وهي المعرفة التي تغذت

¹ Jennifer Yee, op.cit, p 156.

² **جوناثان سويفت** (1667-1745) : ولد في دبلن عام 1667، واحداً من أبرز الأدباء الأيرلنديين على مر العصور، وأشهر أعماله على الإطلاق رواية "رحلات جاليفر" (1726). نشأ سويفت في ظروف عائلية صعبة، إذ توفي والده المحامي قبل ولادته، وقضى معظم طفولته في رعاية مربية بعيداً عن والديه. رغم هذه البداية الصعبة، حظي بتعليم جيد يليق بطبقته الاجتماعية، حيث التحق بكلية كيلكيني كطالب داخلي من سن السادسة حتى الرابعة عشرة، متلقياً تعليماً إنسانياً كلاسيكياً. واصل مسيرته التعليمية في جامعة ترينيتي كوليدج دبلن عام 1682، وهي الجامعة الوحيدة في أيرلندا آنذاك، حيث درس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية، وتعمق في دراسة الفلسفة . للاستزادة أنظر الى :

Ian Campbell Ross, 'Jonathan Swift'. Accessed December 30,2023, 10:00 PM, From :

<http://www.tcd.ie/trinitywriters>.

³ Swift Jonathan, Gulliver's Travels, Penguin popular Classic Books, Godfrey cave edition A penguin, 1726, p 323.

من وجود متزايد للذات الأوروبية في فضاءات ثقافية وجغرافية وغريبة وأفرزت مزيجاً من التصورات العجائبية والعنصرية مرجعيتها سمو الجنس الأبيض وتفوقه لكن المسألة الأكثر أهمية في هذه الفقرة تبقى الخيط الرفيع الذي يفصل الحقيقة عن الخيال في نص الرحلة وهو الحاجز الذي تجاوزه سويفت Swift باستحضار عوالم عجائبية ذات مغايري سياسية وإنسانية¹.

شكلت فكرة الذات المغتربة في بيئة غريبة موضوعاً محورياً في الأدب الرومانسي، مقدمة ابتكاراً مهماً بتركيزها على العناصر "النموذجية" للثقافات الأجنبية و"اللون المحلي". هذا التوجه انعكس أيضاً في كتابات الإنجليزية عن الدول المغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث غالباً ما عكست نظرة استشراقية تميل إلى تضخيم الاختلافات الثقافية وإبراز ما هو غريب أو غير مألوف. هذا الأسلوب في الكتابة لم يكن مجرد تعبير عن الفضول الثقافي، بل كان له دور في تشكيل تصورات القراء الأوروبيين بصفة العامة و الانجليز بصفة الخاصة عن المنطقة وأهلها . نرى مثلاً على هذا الأسلوب في وصف مونبار Monard لتجار فاس، حيث يقول: " يبيعون كل شيء: مرايا من ألمانيا وأدوات معدنية من فرنسا وقطن من مانشستر وناפורات من البندقية ومرجان من إيطاليا وأواني إعداد الشاي من روسيا، إلى جانب منتجات من السودان وصمغ من السنغال وتعاويذ من الثوب وحجر أسود يحمي من لسعات الزواحف". نلاحظ هنا كيف انتقل هذا الرحالة من وصف عادي لأسواق فاس إلى التركيز على ما هو غرائبي وغير مألوف².

ولم يقتصر هذا الأسلوب الغرائبي في الكتابة على وصف العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية فحسب، بل امتد ليشمل وصف الطبيعة والجغرافيا أيضاً. فقد مال الرحالة إلى

¹ كريم بجيت، المرجع السابق، ص 66.

² محمد لمعيري، صورة المدينة المغربية في نصوص الرحالة الإنجليز خلال القرن التاسع عشر، الرحالة وصورة الآخر قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب، بجيت كريم، دار الأمان، الرباط، 2013، ص 88.

إضفاء مسحة من الغموض والسحر حتى على المظاهر الطبيعية للمنطقة، محولين المشاهد الجغرافية العادية إلى فضاءات غير مألوفة تثير خيال القارئ الأوروبي وتغذي تصوراته عن غرائب الشرق. ويتجلى هذا الأسلوب بوضوح في كتابات جيمس هاملتون **Jame Hamilton** عند وصفه لسواحل بنغازي، حيث يقول: "... وغالبًا ما يتم التقاط الأحجار الكريمة والميداليات على الشاطئ بعد عاصفة شتوية. وعلى الجانب البري من المدينة، اقتحم البحر أيضًا، مشكلًا بحيرة ضحلة في الشتاء، تجف في الصيف، وتترك السطح متلألئًا بالملح، إذا لم تكن الرياح عالية: وبالتالي يمكن القول إن بنغازي مبنية على لسان رملي ضيق. على الجانب الآخر من هذه البحيرة، تتغطى قمم التلال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من المدينة بمقابر قديمة، تم نهب العديد منها، ولكن لا يزال عدد غير قليل منها ينتج مزهريات وتراكوتا من الهوابط"¹.

يصور لنا جيمس هاملتون **James Hamilton** الشاطئ كمكان سحري تظهر فيه الأحجار الكريمة والميداليات بشكل دوري بعد العواصف الشتوية، وكأنه يرسم مشهداً من عالم الخيال. كما يمتد هذا الأسلوب في وصفه للبحيرة المتحولة، مستخدماً التشخيص لجعل البحر كائناً فاعلاً يقتحم المدينة، ثم يصف التحول العجيب للمكان من بحيرة شتوية إلى سطح متلألئ بالملح في الصيف. هذا المزج بين الواقع والخيال في الوصف، حيث يخلق حالة من التآرجح بين الحقيقي والعجيب، مما يجعل القارئ يشعر وكأنه يقرأ عن مكان ينتمي إلى عالم آخر غير مألوف.

مثال آخر نجده في وصف الأنسة ميس توللي **Miss Tully**، شقيقة القنصل الانجليزي التي استقرت في طرابلس مدة عشرة سنوات، لكسوف الشمس:

¹ James Hamilton, op.cit, p 10

"شوهدت البومة الصارخة... وأزعجت الصباح بصراخها. شوهدت السحالي والثعابين تتجول حول الشرفات... حركت أجنحتها الصاخبة المغربي، الذي كان مذهولاً من الخوف... شوهد المغاربة العاديون يتجمعون في مجموعات في الشوارع، وينظرون إلى الشمس بذهول... أطلقوا وابلاً من الرصاص على الشمس، لتخويف الوحش أو التتين، كما أطلقوا عليه، الذي افترضوا أنه يلتهمها"¹. هذا الوصف يجمع بين الواقع والخيال، مما يخلق صورة حية ولكنها غير واقعية تماماً للحدث، مما يجعل الأسلوب يميل بقوة إلى الغرائبية.

حتى عند مدح منجزات المغاربة، نجد أن الكتابات الإنجليزية غالباً ما تستغرب وجودها. ففي كتابات آرثر ليريد **Arthur Leared** نجد وصفاً للإبريق المستعمل في تحضير ماء الزهر، إذ يقول: "إنه لأمر غريب أن تجد مثل هذه الآنية الغريبة الشكل والمتقنة الصنع، وربما المصنوعة من النحاس البلد، أن تجدها مستعملة بهذه الطريقة وفي هذه البلاد النائية"².

نجد هذا الأسلوب أيضاً في كتابات إيميلي كين **Emily kenne**، زوجة شريف الوزان، حيث تصف ظهور صينية الشاي إذ تقول: "ظهرت صينية الشاي وكأنها سحر، إذا جاز التعبير"³. هذا الأسلوب الغرائبي يضيف لمسة من الخيال إلى الواقع اليومي، وهو سمة مميزة للأدب الغرائبي.

في سياق تصوير الدول المغربية كأماكن غريبة ومثيرة للفضول، نجد أن الكتابات الانجليزية حول الدول المغربية قد أظهرت افتتاناً خاصاً بالمدن المغربية. هذا الاهتمام لم يقتصر على المدن ككل فحسب، بل امتد ليشمل عناصر ثقافية ومكانية محددة داخل النسيج الحضري لهذه المدن.

¹ Richard Tully, Narrative of Ten years ..., op.cit, p 166.

² Arthur Leared, Morocco and The Moors,... op.cit,p p 359-360.

³ Emily keene, op.cit, p 48.

رأت كتابات الانجليزية المدن المغربية ككيان مغلق محاط بجدران قوية ومحمية ببوابات تغلق ليلاً. لقرون عديدة، كان من الصعب جداً على المسافرين البريطانيين والأوروبيين عبور حدود البلاد، وكان على أولئك الذين دخلوا البلاد الخضوع لفحص آخر عند بوابة المدينة. بمجرد دخولهم المدينة، وجد المسافرون الإنجليز أنفسهم محصورين في شوارع ضيقة وجدران بلا نوافذ. حتى أولئك المحظوظين بما يكفي لدعوتهم إلى منازل مغربية كانوا ملزمين بمقابلة نصف المجتمع فقط، أي السكان الذكور، منذ النصف الآخر كان محجوباً جسدياً أو محصوراً في الحريم بعيداً عن أعين المسافرين الذكور الفضوليين.

هذا التصور للمدن المغربية كمكان غامض ومغلق انعكس في كتابات الإنجليزية وهذا ما نجده في وصف لويس وينغفيلد **Lewis Wingfield** لتونس يجسد بوضوح هذا التصور الغربي للمدن المغربية كفضاء غامض ومغلق، حيث يقول: "خرجنا لاستكشاف المدينة، فسلطنا شوارعها الرائعة التي قادتنا إلى قلبها النابض. تشابكت أمامنا الأزقة المتعرجة والساحات المظلمة، وضائق الأرصفة والممرات حتى كادت تختنق. امتدت البازارات الطويلة بأسقفها المقببة، تتداخل في نظام متشابك يشبه المتاهة المعقدة، حتى أصبح التجول فيها منفرداً أمراً مستحيلاً دون خيط يهدي السائر في دروبها المتشعبة"¹.

يكشف هذا الوصف عن الأسلوب الغرائبي الذي استخدمه الكاتب الإنجليزي في تصوير المدن المغربية، حيث يوظف لويس وينغفيلد **Lewis Wingfield** لغة تؤكد فكرة الانغلاق والغموض التي سبق ذكرها. فهو يستخدم مفردات توحى بالخطر والتعقيد مثل "الأزقة المتعرجة" و"الساحات المظلمة" و"الممرات التي تكاد تختنق"، كما يستحضر صورة المتاهة المعقدة التي تستلزم "خيطاً" في إشارة ضمنية إلى أسطورة المتاهة اليونانية وخيط أريادني².

¹ Lewis Wingfield, op.cit, p 273.

² أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية، ط2، مؤسسة العروبة للطباعة و النشر والإعلان، السويس، 1988، ص 160.

هذه المقارنة تضيء بعداً أسطورياً على المدينة وتؤكد صورتها كمكان غريب يصعب التنقل فيه بحرية. وهكذا يتحول الفضاء الحضري العادي في عين الرحالة الإنجليزي إلى عالم غامض ومخيف، يعكس النظرة الاستشراقية التي تسعى إلى تقديم "الشرق" كفضاء مختلف جذرياً عن العالم الغربي.

وتتكرر هذا الأسلوب في كتابات الانجليزية حول المدن المغربية ، حيث نجد نفس التركيز على ضيق الشوارع وانغلاق المباني وغموض المكان. على سبيل المثال، وصف آرثر ليريد **Arthur Leared** ، الذي زار فاس عام 1879، انطباعه قائلاً: "ما أدهشنا أكثر من أي شيء آخر هو الضيق الشديد للشوارع التي تقع فيها المنازل الخاصة. لا يمكن تخيل أي شيء أكثر كآبة أو كآبة من مثل هذه الفجوة الضيقة بين الجدران العالية الخالية من النوافذ¹."

هذا الأسلوب الغرائبي لم يقتصر على وصف الشوارع والمباني فحسب، بل امتد ليشمل الحياة داخل القصور الملكية والحريم. نجد مثلاً على ذلك في وصف إليزابيث بروتون **Elizabithe broughton** ، ابنة القنصل، لتجربتها في القصر الداوي في الجزائر إذ تقول :

"تناولنا العشاء في أجواء ملكية، حيث قُدمت لنا مجموعة متنوعة من الأطباق الشهية على موائد صغيرة مزينة بالفضة واللؤلؤ. جلسنا على وسائد مريحة، بينما أظهر الأطفال براعة في الجلوس على الطريقة المغربية التقليدية، وشاركنا جميعاً في تناول الطعام من نفس الأطباق. أبدت السلطانة سروراً بالغاً بإعجابي الواضح بالمناديل المطرزة بمهارة وملاعق خشب الورد المميزة ذات الأطراف العنبرية. وفي لفظة كريمة، أهدتني ثلاث مناديل مطرزة بالذهب والفضة والحريز، إضافة إلى عشر ملاعق مماثلة²."

¹ Arthur Leared, A Visit to the court of Morocco,... op.cit, p 54.

² Elizabithe Broughton, Six Years ..., op.cit, p 32.

وصف بروتون يعكس الافتتان بالترف والغربة في الحياة داخل القصر، مع التركيز على التفاصيل الدقيقة مثل المناديل المطرزة بالذهب والفضة والحرير، وملاعق خشب الورد ذات الأطراف العنبرية. هذه التفاصيل تساهم في خلق صورة أشبه بعالم ألف ليلة وليلة في ذهن القارئ الأوروبي.

المبالغة في الوصف لم تقتصر على الأماكن والأشياء فحسب، بل امتدت لتشمل الأشخاص أيضاً. نجد مثلاً صارخاً على ذلك في رواية توماس بيلو **Thomas Pellow**، الأسير الإنجليزي في المغرب، عن أحد الأباطرة المغاربة: "إن هذا الإمبراطور كان لديه ما لا يقل عن ثمانية آلاف زوجة، أنجب منهم تسعمائة ابن، وحوالي ثلاثمائة ابنة".

رغم أن هذه الأرقام تبدو خيالية، إلا أن بيلو يحاول إضفاء المصداقية عليها من خلال ذكر تفاصيل دقيقة عن نظام ضريبي خاص يفرض على اليهود تقديم هدايا عند ولادة كل طفل من أطفال الإمبراطور¹. هذا المزيج بين الخيال والتفاصيل الواقعية هو ما يميز الأسلوب الغرائبي في كتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي. فهم يسعون جاهدين لإقناع القارئ بصحة رواياتهم من خلال ذكر "أدلة مؤكدة" وتفاصيل دقيقة، حتى وإن كانت هذه الروايات تبدو خارجة عن نطاق المعقول.

هذا الأسلوب في الكتابة خدم أغراضاً متعددة: تلبية رغبة القراء الأوروبيين في التعرف على عوالم "غريبة" و"مثيرة"، وتعزيز الصورة النمطية عن "الشرق" كمكان غامض ومختلف جذرياً عن أوروبا، مما يعكس تحولاً في الاهتمام بالخصوصية التاريخية والثقافية، متحدياً النظرة العالمية لعصر التنوير².

¹ Thomas Pellow, op.cit, p 23.

² عصر التنوير : **Enligtemment Age (1798-1700)** ، شهد القرن الثامن عشر ظهور حركة فكرية مهمة عرفت بإسم التنوير الاسكتلندي، والتي تركزت في مدينتي جلاسكو وإدنبرة. بدأت هذه الحركة في جلاسكو في أوائل القرن، ثم ازدهرت في أدنبرة خلال النصف الثاني منه، قامت فلسفة التنوير الاسكتلندي على الاستقصاء الفكري و تطبيقاً الأفكار

ولكن في القرن التاسع عشر عرف هذا أسلوب تحولا ، حيث أجهت بعض الكتاب في تصويرها الغرائبية المدن المغربية إلى إلغاء مادية المدن و تحويلها من واقع ملموس إلى كيان لا مادي تؤثته شخوص من عالم الخرافة و الأحلام. وقد عبر عن هذا دفيد سير¹ Divid Spurr في تحليله للخطاب الاستعماري في جنس الرحلة حيث صنف أساليب الخطاب الاستعماري لفرض سلطته على مجال الآخر إلى اثني عشر أسلوبا² . من بينها "

الفلسفية علميا لتحسين المجتمع، مستخدمة مفهوم " التحسين " كهدف رئيسي. امتد تأثير هذه الحركة ليشمل مجالات متنوعة مالأداب و الفلسفة والعلوم والتعليم والجيولوجيا، وكان من أبرز إنجازاتها تأسيس الموسوعة البريطانية بين عامي 1768-1771، تنوعت الاتجاهات الفلسفية ضمن هذه الحركة بدءا من نهج " الحس السليم " الذي تبناه توماس ريد. وقد امتد تأثير التنوير الاسكتلندي ليشمل أنحاء بريطانيا و أوروبا خاصة في النصف الثاني من القرن، أما فيما يخص التاريخ شهد تحولا جذريا، حيث أصبح ينظر إليه كفرع من فروع الادب الجميل، هذا المفهوم الجديد جمع بين السلطة الكتابية (يقصد بها هنا الوثائق التاريخية) و السرد الخيالي، مما يجعل التاريخ يمثل السلطة العلمانية (في العصور السابقة كانت السلطة الدينية هي المصدر الرئيسي للمعرفة و الحقيقة) وفي عصر التنوير بدأ التاريخ يحل محل الدين كمصدر للفهم و التفسير. للاستزادة أكثر أنظر إلى :

Ronald Carter and John Mc Rae, The Routledge History Literature in English, Second edition, Routledge , 2001, pp 133-134.

¹ دفيد سير : باحث مختص في دراسات الانجليزية المعاصرة و الدراسات الأدبية المقارنة، حيث يركز بشكل خاص على العلاقات المتداخلة بين الأدب والفنون المختلفة. وقد أثرى مسيرته الأكاديمية من خلال شغل عدة مناصب أكاديمية في مؤسسات تعليمية مرموقة، منها جامعات بازل وزيوريخ و إنسبروك و أيسلندا، إضافة إلى عمله في مؤسسة بودمر السويسرية المعروفة. أنظر الى :

Accessed, october, 12, 2024, 8 :00 PM. From :

<https://www.unige.ch/lettres/angle/en/collaborateurs/modern/spurr>

² أساليب الاثني عشر التي ذكرها دفيد سير في كتابه :

1-Surveillance 2-Appropriation 3-Aestheticization 4-classification 5-Debasement 6-Negation 7- Affirmation 8-Idealization 9-Insubstantiation 10-Naturalization 11-Eroticization 12-Resistance

1 - المراقبة 2- الاستيلاء 3- التجميل 4- التصنيف 5- الازلال 6- النفي 7- التأكيد 8- المثالية 9- لا مادية 10- التطبيع 11- الاثارة 12- المقاومة للاستزادة انظر الى :

David Spurr, The Rhetoric of Empire Colonial Discourse in Journalism Travel Writing and Imperial Administration, Duke University Press Durham, London, 1993, p1.

لا مادية " الآخر **Insubstantialisation** أو ما أسماه " رؤية في حلم " ويعني بها اختزال وجود الآخر وتحويله إلى لا شيء، إلى حلم¹.

هذا التحول في التصوير لم يكن وليد لحظته، بل كان امتداداً لتصورات سابقة. فقبل القرن الثامن عشر، كانت الكتابات التي تصف الدول المغربية للعالم الغربي مشبعة بالخيال، إذ كان الكتّاب يتصورونها كعالم أسطوري شبيه بقصص ألف ليلة وليلة. لذا، نجد في كثير من الكتابات الإنجليزية أن الرحالة ينتقلون في وصفهم من الخيال إلى الواقع كلما اقتربوا من المدينة الفعلية.

مع بداية القرن التاسع عشر، بدأ الرحالة بإسقاط الصور الذهنية التي يتمثلونها عن المدن المغربية على ما يصادفونه عند دخولهم إليها. فعلى سبيل المثال، في سنة 1880، كلفت بريطانيا وزيرها السير جون دريموند هاي **Sir John Drummond Hay** بمهمة دبلوماسية لدى سلطان المغرب في فاس. وكان ضمن الوفد المرافق الكاتب فيليب درهام تروتر **Trotter Philip Durham**² ، الذي دوّن مراحل هذه الرحلة ونشرها في إدنبرة سنة 1881.

¹ David Spurr, op.cit, p 144.

² فيليب درهام تروتر: في عام 1881، رافق فيليب دورهام تروتر البعثة الدبلوماسية البريطانية برئاسة السير جون دروموند هاي إلى بلاط السلطان مولاي الحسن. كانت الرحلة فرصة استثنائية للتعرف على المجتمع المغربي بكل تفاصيله. استعرض تروتر رحلة شاملة امتدت من طنجة إلى فاس ومكناس، مروراً بالرباط والعرائش وأصيلة. وقف عند تفاصيل دقيقة للحياة اليومية والتركيبية الاجتماعية، مسلطاً الضوء على جوانب متعددة من الثقافة المغربية. من أبرز ملاحظاته انتقاد المستوى التعليمي، مؤكداً محدودية انتشار القراءة والكتابة. كما ركز على الأهداف التجارية للبعثة، التي تمثلت في تحسين العلاقات التجارية وفتح موانئ جديدة. قدم تروتر تحليلاً عرقياً للمكونات السكانية، واصفاً البربر بالأكثر جمالاً، والبوخاري بالأقوى، والعرب بالأكثر تحملاً. شكلت الرحلة محطة مهمة في توثيق العلاقات الدبلوماسية البريطانية مع المغرب، وفتحت آفاقاً جديدة للتعاون أنظر إلى :

يصف فيليب درهام تروتر Trotter Philip Durham انطباعاته الأولى عن فاس بقوله: "بعض المناظر التي تظهر من المرتفعات المجاورة للمدينة جميلة جدًا وتختلف تمامًا عن كل ما شاهدته من قبل. ورغم وجود فاس على وادٍ منحدر، فإنها غاية في الجمال، ولا سيما عندما يراها الإنسان من مسافة قريبة"¹. غير أن تروتر سرعان ما يتحرر من تصوراته وأحلامه ليكتشف واقعًا آخر للمدينة، فيقول: "في طريقنا عبر أزقة فاس، وجدنا أنه لا يمكنك عبور عشرة أقدام في هذه المدينة دون أن تجد حفرة يمكن أن تتسبب في كسر ركبة حصان إنجليزي وتهشيم رأس راكبه"².

هذه المقاربة الكولونيالية في خطاب القرن التاسع عشر حول الدول المغربية تتجلى أيضًا في وصف أحد الرحالة لتجربته في تطوان، إحدى المدن المغربية، حيث يقول: "وأنا أعبر المدينة بدا لي وكأنني محاط بمشاهد وشخوص من ألف ليلة وليلة". فالمتجول في أزقة المدينة، حسب وصفه، يمكن أن يرى "الراوي والحلاق وطبيب الحجامه وقالع الأسنان، كما يصادف نساء في طريقهن إلى الحمام رفقة عبداتهن، ويكتمل المشهد في الختام بظهور أحدهن ألف ليلة وليلة"³.

وامتداداً لهذه النظرة الاستشراقية، اتجهت الكتابات الإنجليزية في تناولها للمدن المغربية نحو توظيف القصص والميثولوجيا الشعبية، حيث استثمرت الكتابات ما يسمعه من خرافات حول أصول المدن لتنميق جمالية لكتاباتهن. هذا الأسلوب في سرد الخرافات والأساطير يمثل امتداداً طبيعياً لتصوير المدن كفضاءات غرائبية، إذ يتم من خلاله دمج الواقع مع الخيال لخلق صورة مثيرة ومشوقة للقارئ الغربي. وبهذا المنطق، تتحول الأسطورة

¹ Trotter Philip Durham, Our Mission to the court of Morocco 1880 Under Sir John Drummond, Edinburgh David Douglas, 1881, p123.

² محمد لمعيري، المرجع السابق، 86.

³ نفسه، ص 82.

إلى تاريخ والخرافة إلى جزء من واقع المدينة التي تُعرف بها وتصل إلى القارئ الغربي عبرها، ويتم تفسير الحقائق الثقافية والأنثروبولوجية للبلد من خلالها.

ومن النماذج البارزة على هذا التوظيف للخرافة في الكتابات الإنجليزية ما رواه فرانسيس فلينثر Francis Flinders في تقريره لرحلة المستكشف البريطاني المشهور فرانسيس درايك Francis Drake عند مرور سفينتهم قرب الشواطئ المغربية مقابل مدينة موكادور (الصويرة الحالية)، والتي أطلق عليها اسم "مدينة السباع". يروي فلينثر قصة تسمية المدينة قائلاً: "مررنا قرب الشواطئ المغربية على مقربة من مدينة تدعى 'مدينة السباع' والتي كانت مدينة عامرة ومزدهرة إلى أن طغى أهلها وتجبروا، فعاقبهم الله بأن أرسل لهم جيشاً من الأسود الضارية التي هاجمت المدينة وافترست ساكنتها، حيث لم تستثن أحداً من أطفال ونساء ورجال، مستولية على المدينة بكاملها والتي بقيت ملكاً لها إلى يومنا هذا." ويضيف الراوي أنهم عندما اقتربوا من شاطئ المدينة واجهتهم السباع الضارية بالزئير المخيف والهيجان مهددة بدخول الماء لمهاجمة باخرتهم التي كانت تمر قرب الشاطئ¹.

فعلى سبيل المثال، أوردت نينا إيبتون في كتابها "القديسون والسحرة" أسطورة مدينة تزنيث المغربية، رابطة بين جمال نساء المدينة وأصلها الأسطوري المرتبط بامرأة تحولت من حياة الفسق إلى القداسة.

وتشير بأن نساء تزنيث جميلات و "يُقال إن الكثيرات منهن يتبعن المهنة التي كانت تمارسها السيدة التي أعطت المدينة اسمها". وفقاً لإيبتون، كانت تزنيث ذات جمال مبهر، وتزوجت رجل من المرابطين تحولت إلى حياتها من الفسق إلى القداسة بعد وفاة الزوجها المرابط، عاشت تزنيث بمفردها في خيمة ذات يوم خرج قطاع طرق لمضايقتها وهي تؤدي صلواتها. فلم تكثر لهم وأكملت، ضربها زعيمهم برمحه. تدفق الدم من الجرح المميت

¹ محمد لمعيري، المرجع السابق، ص 82.

وعندما لامس الرمال ، تفجر نبع بأعجوبة بين شجرتي نخيل . أطلق على المدينة التي بُنيت في نهاية المطاف على هذا الموقع اسم ترزيت تكريماً للقديسة.

تحمل هذه الرواية أوجه شبه مع قصة رابعة العدوية، الصوفية المشهورة في العالم العربي. لكن سرد إيبتون يحمل في طياته تعليقات ذاتية تكشف عن موقف متحيز تجاه نساء ترزيت، مستخدمة الأسطورة كأداة للحكم على الأخلاق المحلية¹.

وفي سياق مماثل، نجد مثلاً آخر يجسد هذا النهج في رواية الرحالة آرثر ليرد عن أصل تسمية مدينة القصر الكبير. فعندما زار أثر ليرد هذه المدينة سنة 1879م، روى قصة أسطورية تشبه في بنيتها وأسلوبها ما ذكرته إيبتون عن ترزيت. يحكي أثر ليرد أن السلطان يعقوب المنصور ضل طريقه وهو في رحلة صيد ولما حل عليه الليل تمت استضافته في كوخ صياد سمك فقير لم يكن يعرف أنه السلطان يعقوب المنصور. وقد سر السلطان لكرم وأريحية هذا الرجل فأهداه بناية ملكية في تلك المنطقة سرعان ما انتقل إلى جوارها بعض السكان لتصبح فيما بعد مدينة القصر الكبير².

تتجلى النزعة الخرافية في كتابات الرحالة من خلال بحثهم المستمر عن الجوانب الأسطورية للمدن المغربية. فنجد في رواياتهم صدى للحكايات الشعبية التي تعتمد على المصادفات السعيدة، كلقاء طالب العلم أو الصياد البسيط بالأميرة الجميلة أو الملك الرؤوف. وتنسج هذه الروايات حول تلك اللقاءات قصصاً تثير مشاعر القارئ وخياله. وما القصص التي رواها الرحالة عن ترزيت والقصر الكبير إلا أمثلة على هذا النمط من الكتابة الذي يحول المدينة من فضائها المادي الواقعي إلى فضاء معنوي مليء بالغرائب والعجائب³.

¹ Mohamed Laamiri , the image of morocco, p 11. Accessed on 20/07/2024 at 16:00 PM, https://www.mbs.ma/En/images/Morocco_in_English_Travel_Literature_Conference.pdf

² Arthur Leared, A visit to the Court of Morocco..., op.cit, p 7.

³ Mohamed Laamiri , op.cit, pp 11-12.

وفي السياق ذاته، تبرز رواية الرحالة "شو Shaw" عن "المدينة المتحجرة" في رأس سيم بمقاطعة درنة كمثال نموذجي على هذا التوجه. يصف شو المدينة قائلاً: "توجد في هذه المنطقة تحجرات يُعتقد أنها نتجت عن الطوفان." ويضيف: "المدينة المتحجرة عبارة عن مستوطنة كبيرة دائرية، تحتوي على شوارع ومتاجر وقلعة عظيمة. وقد تحول كل ما فيها إلى حجر بلون أزرق أو رمادي: الأشجار، خاصة الزيتون والنخيل، والناس في مختلف أوضاعهم - من حرفيين يزاولون حرفهم، وأشخاص يحملون أشياء مختلفة مثل الخبز، ونساء يرضعن أطفالهن أو يقمن بعجن الخبز"¹.

ويكشف تحليل هذه الرواية عن ثلاثة مستويات متداخلة في الخطاب الرحلي حول المدن المغربية: المستوى الأول عقائدي وديني، حيث يعتبر أن المدينة عوقبت لأنها تجبرت ولم تدن بدين الحق - من وجهة نظره - وهو المسيحية. وخلاصة هذه المقاربة أن أي فضاء لا يدين بالمسيحية هو فضاء مرفوض يجب إزالته. غير أن الخطاب هنا في الحقيقة موجه إلى القارئ البريطاني في شكل حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي وديني، لينبئه أن الله يعاقب من لا يتبع الدين المسيحي. ومن هنا يصبح فضاء المدينة المغربية مجالاً للوعظ الديني.

ويتعلق المستوى الثاني بالجانب الاستطقي والجمالي للرحلة، والمتمثل في إضفاء المسحة الغرائبية وسرد قصة عجائبية مشوقة تنمق النص الرحلي وتترك عند القارئ رغبة في معرفة المزيد. أما المستوى الثالث فهو كولونيالي استعماري، يتجلى في دعوة غير مباشرة إلى الرسالة الدينية والحضارية الملقاة على المسيحي لتحرير المدينة².

استمر هذا الأسلوب في استخدام الخرافات والأساطير لوصف المدن المغربية لفترة طويلة، مشكلاً جزءاً أساسياً من الأدب الغرائبي الغربي عن الشرق. ومع تطور العلاقات بين الشرق والغرب وزيادة الاحتكاك الثقافي، بدأت تظهر تغيرات في هذا النمط من الكتابة.

¹ Thomas Shaw, Travels Or..., op.cit, p 156.

² محمد لمعيري، المرجع السابق، ص ص 82-83.

أصبح هذا الأدب إما يميل إلى السخرية أو يعبر عن الحنين للماضي. بالإضافة إلى ذلك، ساهم انتشار الفكر الدارويني في ترسيخ فكرة أن الثقافات غير الأوروبية تنتمي إلى 'الماضي'. نتيجة لذلك، تحول الأدب الغرائبي نحو الروايات التاريخية التي صورت الماضي الغريب بطريقة تعكس التطلعات الاستعمارية الأوروبية¹.

وهذا التحول في النظرة إلى الثقافات غير الأوروبية يتجلى بوضوح في كتابات الإنجليز الغربيين في تلك الفترة. على سبيل المثال، نجد في وصف آرثر ليريد **Arthur Leared** للطوائف الدينية المغربية تجسيدا واضحا لهذا الأسلوب الجديد في الكتابة. فبدلاً من الاكتفاء بتسليط الضوء على الجانب الغريب للثقافة المغربية، يقدم ليريد وصفاً يعكس نظرة استشراقية متعالية، حيث يتم تمثيل 'الآخر' بطريقة تصوره كغريب وبدائي، مما يوحي ضمناً بالحاجة إلى تدخل 'الرجل الأبيض' لإنقاذه من معتقداته الخرافية. في فصل بعنوان "التعليم-الدين-الخرافات-فنون الشفاء"، يصف ليريد المشهد الغريب لطقوس عيساوة، معتبراً أنها تعكس "غربة الإسلام"². هذا التحول في الأسلوب يعكس بوضوح كيف أصبحت الكتابات الرحلية أداة لتبرير التدخل الاستعماري.

ويتجلى هذا الأسلوب الاستشراقي بوضوح في وصفه التفصيلي للمشهد، حيث يقول: "بينما لا يزال الرقص المجنون مستمراً، يحدث اندفاع مفاجئ من الحرم، والراقصون، كالرجال الهائجين، ينطلقون بسرعة نحو الماعز المربوطة. عند رؤية هذه الحيوانات، يصل غضبهم المتوحش إلى ذروته. في غضون دقائق قليلة يتم تقطيع الحيوانات البائسة إرباً، وتحدث مأدبة على لحمها النيء". ويضيف: "الكلمات لا يمكن أن تصف المشهد الرهيب. يدخل

¹ Jennifer Yee, op.cit, p 159.

² Lahoucine Aammari, "Rhetorical Strategies of Alterity in Arthur Leared's Morocco and the Moors (1876) and Budgett Mearkin's Life in Morocco (1905) ", **P.J.E.S.**, Vol 7, N°1, 2018, p 55.

المتوحشون العراة بشعرهم الأسود الطويل المضفور، تتقاذفهم حركات الرأس السريعة، وجوههم وأيديهم ملطخة بالدماء، يطلقون صرخات عالية تشبه ثغاء الماعز¹.

وتكشف نصوص آثر ليريد عن نمط متكرر في إضفاء صفة الغرابة على المغاربة، وذلك بهدف التقليل من شأنهم وثقافتهم وإبراز فكرة حاجتهم إلى "مهمة تحضيرية". بالنسبة له، الإسلام مشوب بطقوس "غريبة الأطوار" تؤكد على بدائيتهم وتعصبهم. يصور ليريد هذه المشاهد من وجهة نظر متعالية، مضيفاً تفاصيل عن إلقاء الثعابين على المشاركين واستخدام الكلاب في الطقوس، مما يزيد من تصوير هذه الممارسات كغريبة وبربرية².

في الختام، يتضح أن الغرابة والاستعمار شكلا مفهوميين متشابكين في تاريخ الفكر الإنساني³. استُخدمت تصورات 'الآخر الغريب' لتبرير الممارسات الاستعمارية، بينما شكلت التجارب الاستعمارية بدورها فهمنا وتصورنا للاختلاف الثقافي. هذا التداخل أنتج مساراً فكرياً، تطور عبره فهمنا لهذين المفهومين بشكل غير مباشر، متأثراً بالسياقات التاريخية والاجتماعية المتغيرة. هذا التشابك العميق بين الغرابة والاستعمار يدعونا إلى تأمل نقدي في كيفية تشكل هويتنا وفهمنا للآخر، ويفتح المجال لمزيد من الدراسات حول تأثير هذه التصورات على العلاقات بين الثقافات في العصر الحديث.

2 الأسلوب الخيالي :

في منتصف القرن السابع عشر شهد انتشار واسع لروايات الأسر، التي ألهمت لاحقاً موجة من الأعمال الخيالية حول هذا الموضوع. مع تزايد منشورات الأسرى، ظهرت روايات جديدة تستثمر هذا الاهتمام المتنامي، مقدمة للجمهور قصصاً عن الأسر في الدول

¹ Lahoucine A ammari, op.cit, 55.

² Ibid, pp 55- 56

³ Jennifer Yee, op.cit, p 152.

المغربية، ادعت الواقعية رغم كونها في جوهرها نسجاً خيالياً يستند إلى وقائع تاريخية موثقة.

أبدى القراء الإنجليز شغفاً كبيراً بهذا النمط السردى، مما دفع المؤلفين إلى استغلال هذا الاهتمام ببراعة. فمزجوا في أعمالهم بين الأحداث الحقيقية والتمثيلية، محققين توازناً دقيقاً أضفى على السرد الخيالي مسحة من المصداقية. هذه الأعمال، وإن كانت خيالية في جوهرها، استندت إلى وقائع حقيقية مستمدة من كتابا، مع تزايد الطلب على أدب الرحلات في منتصف القرن الثامن عشر، ظهرت مجموعات ضخمة من كتب الرحلات، استجابة لهذا الشغف، برزت أعمال تمزج بمهارة بين الواقع والخيال، حريصة على إضفاء طابع واقعي على قصصها الخيالية، وفي بعض الحالات، إثراء القصص الحقيقية بتفاصيل خيالية لزيادة جاذبيتها¹.

تُعد رواية "رحلات ومغامرات الكابتن روبرت بويل *Voyages and Adventures of Capitan Robert Boyle* " 1726م، المنسوبة إلى روبرت شيتويند أو تشيتوود *Robert Chetwynd , Chetwood*، نموذجاً بارزاً لهذا النهج الأدبي. تتميز الرواية بقدرتها الفائقة على المزج بين الحقائق التاريخية والعناصر الخيالية، مستندة إلى روايات السفر الحقيقية مع إضافة لمسات إبداعية لتعزيز جاذبية السرد².

يصور العمل بطله روبرت بويل *Robert Boyle* كأسير لدى قرصان من سلا، ليصبح عبداً مفضلاً لسيده "العلج الأيرلندي"، وهي شخصية تعكس واقعاً تاريخياً لوجود قرصنة أقل وحشية. ورغم دقة معظم الأوصاف، إلا أن بعض المبالغات الخيالية تظهر، مثل وصف منزل القرصان كقلعة في غابة، وهو ما لا يتوافق مع طبيعة المغرب آنذاك.

¹ Roland Lebel, op.cit, p 123.

² Ibid, p 120.

تتصاعد الأحداث عندما يلتقي بويل بالسيدة فيلارز Mrs Vilars، أسيرة أخرى، ويهربان معاً. يلتقيان لاحقاً بالسفارة الفرنسية برئاسة السيد بيدو دي سان أولون M.Pidon de saint Olon- المتجهة إلى مكناس للقاء السلطان مولاي إسماعيل. يستغل المؤلف هذه الفرصة لإدراج معلومات دقيقة عن المغرب، مستعيناً بكتاب "الحالة الراهنة لإمبراطورية المغرب Eat présent l'empire du Moroc" (1694)، مما يضيف مصداقية على وصفه للمدينة والقصر والسلطان¹.

تأخذ القصة منعطفاً درامياً عندما تتنكر السيدة فيلارز Mrs Vilars في زي رجل أثناء رحلتهم مع السفارة، لكنها تُختطف رغم حيلتها، مما يضيف عنصر إثارة جديد للسرد. وعلى الرغم من بعض الثغرات المنطقية، تحافظ الرواية على تماسكها وجاذبيتها، منتقلة من المغرب إلى إيطاليا ثم أمريكا.

حققت الرواية شهرة واسعة في القرن الثامن عشر وتُرجمت إلى الفرنسية، حيث نجح بويل في توظيف الأجواء لتقديم مغامرات مثيرة تجذب القراء، وكانت المغامرة المغربية الأكثر تشويقاً بينها. هذا المزيج الفريد من الواقعية والخيال جعل الرواية نموذجاً مميزاً للأدب الإنجليزي في تلك الحقبة، مقدماً للقراء تجربة غنية تجمع بين المتعة والمعرفة التاريخية². استمر هذا النهج الأدبي في المزج بين الواقع والخيال في الكتابات الانجليزية على مدار القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، متطوراً ومتخذاً أشكالاً جديدة. فبينما قدمت رواية "رحلات ومغامرات الكابتن روبرت بويل" نموذجاً مبكراً لهذا الأسلوب في القرن الثامن عشر، شهد القرن التاسع عشر ظهور أعمال أخرى تبنت هذا النهج بطرق مبتكرة، ولكن بدوافع وأساليب مختلفة.

¹ Roland Lebel, op.cit, p 121.

² Ibid, p 122.

من الأمثلة البارزة على هذا التطور في الكتابات الإنجليزية الخيالية كتاب "جولة في إفريقيا" (1819-1821) للكاتبة كاثرين هوتون Catherine Hutton (1756-1846). يمثل المجلد الثالث من هذا العمل، الذي تناول المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، نقلة نوعية في هذا النوع الأدبي. فعلى عكس شيتويند Chetwynd الذي استند إلى خبرات واقعية ومزجها بالخيال، اتبعت هوتون نهجاً مختلفاً تماماً.

يمثل كتاب هوتون إضافة قيمة لسلسلة كتابات سفر النساء في مكتبة تشاوتون هاوس Chawton House Library ، مقدمة نموذجاً مميز . فرغم عدم مغادرتها بريطانيا قط، نجحت كاثرين هوتون Catherine Hutton في نسج رواية سفر مركبة من مصادر ذكورية متعددة، مبتكرة راوياً خيالياً ذكراً لتجاوز القيود الاجتماعية والأدبية المفروضة على الكاتبات في عصرها¹.

هذا الانتقال يوضح التطور في أسلوب كتابة الخيالي، من الاعتماد على الخبرات الشخصية الممزوجة بالخيال كما في حالة رواية بويل، إلى الاعتماد الكامل على المصادر الثانوية والخيال الإبداعي كما في عمل هوتون. هذا التطور يعكس التغيرات في الأدوار الاجتماعية والفرص المتاحة للكتاب والكاتبات على مدار القرنين

تطور الأسلوب الخيالي في كتابات الرحالة والمؤلفين الأوروبيين بصفة عامة والانجليز بصفة خاصة عن الدول المغاربية لم يقتصر فقط على روايات الأسر والمغامرات، بل امتد ليشمل تصوير المدن المغاربية نفسها. هذا التطور يمثل استمرارية للنهج الذي رأيناه في أعمال مثل "رحلات ومغامرات الكابتن روبرت بويل" و"جولة في إفريقيا" لكاترين هوتون، حيث يتم المزج بين الحقائق التاريخية والعناصر الخيالية لخلق سرد جذاب ومثير للاهتمام.

¹ Borooome Saunders, "Women's Travel Writings in North Africa and The Middle East Part III Catherine Hutton, The Tour of Africa", **Women's Writing** , Vol3, 2015, pp 271-272.

تنوعت أساليب تصوير المدن المغربية في كتابات الأوروبيين، حيث مزجوا بين الواقع والأسطورة لتقديم صورة متعددة الأوجه للفضاء الحضري المغربي. استعان العديد منهم بالقصص الشعبية والروايات الأسطورية حول نشأة هذه المدن، مما أضفى بعداً غرائبياً على خطابهم عن الآخر. هذا النهج يتماشى مع الأسلوب الخيالي الذي رأيناه سابقاً، حيث يتم استخدام عناصر من الواقع والتاريخ كأساس لبناء سرد خيالي يجذب القراء الأوروبيين بصفة عامة والانجليز بصفة خاصة.

في هذا السياق، نجد أمثلة بارزة في كتابات جيمس ريتشاردسون وغيره، الذي قدم وصفاً للحياة في الدول المغربية يمزج بمهارة بين الملاحظات الواقعية والتخيلات الأدبية. فعلى غرار ما فعله شيتويند في روايته عن الكابتن بويل، استند هؤلاء الرحالة إلى مشاهداتهم الحقيقية، لكنهم أضافوا إليها عناصر خيالية وتفسيرات ذاتية لزيادة جاذبية السرد وإثارة اهتمام القراء الأوروبيين.

يقدم جيمس ريتشاردسون في كتابه عن رحلته إلى طرابلس مثلاً ساطعاً على هذا الأسلوب. فهو يصف مشهداً بسيطاً - معركة بين نملة وذبابة في حديقة بيته - لكنه يحوله إلى قصة درامية مليئة بالتفاصيل الحية والتأملات الفلسفية، إذ يقول: " شاهدت اليوم باستغراب بالغ في حديقة بيتي معركة حامية بين نملة وذبابة، وهما حشرتان متوفرتان، وبالذات النمل الذي توجد منه أنواع مختلفة الألوان¹. فقد أمسكت النملة والذبابة من أنفها وأطبقت عليها بشدة كما تفعل الحيوانات الأخرى ببعضها. وعبثاً حاولت خلالها رفعهما فوق قطعة قش، إلا أن النملة كانت عازمة على تحقيق هدفها ولم تبدِ أي اهتمام لما أقوم به حتى انهارت الذبابة وتعطلت حركات جناحيها. وتحقق للنملة ما تقعله مصاصو الدماء بعد أن تركت الذبابة جثة هامدة، إذ أتت على ما بها من دم حين تبين لها عجزها عن نقلها إلى

¹ James Richardson, Travels in The Great desert..., op.cit, pp 346.

مكان آخر. والغريب أن المعركة دارت رحاها وسط تجمع آلاف الذباب، ولكن للأسف لم يكثر أحد منهم لابنة عمومتهم في هذه المعركة الموجهة ضدهم جميعاً، ومع ذلك فلا عون يُقدم للضعيف المحتاج.¹

هذا الوصف، رغم بساطته الظاهرية، يعكس نفس روح المزج بين الواقع والخيال التي رأيناها في روايات الأسر السابقة. فريتشاردسون يستخدم هذا المشهد الصغير كنافذة للتعليق على الطبيعة البشرية والحياة في المجتمع المحلي، مضيفاً بعداً رمزياً على ملاحظاته اليومية.

هذا النهج في الكتابة يعكس استمرارية الأسلوب الخيالي الذي رأيناه في الروايات السابقة، لكنه يطبقه على نطاق أوسع ليشمل كل جوانب الحياة في المنطقة. وهكذا، تحولت الكتابات من مجرد سجلات للمشاهدات إلى أعمال أدبية متكاملة، تقدم للقارئ الإنجليزي صورة مركبة عن "الآخر" المغربي، تمزج بين الحقائق التاريخية والجغرافية وبين التخيلات والتفسيرات الذاتية، مما يجعلها أكثر جاذبية وإثارة للاهتمام.

ونجد مثلاً بارزاً من خلال معالجتهم للأحداث التاريخية في الدول المغربية. فقد حولوا الأحداث التاريخية-السياسية إلى قصص رومانسية مثيرة، كما نرى في قصة مقتل سالم التومي على يد عروج. فبدلاً من تناول الحدث في سياقه السياسي والتاريخي، قام جوزيف مورغان القنصل الإنجليزي بتحويله إلى قصة حب مأساوية. فادعى أن عروج قتل سالم التومي بدافع الرغبة في الزواج من زوجته زفيرة، مستنداً في روايته إلى رسائل غرامية مزعومة بينهما². وأضاف إلى القصة نهاية درامية بزعمه أن زفيرة فضلت الانتحار، حيث تناولت سماً أودى بحياتها على الفور. وانتقم بربروس لخيبة أملة من وصيفات الأميرة، فأمر

¹ James Richardson, *Travels in The Great Desert...*, op.cit, pp 346-347.

² Gentleman Who Resided There Many Years, op.cit, pp 15-16.

بخنقهن جميعاً ودفنهن سراً مع سيدتهن، رغم أن التقارير الرسمية ادعت أنهن هربن متكررات¹.

تعكس هذه القصة نموذجاً واضحاً لكيفية تحويل الأحداث التاريخية إلى روايات خيالية جذابة للقارئ الإنجليزي. فقد أضاف الكاتب عناصر الحب والخيانة والمأساة إلى حدث سياسي، محولاً إياه إلى قصة تناسب ذوق القراء الانجليزيين وتوقعاتهم. وهذا النهج في الكتابة يمثل جزءاً من تقليد أدبي أوسع في الكتابة الإنجليزية عن المنطقة المغربية، حيث يتم المزج بين الواقع والخيال لخلق صورة مثيرة ومشوقة عن المنطقة وأهلها.

كما يقدم لنا تمبل غرافيل **Greville Temple** الرحالة الانجليزي الذي زار تونس سنة 1834م، حيث يكشف لنا تفاصيل حبكة تجمع بين الغيرة والمكر والدهاء. بطله القصة زوجة شابة جميلة، كان زوجها على علاقة سرية مع أرملة ساحرة تسكن في الجوار. دفعت الغيرة الأرملة للتجسس على الزوجة، حتى اكتشفت علاقة سرية تجمع بين الزوجة وتاجر يهودي شاب. سعت الأرملة لإيقاع الزوجة في شرك مكيدتها، فأخبرت عشيقها (زوج الشابة) بخيانة زوجته. وعندما عاد إلى بيته بشكل مفاجئ، وجد زوجته وحيدة تذرف دموع العتب على إهماله. لكن إصرار الأرملة قاده للبحث في الصندوق الكبير الذي تحفظ فيه زوجته مجوهراتها، حيث وجد العشيق مختبئاً. أغلق على زوجته غرفتها وهرع للشكوى للباي. لكن الزوجة الذكية لم تستسلم. فهربت عبر نافذة تطل على السطح، وأطلقت سراح شريكها. وعندما جاءت الأرملة لتتشمّت بها، انقلب السحر على الساحر. إذ دفعت الزوجة الأرملة للدخول في الصندوق نفسه لتتثبت أنه يتسع لشخص، ثم أغلقته عليها بإحكام. بلغت القصة ذروتها في قاعة المحكمة، حيث فُتح الصندوق أمام الباي والحاضرين، ليجدوا بداخله، بدلاً من العشيق المزعوم، الأرملة الواشية في موقف محرج للغاية، مما أثار ضحك الجميع، بما

¹ Gentleman Who Resided There Many Years, op.cit, p 23.

فيهم الباى نفسه . هكذا انقلبت حيلة الأرملة عليها، في قصة تذكرنا بحكايات بوكاتشيو، حيث تمتزج فيها عناصر المكر والدهاء والفكاهة، لتعكس جانباً من الحياة الاجتماعية في تونس آنذاك¹.

بالمثل، نجد في كتابات درموند هاي John Drummond Hay عن رحلته في المغرب سنة 1835م، استمراراً لهذا النهج الأدبي. إذ يقول : " أثناء رحلتنا، صادفنا منظرًا مؤسفًا - جثة جمل ميت، قد كُسر ظهره في محاولة للعبور . علمت أن هذه الحوادث ليست نادرة، خاصة خلال فصل الشتاء عندما تحاول قوافل الغرب العبور خلال موسم الأمطار . للأسف، تصبح هذه الجمال المسكينة فريسة سهلة للثعالب المتربصة، التي تنتظر دائماً مثل هذه الكوارث.

ثم يضيف قائلاً : " تذكرت قصة غريبة رواها لي أحد البغّالين . قال إنه ذات مرة، عندما صادف فجأة جثة جمل، سمع ضوضاء خافتة تصدر من داخلها . عندما نظر إلى الجثة، وجد زوجين من صغار الثعالب بداخلها . وصف كيف خلع جلابته بسرعة وألقى بالصغيرين فيها، مسميًا إياهما "طالب يوسف وزوجته . هذا اللقب - طالب يوسف (أي الكاتب يوسف) - يطلقه السكان المحليون على الثعلب تقديرًا لمكره . ومن المثير للاهتمام أن المسلمين في هذه المنطقة، رغم نفورهم الشديد من لحم الخنزير، يستمتعون بأكل لحم الثعلب.

لاحظت أيضًا أن الثعلب، رغم كونه حيوانًا مفترسًا، لا يقتصر غذاؤه على اللحوم فقط . فهو يأكل بشراهة ثمار النخيل، وتوت العليق، والآس . وهذا يشبه إلى حد ما الثعلب في مناطق أخرى، المعروف بولعه بالعنب عندما يتمكن من الحصول عليه².

¹ Greville Temple, Excursions in The Mediterranean Algiers and Tunis, Vol 2,...op.cit, pp 155-156.

² John H.Drummond Hay, op.cit, pp 18 19 .

الواضح من نص درموند هاي John Drummond Hay أنه يتجاوز أسلوب الوصف الواقعي المباشر إلى أسلوب خيالي متميز. فهو لا يكتفي بنقل المشهد كما هو (جثة جمل على قارعة الطريق)، بل يحوله إلى قصة متخيلة غنية بالتفاصيل والأحداث الغريبة. يتجلى هذا الخيال في عدة عناصر: تصويره للثعالب الصغيرة داخل جثة الجمل، وإضافته طابعاً إنسانياً عليها من خلال تسميتها، وربطه للمشهد بالمعتقدات المحلية حول الثعلب ومكره. وبهذا يتحول النص من مجرد وصف رحالة إلى نص أدبي خيالي يمزج بين الواقع والمتخيل، مما يجعل القارئ يتساءل عن حدود الحقيقة والخيال في هذا السرد.

هذه الأمثلة توضح كيف تطور الأسلوب الخيالي في كتابات الإنجليزية ليشمل ليس فقط القصص الكبرى عن الأسر والمغامرات، بل أيضاً التفاصيل اليومية للحياة في الدول المغربية وتصوير مدنها. فإن هؤلاء الكتاب نجحوا في تقديم صورة غنية ومتعددة الأبعاد عن الحياة الدول المغربية، مازجين بين الواقع والخيال بطرق مبتكرة ومثيرة للاهتمام. هذا النهج في الكتابة يعكس استمرارية الأسلوب الخيالي الذي رأيناه في الروايات السابقة، لكنه يطبقه على نطاق أوسع ليشمل كل جوانب الحياة في المنطقة. وهكذا، تحولت كتابات من مجرد سجلات للمشاهدات إلى أعمال أدبية متكاملة، تقدم للقارئ الإنجليزي صورة مركبة عن "الآخر" المغربي، تمزج بين الحقائق التاريخية والجغرافية وبين التخيلات والتفسيرات الذاتية، مما يجعلها أكثر جاذبية وإثارة للاهتمام.

3 السخرية أو التهكم :

السخرية أو التهكم هي فن أدبي يتميز بالنقد اللاذع، حيث يقوم الكاتب بتسليط الضوء على عيوب الأفراد أو المؤسسات أو المجتمع بهدف نقدها¹. وهي أداة أدبية تهدف إلى

¹ William J.Long, English Literature, Gunn and Company, Boston, USA , 1909, p 161.

كشف النقائص والمفارقات في الواقع الاجتماعي أو السياسي، غالباً بأسلوب يجمع بين الذكاء والفكاهة المرة¹. شهدت السخرية تحولاً جذرياً في مكانتها وتأثيرها عبر التاريخ. ففي العصور التي سبقت القرن الثامن عشر، كانت مجرد أداة بلاغية بسيطة، تختبئ في ظل أساليب أدبية أكثر هيمنة. غير أن ظهور المدرسة الرومانسية في مطلع القرن التاسع عشر أدى إلى ارتقاء السخرية من كونها مجرد حيلة لغوية إلى مرتبة المفهوم الفلسفي العميق. هذا التحول الجوهرى منحها قوة غير مسبقة في تشكيل الفكر والأدب²، وكان له تأثير بالغ على الخطاب الاستعماري، خاصة في سياق الكتابات عن المنطقة المغربية. في هذا السياق، برزت علاقة تكاملية مثيرة للاهتمام بين السخرية والغربة كأسلوبين إبداعيين، حيث استُخدمت السخرية كأداة لإبراز الطبيعة المتخيلة والمصطنعة للغربة في تصوير هذه المجتمعات.

هذا المزيج من السخرية والغربة خلق توترًا في النصوص الاستعمارية، مما أضفى عليها عمقًا، دفع القراء - سواء عن قصد أو غير قصد - إلى التفكير النقدي في تصوراتهم عن الثقافات المغربية. أصبحت السخرية وسيلة لاستكشاف الحدود الضبابية بين الواقع والخيال في تمثيل هذه المجتمعات، مما أدى إلى خلق صور نمطية ومبالغ فيها.

في بعض الحالات، تحولت السخرية إلى أداة للنقد الذاتي في الأدب الاستعماري، حيث سخر بعض الكتاب - ربما دون وعي - من دوافعهم الخاصة وتصوراتهم عن "الآخر" المغربي. هذا أضاف طبقة إضافية من التعقيد إلى النصوص، مما دفع القراء المعاصرين إلى التفكير في عملية إنتاج واستهلاك الصور الغريبة عن المجتمعات المغربية. من خلال الجمع بين السخرية والغربة، تحدى الخطاب الاستعماري الأعراف الأدبية التقليدية، مما فتح

¹ William J.Long, op.cit, p 161.

² Wayne C.Booth, A Rhetoric of Irony, The University of Chicago Press, London, 1974, p IX.

الباب لتحليل نقدي لهذه الأشكال من التعبير والتصوير في الأدب الاستعماري الموجه نحو دول المغاربية¹.

لتوضيح هذه الأفكار، لنأخذ مثلاً على استخدام السخرية في وصف عادات المغاربة، كما ورد في كتابات آرثر ليريد. فيما يتعلق بلعب البارود، وصفه ليريد وصفاً دقيقاً، ثم تبرم من تكراره في كل حل وترحال، وكأن لسان حاله يقول إن المغاربة لا هم لهم إلا اللعب. وعلى الرغم من اعترافه بأن مرافقي البعثة السفارية من المغاربة كانوا يحرصون على الترويح عن أعضاء البعثة بلعب البارود²، فإن وصف آرثر ليريد للأمر ينطوي على تهكم واضح. يقول: " في أثناء تقدمنا، كان حراسنا المغاربة يشرفوننا كل يوم بلعب البارود، عندما كانت تسمح الأرضية بذلك، فإن اللعب لم يكن يكاد يتوقف. كان غالباً ما يبدأ قبل طلوع النهار، وغالباً ما ينتهي بعد الغروب، وعند جلوسنا لتناول وجبة العشاء في خيمتنا. لقد كان مشهداً لطيفاً أن ترى 10 أو 12 مغربياً مندفعين في آن واحد، وفرسانهم الصغيرة الجموحة تشد أعصابها وعضلاتها، والتي يبدو أنها تتمتع بالعرض تماماً كالفرسان، كانت ملابس الرجال ممتلئة بالنسيم، وأعينهم تقدف النار عندما كانوا يلوحون بنادقهم ويلقون بها في الهواء ثم بصرخة مؤثرة وهائجة واحدة (وهي دعاء لله بأن يوجه رصاصاتهم إلى قلوب أعدائهم) يفرغون بنادقهم في وقت واحد، ثم يكبحون جيادهم، ويرجعون فجأة"³.

كما يبدو من هذا النص، وما يعقبه من تعليقات، فإن محاولة المغاربة لـ"تشريف" الضيوف – أعضاء البعثة السفارية – لم تشفع لهم لدى المؤلف، فلا تراه إلا متهماً منهم. حتى صرختهم في اللعب أعطى لها المؤلف تفسيراً فيه من إثارة لحفيظة القارئ الأوروبي ما لا يخفى. على كل حال، تبقى هذه الملاحظة التي أوردها المؤلف في ثنايا هذا الوصف هينة إلى حد بعيد عندما تقارن بكثير من تعليقاته على هؤلاء المغاربة. فهو وإن كانت

¹ Jennifer Yee, op.cit, p 164.

² خالد شاوش، المرجع السابق، ص 313.

³ Arthur Leared, A visit to cour of Morocco, ... op.cit, p p 8-9.

رحلاته قد سمحت له - كما قال في مقدمة هذا الكتاب - بالتعرف، أكثر من أي وقت مضى على الحياة في هذا البلد وعلى تقاليده، تراه يصف المغاربة بأبشع الأوصاف وأحقرها¹.

يعد وصف جيمس ريتشاردسون James Richardson لجنود طرابلس مثلاً بارزاً على استخدام السخرية في سياق الخطاب الاستعماري. من خلال لغته الساخرة، يقدم ريتشاردسون صورة كاريكاتورية للجنود المحليين، مستخدماً التهكم لإبراز ما يراه كفجوة بين التوقعات والواقع.

فهو يبدأ بالتركيز على مظهرهم الخارجي، مبالغاً في وصف سمرة بشرتهم إلى حد القول بأنهم "أوشكوا أن يتحولوا إلى اللون الأسود". هذه المبالغة لا تهدف إلى الوصف الدقيق بقدر ما تسعى إلى خلق صورة غريبة ومضحكة في ذهن القارئ.

ينتقل بعدها إلى أسلحتهم وملابسهم، مستخدماً تشبيهات ساخرة تقلل من شأنهم. فالبنادق "عاجزة"، والملابس مجرد "خرق بالية". هذه الأوصاف تخدم غرضاً مزدوجاً: فهي تثير السخرية من جهة، وتعزز الشعور بالتفوق لدى القارئ الغربي من جهة أخرى.

ذروة السخرية تأتي في وصفه لهم بـ "الهيكل العظمية" و "المجموعة الخائرة القوى". هنا، يستخدم ريتشاردسون التناقض بين التوقعات (الجنود الأقوياء الموعودون) والواقع (الجنود الضعفاء الحاليون) لخلق مفارقة ساخرة².

هذا الأسلوب في الكتابة يعكس بوضوح استخدام السخرية كأداة في الخطاب الاستعماري لتشكيل صور نمطية عن المجتمعات المحلية. من خلال هذه السخرية، يحاول ريتشاردسون

¹ خالد شاوش، المرجع السابق، ص 314.

² James Richardson, Travels in the Great...op.cit, p 32.

James Richardson ليس فقط وصف ما يراه، بل أيضاً ترسيخ فكرة عدم كفاءة وضعف السكان المحليين، مما يخدم في النهاية الخطاب الاستعماري الأوسع.

تقدم لنا ابنة القنصل بلانكي عن الأحداث في الجزائر سنة 1806-1812 مثلاً آخر على استخدام السخرية في الكتابات الانجليزية، مكملة بذلك الصورة التي رسمها جيمس ريتشاردسون **James Richardson** عن جنود طرابلس. في حين ركز جيمس ريتشاردسون **James Richardson** على السخرية من المظهر الخارجي والقدرات العسكرية للسكان المحليين، يتجه نص ابنة القنصل اليزابيث بروتون **Elizabeth Broughton** إلى السخرية من العلاقات الدبلوماسية والتنافس بين القوى الأوروبية في المنطقة.

تستخدم الكاتبة أسلوباً ساخراً لوصف التنافس بين القناصل البريطانيين والفرنسيين على الأسبقية في حضور الداي. فهي تصف هذا التنافس بطريقة تجعله يبدو سخيلاً وغير لائق، مشيرة إلى أن "المهارة الميكافيلية" لم تكن هي الحاسمة في هذه المنافسة، بل "الرشاقة الشخصية الفائقة". هذا الوصف يهدف إلى إظهار عبثية هذه المنافسات من وجهة نظر الكاتبة.

كما نلاحظ استخدام السخرية في وصف ردود فعل "رجال البلاط ذوي اللحي الطويلة" الذين يشاهدون هذه "معارض الجمباز الأوروبية غير اللائقة". هنا، تستخدم الكاتبة التباين بين الصورة النمطية للحكام المحليين (ذوي اللحي الطويلة) وتصرفات الدبلوماسيين الأوروبيين لخلق مفارقة ساخرة¹.

ويتجلى نموذج آخر للسخرية والغربة في كتاب توماس شو **Thomas Shaw** عن الحياة البدوية. يتميز أسلوبه بتوظيف المفارقات الساخرة بشكل متقن، خاصة في مقارناته المتعمدة بين العظمة التاريخية والبساطة المعاصرة. فعندما يقارن بين قرطاج التاريخية العظيمة والقرى

¹ Elizabeth Broughton, Six Years ...,op.cit, p 10.

البدوية البسيطة (الدشكرات)، مدعياً بتهكم أن قرطاج "لم تكن أكثر من واحدة من هذه الدشكرات"، يكشف عن نظرة استعلائية واضحة. كما يتجلى أسلوبه الساخر في وصفه للغرف متعددة الوظائف في المساكن البدوية، حيث يضع الأطفال في نفس قائمة الأفراخ والعجول، مستخدماً هذا التشبيه لإبراز ما يراه كبدائية نمط حياتهم¹.

هذا الأسلوب في الكتابة يتوافق مع ما رأيناه في نص جيمس ريتشاردسون **James Richardson** ، حيث يتم استخدام السخرية كأداة لتسليط الضوء على ما يراه الكاتب كتناقضات أو عيوب في المشهد الاستعماري. ومع ذلك، فإن سخرية بلانكي تتجه بشكل أكبر نحو نقد السلوك الأوروبي نفسه، مما يضيف بعداً جديداً للسخرية في الخطاب الاستعماري.

في النهاية، فإن دراسة هذه العلاقة بين السخرية والغربة في الخطاب الاستعماري تجاه المنطقة المغربية، كما رأينا في كتابات أثر ليريد وريتشاردسون وبلانكي، تكشف عن الآليات المعقدة التي استخدمت لتشكيل وترسيخ الصور النمطية والتصورات المشوهة عن هذه المجتمعات. هذا التحليل يدعونا اليوم إلى إعادة النظر في هذه النصوص بعين نقدية وواعية، مما يساعدنا على فهم أعمق لتأثير الخطاب الاستعماري على تصوراتنا عن الثقافات الأخرى وكيفية تشكيل هذه التصورات عبر الزمن.

4 الأسلوب الوصفي :

تميزت الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية بتشابك بين الوصف والسرد، مما خلق نسيجاً أدبياً متماسكاً ومعقداً. هذا التداخل تجلى في استخدام أفعال مثل "لاحظنا" و"شاهدنا" وعلى سبيل المثال نذكر وصف الأسير جوناثان كواردي **Jonthan Cowdery** لميناء طرابلس إذ يقول : "واستطعنا من هنا أن نشاهد سفينتا على الصخور وهي مليئة

¹ Thomas Shaw, op.cit, p 222.

بالحراس ومحاطة بالقوارب ولاحظنا تياراً مستمر من القوارب ذاهبة وراجعة بغنائم السفينة ورأينا هؤلاء السراق يمشون ...¹. مما جعل الفصل بين الوصف والسرّ أمراً صعباً. وقد برزت عين الكاتب كأداة محورية في التقاط وتقديم المشاهد المختلفة للقارئ، متجاوزة رؤيته الفردية لتشمل شبكة بصرية متكاملة.

هذه الشبكة البصرية انقسمت إلى قسمين رئيسيين: شبكة الرحالة، التي ضمت الكاتب ومرافقيه، وشبكة المرتحل إليهم، التي شملت السكان المحليين. هذا التعدد في وجهات النظر خلق طبقات متعددة من الوصف، مازجاً بين رؤية الرحالة ورؤى الآخرين، مما وفر للقارئ صورة أكثر شمولية وتعقيداً للمشهد المغربي².

تميزت الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية بتركيزها على جوانب في الوصف غالباً ما أغفلها الكتاب المحليون، مثل عادات اللباس والأكل والسكن وأنماط السلوك. وقد تراوح أسلوب الوصف بين ما يمكن تسميته "الاستغراب الرومانسي" وبين النظرة الموضوعية. ففي بعض الأحيان، نجد السخرية من ممارسات "الآخر" والمبالغة في وصفه بمظاهر البداوة والتخلف. ومع ذلك، في أحيان أخرى، قدمت هذه الكتابات وصفاً رومانسياً إيجابياً للطبيعة والمدن المغربية.

ويتجلى هذا الأسلوب الوصفي المتنوع في كتابات الطبيب الإنجليزي وليام لومسيري، حيث يصف الطبيعة بقوله: "تجلت الغابة عبر تعرجات الأشجار بمظهر فريد وخطاب". وفي وصفه لمدينة العرائش، يقول: "تعانق التعرجات الرقيقة للنهر مع أشجار النخيل المتناثرة...

¹ Jonthan Cowdery, op.cit, pp 7-8.

² حكيمة بوقرومة، "تقنيات الكتابة في الرحلة المغربية - ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس لمحمد علي برادة أنموذجاً"، حوليات الجزائر 01، المجلد 35، العدد 01، الجزائر، 2021، ص 902.

كل ذلك يخلق تأثيراً ساحراً¹. ويضيف في موضع آخر: "يا له من شعور بالدهشة عندما خرجت من خيمتي ورأيت الوادي الجميل الذي يسقي سهول المغرب. كان مشهداً ساحراً، انبهرت به لدرجة أنني لم أستطع أن أقرر مغادرة المكان الذي كنت أستمع فيه بهذا المنظر. كنت أشعر أيضاً ببعض الحزن لمغادرة هذه الجبال الشاهقة، التي كانت مناظرها الخلابة تقدم لفضولي الكثير من الأشياء المثيرة"².

ونجد وصفاً مماثلاً في كتابات ابنة القنصل بلانكي، إذ تقول: "كثيرة هي الشجيرات والأشجار والمشاهد الجميلة للبحر التي تخطف الأنظار، وفي طريقنا نحو بقعة ظليلة تحيط بها الأشجار من كل جانب، تشكل الطريق على هيئة زاوية تقود إلى قمة الجبل حيث تقع منازل الريف لشقيقتي الكبرى المحبوبة والقنصل الأمريكي. كان المسار رومانسياً جميلاً للتسلق، ونحن نواصل طريقنا إليهما. وبينما كنا نتعرج حول الجبال، كانت تظهر أمامنا مساحات مستوية متفرقة، تظللها عرائش طبيعية من نباتات متسلقة عطرية تتدلى فوق رؤوسنا، أو تمتد على جانبي الطريق المحفور في الجبل. وفي موقع معين، كان هناك نسيج طبيعي مذهل تشكله زهور العاطفة الممتدة لمسافات طويلة، حيث تتشابك أغصان الكرمة"³.

أما جريفيل تيمبل **Greville Temple**، فيقدم وصفاً رومانسياً لمدينة سوسة بتونس، يجمع فيه بين الدقة في رصد التفاصيل والتعبير العاطفي عن جمال المكان. يتجلى الطابع الرومانسي من خلال التركيز على الجمال الطبيعي للمدينة، بدءاً من مبانيها البيضاء المبهرة، ومروراً بمزارع الزيتون وأشجار الفاكهة، وصولاً إلى بساتين النخيل المحيطة بها. كما

¹ Renald Lebel, op.cit, p 128.

² William Lempiere, op.cit, p 137

³ Elizabeth Brouthon, Six Years..., op.cit, p 300.

يستخدم لغة عاطفية ووصفية غنية، تتجلى في كلمات مثل "مبهر" و"مبهج" و"جميل للغاية"، مع تركيز خاص على التناغم بين العناصر الطبيعية والمعمارية¹.

وفي وصفه لمدينة المهدية بتونس، يقول تمبل غرافيل **Greville Temple** : "انطلقنا مسرعين من هناك مع اقتراب المساء، قاطعين مسافة تسعة أميال إلى المهدية، لنجد بواباتها موصدة عند وصولنا. غير أن هذا لم يكن عائقاً كبيراً، إذ وفرت لنا الفجوات العديدة في جدرانها مداخل متنوعة. وقد شكلت الكتل المظلمة والعايسة للأسوار والأبراج الإسبانية القديمة، بخطوطها العريضة الخشنة المرتسمة على خلفية السماء الصافية المضاءة بالقمر، تبايناً جميلاً مع الحصون المغربية الحديثة البيضاء المتألئة تحت أشعة القمر الناعمة، مما خلق مشهداً ساحراً"².

هذه الملاحظات مثلت نقلة نوعية في أدب الرحلات، إذ تجاوزت الانشغالات التقليدية للمسافرين السابقين، متعمقة في جمال المناظر الطبيعية المغربية ويعتبر وليام لومبرييه **William Lempiere** أوائل الذين يمثلون هذا اتجاه الرومانسي. لكن الأمر لم يقتصر على الوصف الرومانسي فحسب، بل امتد ليشمل استخلاص العبر والتأملات الفلسفية. فعند رؤية القصور المتهاكة، استنتج أحد الرحالة أن "مساكن رعايا الحكام المستبدين تخشى غضب السلطان أكثر من خوفها من تقلبات الزمن"، مسلطاً الضوء على حقبة كاملة من التاريخ المحلي³. وفي هذا الصدد نذكر مثالا عن ذلك يقول وليام لومبرييه **William Lempiere** " موقع طنجة ليس أقل من ممتع، المنازل بشكل عام مبنية بشكل سيئ، وتشير إلى البؤس"⁴.

¹ Greville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2,...op.cit, p 123.

² Ibid, p136

³ Renald Lebel, op.cit,p 128.

⁴ William lampiere, op.cit, p 5.

هكذا، عكس هذا الأسلوب الوصفي المعقد الطبيعة الاستعمارية للكتابات الإنجليزية حول المنطقة المغربية، مقدماً المشاهد والثقافات المحلية من خلال عدسة مركبة تجمع بين نظرة المستكشف الغربي ووجهات نظر متنوعة أخرى. ورغم هيمنة الأحكام المسبقة أحياناً، إلا أن هذه الكتابات قدمت أيضاً رؤية قيمة للحياة والطبيعة في المنطقة المغربية، مساهمة في تشكيل الصورة الغربية عن هذه المنطقة لفترات طويلة.

5+ الأسلوب السردى :

يتميز أسلوب السرد في الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية بخصائص مميزة تعكس الخلفية الفكرية والثقافية للكتاب البريطانيين في سياق الإمبراطورية والاستكشاف. وكما يشير إدوارد سعيد، كان الكاتب البريطاني يتأرجح بين عالمين: عالم المركز (بريطانيا) والعالم القابل للاستكشاف (الدول المغربية). هذا التأرجح خلق نظرة مميزة للـ"خارج"، حيث صُوِّرت المناطق المغربية بشكل غامض وغريب، وكموضوع للسيطرة أو التجارة أو حتى القمع¹.

وفي إطار هذه النظرة المزدوجة للعالم، تميز كتاب الرحلات الإنجليزي بجمعهم بين السرد الأدبي والتجربة العملية المباشرة. فبالإضافة إلى عناصر السيرة الذاتية والحبكة والشخصيات، استفادوا من تجاربهم الشخصية في المنطقة، مما أضفى على كتاباتهم عمقاً وواقعية أكبر مقارنة بالأدباء الذين لم يغادروا بريطانيا. هذا المزيج جعل آراءهم ومواقفهم أكثر تأثيراً على القراء وصناع القرار².

¹ Said Edward, culture and Imperialism, A Division of Random House, New York, 1994, p74.

² خالد شاوش، المرجع السابق، ص 326.

ويبرز في هذا السياق التركيز الكبير على الدقة والتفصيل في الوصف، خاصة في العصر الفيكتوري¹. وكما أشارت ماري لويز برات² Mary louise Pratt ، كان إثبات الاستكشاف يتم عبر النص المكتوب، حيث لم يكن الاكتشاف يُعتبر حقيقياً إلا بعد توثيقه كتابةً. هذا التوثيق كان يأخذ أشكالاً متعددة مثل الخرائط، التقارير، اليوميات، والمحاضرات³. نجد مثلاً على هذه الدقة في تقارير الجمعية الجغرافية الملكية، حيث نجد وصفاً دقيقاً للتضاريس والمناخ في الدول المغربية، كما في وصف جورج فرانسيس ليون لمنطقة الواقعة جنوب مرزق، وحول غات وفزان ورسم خريطة توضيحية لهذه البلاد.

وفي سياق هذا التوثيق الدقيق للرحلات الإنجليزية في المنطقة المغربية، تبرز أهمية كتابات جون بوفّا كنموذج متميز يجمع بين الدقة العلمية والحس الأدبي. وتتجلى خصائص هذا الأسلوب السرد في كتاب "رحلات عبر امبراطورية المغرب" لجون بوفّا، حيث يقول: "إن المزيج الجميل للبحيرات والغابات والوديان الخضراء، التي تشكل مناظر طبيعية ساحرة، أعاد إلى ذاكرتي تلك المشاهد التي تأملتُها كثيراً في أيام شبابي على حدود سويسرا. تزخر

¹ العصر الفيكتوري 1837-1901: يسمى بالعصر الفيكتوري نسبة للملكة فكتوريا التي حكمت الفترة 1837-1901 ، كان هذه الفترة تحولات عميقة في تاريخ بريطانيا، شهدت هذه الحقبة تغيرات جذرية في المجتمع بدءاً من النمو الديمغرافي الهائل وصولاً إلى التحول الصناعي الذي جعل بريطانيا " ورشة العالم " ومركزاً مالياً عالمياً ، أما على المستوى الأدبي، فقد تميزت هذه الفترة بهيمنة النثر و الرواية ، مع التركيز على أدب هادف يكشف الحقائق الاجتماعية و النفسية، ويسعى لرفع المستوى الأخلاقي و الفكري للمجتمع. للاستزادة أنظر الى : Ronald Carter and John McRae, op.cit,pp 224-225.

² ماري لويز برات: أكاديمية في مجال الدراسات الإنسانية، شغلت مناصب أستاذية في جامعتي نيويورك وستانفورد. اشتهرت بأبحاثها في مجالات الأدب والمجتمع بأمريكا اللاتينية، مع تركيز خاص على الدراسات الثقافية للاستعمار والإمبريالية. نشرت أعمالاً علمية متنوعة في الأدب المقارن ودراسات النوع الاجتماعي، وتوجت مسيرتها الأكاديمية برئاستها لجمعية اللغة الحديثة عام 2003، مما يعكس مكانتها المرموقة في الأوساط الأكاديمية. للاستزادة أنظر الى:

Mary louise Pratt, Imperial Eyes ; Travel Writing and transculturation, second edition, Routledge, London, 2008, p I.

³ Ibid, p200.

البحيرات بكل أنواع الطيور المائية والأسماك الجميلة، وتحيط بها القرى والأديرة والمنازل المقدسة؛ هذه الأخيرة يسكنها أحفاد المارابوت القدامى، الذين يحظون بأعلى درجات التبجيل بين السكان"¹.

وفي مقابل هذا الأسلوب الوصفي الذي يركز على الجمال الطبيعي، يظهر أسلوب مختلف في كتابات هاملتون عن رحلته في طرابلس، حيث يركز على التفاصيل الأمنية والجغرافية إذ يقول : "وصلنا إلى منطقة زاريس حيث قضينا الليل، مع الحرص على البقاء يقظين نظرًا لسمعة العبيد السيئة في السرقة... زاريس عبارة عن واد به آبار، تحيط به تلال ذات قمم بارزة تنمو فيها نباتات العرعر والزعرتر البري، مما يملأ الهواء بعطرها"². نلاحظ هنا كيف يمزج الكاتب بين الوصف الطبيعي والملاحظات الاجتماعية، مما يعكس النظرة المزدوجة التي أشار إليها إدوارد سعيد.

ولا يقتصر تميز كتابات الرحالة الإنجليز على أسلوب الوصف فحسب، بل يمتد إلى طريقة تنظيمهم للأحداث. فرغم أن الكتاب غالبًا ما التزموا بالتسلسل الزمني، وهو تقليد راسخ في أدب الرحلات يهدف إلى إقناع القارئ بواقعية ما يُنقل، إلا أننا نجد أحيانًا استخدامًا لتقنية الاسترجاع³. ويتجلى هذا بوضوح في كتابات توماس كاكجيل عن تونس، حيث بدأ بالحديث عن الفترة المرادية من عهد باي محمد الثاني (1675-1698) وصولاً إلى عصر حمودة باشا (1782)⁴. وبالمثل، نجد الطبيب الإنجليزي جون بؤفا John Buffa في زيارته للمغرب يسرد تاريخ تأسيس الدولة المغربية، بدءًا من الإدريسي مؤسس الدولة الإسلامية في الغرب، مرورًا بابنه إدريس الثاني، وصولاً إلى حاكم مولاي سليمان⁵.

¹ John buffa, op.cit, p 46.

² James Hamilton, op.cit, p 25.

³ عاطف سالم، البلاد التونسية في عيون الرحالة الألمان (1881-1535)، نقوش عربية، تونس، 2021، ص 354.

⁴ Thomas MacGill, op.cit, pp 3-13.

⁵ John Buffa, op.cit, p 129.

وتكتمل صورة هذا التنوع في الأساليب السردية مع كتابات الرحالة لجون كيندي كلارك John Clark Kennedy صاحب كتاب "الجزائر وتونس" (1845) نموذجاً مميزاً يجمع بين الوصف الجغرافي المنظم والسرد القصصي. يبدأ كلارك رحلته من مرسى تونس، مقدماً للقارئ لمحة تاريخية وثقافية عن المدينة، ثم ينطلق في رحلة متدرجة نحو الجنوب، مازجاً بين الوصف الدقيق للمشهد التونسي والقصص الشخصية المشوقة¹.

في الختام، نرى أن أسلوب السرد في الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية كان مزيجاً مميزاً من الوصف الدقيق، النظرة الإمبريالية، والأسلوب الأدبي. هذا المزيج ساهم في تشكيل صورة معينة عن المنطقة في الذهنية البريطانية والغربية، وكان له تأثير كبير على فهم وتصوير هذه المناطق لفترات طويلة.

6 أسلوب الهجانة Hybridity :

تعني الهجانة مزج ثقافة المستعمر والمستعمر، وتؤدي إلى إعادة النظر في سلطة المستعمر وخطابه، وتسمح بظهور أصوات ومعارف كانت مهمشة سابقاً. أما تأثير الهجانة على الهويات، فيتمثل في تخلُّق هويات مركبة لا تنتمي بالكامل لثقافة واحدة، وتجعل الهوية في حالة تفاوض مستمر بين الثقافات المختلفة، وتتحدى فكرة الهوية الموحدة والثابتة.

تظهر هذه الهجانة في أسلوب الكتابات الإنجليزية، حيث تتضمن مشاركة السكان الأصليين في السرد، رغم أن الراوي الرئيسي هو الكاتب الإنجليزي²، مما يخلق نصوصاً متعددة الأبعاد. على سبيل المثال، نذكر أعمال أثر ليجيد، وقنصل براثويت، وجيمس هاملتون، وتوماس ماكجيل، وجوناثان كوردي، وإليزابيث بروتون، وماثيو كيري، وجون كيندي كلارك، وغيرهم من الكُتّاب الذين يمثلون هذا النوع من أسلوب الكتابة. فبسبب جهلهم

¹ J.Clark Kennedy, Algeria and tunis in 1845, Vol2 , op.cit, p (contents).

² Sadik Rddad, "Agency Relocated, Hybridity and Resistance in some British Travel Accounts on Morocco", **S.T.W.**, Vol3, Issue 1, London, 2010, p 116.

باللغة العربية، لم يتمكنوا من التواصل مع المغاربة بصفة مباشرة، مما جعلهم يعتمدون على غيرهم، فتم تعيين مترجمين لهم يخبرونهم ويفسرون لهم. فقد كانوا ينقلون ما يسمعون من المترجمين، على عكس بعض الكتّاب الإنجليز الذين أتقنوا العربية وتمكنوا من التحدث بها والتواصل مع سكان الدول المغربية بصفة مباشرة.

ولهذا يُجمع العديد من الرحالة والمستكشفين الإنجليز البارزين، مثل ريتشاردسون وجون فرانسيس ليون وجيمس غراي جاكسون وجيمس بروس والدكتور شو، على الأهمية القصوى لإتقان اللغة العربية أثناء السفر في البلدان المغربية بصفة خاصة والعربية والإسلامية بصفة عامة. فهم يرون أن اكتساب هذه المهارة اللغوية لا يقتصر على كونها أداة للتواصل فحسب، بل تمثل درعاً واقياً من المخاطر المحتملة وعاملاً حاسماً في نجاح الرحلة.

ويبرز جيمس غراي جاكسون كأحد أبرز المنظرين لفكرة الاندماج الثقافي الشامل. فهو لا يكتفي بالدعوة إلى تعلم اللغة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، مشدداً على ضرورة تبني العادات والتقاليد المحلية، بما في ذلك أسلوب اللباس. ويرى جاكسون أن هذا النهج الشمولي في التكيف الثقافي يُعد مفتاحاً أساسياً لفتح أبواب التواصل الفعال وتجنب سوء الفهم الثقافي الذي قد ينشأ بين الزائر والمجتمع المضيف.

في سياق نقده البناء، يسلط جاكسون الضوء على تجارب بعض المستكشفين الأوروبيين، مثل السيد بارك والسيد هورنمان، الذين أخفقوا في التأقلم مع البيئة المحلية. ويبين كيف أن هذا الإخفاق لم يقتصر على إعاقة فهمهم للثقافة المحلية فحسب، بل امتد ليعرض سلامتهم الشخصية للخطر¹.

ونجد صدًى لهذه الرؤية في كلمات جون فرانسيس ليون، الذي يؤكد بحزم بقوله : " في اعتقادي أن أي إنسان لا يمكن أن يمر بإفريقيا دون أن يبذل جهده ليبدو كمسلم، ولو قُدِّر

¹ Mohamed Chtatou, op.cit, p 62.

لي أن أعود إلى هذه البلاد مرة ثانية، سأرفض أن أصطحب معي أي شخص لا يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار"¹. هذا التصريح يعكس مدى أهمية التكيف الثقافي في نظر هؤلاء الرواد.

ويمضي جاكسون في تحليله، مشيراً إلى حساسية ارتداء الزي الأوروبي في المجتمعات الإسلامية، ومحذراً من الافتراضات المسبقة حول مستوى معرفة السكان المحليين. فهو يؤكد أن العديد منهم على دراية جيدة بالأدوات الملاحية والعلمية، مما يدحض الصور النمطية السائدة آنذاك.

كما يوجه جاكسون سهام نقده نحو المؤسسات الاستكشافية مثل جمعية إفريقيا، داعياً إياها إلى تبني نهج أكثر حساسية وتقهماً للخصوصيات الثقافية في مهامها الاستكشافية. وتهدف انتقاداته في المقام الأول إلى تعزيز الفهم المتبادل بين الثقافات وتجنب المستكشفين المستقبليين الوقوع في أخطاء قد تعرض سلامتهم للخطر².

وفي الختام، يتجلى عمل جيمس غراي جاكسون وغيره من الكتابات التي كان مؤلفوها يتكلمون العربية كأكثر من مجرد سرد لرحلة استكشافية؛ إنما هي دراسة عميقة في مجالات الأنثروبولوجيا واللغويات والثقافة. فمن خلال تحليلهم الدقيق والمتأن لملاحظاتهم، يقدمون رؤية شاملة وعميقة للدول المغربية وشعوبها، مما يجعلها مصدراً ثرياً للمعرفة الثقافية والتاريخية، يتجاوز حدود زمانه ليظل مرجعاً قيماً للأجيال اللاحقة من الباحثين والمهتمين.

¹ Lyon George Francis, op.cit, p 200.

² Mohamed chtatou, op.cit, p 62.

7 أسلوب المقارنة :

في الأدب الإنجليزي خلال العصر الرومانسي، برزت مقارنة جلية بين المجتمعين الأوروبي والمغربي، متأثرة بظهور الرواية القوطية¹. هذه المقارنة رسمت صورة متباينة للغاية: فمن جهة، صُوِّر الأوروبيون كرموز للحضارة والفضيلة والإنسانية، وفي المقابل، قُدِّم المجتمع المغربي كنموذج للبربرية والقسوة والتخلف، حيث وُصف أفرادهم بأنهم "متوحشون" و"غير متحضرين".

تجلى هذا التباين في الأسلوب الأدبي المستخدم، حيث وظف الكُتّاب الأسلوب القوطي لوصف بلاد البربر، بينما استخدموا الأسلوب العاطفي الرومانسي لتصوير الشخصيات الأوروبية. على سبيل المثال، صُوِّرَت المدن المغربية كأوكار للقراصنة والعبودية، في حين ظهر الأوروبيون كأبطال يناضلون من أجل الحرية والتقدم. هذه المقارنة الحادة لم تكن مجرد أداة أدبية، بل حملت في طياتها رسالة أيديولوجية عميقة، هدفت إلى تبرير التدخل الاستعماري تحت ذريعة نشر الحضارة والتقدم في المناطق التي اعتُبرت "متخلفة"².

¹ الرواية القوطية : تُعرف الرواية القوطية بكونها نوعاً أدبياً متميزاً يتخذ من العصور الوسطى وعصر النهضة إطاراً زمنياً لسرد أحداثه، وقد ارتبط ظهورها الرسمي بالكاتب البريطاني هوراس والبول من خلال روايته "قلعة أوترانتو". تتميز هذه الروايات بخصائص مميزة، حيث تعيش شخصياتها مفارقات زمنية عجيبة، فعلى الرغم من محاولاتها للهروب من ماضيها، إلا أنها تجد نفسها تواجهه في حاضرها من خلال عناصر خارقة للطبيعة كالأشباح ومصاصي الدماء. كما تتميز شخصيات هذا النوع السردية بفقدانها الإحساس بالزمن نتيجة هول الأحداث التي تمر بها، مما قد يؤدي إلى فقدان ذكريات ساعات أو أيام كاملة، الأمر الذي يعزز الإحساس بغربة السياق العام للحكي. وقد لقي هذا النوع الأدبي صدىً طيباً لدى الرومانسيين الأوائل في القرن التاسع عشر، حتى أنه امتزج بكتابتهم ليظهر ما عُرف بـ "الأدب الرومانسي القوطي"، مما أدى إلى ارتباط الأدب الرومانسي بعناصر الغموض والرعب التي تواجهها الشخصيات في مساراتها السردية. للاستزادة أكثر ينظر إلى: نبيل موميد، "مدخل إلى الأدب القوطي"، فكر، العدد 26، المغرب، 2019، ص ص 116-117.

² Ben Rejeb, Lotifi, "Barbary's "character" in European Letters, 1514-1830: An Ideological Prelude to Colonization", Dialect Anthropol, vol6, 1982, p353.

ويتجلى هذا النمط من المقارنة بوضوح في مقدمة كتاب الرحالة جون وندوس، حيث يقدم مقارنة صارخة بين الحكم في المغرب وبريطانيا قائلاً: "لما رأيت عدة آلاف من البشر الذين يجهلون أي قانون ولا يعرفون إلا التعسف ونزوات أميرهم، والذين أحيلوا إلى هذه الدرجة من العبودية حيث أنزلوا إلى مستوى تنعدم فيه كرامة الإنسان، عادت بي الذاكرة بإنشراح إلى بريطانيا العظمى". ويمضي في تمجيد النظام البريطاني وقوانينه التي "وضعت كل شيء في موضعه المناسب"، مؤكداً على التباين الحاد بين النظامين، متخذاً من 'تخلف' المغرب مرآة لإبراز ما يراه من 'تحضر' بريطاني¹.

ونجد مثلاً واضحاً على هذا الأسلوب المزدوج في كتابات جيمس هاملتون James Hamilton عن منطقة زاردس في طرابلس، حيث يجمع بين الأسلوب القوطي والرومانسي في وصف واحد. فعندما يتحدث عن السكان المحليين، يستخدم الأسلوب القوطي المخيف، محذراً من "سمعة العبيد السيئة في السرقة" ومصوراً الليل مليئاً بمحاولات السرقة المتكررة. لكن حين ينتقل لوصف الطبيعة نفسها، يتحول أسلوبه إلى رومانسي حالم، متغنياً بجمال الوادي وآباره والتلال المحيطة به، واصفاً عطر العرعر والزعر البري، والزهور البيضاء، مشبهاً المشهد بمستنقعات اسكتلندا. هذا التناقض في الأسلوب يعكس بوضوح المنهج الاستعماري في الكتابة، حيث يتم تصوير الإنسان المحلي بصورة مخيفة وسلبية، بينما تُصوّر الطبيعة بأسلوب رومانسي جميل يربطها بالمناظر الطبيعية الأوروبية². هذا الأسلوب في المقارنة لم يقتصر على الوصف السطحي، بل امتد ليشمل تقنيات لغوية دقيقة لتعزيز الاختلاف وترسيخ الصور النمطية.

في هذا السياق، قدمت ماري لويز برات مفهوماً مهماً يُعرف بـ "تغيير الآخر"، وهو أحد الأساليب الرئيسية التي استخدمتها القوى الاستعمارية لتنظيم أفكارها وأفعالها تجاه الشعوب

¹ John Windus, op.cit, p (Preface).

² James Hamilton , op.cit, p 25.

المستعمرة خلال الحقبة الإمبريالية. يتحقق هذا المفهوم من خلال اختيارات لغوية دقيقة، حيث يتم تصوير الآخر نصياً ولغوياً. فعلى سبيل المثال، يتم تجميع الأفراد المراد "تغييرهم" في ضمير الجمع "هم"، والذي غالباً ما يُختزل إلى "هو" رمزي يمثل النموذج الذكوري النمطي. هذا الاستخدام اللغوي يهدف إلى تعميم صفات معينة على مجموعة كاملة، وغالباً ما يتم توظيفه في زمن مضارع خالٍ من الزمن، مما يجعل الصفات المنسوبة تبدو وكأنها حقائق ثابتة وليست أحداثاً تاريخية محددة¹.

هذه التقنيات اللغوية لم تكن مجرد أدوات أدبية، بل كانت تعبيراً عن رؤية استعمارية أوسع، كما يتضح في كتابات العديد من المؤلفين في تلك الفترة. نجد مثلاً على هذا في كتابات آثر ليريد، حيث يصور المغاربة قائلًا: "الغطرسة، العلامة المصاحبة واللازمة للجهل، هي سمة بارزة للمغربي. يعتقد هو وأمثه أنهم متفوقون على العالم بأسره." هذا النوع من التصوير يعكس الخطاب الاستعماري في أكثر أشكاله تطرفاً، حيث يتم إضفاء صفات سلبية على ثقافة بأكملها بطريقة عدائية².

إن دراسة هذه الأساليب الأدبية تكشف عن العلاقة المعقدة بين الأدب والسياسة والهوية الثقافية. فبينما ساهمت هذه الكتابات في تشكيل الخيال الغربي حول "الآخر"، فإنها أيضاً عكست وعززت الاتجاهات الاستعمارية السائدة في تلك الفترة. ومن المهم أن ندرك أن هذه التصورات لم تكن مجرد انعكاس للواقع، بل كانت أداة فعالة في تشكيله وتبرير السياسات الاستعمارية. هذه الأساليب الأدبية ساهمت في خلق حاجز ثقافي وعاطفي بين "الغرب" و"الشرق"، مما سهل تبرير التدخل الاستعماري وترسيخ علاقات القوة غير المتكافئة.

من المهم الإشارة إلى أن هذه المقارنات والتصويرات كانت في الغالب مبالغاً فيها ومنحازة، تعكس نظرة استشراقية مشوهة للمجتمع المغربي. فبينما ركزت على الجوانب

¹ Lahoucine Aammari, op.cit, p 50.

² Arthur Leared, Morocco and The Moors,... op.cit, p p222-223.

السلبية المفترضة، أغفلت الثراء الثقافي والحضاري لهذه المنطقة. هذا الأسلوب في المقارنة و"تغيير الآخر" ساهم في ترسيخ صور نمطية استمرت في التأثير على الفكر الغربي لفترات طويلة، وشكلت جزءاً أساسياً من الخطاب الاستعماري الذي برر التدخل الأوروبي في الدول المغربية¹.

ومن خلال ذلك يتضح أن أسلوب المقارنة في الأدب الإنجليزي الرومانسي كان أداة قوية في تشكيل التصورات وتبرير السياسات الاستعمارية. إن فهم هذه الآليات الأدبية يساعدنا على إدراك كيفية تشكل الصور النمطية وتأثيرها المستمر على العلاقات الثقافية والسياسية حتى يومنا هذا. وهذا يدعونا إلى ضرورة القراءة النقدية للنصوص التاريخية والأدبية، وإعادة تقييم تصوراتنا عن "الآخر" في عالمنا المعاصر. كما يحثنا على التفكير في كيفية استخدام الأدب كأداة للتفاهم والتقارب بين الثقافات، بدلاً من تعميق الاختلافات والتحيزات.

8 الدقة و الواقعية :

تميزت الكتابات الإنجليزية في عصر التنوير (1700-1798) بدقة عالية وواقعية في وصف الدول المغربية. إذ قدّم الكتاب والرحالة صورةً متحررة من الأحكام المسبقة والضغط الأيديولوجية والسياسية، متناقضةً في كثير من الأحيان مع آراء رجال الدين السائدة آنذاك. وقد سعوا من خلال كتاباتهم إلى تأسيس نظرة واقعية وإنسانية للشعوب المغربية، مبرزين سماتها النبيلة وقيمها الأصيلة.

وتزخر هذه الكتابات، خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بشهادات حية عن كرم الضيافة المغربي الأصيل وعمق الصداقات التي نسجها الرحالة مع السكان المحليين.

¹ Ben Rejeb, Lotifi , op.cit, p353.

ولم تقتصر هذه السمات الإنسانية على النخبة فحسب، بل شملت مختلف شرائح المجتمع، مما يعكس أصالة هذه القيم في النسيج الاجتماعي المغربي.

ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما سجله الرحالة جون بؤفا John Buffa عن استقباله "البالغ اللطف والكرم" من قبل حاكم العرائش. كما شهد جون دروموند هاي، في رحلته عام 1839م، على كرم ضيافة استثنائي من شيوخ القرى¹. وفي طرابلس، يروي الرحالة جيمس هاملتون قصة رفض أحد شيوخ القبائل أخذ مقابل للحليب الذي قدمه له، معتبراً ذلك "عيباً" Aib أو عاراً حسب تعبيره².

ولعل تجربة الرحالة تيمبل جريفيل Greville Temple تجسد بوضوح عمق هذه القيم في المجتمع المغربي. فقد روى حادثة معبرة عن أصالة الكرم والضيافة، حين وصل مع رفاقه إلى منزل أحد الشيوخ في نابل بتونس وجدوه غائباً. وما إن علم الشيخ بوصولهم حتى سارع إليهم في المقهى معتذراً، وأصرّ على استضافتهم في منزله. ورغم رفضهم الأولي، أرسل إليهم العشاء في المقهى وألحّ على إقامتهم في منزله طوال مدة وجودهم في المدينة، مُظهراً حرصاً استثنائياً على راحتهم³.

وقد امتد إعجاب الكتاب الإنجليزي ليشمل التسامح الديني الذي ميّز المجتمع المغربي، فقدموا تحليلاً دقيقاً للنسيج الاجتماعي والديني في المنطقة. وقد برز التسامح الديني سمة بارزة في هذه الكتابات، حيث وثّق المؤلفون بعناية الحرية الدينية التي تمتعت بها مختلف الطوائف. وقد قدمت هذه الملاحظات الدقيقة صورة موضوعية لمجتمع يتسم بالانفتاح والتسامح، ويحترم التنوع الثقافي والديني.

¹ Mohamed laamiri , the image of morocco, p12.

² James hamilton, op.cit, p 23.

³ Greville Temple, op.cit, p 11.

الفصل الرابع : دراسة نقدية للكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

سعى الكتاب الإنجليزي، في إطار نهجهم التوثيقي الدقيق، إلى تسليط الضوء على مظاهر التسامح الديني عند المغاربة. فقد لاحظوا، على سبيل المثال، أن الحكام المحليين، على الرغم من انتماءاتهم الدينية الخاصة، كانوا يسمحون للجماعات التوحيدية الأخرى بإقامة دور العبادة عند تقديم الطلب المناسب. وتعكس هذه الملاحظة حرص الكتاب على توثيق الممارسات الرسمية والإدارية المتعلقة بالحرية الدينية.

وامتد هذا النهج الدقيق ليشمل دراسة المواقف الشعبية تجاه التنوع الديني. إذ وثق الكتاب الإنجليزي، من خلال ملاحظاتهم الميدانية، أن روح التسامح كانت متجذرة حتى بين أكثر المسلمين بساطة وتمسكاً بالتقاليد. وكانت هذه الفئة، وفقاً للكتابات، تؤمن بحق كل فرد في عبادة الله وفق معتقداته أو تراث أجداده¹.

ومما زاد من دقة هذه الكتابات وقيمتها التوثيقية استخدامها حقلاً لغوياً واسعاً ودقيقاً. فقد حرص الكتاب على توظيف المصطلحات المحلية لوصف تفاصيل الحياة اليومية، من أجزاء المنازل إلى الملابس والحلي. فنجدهم يذكرون، على سبيل المثال لا الحصر، كلمات مثل "برنوس" *Bernouse* و"قفطان" *Caftan*²، وكذلك الرتب العسكرية والإدارية مثل "أفندي" *Afendi* و"القاضي" *Alcades*³، وقد أضفى هذا الحرص على استخدام التسميات المتعارف عليها محلياً على أوصافهم دقةً وبلاغةً خاصة، عكست عمق فهمهم للثقافة المحلية.

¹ James Grey Jakson, op.cit, p 140

² Thomas MacGill, op.cit, p 142.

³ William Lempiere , op.cit, p 202.

والى جانب دقة المصطلحات اللغوية، تميزت هذه الكتابات أيضاً بوصفها الدقيق للشخصيات التاريخية وملامحها. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما كتبه توماس ماكجيل Thomas MacGill عن حمودة باي، بأنه رجل ذو مظهر وسيم وملامح ذكية، يتمتع بمواهب وحكمٍ مستنير نسبياً على الرغم من تعليمه المحدود¹.

وقد عززت هذه التجارب الإنسانية الغنية، بما تضمنته من ملاحظات دقيقة وواقعية، فهم الكتابات الإنجليزية للثقافة المغربية وتقديرها لها. فقدمت صورة شاملة ومتوازنة عن مجتمع يتميز بالكرم والصدقة الحقيقية والتسامح والانفتاح، متجاوزةً بذلك الصور النمطية السائدة في ذلك الوقت. وبفضل هذا النهج الدقيق والواقعي، استطاع هؤلاء الكتاب تقديم رؤية أكثر إنصافاً وعمقاً للمجتمع المغربي، ساهمت في تعزيز التفاهم والتقارب بين الثقافات.

9 أسلوب التناقض :

يعد أسلوب التناقض ظاهرة لافتة في كتابات الإنجليزية حول الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هذا الأسلوب يكشف عن تعقيد العلاقة بين المراقب الأوروبي و"الآخر" غير الأوروبي، ويعكس صراعاً داخلياً بين الأفكار المسبقة والملاحظات الواقعية التي واجهها هؤلاء الرحالة أثناء رحلاتهم.

تتجلى هذه التناقضات في العديد من الأمثلة البارزة. فعلى سبيل المثال، نجد في كتابات ماريا مارتين Maria Martin وصفاً متناقضاً لسكان الجزائر، حيث تصفهم تارة بأنهم "ليسوا جنوداً جيدين"²، ثم تعود لتصفهم بأنهم "فرسان جيّدون" و"لصوص عظماء"³. هذا التناقض يبرز الصورة النمطية المعقدة التي كوّنتها الكتابات الإنجليزية عن السكان المحليين، والتي تجمع بين الإعجاب والازدراء في آن واحد.

¹ Thomas MacGill, op.cit, p 15.

² Maria Martin, op cit, p 9

³ Ibid, p 11

وفي مثال آخر، نجد تناقضاً صارخاً في كتاب جولات في إفريقيا ل جيمس هاملتون **James Hamilton** في وصف لمدينة بنغازي. فهو يبدأ بوصف مناخها بأنه "صحي تماماً"، ثم سرعان ما يقلب هذا الوصف رأساً على عقب بتصويرها كـ "مملكة الذباب". هذا الأسلوب الساخر والغرائبي يهدف إلى إثارة اهتمام القارئ وتقديم صورة معقدة ومتناقضة عن المكان، مما يعكس تجربة الرحالة المتناقضة نفسها¹.

أما في روايات مونغو بارك الطبيب الإنجليزي عن أهل المغرب، فنلاحظ تأرجحاً واضحاً بين وصفهم بالكرم تارة وبالجشع تارة أخرى، وبين الالتزام بالوفاء والتتكر للعهود. هذه الأحكام المتسرعة والمتناقضة تعكس اعتماد الرحالة على الصور النمطية السائدة في ذلك الوقت، والتي كانت غالباً ما تكون مستمدة من فكر نمطي سائد في مخيال معظم الرحالة الذين كتبوا عن "الآخر" غير المسيحي.

وفي السياق نفسه، يقدم تمبيل غرافيل **Temple Greville** مثلاً آخر على هذا التناقض في سلوك السكان المحليين في تونس: فمن جهة، كانوا يظهرون كرم الضيافة التقليدي تجاه زوارهم طالما كانوا داخل حدود منازلهم، ومن جهة أخرى، كانت هناك حوادث عديدة من السلب والنهب خارج هذه الحدود. ويستشهد المؤلف بحادثة تحطم سفينة فرنسية على الساحل، حيث تعرض الناجون للسلب وتجريدتهم من ممتلكاتهم².

وفي وصف جيمس جري جاكسون لمدينة مراكش، نجد مزيجاً من الإعجاب والنقد. فهو منبهر بجمال القصر الإمبراطوري وحدائقه الغناء، خاصة "جنان النخيل" التي تزخر بأنواع متنوعة من الأشجار المثمرة. وفي الوقت نفسه، ينتقد بشدة تراكم القمامة في الشوارع، وسوء

¹ James Hamilton, op.cit, p 14

² Greville Temple, op.cit, p 243.

حالة المنازل، وانتشار التسول. هذا التناقض يقدم صورة مركبة للمدينة، تجمع بين الجمال والقيح، الثراء والفقر¹.

أخيراً، في كتابات وليام لومبيرير، نلاحظ تحولاً لافتاً في وصفه للمغاربة. فهو يبدأ بوصفهم بأنهم "متوحشون وجاهلون"²، ثم يعود ليصفهم في متن كتابه بأنهم "أكثر تحضراً"³. هذا التحول في الرؤية يعكس تغير انطباعات الرحالة مع تعمق تجربته وزيادة احتكاكه بالسكان المحليين.

إن هذه التناقضات في كتابات الرحالة تكشف عن الطبيعة الذاتية والانتقائية لهذه الروايات. فهي تعكس صراعاً داخلياً بين الانبهار والنفور، بين الإعجاب والازدراء، وبين الأفكار المسبقة والملاحظات الواقعية. وهي بذلك تدعونا إلى قراءة هذه الكتابات بعين نقدية، مع الأخذ في الاعتبار السياق التاريخي والثقافي الذي أنتجت فيه.

من المهم الإشارة إلى أن الأمثلة المذكورة أعلاه تمثل نماذج فقط من ظاهرة أوسع بكثير. فأسلوب التناقض يتكرر في كتابات الإنجليز الذين زاروا المنطقة خلال هذه الفترة. كل مصدر يقدم وصفاً، متأثراً بخلفيته الثقافية وتجاربه الشخصية وأهداف رحلته. وبينما تختلف التفاصيل من كتاب لآخر، يبقى نمط التناقض سمة مشتركة تستحق المزيد من الدراسة والتحليل. فهذه النماذج تفتح الباب لبحث أعمق في كيفية تشكل الصور والانطباعات عن 'الآخر' في الأدب الإنجليزي، وتأثير ذلك على العلاقات الثقافية والسياسية بين بريطانيا و الدول المغربية.

في الختام، يمكن القول إن أسلوب التناقض في كتابات الإنجليزية عن الدول المغربية يقدم لنا نافذة ليس فقط على المجتمعات التي وصفوها، بل أيضاً على عقلية الكتاب أنفسهم

¹ Mohamed chtatou, op.cit, p 65.

² William Lampiere , op.cit, p 4

³ Ibid,p 29.

وعلى التحديات التي واجهوها في فهم وتفسير ثقافات مختلفة عن ثقافتهم. وهو بذلك يشكل مادة غنية للدراسة والتحليل في مجالات الأدب والتاريخ والأنثروبولوجيا.

ثانيا : منهجية العرض في المؤلفات الإنجليزية :

تتميز النصوص الإنجليزية التي تتناول الدول المغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ببنية معمارية متماسكة ومتكررة، تعكس أساليب الكتابة والتوثيق السائدة في تلك الفترة. ويمكن تحليل هذه البنية من خلال العناصر الرئيسية التالية:

1 العناوين: تتسم العناوين في هذه المؤلفات بخصائص مميزة:

- الطول النسبي والوصفية: تميل العناوين إلى الإطالة، حيث تقدم وصفاً تفصيلياً لمحتوى الكتاب. فقد جاءت جميع عناوين الكتابات في شكل جمل سردية طويلة، ولم نعثر خلال فترة إعداد مادة الفصل الثاني على أي عنوان يتكون من كلمة واحدة. ولعل مرد ذلك يعود إلى تعدد مضامين الكتابات من جهة، ورغبة مؤلفيها في الإشارة إلى هذه المضامين من خلال العنوان من جهة أخرى. والغرض من هذه الوقفة هو إبراز مكانة العنوان كعنصر ضروري في بناء نصوص الكتابات لدى المؤلفين الإنجليز في هذه الفترة المدروسة من تاريخ الدول المغربية، وذلك انطلاقاً من قيمته ومقصدية ودلالاته، باعتباره مفتاحاً لا بد منه لفهم مضامين النص وإبراز موقعه في البناء الكلي للعمل¹.
- استخدام المصطلحات الجغرافية: يشيع استخدام مصطلحات مثل "بربريا" أو "ساحل البربر" للإشارة إلى شمال إفريقيا.
- ذكر أسماء المدن والمناطق: تُذكر بشكل متكرر مدن مثل الجزائر وتونس وطرابلس ومراكش .

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 351.

- الإشارة إلى طبيعة المصدر : تستخدم كلمات مثل "رحلة" و"مشاهدات" و"مذكرات" أو "أسير" للإشارة إلى خلفية المؤلف أو طبيعة العمل.

أمثلة توضيحية:

1. تونس: "ملاحظات عن مدينة تونس والمدن المجاورة لها: مشاهد حول قرطاجة وخليج تونس وحلق الوادي أخذت من المنطقة" لستانلي إدوارد (1784-1786). يعكس هذا العنوان طبيعة الكاتب كرحالة.
2. الجزائر: "تاريخ أسر ومعاناة السيدة ماريا مارتين" لماريا مارتين، يشير العنوان مباشرة إلى تجربة الأسر.
3. المغرب: "رحلة إلى مكناس، مقر إقامة إمبراطور فاس والمغرب: سفارة قائد البحرية ستيوارت" لجون وندوس، يوضح هذا العنوان أن الكاتب كان مرافقاً لبعثة دبلوماسية.
4. طرابلس: "سرد رحلات في الشمال الإفريقي في السنوات 1818، 1819، 1820" لجون فرانسيس ليون، يشير العنوان إلى طبيعة العمل كسجل لرحلات استكشافية.

2 أها من ناحية مناهج التدوين :

تتنوع مناهج التدوين في الكتابات الإنجليزية عن الدول المغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مما يعكس تعدد الأساليب والأهداف التوثيقية للمؤلفين. وقد شملت هذه المناهج التدوين الزمني، والمكاني، والموضوعي، والانتقائي، والاستدعائي. ويلاحظ أن العديد من المؤلفين لم يقتصرُوا على منهج واحد، بل مزجوا بين منهجين أو أكثر، وفقاً لطبيعة المادة المدونة وأهدافهم التوثيقية¹.

ولعل من أبرز هذه المناهج وأكثرها شيوعاً ما يلي:

¹ سالم عاطف، المرجع السابق، ص 351.

أ - برز أسلوب الرسائل والمذكرات كنموذج شائع في هذه الكتابات، حيث اعتمد العديد من المؤلفين على المزج بين التدوين الزمني والمكاني. ومن الأمثلة البارزة على هذا النهج¹ نجد ميس توللي **Miss Tully**، التي حرصت على ذكر التاريخ الدقيق لكل مدينة زارتها، مما وُفّر إطاراً زمنياً ومكانياً دقيقاً لمشاهداتها وتجاربها.

وقد تنوعت درجة الدقة في التدوين الزمني، فبينما التزم بعض المؤلفين بذكر التاريخ الكامل، اكتفى آخرون بتسجيل الشهر فقط. ومن الأمثلة على هذا النهج الأخير نجد الأسير جوناثان كواردي **Jonthan Cowdery**، الذي واطب على تدوين اليوم والشهر في يومياته. وقد اتبع هذا الأسلوب أيضاً كُتّاب آخرون، منهم ابنة القنصل بلانكي إليزابيث بروتون في الجزائر، ووليام لومبريير، الطبيب الإنجليزي في المغرب.

ب - المنهج التسلسلي الوصفي، يتميز هذا النوع من التدوين بإتباع مسار الرحلة في تسلسل منطقي، مما يضيف تماسكاً على بناء النص وسلاسة في السرد. ويتجلى هذا النهج في اهتمام المؤلفين بوصف المكان وصفاً خارجياً دقيقاً ومستقصياً، مدعماً بالأرقام والإحصاءات، كما نجد في أعمال جيمس غراي جاكسون.

وتبرز السلاسة في الحكي والبناء المنظم للأفكار كسمة أساسية في هذه الكتابات، وهو ما يتجلى بوضوح في أعمال جاكسون. فقد ظل جاكسون، في خضم فضوله الاستكشافي، وفيّاً لمنهجية الباحث الموضوعي، متجنباً الانسياق وراء اقتحام وقائع مثيرة أو الاندفاع نحو أفكار مسيئة للوسط الجغرافي الذي درسه.

ويُعد مؤلف جاكسون نموذجاً للدراسة المعاينة الشاملة، حيث تناول الجوانب الجغرافية، والنباتية، والحيوانية، والسكانية، والثقافية، واللغوية للدول المغربية. وما يميز هذا العمل هو

¹ سالم عاطف، المرجع السابق، ص ص 351-352.

ابتعاده عن الأسلوب الحكائي والإثارة المبالغ فيها، التي طبعت الكثير من الكتابات الأوروبية حول المنطقة في تلك الفترة¹.

3 أشكال المؤلفات الإنجليزية المدونة:

شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ظهور العديد من المؤلفات الإنجليزية حول المجتمع المغربي. وقد تنوعت هذه المؤلفات في الوسيطين الثقافي والاجتماعي، عاكسةً صور ومواقف الإنجليز تجاه قضايا متعددة. وتُعد هذه المؤلفات، على اختلاف أشكالها، مصادر مهمة للباحث في التاريخ، إذ تتجاوز كونها مجرد فن أدبي. ومع ذلك، من الضروري التمييز بينها، ليس فقط للأسباب الشكلية، بل لأن الأحداث وأسلوب عرضها يختلف من مصدر إلى آخر.

أ - كتب ومؤلفات في السيرة الذاتية :

شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ازدهاراً ملحوظاً في الأدب الإنجليزي، حيث تنوعت أشكال التأليف وتعددت مجالاته، مما أثرى المشهد الثقافي والفكري في بريطانيا وخارجها. من بين الأشكال الأدبية التي برزت في هذه الفترة:

السيرة الذاتية:

يُعد مصطلح "سيرة ذاتية" حديثاً نسبياً، إذ ظهر أواخر القرن الثامن عشر ليحل محل المصطلح التقليدي "مذكرات". تتميز السيرة الذاتية بكونها مزيجاً من الوثيقة التاريخية والعمل الفني، حيث تسعى إلى تقديم صورة صادقة لحياة الفرد مع الحفاظ على القيمة الأدبية.

¹ كريم بجيت، " الرحلة بين النص و الوثيقة: صورة الطاعون 1798-1800 ومخلفاته في رحلة جيمس غراي جاكسون"، مجلة كنانيش الديمغرافيا التاريخية، العدد 3، وجدة، 2001، ص 68.

ومع تطور هذا النوع الأدبي، حرص كُتّاب السير الذاتية على الدقة في تقديم المعلومات والأخبار، فركزوا في بداية متون رحلاتهم على إبراز التواريخ وتحديد الأماكن. وقد شهدت هذه الفترة نمواً كبيراً في كتابة السير الذاتية، حيث وثّق العديد من الشخصيات البارزة تجاربهم وحياتهم.

مثّلت هذه الكتابات نافذة مهمة على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في تلك الفترة، ومن أمثلتها كتابات ابنة القنصل الإنجليزي إليزابيث بروتون، والطبيب الإنجليزي وليام لومبريير، والأسيرة ماريا مارتين. وتحمل هذه الكتابات في طياتها سمات السيرة الذاتية، وهو ما يتجلى داخل المتن من خلال بروز "الأنا" بشكل واضح، وأحياناً مبالغ فيه، بتوظيف ضمير الجماعة تارة وضمير المفرد تارة أخرى¹.

وقد هيمنت الذات على تسلسل سرد الأحداث والوقائع، حيث سعت هذه الكتابات إلى رصد المسار الفكري للكاتب، واتجاهه الروحي، والكشف عن ذاته، معتمدة على التذكر واسترجاع الحوادث والأخبار والذكريات، مع تحديد التواريخ باليوم والشهر، كما يتضح ذلك في العديد من الكتابات الإنجليزية. وقد انطلق بعض الكُتّاب من منهجية تقوم على ضبط الأسماء²، وهو ما نجده عند كل من الطبيب الإنجليزي وليام لومبريير في المغرب، وابنة القنصل في الجزائر، وجيمس ريتشاردسون في طرابلس الغرب.

إن الكتابات التي يكون للتاريخ فيها نصيب كبير تميل إلى الموضوعية وتتجه نحو التوثيق التاريخي، فتصف الأحداث وتؤرخ للوقائع. وتحصر هذه الرحلات عادة على التوضع داخل الزمن التاريخي الموضوعي، ما دامت الرحلة توثيقاً لفترة محددة من فترات التاريخ الشخصي.

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 344.

² نفسه.

يتجلى هذا الأمر في كتابة السير الذاتية خلال تلك الفترة، حيث ركز مؤلفوها في بداية نصوصهم على إبراز التواريخ وتحديد الأماكن بدقة. وقد شكلت هذه السير الذاتية نافذة مهمة على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في ذلك العصر.

غير أن مسألة أهمية المذكرات الشخصية للتاريخ تطرح عدة تساؤلات. فنظراً لتفاوت قيمتها وارتباط أهميتها بعوامل متعددة، لا يمكن الاعتماد عليها كلياً كمصدر لكتابة التاريخ إلا بعد دراسة تحليلية دقيقة. تتطلب هذه الدراسة الإحاطة الشاملة بشخصية الكاتب وموقعه ودوره في الأحداث التي يتناولها، ومدى اطلاعه على تفاصيلها، والتزامه بالموضوعية والحياد في سرد مذكراته، وهي شروط نادراً ما تتحقق مجتمعة.

وتتميز المذكرات والسير الذاتية بطابعها الشخصي، إذ يصعب على أي إنسان أن يتجرد تماماً من أهوائه وميوله وآرائه ورؤيته للحياة أثناء تدوين الأحداث التي عايشها. ففي سرد الأسيرة ماريا مارتين لسيرتها، نجد أنها تتميز بحس مرهف أكثر من إدراك فكري موضوعي، حيث يتجه وعيها إلى الداخل أكثر منه إلى الخارج، مما يكشف عن تداخل مشاعر عديدة تتعلق بضعف إيمانها¹.

كذلك تحمل مذكراتها الشخصية على سواحل الجزائر تأثيراً نفسياً وحسياً عميقاً على القارئ. فالأحداث القاسية والمصائب التي واجهتها أثناء رحلتها إلى مينوركا وأسرها في تنس لدى قادة البحر الجزائريين تعكس حجم معاناتها. ورغم أن هذه المذكرات لا تُعد توثيقاً موضوعياً للماضي، فإنها تتضمن اعترافات وتبريرات واتهامات وتأملات شخصية للأسيرة، وهذا لا يُعد نقصاً بل سمة طبيعية تعكس بصمات المؤلفة والسياق الذي عاشت فيه. ويبدو أن هدفها الرئيسي من سرد هذه التجربة المؤلمة هو استعادة اعتبارها والتأثير في القارئ من

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 344.

خلال إبراز معاناتها واستدراار تعاطفه، مما يجعل القارئ أمام مأساة شبيهة بالتراجيديا اليونانية¹.

وتكمن أهمية السيرة الذاتية في هذا التوحد بين الكاتب وموضوعه. هذه الميزة تمنحها تفرداً في عالم الأدب، مع خصائص جوهرية كالمعرفة الشاملة، والعمق العاطفي، والرؤية المتكاملة، والسياق الشخصي، والفهم المتطور، مما يكسبها عمقاً فلسفياً خاصاً².

في الوقت نفسه، تثير السيرة الذاتية تساؤلات حول موثوقية معلوماتها، باعتبار أن مصدرها الرئيسي هو ذاكرة المؤلف الشخصية. لذا، من المهم تقييم مدى إمكانية الاعتماد على هذه الذاكرة وقدرة المؤلف على نقل المعلومات بدقة. فالصمت عن بعض المعلومات لا يشير بالضرورة إلى ضعف الذاكرة، بل قد يدل على وجود رقابة رسمية أو ذاتية. كما تكتسب المدة الزمنية بين وقوع الحدث وتوثيقه أهمية كبيرة، فكلما طالت هذه المدة، زاد احتمال تحريف الأحداث وفقدان التفاصيل. غير أن وجود فترة زمنية معقولة قد يتيح تقييم الماضي بموضوعية أكبر والتمييز بين المهم وغير المهم.

لذلك، تُعد مقارنة السيرة الذاتية بمصادر أخرى متصلة بالحدث إحدى الوسائل الفعالة للتحقق من تكامل معلوماتها وصدقيتها. كما أن معرفة المصادر التي استقى منها المؤلف معلوماته تُعد أمراً جوهرياً، إذ لا يكتفي عادةً بما تحتويه ذاكرته، بل يستعين بمصادر إضافية لإثراء سيرته الذاتية وتكاملتها، وهذا يُعد عنصر قوة يسهم في تعزيز موثوقية هذا النوع من المصادر التاريخية³.

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 345.

² George Misch, A History of Autobiography in Antiquity, Part one , Routledge, London, 1950, p 7.

³ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 345-346.

ت - مؤلفات على شكل الرسائل :

يُعد أدب الرسائل جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الكُتّاب الأوروبيين، ولا سيما الإنجليز منهم. فهو يكشف جوانب عديدة عن كاتبها ومتلقيها وأسلوبهم اللغوي، كما يقدم صورة واضحة عن المجتمع الذي كُتبت فيه الرسالة. وينقسم هذا النوع الأدبي في المجتمع الغربي إلى قسمين: الرسائل الرسمية (السياسية والدبلوماسية) والرسائل غير الرسمية (الخاصة والعائلية). وتكشف هذه الأخيرة عن طبيعة المجتمع النفسية وأنماط التفاعل بين الأفراد عبر التواصل مع مخاطب "غائب".

وتُعد الرسائل من أهم المصادر الأدبية والتاريخية التي تعكس الصوت الداخلي للكُتّاب والرحالة، إذ تحمل في طياتها أفكارهم ومشاعرهم الشخصية، سواء أكانت فكرية أم إنسانية أم وجدانية.

وتتميز هذه الرسائل، بأنواعها المختلفة، بقدرتها على تقديم صورة حقيقية لطريقة تفكير المبدعين، وتوثيق الأحداث والوقائع والتقاليد والأخلاق في المجتمعات التي يزورونها أو يعيشون فيها¹. وغالباً ما تجمع بين الحقائق الواقعية والتعليقات الشخصية، مما يجعلها مزيجاً فريداً من المعلومات الموضوعية والانطباعات الذاتية.

وتتسم الرسائل الجيدة عادةً بأنها نتاج مهارات استماع متميزة وقدرة على استخلاص المعلومات بأسلوب لبق وغير مباشر. وهذا النهج يمكّن الكاتب من جمع معلومات قيمة دون إثارة حساسيات أو شكوك. كما يعكس أسلوب كتابة هذه الرسائل مستوى ثقافة الكاتب وقدرته على التواصل مع مختلف الشخصيات².

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص 346.

² الأنسة توللي، المصدر السابق، ص 8.

ومن الأمثلة البارزة على أهمية الرسائل في توثيق التاريخ والثقافة ما قامت به الأنسة تولي، زوجة القنصل ريتشارد تولي في طرابلس الغرب، حيث أقامت فيها عشر سنوات. فقد أُوكلت إليها مهمة خاصة تتطلب تسجيل كل ما تلاحظه وتسمعه من أحداث ووقائع وتقاليد وأخلاق. وكانت ترسل ملاحظاتها في شكل رسائل تجمع بين الحقائق الواقعية وتعليقاتها الشخصية، مما جعل رسائلها مصدراً غنياً بالمعلومات عن ماضي ولاية طرابلس والأسرة القرمانلية وحاضرها ومستقبلها.

وما يميز رسائل الأنسة تولي أنها، دون قصد، طبقت مناهج بحثية تُعد اليوم من أساسيات علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا. فعلى الرغم من أنها لم تتلق تدريباً رسمياً في الدراسات الأنثروبولوجية أو الاجتماعية، كان أسلوبها في جمع المعلومات وتوثيقها متقدماً لزمانها. وقد تميزت رسائلها بقدرتها الفائقة على الاستماع والملاحظة، مع تجنب التفاصيل غير الضرورية. وكانت تستخلص الآراء والمعلومات من محدثيها بطريقة ودية وغير مباشرة، مما مكّنها من جمع كم هائل من المعلومات القيمة عن المجتمع الذي كانت تعيش فيه¹.

هكذا، تبرز رسائل الأنسة تولي **Miss Tully** كمثال ممتاز على كيفية تحول الرسائل الشخصية إلى وثائق تاريخية واجتماعية قيمة، تقدم رؤى عميقة عن المجتمعات وثقافتها، حتى عندما يكون كاتبها غير مدرب أكاديمياً في مجال البحث الاجتماعي. وإذا أردنا الحديث عن سمات أدب الرسائل لدى هؤلاء الأوروبيين عامةً والإنجليز خاصةً، فإننا نجد أن معظمها يُعد نصاً أدبياً فائق الجودة، يدفع القارئ والباحث إلى التأمل والقراءة والاستفادة من المبنى والمعنى، وأحياناً يقدمون لنا العبر التي ما زال بعضها صالحاً في يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن ما نُشر من رسائل الإنجليز، وبالأخص أولئك الذين قدموا إلى الدول المغاربية خلال الفترة المدروسة، يُعد ضئيلاً مقارنةً بما لم يُنشر. ربما يعود ذلك إلى

¹ الأنسة تولي، المصدر السابق، ص 9.

احتواء تلك الرسائل على أسرار لا يجوز إفشاؤها لما قد يسببه نشرها من حرج لمرسليها. لذلك، بقيت بعض الرسائل حتى يومنا هذا محفوظة في أرشيفات وصناديق العائلات الإنجليزية. هذه الرسائل المحفوظة قد تحمل في طياتها معلومات قيمة إضافية عن الفترات التاريخية والثقافات التي تناولتها، مما يجعلها كنزاً دفيناً للباحثين والمؤرخين¹.

في الختام، يتضح لنا أن أدب الرسائل، سواء المنشور منها أو المحجوز، يشكل مصدراً ثرياً للمعرفة التاريخية والثقافية. فهو يقدم نظرة شخصية على الأحداث والمجتمعات، مما يجعله أداة قيمة في فهم الماضي وتفسير تطور العلاقات بين الثقافات المختلفة.

ج- المؤلفات تاريخية وجغرافية :

ظهرت الكتابات الجغرافية والتاريخية الإنجليزية حول الدول المغربية بشكل ملحوظ في أواخر القرن السابع عشر، وازدادت بشكل كبير خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. شهدت هذه الفترة تزايداً في اهتمام الإنجليز بالمنطقة لعدة أسباب، منها التوسع الاستعماري والاهتمام العلمي والثقافي بالعالم الإسلامي.

بدأت هذه الكتابات مع رحلات المستكشفين والدبلوماسيين والتجار الإنجليز إلى الدول المغربية، حيث دونوا ملاحظاتهم وانطباعاتهم. ومع بداية القرن التاسع عشر، شهدت الدراسات المغربية تحولاً جذرياً، متجاوزة حدود التصنيفات التقليدية. برزت آلاف الأعمال المتنوعة التي تجمع بين الجغرافيا والتاريخ والسياسة، مشكّلة نسيجاً غنياً من المعرفة التوثيقية².

¹ عاطف سالم، المرجع السابق، ص ص 347-348.

² Renald Lebel, op.cit, p 141.

هدفت هذه المؤلفات إلى التعريف الشامل بالدول المغربية، متناولةً جغرافيتها وتاريخها ونظمها السياسية والاقتصادية وأخلاق أهلها وعاداتهم. من الأمثلة على ذلك كتاب جيمس غراي جاكسون "سرد للإمبراطورية المغربية ومنطقة سوس"، الذي قدم دراسة شاملة للجغرافيا الطبيعية والاقتصادية للمغرب.

وفي مسار مواز، برز الدكتور توماس شو Thomas Shaw بدراسته الشاملة عن الجزائر وتونس وطرابلس، كما تطرّق أيضاً إلى بعض مناطق المغرب، حيث نجح في رسم صورة حية ودقيقة لهذه الأقطار، مازجاً بين الوصف الجغرافي الدقيق والتحليل الاقتصادي العميق، ليقدم للقارئ الغربي نافذة مميزة على هذا الجزء من العالم الشرقي.

أما جورج فرانسيس ليون George Francis Lyon فقد أضاف بعداً آخر لهذه السلسلة الذهبية من الدراسات بتقديمه لوحة متكاملة عن طرابلس الغرب. عمل ليون على تسليط الضوء على الخصائص الجغرافية والاقتصادية لهذه المنطقة، مقدماً بذلك إضافة قيمة للمعرفة الغربية عن شمال أفريقيا. عكس هذا التطور رغبة متزايدة في فهم أعمق وأكثر شمولية للمنطقة، حيث تطورت الكتابات لتصبح مصادر موثوقة للمعلومات¹.

من الملفت للنظر أن العديد من مؤلفي هذه الكتب كانوا من الرحالة الذين خاضوا تجارب سابقة في بلدان المشرق، وبعضهم حتى قام بأداء فريضة الحج بعد إتقانهم للغات المنطقة وآدابها. وقد تميزت كتاباتهم بتجاوز الأسلوب التقليدي لكتب الرحلات القديمة، حتى عندما حملت عنوان "رحلة". كما تضمن بعضها أخباراً عن أسفار مؤلفيها إلى بلدان المشرق العربي، مشابهة للرحلات المغربية المتجهة نحو مكة المكرمة للحج².

¹ Renald Lebel, op.cit, p 141.

² عاطف سالم، المرجع السابق، ص 350

ومع ذلك، من المهم الإشارة إلى أن هذه الكتابات تأثرت بوجهات النظر الأوروبية وأحياناً بالأجندات الاستعمارية، مما يستدعي قراءتها بعين ناقدة. غير أن هذا النهج المتكامل في دراسة الدول المغربية فتح آفاقاً جديدة للفهم والتحليل، مؤسساً لعصر جديد من الاستشراق المغربي القائم على المعرفة الشاملة والدقيقة¹، متجاوزاً النظرة السابقة التي اعتبرت المنطقة مجرد أرض حرب وعداوة بسبب وجود القراصنة.

ثالثاً : أهمية الكتابات الإنجليزية في التأريخ للمجتمع المغربي

يُعد الخوض في البحث عن تاريخ الدول المغربية دون الاطلاع على ما كتبه الإنجليز من رحالة وقناصل وجواسيس ورهبان وسياح ومغامرين وأسرى عملاً صعباً وعسيراً. فهؤلاء الكتاب يشكلون مصدراً أساسياً للكثير من المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. وعلى الرغم من كونهم أجنب ودخلاء على المجتمع المغربي، وأن إقامتهم كانت لفترة قصيرة نسبياً، إلا أنهم تركوا انطباعات تمثل مصدراً مهماً في كتابة تاريخ الدول المغربية.

إن قسماً كبيراً من هذه المصادر لا يمكن الاستغناء عنه، ففي كتب هؤلاء الإنجليز نجد شهادات وأوصافاً وتواريخ دقيقة وإحصاءات وقوائم للحكام وتحليلات لأحداث مهمة وتقارير وتفاصيل لا نجدها في غير هذه الكتب². وهذا ما يؤكد جون وولف بقوله: "إن كل من يرغب في كتابة تاريخ عام عن إيالة الجزائر التركية البحرية سيكون مديناً كثيراً للأشخاص

¹ Renald Lebel, op.cit, p 141.

² آيت حبوش حميد، "أهمية المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر العهد العثماني نموذجاً"، الحوار المتوسطي، المجلد 2، العدد 1، جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس -، 2010، ص 72.

الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم"¹ . وينطبق هذا القول على جميع الدول المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وتكتسب هذه الكتابات أهمية كبيرة بالنسبة للباحثين والمهتمين المغربية لعدة اعتبارات رئيسية:

1. تميز الكتاب البريطانيون بحرية أكبر في كتابة مؤلفاتهم عن الدول المغربية مقارنة بالكتاب المحليين، إذ لم تكن تقيدهم القيود العلمية² أو السياسية التي كانت تُفرض على الكتاب المحليين، ولا حتى الرقابة المغربية في كثير من الأحيان.
2. ما كان يبدو عادياً وغير مهم للكاتب المغربي كان مثيراً للاهتمام بالنسبة للكتاب الإنجليز، فقد قدم هؤلاء معلومات قيمة عن جوانب الحياة اليومية مثل الحيوانات والنباتات والعمارة والملابس والعادات والثقافة الشعبية، وهي أمور ربما اعتبرها الكتاب المحليون قليلة الأهمية من الناحية التاريخية³.
3. يُعد استخدام روايات الرحلات مصدراً للمعرفة التاريخية ممارسة راسخة في البحث العلمي، فقد اعتمد العديد من الباحثين، خاصة الإنجليز، على هذه الروايات لاستخراج معلومات تاريخية قيمة. وتُعد هذه الكتابات جسراً للتواصل والتبادل الثقافي بين حضارتين مختلفتين، مؤكدة دورها الإيجابي في التقريب بين الشعوب⁴.

¹ جون وولف، المرجع السابق، 457.

² يقصد بالقيود العلمية ، فقد تجلت في ضرورة الالتزام بالرواية الرسمية للأحداث، والتحفظ الشديد في تناول القضايا الاجتماعية والدينية. أما القيود السياسية تمثلت في الرقابة الحكومية الصارمة على المنشورات، والخوف المستمر من انتقاد السلطة الحاكمة، إضافة إلى منع تناول مواضيع معينة كانت تُعتبر حساسة، والحاجة للحصول على موافقات رسمية قبل النشر. هذه القيود مجتمعة شكلت عائقاً كبيراً أمام حرية التعبير أمام الكتاب المحليين، مما جعل الكتابات الإنجليزية مصدراً مهماً للمعلومات التي لم يتمكن المؤرخون المحليون من تناولها بحرية.

³ Khalid chaouch, "English Travel Accounts as a source of Moroccan History ", **Journal of literary and cultural Encounters**, Issue N°2, Moroc, 2008, p27.

⁴ Ibidem.

بالإضافة إلى الاعتبارات الرئيسية السابقة، تتميز الكتابات التاريخية الإنجليزية بعدة خصائص مهمة:

1. تسلط هذه الكتابات الضوء على فترة محورية من تاريخ الدول المغربية، تمتد من مطلع القرن السادس عشر إلى بداية القرن العشرين. وتتناول الحياة في الدول المغربية بمختلف مظاهرها، بدءاً من ارتباطها بالدولة العثمانية خلال الصراع العثماني-الإسباني، مروراً بتحولها إلى كيان سياسي مستقل في القرن الثامن عشر، وانتهاءً بتحولها إلى مستعمرات بفعل الغزو العسكري الأجنبي.
2. تقدم هذه الكتابات تحليلاً شاملاً للعلاقات الاجتماعية والنشاط الاقتصادي والواقع البشري، مما يجعلها مصدراً قيماً لدراسة أحوال سكان الريف والمدينة، وأوضاع مختلف الفئات والطوائف والقبائل. كما تقدم توثيقاً دقيقاً للحياة اليومية، متناولة الغذاء والملبس والعمل والمواصلات والعادات والتقاليد والثقافة والعقيدة والتاريخ والأدب.
3. تحتوي هذه الكتابات على روايات تفصيلية عن علاقة الحكام بالسكان في المدن والريف، وتكشف عن طبيعة النظام السياسي للدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما تقدم شهادات موثقة عن صلاحيات الديوان وسلوك الحكام ومكانة الجيش في النظام السياسي، وطبيعة السياسة الدفاعية للحكام وأسلوب تعاملهم مع الدول الأوروبية¹.
4. تشكل هذه الكتابات مصدراً ثرياً للمعلومات حول النظام الإداري والاقتصادي، إذ تفصل طرق استخلاص الضرائب (المكوس) والجباية التي اتبعتها الحكام. كما تصف الحملات العسكرية وأساليب التعامل مع سكان الريف، مقدمة رؤية خارجية عن العلاقة بين السلطة الحاكمة والرعية.

¹ ناصر الدين سعيدوني، "الرحلات الاستكشافية مقارنة فكرية و حضارية " الرحلات الأوروبية في الجزائر أنموذجاً"، قضايا تاريخية، المجلد 1، العدد 03، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2016، ص 67.

5. وثقت هذه الكتابات حركات العصيان والتمرد في المنطقة، موضحة تأثيرها السلبي على استقرار نظام الحكم في الدول المغربية، مما جعله مغلقاً على نفسه وعاجزاً عن مواجهة الضغوط الأوروبية المتزايدة منذ أواخر القرن الثامن عشر .
6. أبرزت هذه المصادر الاهتمام الأوروبي بالآثار الرومانية في الدول المغربية. فقد حرص معظم الرحالة الأوروبيين عامة و الإنجليز خاصة على توثيق هذه الآثار ودراستها، مما مهد الطريق للبعثات الأثرية في القرن التاسع عشر .
7. تعكس هذه الكتابات اهتمام بريطانيا الاستراتيجي بمنطقة البحر المتوسط، وخاصة الدول المغربية. وقد وفرت قاعدة معرفية مهمة ساعدت الساسة والعسكريين البريطانيين في صياغة سياساتهم. كما سجلت التوتر بين الدول الأوروبية والدول المغربية، الناجم عن الغارات البحرية المتبادلة على السواحل¹.
- بعد استعراض أهمية الكتابات الإنجليزية ودورها في توثيق تاريخ المجتمع المغربي، من الضروري تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية والسلبية لهذه الكتابات. فرغم قيمتها التاريخية الكبيرة، إلا أنها تتضمن نقاط قوة ونقاط ضعف يجب أخذها بعين الاعتبار عند التعامل معها كمصادر تاريخية.
- من الإسهامات الإيجابية للكتابات التاريخية الإنجليزية:
1. جمع المصادر والآثار التاريخية وحفظها في المكتبات والمتاحف البريطانية.
 2. نشر العديد من الآثار العربية الإسلامية باللغة الإنجليزية، مما ساهم في الحفاظ عليها ونشرها عالمياً.

¹ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 68.

3. تطبيق منهجيات البحث الحديثة، مثل تصنيف المواد حسب التخصص، وتنظيم الفهارس¹.

4. تطوير البحث العلمي من خلال تشجيع الباحثين وتبادل الخبرات عبر نشر الدوريات والكتب وعقد المؤتمرات العلمية².

5. سد النقص في المعلومات التاريخية الذي تركته الكتابات المحلية .

6. تقديم معلومات دقيقة وموثقة، رغم بعض التحيزات الموجودة فيها.

7. وقد أدت التقارير الرسمية والمراسلات بين المسؤولين البريطانيين والقناصل دوراً مهماً في توثيق الأحداث التاريخية وتأريخها. وقد جُمعت الكثير من تلك الرسائل وطُبعت في مجلدات، من أهمها:

• كتاب "A Complete Collection of the Treaties and Conventions at Present

Subsisting Between Great Britain & Foreign Powers"

للمؤلف Lewis Hertslet.

• المرجع الشامل الذي ألفه Lambert Playfair و Dr. Brown ، والذي يحتوي على أكثر من 2200 عنوان كتاب عن المغرب.

• كما كان للكتابة التاريخية الإنجليزية دور بارز في تنشيط الإنتاج البحثي التاريخي للمجتمع المغربي.

رغم هذه الإيجابيات المتعددة، برزت بعض السلبيات التي لا يمكن تجاهلها:

1. إهمال النظرة الشاملة للشعوب المغربية كأمة أو ككيان موحد أو كمجتمع متماسك،

¹ أبو القاسم سعد الله ، دراسات...المرجع السابق، ص 35.

² نفسه، ص 36.

1. واختزال تصويرها في قبائل متنافرة تخوض صراعات مستمرة¹.
 2. التركيز المفرط على التاريخ الاقتصادي والإداري والعسكري، مع إهمال نسبي للجوانب الثقافية والاجتماعية².
 3. التحيز في تصوير المجتمع المغربي من منظور استعماري أوروبي .
 4. المبالغة في وصف العنف والصراعات المحلية .
 5. تهميش دور المرأة في المجتمع المغربي وإغفال إسهاماتها الاجتماعية والثقافية .
 6. الإفراط في الاهتمام بالجوانب الغرائبية والعجائبية على حساب الواقع اليومي .
 7. القصور في فهم التركيبة الاجتماعية المعقدة للمجتمع المغربي .
 8. التركيز على المدن الساحلية مع إهمال المناطق الداخلية .
 9. الخلط في بعض الأحيان بين العادات المحلية والأحكام الشرعية الإسلامية.
- في إطار التحليل النقدي للمصادر التاريخية، تبرز الكتابات الإنجليزية كوثائق ذات قيمة معرفية عالية، بغض النظر عن تفاوت درجات موضوعيتها. وتوفر المنهجية التاريخية الحديثة للباحثين أدوات تحليلية متطورة تمكنهم من استخلاص المعلومات القيمة من هذه النصوص، مع مراعاة السياقات الثقافية والتاريخية التي نشأت فيها.
- وعلى الرغم مما قد يشوب هذه الروايات من تحيزات أو أخطاء، فإنها تظل مصادر تاريخية ذات مصداقية نسبية. ويتجاوز تقييم أهميتها مجرد حجم الوثيقة أو كمية المعلومات المتضمنة فيها، ليشمل قدرتها على إلقاء الضوء على جوانب محددة من الحقبة التاريخية المدروسة. وتتيح الطبيعة المكتوبة لهذه الوثائق إخضاعها للتحليل والتمحيص، مما يبرز

¹ أبو القاسم سعد الله ، دراسات...، المرجع السابق، ص 36

² نفسه، ص 37 .

الفصل الرابع : دراسة نقدية للكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

دور الباحثين والمؤرخين في تطبيق أساليب النقد التاريخي لتقييمها واستخلاص المعلومات ذات القيمة التاريخية منها¹.

تمثل الكتابات التاريخية الإنجليزية عن المجتمع المغربي مصدراً مهماً للمعرفة التاريخية، يتطلب من الباحثين المعاصرين مهارة في التحليل والنقد لاستخراج ما فيها من معلومات قيمة، مع الحفاظ على نظرة متوازنة تراعي سياق إنتاج هذه النصوص وخلفيات كتابها.

رابعا : مصادر الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي

شهدت الكتابات الإنجليزية عن الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نهضة ملحوظة، تميزت بتنوع مصادرها وعمق تحليلاتها. وقد جمعت هذه الكتابات بين الدقة العلمية والحس الأدبي، واستندت إلى مجموعة واسعة من المصادر، مما أسهم في تقديم صورة شاملة ومتعددة الأبعاد عن المنطقة.

اعتمد الكتاب الإنجليزي على مجموعة متنوعة من المصادر، تراوحت بين الملاحظات الشخصية المباشرة، والروايات الشفهية، والمراجع التاريخية القديمة، والدراسات العربية والأوروبية الحديثة. وقد مكّنهم هذا التنوع في المصادر من رسم صورة حية ودقيقة للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في المنطقة المغربية.

وفي هذا السياق، سنستعرض المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الكتاب الإنجليزي في دراساتهم عن الدول المغربية، مع تسليط الضوء على كيفية توظيفهم لهذه المصادر في إثراء فهمهم وتقديم رؤية شاملة عن المنطقة خلال تلك الفترة الحاسمة من التاريخ.

¹ Khalid chaouch, " English Travel Accounts as a source of Moroccan History " ...,op.cit, p 28.

1 الملاحظات والمشاهدات الشخصية:

تشكل الملاحظات والمشاهدات الشخصية مصدراً أساسياً وثرياً في الكتابات الإنجليزية حول المنطقة المغربية. وقد تميزت هذه الكتابات بدقتها وحيويتها، إذ استمدت قوتها من التجارب المباشرة للرحالة والأسرى والقناصل الذين تمتعوا بحرية التنقل في المنطقة.

ويتجلى هذا النهج التوثيقي المميز في الاستخدام المكثف لضمير المتكلم "أنا" والأفعال الشخصية مثل "كنت"، و"ذهبت"، و"تعذبت"، و"سافرت"، و"التقيت"، و"رأيت"، و"شهدت"، و"لاحظت". ويضفي هذا الأسلوب السردى المباشر مصداقية استثنائية على الوصف، ويقرب القارئ من تجربة الكاتب الحية.

وتتميز هذه الكتابات بتفاصيلها الدقيقة عن الأماكن والمواقع وعادات المجتمعات وطبائعها، مما يؤكد أصالة المشاهدات وعمق الاحتكاك بالمجتمعات المحلية. فنجد الكتاب يقدمون أوصافاً حية للحصون والقلاع والمعالم التاريخية والمواقع الأثرية، مما يجعل كتاباتهم سجلاً تاريخياً وثقافياً قيماً.

ومن الأمثلة البارزة على هذا النهج ما ورد في كتاب الأخوين بيتشي Beechey عن مدينة لبدّة. ففي وصفهما للأبراج، يقولان: "لاحظنا العديد من بقايا ما يبدو أنها أبراج، تقع بوضوح على قمم التلال إلى الشمال، والتي -بسبب قوة موقعها- ربما كانت قد واجهت أي هجوم يُمكن أن يُشن عليها. ويبدو أن مواقعها قد اختيرت بهدف تمييزها بسهولة عن بعضها، بحيث تخدم غرض الاتصال"¹. ويعكس هذا الوصف الدقيق ليس فقط ما رآه الأخوان، بل أيضاً تحليلهم وفهمهم للغرض الاستراتيجي من موقع هذه الأبراج.

¹ Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 48.

ومثال آخر نجده في كتابات ليون جورج فرانسيس Lyon George Francis عن طرابلس، حيث يقول: " قضينا فترة ليست بالقصيرة في طرابلس حتى رأيت الزي الذي ترتديه النساء داخل البيوت، وهو يتكون من عباءة تلف الجسد كله والرأس، ولا يظهر من صاحبه سوى عين واحدة..."¹. ويكشف هذا الوصف عن عمق ملاحظات فرانسيس للحياة اليومية والعادات الاجتماعية، مما يقدم نظرة ثاقبة داخل المجتمع المحلي.

ما نجد مثلاً آخر على دقة الملاحظة والتوثيق في كتابات توماس ماكجيل Thomas Macgill عن تونس، حيث يصف بتفصيل دقيق مشهداً مميزاً لوصول القوات من صفاقس للانضمام إلى المعسكر. إذ يروي ماكجيل بحيوية مشهداً يجمع بين الجوانب العسكرية والدينية والاجتماعية، قائلاً: " قبل دخول بوابات تونس، وضع الجميع راياتهم وأسلحتهم، وركعوا وصلوا. وبعد الصلاة دخلوا المدينة، بينما كانت السيدات يحيينهم بـ 'مرحبا' من أسطح المنازل"². ويعكس هذا الوصف الحي قدرة الكاتب الإنجليزي على التقاط التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية والطبقات الاجتماعية والدينية في المجتمع التونسي، مما يضيف بُعداً إنسانياً عميقاً لتوثيقهم التاريخي.

2 المصادر الشفهية:

لم تكن الملاحظات الشخصية المصدر الوحيد الذي اعتمد عليه الكاتب الإنجليزي، فقد لعبت المصادر الشفهية دوراً لا يقل أهمية في إثراء معرفتهم وفهمهم للمنطقة المغربية. وقد شكلت هذه المصادر الشفهية ثروة معلوماتية هائلة وحيوية استقاها المؤلفون من مجموعة متنوعة من الأشخاص والمصادر، مما أثرى بشكل كبير محتوى الكتابات وأضفى عليها طابعاً من الأصالة والتنوع.

¹ Lyon George Francis, op.cit, p 17.

² Thomas MacGill, op.cit, p 88.

ويمكن تصنيف هذه المصادر الشفهية إلى فئتين رئيسيتين:

أ - **الدبلوماسيون**: لعب أعضاء السلك الدبلوماسي الإنجليزي والفرنسي دوراً محورياً في توفير معلومات قيمة. ونجد مثلاً بارزاً على ذلك في كتابات جيمس ريتشاردسون James Richardson ، حيث يذكر: " كما أخبرني أحد القناصل الفرنسيين الذين تعرفت عليهم في شمال أفريقيا عندما أخبرته عن عدد من الحالات التي يتنكر فيها أصحابها... " ¹. وكذلك نجد مثلاً آخر في كتابات جيمس هاملتون James hamilton ، الذي يروي: "وفقاً لما أخبرني به قنصلنا المحترم في دما، فإنه قبل وصولي بأيام قليلة، جاءه أحد أبناء مضيفنا في غارياب طالباً بعض السكر. وكان هذا الشخص يقيم في السوق آنذاك، لكنه قطع المسافة إلى مقر القنصلية خارج المدينة على أمل توفير بضعة قروش، التي كان بإمكانه شراء ما يحتاج إليه بها من السوق" ².

ب - **التجار والجاليات**: شكّل التجار الإنجليز واليهود المغاربة المرتبطون بالجالية الإنجليزية في المغربية مصدراً غنياً للمعلومات. وقد قدم هؤلاء رؤى مهمة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة، مستفيدين من تفاعلهم اليومي مع المجتمعات المحلية.

ت - **المرافقون والمترجمون**: قدم هؤلاء مجموعة ثرية من الروايات والشروح والآراء والترجمات. وكان المؤلفون يشيرون غالباً إلى هذه المعلومات في سياق سرد رحلاتهم أو في مؤلفاتهم، مما أضاف عمقاً وتنوعاً لفهمهم للثقافة المحلية.

ث - **السكان المحليون**: شكل التفاعل المباشر مع السكان المحليين مصدراً ثميناً للمعلومات. ونجد مثلاً رائعاً على ذلك في تجربة جون بؤفا John Buffa، الطبيب الإنجليزي الذي حظي بمكانة مرموقة لدى السلطان بعد مساعدته في شفاء أمير

¹ James Richardson, Travels in The Great..., op.cit, p 15.

² James Hamilton, op.cit, p 105.

العرائش. إذ يقول بوفّا: "أخبرنا الكاهن الذي كان يرافقنا عن تاريخ وتقاليد شعبية، وقد تحدث بحماس شديد عن إيمانهم الراسخ بالله الواحد"¹. وقد أتاح هذا النوع من التفاعل للكتاب فهماً عميقاً للمعتقدات والتقاليد المحلية.

ج - **الشخصيات المحلية البارزة:** كثيراً ما التقى الكتاب بشخصيات محلية مهمة، مما أثرى كتاباتهم بمعلومات دقيقة وموثوقة. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الأخوان بيتشي Beechey عن لقائهما بالشيخ بن زاهر في زليتن: "خلال زيارتنا لزليتن، التقينا بالشيخ بن زاهر، الذي أخبرنا أن منطقة زليتن تضم ما لا يقل عن 15 قرية و 10 آلاف نسمة. كما أهدانا بعض تمر فزان الممتازة، التي تُعد من أفضل أنواع التمر في المنطقة"². وقد زودهم هذا اللقاء بمعلومات إحصائية دقيقة عن المنطقة، بالإضافة إلى معرفة عن المنتجات المحلية المميزة. ونجد مثلاً آخر في كتاب وليام لومبيريير William Lempiere، حيث نلمح إشارات إلى مصدر معلومات فريد داخل القصر السلطاني. فيشير وليام لومبيريير William Lempiere إلى امرأة جنوبية كانت أسيرة في الحريم، تعاطفت معه وقدمت له معظم معلوماته عن الحياة الخاصة لنساء وسيدات السلطان³. وقد مكنت هذه الشهادة الداخلية لوليام لومبيريير William Lempiere من تقديم نظرة نادرة على الحياة داخل الحريم، وهو جانب من المجتمع كان يصعب الوصول إليه عادة.

وتوضح هذه الأمثلة كيف أن التواصل مع الشخصيات المحلية البارزة، سواء كانت شخصيات عامة كالشيخ بن زاهر أو مصادر داخلية كالمرأة الجنوبية في القصر، قد مكّن الكتاب من الحصول على معلومات قيمة. وقد أتاحت هذه اللقاءات والتفاعلات لهم فهماً

¹ John Buffa, op.cit, p 46.

² Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 82

³ Roland Lebel, op.cit , p 293.

أعمق للمجتمعات التي كانوا يدرسونها، مما أضفى مصداقية وعمقاً على كتاباتهم التاريخية والاجتماعية.

3 المصادر القديمة:

اعتمد الكتاب الإنجليز، إلى جانب الملاحظات الشخصية والمصادر الشفهية، على مجموعة متنوعة من المصادر القديمة لتعزيز فهمهم للمنطقة المغربية. بدأوا رحلتهم المعرفية بالاعتماد على أعمال المؤرخين الأوائل مثل هيرودوت وبطليموس وسترابو وسيلاكس. وقد كانت هذه المراجع ذات قيمة خاصة في وصف الآثار القديمة في الدول المغربية. فعلى سبيل المثال، استشهد الأخوان بيتشي **Beechey** بكتابات بليني في اكتشافهم لمنطقة بيزاكيوم، مسططين الضوء على خصوبتها الاستثنائية¹. نذكر مثالا آخر الرحالة تمبل غرافيل **Temple Greville** الذي استند في كتابه إلى روايات هيرتيوس المؤرخ الروماني عند وصفه لمدينة سوسة. فقد قدم تمبل غرافيل **Greville Temple** وصفاً دقيقاً للمنطقة، مشيراً إلى طبيعتها المنخفضة، وكيف يتحول المشهد عند الاقتراب من ميستر إلى مزارع كثيفة تزخر بأشجار الزيتون والتين والنخيل².

وإلى جانب المصادر الكلاسيكية، شكلت المصادر الجغرافية العربية مرجعاً مهماً للكتاب الإنجليز. فمع بداية القرن التاسع عشر، أصبحت الأعمال العربية المبكرة متاحة بشكل أوسع من خلال الترجمات إلى اللغات الأوروبية. ومن بين هذه الأعمال "المسالك والممالك" لابن حوقل، وكتابات ابن خلدون والقزويني والإدريسي. وقد استفاد الكتاب الأخوين بيتشي

¹ Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 20.

² Greville Temple, Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis, Vol 2 ,...op.cit, p128.

Beechey من هذه المصادر في فهم جغرافية المنطقة وثقافتها، كما يتضح من استخدامهم لوصف الإدريسي للأبراج المنتشرة في السهول وأشجار "كاف"¹.

من بين المصادر العربية الجغرافية التي ذاع صيتها واستخدمت كثيراً كمصادر للكتابات الإنجليزية كتاب "وصف أفريقيا" للحسن بن محمد الوزان، المعروف باسم ليون الأفريقي، كمصدر ذو تأثير استثنائي. رغم أن الكتاب يعود لعام 1526م، إلا أنه ظل مرجعاً أساسياً للمعلومات حول الدول المغربية حتى القرن التاسع عشر، وذلك بسبب ندرة المعلومات المتاحة للإنجليز عن المنطقة.

ترجم كتاب حسن الوزان إلى عدة لغات أوروبية، بما فيها الإنجليزية في عام 1600م، زادت من انتشاره وتأثيره. وتتجلى أهمية كتاب "وصف أفريقيا" في أعمال العديد من الكتاب الإنجليز، ومن أبرزهم الدكتور توماس شو Thomas Shaw الذي اعتمد على ليون في تحقيق أصل تسمية الجزائر. فقد نقل عنه قائلاً: "يخبرنا ليو ومارمول أنه كان يُطلق عليها سابقاً اسم مسغنة، نسبة إلى عائلة إفريقية تحمل هذا الاسم. الاسم الحالي، الجزائر (وهذا هو النطق الصحيح له) يعني في لغتهم 'الجزيرة'، وقد سُميت بهذا الاسم لوقوعها بجوار الرصيف الشرقي للميناء (وليس، كما يفترض ليو خطأً، جزر البليار)، والذي كان قبل الفتوحات التركية منفصلاً عن القارة. وفي رسائلهم الرسمية وسجلاتهم، يطلقون عليها اسم 'الجزائر الغربية'، أي الجزيرة في الغرب، لتمييزها عن مدينة تحمل الاسم نفسه بالقرب من الدردنيل في الأرخبيل"².

ولم يقتصر تأثير كتاب ليون الأفريقي على شو وحده، فقد اعتمد عليه أيضاً جيمس ريتشاردسون Richardson James إعتماده على ليون إفريقي في وصفه لمدينة غدامس

¹Frederick and Henry Beechey, op.cit, p 348.

² Thomas Shaw, Travels Or, ..., op.cit, p 134.

التي قال عنها أنها تتميز بثرائها وتجارتها مع الأقوام الأفريقية¹. كما استند بعض الكتاب مثل أثر ليريد، على وصف ليون الأفريقي حتى للأماكن التي لم يتمكنوا من رؤيتها بأنفسهم، كما في حالة وصف المعمار الداخلي لمسجد الكتبية².

ورغم أهمية كتابات ليون الأفريقي كمصدر تاريخي أساسي للكتاب الإنجليزي، إلا أن تطور المعرفة عن المنطقة المغربية دفع هؤلاء الكتاب في القرن التاسع عشر إلى توسيع نطاق مصادرهم. فأضافوا إلى جانب المصادر التاريخية القديمة كتابات الرحالة الأوائل من القرن الثامن عشر. هؤلاء الرحالة، الذين عاصروا عصر التنوير والعصر الرومانسي، قدموا رؤى جديدة وتفصيل غير مسبوقة. ومن أبرزهم الدكتور شو في الجزائر وتونس وطرابلس، والرحالة جيمس بروس في المناطق نفسها، والطبيب المشهور وليام لومبري في المغرب، والآنسة تولي زوجة القنصل البريطاني في طرابلس.

وقد اعتمد الرحالة جون كينيدي كلارك John Kennedy Clark على كتاب شو في وصف ملابس سكان تونس، حيث يقول: "يذكر شو أن الزي الحالي للعرب يشبه إلى حد كبير الزي الذي كان يرتديه الرومان القدماء، وأتفق معه في ذلك. فالباركان، أو السفسار، من حيث شكله وطريقة لفه حول الجسم، يتوافق تماماً مع التوجة. كما تستخدم نساء البدو المشبك والدبابيس المعدنية الكبيرة؛ والبرنوس يماثل البردوكوكولوس؛ والقلنسوة الحمراء تشبه التيار؛ والجلباب يشابه التونيكا. ويبدو أن الجنود الرومان أيضاً، أثناء تمركزهم في إفريقيا على الأقل، كانوا يرتدون قبعة الجريد الكبيرة، كما يتضح من نقش بارز عُثر عليه في الجزء الشرقي من ولاية الجزائر"³.

¹ Richardson James, op.cit, p 357.

² Arthur Leared, Morocco and The Moor, op.cit, pp 160 161

³ John Kennedy Clark, Algeria and Tunis in 1846, Vol 2, ..., op.cit, p 52.

ولم يكن كلارك وحده من استفاد من كتابات السابقين، فقد قدم الأخوان بيتشي **Beechey**، اللذان زارا طرابلس في القرن التاسع عشر، مثلاً آخر بارزاً على كيفية استخدام هذه المصادر. فقد اعتمدا بشكل كبير على كتاب شو الذي زار طرابلس في أوائل القرن الثامن عشر، وأعمال جيمس بروس من منتصف ذلك القرن، إضافة إلى رسائل الأنسة توللي، زوجة القنصل البريطاني، التي أقامت في طرابلس لمدة عشر سنوات في أواخر القرن الثامن عشر.

وما ساعد هؤلاء الكتاب على الاستفادة المثلى من هذه المصادر المتنوعة هو تميزهم بقوتهم المعرفية الاستثنائية، التي كانت نتيجة التعليم الرفيع الذي تلقوه في جامعات أوروبا ومعاهد الاستشراق. هذا التكوين العلمي المتميز فتح آفاقهم على علوم متنوعة، وخاصة الجغرافيا والفنون، مما جعل الدراسات الجغرافية جزءاً أساسياً من أبحاثهم¹.

وقد مكّنهم هذا العمق المعرفي من تقييم المصادر السابقة ومقارنتها بدقة. ونرى مثلاً على ذلك في تعليق ليون جورج فرانسيس **Lyon George Francis** على كتاب الأنسة توللي **Miss Tully**، حيث يقول: "لقد أفاضت السيدة توللي في كتابها في وصف مراسيم هذه المناسبات وصفاً يجعل أي استطراد مني غير ضروري على الإطلاق"².

واعتمد أثر ليريد، وهو من أبرز الكتاب الإنجليز في تلك الفترة، بشكل كبير على أعمال الرحالة السابقين، وخاصة وليام لومبوير الذي زار المغرب عام 1789م. وقد استخدم أثر ليريد إحصاءات لومبوير السكانية بمهارة، مستخرجاً أرقاماً تفصيلية عن مختلف فئات

¹ سالم عاطف، المرجع السابق، ص 334.

² Lyon George Francis, op.cit, p 20.

المجتمع المراكشي، بما في ذلك الحرفيين والعمال والتجار والعساكر وموظفي المخزن، وصولاً إلى المتسولين والفقراء¹.

واستمر الكتاب الإنجليزي في توسيع مصادرهم، مضيفين المنشورات المعاصرة إلى قائمة مراجعهم. ويتجلى هذا النهج الشامل في استخدام المصادر من خلال نموذجين بارزين: الأول يتمثل في أعمال آرثر ليрид **Arthur Leared** الذي وسّع نطاق بحثه ليشمل مقالات المجلات المعاصرة، كما يتضح من اعتماده على مقال نُشر في مجلة "لاغروند" لوصف جمال وروعة حدائق الزهور والورد المغربي². أما النموذج الثاني فيظهر في كتابات ماثيو كيري **Mathew Carey** الذي استند في سرده لأحداث حملة أوريلي على الجزائر إلى المقالات الصحفية المعاصرة، وتحديداً إلى مجلة نشرها الرائد ويليام دالريمبل في ختام رحلاته عبر إسبانيا والبرتغال، والتي صدرت في لندن عام 1777³.

هذا النهج الشامل في استخدام مصادر متعددة ومتنوعة - من المشاهدات الشخصية والروايات الشفهية والكتابات القديمة إلى المنشورات المعاصرة - مكن الكتاب الإنجليزي من تقديم صورة أكثر شمولية وعمقاً عن المنطقة المغربية. من خلال الجمع بين المعلومات التاريخية والمعاصرة، والمزج بين الإحصاءات الدقيقة والوصف الأدبي الحي، استطاعوا رسم لوحة متكاملة تجمع بين الدقة العلمية والحس الأدبي.

هذا التنوع من المصادر والخبرات أنتج أدباً غنياً ومتنوعاً عن المنطقة، ساهم بشكل كبير في تشكيل الفهم الغربي للعالم المغربي خلال تلك الفترة الحاسمة من التاريخ. وما زالت هذه الكتابات تشكل مصدراً قيماً للباحثين والمؤرخين، تقدم نافذة على تاريخ وثقافة الدول المغربية من منظور إنجليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

¹ Arthur Leared, Morocco and The Moor, op.cit, pp 178 179

² Ibid, p 200.

³ Mathew Carey, op.cit, p 39.

خامسا : دوافع الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي :

شكّلت الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر محور اهتمام الدول الغربية، وخاصة بريطانيا، التي أنتجت دراسات وأبحاثاً متنوعة حولها. وقد فاق هذا الاهتمام ما حظيت به دول المشرق من كتابات تاريخية وأدبية وعسكرية. تعددت دوافع الإنجليز لتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم، وتنوعت بين السياسية والعسكرية والسياحية والطبية والعلمية والدينية.

1 - الدوافع السياسية والعسكرية :

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان الإنجليز يجهلون إلى حد كبير تاريخ وثقافة وحضارات الدول المغربية. هذا الجهل دفعهم إلى الكتابة عن المنطقة، ولكن غالباً ما كانت هذه الكتابات تخدم أغراضاً استعمارية. لتحقيق هذه الغاية، أسسوا مجلات وجمعيات ساهمت في البحث عن أسرار هذا المجتمع المجهول بالنسبة إليهم، بهدف إيجاد طرق للسيطرة عليه.

نظراً لفشل العديد من الحملات العسكرية الإنجليزية على الدول المغربية، تركزت الكتابات على تحليل نقاط القوة والضعف في قدرات الدول المغربية المادية والمعنوية، بالإضافة إلى دراسة بواعثها الروحية ومعتقداتها الدينية. لذلك، جند الإنجليز كل طاقاتهم لجمع المعلومات الممكنة، مفسرين إياها بمفاهيم استعمارية مغرضة هدفت أساساً إلى ترسيخ الفكر الاستعماري في المنطقة¹.

كانت علاقات الدول المغربية مع العالم الخارجي متقلبة، تتراوح بين السلمية والتوتر. هذا التقلب كان نتيجة أطماع الدول الغربية في ثروات المغرب والجزائر وتونس وطرابلس. كما

¹ يوسف منصورية، " آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان " ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 5، جامعة الجزائر، 1988، ص 192.

أن القرصنة البحرية التي مارستها بعض هذه الدول أضرت بمصالح الأمم المسيحية، مما دفع هذه الأخيرة إلى محاولة الرد بأساليب متعددة، بما في ذلك الحلول العسكرية واستخدام الجواسيس.

وفي إطار هذه المحاولات للسيطرة على المنطقة، اعتمدت بريطانيا على شبكة واسعة من المخبزين والمراقبين. وكان في مقدمة هؤلاء القناصل المعتمدون في الدول المغربية، الذين لعبوا دوراً مهماً في جمع المعلومات. فبالإضافة إلى تمثيل بلدانهم، كانوا يقدمون تقارير مفصلة حول الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للمنطقة. كما استخدمت الدول الأوروبية جواسيس من الرحالة والأسرى في السجون المغربية، أو العاملين في قصور الحكام، بالإضافة إلى عناصر مقيمة مثل التجار ودارسي الآثار والأطباء¹.

ومن الأمثلة البارزة على هذا النشاط الاستخباراتي المنظم، نجد الطبيب أثر ليريد الذي زار المغرب عام 1872م. ظاهرياً، كان هدفه طبياً، حيث صرح في مقدمة كتابه الأول بأن هدفه كان دراسة المناخ المغربي وملاءمته للأشخاص المصابين بأمراض صدرية². إلا أن محتوى الكتاب كشف عن أهداف أخرى، حيث تضمن معلومات مفصلة عن أعراق المغربية وعاداتهم، إحصائيات سكانية دقيقة، وتقارير عن تاريخ البلد وجغرافيته وحكومته وقوته العسكرية ونظمه التعليمية والدينية وثرواته المختلفة.

لم تكن رحلة أثر حالة منفردة، بل كانت جزءاً من نشاط استخباراتي منظم ومدعوم من المؤسسات البريطانية الكبرى. هذا النمط من الكتابة يندرج ضمن مشروع أكبر للجمعية الجغرافية الملكية البريطانية وغيرها من الجمعيات الجغرافية الأوروبية. كان الهدف النهائي

¹ أحمد السليمان، المرجع السابق، ص ص 70-71.

² Arthur Leared, Morocco and The Moors,...op.cit, p VI

هو جمع المعرفة التي تمهد لنشر ما اعتبروه "الحضارة" في سياق استعماري، وتمهيد الطريق لـ "الإصلاحات" التي تسمح باستغلال هذه البلدان بشكل أفضل.

وإذا كان أثر ليريد قد تستر وراء الأهداف الطبية، فإن حالة الطبيب بوبا تقدم مثلاً آخر أكثر وضوحاً على توظيف المهام الطبية لخدمة الأهداف الاستعمارية. فقد جاء بوبا إلى المغرب لمعالجة ابن السلطان، لكنه استغل الحرية التي منحت له لزيارة مناطق مختلفة في المغرب لوصف المباني العسكرية وتحصيناتها. في الواقع، كانت هذه الوصفيات بمثابة دعوة مبطنة لاحتلال المدن المغربية. فعلى سبيل المثال، وصف إحدى المدن بتفاصيل عسكرية دقيقة، مشيراً إلى أنها لن تصمد أمام هجوم عدد قليل من الفرقاطات الإنجليزية¹.

تعكس هذه الأمثلة وغيرها نمطاً متكرراً في الكتابات الاستشراقية عن المنطقة المغربية، حيث تختفي النوايا الاستعمارية وراء ستار البحث العلمي والإنساني. وفي هذا السياق، يلخص إدوارد سعيد هذا النهج الاستعماري بشكل دقيق في افتتاحية كتابه، حيث يشير إلى أن فتح الأراضي الأجنبية، وخاصة تلك التي يسكنها أناس مختلفون عنا في المظهر، ليس عملاً نبيلًا. ما يبرر هذا العمل في نظر المستعمرين هو "الفكرة" الكامنة وراءه - فكرة يمكن تبجيلها وتقديم القرابين لها، وهي في هذه الحالة فكرة "نشر الحضارة" كما يفهمونها².

وهكذا، نرى أن الدوافع السياسية والعسكرية كانت محركاً أساسياً للعديد من الكتابات الأوروبية عن الدول المغربية، متخفية في كثير من الأحيان وراء أهداف علمية أو طبية أو استكشافية ظاهرية.

¹ John Buffa, op.cit, p 21.

² Edward Said, op.cit, p (preface)

2 اندوافع السياحية و الطبية :

شهدت الفترة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اهتماماً متزايداً من قبل الأوروبيين، وخاصة الإنجليز، بالسفر إلى الدول المغاربية. هذا الاهتمام نبع من دوافع متعددة، جمعت بين الرغبة في اكتشاف روائع الطبيعة وتنوع البشر، واكتساب المعرفة بالمسالك والطبائع، إضافة إلى دوافع طبية وعلاجية¹.

وعلى الرغم من ندرة الإشارات المباشرة إلى المناخ وخصائصه العلاجية في الكتابات البريطانية عن المنطقة، إلا أن بعض الكتّاب عبروا عن إعجابهم بالبيئة البحرية والمنتجات الصحية التي استفاد منها السكان المحليون. وقد تجلّى هذا الاهتمام بوضوح في الكتابات عن مدينة كوربوس الساحلية في تونس، حيث أشارت جوليا كلانسي إلى أن المقيمين والزوار الأوروبيين استخدموا مياهها لعلاج الروماتيزم وأمراض أخرى مثل التهاب المفاصل والأمراض الجلدية واضطرابات الجهاز الهضمي. ومن الأمثلة البارزة على ذلك زيارة السير ريتشارد وود Sir Richard Wood ، القنصل العام الإنجليزي في تونس، لحمامات كوربوس في نوفمبر 1858م لعلاج آلام الروماتيزم².

ومع تطور الاهتمام الطبي بالمنطقة، يشير المؤرخ كينيث بيركنز Kenneth Perkins إلى أن عام 1837م شكل نقطة تحول في النظرة البريطانية الطبية للمنطقة المغاربية. فقد بدأ الأطباء البريطانيون في تسليط الضوء على الخصائص الطبية والعلاجية لمناخها، معتبرين إياها وجهة شتوية مثالية. وقد بلغت هذه السمعة ذروتها عام 1873م مع نشر مقال آرثر ليريد "طنجة كملاذ شتوي للمرضى" في المجلة الطبية البريطانية المرموقة "ذي لانسييت" The Lancet. أكد آرثر ليريد في مقاله على المميزات الصحية لطنجة، واصفاً إياها بأنها

¹ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2002 ، ص 20.

² Amina Marzouk Chouche, " British women Travellers in Algeria , Tunisia and Morocco 1850-1930", Athens Journal of Mediterranean Studies, Volume 6, Issue4, 2020, p 286.

"وجهة مثالية لإقامة المرضى"، مع تركيز خاص على فائدتها لمرضى السل الرئوي. كما أشاد بمناخها المعتدل ودرجات حرارتها المتوازنة على مدار العام، بعيداً عن التقلبات الحادة صيفاً وشتاءً¹.

وقد ارتبط هذا الاهتمام الطبي بالمنطقة بالفكر الطبي السائد في تلك الفترة، حيث كان الاعتقاد بتأثر الجسم ببيئته منتشراً في الطب والثقافة الغربية. نتيجة لذلك، أصبح تغيير الهواء أو السفر إلى منطقة مختلفة وسيلة معتمدة لتحسين الصحة. وسعى الأطباء إلى مطابقة الحالة الصحية للمريض مع البيئات العلاجية المناسبة². في هذا السياق، اكتسبت منطقة البحر الأبيض المتوسط شعبية واسعة بين الفيكتوريين كوجهة للصحة والاستجمام. وقد أدى العلاج المناخي دوراً محورياً في هذه الشهرة، حيث أكد الخبراء الفيكتوريون على أهمية اختيار المناخ الملائم لكل حالة صحية، معتبرين مناخ المتوسط الدافئ والجاف مثالياً لعلاج العديد من الأمراض، خاصة مقارنة بالطقس البريطاني المتقلب.

ولم يقتصر الإقبال على المنطقة على الرجال فحسب، بل شمل أيضاً النساء البريطانيات اللواتي زرن شمال إفريقيا لأسباب متنوعة. فبينما سعى بعضهن وراء التحسن الصحي والراحة النفسية، بحثت أخريات عن المغامرة والتجارب الجديدة³.

وهكذا، نلاحظ أن الدوافع السياحية والطبية قد تشابكت في الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية، مشكلة صورة متكاملة عن المنطقة كوجهة جذابة تجمع بين الاستشفاء والاستجمام والاستكشاف الثقافي.

¹ Amina Marzouk Chouche, op.cit, , p 285-286.

² Ibid, p282.

³ Ibid, p 283.

3 -الدوافع العلمية :

شهد القرن الثامن عشر اهتماماً متزايداً من المملكة البريطانية بالدراسات العلمية والاستكشافية، وتحديدًا الدول المغربية. هذا الاهتمام تجسد في تنظيم وتمويل رحلات علمية متعددة، قام بها باحثون وأطباء ودارسون إنجليز، مستفيدين من التقارب في العلاقات الدبلوماسية مع هذه الدول.

وتعددت الدوافع العلمية وراء هذه الرحلات، يتصدرها الفضول العلمي كمحرك رئيسي، متمثلاً في الرغبة في استكشاف وتوثيق الواقع الطبيعي والبشري لما كان يُعرف آنذاك بـ"بلاد البربر"¹. هذا الفضول امتد ليشمل دراسة الحيوانات والنباتات والتربة والمناخ وكافة عناصر البيئة، مع إيلاء اهتمام خاص بالإنسان كعنصر أساسي في هذه المنظومة.

وقد حرص الرحالة الإنجليز من خلال رحلاتهم على تصحيح المفاهيم الخاطئة وتقديم صورة علمية دقيقة عن المنطقة، بهدف إخراجها من دائرة الخيال والخرافات التي كانت سائدة في المخيلة الإنجليزية. وتميزت رحلاتهم بالتزام صارم بالتوثيق العلمي الدقيق، حيث قدموا وصفاً مفصلاً لمشاهداتهم. هذا النهج العلمي جعل تقاريرهم من أكثر المصادر ثراءً ووضوحاً من حيث المعلومات والرؤى حول المنطقة، مما ساهم بشكل كبير في إثراء المعرفة الأوروبية بصفة عامة والإنجليزية بصفة خاصة حول المعالم الطبيعية والثقافية للمنطقة المغربية².

ومن أبرز الرحالة الإنجليز الذين أسهموا في إثراء المعرفة العلمية عن المنطقة المغربية خلال القرن الثامن عشر، نجد توماس شاو، الذي شملت رحلاته الجزائر وتونس وطرابلس و

¹ كشرود حسان، المرجع السابق، ص 46.

² حفيظة خمشون، المهمة السياسية و العلمية الفرنسية بالجزائر في القرن 18م من خلال نماذج: لوجي دي تاسي، فونتينر دو بارد، بايصونال و ديفونتين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، جامعة عبد الحميدي مهري - قسنطينة 2، 2020-2021، ص 58.

المغرب. تميزت أبحاثه بشموليتها، إذ ركز على دراسة الجوانب الطبيعية للمنطقة، مهتماً بشكل خاص بالنباتات والتضاريس وخصوبة الأراضي، إضافة إلى دراسة المناخ والحياة الحيوانية.

أما جيمس بروس، فقد قام برحلة استكشافية مهمة على سواحل المغربية بين عامي 1765 و1766، مركزاً اهتمامه على دراسة الآثار الرومانية في المنطقة. وقد تميز عمله بالدقة الفائقة في الرسومات التي أنجزها للمواقع الأثرية، والتي كانت موجهة أساساً لخدمة القصر الملكي البريطاني.

وفي السياق ذاته، كرس جيمس هاملتون جهوده لدراسة الآثار في منطقة طرابلس الغرب، بدءاً من قورينا (آثار شحات حالياً). وقد أسهم عمله بشكل كبير في توثيق وفهم التاريخ القديم لهذه المنطقة، مسلطاً الضوء على أهميتها الأثرية والتاريخية.

ومما يميز هذه الرحلات العلمية هو الدعم المؤسسي القوي الذي حظيت به من المملكة البريطانية. فقد تولت الجمعيات والأكاديميات العلمية الملكية مسؤولية تنظيم وتمويل هذه البعثات، مما وفر للرحالة الموارد اللازمة لإجراء أبحاثهم بشكل شامل ودقيق. كما امتد دورها ليشمل طباعة ونشر نتائج هذه الرحلات¹.

وقد عكست هذه الجهود العلمية المنظمة رغبة حقيقية في فهم وتوثيق واقع الدول المغربية بطريقة موضوعية وعلمية، متجاوزة الصور النمطية والأفكار المسبقة التي كانت سائدة في ذلك الوقت. وقد أكد الدارسون المختصون أن هذا النمط من المهام، الذي حركه الفضول العلمي، كان الأكثر ثراءً والأوضح من حيث المعلومات والرؤى، مبرزين بذلك

¹ كشود حسان، المرجع السابق، ص 46.

أهمية هذه الرحلات في تشكيل فهم أعمق وأكثر دقة للمنطقة المغربية في الفكر الإنجليزي خلال القرن الثامن عشر¹.

4 الدوافع الدينية :

شكل الدافع الديني محركاً رئيسياً في تشكيل الكتابات الإنجليزية عن الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد جاء هذا في أعقاب صراع عنيف دام ثلاثة قرون بين الدول المغربية وأوروبا المسيحية. أطلق الأوروبيون على تلك الحقبة "عهد القرصنة"، وهو ما يمكن اعتباره امتداداً للحروب الصليبية. وقد دفعهم هذا إلى الاهتمام بتاريخ الدول المغربية لسببين رئيسيين: الأول فهم خبايا تلك الحقبة، والثاني إضعاف المعنويات التي قد تؤدي إلى تغييرات جذرية بعد نجاح الاحتلال. وتجسد هذا الاهتمام في دراساتهم المعمقة للإسلام والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي، مع مشاركة فاعلة من الكنيسة عبر أدواتها التبشيرية ووسائلها المختلفة².

تجلت تأثيرات الدافع الديني في مجموعة متنوعة من النصوص، بدءاً من روايات الأسرى وصولاً إلى التقارير الرسمية. وقد برز هذا التأثير بشكل خاص في ظل التوتر العقائدي بين المسيحية البروتستانتية والإسلام، إذ كانت المؤسسة الكنسية البريطانية تخشى من تأثر عقيدة رعاياها بسبب تواصلهم مع العالم الإسلامي.

نتج عن هذا القلق العقائدي ظهور أسلوب كتابي مميز يمزج بين التأريخ والوعظ الديني. فقد وجد الكتاب الإنجليزي، ولا سيما الأسرى العائدون، أنفسهم مدفوعين إلى تقديم تجاربهم كاختبارات إيمانية. وفي ظل غياب نظام فعال للفداء في بريطانيا البروتستانتية، مقارنة

¹ حفيظة خمشون، المرجع السابق، ص 58.

² أبو القاسم سعد الله، دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص 19.

بنظيراتها الكاثوليكية، تطورت كتابات تتسم بطابع شخصي وتنوع أكبر، متخذة من الدين إطاراً مرجعياً لفهم العالم الإسلامي وتفسيره¹.

ظهر في هذا السياق تناقض واضح بين المنطلقات الدينية والمصالح السياسية والتجارية. فبينما عملت الكتابات الدينية على تأجيح المشاعر المناهضة للمغاربة، سعت الدولة البريطانية للحفاظ على علاقات متوازنة معهم ومع الدولة العثمانية. وقد أفرز هذا التداخل بين الديني والسياسي نصوصاً معقدة ومتناقضة، تجمع بين الهاجس الديني للحفاظ على النقاء العقائدي، والواقع السياسي والاقتصادي الذي يفرض التعايش مع "الآخر" المسلم².

انعكس هذا التعقيد بوضوح في كتابات الأسرى العائدين، الذين سعوا لإثبات ثباتهم على إيمانهم المسيحي رغم تجربة الأسر. وحتى في الروايات المقدمة أمام القضاة، كان إثبات الحفاظ على العقيدة المسيحية جزءاً أساسياً من إثبات مصداقية الرواية. وهكذا، تقدم دراسة الدوافع الدينية في الكتابات الإنجليزية عن المنطقة المغربية رؤية شاملة للتعقيدات الثقافية والسياسية في العلاقات البريطانية-المغربية، وتوضح كيف شكل الدين مرجعاً أساسياً في فهم العالم الإسلامي وتمثيله في المخيال البريطاني خلال تلك الحقبة³.

¹ Linda Colley, *Captives Britain, Empire and the World 1600-1850*, Pimlico, London, 2003, p 81

² Ibidem.

³ Ibid, p 85.

سادسا : دور الكتابات الإنجليزية كأداة سياسية وعسكرية في خدمة الاستعمار في الدول المغربية خلال القرنين 18م و19م

شكّلت الكتابات الإنجليزية أداة قوية في خدمة الأهداف السياسية والعسكرية للحركة الاستعمارية تجاه الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ويمكن فهم هذه الظاهرة في إطار ما وصفه إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، حيث كانت العلاقة بين أوروبا المسيحية و"الشرق" متأثرة بالصراع مع الإسلام والخوف من "الخطر العثماني". واستمر هذا التصور في تشكيل رؤية أوروبا لنفسها وللآخر، متزامناً مع تنامي الطموحات الإمبريالية الأوروبية، مما مهّد الطريق للتدخل الاستعماري اللاحق في المنطقة المغربية¹.

وقد لعبت هذه الكتابات دوراً محورياً في تكريس هيمنة "الأنا" الأوروبية على "الآخر" المغربي. فصوّرت المغاربة كمخلوقات مختلفة ولا عقلانية وهمجية، في حين قدّمت الإنسان الغربي كنموذج للعقلانية والتحضر والتنوير. وخلف هذه الثنائية المغرضة، كانت تكمن فكرة أيديولوجية خطيرة مفادها أن الشعوب المغربية في حاجة ماسة إلى "تربية" و"تأديب" و"تنوير" من قِبَل الإنسان الغربي. وتم تسويق هذه الفكرة تحت مسمى "الرسالة الحضارية" **Civilizing Mission**، وهو شعار خادع يدّعي أن الغرب يشعر بمسؤولية نشر الحضارة والتنوير في البلدان "المتخلفة"، بينما كان الهدف الحقيقي هو السيطرة الاستعمارية ونهب الموارد².

ويشير جوناثان وايت **Jonathan White** إلى تورط أدب الرحلة الأوروبي في التاريخ الاستعماري³، مما يعكس دوره في تمهيد الطريق للتدخل الإنجليزي في المنطقة المغربية.

¹ Khalid Ben Srhir, Aammari Lahoucine , op.cit, p.332

² محمد الكوش، الإيديولوجية الاستقرائية في رحلة إدموندو دي أميتشيس حول المغرب، صورة الآخر قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب، كريم بجيت، دار الأمان، الرباط، 2013، ص 163.

³ Jonthan White, Recasting the World ; Writing After Colonialism, The Johns Hokins University Press , London, 1993, p 242.

ويعزز إدوارد سعيد هذه الفكرة، مؤكداً أهمية الأشكال الثقافية في صياغة وجهات النظر والتجارب الإمبريالية¹، وهو ما ينطبق بشكل خاص على الكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية.

أما ماري لويز برات Mary Louis Pratt فقد قدمت في كتابها "عيون إمبريالية" تحليلاً عميقاً لكيفية مساهمة أدب الرحلات الإنجليزي في تشكيل التصورات الأوروبية عن العالم المغربي. وقد لعبت هذه التصورات دوراً محورياً في دعم المشروع الاستعماري الإنجليزي وتبرير تدخلاته السياسية والعسكرية في المنطقة. كما ساهمت هذه الكتابات في تعزيز الهوية الإنجليزية والأوروبية في مقابل الهوية المغربية²، مما خدم الأهداف الاستعمارية بشكل مباشر.

ويؤكد ديفيد سير David Spurr أهمية هذه الكتابات بقوله: "عندما نتحدث عن دور العين في تأسيس المعرفة عن العالم والسلطة على الفضاء، فإننا نشير إلى خاصية أساسية في التفكير الغربي. إن ما أطلقت عليه النظرة المتفحصة والرؤية المتحكمة يجعل من الممكن فهم العالم غير الغربي كموضوع للدراسة"³.

لكن هناك من يرى أن الإمبريالية أو الإمبراطورية ما هي في الواقع إلا بناء نصي textual Fabric لعبت فيه اللغة دوراً لا يقل أهمية عن دور السلاح⁴. وهذا الرأي يضيف بُعداً جديداً للنقاش، مسلطاً الضوء على قوة اللغة والكتابة في تشكيل الواقع الاستعماري. فهو يشير إلى أن الهيمنة الإمبريالية لم تكن فقط نتيجة للقوة العسكرية، بل كانت أيضاً ثمرة لعملية معقدة من البناء الثقافي والأدبي.

¹ Edward said, op.cit, p XII.

² Mary Louis Pratt, op.cit, p4.

³ David Spurr, op.cit, p 25.

⁴ Christiffin and Allan Lawson, de-scribing Empire, Routledge, London , 1988, p 1.

وتتضافر هذه الآراء لتقدم صورة متكاملة عن كيفية توظيف المعرفة والرؤية والكتابة كأدوات للسلطة في السياق الاستعماري. فهي تدعونا إلى إعادة النظر في الطرق التي نفهم بها العلاقات بين الثقافات، وتبرز الدور المحوري للكتابات الإنجليزية في تشكيل وتبرير السياسات الاستعمارية تجاه الدول المغربية.

وفي هذا السياق، تؤكد رنا قباني على الارتباط الوثيق بين كتابة أدب الرحلة والعلاقة الاستعمارية. فالرحالة الإنجليز، تحت ستار التعلم والاكتشاف، كانوا في الواقع يمارسون السلطة والسيطرة على الأرض والشعوب المغربية، مما مهد الطريق للتدخل الاستعماري اللاحق¹.

هذه الآراء مجتمعة تكشف عن الدور المحوري الذي لعبته الكتابات الإنجليزية في تشكيل وتبرير السياسات الاستعمارية تجاه الدول المغربية. فقد استخدمت هذه الكتابات المعرفة والرؤية كأدوات للسلطة، مما ساهم في تعزيز الهياكل الاستعمارية وتبرير التدخل العسكري والسياسي.

وتتجلى في كتابات الرحالة الإنجليز عن المنطقة المغربية نموذجاً واضحاً لما أسماه إدوارد سعيد بالاستشراق. فهؤلاء الرحالة لم يأتوا إلى المنطقة بعقول خالية، بل كانوا محمّلين بأيديولوجيا ثقافية راسخة، تعمل في إطار ثنائية ضدية تمجد الذات الإنجليزية وتحط من قيمة الآخر المغربي.

وقد دفعت هذه الرؤية الاستعمارية الكتاب الإنجليزيين إلى التصرف كأصحاب المعرفة والتفوق الحضاري المطلق، مما جعلهم يعتبرون المجتمعات المغربية موضوعاً لدراساتهم

¹ رنا قباني، أساطير أوروبا في الشرق، تر: صباح قباني، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، 1994، ص 27.

وأحكامهم القيمية. والأخطر من ذلك أنهم افترضوا عدم قدرة هذه المجتمعات على تمثيل نفسها، مما برر في أذهانهم حقهم في تمثيل هذه المجتمعات وفقاً لتصوراتهم الاستشراقية¹.

وتتميز هذه الكتابات باستخدام تقنيات خطابية محددة لإشراك القارئ الإنجليزي في تجربة الرحلة. فعلى الرغم من استخدام ضمير المتكلم لوصف التجارب الشخصية، نجد توظيفاً متكرراً لضمير المخاطب "أنت" وضمير الجمع "نحن"، مما يشير إلى أن هذه الكتابات كانت موجهة بالدرجة الأولى للقارئ الإنجليزي. وقد أثر هذا الأسلوب على اختيار المحتوى وطريقة عرضه، حيث يميل إلى تقديم ما يروق للقارئ الإنجليزي ويعزز تصورات المسبقة.

أدت التقنيات الخطابية دوراً محورياً في تكريس ثنائية "الأنا" و"الآخر" أو "الغرب" و"الشرق"، مما ساهم في تمجيد الذات الإنجليزية وتحقير الآخر المغربي². وقد خدم هذا التوجه الأهداف السياسية والعسكرية للإمبراطورية البريطانية في المنطقة.

وفي خضم التنافس الإمبريالي المحتدم، برزت المنطقة المغربية كمسرح مهم للطموحات البريطانية في القرن التاسع عشر. غير أن بريطانيا واجهت تحدياً كبيراً تمثل في محدودية مواردها، مما جعلها عاجزة عن ترجمة طموحاتها إلى استراتيجية إمبراطورية متماسكة.

يدفعنا هذا الواقع المعقد إلى إعادة النظر في مفهوم تراكم المعرفة الاستشراقية. فبدلاً من النظرة الثابتة للمنطقة المغربية، نجد صورة أكثر حركية وتعقيداً، تتشابك فيها المعرفة والسلطة في علاقة متغيرة باستمرار.

وقد أدى القناصل البريطانيون في قلب هذه الحركية دوراً محورياً كجامعي معلومات، إذ غاصوا في أعماق الثقافة المحلية، واستكشفوا تفاصيل التجارة، وتنقلوا بحذر في متاهات

¹ محمد الكوش، المرجع السابق، ص 166.

² نفسه، ص 171.

السياسة المحلية. لم تكن هذه المعرفة مجرد ترف فكري، بل كانت سلاحاً استراتيجياً مكنهم من إدارة مكاتبهم بكفاءة وممارسة نفوذهم القضائي بدهاء.

وتجسيدا للأهمية الاستراتيجية للمنطقة، أرسلت بريطانيا الكابتن وليام هنري سميث **William Henry Smith** لرسم خريطة تفصيلية للساحل الشمالي الأفريقي. ولم يكن هذا المسح، الذي امتد من طرابلس إلى مصر، مجرد عملية جغرافية، بل كان رسماً لخريطة الطموحات والإمكانات الإمبريالية البريطانية في المنطقة.

وهكذا تتجلى صورة الإمبراطورية البريطانية في المنطقة المغربية كشبكة معقدة من التفاعلات والتطلعات. إنها قصة توضح كيف تتحول المعرفة إلى أداة للسلطة، وكيف تتشكل الطموحات وتتكيف في مواجهة الواقع المعقد للسياسة العالمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر¹.

وتكشف دراسة نشاط القنصلية البريطانية في الدول المغربية عن نموذج لتوظيف الكتابات الإنجليزية في خدمة المصالح السياسية والعسكرية للإمبراطورية في الدول المغربية، حتى في المناطق غير المستعمرة مباشرة. ويتجلى هذا النموذج بوضوح في دور القنصل البريطاني كمحور أساسي، يعمل وسيطاً بين العالمين الغربي والمحلي، موظفاً معرفته وتقاريره لخدمة المخططات الاستعمارية في المنطقة المغربية.

تبرز أهمية شبكة الاستخبارات التي أسسها القنصل البريطاني في الدول المغربية كأداة قوية لجمع المعلومات وتشكيل الرؤية البريطانية. وقد اعتمدت هذه الشبكة على ما يُعرف بـ"المبلغين الاجتماعيين"، الذين شكلوا مصدراً حيوياً للمعلومات التي أسهمت في صياغة السياسات البريطانية. وتُعد مراسلات القنصل وثائق ثمينة تكشف عن كيفية توظيف

¹ Sara M.ElGaddari, op.cit, 63.

المعلومات المحلية في صياغة التصورات والاستراتيجيات البريطانية، متجاوزة كونها مجرد تقارير محايدة لتصبح أدوات فعالة في تشكيل الرؤية الاستعمارية وتوجيه السياسات¹.

ولعل أبرز مثال على هذا التوظيف السياسي والعسكري للكتابات الإنجليزية ما كشفته إليزابيث بروتون، ابنة القنصل البريطاني بلانكي Elizabeth Broughton ، في مذكراتها حول الجزائر. فقد أوضحت الخطة البريطانية للهيمنة على هذه المنطقة الخصبة من الدول المغربية بقولها: " إن خطة الهيمنة البريطانية على هذا الجزء الخصب والجميل من شمال أفريقيا تتمثل في رفع هؤلاء الوطنيين المضطهدين إلى موقعهم الطبيعي في وطنهم الأم، وإنشاء نظام سيادة مماثل لما هو قائم بين شركة الهند الشرقية والسكان الأصليين. وبذلك، فإن الذين احتفظوا بمختلف حكومات المقاطعات كإقطاعيات تابعة لبريطانيا العظمى كانوا مؤهلين تماماً وقادرين على إبقاء السكان الأصليين في حالة خضوع دائم... كم مرة دخلت واستمعت لهذه الآراء المخطط لها بعناية، وقلبي ينبض بالسرور عند التفكير في مدى إشادة الملك والدولة بأبي. لقد تعاطفت تماماً مع جميع مخططاته لتعزيز مشروعنا الكبير، حتى أنني كنت أرافقه دائماً على طول الساحل المجاور لحديقتنا مباشرة، مستمعة لجميع اقتراحاته، ومحتفظة بدقة بكل النقاط التي حددها كمواقع مناسبة لإنزال القوات. وكنت على يقين من نجاح هذا المشروع نظراً لخبرة أبي العسكرية الطويلة ونجاحه التام في إنزال القوات البريطانية والاستيلاء السريع على جزيرة مينوركا تحت قيادته².

غير أن خطة بلانكي لاحتلال الجزائر باءت بالفشل، وفقاً لما ذكرته ابنته، بسبب تقارير مزيفة ومشوهة قدمها أشخاص ذوو نفوذ. وقد وصفت بروتون هؤلاء الأفراد قائلة: "لديهم وسائل لجعل تحريفاتهم تحظى باهتمام غير مبرر على حساب المصلحة الحقيقية لبلادهم". وهذا ما يثير الشكوك حول احتمال كونهم جواسيس لفرنسا استفادوا من خطة بلانكي لتنفيذ

¹ Sara M.ElGaddari, op.cit, p 241.

² Elizabeth Broughton, op.cit, pp 201-202

احتلال الجزائر لاحقاً، خاصة وأن بروتون نفسها ذكرت أنها تخيلت، أثناء الحملة الفرنسية، أنها كانت ستكون مرشداً وموجهاً أفضل لإنزال القوات من السيد مارشال نفسه¹.

وفي طرابلس الغرب، نجد مثلاً آخر على الدور الذي لعبته الرسائل القنصلية في السياق السياسي والعسكري للحركة الاستعمارية. فقد تجلت في رسائل ميس توللي **Miss Tully**، زوجة القنصل البريطاني، صورة حية لشبكة استخباراتية نسجت بمهارة في نسيج المجتمع المحلي. فكل سطر من هذه الرسائل يروي قصة عن جمع المعلومات، وكل فقرة تكشف مستوى غير مسبوق من التدخل في شؤون البلاد.

وتنوعت محتويات هذه المراسلات بين المهام القنصلية اليومية والتطورات المالية والعسكرية والسياسية التي تهم الوزراء في لندن. فلم تكن مجرد تقارير عادية، بل كانت بمثابة بوصلة توجه السياسة البريطانية في المنطقة. ومن خلال صفحات هذه الرسائل، نستطيع أن نتلمس الحياة اليومية للقنصل البريطاني في طرابلس ونرى كيفية نسج علاقاته، مما يعكس عمق التغلغل البريطاني في النسيج الاجتماعي والسياسي للمنطقة².

ولم تقتصر أهمية الكتابات الإنجليزية على التقارير القنصلية فحسب، بل امتد تأثيرها إلى كتابات الرحالة. ويبرز في هذا السياق الدور المحوري الذي أدته أعمال الرحالة الإنجليزي توماس شو **Thomas Shaw**، في تشكيل الرؤية الاستعمارية الفرنسية للجزائر. فعندما شرعت فرنسا في حملتها عام 1830م، اعتمدت بشكل رئيس على الترجمة الفرنسية لأعمال شو التي نُشرت قبل قرن تقريباً، وذلك لغياب مصادر معرفية حديثة وشاملة. وقد استفاد الفرنسيون من هذه الدراسات في فهم التقسيم الجغرافي للمنطقة، وخاصة التمييز بين التل والصحراء، وإدراك حدود النفوذ العثماني وطبيعة علاقات السلطة مع القبائل المحلية. وقد مكنت هذه المعرفة المسبقة القوات الاستعمارية من تحديد المناطق القابلة للسيطرة والأراضي

¹ Elizabeth Broughton, op.cit, p 202.

² Sara M.ElGaddari, op.cit, p 243.

الزراعية الخصبة، وفهم نقاط الضعف في النظام السياسي القائم. وبذلك شكلت الدراسات الاستشراقية الإنجليزية، رغم أنها لم تكن موجهة أصلاً لخدمة المشروع الاستعماري الفرنسي، أساساً معرفياً مهماً ساعد في رسم خريطة التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر¹.

وفي السياق ذاته، يكشف التحليل المعمق لكتابات لويس وينجفيلد **Lewis Wingfield** عن تعقيدات الصراع الاستعماري في المنطقة المغربية. فرغم أن الظاهر من كتابه يقدم دراسة مقارنة بين الجزائر وتونس²، إلا أن مضمونه يعكس الأبعاد الاستعمارية المتشابكة في المنطقة. وقد أبرز وينجفيلد مخاوفه من تحول تونس إلى مستعمرة أوروبية، مشيراً إلى أن الاضطرابات الداخلية قد تفتح الباب للتدخل الأجنبي تحت ذريعة حماية السلام العام.

وقد تجلّى التنافس الاستعماري في المنطقة من خلال محورين رئيسيين: الأول يتمثل في السياسة التوسعية الفرنسية التي سعت، انطلاقاً من سيطرتها على الجزائر، إلى بسط نفوذها على كامل الدول المغربية في محاولة لإحياء نموذج المستعمرة الرومانية القديمة. أما المحور الثاني فتمثل في المطامع الإيطالية تحت قيادة فيكتور إيمانويل **Victor Emmanuel**، الذي رأى في تونس، بحكم قربها الجغرافي، فرصة مثالية لتأسيس إمبراطورية استعمارية تنافس القوى الأوروبية الكبرى³.

هكذا، تتجلى صورة متكاملة لكيفية توظيف الكتابات الإنجليزية - سواء كانت مذكرات شخصية أو رسائل قنصلية - في خدمة الأجندة الاستعمارية في الدول المغربية. هذه الوثائق لم تكن مجرد سجلات تاريخية، بل أدوات فعالة في رسم السياسات وتوجيه

¹ Hélène Blais, Florence Deprest, Territoires Impériaux une Histoire spatiale du fait colonial, éditions de la Sorbonne, Paris, 2020, Consulté le 10/10/2024 à 10 h 10 sur le site web : <https://books.openedition.org/psorbonne/42311>

² Lewis Wingfield, op.cit, p IX.

³ Ibid, p 272.

الاستراتيجيات العسكرية، مما يؤكد الدور المحوري للمعرفة والمعلومات في تعزيز النفوذ الاستعماري، حتى في المناطق غير الخاضعة للحكم المباشر.

وفي سياق هذا التوظيف السياسي والعسكري للكتابات الإنجليزية حول الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، برزت ظاهرة لافتة تمثلت في تحويل روايات الأسرى الإنجليز إلى مصادر استخباراتية ثمينة. فقد تحولت هذه الكتابات، التي بدت في ظاهرها مجرد سرد لتجارب شخصية، إلى مصدر غني بالمعلومات الاستراتيجية حول القدرات العسكرية للدول المغربية والإمبراطورية العثمانية.

وعند عودتهم إلى إنجلترا، كان هؤلاء الأسرى يقدمون تقارير مفصلة تتضمن معلومات حيوية لم يكن بمقدور الدبلوماسيين أو المسافرين العاديين الوصول إليها. وقد شملت هذه التقارير تفاصيل دقيقة عن الاستعدادات العسكرية، وحركة الأساطيل، وأعداد القوات في المنطقة المغربية، إضافة إلى رؤى عميقة عن المجتمعات الإسلامية وهياكل السلطة فيها. وكان لزاماً على كل أسير محرر، فور وصوله إلى وطنه، أن يقدم بياناً مفصلاً للسلطات يتضمن شهادته عن أوضاع الأسرى الآخرين ومواقعهم، فضلاً عن معلومات عن الوضع العسكري والبحري للقوات المحلية¹.

ويتجلى مثال بارز على هذه الممارسة في تقرير توماس بيلو Thomas Pellow عن مدينة سلا المغربية. فقد قدم توماس بيلو Thomas Pellow وصفاً تفصيلياً يشبه التقرير الاستخباراتي، متضمناً معلومات دقيقة عن التحصينات العسكرية، واصفاً القلاع ومواقعها ونقاط ضعفها. كما تطرق إلى القدرات الدفاعية، مقدماً تفاصيل عن المدفعية ومصادر المياه الاستراتيجية. ولم يغفل بيلو عن التركيبة السكانية، إذ قدم تقديرات لعدد السكان وتكوينهم

¹ Nabil Matar, Turk, Moor..., op.cit, p 72

العربي والديني، إضافة إلى معلومات عن البنية التحتية للمدينة وطبيعة مبانيتها. وأشار أيضاً إلى الأهمية الاستراتيجية لسلا، موضحاً دورها في القرصنة وتجارة العبيد¹.

وقد كانت هذه المعلومات القيمة التي قدمها توماس بيلو Thomas Pellow وغيره من الأسرى ذات أهمية بالغة للسلطات الإنجليزية، حيث استُخدمت في مجالات متعددة. فقد أسهمت في التخطيط العسكري للعمليات المحتملة، وساعدت في تطوير الاستراتيجيات التجارية في المنطقة. كما استُخدمت في صياغة السياسات الدبلوماسية تجاه الدول المغربية، وفي تحسين الملاحة البحرية والتعامل مع تهديدات القرصنة.

ونتيجة لهذه الأهمية الاستراتيجية، أصبح يُنظر إلى الأسرى العائدين كمصادر قيّمة للمعلومات الاستخباراتية عن القدرات والنوايا العسكرية للدول المغربية. وبذلك، شكلت كتاباتهم أول وثائق إنجليزية واقعية تتناول الصراع بين العالمين المسيحي والإسلامي في سياق التوسع الاستعماري².

لم تقتصر هذه الممارسة على الأسرى وحدهم، بل امتدت لتشمل الرحالة والمستكشفين أيضاً. فدراسة الترابط الشكلي والمضموني لنصوص الرحلات الإنجليزية إلى الدول المغربية، في سياق الظروف التاريخية لتلك الفترة، تكشف عن أبعاد أعمق لهذه الكتابات. إذ شكلت هذه الرحلات أداة استراتيجية اعتمدها الأوروبيون، ولا سيما الإنجليز، لبسط نفوذهم الفكري والسياسي والعسكري على المنطقة المغربية.

وقد استُخدمت هذه الكتابات كوسيلة لتجميع معلومات متنوعة عن الدول المغربية، جرى توظيفها لاحقاً لخدمة المصالح الاستعمارية. وعلى الرغم من افتقار هذه المعلومات أحياناً

¹ Thomas pellow, op.cit, p 10.

² Nabil Matar, Turk, Moor,... op.cit, p 73

إلى الدقة والموضوعية، إلا أنها شكلت اللبنة الأولى لمشروع استعماري أوسع، حتى وإن لم تُعلن هذه النوايا بشكل صريح.

ويتجلى هذا التوظيف بوضوح في كتابات الرحالة جيمس غراي جاكسون **Jame Gray Jackson**، الذي زار المغرب سنة 1798م. ففي مقدمة كتابه، كشف عن الأهداف الحقيقية وراء هذه الرحلات الاستكشافية، قائلاً: " إذا أراد الأوروبيون استكشاف المناطق الداخلية لأفريقيا، وإذا أردنا أن نصل إلى هدفنا العظيم من هذا الاستكشاف، وهو مركز أفريقيا الوسطى، تمبكتو، فإن المغرب هو النقطة الأنسب للانطلاق". وأشار جيمس غراي جاكسون **Jame Gray Jackson**، إلى ضرورة تغيير التصورات المسبقة عن المنطقة، مؤكداً أهمية إقامة علاقات تجارية قوية مع الموانئ المغربية الرئيسية على الساحل الغربي. ويكشف هذا النهج عن استراتيجية متكاملة تهدف إلى التغلغل التدريجي في المنطقة، بدءاً من العلاقات التجارية وصولاً إلى النفوذ السياسي والعسكري¹.

في الختام، تظهر هذه الكتابات الإنجليزية، سواء من القناصل أو الأسرى أو الرحالة، كجزء من منظومة أشمل تهدف إلى جمع المعلومات الاستراتيجية وتحليلها، لتشكيل أساساً للتخطيط الاستعماري المستقبلي. فمن خلال هذه الكتابات، رُسمت خريطة شاملة للمنطقة المغربية، تضم جوانبها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، مما مهد الطريق للتوسع الاستعماري الإنجليزي والأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وتُظهر هذه الممارسة بجلاء كيفية توظيف الكتابات الإنجليزية لخدمة الأهداف السياسية والعسكرية للقوى الاستعمارية الأوروبية، مما أسهم بشكل كبير في دعم وتوجيه الحركة الاستعمارية في تلك الحقبة الحاسمة من التاريخ.

¹ كريم بجيت، المرجع السابق، ص 73.

الخاتمة

الخاتمة :

- بدأت العلاقات الإنجليزية-الجزائرية في القرن السادس عشر عبر الامتيازات العثمانية، وتوطدت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بمعاهدات سلام وتجارة، مما جعل الجزائر حليفاً استراتيجياً لبريطانيا في البحر المتوسط
- واجهت العلاقات توترات في أوائل القرن التاسع عشر بسبب التنافس الأوروبي والصراعات الداخلية في الجزائر، وبلغت ذروتها في الحملة البريطانية-الهولندية عام 1816 بقيادة الأدميرال إكسموث التي أضعفت الحكم العثماني ومهدت للاحتلال الفرنسي
- تميز التجار الإنجليز بمهارة التفاوض والحصول على امتيازات تجارية، واستفادوا من الأحداث الأوروبية لتوسيع نفوذهم، حيث صدرت الجزائر المواد الخام مثل الحبوب والماشية وزيت الزيتون، بينما استوردت القماش الإنجليزي والمعدات البحرية
- كانت الجزائر مصدراً للمواد الخام أكثر من كونها سوقاً استهلاكية للمنتجات البريطانية، حيث لم تحقق المنتجات الإنجليزية رواجاً واسعاً، واعتمد التجار الجزائريون على الوسطاء البريطانيين للوصول إلى الأسواق الأوروبية.
- تميزت العلاقات البريطانية-التونسية بالاستقرار والنمو المستمر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث وقعت عدة اتفاقيات تجارية وسياسية أرست أسس التعاون وضمنت امتيازات واسعة للبريطانيين في المنطقة
- أظهرت تونس مهارة سياسية في الموازنة بين القوى الأوروبية المتنافسة، خاصة بريطانيا وفرنسا، حيث حرص حكامها على توازن علاقاتهم مع هذه القوى بما يخدم مصالحهم الوطنية، رغم أن الصراع الأوروبي أثر أحياناً على استقرار علاقات تونس الخارجية

- في عهد حمودة باشا تحولت تونس إلى ساحة صراع نفوذ بين فرنسا وبريطانيا، لكن العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وتونس ظلت متينة مع استمرار تبادل السفراء بوتيرة ملحوظة، مما يعكس الأهمية الاستراتيجية لهذه العلاقة
- تطورت العلاقات التجارية بشكل ملحوظ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث استطاع الباي حمودة جذب التجار البريطانيين من خلال ضمان سلامتهم وتوفير ظروف ملائمة لنشاطهم، وشمل التبادل السلع الصناعية والزراعية والحرفية مما عزز العلاقات الاقتصادية بين البلدين
- تطورت العلاقات البريطانية مع طرابلس الغرب تدريجياً منذ أواخر القرن السادس عشر بإنشاء أول قنصلية عام 1658، وشهدت تقلبات متكررة خلال القرن السابع عشر لكن الطرفين كانا قادرين على إيجاد حلول دبلوماسية، وشكلت اتفاقية 1699 نقطة تحول مهمة حققت توازناً بين مصالح الطرفين
- تعززت العلاقات بشكل كبير خلال حكم الأسرة القرمانلية مع تجديد متكرر للاتفاقيات، وتميز القنصل البريطاني ريتشارد تولي بقدرته على الاندماج مع المجتمع المحلي، مما عزز العلاقات الوثيقة خاصة أثناء أزمة وباء الطاعون.
- لعبت بريطانيا دوراً حاسماً في تأمين استقرار الأوضاع السياسية في طرابلس خلال الأزمات الداخلية، حيث قدمت الدعم اللوجستي والعسكري ووقفت ضد النفوذ الفرنسي، وبرز دور القنصل هانمر وارنجتون في معارضة علي باشا واللجوء للدولة العثمانية للتدخل عام 1835 لإنهاء حكمه وتعيين نجيب باشا .
- احتلت بريطانيا مكانة استراتيجية كأبرز شريك تجاري لطرابلس، حيث بلغ متوسط الصادرات السنوية حوالي ثلاثمائة طن وشملت سلعاً متنوعة، مما يعكس الطبيعة المعقدة للسياسة الاستعمارية الأوروبية والمناورات الدبلوماسية بين القوى الكبرى في المنطقة.

- تُعد العلاقات المغربية البريطانية من أقدم العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وأوروبا، لكنها شهدت فترات توتر وعدم استقرار خاصة بعد احتلال بريطانيا لطنجة، وانتعشت مع تولي الملك وليام الثالث العرش الإنجليزي رغم فشل الجهود في حل قضايا حساسة مثل مسألة الأسرى .
- برزت بريطانيا في القرن التاسع عشر كقوة مؤثرة في المشهد السياسي والتجاري للمغرب مستفيدة من قوتها البحرية، وأدت دوراً محورياً كوسيط دبلوماسي في مواجهة التطورات الفرنسية بالمنطقة للحفاظ على مصالحها الاستراتيجية
- لعب الدبلوماسيون البريطانيون أدواراً بارزة في تطوير العلاقات، حيث اقترح جون دراموند هاي إصلاحات طموحة للاقتصاد والجيش والإدارة المغربية لكنها انتقدت لخدمة المصالح البريطانية، بينما واجه خلفاؤه كويليام كيربي غرين وتشارلز بين إيوان سميث صعوبات في التفاوض مع السلطان بسبب المنافسة الأوروبية .
- ازدهرت التجارة المغربية البريطانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لكنها واجهت تحديات عدة شملت الصراعات الأوروبية والأوبئة والاضطرابات السياسية الداخلية والقرصنة الإسبانية، مما أظهر هشاشة الروابط التجارية وتأثرها بالعوامل الجيوسياسية والأمنية.
- ظلت العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الدول المغربية وبريطانيا محدودة إلى حد كبير بسبب الاختلافات الدينية والثقافية، والتحديات العملية التي واجهها المسلمون المقيمون في أوروبا، وغياب التمثيل الدبلوماسي الدائم للدول المغربية .
- برزت بعض الجوانب الإيجابية في هذه العلاقات، مثل التبادل المعرفي في المجالين الطبي والعلمي، والاحترام الذي حظي به الأطباء والخبراء الأوروبيون من السلطات والمجتمع المغربي، إضافة إلى حالات الزواج المختلط التي عكست إمكانية التفاهم بين الثقافتين على المستوى الشخصي .

- كان لظاهرة الأسر تأثيرات عميقة في المجتمعين المغربي والإنجليزي، مما أدى إلى تغيرات في الفكر والأدب البريطاني نحو مفاهيم التنوع والمساواة، وعكس هذا التفاعل العلمي والثقافي رغبة الطرفين في التقارب والاستفادة المتبادلة
- على الرغم من امتلاك بريطانيا مميزات وقدرات عديدة، فإنها لم تحقق أهدافها في المنطقة المغربية بسبب سياستها الضعيفة وغير الملائمة مقارنة بفرنسا، حيث كانت تتحني أمام إرادة القوى المحلية بدلاً من ممارسة نفوذها، مما ألحق الضرر بسمعتها وأضعف قدرتها على الهيمنة.
- يتبين من خلال التتبع الزمني للكتابات الإنجليزية المتعلقة بتاريخ المجتمع المغربي أن الدول المغربية ظلت موضع اهتمام الإنجليز وتركيزهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد تنوعت خلفيات المؤلفين الإنجليز وتوجهاتهم، إذ شملت الرحالة والجغرافيين والمستكشفين والعلماء والأسرى والقناصل والجواسيس. وانعكس هذا التنوع على طبيعة انطباعاتهم وآرائهم عن الدول المغربية، سواء من حيث حكوماتها أم سكانها.
- قدمت كتابات القناصل رؤية رسمية مرتبطة بالمهام الدبلوماسية، فركزت تقاريرهم على العلاقات السياسية والتجارية، وتميزت معلوماتهم بالدقة نظراً لإقامتهم الطويلة وعلاقاتهم الرسمية.
- أما كتابات الأسرى، فقدمت شهادات مميزة عن الحياة اليومية من داخل المجتمع، إذ أتاحت لهم معاشتهم القسرية فهماً عميقاً للعادات والتقاليد، وإن كانت رؤيتهم قد تأثرت بتجربة الأسر نفسها.
- وتميزت كتابات الرحالة بجمعها بين الملاحظة العلمية والأهداف التجارية من خلال زيارات قصيرة نسبياً، فكانت نظرتهم أكثر حرية من القناصل وأقل تأثراً بالتجربة الشخصية من الأسرى.

-يتضح من تحليل طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع في البلدان المغاربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أنها شهدت مرحلتين متباينتين. ففي المرحلة الأولى، ساد التعاون والانسجام بين الطرفين، حيث عملت السلطة الحاكمة على استقطاب رجال الدين ومنحهم امتيازات مقابل دعمهم السياسي والشعبي. كما لجأت إلى المشايخ والمرابطين لتوسيع نفوذها والسيطرة على المناطق المتمردة.

-غير أن هذه العلاقة تحولت في المرحلة الثانية إلى صراع وتنافر، إذ ظهر الاستبداد والاستغلال الاقتصادي من جانب الحكام في صورة فرض ضرائب باهظة وممارسات قمعية ضد المحكومين. وأدى ذلك إلى اندلاع ثورات وانتفاضات شعبية عديدة ضد السلطات الحاكمة في مختلف أنحاء المنطقة المغاربية. وعلى الرغم من قمع هذه التمردات بقوة السلاح، فإنها أظهرت حجم التوتر والانفصال بين الحكام والمحكومين في تلك الفترة.

-يتضح من تحليل طبيعة الملكية الزراعية في البلدان المغاربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أنها تنوعت بين الملكيات الخاصة والمشاعة والأراضي التابعة للدولة (البايك) والوقف. ويرتبط هذا التنوع ارتباطاً وثيقاً بالنظام الاجتماعي والاقتصادي السائد في تلك الحقبة التاريخية.

-شكلت الأراضي المشاعة، مثل العرش والجماعة، جزءاً مهماً من المساحات الزراعية في المنطقة المغاربية، إذ كان يستغلها أفراد القبائل والعشائر المحلية بشكل جماعي وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم المتوارثة. وفي المقابل، تمثلت الملكيات الخاصة في أراضي المدن والمناطق الخصبة التي كان يستغلها أصحابها مباشرة دون تدخل الدولة. وكانت هناك أيضاً الأراضي الخراجية التابعة للدولة التي استُغلت إما عن طريق الإيجار أو بتسخير السكان المحليين.

- شهدت المنطقة المغاربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تطوراً ملحوظاً في المجالين الصناعي والتجاري. فتميزت هذه الفترة بازدهار الصناعات التقليدية المتنوعة، ولا سيما النسيجية والجلدية والمعدنية والخشبية والفخارية، مستفيدة من توافر المواد الأولية المحلية. وبرزت شبكة تجارية واسعة ربطت المدن المغاربية بعضها ببعض وبالأسواق الخارجية عبر القوافل البرية والتجارة البحرية، مع تطور ملحوظ في التبادل التجاري مع الموانئ الأوروبية. غير أن هذا النشاط الاقتصادي واجه تحديات عديدة، منها المعاهدات غير المتكافئة مع الدول الأوروبية، وظهور طبقة من الوسطاء والموظفين المستغلين لمناصبهم، وسيطرة التجار اليهود على التجارة الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة التي تمتعت بها المنطقة، حالت العوامل السياسية والإدارية دون تحقيق نهضة اقتصادية شاملة، مما أسهم في إضعاف اقتصاداتها وجعلها عرضة للهيمنة الاستعمارية الأوروبية لاحقاً.
- تميزت المنطقة المغاربية بتركيبية سكانية متنوعة ومميزة، إذ شكل الأمازيغ سكانها الأصليين منذ العصور القديمة، وقد تأثروا بمختلف الحضارات التي مرت بالمنطقة، مثل الإغريق والرومان.
- أحدث الفتح الإسلامي تحولاً جذرياً في المنطقة، فاعتنق سكانها الإسلام وشاركوا في نشره، مما أدى إلى امتزاج ثقافي وحضاري بين العرب والأمازيغ، وظهور جماعات بربرية مستعربة.
- وشهدت المنطقة خلال الفترة العثمانية ظهور طبقات اجتماعية جديدة، مثل العثمانيين الذين احتكروا المناصب العليا، والكراغلة الذين نشأوا من زواج العثمانيين بنساء محليات، والأعلاج من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام.

- وأضاف الأندلسيون، بعد هجرتهم من إسبانيا، بعداً ثقافياً وحضارياً مهماً للمنطقة، إذ أسسوا مدناً جديدة وأحياء خاصة بهم، وأسهموا في تطور الحرف والصناعات.
- أدت الجماعات اليهودية دوراً اقتصادياً مهماً في المنطقة على الرغم من التضييقات الاجتماعية التي واجهتها، إذ سيطرت على النشاط التجاري والوساطة في المعاملات التجارية.
- تميز المجتمع المغربي بوجود تقسيم قبلي واضح، فكانت هناك قبائل الرعية الخاضعة للسلطة المركزية، والقبائل الممتنعة التي حافظت على استقلالها، وقبائل المخزن التي تولت مهام حفظ الأمن وجباية الضرائب.
- شكلت هذه التركيبة السكانية المتنوعة نسيجاً اجتماعياً مميزاً في المنطقة المغربية، إذ تمازجت فيه مختلف الثقافات والأعراق، مما أثرى الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فيها.
- وتجلت وحدة هذا المجتمع، رغم امتداده الجغرافي من المغرب إلى ليبيا، في مناسباتي الزواج وشهر رمضان. فشكلت مراسم الزواج نموذجاً فريداً للتماسك الاجتماعي، إذ تميزت بطقوس متنوعة ومتشابهة في معظم الأحيان بين مختلف مناطق المغرب العربي، من حيث مراحل الخطبة، وتقديم المهر، والاحتفالات المصاحبة للزفاف.
- وقد برز اهتمام الرحالة الإنجليز بتوثيق تفاصيل مراسم الزواج، ولا سيما الملابس التقليدية والحلي والمجوهرات التي ترتديها العروس، والموسيقى والرقصات الشعبية المصاحبة للاحتفالات، مما يعكس الثراء الثقافي والمادي للمجتمع المغربي آنذاك.
- كما حظي شهر رمضان باهتمام خاص من الرحالة الإنجليز، فسجلوا بدقة عادات الصيام والإفطار والسحور، وأشادوا بمدى التزام المسلمين بفريضة الصيام على الرغم من صعوبتها، ووثقوا مظاهر الاحتفال والعبادة المصاحبة للشهر الكريم.

- قدمت شهادة إيميلي كين صورة موضوعية ومنصفة عن مدى التزام المسلمين بفريضة الصيام، فندت فيها شكوك بعض الرحالة الأوروبيين حول مصداقية هذا الالتزام، وأوضحت أن المسلمين من مختلف الطبقات الاجتماعية كانوا حريصين على أداء هذه الفريضة بكل دقة وإخلاص.

- تميزت المجتمعات المغاربية بثراء مظاهر احتفالاتها الدينية، ولا سيما في عيدي الفطر والأضحى، إذ شملت هذه الاحتفالات مختلف مناحي الحياة الاجتماعية من مبارزات ترفيهية، وتبادل للهدايا، وإقامة الولائم، مما يعكس عمق الترابط الاجتماعي في هذه المجتمعات.

- واتسمت مراسم المآتم والجناز في المجتمع المغربي بطقوس وتقاليد خاصة، بدءاً من تغسيل الميت وتكفينه، مروراً بمراسم التشييع والدفن، وانتهاءً بفترة الحداد وما يصاحبها من عادات وتقاليد، مما يعكس احترام المجتمع لموتاه وتقديره لمشاعر ذويهم.

- وشكلت هذه المناسبات الاجتماعية والدينية محط اهتمام الرحالة والكتاب الأوروبيين، ولا سيما الإنجليز منهم، الذين حرصوا على توثيق تفاصيلها بدقة في كتاباتهم ومذكراتهم، مما يؤكد تميز هذه الطقوس والممارسات وخصوصيتها في المجتمع المغربي.

- عكست هذه المناسبات والاحتفالات قوة الروابط الاجتماعية في المجتمع المغربي، وحرصه على الحفاظ على تقاليده وموروثه الثقافي، كما أظهرت التكافل الاجتماعي بين مختلف طبقات المجتمع من خلال تبادل الهدايا وتوزيع الصدقات على المحتاجين.

- يتميز المطبخ المغربي بتنوعه الثري وأطباقه الأصيلة، إذ يُعدّ الكسكس أشهر أطباقه وأكثرها انتشاراً، إضافةً إلى أطباقٍ أخرى مميزة كالشكشوكة والكفتة والدولمة، مما يعكس عمق التراث الثقافي المغربي وأصالته.

- تقوم العادات الغذائية المغربية على أساس المكونات المحلية مثل الحبوب والخضراوات والفواكه، متأثرةً بالبيئة الجغرافية والمناخية للمنطقة. وتتميز موائدهم بآداب خاصة في تناول الطعام، مثل الجلوس حول موائد منخفضة، والبدء بالبسملة، والأكل باليد اليمنى.
- يولي المجتمع المغربي اهتماماً كبيراً بتقاليد الضيافة وإكرام الضيوف، حيث يحرص أفراده على تقديم أفضل الأطباق واتباع آداب محددة في تقديم الطعام والشراب، مما يعكس كرم الضيافة المتأصل في ثقافتهم.
- تحتل الصلاة مكانةً مهمة في حياة المجتمع المغربي، إذ يحرص أفراده على أدائها في أوقاتها المحددة، مع الالتزام بالطهارة والوضوء قبلها. وقد لفت هذا الالتزام الديني انتباه الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة.
- يتجلى التأثير الديني الإسلامي بوضوح في العادات الغذائية والاجتماعية للمغاربة من خلال امتناعهم عن المشروبات الكحولية وحرصهم على النظافة والطهارة، مما يؤكد الترابط الوثيق بين الممارسات اليومية والمعتقدات الدينية في المجتمع المغربي.
- يتضح من خلال الوصف الذي قدمه الرحالة الإنجليز أن المجتمع المغربي في تلك الفترة كان يتسم بتناقضات عديدة، فعلى الرغم من انتشار التعليم الأساسي المتمثل في القراءة والكتابة وحفظ القرآن، إلا أن العلوم العقلية والتجريبية شهدت تراجعاً كبيراً مقارنةً بالعصور الذهبية السابقة.
- عكست الممارسات الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي تمسكه القوي بالتقاليد والعادات، سواءً في طريقة التحية أو في الاحتفال بإنجازات الأبناء التعليمية. كما برز دور المساجد بوصفها مراكز دينية وتعليمية واجتماعية محورية في حياتهم اليومية.

- على الرغم من تدين المجتمع وتمسكه بالعقيدة الإسلامية، كانت المعتقدات الشعبية والخرافات متجذرة في الثقافة المحلية، خاصةً فيما يتعلق بالحسد والعين والتنجيم، مما يعكس التداخل بين الدين والموروث الشعبي.
- تميز المجتمع المغربي بسمات شخصية إيجابية مثل الكرم وحسن الضيافة وروح الدعابة والمرح، على الرغم من الظروف الصعبة التي كان يعيشها. كما حافظ على تراثه الموسيقي من خلال تنوع آلاته الموسيقية، وإن لم يتطور كعلم قائم بذاته.
- يمكن القول إن الوصف الذي قدمه الرحالة الإنجليز، على الرغم مما شابهه من بعض الأخطاء وسوء الفهم أحياناً، يقدم صورة واقعية عن مجتمع كان يعيش مرحلة من الركود الحضاري، مع احتفاظه بهويته الثقافية والدينية المميزة.
- شكلت العادات اليومية للسكان المغربية نمطاً حياتياً منظماً يرتبط بأوقات الصلاة، حيث كان الاستيقاظ المبكر والعمل والراحة مرتبطة بالفرائض الدينية، مما يعكس عمق تأثير الدين الإسلامي في حياتهم اليومية.
- تميزت المنطقة المغربية بتنوع لغوي ثري، إذ كانت العربية هي اللغة الرسمية، إلى جانب وجود لهجات محلية والفرنكا التي سهّلت التواصل التجاري بين مختلف الشعوب في حوض المتوسط.
- عكست الأزياء التقليدية في المغرب العربي تراتبيةً اجتماعية واضحة، حيث اختلفت الملابس بين سكان الحضر والريف، وبين الأغنياء والفقراء، كما كان للباس دورٌ في تمييز المكانة الاجتماعية والعسكرية للأفراد.
- عانت المنطقة المغربية من أوضاع صحية متردية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكان الطاعون من أخطر الأوبئة التي واجهتها المنطقة، مما أدى إلى خسائر بشرية فادحة.

- تباينت استجابة الحكام للأوبئة بين من اتخذ إجراءات صارمة للحد من انتشارها، مثل حمودة باشا في تونس، ومن استهتر بخطورتها وعدّها قضاءً وقدرًا، مما أدى إلى تفاقم الأزمات الصحية وزيادة الخسائر البشرية.
- يكشف النصوص الإنجليزية عن الفجوة الكبيرة في فهم الإجراءات الصحية الوقائية وتطبيقها بين دول المغاربة والدول الأوروبية في تلك الفترة، حيث كان الحجر الصحي يُطبّق بشكل غير فعال وغير منتظم.
- عانت الدول المغاربة من أوضاع صحية متردية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث انتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة مثل الطاعون والجذري والتيفوئيد والمalaria. ويعود سبب ذلك إلى نقص الكوادر الطبية المؤهلة وقلة الأدوية والمستلزمات الطبية، إضافةً إلى غياب اهتمام السلطات بالمرافق الصحية.
- تباينت مواقف الحكام في التعامل مع الأوبئة والأمراض، فبينما اتخذ بعضهم إجراءات صارمة للحد من انتشارها مثل الحجر الصحي وحرق ملابس المصابين وتطهير المنازل، أهمل آخرون هذه التدابير الوقائية معتبرين الأمراض قضاءً وقدرًا، مما أدى إلى تفاقم الأزمات الصحية وارتفاع عدد الوفيات.
- اعتمد السكان بشكل رئيس على الطب الشعبي والممارسات التقليدية في العلاج، حيث برعوا في استخدام النباتات الطبية المحلية وابتكروا طرقاً متنوعة للتداوي مثل الكي بالنار والحمامات العلاجية. وقد أشاد بعض الرحالة الأوروبيين بمعرفة العرب المتميزة بالخصائص العلاجية للنباتات.
- أثرت المعتقدات الدينية والثقافية في تعامل بعض السكان مع الأمراض، حيث كان بعضهم يرفض العلاج الطبي معتقداً أن المرض قضاءً وقدر. لكن بعض الأطباء الإنجليز نجحوا في إقناع بعض المرضى بتلقي العلاج وإنقاذ حياتهم.

- شكلت هذه الحقبة التاريخية مرحلة صعبة في تاريخ الصحة العامة في المنطقة المغاربية، لكنها في الوقت نفسه أظهرت قدرة السكان على التكيف مع الظروف القاسية من خلال تطوير معارفهم الطبية التقليدية والاستفادة من الموارد المتاحة في بيئتهم المحلية.
- اعتمد سكان الدول المغاربية تاريخياً على الطب التقليدي والتعاويذ والأعشاب، متأثرين بالمعتقدات الشعبية ولا سيما فكرة أن الأمراض سببها الجن. وقد أدى هذا في كثير من الأحيان إلى نتائج سلبية في صحة المرضى بسبب تأخر العلاج الطبي المناسب.
- على الرغم من الانتقادات الإنجليزية للأوضاع الصحية في المنطقة، أظهر بعض الحكام المحليين اهتماماً بتطوير القطاع الصحي من خلال استقدام أطباء أوروبيين وإنشاء مستشفيات. وقد برز هذا خاصة في تونس مع حمودة باشا، وفي طرابلس وبنغازي مع تعيين أطباء للإشراف على الصحة العامة.
- أدى إهمال المؤسسات التعليمية تدريس العلوم العقلية، ولا سيما الطب، إلى تراجع كبير في عدد الأطباء المحليين وجودة التعليم الطبي. ومع ذلك، ظهرت بعض الاستثناءات مثل ابن حمادوش الجزائري الذي برز بوصفه أحد آخر ممثلي الطب العربي التقليدي.
- كان للأطباء الأوروبيين دورٌ مزدوج في المنطقة، فبينما قدموا خدمات طبية للسكان المحليين، كان بعضهم يعمل أيضاً لخدمة أهداف استعمارية. وعلى الرغم من ذلك، حظي هؤلاء الأطباء باحترامٍ وتقديرٍ كبيرين من السكان المحليين الذين أدركوا التفوق الطبي الأوروبي.
- شهدت المنطقة محاولاتٍ لتحسين الوضع الصحي من خلال إنشاء مستشفيات في مختلف المدن، بدعمٍ محلي وأوروبي، مما يشير إلى وجود وعيٍ متزايد بأهمية تطوير القطاع الصحي على الرغم من التحديات والصعوبات التي واجهتها المنطقة في تلك الفترة.

-شهدت الكتابات الإنجليزية عن منطقة المغربية تحولاً جوهرياً في أساليبها ومناهجها،

عاكسةً التغيرات العميقة في المشهد المعرفي والسياسي الأوروبي خلال عصر الاستكشاف والتوسع الاستعماري.

-تميزت هذه الكتابات بتنوع أساليبها، إذ تراوحت بين الأسلوب الخيالي والغرائبي من جهة،

والسردي والوصفي من جهة أخرى، مع وجود عناصر بارزة للدقة والواقعية متداخلة مع نبرات السخرية والمقارنة.

-يتضح من خلال تحليل الأسلوب الغرائبي في الكتابات الإنجليزية عن الدول المغربية أنه

كان يخدم أغراضاً متعددة، من بينها تلبية رغبة القراء الإنجليز في التعرف على عوالم "غريبة" و"مثيرة"، وتعزيز الصورة النمطية عن "الشرق" بوصفه مكاناً غامضاً ومختلفاً جذرياً عن أوروبا. كما عكس هذا الأسلوب تحولاً في الاهتمام بالخصوصية التاريخية والثقافية، متحدياً النظرة العالمية لعصر التنوير.

-في القرن التاسع عشر، شهد هذا الأسلوب تحولاً، حيث اتجهت بعض الرحلات في

تصويرها الغرائبي للمدن المغربية إلى إلغاء مادية المدن وتحويلها من واقع ملموس إلى كيان لا مادي تؤثته شخوص من عالم الخرافة والأحلام. وقد عكس هذا التحول مقاربة

استعمارية في خطاب القرن التاسع عشر، حيث أصبح الأدب الغرائبي أداة لتبرير التدخل الاستعماري في المنطقة.

-توضح كتابات كيفية تطور الأسلوب الخيالي في كتابات الرحالة والمؤلفين الأوروبيين،

وبخاصة الإنجليز، عن الدول المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بدأ هذا

التطور بظهور روايات الأسر والمغامرات التي مزجت بين الواقعية والعناصر الخيالية لخلق

سرد مثير للاهتمام، كما في رواية "رحلات ومغامرات الكابتن روبرت بويل". ثم تطور هذا

النهج ليشمل تصوير المدن المغربية، حيث امتزج الواقع التاريخي بالأساطير والقصص الشعبية لإضفاء بعد غرائبي وجذاب على صورة الآخر المغربي.

- عكس هذا التطور في الأسلوب الخيالي التغيرات الاجتماعية والأدبية التي شهدتها كتابات الرحالة والمؤلفين الأوروبيين، وخاصة الإنجليز، خلال هذه الفترة. فقد انتقل الأسلوب من الاعتماد على الخبرات الشخصية والواقع الممزوج بالخيال إلى الاعتماد الكامل على المصادر الثانوية والخيال الإبداعي، كما في عمل كاثرين هوتون "جولة في إفريقيا". وقد عكس هذا التطور التحولات في الأدوار الاجتماعية والفرص المتاحة للكتاب والكاتبات على مدار القرنين.

- إن استمرار تطور الأسلوب الخيالي في كتابات الرحالة والمؤلفين الأوروبيين، وخاصة الإنجليز، عن الدول المغربية يوضح مدى براعتهم في المزج بين الحقائق التاريخية والعناصر الخيالية لخلق سرد جذاب ومثير للاهتمام. فسواء تعلق الأمر بروايات الأسر والمغامرات أو بتصوير المدن والحياة اليومية في هذه المناطق، فقد نجح هؤلاء الكتاب في استخدام الأساطير والقصص الشعبية المحلية لإضفاء بعد غرائبي وإثارة على أعمالهم. وقد عكس هذا الأسلوب التحولات الاجتماعية والأدبية التي شهدتها كتابات الرحالة والمؤلفين الإنجليز خلال هذه الفترة.

- تحولت كتابات الإنجليزية من مجرد سجلات للمشاهدات إلى أعمال أدبية متكاملة، تقدم للقارئ الإنجليزي صورة مركبة عن "الآخر" المغربي، تمزج بين الحقائق التاريخية والجغرافية والتخيلات والتفسيرات الذاتية. وقد جعل هذا النهج الأدبي هذه الكتابات أكثر جاذبية وإثارة للاهتمام، مما أسهم في انتشارها على نطاق واسع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

- إن دراسة استخدام السخرية في الكتابات الاستعمارية المتعلقة بالدول المغربية تكشف عن الآليات المعقدة التي اعتمد عليها الخطاب الاستعماري لتشكيل الصور النمطية والتصورات

المشوهة عن هذه المجتمعات وترسيخها. فقد امتزجت السخرية بالعناصر الغرائبية في أعمال كتاب مثل آرثر ليدر وجيمس ريتشاردسون، مما خلق توتراً وتناقضاً في النصوص وأضفى عليها عمقاً ودفع القراء إلى التفكير النقدي في تصوراتهم عن الثقافات المغاربية. وفي بعض الحالات، تحولت السخرية إلى أداة للنقد الذاتي في الأدب الاستعماري، مما أضاف طبقة إضافية من التعقيد.

-تدعونا دراسة العلاقة بين السخرية والغربة في الخطاب الاستعماري اليوم إلى إعادة النظر في هذه النصوص بعين نقدية وواعية، مما يساعدنا على فهم أعمق لتأثير الخطاب الاستعماري في تصوراتنا عن الثقافات الأخرى وكيفية تشكيل هذه التصورات عبر الزمن. فهذا التحليل يُظهر بوضوح كيف استُخدمت السخرية أداةً في الخطاب الاستعماري لتعزيز الصور النمطية والتحيزات السائدة آنذاك، وهو أمر يجب أن نكون على دراية به عند قراءة هذه الأعمال وتفسيرها.

-تميزت الكتابات الإنجليزية حول الدول المغاربية بتشابك الوصف والسرد، مما خلق نسيجاً أدبياً متماسكاً ومعقداً، وبرزت عين الرحالة أداةً محورية في التقاط المشاهد المختلفة وتقديمها للقارئ. وقد تعددت وجهات النظر في هذه الكتابات، حيث جمعت بين رؤية الرحالة ورؤى السكان المحليين، مما وفر للقارئ صورة أكثر شمولية وتعقيداً للمشهد المغاربي.

-تنوعت الأساليب الوصفية في هذه الكتابات، إذ تراوحت بين "الاستغراب الرومانسي" والنظرة الموضوعية، مع وجود أبعاد فلسفية وتاريخية في بعض الأحيان. وقد عكست هذه الكتابات الطبيعة الاستعمارية للمنطقة المغاربية، مقدّمةً صورة مركبة تجمع بين نظرة المستكشف الغربي ووجهات نظر متنوعة أخرى. وعلى الرغم من بعض الأحكام المسبقة، فإنها قدمت رؤى قيمة للحياة والطبيعة في المنطقة.

- تميزت نظرة الكتاب البريطانيين للمناطق المغاربة بتصوير هذه المناطق بشكل غامض وغريب، وكموضوع للسيطرة أو التجارة أو القمع، مما أسهم في خلق صورة نمطية عن المنطقة. وقد جمع كتاب الرحلات الإنجليز بين السرد الأدبي والتجربة العملية المباشرة، مما أضفى عمقاً وواقعية أكبر على كتاباتهم وجعلها أكثر تأثيراً في القراء وصناع القرار.
- برز التركيز على الدقة والتفصيل في الوصف، خاصة في العصر الفيكتوري، حيث كان إثبات الاستكشاف يتم عبر النص المكتوب، مما أضفى طابعاً توثيقياً على هذه الكتابات.
- تميزت الكتابات الإنجليزية عن المنطقة المغربية باستخدام تقنيات سردية متنوعة، أبرزها الاسترجاع والتأمل، مما أضفى بعداً تحليلياً على النصوص. وقد ظهر نموذج فريد للسرد يجمع بين الوصف الجغرافي المنظم والسرد القصصي الإنساني. كما تأثرت هذه الكتابات بظاهرة الهجانة (Hybridity)، حيث تضمنت مشاركة السكان الأصليين في السرد، رغم أن الراوي الرئيس هو الكاتب البريطاني. وقد دعا بعض الرحالة إلى التكيف الثقافي الشامل، مؤكداً أهمية إتقان اللغة العربية أداة للتواصل والفهم المتبادل.
- برزت أساليب المقارنة في الأدب الإنجليزي الرومانسي أداة قوية في تشكيل التصورات الغربية عن المجتمعات المغربية وتبرير السياسات الاستعمارية. فمن خلال استخدام التقنيات اللغوية المتطرفة والأحكام المسبقة، عمل الكتاب على إبراز التباين الحاد بين "الغرب المتحضر" و"الشرق البربري"، مما مهد الطريق للتدخل الاستعماري. غير أن العصر الكلاسيكي وعصر التنوير شهدا نزعة واضحة نحو الدقة والموضوعية في وصف المجتمعات المغربية، إذ سعى الكتاب إلى تقديم صورة متوازنة وإنسانية للثقافة المغربية، مسلطين الضوء على مظاهر التسامح الديني والقيم الأصيلة.
- تميزت الكتابات الإنجليزية عن الدول المغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعناوين طويلة ووصفية، تضمنت المصطلحات الجغرافية وأسماء المدن والمناطق. وتتنوعت

- مناهج التدوين بين الأساليب الزمنية والمكانية والموضوعية والانتقائية والاستدعائية، حيث مزج كثير من المؤلفين بين منهجين أو أكثر وفقاً لطبيعة المادة المدونة.
- شهدت هذه الفترة ازدهاراً في أشكال المؤلفات الإنجليزية عن المجتمع المغربي، حيث برزت السير الذاتية والمذكرات وأدب الرسائل كأشكال أدبية مهمة. وتُعد هذه الكتابات الشخصية مصادر قيمة للباحثين في التاريخ، رغم ضرورة إخضاعها لقراءة نقدية تراعي سياقها الذاتي والزمني.
- تطورت الكتابات الجغرافية والتاريخية الإنجليزية حول الدول المغربية تطوراً ملحوظاً، خاصة في أواخر القرن السابع عشر وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد برزت أعمال متميزة لمؤلفين مثل جيمس جراي جاكسون وتوماس شو وجون فرانسيس ليون، أثرت المعرفة الغربية عن الدول المغربية.
- تكتسب الكتابات البريطانية أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين المغاربة لعدة أسباب: حرية الكتاب البريطانيين في التأليف، وتسجيلهم للجوانب اليومية المهمة التي قد يهملها المؤرخون المحليون، إضافة إلى اعتمادها مصدراً للمعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. ومع ذلك، من المهم قراءة هذه الكتابات بعين ناقدة، مراعاة لتأثرها بالتحيزات الأوروبية والأجندات الاستعمارية.
- تتميز هذه الكتابات بتناولها فترة مهمة وخطيرة من تاريخ المنطقة، منذ ارتباطها بالدولة العثمانية حتى تحولها إلى موضوع للمشروع الاستعماري. كما تقدم معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية في الدول المغربية.
- تشكل هذه الكتابات مصدراً ثرياً للمعلومات التاريخية خلال العهد العثماني، مما يجعلها ضرورة لكتابة التاريخ العام للمنطقة. كما تُبرز الاهتمام الأوروبي بالآثار الرومانية في شمال أفريقيا.

- على الرغم من بعض النقاط السلبية، مثل التركيز على الجوانب السياسية والعسكرية على حساب الجوانب الثقافية والاجتماعية، إلا أن هذه الكتابات تُعد مصادر تاريخية ذات قيمة معرفية عالية عند تحليلها بمنهجية نقدية، مع مراعاة سياق إنتاجها وخلفيات كُتّابها.
- في مجمل الأمر، تمثل الكتابات التاريخية الإنجليزية عن المجتمع المغربي مصدراً مهماً للمعرفة التاريخية، يتطلب من الباحثين المعاصرين مهارةً في التحليل والنقد لاستخراج ما فيها من معلومات قيمة.
- شكلت الكتابات الإنجليزية حول المنطقة المغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مصدراً ثرياً للمعرفة التاريخية والثقافية، حيث تميزت بتنوع مصادرها وعمق تحليلاتها. فقد جمعت هذه الكتابات بين المشاهدات الشخصية المباشرة للرحالة والدبلوماسيين، والروايات الشفوية من السكان المحليين والشخصيات البارزة، والمصادر القديمة من الكتابات الكلاسيكية والجغرافية العربية.
- وقد أثبتت هذه الكتابات أهميتها بوصفها وثائق تاريخية قيمة، حيث قدمت صورة شاملة ومتعددة الأبعاد عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الدول المغربية. فمن خلال الجمع بين الدقة العلمية والحس الأدبي، والمزج بين المعلومات التاريخية والمشاهدات المعاصرة، استطاع الكُتّاب الإنجليز تقديم رؤية متكاملة أسهمت بشكل كبير في تشكيل الفهم الغربي للعالم المغربي، وما زالت تشكل مصدراً مهماً للباحثين والمؤرخين المعاصرين.
- يتضح من خلال دراسة دوافع الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أنها كانت متعددة ومتشابكة. فقد تراوحت بين الدوافع السياسية والعسكرية التي هدفت إلى جمع المعلومات الاستخباراتية لخدمة المشروع الاستعماري، والدوافع السياحية والطبية التي ركزت على استكشاف المنطقة بوصفها وجهة علاجية واستجمامية، خاصة مع تزايد الاهتمام بالعلاج المناخي في الحقبة الفيكتورية.

- كما برزت الدوافع العلمية من خلال الرحلات الاستكشافية المدعومة مؤسسياً، والتي سعت إلى توثيق الواقع الطبيعي والبشري للمنطقة بمنهجية علمية دقيقة. وأخيراً، أدت الدوافع الدينية دوراً محورياً في تشكيل هذه الكتابات، حيث عكست التوتر العقائدي بين المسيحية البروتستانتية والإسلام، وتجلت بشكل خاص في كتابات الأسرى العائدين الذين حولوا تجاربهم إلى شهادات على الصمود الديني في مواجهة "الآخر" المسلم.

- تكشف هذه الدراسة عن الدور المحوري الذي أدته الكتابات الإنجليزية في دعم وتوجيه الحركة الاستعمارية البريطانية تجاه الدول المغاربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد استخدمت هذه الكتابات المعرفة والمعلومات أدوات للسلطة، مما أسهم في تعزيز الهياكل الاستعمارية وتبرير التدخل العسكري والسياسي. ومن خلال تحليل مختلف الوثائق والكتابات الإنجليزية، أصبح واضحاً كيف تم توظيف هذه المعرفة في رسم خريطة شاملة للمنطقة المغاربية، تشمل جوانبها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، مما مهد الطريق للتوسع الاستعماري الإنجليزي في المنطقة.

- إن هذه الدراسة تؤكد أهمية إعادة النظر في العلاقة بين المعرفة والسلطة، وفي الدور الحاسم الذي يؤديه الأدب واللغة في تشكيل العلاقات بين الثقافات. فالكتابات الإنجليزية تُظهر كيف يمكن للمعرفة أن تكون أداةً للهيمنة والسيطرة، وكيف أن البناء النصي للإمبراطورية كان له أهمية لا تقل عن القوة العسكرية.

الملاحق

الملحق رقم 1: معاهدة بين تونس و بريطانيا سنة 1751م¹.

*Treaty of Peace and Commerce
between the most Serene and Mighty
Prince George the second by the Grace
of God of Great Brittain France and Ireland
King, Defender of the Christian Faith, Duke
of Brunswick and Lunenburgh, Arch Treasurer
and Elector of the Holy Roman Empire &c &c &c
and the most Excellent and Illustrious Lord
Ali Pasha, Begler Bey and Supreme
Commander of the State of Tunis, Renewed
Agreed on, and Confirmed, by the Honourable
Augustus Keppel Commander in Chief of
His Britannick Majesty's Ships and Vessels
in and about the Mediterranean Seas, and
Charles Gordon Esq. His said Serene Majesty's
Agent and Consul General to the State of
Tunis, furnished with His Majesty's full
Powers for that purpose. —*

¹ A.N.T, S.H, Carton 224, Dossier 405

معاهدة السلام والتجارة بين الأمير الأكثر صفاءً وقوةً جورج الثاني، بنعمة الله، ملك بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندا، حامي الإيمان المسيحي، دوق برونزويك ولونينبورغ، أمين خزانة وناخب الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلخ. إلخ. إلخ. والسيد الأكثر امتيازًا وشهرةً علي باشا، بكربك والقائد الأعلى لولايات تونس، تم تجديدها والاتفاق عليها وتأكيدها من قبل المبجلين أوغسطس كيبل، القائد العام لسفن وبوارج جلالته البريطانية في البحر الأبيض المتوسط وحوله، وتشارلز غوردون إسكواير؛ وكيل جلالته المذكور وقنصله العام لدى ولاية تونس، المزود بتفويض كامل من جلالته لهذا الغرض.

Article 1

That all former Grievances and
Losses, and other Pretences between both Partys
shall be Void and of no Effect, and from
henceforward there shall be a Firm Peace
for ever and Free Trade and Commerce
between His Britannick Majestys Subjects
and the People of the Kingdom of Tunis
and Dominions thereunto belonging, but
this Article shall not Cancell or make Void
any just Debt, either in Commerce or
otherwise between the Subjects on both sides,
but the same may be demanded and recovered
as before. —

البند 1:

أن جميع المظالم والخسائر السابقة، وغيرها من الادعاءات بين الطرفين، ستكون باطلة وعديمة الأثر، ومن الآن فصاعدًا سيكون هناك سلام راسخ إلى الأبد وتجارة حرة بين رعايا جلالته البريطانية وشعب مملكة تونس، والأراضي التابعة لها: لكن هذه المادة لن تلغي أو تبطل أي دين مشروع، سواء في التجارة أو غير ذلك بين رعايا الطرفين، بل يمكن المطالبة به واسترداده كما كان من قبل.

Article. 26.

That all Packets bearing His Britannick Majesty's Commission, which shall be met by any of the Cruizers of Tunis shall be treated with the same respect as His Majesty's Ships of War, and all Due respect shall be paid to His Majesty's Commissions, and both at meeting and parting they shall be treated as Friends and if any of the Cruizers of Tunis commit the least Fault or Violence against them, the Captains or Raizes so offending, shall, on their Arrival at Tunis, and proper Complaint being made of them, be most severely punished without admitting of their excuses.

All the preceding Articles of this Treaty, having been approved of and agreed to, are hereby ratified renewed and Confirmed, between His most Sacred Majesty the King of Great Britain &c. and

البند 26:

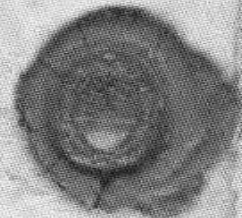
أن جميع السفن الحاملة لتفويض جلالته البريطانية، والتي تصادفها أي من السفن الحربية التونسية، ستعامل بنفس الاحترام الذي تعامل به سفن جلالته الحربية، وسيتم إبداء كل الاحترام الواجب لتفويض جلالته، وسواء عند اللقاء أو الافتراق ستتم معاملتهم كأصدقاء، وإذا ارتكبت أي من السفن الحربية التونسية أقل خطأ أو عنف ضدهم، فإن القباطنة أو الرياس المخالفين، عند وصولهم إلى تونس وتقديم شكوى مناسبة ضدهم، سيعاقبون بأشد العقوبات، دون قبول أعذارهم.

جميع المواد السابقة من هذه المعاهدة، بعد الموافقة عليها والاتفاق عليها، يتم بموجب هذا التصديق عليها وتجديدها وتأكيدا بين صاحب الجلالة المقدس ملك بريطانيا العظمى، إلخ.

The most Illustrious Lord Ali Pasha,
 Begler Bey and Supreme Commander
 of the State of Tunis, which let no one
 presume to Infringe or Violate. Dated in
 the presence of Almighty God at the Palace
 of Bardo near Tunis this Nineteenth day
 of October One thousand seven hundred one
 Fifty One, according to the Christian
 computation, and of the Turkish Hageira
 One thousand One hundred and Sixty four,
 the Tenth day of the Moon Zil Hadj
 Sheriffay.

A. Kappul,

Chas Gordon



والسيد الأكثر شهرة علي باشا، بكربك والقائد الأعلى لولاية تونس، والتي لا يجوز لأحد أن يفترض انتهاكها أو خرقها. مؤرخة في حضرة الله القدير، في قصر باردو، بالقرب من تونس، في هذا اليوم التاسع عشر من أكتوبر، سنة ألف وسبعمائة وواحد وخمسين، وفقًا للتقويم المسيحي، ومن الهجرة التركية، سنة ألف ومائة وأربع وستين، اليوم العاشر من شهر ذي الحجة الشريف.

ا. كيبيل

ش. غوردون

الملحق رقم 02 : خريطة تفصيلية لمملاكي المغرب وفاس رسمها جون براثوايت سنة

1727م²



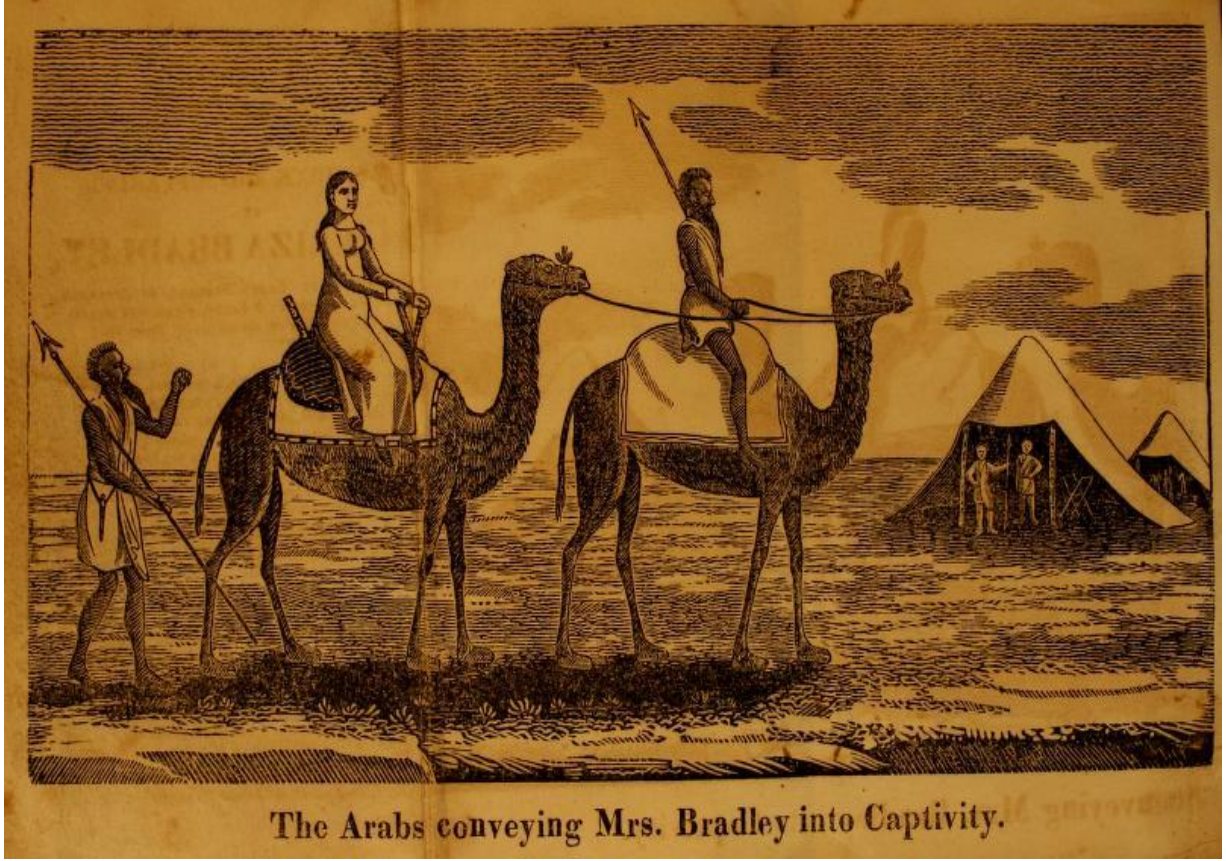
² John Braithwaite, op.cit, p 1 .

الملحق رقم 03 : خريطة المغرب، رسمها غراي جيمس جاكسون سنة 1809م³



³ James Grey Jackson, op.cit, p 1.

الملحق رقم 04 : صورة برادلي على ظهر جمل أثناء رحلتها عبر الصحراء⁴



The Arabs conveying Mrs. Bradley into Captivity.

⁴ Eliza Bradley, op.cit, p 1.

الملحق رقم 05 : خريطة توضح الحدود الجغرافية للأقاليم المغاربية⁵



⁵ Mathew Carey, op.cit, p 1.

الملحق رقم 07 : جدول يمثل نماذج من القناصل وبلدان التي زروها و مدة مكوثهم بها⁷

البلد	مدة المكوث	
المغرب	5 أشهر (1720 - (1721	جون براثويت
الجزائر، تونس ، المغرب ، طرابلس	20 سنة (1700 - (1720	جوزيف مورغان
طرابلس الغرب	10 سنوات (1783 - (1793	ميس توللي
الجزائر	6 سنوات 1806-1812	ابنة القنصل بلانكي اليزابيث بروتون
المغرب	16 سنة (1793 - (1809	جيمس غراي جاكسون
المغرب	54 سنة (1832 - (1886	جون دارموند هاي

⁷ من انجاز الباحثة

الملحق رقم 08 : جدول يمثل نماذج من الأسرى و مدة مكوثهم⁸

البلد	مدة	
المغرب	كل ما نعلم ان كتاب تم تأليفه سنة 1714 فقط اما مدة التي مكث فيها في المغرب فهي غير معروفة و لا يذكرها لنا في كتابه	سيمون أوكلي
المغرب	22 سنة (1716-1738)	توماس بيلو
المغرب	14 شهرا	إليزابيث مارش
الجزائر - تنس -	6 سنوات (1800 - 1806)	ماريا مرتن
طرابلس الغرب	19 شهر	جوناثان كوردي
المغرب	1818-1819	اليز بردلي

⁸ من انجاز الباحثة

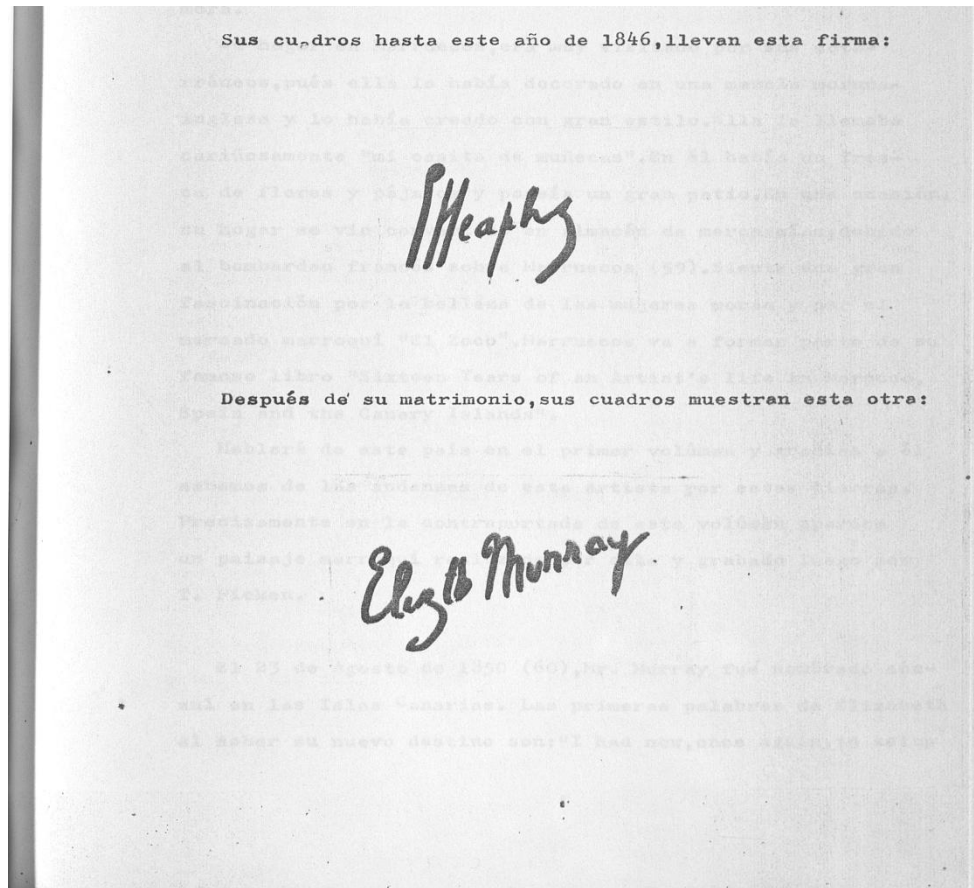
الملحق رقم 09 : جدول يمثل الرحالة الذين زاروا الدول المغربية و مدة مكوثهم بها⁹

البلد	مدة المكوث	
الدكتور توماس شو	الجزائر تونس و طرابلس	12 سنة (1720-1732)
جون وندوس	المغرب	5 اشهر (1720-1721)
جيمس بروس	الجزائر، تونس ، طرابلس	سنتين (1765-1766)
ادوارد ستانلي	تونس	سنتين (1784-1786)
وليام لومبير	المغرب	سنتين تقريبا 1789- 1791
مارثيو كيري	الجزائر	لانعلم مدة كل ما نعرفه هو انه زارها سنة 1798 و في نفس عام نشر كتابه
جون بوبا	المغرب	6 اشهر 1801
توماس ماكجيل	تونس	لا نعلم بتحديد زارها سنة 1811 وعاد في نفس السنة
جون فرانسيس ليون	طرابلس الغرب	سنتين (1818-1820)
الأخوين بيتيشي	طرابلس الغرب	سنتين تقريبا (1821- 1822)
جريفيل تمبيل	تونس	عام (1832-1833)
إليزابيث موراي	المغرب	تسع سنوات

⁹ من انجاز الباحثة

1850-1842		
جيمس ريتشاردسون	تونس، المغرب ، طرابلس	سنتين (1844-1846)
جون كيندي كلارك	تونس	1845
جيمس هاملتون	طرابلس	عامين تقريبا 1852- 1853
لويس وينجفليد	تونس	عام تقريبا 1866
أميليا بيريه	المغرب	عام تقريبا 1872
أثر ليريد	المغرب	عام 1872- عام 1877
ايميلي كين	المغرب	40 سنة من 1872 الى غاية وفاتها بطنجة

الملحق رقم 10 : توقيع اليزابيث موراي¹⁰



¹⁰ José Luis García Pérez, op.cit, p 45 .

قائمة البيبليوغرافيا

ببليوغرافية البحث

القرآن الكريم :

سورة القدر، الآية 5.

سورة هود، الآية 118.

سورة البقرة، الآية 256.

القسم الأول : المصادر

أولا : الوثائق الارشيفية:

أرشيف الوطني التونسي :

1- Archives Nationales de Tunisie, Série Historique, Carton 224, Dossier 405.

ثانيا : الكتب المصدرية

باللغة العربية :

- 1 بن حمادوش الجزائري عبد الرزاق ، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال ، تق و تح وتع: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.
- 2 تولي الأنسة، عشرة أعوام في طرابلس ، تر: عبد الجليل الطاهر، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي- ليبيا، 1967.

- 3 خالد الناصري أبو العباس بن أحمد، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، ج9، تح و تع: جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، دار البيضاء، 1997.
- 4 الزهار أحمد شريف، مذكرات الحاج أحمد شريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974.
- 5 الضياف بن أبي أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج4، دار العربية للكتاب، تونس، 1999 .
- 6 الضياف بن أبي أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج3، دار العربية للكتاب، تونس، 1999.
- 7 الثعنتري ابن صالح ، تاريخ قسنطينة ، تح: يحي بوعزيز، عالم المعرفة لنشر والتوزيع، 2009.
- 8 غراي جاكسون جيمس، من فاس إلى تمبكتو رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهوسة (القرن الثامن عشر) ، ترجمة محمد عبد الغني، إرث للنشر والترجمة، مصر، 2020.
- 9 كودري جوناثان، يوميات الطبيب جوناثان كودري في قلعة طرابلس الغرب 1803-1805، ترجمة وتعليق عبد الكريم أبو شويرب، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، طرابلس، 1982.
- 10 مسلم عبد القادر، أنيس الغريب و المسافرين ، تح و تق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974.

11 وندوس جون ، رحلة إلى مكناس ، ترو تع: زهراء إخوان و عبد اللطيف الشاذلي، منشورات عمادة جامعة المولي اسماعيل، مكناس، 1993.

الكتب الأجنبية :

- 1- Annette Edla Drummond Hay Mr Louisa, **A Memoir of Sir John Drummond Hay**, John Murry Albemarle Street, London, 1896.
- 2- Arthur Leared, **A visit Court of Morocco**, Sampson Low, Marston Searle & Rivington, London, 1876.
- 3- Arthur Leared, **Morocco and The Moors, Being in Account of Travels with a General description of the country and its people**, sampson Low, London, 1876.
- 4- Arthur Leared, **Morocco and The Moors, Being in Account of Travels with a General description of the country and its people**, second Edition, Revised and edited by Sir Richard Burton, Sampson Low, London, 1891.
- 5- Bradley Eliza, **An Authentic Narrative of The ship Wreck and Sufferings of Mrs. Eliza Bradley, The Wife of Capt. James Bradley of liverpool Commander of The ship Sally, Which was Wrecked on The Coast of Barbary in June 1818**, Printed by James Walden, Boston, 1820.
- 6- Braithwaite John, **The History of The Revolution in The Emprire OF Morocco up on The Death of The late Empiror Muley Ismael**, Printed for James and John Knapton, London, 1729.
- 7- Broughton Elizabeth, **Six ans de Résidence à Alger 1806-1812**, traduit de l'anglais, présenté et annoté par Alain Blondy, Éditions Bouchène, 2011.
- 8- Broughton Elizabeth, **Six Years Residence in Algiers**, Saunders and Otley, ConsduitStreet ,London, 1839.

- 9- Cowdery Jonthan, **American Captives in Tripoli Or, Dr Cowdery's Journal**, Printed and sold by Bzl chez Armstrong, Boston, 1806.
- 10- Elizabeth Murray, **Sixten years of an artist's Life in Morocco, Spain and Canary Island**, Vol1, Hurst and Blackett Publishers, London, 1859.
- 11- Emily keene , **My Life Story**, Edward Arnold, London, 1912.
- 12- Frank Louis, **Histoire et Description de la Régence de Tunis**, Firmin didot frères, Paris, 1851.
- 13- Fray Diego de Haedo, **Topographie et Histoire générale d'Alger**, trad Monnereau et Berbrugger, Valladolid, 1870.
- 14- Frederick and Henry Beechey, **Proceeding of The Expedition to Explore the Northern Coast of Africa from Tripoly East Ward**, John Murray, Albemarle-Street, London, 1828.
- 15- Gentelman Who Resided There Many years, **A Compleat History of The Piratical States of Barbary, Viz, Algeriers, Tunis, Tripoli and Morocco**, Printed For R.Griffiths at the Dumciad in St, Paul, London, 1750.
- 16- Grenville Temple, **Excursions in The Mediterranean Algeiers and Tunis**, Vol 2, Saunders and Otley Conduit Street, London, 1835.
- 17- Grenville Temple, **Excursions in The Mediterranean Algiers and Tunis**, Vol1, Saunders and Otley, Conduit street, London, 1835.
- 18- Grey Jackson James, **An Account of The Empire of Morocco and The District of Suse**, Printed for The Author by W.Bulmer and Co, London, 1809.
- 19- Hamdan Ben Othman Khoja, **Apercu Historique et Statistique sur la Régence d'Alger**, imprimerie de goetschy Fils et Compagnie, Paris, 1833.
- 20- James hamilton, **Winding in North Africa**, John Murry Albemarle Street, London, 1856.

- 21- James Richardson, **Travels in Morocco**, Vol 2, Edited by his Widow, J.Skeet, Publisher, London, 1860
- 22- John Buffa, **Travels Through The Empire of Morocco**, Printed for J.J.Stockdale, 41, Pall-Ma, London,1810.
- 23- John Clark Kennedy, **Algeria and Tunis in 1845**, Vol 1, Henry Colburn Publisher, London, 1846.
- 24- John Clark Kennedy, **Algeria and Tunis in 1846**, Vol 2, Henry Colburn Publisher, London, 1846.
- 25- John Drummond Hay, **Morocco and The Moors Western Barbary ; Its Wild Tribes and savage animals**, John Murray Albemarle street , London, 1861.
- 26- Joseph pitts, **A True and FaithfulAccount of The Religion &Manners of The Mohametans**, Second Edition ,Printed by George Bishop, Exon , 1717.
- 27- Leared Arthur, **Morocco and The Moors ; being an account of Travels, with a General Description of the Country and its People**, sampson Low, London, 1876.
- 28- Lewis Wingfield, **Under The palms in Algeria and Tunis**, Vol 1, Great Marlborough Street, London, 1868.
- 29- Lyon Francis George, **A Narrative of Travels in Northern Africa, in The Years 1818, 1819, 1820**, John Murray, Albemarle Street, London, 1821.
- 30- M.Rozet, **Voyage dans la Régence d'Alger on Description du Pays Occupé par l'Armée Française en Afrique**, T2, Arthus Bertrand , Libraire éditeur, Paris, 1833.
- 31- MacGill Thomas, **In Account of Tunis of Its Government, Manners, Customs, and Antiquities ; especially of its Productions Manufactures and Commerce**, Printed by J.Heddervick & Co, London, 1811.

- 32- Martin Maria , **History of The Captivity and Sufferings of Maria, Who was Six Years a Slave in Algiers**, Printed for W.crary , Boston, 1807.
- 33- Mathew Carey, **A Short account of Algiers, Containing a Description of the Climate of that Country, of the Manners and Customs of the Inhabitants, and of Their Several wars Against Spain, France, England, Holland, Venice, and Other Powers of Europe, from the usurpation of Barbarossa and the Invasion of the Emperor Charles V. to the present time; With a Concise view of the Origin of the Rupture Between Algiers and the United States ..**, Market street, Philidelphia, 1794.
- 34- Mjordenham, clapperton, oudney , **Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa**, vol1, john Murray albemarle- street, London, 1826.
- 35- Pananti, **Relation d'un Séjour à Alger**, traduit de l'anglais, imprimeur-libraire Rue de seine, Paris, 1820.
- 36- Pellow Thomas, **The History of the Long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in south Barbary**, the second Edition, Printed for R.Goadby, London,1740.
- 37- Picquet Ch, **Aperçu Historique , Statistique et Topographique sur l'état d'Alger** , Quai Conti , N° 17 , Paris , 1830.
- 38- Playfair R.Lambert, **Travels in the Footsteps of Bruce in Algeria and Tunis** ; illustrated by facsimiles of his original draiving, Paternoster square, London, 1877.
- 39- Poiret Jean, **Voyage en Barbarie, ou Lettre écrites de L'ancienne Numidie Pendant Les Années 1785&1786**, Née de la Rochelle, Paris , 1789.
- 40- Richard Tully, **Letters Written During A Ten Years' Residence at the Court of Tripoli**, Vol 1, Third edition, Printed for Henry Colbum Conduit Street, London, 1819.

- 41- Richard Tully, **Narrative of a Ten Years' Residence at Tripoli in Africa**, Printed for Henry Colburn, London, 1816.
- 42- Richardson James, **Travels in The Great Desert of Sahara in The Years of 1845 and 1846**, Vol 1 , Richard Bentley , New Burlington Street, London, 1848.
- 43- Salame Abraham, **Narrative of the Expedition in The year 1816 , under the Command of The Right box Admiral Lord Viscount Exmouth** , Johan Murry Albemarle-Street , London, 1819.
- 44- Shaler William, **Sketches of Algiers Political Historical and Civil Containing and Account of The Geography Population Government Revenues Commerce Agriculture Arts Civil Institutions Tribes Manners Language and Recent Political History of that Country**, Boston, 1826.
- 45- Simon Okley, **An Account of South-West Barbary. Containing What is Most Remarkable in The Territories of King of Fez and Morocco**, Printed For J. Browyer, London, 1713.
- 46- Simon Pfeiffer, **The Voyage and Five years Captivity in Algiers**, translates in German by I. Daniel Rupp, Harrisburg pa John Winebrenner Printer, 1836.
- 47- Stanlay Edward, **Observations on The City of Tunis, and The Adjacent Country ; With A View of Cape Carthage, Tunis Bay, and The Goletta Taken on The Spot**, Printed for the Author, London, 1786.
- 48- Swift Jonathan, **Gulliver's Travels**, Penguin popular Classic Books, Godfrey cave edition A penguin, 1726.
- 49- Thomas Shaw, **Travels, Or, Observations, Relating to several parts of Barbary and Levant**, Printed at the Theatre, Oxford, 1738.

- 50- Trotter Philip Durham, **Our Mission to the court of Morocco 1880 Under Sir John Drummond**, Edinburgh David Douglas, 1881.
- 51- Vallière Cesaire Phillippe, **L'Algerie en 1781, Mémoire du Consul C.Ph.Vallière**, public par Lucien Chaillou, Valbertrand, Toulon, L'éditeur-Villa, « Beau Site », 1974.
- 52- William Lempiere, **Voyage dans L'empire de Maroc et le Royaume de Fez, fait Pendant Les Années 1790 et 1791**, Traduit de l'Anglais par M.De Sainte-Suzanne, Cordier et Legras Imprimeurs-Libraires, Paris, 1801 .
- 53- Windus John, **A Journey to Mequinez ; The Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco. On the Occasion of Commodore Stewart's Embassy Thither for the Redemption of the British Captives in The Year 1721**, Printed for George Ewing at The Angel and Bible in Dames-Streect, Dublin, 1725.

القسم الثاني : مراجع البحث

أولا : الكتب

باللغة العربية

- 1 أبو طالب محمد، مواقف بريطانية من مغرب القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب الرباط، 1983.
- 2 الأبيض رجب نصير، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلاد، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي ، 2009.

- 3 اسماعيل بن عمر علي، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1790-1835، مكتبة الفرجاني، طرابلس- ليبيا، 1977.
- 4 أكنوش عبد اللطيف، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987.
- 5 برادة ثريا، الجيش المغربي وتطوره في القرن 19م، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- 6 بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: أمين فارس ومنير البحللي، دار العلم للملايين، بيروت، 2001.
- 7 جوزيف كاكيا أنتوني، ليبيا في العهد العثماني الثاني (1835-1991)، تر: يوسف حسن العسلي، دار الحياء الكتب العربية، 1946.
- 8 حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994.
- 9 الخطاب عبد الله خليفة، العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1832-1795، ط1، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، طرابلس، 1985.
- 10 - الخريجي عبد الله، علم الاجتماع الديني، سلسلة دراسات المجتمع العربي السعودي، جدة، 1990.
- 11 - خلاصي علي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، الجزائر، 2007.
- 12 - رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، إفريقيا الشرق، الرباط، 1998.
- 13 - روجروب ج، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، تر و تح: يونان لبيب زرق، ط1، دار الثقافة مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1980.

- 14 - الزبيري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
- 15 - سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تق و تع عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
- 16 - سعد الله أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 1، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- 17 - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998.
- 18 - سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، البصائر الجديدة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012.
- 19 - سعيدوني ناصر الدين، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والحماية في الفترة الحديثة، ط1، بيروت، 2001.
- 20 - سليمان بن فاطمة، الأرض والهوية، جامعة تونس، تونس، 2009.
- 21 - السليمان أحمد، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، 1993.
- 22 - السمياني محجوب، الجيش التونسي (1831-1881) رافد النهضة وإصلاح، منشورات سوتيميديا، تونس، 2017.
- 23 - شويتام ارزقي ، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011.
- 24 - صبار خديجة، سفير فوق العادة: تجربة السير جون درامندهاي في المغرب 1845-1886، تأليف جماعي، تنسيق كريم بجيت، منشورات دار الأمان، الرباط، 2013.

- 25 - الصغير بن خالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886-1904، دار أيي رفاق للطباعة و النشر، 2011.
- 26 - عاطف سالم، البلاد التونسية في عيون الرحالة الألمان (1535-1881)، نقوش عربية، تونس، 2021.
- 27 - عبد القادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2006.
- 28 - عبد المعطى حسام محمد، العائلة والثروة البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008.
- 29 - عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد 9، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، المحمدية، 1988.
- 30 - عبد الوهاب حسن حسنى، خلاصة تاريخ تونس، ط 3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 1917.
- 31 - العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط 6، مكتبة الانجلو المصرية، 1993.
- 32 - عنان محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997.
- 33 - غلاب عبد الكريم ، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، 2005.
- 34 - لزغم فوزية ، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، الجزائر، 2011.

- 35 - قباني رنا، أساطير أوروبا في الشرق، تر: صباح قباني، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، 1994.
- 36 - قرباش بلقاسم، العلاقات الجزائرية الإنجليزية الأولى من منظور إنجليزي 1550-1620، ضمن بحوث ودراسات تاريخية، أعمال مهداة للأستاذ لعميد عبد العزيز، إعداد و تنسيق: قاصري محمد السعيد، ط1، مطبعة ناصري (المسيلة)، الجزائر، 2017.
- 37 - قنان جمال، العلاقات الفرنسية- الجزائرية 1790-1830، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1997.
- 38 - قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007.
- 39 - قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2002.
- 40 - الكوش محمد، الإيديولوجية الاستقرائية في رحلة إدموندو دي أميتيس حول المغرب، صورة الآخر قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب، كريم بجيت، دار الأمان، الرباط، 2013.
- 41 - لعميري محمد، صورة المدينة المغربية في نصوص الرحالة الإنجليز خلال القرن التاسع عشر، الرحالة وصورة الآخر قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب، بجيت كريم، دار الأمان، الرباط، 2013.
- 42 - محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2011.
- 43 - المريني عبد الحق، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، 1997.

- 44 - موري اثيلو، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا، تع: خليفة محمد التليسي، مكتبة
الفرجاني، طرابلس-ليبيا، 1971.
- 45 - نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830،
ج1، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2007.
- 46 - هلايلي حنيفي، العلاقات الجزائرية الأوروبية و نهاية الإيالة 1815-1830، ط1، دار
الهدى، الجزائر، 2007.
- 47 - هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، دار الهدى، عين
مليلة- الجزائر، 2008.
- 48 - وولف جون، الجزائر وأوربا 1500-1830، تر وتع أبو القاسم سعد الله، دار الرائد،
الجزائر، 2009.

باللغة الأجنبية :

- 1- Anomymous, Moorish Literature Translated into English With a
Special introduction by Rene Basset, The Colonial Press, London,
1901.
- 2- C.R.Pennell, The social history of British Diplomatis in North Africa
and How its Affected Diplomatic Policy, Oxford University Press,
Oxford, 2008.
- 3- Charles-Roux F, France et Afrique du Nord avant 1830 les
précurseurs de la conquête, libraire Félix Alcan, Paris, 1932.
- 4- Christiffin and Allan Lawson, de-scribing Empire, Routledge,
London, 1988.

- 5- Christine Woodhead, England, the Ottomans and the Barbary Coast in the Late Sixteenth Century, State Papers Online, 1509-1714, Cengage Learning, Reading, 2009.
- 6- Daniel Panzac, Barbary Corsairs The End of a Legend 1800-1820, Brill, Boston, 2005.
- 7- David Spurr, The Rhetoric of Empire Colonial Discourse in Journalism Travel Writing and Imperial Administration, Duke University Press Durham, London, 1993.
- 8- Demarsy, Essai Bibliographie Tunisienne ou indication des principaux ouvrages publiés en France sur la Régence de Tunis, Paris, 1869.
- 9- Edward Osler, Esq., The Life of Admiral Viscount Exmouth , London : Smith , Elder And Co, Cornhill, 1835.
- 10- Francis R Flournoy, British Policy Towards Morocco in the Age of Palmeston (1830-1865), P.S. King & Son London, 1935.
- 11- Gabor Agoston and Bruce Masters, Encyclopedia of The Ottoman Empire, Printed in the United States of America, 2009.
- 12- George Misch, A History of Autobiography in Antiquity, Part one , Routledge, London, 1950.
- 13- Head Francis Bond, The life of Bruce the African Traveller, the fourth edition , Albemarle Street, London, 1830.
- 14- Henri Delmas de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque, Ernest Leroux, Paris, 1887.
- 15- Jean Gay, Bibliographie de Ouvrages Relatifs A L'Afrique et l'Arabie, Chez Maisonneuve et Cie, Paris, 1875.
- 16- Jean Marie Antoine de Lanessan, La Tunisie, Félix Alcan Editeur, Paris, 1887.
- 17- Jennifer Yee, Exotism and colonialism, Collective book, The Cambridge Companion to Franche Literature, by John D.Lyons, Cambridge University Press, Cambridge, 2015.

- 18- John E. Flint, The Cambridge History of Africa 1790-1870, Cambridge University Press, vol5, 2008.
- 19- John Leyden et Hugh Murray, Histoire Complète des Voyages et découvertes en Afrique, Tome 1 , Chez Arthus Bertrand, Paris, 1821.
- 20- John R. Shook, The Dictionary of Early American philosophers , Volume 1, Printed and bound in the United states of America , 2012.
- 21- John Sutherland, The Longman Companion to Victorian Fiction, Second Edition, London , 2009.
- 22- Jonthan White, Recasting the World ; Writing After Colonialism, The Johns Hopkins University Press , London, 1993.
- 23- Keppel, Thomas –Robert, The Life of Augustus, Viscount Keppel, Admiral of the White, and First Lord of the Admiralty in 1782-1783. Vol. I. Henry Colburn, Publisher. London, 1842.
- 24- Khalid Bekkaoui, White Women Captives in North Africa Narratives of Enslavement 1735-1830 , First Publish, Palgrave Macmillan, The United kingdom, 2010.
- 25- Leslie Mary, Rhymes of the Kings and Queens of England, Toronto, 1896.
- 26- Lewis Hertslet, A Complete Collection of The Treaties and Conventions at Present Subsisting Between Great Britain & Foreign Powers, Vol 1, London, 1820.
- 27- Linda Colley, Captives Britain, Empire and the World 1600-1850, Pimlico, London, 2003.
- 28- Mario Klarer, Barbarary Captive , An Anthology of Early Modern Slave Memiors by Europeans in North Africa, Columbia University Press, New York, 2022.
- 29- Mary Louise Pratt, Imperial Eyes ; Travel Writing and transculturation, Second Edition, Routledge, London, 2008.
- 30- Moulay Belhamissi, Marine et Marins D' Alger (1518-1830) , T2 , Biblitheque National d'Algérie, Alger, 1996.

- 31- Nabil Matar, Turks, Moors & Englishmen in the Age discovery, Columbia University Press, New York, 1999.
- 32- Playfair E. L, The Scourge of Christendom, Annales of British Relations With Algiers Prior to French Conquest, London ; Smith, Elder , And Co, 1884.
- 33- R.J.White, A Short History of England, At The University Press, Cambridge, 1967.
- 34- Richard J.Reid, A History of Modern Africa 1880 to the Present, Wiley-Blackwell, Oxford, 2012.
- 35- Roland Lebel, Le Maroc Chez Les Auteur Anglais du XVIe Au XIXe Siécle, Larose-Paris, 1939.
- 36- Ronald Carter and John Mc Rae, The Routledge History Literature in English, Second edition, Routledge , 2001.
- 37- Said Edward, culture and Imperialism, A Division of Random House, New York, 1994.
- 38- Saidouni Nacereddine ,L'Algerois Rural a La Fin de L'époque Ottomane de (1791-1830), El Bassair el Djadida, Alger, 2012.
- 39- Seton Dearden, A Nest of Corsairs : The Fighting Karamanlis of Tripoli, John Murray, London, 1976.
- 40- Sir R.Lambert Playfair and Dr Robert Brown, A Bibliography of Morocco from The Earliest Time to the End of 1891 in Bibliography of Barbary state, vol3, Part IV, John Murray For the Royal Geographical Society, London, 1892.
- 41- Tal Shuval , la ville d'Alger vers la fin du 18 siècle, éd CNRS , Paris, 1998.
- 42- Wayne C.Booth, A Rhetoric of Irony, The University of Chicago Press, London, 1974.
- 43- William (A.H), Magasiun encyclopédique arts, T1, Imprimerie de Delance, Paris, 1805.

- 44- William Henry Watson, The First Fifty Years of Sunday School, Old Bailey, London, 1862.
- 45- William J.Long, English Literature, Gunn and Company, Boston, USA , 1909.

ثالثا : المقالات

باللغة العربية:

- 1 أبوا دريس إدريس ، " وصف بعثة سلطانية إلى الصحراء المغربية في القرن الثامن عشر للانجليزي توماس بيلو T.Pellow " ، مكناسة، العدد 13، المغرب، 1999، ص ص 93-101.
- 2 أحميدة سالم حماد ، " إيالة طرابلس أثناء حكم علي باشا القرماني 1832-1835، إنهيـار العهد القرماني وعودة السلطة العثمانية"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، عدد 46، موريتانيا، 2020، ص ص 191-206.
- 3 آيت حبوش حميد ، " الواقع الصحي للجزائر العثمانية من خلال المصادر الأوروبية"، مجلة آفاق فكرية، المجلد 9، العدد 2، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2021، ص ص 149-163.
- 4 آيت حبوش حميد، " أهمية المصادر الأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر العهد العثماني نموذجا"، الحوار المتوسطي، المجلد 2، العدد 1، جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس-، 2010، ص ص 72-80.
- 5 بجيت كريم، " الرحلة بين النص و الوثيقة: صورة الطاعون 1798-1800 ومخلفاته في رحلة جيمس غراي جاكسون" ، مجلة كنائش الديمغرافيا التاريخية ، العدد 3، وجدة، 2001، ص ص 63-74.

- 6 بطعمري فاتح، " حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر 1816 في عيون رحالة محلي و قنصل أجنبي " ، مجلة معارف، العدد 17، جامعة البويرة ، 2014، ص ص 19-42.
- 7 بن قومار جلول، " جوانب من مظاهر العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في عهد المولي إسماعيل العلوي (1672-1727)"، مجلة الباحث في العلوم الانسانية و الاجتماعية، مجلد 8، العدد 27، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2016، ص ص-206 199.
- 8 بنت معجب الحامد نوره، " علاقات بريطانيا بولاية تونس في العهد العثماني 1779- 1830"، مجلة القراءة والمعرفة، العدد 62، جامعة عين شمس، 2005، ص ص -168 142.
- 9 بوشنافي محمد، " تجنيد المتطوعين للجيش الانكشاري الجزائري أثناء العهد العثماني من خلال الوثائق"، عصور الجديدة، جامعة وهران 1، 2014، ص ص 128-141.
- 10 - بوقرومة حكيمة، " تقنيات الكتابة في الرحلة المغربية- ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس لمحمد على برادة أنموذجا"، حوليات الجزائر 01، المجلد 35، العدد 01، الجزائر، 2021، ص ص 890-908.
- 11 - التازي عبد الهادي، " محمد بن حدو سفير السلطان مولاي إسماعيل"، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، عدد 2، المملكة المغربية، 1985، ص ص 55-80.
- 12 - ترکان إبراهيم اياد، " العلاقات الانجليزية مع ولاية تونس العثمانية آفاق الصراع و التحالف (1623-1762) "، مجلة كلية التربية الاساسية، المجلد 27، العدد 111، العراق ، 2021، ص ص 151-168.

- 13 - تركان إياد ابراهيم، طلل جاسم حنان، " السياسة البريطانية تجاه أطماع فرنسا في ولايتي تونس وطرابلس 1830-1882"، مجلة أداب المستنصرية، عدد 71، العراق، 2015، ص ص 1-28.
- 14 - جيلالي زورقي وردة، خالدي بلعربي، " جوانب من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر في كتابات القناصل الفرنسيين خلال القرن 18م " لوجي دي تاسي و سيزار فيليب فاليار " نموذجاً "، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 7، العدد 1، جامعة مسيلة، 2023، ص ص 365-380.
- 15 - جيلالي زورقي وردة، خالدي بلعربي، " مظاهر من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني في الكتابات الانجليزية " جوزيف بيتس " أنموذجاً"، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 8، العدد 1، جامعة مسيلة، 2024، ص ص 374-389.
- 16 - الرحمن العلام هدى عبد، " الأوضاع الصحية في فزان من خلال مشاهدات الرحالة في القرن التاسع عشر"، مجلة جامعة سيما للعلوم الانسانية، المجلد 20، العدد 3، ليبيا، 2021، ص ص 238-251.
- 17 - الزليتي ميلاد أحمد، " الصعوبات البشرية التي واجهت الرحالة العرب والأوروبيين عند عبورهم الأراضي الليبية في الفترة مابين 1798-1923م"، مجلة البحوث الأكاديمية، د.م، جامعة مصراته، 2017، ص ص 455-482.
- 18 - سعيدوني ناصر الدين، " الرحلات الاستكشافية مقارنة فكرية و حضارية " الرحلات الأوروبية في الجزائر أنموذجاً "، قضايا تاريخية، المجلد 1، العدد 03، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2016، ص ص 64-73.

- 19 - سعيدوني ناصر الدين، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية من القرن 16 إلى 19م"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 31، جامعة الكويت، 2010.
- 20 - سلوان رشيد رمضان، "إشكالية العلاقات البريطانية الجزائرية 1580-1816"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد 23، العدد 1، 2012، ص ص 114 - 159.
- 21 - العايبي محمد، المجموعات العسكرية غير النظامية الداعمة للجيش التونسي، مجلة الإحياء، المجلد 21، العدد 28، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2021، ص ص 960-949.
- 22 - عبد المجيد قدور، "النشاط الإقتصادي الفرنسي في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني"، مجلة العلوم الانسانية، العدد 28، قسنطينة، 2007، ص ص 269-279.
- 23 - العبيدي سمير عبد الرسول، "تأسيس الحكم القرمانلي"، مجلة آداب المستنصرية، العدد 86، العراق، 2019، ص ص 440-462.
- 24 - عقيب محمد السعيد، لمقدم عمر، "قبائل المخزن ودورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان (إيالة الجزائر)"، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد 9، عدد 2، جامعة الوادي، 2018، ص ص 105-118.
- 25 - علامة صليحة، "تاريخ الأوبئة في الجزائر"، مجلة قرطاس، العدد 2، جامعة أبو بكر، تلمسان، 2015، ص ص 209-220.
- 26 - قرباش بلقاسم، "اعتناق الاسلام في الادبيات الانجليزية الحديثة 1595-1750"، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد 5، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، 2016، ص ص 13-30.

- 27 - قرباش بلقاسم، "مسألة الإسلام في إنجلترا 1571-1700"، مجلة المواقف للبحوث و الدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 10، جامعة معسكر، 2015، ص ص 199-208.
- 28 - كشرود حسان، "بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتتين والدكتور توماس شو"، قضايا تاريخية، العدد 06، الجزائر، 2017، ص ص 65-45.
- 29 - لحرش رضوان، "العلاقات المغربية الإنجليزية خلال الفترة الإسماعلية 1672-1727"، مجلة ليكسوس، عدد 11، المغرب، 2017، ص ص 108-116.
- 30 - لزغم فوزية، "الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني"، عصور، المجلد 12، العدد 2، جامعة أحمد بن بلة - وهران، 2013، ص ص 233-254.
- 31 - لكحل الشيخ، "المصادر الغربية لتاريخ المغرب في العصر الحديث"، مجلة علوم الإنسان و المجتمع، العدد 3، جامعة محمد خيضر - بسكرة - 2014، ص ص 235-257.
- 32 - ماضي الكندي وفاء كاظم، "قراءة في الأحوال الصحية والعادات الغذائية لمجتمع ولاية طرابلس الغرب (1835-1911)"، مجلة التربية الأساسية، العدد 13، العراق، 2013، ص ص 660-698.
- 33 - محمي رزيقة، "الإصلاحات الاقتصادية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا (1782-1814)"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربية والإنسانية، العدد 30، العراق، 2016، ص ص 87-100.
- 34 - مفتاح الشويرف إبراهيم على، "مصادر تاريخ ليبيا في العهد القرمانلي كتاب ريتشارد توللي أنموذج : دراسة وصفية تحليلية"، مجلة علوم التربية الرياضية والعلوم الأخرى، العدد 1، 2016، ص ص 212-232.

- 35 - مناصرية يوسف، " آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان " ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 5، جامعة الجزائر، 1988، ص ص 191-201.
- 36 - موميد نبيل، " مدخل إلى الأدب القوطي "، فكر، العدد 26، المغرب، 2019، ص ص 116-119.
- 37 - ناجي أبيدة أحمد، " زيارات الرحالة الأجانب الى طرابلس الغرب في القرن التاسع عشر "، مجلة العلوم الانسانية، المجلد 27، العدد 1، جامعة بابل، العراق، 2020، ص ص 1-19.
- 38 - الهدار خالد محمد، " حول ترجمة كتاب رحلة الأخوان بيتشي "، الثقافة العربية، العدد 3، بنغازي، 1998، ص ص 51-62.
- 39 - يوسف ساحي فرحات حسين الدليمي، " أثر حرب السنوات السبع في منطقة الخليج العربي 1756-1763 "، مجلة الأدب، العدد 139، 2021، ص ص 151-182.

باللغة الأجنبية :

- 1- A amhari Lahoucine, " Rhetorical Strategies of Alterity in Arthur Leared's Morocco and the Moors (1876) and Budgett Mearkin's Life in Morocco (1905) ", P.J.E.S , Vol 7, N°1, 2018, pp 45-64.
- 2- Aammari Lahoucine, "A Woman Traveller in the Moorish sanctum : A Look at Emily keene , Shareefa of Wazzan 's My life Story " , P.J.E.S, Volume6, N°1, 2017, pp 9-26.
- 3- Anna Secor, " Orientalism, Gender and Class in Lady Mary Wortley Montagu's Turkish Embassy Letters : To Person's of

- Distinction, men of letters", **Cultural Geographic**, Vol 6, N°4, T aylor and Francis, 1999, pp 375-398.
- 4- Archibald Constable John Murry, "Skocyali Tuccar Thomas Macgill in 1804 yilindaki Kusadasi izlenimleri ",**Sedat onar Kuyetayerel Tarih dergisi**, Subat ayi, 2012, pp 1-4.
- 5- Astrid Winkler, " Sheffield City Report ", **Centrfor Analysis Social Exclusion**, London, 2015, pp 1-56.
- 6- Ben Rejeb, Lotifi, " Barbary's "Character" in European Letters, 1514–1830: An Ideological Prelude to Colonization",**Dialect Anthropol**, vol6, 1982, pp 345-355.
- 7- ben shir Khalid, "Le Traite de Moulay Yazid avec L'Angleterre 1791", **in Hespéris Tamuda**, Fascicule 1, Rabat, 1991, pp 127-149.
- 8- Ben Srrhir Khalid and Aammari Lahoucine," James Richardson's " Abolitionist and civilizing " Tour in The Sharifian Empire ", **Hespéris Tamuda**, Rebat, 2021, pp 327-349.
- 9- Chaouch Khalid, " British Travellers to Morocco and their Accounts, from mid 16th to mid- 20 th Centuries ; A bibliography, Representing Morocco", Vol7 , 2004, pp 1-35.
- 10- Chaouch Khalid, " English Travel Accounts as a source of Moroccan History ", **Journal of literary and cultural Encounters**, Issue N°2,Moroc, 2008, pp 8-31.
- 11- Chouche Amina Marzouk, "British women Travellers in Algeria , Tunisia and Morocco 1850-1930", **Athens Journal of Mediterranean Studies**, Volume 6, Issue4, 2020, pp 279-292.
- 12- Chtatou Mohamed, "Morocco in English Travel Literature : A Look at J.G.Jackson's account ", **J.N.A.S**, Vol1, Issue1, London, 1996, pp 59-72.

- 13- Cumming Duncan, "James Bruce in Libya 1766", **Libyan Studies**, N°1, Cambridge, 1970, pp 12-18.
- 14- Cutter Nat, "Peace with Pirates ? Maghrebi Maritime Combat, Diplomacy, and Trade in English Periodical News, 1622-1714", Vol 179, N°8, **Humanities**, Australlia, 2019, pp 1-24.
- 15- Federman H.Aucapitaine, "Notices sur l'histoire de l'administration du beylik de Titteri ", in **R.A**, N°9,Alger, 1865, pp 280-302.
- 16- G.R.H.Wright, "James Hamilton in Tripoli, 1855-1856, The Strang Sequel to Wandings in North Africa", **Libyan Studies**, N° 37, Cambrige University Press, 2006, pp 57-69.
- 17- Graig James," Un Apercu du Moroc", **Bulletin de la société de géographie**, Tome Dix Neuve, Cinq éme série, Chez M.Arthus Bertrand, libraire de La Société Rue Hautefruille ,Paris, 1870, pp 177-202.
- 18- Graves Margaret, "Visual Culture as Historical Document : Sir John Drummond Hay and the Nineteenth-Century Moroccan Pottery in the National Museum of Scotland ", **British Journal of Middele Easten Studies**, Vol36,N°1, Routledge, 2009, pp 93-124.
- 19- Jean Martin, " Six ans de résidences à Alger, 1806-1812 ", **académie de science d'outre-mer**, éd, Bouchene, 2010,pp 1-3.
- 20- Lawrence Flick," Selections from The Correspondence of the deceased Mathew Carey Records of the American Catholic", **Historical society of philadelphic**, Vol 9 ; N° 3, September, 1898, pp 351-384.
- 21- Magali Morsy, " Moulay Isma'il et l'armée de métier ", **in Revue d'histoire moderne et contemporaine**, Tome14, N°2 , 1967, pp 97-122.
- 22- Mamaoui Mnulay Lmustapha, "Inhabiting the liminal : Encounter with Otherness in the history of the long captivity and

- adventures of Thomas Pellow", **The Journy and history**, N°1, Akadir,2020, pp 359-376.
- 23- Manai Adel, "Anglo-Tunisian Commercial Relation in The Nineteenth Century, a Travel Note", **J.N.A.S**, N°4, vol 11 , London, 2006, pp 365-372.
- 24- Monika Rekowska, " Ptolemais in ealy European research and Topography of the City in Travellers' accounts", **Northeast African Studies**, N°7,Warsaw, 2000, pp 1-34.
- 25- Moukranta Bakhta, "La Docteur Thomas Shaw et les antiquités de l'ouest Algérien ", **Revue de connaissance pour la Recherche et les études historiques** , N° 19, Alwadi, 2018, pp 519-563.
- 26- Nabil Matar, " Islam in British 1689-1750" ,**J.B.S**, vol 47, N°2, Cambidge University Press, 2008, pp 284-300.
- 27- Nedjma Benachour, " Constantine de la Période Ottomane dans la Récits de Voyage de Léon l'Africain et Thomas Shaw", **in Revue de Sciences Humaines**, N° 29, Université Mantouri Constantine Algérie, 2008, pp 23-32 .
- 28- Nordman Daniel, " La mémoire d'un Captif " , **in Annales Economies Sociétés Civilisations**,41 Année, N°6, 1986, pp 1397-1418.
- 29- Oscar Mac Carthy," Voyage dans le Grand Désert de Sahara en 1845-1846 par James Richardson", **Revue de l'orient de l'Algerie et Colonies**, Tome III , Paris, 1848, pp 127-136.
- 30- Pierre Boyer, "Le Problème kouloughli dans la regence d'Alger " , **in Revue des Mondes Muslmans et de La Méditerranée** , N°8 , 1970, pp 79-94.
- 31- Playfair Lambert, "épisodes de l'histoire des Relations de la Grande-Bretagne avec les états barbaresques avant la conquête française", **R.A**, N° 22, Alger, 1878, pp 409-433.

- 32- Rddad Sadik, "Agency Relocated, Hybridity and Resistance in some British Travel Accounts on Morocco", **S.T.W**, Vol3, Issue 1, London, 2010, pp 113-130.
- 33- Saâd Zemmouri Mohammed," Regard d'une Anglaise sur la société marocaine à la fin du XIX éme à travers son , récit de vie " , **Anaquel de estudios Arabes**, Vol 17, Tetuan, 2006, pp 237-258.
- 34- Saunders Boroombe, "Women's Travel Writings in North Africa and The Middle East Part III Catherine Hutton, The Tour of Africa", **Women's Writing** , Vol3, 2015, pp 271-273.
- 35- Simour Lhoussain," Gendered Eyewitness in Narration ; Imaging Morocco in British Women Travel Inspired Narratives in late Nineteenth ", **Anglo Saxonica**, Issue 1, No17, Casablanca, 2020, pp 1-11.
- 36- Taylor,"British Policy in Morocco, 1886-1902 ", **English Historical Review**, Vol 66,N° 260, Oxford, 1951, pp 342-374.
- 37- Thomson Ann, "Joseph Morgan et le monde islamique", **Dix-huitième Siècle**, N°27, L'Antiquité, 1995, pp 349-363 .
- 38- Vayssettes(E)," Histoire des beys de constantine ", in **R.A**, N°3 , Alger, 1858, pp107-128 .
- 39- Watbled Ernest, " Pachas ; pachas dey", **R.A** , N°17, Alger, 1873, pp 438-443.
- 40- Zizi Zehor, " Thomas Shaw au Proche-Orient, 1721-1722 ; élucidation et défense des Textes Sacrés, in XVIIe et XVIIIe ", **Revue de la société d'études anglo-américaines de XVIIe et XVIIIe siècle**, N° 67, 2010, pp 21-43.

رابعاً : الدراسات الأكاديمية الجامعية

باللغة العربية :

- 1 إبراهيم منصور على مفتاح، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلا القرنين الثامن عشر و التاسع عشر 1700-1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ، جامعة الجزائر 02 ، 2006-2007.
- 2 بطعمري فاتح، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال المصادر الرحالة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2016-2017.
- 3 بن تيشة أحمد ، الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في تونس خلال العهد العثماني - الأسرة الحسينية- ، رسالة تخرج لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس، 2020-2021.
- 4 بوحلوفة محمد أمين ، إيالة الجزائر العثمانية ومملكة إنجلترا دراسة العلاقات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من 1620-1827، مذكرة لنيل درجة دكتوراه علوم في التاريخ الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2018-2019.
- 5 حالة خديجة، الجاليات الأوروبية في الجزائر إبان العهد العثماني 1700-1830، مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي و الثقافي عبر العصور تخصص التاريخ الحديث، الجامعة الافريقية العقيد أحمد دراية- أدرار-، 2012-2013.
- 6 حفيظة بوتوقوماس، المجتمع التونسي خلال العهد الحسيني -1882/ 1229-1250 أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله، 2017-2018.

- 7 حفيظة خمشون، المهمة السياسية و العلمية الفرنسية بالجزائر في القرن 18م من خلال نماذج: لوجي دي تاسي، فونتير دو باردي، بايصونال وديفونتين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، جامعة عبد الحميدي مهري- قسنطينة 2، 2020-2021.
- 8 رجائي سالمي عبد الهادي، العلاقات الجزائرية الاسكندنافية في الفترة العثمانية 1729-1792، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله، 2014-2015.
- 9 رشاد الإمام ، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814، أطروحة دكتوراه في درجة الفلسفة، تخصص تاريخ أمريكا، جامعة بيروت، 1971 .
- 10 - سعيداني محفوظ ، الواقع الاقتصادي للمجتمعات المغاربية في العهد العثماني (مقارنة تحليلية) من مطلع القرن 18م الى 1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2011-2012.
- 11 - شكري معمر رشيدة ، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث، جامعة الجزائر 02، 2005-2006.
- 12 - شويتام أرزقي ، المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، الجامعة الجزائر 02، 2005-2006.

- 13 - صغير عبلة، السلطة والمجتمع الجزائري نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 من خلال المصادر الأوروبية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في التاريخ الحديث، جامعة أحمد بن بلة، 2020-2021.
- 14 - العايب محمد، تطور الجيش التونسي خلال الحكم العثماني وتأثيره على الوضع العام للأقاليم (1574-1881)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ بلاد المغرب الحديث، 2021-2022.
- 15 - العبيدي نبيهة السلطاني، القوى العسكرية القارة بتونس وتكاليفها المالية من 1756م إلى 1814م، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تونس، 2000.
- 16 - قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1617-1830، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة معسكر، 2015-2016.
- 17 - كلة نصيرة، المغرب الأقصى في عهد الدولة العلوية في كتاب " الاستقصا " للناصري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د، في تاريخ المغرب العربي الحديث و المعاصر، جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان، 2017-2018.
- 18 - معاشي جميلة، الانكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008.
- 19 - نايت قاسي الياس، المغرب الأقصى في اهتمامات السياسة الخارجية البريطانية 1792-1859، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم التاريخ، الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2013-2014.

باللغة الأجنبية :

- 1- Andre Raymond, British policy Towards Tunis (1830-1881), A Thesis of Doctor of Philosphy, Oxford, 1953.
- 2- James A.O.C. Brown, Anglo –Moroccan Relation in the late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries withe Particular Reference to the Role of Gibratar, This dissertation is submitted for the degree of doctor of philosophy at the faculty of Asia & Middle Eastern studies , University Cambridge, 2009.
- 3- Jean Marchika, La Peste en Afrique septentrionale, Thèse pour le doctorat en Médecine, Université d Alger, 1927.
- 4- José Luis García Pérez, Elizabeth Murray: Un Nombre en el Siglo XIX, Memoria de Licenciatura dirigida por La Doctora, Universidad de La Laguna, 1979-1980.
- 5- Katie Sue Sisneros, The Abhorred Name of Turk : Muslims and the Politics of Identity in Seventeenth century English Broadside Ballads, in partial fulfillment of the requirements for the degree of doctor of philosophy, 2016.
- 6- Mohamed El Mansour, Political and Social Developments in Morocco during The Reign of Mawlay Sulayman, Thesis Submitted for the degree of doctor of philosophy in the school of oriental and african studies university of London, 1981.
- 7- Nahoum Weissman, Les Janissaire études de l'organisation Militaire des ottomas, thèse pour le doctorant, d'université présentée a la faculté des lettres, Paris, 1938.
- 8- Sara M.ElGaddari, British Diplomatic Engagement with North Africa : Consular Activity in Tripoli 1795-1832, being a Thesis submitted for the Degree of PhD History, in the University of Hull, 2015.

خامسا : القواميس

- 1- Sidney Lee, Dictionary of National Biography, vol 32, Macmillian, New York, 1892.
- 2- Sidney lee, Dictionary of National Biography, vol 41 , Smith Elder and Co , London, 1895.
- 3- Sidney Lee, Dictionary of national Biography, vol48, Smith elder, London, 1896.
- 4- Stephen leslie, Dictionary of National Biography, vol 21, Smith Elder and Co, London, 1890.
- 5- Stephen Leslie, Dictionary of National Biography, Vol 39, MacMillan, London, 1894.
- 6- Stephen Leslie, Dictionary of National Biography, vol 6, Smith Elder and Co, London, 1886.
- 7- Stephen Leslie, The Dictionary of National Biography, Vol 10, London, 1887.

سادسا : المواقع الكترونية

- 1- **Khalid** Chaouch, « Meet a Lion in the Atlas Mountains: 19th century Moroccan Fauna in John Drummond Hay's *Western Barbary* (1844) », *Caliban*, 59 | 2018 Accessed August, 24,2024, 8: 00 PM from <https://journals.openedition.org/caliban/4114?lang=fr>

- 2- Celinscak Mark, Captivity and Encounter ; Thomas pellow, The Moroccan Renegade, Accessed 18/07/2023/ 13:25 PM, From <file:///C:/Users/USER/Downloads/titusland,+MarkCelinscak.pdf>
- 3-Kbenayed, Sir Grenville Temple Rend Visite a ben Ayed en 1834, Accessed October 10, 2023, 12:24 PM, from <http://palaisbenayed.com/sir-grenville-temple-rend-visite-a-ben-ayed-en-1834>
- 4 أجوبال إبراهيم، الموالى اسماعيل 1672-1727، مذكرات من التراث المغربى، ج 4، ص 50. تم الاطلاع على المقال يوم 10/03/2023 على الساعة 10:45 على الرابط التالى
: <https://archive.org/details/mly-ismail/page/n3/mode/2up>
- 5- Hélène Blais, Florence Deprest , Territoires Impériaux une Histoire spatiale du fait colonial, éditions de la Sorbonne, Paris, 2020, Consulté le 10/10/2024 à 10 h 10 sur le site web : <https://books.openedition.org/psorbonne/42311>
- 6- Ian Campbell Ross, 'Jonathan Swift'. Accessed December 30,2023, 10:00 PM, From : <http://www.tcd.ie/trinitywriters>.
- 7- Accessed, october, 12, 2024, 8 :00 PM. From : https://www.unige.ch/lettres/angle/en/collaborateurs/modern/s_purr
- 8- Samuel Fettah, florance et la Tascane, XIVE, XIXe Siécles, Press Universitaires de Rennes, 2015, Consulté le 10/08/2023 à 11 h 10 sur le site web : <https://books.openedition.org/pur/15764>

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات :

3	الشكر
4	الاهداء
5	قائمة المختصرات
6	المقدمة
23	الفصل الأول : العلاقات البريطانية مع الدول المغربية خلال القرنين 18م و 19م
25	أولا : علاقات بريطانيا مع الجزائر العثمانية
25	1 -العلاقات السياسية
52	2 العلاقات التجارية
59	ثانيا : علاقات بريطانيا مع تونس العثمانية
59	1 العلاقات السياسية
77	2 العلاقات التجارية
86	ثالثا : علاقات بريطانيا مع طرابلس العثمانية
86	1 العلاقات السياسية
109	2 العلاقات التجارية
112	رابعا : علاقات بريطانيا مع المغرب
112	1 العلاقات السياسية
140	2 العلاقات التجارية
143	خامسا : العلاقات الثقافية و الاجتماعية بين بريطانيا و الدول المغربية : مظاهرها و تأثيراتها المتبادلة
154	سادسا : تقييم الشخصية الإنجليزية و انعكاساته ا على السياسة البريطانية في الدول المغربية

166	الفصل الثاني : التركيبة الثقافية للكتابات الإنجليزية
167	أولا : القناصل
167	1 جون براثوايت John Braitwaite
171	2 جوزيف مورغان Joseph Morgan
177	3 ميس توللي Miss Tully
182	4 جيمس غراي جاكسون James Grey Jackson
185	5 إليزابيث بروتون Elizabeth Broughton
189	6 جون درموند هاي John Drummond Hay
195	ثانيا : رجال الدين و الأسرى
195	1 سيمون أوكلي Simon Ockley
198	2 توماس بيلو Thomas Pellow
202	3 إليزابيث مارش Elizabeth Marsh
205	4 ماريا مرتين Maria Martin
208	5 جوناثان كوردي Jonthan Cowdery
211	6 السيدة إليز بردلي Mr. Eliza Bradlay
213	ثالثا : الرحالة
213	1 توماس شو Thomas Shaw
218	2 جون وندوس John Windus
222	3 جيمس بروس James Bruce
228	4 إدوارد ستانلي Edward Stanley
232	5 وليام لومبرير William Lempiere
240	6 ماثيو كيري Mathew Carey
243	7 جون بؤفا John Buffa

247	8 توماس ماكجيل Thomas MacGill
251	9 جورج فرانسيس ليون George Francis Lyon
255	10 -الاخوين فردريك وهنري بيتشي Fredrick and Henry Pechy
258	11 -غرافيل تيمبل Grenville Temple
265	12 -إليزابيث موراي Elizabeth Murray
268	13 جيمس ريتشاردوسون James Richardson
273	14 جون كيندي كلارك John Kennedy Clark
276	15 جيمس هاملتون James Hamilton
279	16 -لويس وينجفيلد Lewis Wingfield
283	17 -آثر ليريد Arthur Leared
286	18 -أميليا بيريه Amelia Perrier
288	19 -إيميلي كين Emily Keene
294	الفصل الثالث : الواقع العام للمجتمع المغربي خلال القرنين 18م و19م
295	أولا : الجانب السياسي
295	1 -التنظيم الإداري و السياسي للإيالات
300	2 التنظيم الإداري و السياسي في المغرب
305	3 طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع
314	ثانيا : الجانب العسكري
314	1 نشأة الجيش في الدول المغربية
316	2 الترتب العسكرية
321	3 الجيش غير النظامي
327	ثالثا : الجانب الإقتصادي

327	1 ملكيات الأراضي
331	2 المحاصيل الزراعية
336	3 عوامل تراجع الإنتاج الزراعي في المنطقة المغربية
338	4 الصناعة
343	5 التجارة
349	رابعا : الجانب الاجتماعي
349	1 التركيبة السكانية للمنطقة المغربية
361	2 عادات و تقاليد
361	أ - الزواج
369	ب - المأتم
375	ت - مراسيم احتفال بالمولد الجديد
377	ث - المأكولات المغربية وعاداتهم
383	ج - المعتقدات الشعبية
387	ح - طريقة تحيتهم
388	خ - أخلاق المغربية
390	د - اللباس
393	خامسا : الجانب الديني
393	1 تدين المجتمع المغربي
396	2 مكانة القرآن الكريم عند المغربية
396	3 صوم رمضان
401	4 احتفال بالعيد
404	5 الصلاة
406	6 يوم الجمعة

فهرس الموضوعات

407	7 التسامح الديني
409	سادسا : الجانب الثقافي
409	1 التعليم
413	2 المساجد
416	3 الموسيقى
417	4 لغة السكان
418	5 الطب والأوضاع الصحية
419	5.1 الأوبئة
419	أ - الطاعون
422	5.2 الأمراض
422	أ - الجدري
423	ب - مرض التيفوئيد
424	ت - الملاريا
425	5.3 الممارسات الطبية والصحية في المجتمع المغربي
435	الفصل الرابع : دراسة نقدية للكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي
435	أولا : أساليب الكتابة لدى الكتاب الإنجليز
436	1 أسلوب الغرائبي
451	2 الأسلوب الخيالي
459	3 السخرية أو التهكم
464	4 الأسلوب الوصفي
468	5 الأسلوب السردى
471	6 أسلوب الهجانة
474	7 أسلوب المقارنة

فهرس الموضوعات

477	8 الدقة و الواقعية
480	9 أسلوب التناقض
483	ثانيا : منهجية العرض في المؤلفات الإنجليزية
483	1 العناوين
484	2 مناهج التدوين
486	3 أشكال المؤلفات
486	أ - كتب و مؤلفات في السيرة الذاتية
490	ب - مؤلفات على شكل الرسائل
492	ت - المؤلفات تاريخية و جغرافية
494	ثالثا : أهمية الكتابات الإنجليزية في التأريخ للمجتمع المغربي
500	رابعا : مصادر الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي
510	خامسا : دوافع الكتابات الإنجليزية حول المجتمع المغربي
510	1 الدوافع السياسية و العسكرية
513	2 الدوافع السياحية و الطبية
515	3 الدوافع العلمية
517	4 الدوافع الدينية
519	سادسا : دور الكتابات الإنجليزية كأداة سياسية وعسكرية في خدمة الاستعمار في الدول المغربية خلال القرنين 18م و 19م.
531	الخاتمة
551	الملاحق
570	قائمة الببليوغرافيا
603	فهرس الموضوعات

الملخص :

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل وتقييم الكتابات الإنجليزية التي تناولت المجتمع المغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، باعتبارها مصدراً مهماً لفهم التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة. وتكتسب هذه الكتابات أهمية خاصة كونها تقدم رؤية خارجية للمجتمع المغربي من منظور مؤلفين ينتمون إلى سياق ثقافي وحضاري مختلف.

وقد تنوعت مصادر هذه الكتابات بين تقارير القناصل البريطانيين، ومذكرات الرحالة، وكتابات الأسرى والتجار الإنجليز الذين أقاموا في المنطقة، إضافة إلى مراسلات الدبلوماسيين ورجال الدين. وتميزت هذه المصادر بتقديمها وصفاً تفصيلياً للحياة الاجتماعية في المدن المغربية الكبرى، مع تركيز خاص على العادات والتقاليد، والنظم الإدارية، والعلاقات الاجتماعية، والنشاط الاقتصادي، والحياة الثقافية والدينية.

كما تناولت هذه الكتابات بشكل مفصل طبيعة النظام السياسي في الأقطار المغربية، والعلاقات بين مختلف الفئات الاجتماعية، وأنماط العيش السائدة، والتحولات التي طرأت على المجتمع المغربي خلال هذه الفترة التاريخية الهامة. غير أن هذه المصادر تأثرت بشكل واضح بطبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية المتوترة بين بريطانيا والدول المغربية، وبالخلفية الثقافية والفكرية لمؤلفيها، مما يستدعي التعامل معها بمنهجية نقدية تأخذ بعين الاعتبار هذه المؤثرات.

الكلمات المفتاحية :

كتابات الإنجليزية - المجتمع المغربي - القناصل - الرحالة - الأسرى

Abstract:

This study aims to analyze and evaluate English writings that addressed Maghrebi society during the eighteenth and nineteenth centuries, considering them as important sources for understanding the social, political, and economic transformations that the region witnessed during this period. These writings acquire special importance as they provide an external perspective of Maghrebi society from authors belonging to a different cultural and civilizational context.

The sources of these writings varied between reports of British consuls, travelers' memoirs, writings of English captives and merchants who resided in the region, as well as correspondence from diplomats and clergy. These sources were characterized by their detailed description of social life in major Maghrebi cities, with special focus on customs and traditions, administrative systems, social relations, economic activity, and cultural and religious life.

These writings also dealt in detail with the nature of the political system in the Maghreb countries, relations between different social groups, prevailing patterns of life, and the transformations that occurred in Maghrebi society during this important historical period. However, these sources were clearly influenced by the tense political and economic relations between Britain and the Maghreb states, and by the cultural and intellectual background of their authors, which necessitates dealing with them using a critical methodology that takes these influences into consideration.

Keywords: English Writings, Maghrebi society, Consuls, Travelers, Captives